أندريه جيروليماتوس

قصور من الرمل

قرن من التجسّس والتدخّل الأنكلو-أميركي في الشرق الأوسط

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

قصور من الرمل



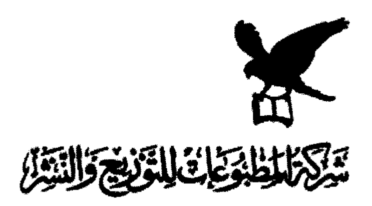
أندريه جيروليماتوس

قصور من الرمل

قرن من التجسّس والتدخّل

الأنكلو - أميركي في الشرق الأوسط





شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

Originally published as: **Castles Made of Sand: A Century of Anglo-American Espionage and Intervention.**

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-640-4

ترجمة: انطوان باسيل

تدقيق: محمد زينو شومان

تصميم الغلاف: أحمد راضي

الإخراج الفني: بسمة تقي

إهداء

إلى بيفرلي

لا نهاية أبداً لمغيبات الشمس الجميلة.



المحتويات

شكر

مثّل هذا المشروع رحلة فريدة في نوعها سمحت لي باكتساب نظرة ثاقبة إلى تاريخ عمليات الاستخبارات الأنكلو-أميركية المعقّد، والمأسوي أحياناً، ووقْعها على العالم الإسلامي الممتد من الشرق الأوسط إلى جنوب آسيا.

وإني أتحمل المسؤولية في حال قصّر هذا الكتاب في تحقيق أهدافه، كما أتحمّل مسؤولية أخطائي؛ لكن من دواعي سروري أن أشكر جميع من أعطوا من وقتهم ومن طاقتهم لتمكيني من إنجاز هذه الدراسة. وأنا، شأني دائماً، شاعر بامتنان وكيلي بيل حنّا عليّ بمساندته وتوجيهاته التي مكّنتني من الشروع في وضع كتب عديدة وإنجازها. وأودّ أيضاً أن أُعرب عن شكري لتوماس دون من «سانت مارتنز برس» لإيمانه بهذا المشروع ولروب كيركباتريك على اقتراحاته التحريرية الثاقبة وتعليقاته الثمينة.

وإني لشاكر لغراهام فوللر، نائب الرئيس السابق لمجلس الأمن القومي في السي.آي.إي، على تعليقاته المفيدة على أجزاء من المخطوطة. ومدين كذلك للبروفيسورين أميكام ناخماني وشلومو شبيرو من جامعة بار إيلان على مساعدتهما القيمة في الأبحاث بشأن إسرائيل. ووفّرت لي مساندة المجلس الكندي للأبحاث العلمية والإنسانية منحة سخية جعلت القيام بالأبحاث أمراً ممكناً.

ولما أمكن تحقيقُ الكتاب من دون مجموعة من الطلاب في جامعة سيمون فرايزر الذين ساعدوني بجدارة في مرحلة الأبحاث. وعملت فانيسا روكل وجوليان بروكز معي منذ البداية وانضمّ إليهما لاحقاً كل من أدريان أوسوليفان وكيلي هاموند وسيمون برات ولوسيا بترسن وإنبال نغبي. وإني أقدّر ماريا هاميلتون وترينا ماتيوس، من فريق برنامج الدراسات الهللينية، على مساعدتهما في المهمات الإدارية المتنوّعة.

وإني، في النهاية، مدين جداً لزوجتي، بيفيرلي، المحرّرة، ورفيقة العمر، والصديقة الفضلى، على صبرها وتشجيعها وإيمانها بي.

مقدّمة خاصة بالطبعة العربية بقلم المؤلف

يمثّل تجاهل الربيع العربي، وما يليه من شتاء عربي، في أي دراسة للجاسوسية الأنكلو-أميركية وللعمليات الخفيّة في المنطقة إغفالاً كبيراً. فردّة فعل الولايات المتّحدة وبريطانيا العظمى وباقي العالم الغربي، تُبرز في شكل كبير الدور المتزايد في الأهمية للجواسيس وللقوات الخاصة في منطقة أخذت تخرج سريعاً من متناول التدخل الأميركي والأوروبي المباشر. وحده الزمن سيخبرنا هل تجد الولايات المتحدة مصادر بديلة من النفط أو تبقى مجرّد متفرّج لا حول له ولا قوّة. بيد أنه لا يمكن، في المستقبل الفوري، تخيّل أن تتجاهل الولايات المتحدة الشرق الأوسط بخزّانه الضخم من النفط والغاز.

من المؤكّد أن الشرق الأوسط بقي حتى ١٩٥٦ عند الحدّ الاستراتيجي الخارجي للولايات المتحدة ولم توله واشنطن إلا اهتماماً محدوداً. وبات صانعو السياسة في أميركا، عقب الحقبة المباشرة لما بعد الحرب العالمية الثانية، على استعداد للتدخل، وإذا اضطرّ الأمر لإقحام جنودهم، دفاعاً عن أوروبا الغربية وشرق آسيا (باستثناء الصين). واقتصر الاهتمام الأميركي في الشرق الأوسط، على عكس الأوروبيين، على المبادرات الديبلوماسية والعمليات الخفيّة. إلا أن الشرق الأوسط لعب، بعد أزمة السويس والاعتماد المتزايد على نفط الخليج وغازه، دوراً حاسماً في أمن أميركا كما في أمن حليفاتها. وبالرغم من أن إدارات الولايات المتحدة ذمّت في البداية الاستعمار الأوروبي وطريقة قيام بريطانيا وفرنسا باستغلال الشرق الأوسط من خلال استخدام صنيعاتهما المحلّية، عادت واشنطن واعتمدت التكتيكات نفسها في مدى لم يتعدّ بعض السنين فحسب.

ساندت الإدارات الأميركية المتعاقبة الحكومات المتسلّطة الموالية للغرب

والديكتاتوريات المطلقة في الشرق الأوسط. وتجاهلت واشنطن، في الوقت نفسه، أو وقفت متفرّجة بعجز على إخفاق هذه الأنظمة في ردم هوّة التفاوت الاقتصادي المتزايد بين المؤسسات السياسية ومؤيديها من جهة وبين الملايين الذين تُركوا قابعين في الفقر المدقع.

أغمضت الولايات المتحدة عينها عن بلوى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا؛ وما حرّك في الأساس السياسة الأميركية في الشرق الأوسط هو التهديد السوفياتي الكامن، ومن بعده الإرهاب في إثْر انهيار الكتلة الشيوعية. وبناء على ذلك دار أمن واشنطن واستراتيجيتها الكبرى في الشرق الأوسط، قبل الحرب الباردة وبعدها، حول الحفاظ على روابط وثيقة مع تركيا وإسرائيل ومصر وباكستان ودول الخليج. واعتمدت السياسة الأميركية حيال المنطقة مبدأ الحفاظ على الوضع القائم.

في السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، حرك التونسي ابن السادسة والعشرين، محمد بوعزيزي، سلسلة من الأحداث لا تزال مستمرّة في تغيير الشرق الأوسط وفي إرباك السياسة الخارجية الأميركية. وبوعزيزي بائع جوّال فقير صادرت الشرطة عربته الملأى بالمنتوجات، ثم ضربته بوحشية في العلن. ولما فشل الشاب في الحصول على العدالة، أو في أن يحظى حتى بمقابلة من الحاكم، يئس وأشعل النار في نفسه احتجاجاً على المعاملة التي لقيها من السلطات المحلّية.وقد يُعزى الأمر إلى الهجوم الاعتباطي المحض على بائع بسيط أو إلى كونه فضح السلطة المطلقة للنظام، إلا أن الحادثة أشعلت الاضطرابات في بلدة بوعزيزي ثم سرعان ما عمّت أنحاء تونس كافة. ولمّا يمضِ وقت طويل على ذلك حتى اندلعت تظاهرات مشابهة في مصر والبحرين وليبيا وسوريا واليمن والأردن وإيران والجزائر والمغرب وقطر والسعودية – أي عمليّاً في مختلف أنحاء الشرق الأوسط.

تردّدت الإدارة في البدء وقد فاجأها حجم الاحتجاجات المصرية التي طالبت بالديمقراطية وبالحقوق المدنية، إلا أن الرئيس أوباما طلب في مآل الأمر من حسني مبارك التنحّي. وبعد ذلك بحوالى ثلاثة أشهر، شارك حلف شمال الأطلسي (الناتو)

بقيادة الولايات المتحدة في الحرب الأهلية في ليبيا – وهي نتيجة ثانوية للربيع العربي وقد أسقطت ديكتاتورية القذّافي المستمرة منذ نصف قرن.

إلا أنه، وفي أعقاب انتفاضات الشرق الأوسط، وإذا استثنينا سوريا، لم تشهد غير تونس وليبيا تغييراً سياسيّاً مؤثّراً. ولا يزال الجيش متمسّكاً بالسلطة في مصر سوى أن الأحزاب الإسلامية حصلت على الغالبية البرلمانية في انتخابات ٢٠١١-٢٠١٢. والسؤال الحرج بالنسبة إلى واشنطن هو كم سيبقى الجيش المصري في موقع السيطرة على الأحداث – إذ من شأن حادثة صغيرة ان تُطلق العنان للإحباطات من السرعة البطيئة التي تسير بها الإصلاحات الديمقراطية ومن الاقتصاد المتعثّر، وتعيد إشعال ثورة جديدة.

تصب الانتخابات الديمقراطية التي تجرى في أماكن أخرى من الشرق الأوسط في مصلحة الأحزاب الإسلامية – فقد حقق كلّ من الوسطيين مثل حزب العدالة والتنمية التركي، أو التنظيمات الأكثر تشدّداً مثل الإخوان المسلمين أو حتى متطرفين مثل سلفيي مصر مكاسب مذهلة. وقد أخذ التمرّد المتصاعد في سوريا في التوسّع إلى حرب أهلية شاملة قد تؤدّي إلى إسقاط نظام بشار الأسد. إلا أنه من المرجّح، في هذه الحال، أن أي حكومة انتقالية ستُستبدل في العملية الديمقراطية بحكومة إسلامية.

تواجه الولايات المتحدة صعوبة في كيفية التعامل مع مثل هذه التغييرات المثيرة، التي يُحتمل أن تكون ثورية، في الشرق الأوسط. وعلى عكس حالة ليبيا حيث أدى استخدام القوة الجوية والقوات الخاصة إلى إنهاء نظام القذّافي، فإن دولاً مثل سوريا تتكامل مع قوى عظمى أخرى مثل روسيا والصين. فللروس، بفضل العلاقة الطويلة مع آل الأسد، قاعدة بحرية كبيرة في طرطوس إضافة إلى استثمارات كبرى في البلاد ولن يخاطروا بسهولة في الاضطرار إلى التفاوض مع حكومة جديدة في دمشق.

أخذ الشرق الأوسط يتحوّل بثبات، بالنسبة إلى الأميركيين، إلى لغز يقضي سريعاً على أنظمة مدينة للولايات المتحدة وحليفاتها؛ أو أقلّه فإن هذه الأنظمة

أخذت وحسب تصبح أقل وثوقاً. وبالفعل، وحتى قبل الربيع العربي، أخذت العلاقة الأميركية الطويلة الأمد مع تركيا، وهي ربّما أقوى حليف للولايات المتحدة في المنطقة باستثناء اسرائيل، في التراجع الكبير. وبدأت علامات الانهاك في آذار/ مارس ٢٠٠٣ عندما رفض البرلمان التركي وكذلك حكومة حزب العدالة والتنمية المنتخبة حديثاً (انتخبت في ٢٠٠٢) السماح بعبور القوات الأميركية الأراضي التركية لمهاجمة شمال العراق في مستهل حرب الخليج الثانية في آذار/مارس ٢٠٠٣.

وباتت، بعد ذلك، العلاقات الأميركية ـ التركية متقلّبة في أفضل الأحوال خصوصاً بعدما قطعت تركيا روابطها بإسرائيل في ٢٠١١ (اقتحم الكوماندوس الإسرائيلي في ٢٠١٠ السفينة التركية «مافي مرمرا» ما سبّب قطيعة بين تركيا وإسرائيل). وأضحت أميركا، مع صوغ هذه القوى للشرق الأوسط، أقل قدرة على التدخّل المكشوف في هذه المنطقة المتقلّبة. ففي سياق الانتفاضة السورية، على سبيل المثال، تقف الولايات المتحدة والناتو والجامعة العربية والأمم المتحدة عاجزة فيما يعمد نظام بشّار الأسد في شكل منهجي إلى قتل شعبه. وحدها تركيا اتخذت المبادرة في لعب دور تدخّلي في سوريا. غير أن أنقرة تعمل لوحدها وليس نيابة عن الولايات المتحدة أو بوصفها حليفة لها – وهو واقع لم يغب عن شعب الشرق الأوسط أو عن العالم الإسلامي في شكل عام.

أضف إلى ذلك أن حروب أميركا في العراق وأفغانستان قد أبرزت فشل الولايات المتّحدة في السيطرة على بيئة ما بعد الحرب في كلا البلدين – انتصرت الولايات المتحدة في المعارك لكنها خسرت الحرب بمعنى أن الوضع القائم ما قبل الحرب عاد سريعاً إلى تأكيد نفسه في كلا العراق وأفغانستان. وفيما أمكن الولايات المتحدة في الماضي التدخل في الشرق الأوسط بالتنسيق مع الحلفاء الإقليميين أو من خلالهم (كما من خلال قوة عسكرية ضخمة)، فإنه لم يعد في إمكانها القيام بذلك مستقبلاً إلا من خلال عمليات جراحية محدودة تشنّها القوات الخاصة. وستشكّل العمليات الخفية والاستخبارية، في المستقبل المنظور، المدى الذي ستسقط فيه أميركا قوتها في المنطقة.

المقدّمة

تحتلّ عمليات الاستخبارات الأنكلو-أميركية مكانة فريدة في تاريخ الشرق الأوسط والسياسات الإسلامية. وقد عمل عدة ضباط مخابرات، بريطانيين أوّلاً ومن ثم أميركيين، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، محفّزين لأحداث غيّرت المنطقة إلى الأبد. وكان رجال (وبضع نساء) في الأجهزة الخفية، في خلال الحقبة الاستعمارية، من القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، جزءاً حاسماً من آلية السيطرة التي مكّنت الأمبراطورية البريطانية من حكم الشرق الأوسط وجنوب آسيا بالعدد الأقل من القوات العسكرية. واقتضت طريقة السيطرة التي تبناها البريطانيون، ومن بعدهم أيضاً الأميركيون، استغلال الإسلام كحليف للإبقاء على هيمنتهم على المنطقة.

وقد ترافق رحيل الاستعمار السريع بعد الحرب العالمية الثانية، مع إزاحة القومية العربية للأنظمة الملكية الفاسدة في الشرق الأوسط (ليعود الحُكّام العلمانيون إلى الانغماس لاحقاً في الفساد نفسه). ومثّل التغيير السريع تحدّياً لكيفية رؤية لندن وواشنطن إلى التطورات المستقبلية في الشرق الأوسط وإلى طريقة تعاطيهما مع المشاكسين السوفيات المستعدين لبسط هيمنتهم على المنطقة. غير أن حلفاء زمن الحرب، بالرغم من العلاقة الأنكلو-أميركية الخاصة، لم يتشاركوا في مقاربة واحدة للتعاطي مع شرق أوسط ما بعد الاستعمار. حاول البريطانيون، ومعهم الفرنسيون والإسرائيليون، استخدام القوة العسكرية المحض لفرض إرادتهم على مصر جمال عبد الناصر واستعادة السيطرة على قناة السويس، إلا أن هذا الجهد انتهى إلى فشل ذريع بعدما دانت الولايات المتحدة هذه العملية.

عارض الأميركيون الاستعمار وثارت ثائرة الرئيس دوايت أيزنهاور على أزمة

السويس الفادحة، ومع ذلك حاولت السي.آي.إي. تطبيق «عملية التشتيت» لقلب الحكومة في سوريا. ليتبيّن بالتالي أن واشنطن لم تعارض التدخّل في الشرق الأوسط، بل الأحرى عارضت آليات هذا التدخّل. فقد فضّلت أميركا استخدام العمليات الخفية مع ميل إلى الانقلابات التي يقوم بها أحد صُنُعِها الإقليميين المفضّلين. غير أن الفضح المتكرّر للانقلابات الفاشلة التي قامت بها السي.آي.إي. جعل من السرّية موضع سخرية بعدما عرّى التدخّل الأميركي. وساد عواصم معظم بلدان الشرق الأوسط مناخ مؤامرة معلّقة تتوقّع دسائس أميركية، خصوصاً العواصم التي تتبع إما سياسة الحياد وإما تحتفظ بعلاقات حارة مع الاتحاد السوفياتي. فقد مثّل عدم الانحياز وعدم تلبية المصالح الأميركية الاستراتيجية والاقتصادية ضمانة للتدخّل الأميركي من خلال السي.آي.إي.

وأدت الجهود الأميركية (بالتنسيق أحياناً مع البريطانيين) إلى تغيير النظام في سوريا، ليؤول الأمر إلى ترسيخ ديكتاتورية حافظ الأسد وإلى توسّع النفوذ السوفياتي في دمشق كما في القاهرة. واتّبعت السياسة الأميركية، ولكن ليس بهذا القدر الملحوظ، الدورة نفسها من الانقلابات والانقلابات المضادة في العراق التي أفضت إلى ديكتاتورية صدّام حسين.

بقي دور أجهزة الاستخبارات البريطانية والأميركية في الشرق الأوسط غامضاً نسبياً بعد الحرب العالمية الثانية حتى ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وربطت المخيّلة العامة بين الجواسيس العاملين في السي.آي.إي. أو في أم.آي٦ وبين العمليات ضد الاتحاد السوفياتي في أوروبا، وفي درجة أقل في أميركا الجنوبية، ولم تربط بينهم وبين أحداث في الشرق الأوسط أو جنوب آسيا إلا نادراً.

اقتصر الاهتمام بالشرق الأوسط عموماً على إمدادات النفط وسعر الغازولين، يقطعه بين فترة وأخرى عملية خطف طائرة تقوم بها منظمة التحرير الفلسطينية واستفظاع للإرهاب في إسرائيل. وحصلت استثناءات، مثل تلك التي انتقل فيها الشرق الأوسط إلى واجهة الأحداث عندما اختطف متطرفون مسلمون في لبنان في

الثمانينيات ديبلوماسيين أميركيين وضباطاً في السي.آي.إي. واستحوذ على تركيز الجمهور مأساة الرهائن الأميركيين في طهران، التي استمرت ٤٤٤ يوماً، وفشل السي.آي.إي. والقوات الخاصة الكارثي في القيام بعملية إنقاذ؛ لكن ذلك تلاشى بعد إطلاق الرهائن. واحتل الشرق الأوسط، لفترة وجيزة، العناوين الرئيسية في مستهل حرب الخليج الأولى، لكن ذلك تلاشى أيضاً بعد النهاية الناجحة للنزاع.

يمثّل الشرق الأوسط، وبالتأكيد جنوب آسيا، في الواقع التحدي الأكبر للأمن الغربي والمشكلة الكبرى للاستخبارات السرية الأنكلو_أميركية. وربما مثّلت برلين والكتلة الشرقية خلفية للحرب الباردة، بيد أن القاهرة والقدس وبيروت ودمشق والحدود الشمالية الغربية تتطلب اهتمام السي.آي.إي.والأم.آي٦ والأجهزة الوارثة للكا.جي.بي.

وستبقى مأساة ٩/١١ وجلاء خطاب أسلحة الدمار الشامل، اللذان تصاعدا ليصلا إلى الحرب على الإرهاب التي سبقت حرب الخليج الثانية في آذار/مارس ٢٠٠٣، يرشحان من مفاهيم الشرق الأوسط. وأصبح صدّام حسين، في سياق النزاعين، عفريت المنزل والشخصية المركزية في الحرب على الإرهاب. وبالفعل سرعان ما أبطل العدو الجديد في العراق الانتصار الأميركي القصير المدى في أفغانستان.

لم يكن صدّام حسين المؤبلس إلا واحداً من سلسلة من الرجال الأقوياء والديكتاتوريين في الشرق الأوسط ممن تودّد إليهم، بحسب الظروف، البريطانيون والأميركيون في البداية ليشنّعوهم لاحقاً. وتم بالفعل تحريك الخطوات الأولى المفضية إلى ٩/١١ عندما شرع الأميركيون في الخمسينيات في مغازلة التنظيمات الإسلامية بغية القضاء على القومية العربية. وفي هذا السياق يعكس نوع البعبع الذي وُصف به صدام حسين صورة المواقف الأميركية من عبد الناصر في الخمسينيات. واللافت في الأمر أن الرجلين كانا حليفين صريحين للولايات المتحدة ويدينان، بدرجة كبيرة، بوصولهما إلى السلطة إلى دسائس السي.آي.إي.

بيد أن حسين وناصر ليسا، في مآل الأمر، سوى اثنين في استعراض الشخصيات

التي أخرجتها انتفاضات العالم الإسلامي في ما بعد الحقبة العثمانية. وأدى بالفعل أفول الإمبراطورية العثمانية وانتهاء الخلافة إلى زعزعة استقرار المركز الروحي للطائفة الإسلامية السنّية. ومن سخرية الأمور أن كلاً من أجهزة الاستخبارات الأميركية وأتباع الإسلام السياسي، ولمصالح متباينة، شرع في محاولة لإيجاد بديل مناسب. وما يتبع يشكّل محاولة متواضعة لإخبار قصة جهود المجتمع الاستخباري الأنكلو ـ أميركي لإيجاد بديل موثوق للخلافة بغية احتواء القومية وغيرها من الزعامات غير المرحّب بها التي تحرّك العالم الإسلامي.

يركّز هذا الكتاب على تاريخ مؤسسات الاستخبارات البريطانية والأميركية والمنظمات الإسلامية التي حاولت استغلالها. وبالرغم من عدم إمكان إجراء دراسة مفصّلة لكل دول العالم الإسلامي بسبب النقص في المصادر، فإن بعضها، مثل مصر والجزيرة العربية وإسرائيل وسوريا وإيران ومنطقة جنوب آسيا، يوفّر دراسات حالة تاريخية ممتازة لفهم العلاقة بين مجتمعات الاستخبارات الأنكلو ـ أميركية والإسلام. وتمثل هذه الدراسة رواية للأحداث التاريخية التي حفّزت، إلى حد كبير، ٩/١١ وتداعياتها في العراق وأفغانستان.

ملاحظة حول المصادر

يمكن للكتابة عن تاريخ الاستخبارات على أساس سجلات الأرشيف أن تمثّل ممارسة من الإحباط المحيّر. وليس بمفاجئ بالطبع أن ترغب الحكومة الأميركية في إخفاء وثائق قد تربط أجهزة الاستخبارات الغربية بمجموعات أصولية إسلامية عقب أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ومع ذلك وُصفت درجة إعادة تصنيف الوثائق المتعلقة بالاستخبارات بأنها مفرطة.(١)

ومن الأمثلة على ذلك، التجربة التي خاضها اثنان من الباحثين لديّ في ربيع ٢٠٠٦ لدى بحثهما عن ملفات تتعلق بما يحكى عن اتصالات قامت بها الأو.أس.أس. والسي.آي.إي. مع تنظيمات إسلامية راديكالية. فقد اكتفى مسؤول الأرشيف في السي.آي.إي. بالضحك عندما أبلغاه بمشروعهما، وقال: إن هذه الملفات محفوظة ولا يمكن الوصول إليها. ويتوافر في الواقع أرشيف رقمي للسي.آي.إي. من خلال قاعدة بيانات حاسوبها «كريست»، لكن تم تعقيم الكثير من هذه الملفات التي رُفعت عنها السرّية.

وأسفر بحثي، مثلاً، عن ضابط في السي.آي.إي. ذُكر أنه التقى في صفة منتظمة مؤسس الإخوان المسلمين حسن البنّا عن بعض التفاهات مثل تلقي الدعوة إلى حفلة تقاعد العميل. ولم يكن عامل الأرشيف في وزارة الخارجية أكثر تشجيعاً فقد اقترح بأن الوسيلة الفضلى هي في البحث عبر ملفات الوزارة في المناطق الجغرافية ذات الصلة على أمل التمكّن من العثور على وثيقة فوّتها المراقبون. وقد كشفت هذه الاستراتيجية عن بعض النوادر المثيرة للاهتمام وبعض الأدلة الظرفية، غير أنها لم

(١) Matthew M. Aid, "The Secret Reclassification Program," Organization of American Historians Newsletter 34 (May 2006), http://www.oah.org/pubs/n1/2006may/aid.html (accessed December 2, 2009).

تسفر عن توثيق يوفّر دليلاً حسّياً على الروابط بين عملاء الاستخبارات والمناضلين المسلمين.

فرض الأمر التنفيذي رقم ١٢٩٥٨ الذي أصدره الرئيس بيل كلينتون في ١٩٩٥ إعطاء الإذن بنشر كل سجلات الحكومة الأميركية التاريخية المحفوظة بعد مرور ٢٥ عاماً عليها. غير أنه، بفضل جهد ضابط وكالة الأمن القومي السابق ماثوي م. أيد، أصبح معروفاً للملأ، في ٢٠٠٦، أن مختلف الوكالات الحكومية الأميركية انخرطت في مشاريع إعادة تصنيف واسعة النطاق. ولم يمكن في الحقيقة، بفعل مقاومة السي.آي.إي. وغيرها من وكالات الاستخبارات الأميركية للقرار التنفيذي ١٢٩٥٨، إلا إعادة تصنيف ١٤٠٠ وثيقة ما بين ١٩٩٩ و٢٠٠٠. غير أن برنامج إعادة التصنيف حاز التأييد في ظل إدارة جورج و. بوش وتم توسيعه. وقد تم تكثيفه بعد أحداث ٩/١١ التي أدت إلى إعادة النظر في القرار التنفيذي ١٢٩٥٨. وأعيد، منذ ٢٠٠١، تصنيف نحو ٩,٥٠٠ وثيقة، وغالباً ما جرى ذلك على طريقة البيع بالجملة. ويتعلّق الكثير من هذه الوثائق باستخبارات تعود إلى الحرب العالمية الثانية.[١]

وإذا كان الأميركيون يميلون إلى قطع الرُقَع بالسيف، فإن المراقبين الإنكليز يميلون إلى العمل بالمبضع. وهناك الكثير من الملفات التي رُفعت عنها السرّية في الأرشيفات البريطانية تتعلق بمواضيع ذات فائدة محتملة لمؤرخي الاستخبارات. ويعود الفضل في تحرير مثل هذه الملفات في خلال التسعينيات إلى مبادرة والدغريف التي أُطلقت في ١٩٩٢ من أجل نشر المزيد من الوثائق للعامة. ودعا مؤرّخ الاستخبارات البارز ريتشارد ألدريتش هذه المبادرة بالـ«نجاح اللائق» من حيث كمية المواد التي تمّ تحريرها.[٢] ويشير ألدريتش إلى اختراقات كبرى مثل نشر السجلات المتعلقة بعمليات الاستخبارات البريطانية المحققة في العلم العسكري في

(١) المصدر السابق.

(٢) Richard J. Aldrich, “Did Waldegrave Work? The Impact of Open Government upon British History,” Twentieth Century British History 9, no. 1 (1998), http://tcbh.oxforjournals.org/cgi/reprint/9/1/111 (accessed December 2, 2009).

بلدان حلف وارسو في إبان الحرب الباردة، لكن لا يزال الوصول إلى مجالات أخرى أكثر تعذّراً. والمسألة، كما اكتشف ذلك الباحثون لديّ، لا تتعلق في الغالب بملف محجوب، بل بما تم من «انتزاع الأعشاب الضارة» من وثائقه الأساسية التي قد تحمل دليلاً حيوياً. ويمكن لعملية الانتزاع، بحسب ألدريتش، أن تكون من نوعيات مختلفة، وتتضمّن منتزعي الأعشاب الضارة الذين لا يعرفون الكثير عن المادة التي يعملون عليها أو عن مجال الموضوع في شكل عام.[1]

وهناك منتزع أعشاب يمتلك الكثير من الخبرة هو ج. ر. غرين من مكتب رئيس الوزراء. وقد تطرقت معالجة السيد غرين لسجلات مكتب رئيس الوزراء لعدد من الملفات ذات الصلة بهذه الدراسة. أزيل بعض الوثائق من الملفات، فيما أتلف بعضها الآخر. فقد أزيل، على سبيل المثال، نحو ٢٩ وثيقة من سجلات مكتب رئيس الوزراء رقم ٥١٥/١١ – تتعلق بإيران في الأشهر التي سبقت الانقلاب الأنكلو-أميركي في ١٩٥٣.وقد تم، باعتراف الأرشيف الوطني البريطاني نفسه، تهذيب شديد للكثير من سجلات جهاز الأمن المنشورة حديثاً. ويحتوي معظم هذه الملفات على نسخ مصوّرة؛ كما تحتوي بعض الصفحات على كلمات طُليت بالأسود.

وبالرغم من الإعاقات ومن جهود أمثال السيد غرين والسي.آي.إي. ومحطّيّ بوش، نجا ما يكفي من الوثائق التي بجمعها مع اليوميات والسّير الذاتية وسير الأشخاص وتواريخ المنطقة سمحت لهذا المؤرّخ بأن يجمع تاريخ الاستخبارات الأنكلو- أميركية في الشرق الأوسط. وثمة مصادر أخرى؛ إلا أنني أفضّل حجب مثل هذه المعلومات عن مقتلعي الأعشاب الضارة في أرشيفات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. وأنا مدين، بالرغم من هذه العقبات، لموظفي الأرشيف الوطني في ميريلاند وكيو على مساعدتهم على الخوض في آلاف الوثائق. وأودّ، على غرار الكثيرين من الباحثين، لو أن جون تايلور، الرائد في البحث الأرشيفي الذي قادني في المرحلة الأولى من هذا العمل، بقي حيّاً ليرى نشر هذا الكتاب.

(١) المصدر السابق.

توطئة

روايات من البازار

يجلس الحكواتي على سجّادة رثّة فُرشت على سخام الأرض وغبارها عند تخوم البازار.[1] يستحوذ على مستمعيه بروايات عن الحرب والدسيسة والخديعة في عصر ذهبي مضى. وهو يمثّل، في البازارات المتواضعة للمدن الصغيرة والأحياء المنزوية في المدن الكبرى، صلة الوصل بين الماضي والإقامة القصيرة لهارب متواضع من الواقع يمكنه الاستغناء عن قطعة نقود أو اثنتين. وقد يمتلك الكهنة والموالي روح المؤمنين، لكن مؤرّخ الشارع هذا يستحوذ على مخيلتهم - ولو لفترة وجيزة وحسب.

يفتقر رجل مثل حكواتينا إلى المهارات العملية لضمان وظيفة له في المدن أو في القرى وينتقل من مكان إلى آخر محاولاً تحصيل لقمة عيشه على هامش المجتمع. وأمثاله من الرجال في البلقان هم من الغجر الذين يعيشون حياتهم متنقلين من مدينة إلى أخرى ويعبرون بسهولة، دخولاً وخروجاً، حدود الدول.

لا ينتمي حكواتيو الشرق الأوسط إلى القبائل البدوية التي انتقلت عبر الصحارى على مدى قرون. وهم على أي حال أكبر سنّاً وأكثر إرهاقاً من أن يشاركوا في الغارات العقابية سعياً وراء الغنائم أو الثأر. وحكواتينا غير ملائم أيضاً لعشرات

---

(١) البازار هو سوق تستضيف مراكز نشاط اجتماعية وثقافية ودينية وسياسية. وبهذا المعنى يشبه البازار الـ«أغورا» الأثينية القديمة التي شكّلت نوعاً من المحور للمجتمع اليوناني وبقي نقطة التقاء حتى منتصف القرن العشرين. إلا أن بازار الشرق الأوسط يؤدي أيضاً دور المنتدى السياسي. وبحسب محمود عبدالله زاده في «المعنى السياسي للبازار في إيران» "The Political Significance of the Bazaar in Iran," in Technology, Tradition and Survival: Aspects of Material Culture in the Middle East and Central Asia, ed. Richard Tapper and Keith McLachlan (London: Frank Cass, 2002), ٢٣٤-٣٥, استُخدم البازار أيضاً واسطة فعالة للاتصال والتعبئة الاجتماعية.

الجمعيات السرّية والمنظمات شبه العسكرية التي تتحدّى السلطات المحلّية في السيطرة على الشارع. كلا، بل إن ساحر الروايات هذا شخص مستوحد، يستخلص رواياته من نظريات المؤامرة المتنوعة التي اكتسبت شرعيتها عبر الزمن ومن خلال التكرار المحض ومن الروايات التاريخية التي رشحت من الأساطير والخرافات. بيد أن الحكواتي يحكم سعيداً في السوق، لبرهة وجيزة من الزمن، بالرغم من الأخطاء والتفسيرات الملتوية للماضي.

يتجمّع الحشد الصغير فيستعدّ الحكواتي للشروع في أدائه. ينقل وزن جسمه ويقبع، وقد شبك ساقيه، في وضعية مريحة. موضوعه الحروب الصليبية، لكن المهمّ أن روايته، التي يجمعها من أجزاء من التاريخ والأسطورة ونظرية المؤامرة، ستشدد على أن نجاح الجيوش الغربية ليس إلا انتصاراً حقيراً حصل بالحيلة والخديعة السرّية والقوة الوحشية التي يعجز عنها الوصف. ويحدّق لبرهة إلى الوجوه التوّاقة الشابة والوجوه المُترقّبة لكبار السن الذين تحلّقوا في حشد صغير حوله. يأخذ جرعة عميقة من هواء المساء المنعش ويبدأ روايته بصوت عذب هادئ يمتزج بالحنين إلى الماضي.

صادفتُ في أواخر الخمسينيات مثل هذا الحكواتي في بازار صغير في ضواحي أثينا. أسر مستمعيه بحكايات مأسوية، مروّعة ومطوّلة عن الحروب الصليبية. كان غجرياً وكان البازار في ذلك الوقت شائعاً في اليونان كما هو اليوم في بعض أنحاء الشرق الأوسط. وما راعني هو أنه استخدم الحملات الصليبية موضوعاً لرواياته وافترض أنه بتفصيله فظاعات المسيحيين الغربيين في حق المسلمين سيجد موضوعه هذا صدى لدى المستمعين الأرثوذكس الشرقيين. وهو لم يكن بعيداً جداً عن ذلك أقله في ما اختص بالحملة الصليبية الرابعة.

في المرجل المعقّد لخرافات البلقان وأساطيره، تبقى استباحة الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية في ١٢٠٤ إرثاً مريراً ومؤلماً. وعلى هذا الأساس تتعاطف الأرثوذكسية الشرقية مع المسلمين عندما يتعلّق الأمر بالحملة الصليبية الرابعة؛ ويُصوَّر الصليبيون على أنهم آفة الحضارة بالنسبة إلى الفرنج (الاسم العام للصليبيين).

تطرّق الحكواتيّ أيضاً إلى موضوع مهم آخر اجتذب مستمعيه – وهو مفهوم خوض الحرب ضد قوة متفوقة من خلال الخديعة والدهاء والتجسس والدسيسة. ويتجهّم معظم الثقافات عموماً حيال دور الجاسوس والمخرّب الذي يعدّ غير جدير بكرامة المحارب العسكرية، بالرغم من أن معظم المجتمعات ترى، ولا يزال ترى، أن اللجوء إلى الحرب السرّية أمر مقبول في زمن الهزيمة والاحتلال الأجنبي.[١] ويتم في الشرق الأوسط نشر مثل هذه الروايات (إلى جانب غيرها) عن الخداع والجاسوسية والحيلة عبر الثقافة غير الرسمية الموجودة (وتستمرّ في الوجود) بعيداً عن أعين السلطات الساهرة.

وتشكّل ساحة السوق في الشرق الأوسط، على غرار البازار في أثينا الذي عمل من دون إجازة رسمية، مكاناً لبث الأفكار الخام والمعلومات التي تنتقل من الفم وتوفّر لبنات الخرافة والأسطورة. ويتغذّى «الشارع العربي»، أي الجماهير المجهولة التي تمثل فقراء المدينة، بإعادة رواية مجموعة متنوعة من القصص، بما فيها روايات الصليبيين، جنباً إلى جنب مع جرعات وافرة من نظريات المؤامرة. وتلقّى مفهوم الحملات الصليبية بوصفها مؤامرة غربية كبرى زخماً جديداً عند نهاية القرن العشرين بعدما أعلن الرئيس جورج هـ. و. بوش في ١٩٩٠ «النظام العالمي الجديد».

وكتب دانيال بايبس، المثير للجدل، أنه بالرغم من إشارة بوش إلى شرق أوسط ما بعد الحرب الباردة، «تم، على نطاق واسع، فهم العبارة على أنها تؤشّر إلى

(١) كان مبدأ التقيّة (شكل من أشكال الخداع والسرية والحيطة والحذر)، بمعناه الواسع، وخصوصاً عند الإسلام الشيعي، مقبولاً تاريخياً في أزمنة الشدّة. واعتُمدت التقية بالتحديد في الإنكار الوقائي للمعتقد الديني في مواجهة الاضطهاد المحتمل. والتقية ليست محصورة بالشيعة إلا أنهم اعتمدوها في الأساس بعد تعرّضهم للاضطهاد على يد السنة. أنظر "Taqiyah," The Oxford Dictionary of Islam, ed. John L. Esposito (Oxford: Oxford University Press, 2003), 314. وبحسب كتاب برنارد لويس «الحشاشون: طائفة إسلامية راديكالية» Bernard Lewis, The Assassins: A Radical Sect in Islam (London: Weidenfeld & Nicolson, 2001), 25 فإن التقية تدلّ على عقيدة إسلامية تعفي المؤمن من ممارسة بعض الفرائض الدينية.

خطة 'الولايات المتحدة، سيدة العالم الجديد' لبسط هيمنتها على العالم بأسره»[١]. ومن هنا تشير المفاهيم في الشرق الأوسط إلى «النظام العالمي الجديد» بوصفه دليلاً إضافياً إلى سياسة «سحق الإسلام وشعبه» وإلى «خطة يهودية لإنشاء إسرائيل الكبرى وإلى 'الروح الصليبي المسيحي»[٢].

بيد أن نظرية المؤامرة هذه تمثّل حصيلة ثانوية لإرث الصليبيين الذي استمرّ صداه في التردد في المنطقة منذ نهاية القرن الثالث عشر. وأشارت كارول هيللنبرند إلى ملاحظة الباحث الإسلامي المرموق أكبر أحمد وفحواها:

> تتلبّث ذاكرة الحملات الصليبية بالشرق الأوسط وتصبغ المفاهيم الإسلامية للغرب. وهي ذاكرة أوروبية عدوانية، متخلّفة ومتعصبة دينياً. وستتعزّز هذه الذاكرة في القرنين التاسع عشر والعشرين مع مجيء الإمبرياليين الأوروبيين من جديد لإخضاع الشرق الأوسط واستعمار أقاليمه. ومن سوء الحظ أن معظم الأوروبيين يتغاضون عن إرث المرارة هذا عند تفكيرهم في الحملات الصليبية.[٣]

ويردّد باحث آخر، هو أمين معلوف، صدى مشابهاً لهذه المشاعر:

> غالباً ما يثير الدهشة اكتشاف المدى الذي يستمرّ فيه موقف العرب (المسلمين عموماً) من الغرب متأثراً، حتى اليوم، بأحداث يُفترض أنها انتهت منذ سبعة قرون مضت.

واليوم، وعشية الألفية الثالثة، يرجع زعماء العالم العربي السياسيون والدينيون باستمرار إلى صلاح الدين وإلى سقوط القدس واستعادتها. ويُنظر إلى إسرائيل، في الذهن الشعبي وفي بعض الخطاب الرسمي أيضاً، بوصفها دولة صليبية

(١) Daniel Pipes, The Hidden Hand: Middle East Fears of Conspiracy (New York: St. Martin's Press, 1996), 110.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Akbar S. Ahmed, Living Islam: From Samarkand to Stornoway (London: Penguin, 1995), 76); quoted in Carole Hillenbrand, The Crusades: Islamic Perspectives (Edinburg: Edinburg University Press, 1999), 590.

جديدة.... وقورن عبد الناصر بانتظام في عزّ مجده بصلاح الدين بعدما وحّد سوريا ومصر – بل حتى اليمن! ورأى العرب في الحملة على السويس في ١٩٥٦ حرباً صليبية يشنّها الفرنسيون والإنكليز شبيهة بحرب ١١٩١.[١]

وفي الآونة الأخيرة، استخدم أسامة بن لادن تكراراً تعبير «الصليبيين» و«الحروب الصليبية» في تشخيصه للغرب ولدوره في الشرق الأوسط. غير أن الرئيس جورج و. بوش هو الذي ربط، عن غير قصد، الحملات الصليبية بالحرب السرّية على المتطرفين والمتعصّبين في العالم الإسلامي. ففي خطاب عن السياق المستقبلي للتحرّك الأميركي ألقاه بعد ثمانية أيام على ٩/١١، وصف بوش الحرب على الإرهاب (ما سيتألف أساساً من سلسلة من العمليات الاستخبارية والسرّية) على أنها «حملة صليبية» على الإرهاب، مستحضرا بذلك، وعن غير قصد، شبح نزاع ديني، ودنيوي أيضاً، مع الإسلام.

وهذا ليس ربّما بالمفهوم الدخيل. فالحملات الصليبية تستمرّ في إلقاء ظلها الطويل على الشرق الأوسط وبطريقة لا يمكن تفسيرها. ورشحت هذه الحروب «المقدّسة» بين الشرق والغرب من نظرة أجيال من المسلمين إلى الغرب. وتزيد من تعزيز هذه المفاهيم، في زمننا الحاضر، مقتضيات الحرب على الإرهاب التي تُشنّ بوسائل سرّية في العالم والموجّهة أساساً ضد المسلمين، إضافة إلى النزاعات في ساحتي العراق وأفغانستان.

ويُشن هذا النزاع أساساً، على غرار الحملات الصليبية، من خارج قواعد الحرب. ومهما بلغ سوء سمعة الحروب الصليبية فإنها خضعت على العموم لمجموعة من التنظيمات الذاتية تقيّدت بها دول الغرب المحاربة. وقد انبثقت من قانون الفروسية في القرون الوسطى، إلا أنها لم تنطبق إلا على الرفاق المسيحيين. وصُمّم ميثاق جنيف في القرن العشرين، من جهة أخرى، للحرب التقليدية ولم يضع أحكاماً

(١) Amin Maalouf, The Crusades Through Arab Eyes, trans. Jon Rothschild (London: Al Saqi, 1984), 265.

للعمليات الخفية أو للتجسس.[١] وهكذا، وفي هذا السياق، تشكّل الحملات الصليبية والعالم المظلم للعمليات الخفية نزاعات تُشن من دون العودة إلى أي أحكام دولية.

أصبح كل من أجهزة الاستخبارات الأنكلو-أميركية واستخبارات دول المحور (أعقبها السوفيات لاحقاً)، في القرنين العشرين والواحد والعشرين، نقطة الاتصال بين الغرب والقوميين والمجموعات الإسلامية المجاهدة أو أي راديكاليين آخرين في الشرق الأوسط. وأوجدت الحاجة في الحربين العالميتين الأولى والثانية زخماً في العلاقة السرّية بين أجهزة استخبارات بريطانيا العظمى (والولايات المتحدة لاحقاً) والراديكاليين العلمانيين الناشئين في مختلف حركات القومية العربية والتنظيمات الدينية اليمينية مثل الإخوان المسلمين. احتاجت الأجهزة السرّية الأنكلو-أميركية يائسة إلى عملاء تستخدمهم ضد العثمانيين أوّلاً ومن بعدهم ضد دول المحور، وأخيراً كوسيلة لاحتواء القومية العربية الناشئة التي ساهم عملاء مثل ت. إ. لورنس في تشجيعها في ١٩١٦. وتميّزت هذه العلاقة في معظم الحالات بالنفعية وبالشكّ المتبادل.

ومن أول سياق هذا الرابط غير المألوف إلى آخره حدّدت الحملات الصليبية، إلى درجة ما، النظرة الشرق أوسطية إلى البريطانيين والأميركيين، إضافة إلى غيرهم من ممثّلي القوى الغربية – ولا تزال. وبالتالي يصبح الصليبيون، أقلّه بالنسبة إلى معظم المسلمين، جزءاً من البناء الثقافي السلبي الذي جسّد خصائص الوجود الغربي في المنطقة.

لم يكتف الصليبيون بجلب الحرب والدمار إلى الشرق الأوسط؛ بل حاولوا أيضاً زرع إقطاعية أوروبا القرون الوسطى في ثقافة مترسّخة وديانة بما زج الأراضي المحتلّة حديثاً في واقع مختلف. وتولّى أكثر النبلاء شأناً، على سبيل المثال، ألقاباً ملوكية واقتطعوا ممالكهم بوصفها جزراً مسيحية وسط بحر الحضارة الإسلامية.

---

(١) للجواسيس أو لأي مقاتل لا يرتدي البزّة الرسمية حقوق قليلة أو لا حقوق على الإطلاق وغالباً ما يتم إعدامهم أو تعذيبهم من دون سوء عاقبة.

ولّدت الحملات الصليبية والغرب، بالنسبة إلى الكثيرين من المسلمين، دورة من الهزيمة ومن الانتصار النهائي للإسلام. ومثلت أيضاً دور الخزّان الذي يحتوي على مواضيع هي مزيج من الخرافة والتاريخ والرومانسية الذي يسلّي به الحكواتيون الشارع العربي في البازار. ويجب، بالنسبة إلى المسلمين الراديكاليين والقوميين العرب، شن الكفاح ضد الهيمنة الأوروبية (ولاحقاً الولايات المتحدة)، وكذلك ضد أولئك المسلمين الذين يُنظر إليهم على أنهم يتعاملون مع الغرب، في شكل سرّي من خلال حرب المدن والاغتيال والدعاية والتجسس والتخريب.

وجرت حادثة من هذا النوع في ١٩٧٩ في الجامع الكبير في مكّة.[١] ففي الصباح الباكر من يوم العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر في تلك السنة، وتماماً قبل بدء السنة الهجرية الجديدة، استولى نحو مئتي شخص مدجّجين بالسلاح (من بينهم نساء وأولاد)، بقيادة جهيمان العتيبي وعبدالله القحطاني، على المسجد الحرام في مكّة. ويتحدّر العتيبي من عائلة عربية مرموقة وينتمي، كما غيره من المقاتلين، إلى الطائفة الوهّابية المترمّتة التي تشكل أيضاً الترجمة الرسمية للإسلام في السعودية. كانوا في معظمهم طلاباً في جامعة المدينة الإسلامية وضموا في صفوفهم سكاناً محليين إضافة إلى مسلمين من بلدان أخرى.

وانتمى بعضهم أيضاً إلى جماعة الإخوان المسلمين الراديكالية المصرية، وهي تنظيم مناضل يطالب بالعودة إلى طهارة الإسلام وإلى إطاحة الحكومات العلمانية في أنحاء العالم الإسلامي كافة[٢]. وقد شكّل وجود الإخوان المسلمين في السعودية مثالاً على ردة الفعل الإقليمية. إذ سبق للملك فيصل أن دعا الإخوان المسلمين إلى

(١) يمثّل الجامع واحدة من المناطق التي تستقطب الحجّاج في فترة الحج السنوية ويمكنه أن يستقبل ما يقارب الـ٣٠٠ ألف شخص. وتقع الكعبة في وسط باحته التي تبلغ مساحتها أربعين فداناً، وهي مكعبة الشكل مغطاة دوماً بالقماش الأسود المطرّز بالذهب. ويعتقد المسلمون أن إبراهيم بناها تكريماً لله وأن محمداً طهرها في سنة ٦٣٠ م. من الأصنام. ويقيم ما ينيف على الميلوني حاج سنوياً صلواتهم وطقوسهم في هذا الموقع.

(٢) Madawi al-Rasheed, A History of Saudi Arabia (Cambridge: University Press, 2002), 144.

السعودية، في الستينيات، كجزء من مخطط لتقويض الرئيس المصري عبد الناصر. وسبق لناصر أن قمع الإخوان بلا رحمة بسبب معارضتهم لحكمه وتشدّدهم الديني.(١) قَبِل الكثيرون من عناصر الإخوان المسلمين الملجأ الذي وفّره لهم فيصل ونشطوا في الجامعات الدينية الجديدة التي أنشأتها العائلة المالكة السعودية واتصلوا بجهيمان العتيبي وعبدالله القحطاني.

لم يمثّل احتلال الجامع الكبير عملاً دينياً وحسب بل قُصد منه أيضاً تحريك انتفاضة إسلامية ضد العائلة السعودية المالكة. وأعلن العتيبي بعد احتلاله الجامع أنه وأتباعه يدينون بيت آل سعود على انحلالهم الأخلاقي وفسادهم وتدميرهم للثقافة السعودية بتقليدهم للغرب. ورأى أن العائلة المالكة السعودية فقدت شرعيتها وتجب بالتالي إطاحتها. وأعلنَ أيضاً أن عبدالله القحطاني هو «المهدي» الحقيقي(٢) وطلب إلى الإمام الذي يؤمّ صلوات الفجر أن يعلنه كذلك.(٣)

صُعق المسلمون في العالم من جراء الاستيلاء على أقدس الجوامع في الإسلام مما كانت له تداعيات كبرى بالنسبة إلى الولايات المتحدة وحليفاتها. وحملت فورة من الشائعات ونظريات المؤامرة والخيالات الجامحة الأزمة في مكّة إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي. وأعلنت صحيفة باكستانية في إسلام أباد أن الأميركيين على وشك إنزال قوة مُنتدبة في السعودية للسيطرة على الخليج الفارسي. وكشفت الصحيفة نفسها بعد فترة قصيرة أن قوات خاصة إسرائيلية ستُنزل في مكّة أو المدينة وربما في كلتيهما. واتهمت الأوليغارشية الدينية في طهران على الفور الولايات المتحدة وإسرائيل. «الافتراض بأن الأمبريالية الأميركية المجرمة ارتكبت

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المهدي هو المسيح الإسلامي المنتظر الذي يُفترض أن يظهر في نهاية القرن الجديد.

(٣) Peter W. Wilson and Douglas F. Graham, Saudi Arabia: The Coming Storm (New York: M. E. Sharpe, 1994), 58 أضف إلى ذلك أن مسألة ما إذا كان العتيبي قد أعلن بالفعل أن القحطاني هو المهدي لا تزال خاضعة للجدل.

هذا الفعل لتتمكن من خلال مثل هذه الدسيسة من اختراق صفوف المسلمين المتينة ليس بالأمر البعيد الاحتمال جداً. وليس الافتراض، كما تتم في الغالب الإشارة إلى ذلك، بأن الصهيونية تنوي جعل بيت الله عرضة للهجوم بالأمر البعيد الاحتمال»[1].

في الواحد والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، في اليوم الذي تلا احتلال الجامع الكبير، اقتحم طلاب باكستانيون وأفراد من المنظمات الإسلامية الباكستانية المتشددة السفارة الأميركية في إسلام آباد وأحرقوا المبنى فيما تأخرت الشرطة وقوات الأمن الباكستانية في الوصول لإنقاذ الأميركيين. وقد حرّك الغوغائيين الصيّاحين الاقتناع بأن الولايات المتحدة استولت على الجامع الكبير وبأن عليهم الأخذ بالثأر.[2] وبالرغم من نشر صحيفة السياسة الكويتية في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر مقتطفات كبرى من أفكار المتمرّدين في الجامع الكبير، استمر الكثيرون من المسلمين في الافتراض بأن الاستيلاء على الجامع هو من عمل مجموعات مختلفة من المعادين الأجانب. وهاجمت زمر من الشبان المسلمين المتشدّدين مؤسسات أميركية في تركيا والهند وبنغلادش واقتحمت السفارة الأميركية في طرابلس، ليبيا.

طوّقت الحكومة السعودية مكّة وقطعت كل وسائل الاتصال داخل المملكة وبين المملكة والعالم الخارجي بغية استبعاد إمكانية انقلاب مدعوم من قوة خارجية. وتوجّب في الوقت نفسه على أي عملية عسكرية لاستعادة الجامع أن تنتظر بسبب وجود إمكانية حقيقية في أن يصاب المبنى بأضرار، الأمر الذي سيُكسب العائلة المالكة السعودية عداوة العالم الإسلامي. وطُرحت مسألة إمكان استخدام القوة على العلماء (المؤسسة

(١) "Khomeini in Mecca Attack," FBIS Middle East Report, 12 November 1979, in Yaroslav Trofimov, The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising in Islam's Holiest Shrine and the Birth of Al-Qaeda (New York: Doubleday, 2007), 275.

(٢) عَلِق ١٣٧ من الديبلوماسيين الأميركيين والمارينز في السفارة. قُتل اثنان من المارينز إضافة إلى طيار أميركي وباكستانيين اثنين من موظفي السفارة.

الدينية) الذين سمحوا للحكومة، بعد بعض التداول، باستخدام القوة لإخراج المقاتلين من الجامع.[١]

ما إن حصل السعوديون على الضوء الأخضر حتى نشروا الحرس الوطني لكن هجومهم فشل وخسروا ٢١ جندياً قتيلاً. ولا يزال ما أعقب ذلك محاطاً بالغموض المقصود. فتقول بعض الروايات إن استعادة الجامع تمت على أيدي جنود باكستانيين بالاشتراك مع القوات الخاصة الفرنسية. وتوحي روايات أخرى بوجود قوات أجنبية لكنها لا تسمّيها، فيما لا تشير أخرى إلى وجود غير مسلمين.[٢]

ويقدّم روبرت فيسك تفسيراً آخر ويقول إن السعوديين نشروا آلاف الجنود لاستعادة المبنى، لكن الكثيرين من المتشدّدين هربوا إلى داخل متاهات من المغاور والأنفاق تحت الجامع. وعمد الجنود، في العملية، إلى إغراق الأنفاق بالمياه وأدخلوا فيها كابلات كهربائية لصعق المتمرّدين.[٣] وهو ما لم يحصل في الواقع. فقد استعاد الجنود السعوديون الجامع بإشراف من وحدة مكافحة الإرهاب الفرنسية.

جيء بعد ذلك بأسبوعين إلى مكّة بضباط وحدة فرنسية خاصة، هي فريق التدخل التابع للجندرمة الوطنية، فدرّبوا عدداً مُنتخباً من الجنود السعوديين. وطارد السعوديون، تحت إشراف فرنسي عن بعد، المتشدّدين وعمدوا إلى إغراق قبو الجامع وأنفاقه بمادة كيمائية، هي ثاني كلور البنزيليدين ـ مالونونيتريل -dichlorobenzylidene

(١) استغرق العلماء، بحسب ويلسون وغراهام في الصفحة ٥٨ من كتابهما عن السعودية، يوماً ونصف اليوم لصوغ حكمهم. وادعى تقرير في مجلة التايم ("Sacrilege in Mecca," Time, 3 December 1979) أن الأمر استغرق ثماني ساعات، فيما ذكر تقرير ثان نُشر بعد ذلك بأسبوع (Time, 10 December 1979) أن الفتوى صدرت في اليوم الثالث على الحصار.

(٢) Stephen Schwartz, "Is Saudi Arabia Holy Soil?," Think Israel (September-October 2004), http://www.think-israel.org/schwartz.saudiarabia.html. ويزعم مدخل «جهيمان العتيبي» في ويكيبيديا (http://www.en.wikipedia.org/wiki/Juhayman_al_Otaibi) أن الجنرال ضياء الحق، وكان يومئذ قائداً للجيش الباكستاني، استولى على الجامع بمساعدة من القوات الخاصة الفرنسية، فيما يعلن مدخل آخر في ويكيبيديا، «الاستيلاء على الجامع الكبير» (http://www.en.wikipedia.org/wiki/Grand_Mosque_Seizure) إن فرقة كوماندوس الجندرمة الوطنية الفرنسية لمكافحة الإرهاب شاركت في القتال.

(٣) Robert Fisk, The Great War for Civilization: The Conquest of the Middle East (London: Fourth Estate, 2005), ١٠٤٦-٤٧. وعلّق فيسك بأن استخدام الصعق بالكهرباء تكتيك استخدمه صدام حسين ضد شعبه.

malononitrile CB، وهي في الأساس مادة مهيجة تقطع النفس وتكبح العدائية وهي غير قاتلة إذا تم سحب من تتم مهاجمته في أقل من خمس دقائق.[1] نجحت العملية وأُسر عدد كبير من المتمرّدين. وبعد ذلك بوقت قصير قُطعت، على مشهد من الناس، رؤوس ٦٣ من الناجين في ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٨٠.

وسرعان ما غطى الاجتياح السوفياتي لأفغانستان وارتدادات ثورة آية الله الخميني في إيران الحدث، بغض النظر عن مغزاه بالنسبة إلى العائلة المالكة السعودية – وكذلك إلى حليفها الرئيسي الولايات المتحدة وإلى العالم الإسلامي عموماً. ولم تشكّل حادثة الجامع الكبير، بالنسبة إلى العالم الخارجي إلا مجرّد فصل آخر في سلسلة المواجهات بين الراديكاليين والسلطات الحكومية في الشرق الأوسط المضطرب. بيد أن المتمرّدين الذي تحدّوا شرعية السلالة الحاكمة في السعودية أشّروا أيضاً إلى نهوض الإسلام السنّي الجهادي بمظاهره المتنوعة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

بيد أن سمة الخميني للإسلام الشيعي هي التي مثّلت في ١٩٧٩-١٩٨٠ القلق الأكبر للغرب وللأنظمة المحافظة في الشرق الأوسط. وشرعت الولايات المتحدة بالفعل في استبزال تيار الوهابية المتشدّدة لتوفير الحصول على المجاهدين المسلمين (مقاتلي الحرية) للحرب السرّية ضد الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. وحرص السعوديون، كما غيرهم من حكومات الشرق الأوسط، على التخلص من مثيري المشاكل المحتملين وعلى مساعدة الأميركيين، وعمدوا إلى قتل عصفورين بحجر واحد وسهّلوا انتقال هؤلاء المحاربين السرّيين إلى الجهاد الإسلامي في أفغانستان، بمن فيهم أسامة بن لادن الشهير.[2]

تعلّم المجاهدون، في تلك البلاد التعيسة وبإرشاد من خبراء وكالة الاستخبارات

(١) Trofimov, Siege, 192.

(٢) بالرغم من أن بعض المؤلفين أمثال جون كولي John K. Cooley, Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism (Sterling, VA: Pluto, 2000), 83, 85-86, 195, 204. زعموا وجود تأكيدات على أن السي.آي.إي. و/أو وكالات أخرى تابعة للحكومة الأميركية درّبت المجاهدين العرب، بمن فيهم أسامة بن لادن، فليس هناك الكثير من الدليل الذي يدعم ذلك، وذلك بحسب بيتر برغن Peter L. Bergen, Holy War, Inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden (New York: Free Press, 2001), ٦٤-٦٧. بل إن الاتصال الأميركي بالمجاهدين العرب تم بطريقة غير مباشرة. وقد تم نقل التدريب والأسلحة والتمويل عبر جهاز الاستخبارات الباكستانية.

المركزية العاملة من خلال جهاز الاستخبارات الباكستاني، حرفة الجاسوسية والتخريب وعمليات الكوماندوس والحرب النفسية والاستخبارات المضادة، ونجحوا لاحقاً في استخدامها ضد الغرب.[١] وفي الحالات التي فرض فيها الكونغرس الأميركي قيوداً على بعض الممارسات، استعانت السي.آي.إي. بالبريطانيين كمصدر خارجي لتوفيرها. شارك غاست أفراكوتوس، وهو ضابط من قدامى السي.آي.إي.، في تنظيم الجهاد ضد السوفيات، وقال معلّقاً:

> كان على البريطانيين في مآل الأمر أن يشتروا أشياء لا نتمكن من شرائها لأنها تخالف القوانين المتعلقة بالقتل والاغتيال والقصف العشوائي. أمكنهم استخدام مسدّسات مزوّدة بكواتم للصوت، وهو ما لا يمكننا فعله لأن الكواتم توحي فوراً بالاغتيال – والسيارات المفخّخة لا سمح الله! ولا مجال أبداً لأن أقترحَ ذلك، لكن أمكنني أن أقول للبريطانيين «كان فضل الله فاعلاً جداً في بيروت الأسبوع الماضي. انفجرت لديهم سيارة ملغومة قتلت ٣٠٠ شخص.» زوّدتُ الـ«أم.آي.٦» بأمور عن حسن نية. أما ما يفعلون بها، فهذا شأنهم دوماً.[٢]

نشأت العلاقة بين المناضلين المسلمين، إضافة إلى القوميين، وبين الغرب منذ الحرب العالمية الأولى بالرغم من أن أفغانستان مثّلت ذروة العمليات الأميركية السرية.

---

(١) وافقت السعودية على مماثلة التمويل الأميركي للمجاهدين وسمحت مصر لسلاح الجو الأميركي باستخدام مصر كقاعدة جوية تشحن عبرها أطناناً من الأسلحة والمعدات إلى باكستان. بل إن الصينيين ساهموا بستمئة مليون دولار للقضية. أضف إلى ذلك أن حكومة الرئيس المصري أنور السادات درّبت عناصر من الإخوان المسلمين للجهاد في أفغانستان. وفي السنوات الأولى، ولتفادي أي روابط بالولايات المتحدة، وفرت السي.آي.إي. الحصول على أسلحة من الحربين العالميتين الأولى والثانية مخزونة في بلدان مثل مصر والهند والصين. وبحلول ١٩٨٥ كان قد تم توفير ٦٠ ألف طن من المعدات في باكستان. أنظر John Prados, Safe for Democracy: The Secret Wars of the CIA (Chicago: Ivan R. Dee, 2006), 471-72, 488; and Robert Dreyfuss, Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam (New York: Metropolitan, 2005), 274-75.

(٢) George Crile, Charlie Wilson's War: The Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History (New York: Atlantic Monthly Press, 2003), 201. أمكن أيضاً لوكالة الاستخبارات السرّية البريطانية (SIS) وجهاز الاستخبارات الجوية الخاص (SAS) إرسال فرق إلى أفغانستان. وهذا الاتصال المباشر لا يُقدّر بثمن حيث لم يكن من المسموح للسي.آي.إي. أو أي وكالة أميركية أخرى إرسال رجال إلى الأراضي الأفغانية.

١

الاغتيال

«ما كل هذا الهراء في شأن عزل عبد الناصر؟
ألا تفهم أنني أريد تدميره؟»
ـ من أنتوني إيدن إلى أنتوني ناتينغ[١]

وقف جمال عبد الناصر على المنصّة في الساعة ٧:٣١ من أمسية لطيفة البرودة نابعة من نسيم خفيف يهب من البحر وشرع في الكلام – بروّية وهدوء في البداية؛ ثم أخذت تدبّ فيه الحماسة وشرع يحرّك يده اليمنى بإيماءات مندفعة، وسرعان ما تجاوبت معه الجماهير. واجتاحته عواصف من التصفيق في كل مرّة استذكر فيها الماضي لتسليط الضوء على كفاح مصر من أجل الاستقلال. احتشد ما يقارب المئتين وخمسين ألف شخص في ميدان التحرير في الإسكندرية في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤ للاستماع إلى عبد الناصر وهو يعلن انتهاء الحكم البريطاني لمصر. وسبق له أن وقّع في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر اتفاق الجلاء الرسمي مع ممثلي بريطانيا، غير أنه خصص يوم الثلاثاء للاحتفاء بذلك مع الشعب المصري.[٢]

وفيما ناصر يتدرّج في خطابه، وقف رجل مستدير الوجه في الصف الثامن قبالة

(١) Anthony Nutting, No End of a Lesson: The Story of Suez (London: Constable, 1967), 34-35.

(٢) Robert St. John, The Boss: The Story of Gamel Abdel Nasser (New York: McGraw-Hill, 1960), 179-80.

المنصة وقد تدلّت خصلة من الشعر الأسود على جبهته. ارتجفت يده بعض الشيء وهو يصوّب مسدسه الإيطالي الصنع عيار ٩ ملم إلى عبد الناصر وشرع في إطلاق النار. طاشت الرصاصة الأولى، فيما أصابت الثانية زجاجة المصباح الكهربائي القريب من رأس ناصر. أطلق الرجل ست رصاصات أخرى غير أنه أخطأ على نحو لافت رجل مصر القوي.(١) سمع ناصر الانفجارات القاتلة تمرّ به، فطرفت عيناه، ونفض برفق شظايا الضوء المتكسّر من على كتفيه. وبقي بالرغم من مجاورته الموت هادئاً فنظر إلى الجمهور وصاح المرة تلو المرّة: «هذا جمال عبد الناصر يحدّثكم. دمي هو دمكم. حياتي فداكم. جميعكم جمال عبد الناصر. ولو قُتلت لما أحدث ذلك فرقاً لأنكم ستستمرون في النضال. جميعكم جمال عبد الناصر»(٢).

لم تتفق التقارير الأولية في شأن هل منفّذ محاولة الاغتيال، محمود عبد اللطيف، حدّاد أو نجّار أو سمكري. وحدّدت السلطات في النهاية أنه حدّاد من القاهرة عمره ٣٢ سنة ينتمي إلى الإخوان المسلمين منذ ١٦ عاماً. واعترف تحت التعذيب أنه لم يعمل لوحده بل شكّل جزءاً من مؤامرة أكبر أعدّها الإخوان المسلمون لقتل عبدالناصر، ومن ثم الأعضاء الآخرين في مجلس قيادة الثورة. وقال عبد اللطيف إن الإخوان اتصلوا به في مطلع تشرين الأول/أكتوبر واختار التنفيذ في ١٩ منه، وهو اليوم الذي وقّع فيه عبد الناصر المعاهدة الأنكلو-مصرية التي دانها الإخوان المسلمون لأنها أعطت البريطانيين فرصة إعادة احتلال قناة السويس في حالة الحرب. غير أنه لم تتوافر له الفرصة المناسبة لتنفيذ الخطة إلا في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر.(٣) وإذا صحّ أن المعاهدة أثارت غضب الإخوان المسلمين، فإن فشل الضباط الأحرار، الذين استولوا على السلطة في ١٩٥٢، في تحويل مصر إلى دولة إسلامية شكّل الدافع الأول لمؤامرة اغتيال عبد الناصر وإطاحة الحكومة.

(١) الإصابتان الوحيدتان لحقتا بأحد الوزراء السودانيين وبمحام من الإسكندرية جرحتهما الشظايا الزجاجية.

(٢) St. John, The Boss, 181. Cf. Richard P. Mitchell, The Society of Muslim Brothers (Oxford: Oxford University Press, 1969), 151.

(٣) Mitchell, Muslim Brothers, 150.

لم يكن الإخوان المسلمون وحدهم يكرهون عبد الناصر إلى حدّ العمل لقتله. فقد كنّ أنتوني إيدن، آخر رئيس وزراء استعماري لبريطانيا، كرهاً يكاد يكون مَرَضيّاً لبطل مصر الجديد. واجتاحته نوبة من الغضب فأصدر أوامره للـ«أم.آي.٦» بقتل عبد الناصر بأي ثمن.[١] لكن تكوّن لدى عبد الناصر الاقتناع بأن البريطانيين متواطئون مع الإخوان المسلمين وقال ذلك في خطاب النصر في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٥ الذي اتهم فيه الإخوان المسلمين بعقد اجتماعات تآمرية في السفارة البريطانية في القاهرة.[٢]

قد تحمل هذه الاتهامات بعضاً من الحقيقة لأن الـ«أم.آي٦» لم تكفّ يوماً عن تطوير ما يكفي من الخبرة للتعامل مع الاغتيال، وغالباً ما لجأت إلى الاستعانة بمصادر خارجية لمثل هذا النشاط. استخدمت الـ«أم.آي٦» في سياق الحرب العالمية الثانية، على سبيل المثال، أطرافاً ثالثين للقضاء على عملاء مريبين لدول المحور، إلا أن ندّها في زمن الحرب، جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، نفّذ عمليات خاصة وعمليات قتل بمهارة فائقة. واستوعبت الـ«أم.آي٦» بعد الحرب، في قسم عملياتها الخاصة، بعض أقسام جهاز تنفيذ العمليات الخاصة ضمّت أفراداً يمتلكون خبرة في الاغتيال، واستمرت أيضاً في تأجير العناصر غير المرغوب فيها إلى أطراف ثالثين. وبالرغم من أن الحكومة البريطانية تخلّت بحلول ١٩٥٠ عن الاغتيال كجزء من حربها السرّية فإنه بقي يحصل على التصديق في بعض صفوف الـ«أم.آي٦».[٣]

---

(١) ستصيب إيدن أحداث معيّنة، مثل تأميم قناة السويس، بجنون غضب قاتل بما يتجاوز كراهيته العامة لعبدالناصر. وستؤدي حتى أصغر الحالات التي تُبرز تراجع النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط إلى اقتناع لدى إيدن بأن عبد الناصر هو الفاعل. ففي الأول من آذار/مارس ١٩٥٦، صرف العاهل الأردني الملك حسين السير جون غلوب، قائد الفيلق العربي الأردني الذي يتولى ضابط بريطاني قيادته. وعدّ إيدن ذلك بمنزلة إهانة لبريطانيا وأقسم على معاقبة ناصر، بالرغم من أن لا علاقة للأخير بالأمر. وكان إيدن وبخ في حينه نائب وزير خارجيته أنتوني ناتينغ في شأن عبد الناصر صارخاً فيه عبر الهاتف: «ألا تفهم أنني أريد تدميره؟» أنظر Stephen Dorril, MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service (New York: Free Press, 2000), 612.

(٢) شددت السفارة البريطانية بالتأكيد على اعتراف عبد الناصر بأن الكثيرين من الإخوان لا يزالون طلقاء في مصر بالرغم من حملات التطهير للتنظيم الاسلامي. (Cairo to Foreign Office, VG 1015/45, FO 371/183884, The National Archives of the United Kingdom [TNA]).

(٣) Dorril, MI6, 613-14.

وبالإجمال قاربت محاولات البريطانيين قتل ناصر حدّ السّخرية باستثناء محاولة واحدة ممكنة. وتضمّنت إحدى الخطط دفق غاز الأعصاب في نظام التهوئة في أحد مقارّ ناصر، غير أن إيدن ألغاها لمصلحة عملية فرنسية ـ إسرائيلية مشتركة فشلت في إعطاء ثمارها.[1] واعتمدت محاولة أخرى على استخدام مجموعة من الضباط المصريين المرتدّين لكنها انهارت أيضاً بعدما ثبت فساد الأسلحة التي افترض بهم استخدامها. ونظرت الـ«أم.آي٦» أيضاً في استخدام سهم مسموم يُطلق من علبة سجائر، لكن هذه المحاولة شُطبت أيضاً لاستحالة تفادي الربط المباشر بين موت ناصر والبريطانيين.[2]

واستؤجر في ١٩٥٦ مرتزق ألماني لقتل الزعيم المصري. غير أن السلطات المصرية تلقت، لدى وصوله إلى القاهرة، اتصالاً من مجهول يحذّرها منه، فغادر البلاد سرّاً.[3] وتضمّنت مساعٍ أخرى، أشبه بقصص كتب الرسوم، تقديم علبة من الشوكولاتة المسمّمة والعثور على شخص على استعداد لدس الستريكنين في طعامه.[4]

واللافت هو أن الوجود البريطاني أخذ مع مطلع الخمسينيات في التلاشي سريعاً من مصر بعد ما يقارب السبعين عاماً من السيطرة على شؤونها. وتحكّمت الـ«أم. آي٦» في حفنة من العملاء على الأرض ولكن في قلة من أصحاب المراكز الرفيعة

(١) تضمّنت إحدى الخطط الفرنسية إرسال فريق كوماندوس بزوارق مطاطية من السفارة الفرنسية لتدمير مبنى قيادة الثورة المصرية عند الطرف الشمالي لجزيرة «الجزيرة»، لكن المحاولة أُجهضت. أنظر محمد حسنين هيكل, Cutting the Lion's Tail: Suez Through Egyptian Eyes (New York: Arbor House, 1987), 154n1.

(٢) Peter Wright, Spy Catcher: The Candid Autobiography of a Senior Intelligence Officer (Toronto: Stoddart, 1987), 160-62.

(٣) بحسب هيكل (Lion's Tail, 215n1) تلقّى جهاز الأمن المصري أيضاً معلومات عن ثلاثة مواطنين بريطانيين أُرسلوا إلى القاهرة للقيام بمحاولة اغتيال أخرى، لكن المهمة أُجهضت، أو إنهم جبنوا.

(٤) John Keay, Sowing the Wind: The Seeds of conflict in the Middle East (New York: Norton, 2003), ٤٣٦. جرّب الإسرائيليون أيضاً السمّ للقضاء على الزعيم المصري. وجندوا في تلك الفترة خادما يونانيا يعمل لدى «غروبي»، وهي شركة الطعام الرئاسية، لدس السم في قهوة الرئيس. ومن حسن حظ الزعيم المصري أن القاتل المفترض تملكته العصبية الشديدة واهتزت يده بطريقة لم يتمكن معها من السيطرة عليها، فانهار واعترف (Heikal, Lion's Tail, 215n1).

في المؤسسة العسكرية والسياسية المصرية. ومع ذلك تمكّن جهاز الاستخبارات البريطاني العامل من خلال وكالة العرب للأنباء (ANA) التي تحظى بالاحترام الكبير، من إقامة روابط مع المجموعات الطالبية والدينية الراديكالية وكذلك مع ضبّاط ممن يتلقون الأموال النقدية. وتضمّنت العلاقات الأخرى روابط مع مجموعة من الملكيين المُبعدين والسياسيين المنفيين.

ومن سوء الحظ أن ما تبقى من شبكة استخبارات الـ«أم.آي٦» انهار في ١٩٥٦. ففي شهر آب/أغسطس من تلك السنة أغارت قوات الأمن المصرية على الوكالة العربية للأنباء، التي يشرف عليها البريطانيون، واعتقلوا ثلاثين من موظفيها وطردوا كذلك اثنين من موظفي السفارة البريطانية. فالوكالة لم تشكل غطاء للـ«أم.آي٦» في القاهرة وحسب بل أيضاً للعمليات الاستخبارية في أنحاء مصر والشرق الأوسط. وكان بعض من عملائها بريطانيين يعملون منذ وقت طويل في مصر بوصفهم رجال أعمال وصحافيين أو أساتذة، فيما كان المصريون منهم من أنصار النظام الملكي أو من المناوئين لنظام عبد الناصر.[١]

وبحسب المخابرات المصرية كوّن الموقوفون حلقة تجسس كانت تخطط لقلب الحكومة إضافة إلى قيامها بأعمال الاستخبارات. ومن بين الموقوفين الثلاثين بُرّئ في النهاية بريطانيان فيما دين جايمس سوينبورن، مدير أعمال الوكالة، في أيار/مايو ١٩٥٧. وأُعدم بعض المصريين فيما حكم على الآخرين بالسجن لفترات طويلة.[٢] وسبق لبريطانيين آخرين، أمثال ممثل شركة التأمين «برودانشال» جون ستانلي إلى جانب ألكسندر رينولدز وجورج سويت وجورج روز، أن غادروا إلى بريطانيا فحوكموا غيابياً.[٣]

---

(١) Dorril, MI6, 631; Eric Downton, Wars Without End (Toronto: Stoddart, 1987), 229, 341.

(٢) Keith Kyle, Suez (London: Weidenfeld & Nicholson, 1991), 218-91. أُفرج عن سوينبورن وجايمس زارب، وهو من التابعية البريطانية وموظف لدى ماركوني في القاهرة، في عفو عام صدر في ١٩٥٩ (Dorril, MI6, 631n84).

(٣) Dorril, MI6, 631; Yaacov Caroz, The Arab Secret Service (London: Corgi, 1978), 23.

خضع سوينبورن، رئيس الشبكة، لتحقيق مكثّف واعترف بجمع المعلومات عن الانتشار العسكري والاجتماعات السياسية السرّية ودفاعات الإسكندرية وبتنسيق المهمات في البلدان الشيوعية. وادعت المخابرات أيضاً أن من بين الوثائق التي عُثر عليها في منزل سوينبورن تقارير عن تنظيم الوحدات العسكرية المصرية ومعلومات عن عمليات نقل الدبابة السوفياتية الجديدة والأسلحة المضادة للدروع وتفاصيل جمّة عن محطة الرادار الجديدة في ضواحي القاهرة. وأفاد عملاء آخرون يعملون تحت الغطاء الصحافي الذي زوّدتهم إياه الوكالة العربية للأنباء عن النشاطات الشيوعية في الشرق الأوسط.(١) وكان توم ليتل، رئيس وكالة الأنباء ومراسل الإيكونوميست والتايمز، المسؤول الأكبر عن الـ«أم.آي٦» في القاهرة، لكن المصريين تركوه حرّاً وزوّدوه كماً كبيراً من المعلومات المغلوطة ليتمكن من إمرارها إلى الـ«أم.آي٦».(٢)

أشرف جي. جاي. غوف، رئيس قسم التأشيرات في السّفارة البريطانية وجاي. بي. فلاكس، السكرتير التجاري الأول، على الشبكة السرّية وقد طردتهما الحكومة المصرية.(٣) وكتب محمّد هيكل، أمين أسرار عبد الناصر وصديقه القديم، أن الديبلوماسيّين البريطانيين أقاما أيضاً اتصالات مع «طلاب ذوي ميول دينية» بغية التحريض على أعمال شغب أصولية مسلمة وبالتالي استثارة تدخل عسكري أجنبي لحماية الأوروبيين.(٤) ولا يوجد الكثير من الشكّ في أن العناصر الطالبية انتمت إلى الإخوان المسلمين أو أقامت ارتباطات مع من تبقى من التنظيم.

خسر البريطانيون شبكة تجسس رئيسية في القاهرة والشرق الأوسط، لكنهم

(١) Kyle, Suez, 218; Dorril, MI6, 631-32.

(٢) Dorril, MI6, 631.

(٣) Scott Lucas and Alistair Morey, "The Hidden 'Alliance': The CIA and MI6 Before and After Suez," in American-British-Canadian Intelligence Relations, 1939-2000, ed. Mairizio Ferrera and Martin Rhodes (London: Frank Cass, 2000), 108.

(٤) Heikel, Lion's Tail, 151n3. يوحي هيكل بأن الهدف هو إعادة خلق ظروف ١٨٨٢ التي أدت فيها أعمال الشغب المصرية في الاسكندرية إلى مقتل أوروبيين وتدمير ملكياتهم ووفّرت للبريطانيين الذريعة لإنزال جنودهم وبالتالي السيطرة على مصر (أنظر أيضاً الفصل الرابع).

واصلوا مع ذلك محاولة زعزعة استقرار الحكومة المصرية من خلال محاولة انقلاب أو من خلال محاولة اغتيال ناصر. وجنّدت الـ«أم.آي٦» في ١٩٥٣ محمود خليل في إثر تعيينه رئيساً لمديرية استخبارات سلاح الجو المصري. اتصل أولاً حسين خيري النائب السابق لرئيس الاستخبارات العسكرية المصرية قبل إطاحة النظام الملكي في ١٩٥٢ بخليل. لكن الأخير تمسّك بالحذر ولم يلتزم بشيء.

التقى الرجلان بعد ذلك ببضعة أسابيع في فندق الريفييرا في بيروت وعندئذ عرّف خيري الضابط المصري إلى جون فارمر من الـ«أم.آي٦». وافق خليل في سياق الاجتماع على تشكيل منظمة سرّية مؤلفة من ضباط مصريين هدفها تنفيذ انقلاب على نظام عبد الناصر. بيد أنه وضع شرطاً غير قابل للتفاوض – وهو أن يتولى عملية الاتصال بين البريطانيين والمتآمرين. وافق فارمر وسلّم خليل مغلّفاً يحتوي على مئة ألف جنيه استرليني. غير أن خليل أصرّ على أنه سيحتاج إلى ما لا يقل عن مئة ألف جنيه للإنفاق على تنظيمه فوافق فارمر بأن يتم توفير هذا المبلغ في وقت ما في المستقبل.[١]

واصلت الـ«أم.آي٦» في غضون ذلك تدبير المؤامرات المتنوعة للقضاء على عبدالناصر، بما في ذلك عملية «الفكّ»، وهي خطة غير تقليدية توجّب على تنظيم خليل السري في القاهرة تنفيذها. وشكّلت هذه المؤامرة بالذات تقاطعاً بين أوهام كتب القصص المصوّرة وواحد من أفلام جايمس بوند. ودارت عملية «الفكّ» في الواقع حول لحية عبد الناصر. فللزعيم المصري لحية كثيفة تجبره على حلقها مرات عديدة في اليوم. وقضت خطة الـ«أم.آي٦» بإعطاء عبد الناصر آلة حلاقة كهربائية من نوع «ريمينغتون» محمّلة بالمتفجرات البلاستيكية ستنفجر بمجرّد أن يدير الآلة.[٢]

حاكت الـ«أم.آي٦» في غضون ذلك خطة مفصّلة لحماية خليل كمصدر. وزوّده

(١) Caroz, Arab Secret Service, 21-22; Richard Deacon, “C”: A Biography of Sir Maurice Oldfield, Head of MI6 (London: Futura, 1984), 110-11.

(٢) Dorril, MI6, 653.

البريطانيون معلومات استخبارية قيّمة عن إسرائيل، بغية تبرير سفراته المتكرّرة إلى بلدان خارجية (لعقد اجتماعات سرية مع ممثلي الـ«أم.آي٦»)، كما زودته مبالغ كبيرة لتمويل تنظيمه السرّي المؤلف من ضباط في الجيش المصري. ولم يشعر البريطانيون بالكثير من وخز الضمير في شأن الكشف عن مواد لخليل على حساب الإسرائيليين لجعل عميلهم يظهر بالمظهر الجيد، وذلك بالرغم من العلاقات الثنائية الجيّدة بين بريطانيا وإسرائيل وبين الموساد والـ«أم.آي٦». وكتب نائب رئيس الموساد، ياكوف كاروز، في وقت لاحق: «لم يضطرب ضمير البريطانيين على إضرارهم بأمن إسرائيل عبر تسليمهم معلومات سرّية عنها».(١) إلا أنه، وفي إعادة صوغ للقول المأثور الذي طالما يتم الاستشهاد به، «لا يوجد» في عالم الاستخبارات المظلم «أمر اسمه وكالة استخبارات صديقة، بل وكالات متنافسة لبلدان صديقة فقط».

وُضع مخطط قتل عبد الناصر موقتاً على الرف، بالرغم من استمرار الـ«أم.آي٦» في البحث عن إمكانية القيام بانقلاب. وفي الفترة الممتدة من أواخر آب/أغسطس إلى مطلع أيلول/سبتمبر ١٩٥٧، عقد جوليان آمري ونيل «بيللي» ماكلين، يرافقهما ضابطان من الـ«أم.آي٦»، عدة اجتماعات سرّية في جنوب فرنسا مع منفيين مصريين من أنصار النظام الملكي وأعضاء في مجموعات أخرى معادية لعبد الناصر. ويشارك آمري وماكلين كلاهما في ما تُسمّى بـ«مجموعة السويس»، وهي مجموعة من النواب الذين لا يتولون مناصب حكومية والوزراء السابقين وأعضاء سابقين في مجتمع الاستخبارات البريطانية ونواب شبان وجدد يعارضون أي تغييرات مقترحة في العلاقات الأنكلو-مصرية وتؤثّر في وضع قناة السويس.(٢)

تولّى جوليان آمري، وهو صهر هارولد ماكميلان، سكريتارية مجموعة السويس. وكان ماكلين وآمري ضابطين سابقين في الجهاز التنفيذي للعمليات الخاصة في خلال الحرب العالمية الثانية واستمرا في المشاركة في عدة عمليات خاصة في فترة

(١) Caroz, Arab Secret Service, 22n.

(٢) Dorril, MI6, 603.

ما بعد الحرب. انخرط آمري في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين في العملية المشتركة التي قامت بها الـ«أم.آي٦» والـ«سي.آي.إي.» لقلب الحكومة الشيوعية في ألبانيا. بيد أن آمري وماكلين لم يكونا لوحدهما ضابطي مخابرات سابقين إذ انضمّ غيرهما من عناصر أجهزة مخابرات زمن الحرب البريطانية إلى هذا التكتّل الاستعماري، من أمثال فيتزروي ماكلين واللورد هانكي، أبي المجتمع الاستخباري البريطاني الحديث، ممن ألقوا بظلهم الطويل على الـ«أم.آي٦».[١]

وسبق لآمري، إلى جانب ضابط سابق آخر في الـ«أم.آي٦»، هو جون بروس لوكهارت، أن ساعدا على تنظيم عمليات سرّية في قبرص ضد المتمرّدين المحليّين. وقد ابتزّ آمري الأسقف مكاريوس، رجل الدين القبرصي اليوناني والزعيم السياسي، في شأن مثليته الجنسية وأجبره على تقديم تنازلات إلى البريطانيين. فمجموعة السويس هي في الواقع وفي آن عميلة للـ«أم.آي٦» ومُحرضة على العمليات السرّية.

سافر آمري وماكلين، بعد اجتماعات فرنسا، إلى جنيف للقاء ممثلين عن الإخوان المسلمين، وأخبرا الـ«أم.آي٦» أنهما أبقيا أمر سفرتهما سرّاً بالنسبة إلى أعضاء مجموعة السويس الآخرين. وأسفرت جهودهما عن إقامة «حكومة ظلّ» في القاهرة جاهزة لتسلم السلطة لدى أول فرصة.[٢] ومن غير المؤكد ما الذي جرى في هذا اللقاء في جنيف بين المستعمرين البريطانيين الدائمين والمسلمين الأصوليين المصريين، غير أنها ليست المرة الأولى التي يتعاون فيها هؤلاء الحلفاء غير المُحتَمَلين ضد عدو مشترك.

بعدما هاجم الإسرائيليون، في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦، مصر مستندين إلى ترتيبات مُعدّة سلفاً، استولى البريطانيون والفرنسيون على قناة السويس. فشلت المحاولة العسكرية، في جزء كبير منها بفضل المعارضة الأميركية، وأُنزلت في النهاية

(١) Tom Bower, The Perfect English Spy: The Unknown Man in Charge During the Most Tumultuous Scandal-Ridden Era in Espionage History (New York: St. Martin's Press 1995), 231: Dorril, MI6, 603.

(٢) Xan Fielding, One Man in His Time: The Life of Lieutenant-Colonel N.L.D. ("Billi") McLean, DSO (Lodon: MacMillan, 1990), 104-5.

الستارة على المطامع الأنكلو-فرنسية في مصر والشرق الأوسط. وأدى الغزو إلى تعليق كل المخططات السرية، لكن الـ«أم.آي٦» عادت بعد الهزيمة وأحيت مؤامرة الاغتيال.

سلّم أحد سعاة الـ«أم.آي٦»، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٧، ماكينة الحلاقة القاتلة إلى خليل ومعها ١٦٦ ألف جنيه استرليني.[١] وربّما وفّر السعوديون قسماً من هذا المال أو كلّه – وهي ليست المرة الأولى التي تُستخدم فيها بترودولارات العرب لتمويل انقلاب.[٢] ثم إن عبد الناصر كشف، في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر في تجمّع هائل في بور سعيد للاحتفال بالذكرى الأولى للانسحاب الأنكلو-فرنسي من قناة السويس، عمّا أسماه «مؤامرة الاستعادة» وزعم أن خليل عميل مزدوج عمل لمصلحة أجهزة الأمن المصرية. ووهب عبدالناصر الـ١٦٦ ألف جنيه استرليني إلى المصريين الذين تضرّرت أملاكهم من القصف البحري الإنكليزي على الإسكندرية في إبان أزمة السويس.[٣] وقضى ما كشفه عبد الناصر في شكل فاعل على ما تبقى من قدرة للاستخبارات الإنكليزية في مصر.

تبرهن حصيلة هذه الأحداث على عدم وجود تنسيق كبير بين النشاطات السرّية للـ«أم.آي٦» والاستراتيجية الكبرى للحكومة البريطانية في ما يتعلّق بمصر. فالجيش البريطاني ووزارة الخارجية احتفظا بالتدخل السرّي في مصر كملجأ أخير. وعلى هذا الأساس أجبرت محاولات الدقيقة الأخيرة، التي نُظّمت على عجل، الـ«أم.آي٦» على العمل، في معظم الأحيان، مع أشخاص غير مؤتمنين ومع العملاء المزدوجين.

فشلت، إلى حد بعيد، جهود البريطانيين الخفية في مصر لأن إيدن وشركاءه المقربين في الحكومة فضّلوا تجاوز ليس العملية الطبيعية في قلب الجهاز الحكومي

---

(١) Caroz, Arab Secret Service, 24.

(٢) كشف خليل، بحسب كايل (Kyle, Suez, 149)، عن وجود مال سعودي لكنه اكتفى بالقليل من التفصيل ولم يتحدث عن المبلغ بالضبط.

(٣) Kyle, Suez, 149; Dorril, MI6, 659.

وحسب، بل أيضاً سلسلة الرتب في مجتمع الاستخبارات. وعلى هذا الأساس عملت الـ«أم.آي٦» على تطبيق سياستها الخاصة، ولو أنها تستند في شكل متفلّت إلى اشمئزاز إيدن غير العقلاني من عبد الناصر وإلى ما أصدره من توجيه بالقضاء عليه.

وبنتيجة ذلك، أصبحت العمليات الخفية إضافة إلى مصير العملاء تحت رحمة أسياد متعدّدين. وأدى استخدام القنوات الخلفية في الـ«أم.آي٦» والنزوع إلى استخدام هواة موهوبين، وهو تقليد طويل الأمد في تاريخ العمليات الخاصة البريطانية، إلى تفكيك أية جهود جدية وإلى فضح حفنة الشبكات الخفية العاملة في مصر. وبما أن لا وجود رسمياً للـ«أم.آي٦»، فإن المسؤولية النهائية عن الفشل وقعت على كاهل الحكومة فيما امتلك الجهاز الحرية في الاستمرار في شنّ العمليات المستقلة. ويشير سكوت لوكاس وأليستير موري إلى أنه «من الممكن أن الـ«أم.آي٦» لا تزال تحجب المعلومات الاستخبارية، أو الأسوأ من ذلك فبركتها، وتهمل إيصال تفاصيل العمليات إلى المشرفين عليها في وزارة الخارجية».(١)

وعلاوةً على ذلك، سمحت الإخفاقات الاستخبارية في القاهرة لجهاز الأمن المصري باعتقال معظم معارضي عبد الناصر مما خفض بالتالي من أي فرصة مستقبلية في تجنيد عملاء مصريين. كما أن تدمير المعارضة اليسارية أدى في النهاية إلى إخلاء الساحة في شكل شبه حصري للمتطرفين المسلمين. وبالرغم من أن الإخوان المسلمين تلقوا ضربة خطيرة في ١٩٥٤ عقب محاولة اغتيال عبد الناصر، فإنهم استمرّوا في الوجود كتنظيم وأصبحت لهم أيضاً جذور في عدة بلدان في الشرق الأوسط. وقد أوحوا في الوقت نفسه، أو أنتجوا تنظيمات إسلامية متطرّفة جديدة نجح أحدها وهو الجهاد الإسلامي في مصر، في اغتيال خليفة عبد الناصر الرئيس

(١) Lucas and Morey, "Hidden 'Alliance,'" 101.

أنور السادات.[1] وبعد ذلك بعقدين اندمج تنظيم الجهاد الإسلامي في مصر في القاعدة ليشكلا قاعدة الجهاد.[2]

وسيواجه المجتمع الاستخباري الأنكلو-أميركي في المستقبل المهمة المستحيلة القاضية باختراق المعارضة الإسلامية للحكومات القومية في المنطقة. وحتى عندما تمكّنت وكالات الاستخبارات الأميركية أو البريطانية من إقامة روابط مع المعارضة الإسلامية للزعامة العربية العلمانية فإنها لم تفعل ذلك إلا بالشروط التي ناسبت الأصوليين ولم تتمكن من الوصول إلى العناصر والأفراد. فعلى امتداد معظم القرن العشرين بقي الإخوان المسلمون، وهم يشكلون ربما الشبكة السياسية-الدينية السرّية الأكثر أهمية، خارج متناول مؤسسة الاستخبارات الأميركية والبريطانية.

بالرغم من أن التنظيمات الأكثر راديكالية، مثل الجهاد الإسلامي في مصر والقاعدة، جافت الإخوان المسلمين فإنهم شكلوا خطوة في تطور ما بات يوصف الآن بـ«الإسلام السياسي».[3] وسمة «الإسلام السياسي»، التي تفتقر إلى حدّة التوصيفات الأخرى مثل «الإسلام الأصولي» أو «الإسلام الجهادي» أو «الإسلام الراديكالي،» هي أقرب إلى تحديد الحركة الدينية-السياسية التي سيطرت على العالم الإسلامي.

(١) وعلى غرار ما جرى مع عبد الناصر أدت معاهدة غير شعبية، وهي هذه المرة معاهدة سيناء بين إسرائيل ومصر (٢٦ آذار/مارس ١٩٧٩) إلى اغتيال السادات في السادس من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١. وسبق للأمن المصري، منذ شباط/فبراير ١٩٨١، أن عرف بمخطط اغتيال السادات في إثر توقيف عنصر من الجهاد الإسلامي المصري، وأمر السادات في أيلول/سبتمبر بحملة اعتقالات واسعة شملت أكثر من ١,٥٠٠ ممن يُشتبه بأنهم من الراديكاليين الإسلاميين، وأضاف إليهم عناصر من الجهاد إلى جانب المطالبين بحقوق المرأة ورجال الدين المسيحيين الأقباط وأساتذة جامعيين وصحافيين وعناصر من مختلف الجماعات الطالبية. والتوقيفات جزء من عملية قمع كبرى لكل التنظيمات الراديكالية الإسلامية بما في ذلك الحركات الطالبية. ووُجد عامل آخر هو دور السادات عقب محاولات الاغتيال ضد عبدالناصر. فقد جلس السادات قاضياً وساهم في إدانة الإخوان المسلمين الذين حكم عليهم بالإعدام أو بالسجن. وبحسب جيلز كيبل Gilles Kepel, Muslim Extremism in Egypt: The Prophet and the Pharaoh, trans. Jon Rothschild (Los Angeles: University of Californian Press, 1984), 192, فإن المجرم خالد الإسلامبولي قتل السادات وهو في ذروة فقدان شعبيته كرئيس.

(٢) "The Man Behind Ben Laden," The New Yorker, 16 September 2002.

(٣) Kepel, Muslim Extremism, 192-93.

غير أن «الإسلام السياسي» ليس ظاهرة من ظواهر القرن العشرين أو القرن الواحد والعشرين، بل إنها تعود في الأصل جزئياً إلى ردّة الفعل على الاستعمار الأوروبي للمنطقة إضافة إلى الفساد المتوطّن الذي أصاب الشرق الأوسط منذ القرن التاسع عشر.

كتب عديد دويشة أن الاستعمار أُلحق بالإمبريالية وأصبح «الآخر» الذي تدعو إليه الحاجة جداً بالنسبة إلى القومية العربية. وهذه كانت بصفة خاصة الحال في ذروة القومية العربية ما بين ١٩٥٤ و١٩٦٧، التي جسّدها نظام عبد الناصر. وارتكز المفهوم الأيديولوجي لمعاداة الأمبريالية على الفكرة التي يشرحها دويشة كما يلي: «'القوى الأمبريالية' مؤلفة من الخارجيين، الغرباء عن المنطقة، وقد ارتكبت الكثير من المظالم في حق الشعب العربي، وهي 'تستحق' إذاً الاعتداء الذي ينهال عليها».[١] وعندما انفجرت فقّاعة عبد الناصر عقب الهزيمة المُذلّة في حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل، لم يؤكّد ذلك فشل القومية العربية وحسب بل معها أيضاً العلمانية. وأصبحت الزعامة العلمانية والدول العلمانية، بالنسبة إلى العرب وإلى المسلمين الآخرين في الشرق الأوسط، مرادفاً للإخفاق وللفساد النظمي.

وبقي تحديد المظالم التاريخية التي ارتكبها الغرب، بالنسبة إلى ممارسي الإسلام السياسي، متكاملاً مع الدعوة إلى الجهاد ضد الغرب. وشكّلت الحملات الصليبية واحداً من المواضيع المألوفة. ومن خلال التنقيب عن الماضي لتفسير الحاضر، التحمت الحملات الصليبية والدعم الأميركي لإسرائيل (وفي وقت أكثر قرباً اجتياح العراق واحتلاله) مع البلاغة التي تسيطر على خطاب الإسلام السياسي.

(١) Adeed Dawisha, Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair (Princeton: Princeton University Press, 2003), 284.



٢

مفاهيم

«مزجنا دماءً بالدموعِ السواجمِ فلم يبق منّا عرضةٌ للمراجمِ»

(أبو المظفّر الأبيوردي)[١]

مزّقت دعوات المؤذنين الإيحائية سكون الغسق الذي غلّف القدس. وعكست حجارة الجير الصفراء التي استُخدمت في بناء المدينة آخر أشعّة نور الشتاء وغمرتها بطيف من الألوان الذهبية.[٢]وارتفعت في شكل يكاد يكون فوريّاً ابتهالات مشابهة إلى الله من داخل أسوار المدينة. ففي يوم بارد من أيام شباط/فبراير من العام ٦٣٨م بسط الخليفة عمر سجادة صلاته على مصطبة جبل الهيكل. ولا بد أنه أدرك في تلك اللحظة أن الانتصار بات ناجزاً.

سبق للخليفة أن دخل القدس على ظهر جمل أبيض احتراماً للمدينة التي قام فيها النبي محمّد برحلته الليلية إلى السماء. وقد ارتدى عباءة بالية ومتسخة، واتسم

---

(١) Francesco Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, trans E.J. Costello (Berkeley, CA: University of CaliforniaPress, 1969), 12.

(٢) قضى أول قرار صدر عن الحاكم الجديد للقدس الجنرال رونالد ستورز، بعد سقوطها في أيدي البريطانيين في الحرب العالمية الأولى، بتغطية كل المباني الجديدة، وتلبيسها أو تشييدها بالحجارة (الجيرية). ونُشر في ١٨ نيسان/أبريل ١٩١٨ أول مرسوم(المذكرة العامة رقم ٣٤) يمنع ترميم أو بناء أو هدم أي مبنى في القدس أو في جوارها من دون إذن خطي؛ وتبع ذلك مرسوم آخر يمنع استخدام الجص والحديد المموج في داخل الجزء القديم من المدينة؛ كما صدر أخيراً قرار آخر يحظر استخدام الإعلانات على جدران القدس باستثناء حفنة من الأقسام المسموحة في الأحياء التجارية. راجع Ronald Storrs, Orientations (London: Nicholson and Watson, 1943), 310.

الجنود الذين رافقوه بالقساوة وبالهيئة الباذة، بيد أنهم تميّزوا بالانضباط التام.(١) وركب إلى جانب عمر البطريرك المسيحي سوفرونيوس، كبير قضاة القدس والرجل الذي فاوض على استسلام المدينة. وبحسب راوية القرن العشرين، المؤرخ السير ستيفن رونسيمان، فإن «...البطريرك تذكّر، وهو يشاهد [الخليفة] يقف في المكان، كلمات المسيح فتمتمها عبر دموعه: 'إذا ما رأيتم قائمةً، في المكان المقدّس، رجاسة الخراب التي أنذر بها النبي دانيال'.» بيد أن البطريرك، وبغض النظر عن الظروف، ارتاح لأن القدس أُعفيت، بفضل المفاوضات، من ذل المذابح والعبودية التي ينزلها المنتصرون عادة بالمهزومين.(٢)

توجّه عمر بداية إلى المصطبة التي قام عليها سابقاً هيكل سليمان ومنها صعد صديقه محمد إلى السماء. غير أن ما تبقّى من مصطبة الهيكل غُطّي، وللأسف، بالركام. فأمر الخليفة بتنظيف الموقع وإزالة كل الأنقاض. وشيُد بعد ذلك، وبتوجيهات منه، جامع جديد في ذلك الموقع.(٣) وأظهر عمر شهامة حيال سكان القدس المسيحيين واليهود المرعوبين، فترك لهم أمكنة عبادتهم ولم يفرض عليهم إلا الجزية التي ينص عليها الشرع والتقليد. وبقيت القدس في حال من السلام على مدى القرون الأربعة التالية، إلى أن افتتحت جيوش الصليبيين من الغرب عهداً جديداً من الحرب والدمار باسم الله.(٤)

(١) يرى كريستوفر تيارمان Christopher Tyerman, God's War: A New History of the Crusades (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006)، أن المصادر لا توضح هل وصل عمر إلى القدس على حمار أم على جمل. ويضيف أنه «ارتدى ظاهراً عباءة خشنة ومتسخة، ربما في تناقض مقصود مع الاستعراضات المسرفة التي حبّذها البيزنطيون المهزومون.»

(٢) Steven Runciman, A History of the Crusades, vol. 1, The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem (Cambridge: Cambridge University Press, 1989), 3.

(٣) تألف الجامع الجديد من بناء متواضع ويجب عدم الخلط بينه وبين قبّة الصخرة التي تنسب في الغالب خطأً إلى عمر. راجع Laura Veccia Vaglieri, "The Patriarchical and Umayyad Caliphates," in The Cambridge History of Islam, vol. 1, The Central Islamic Lands, edited by P. M. Holt, Ann K. S. Lambton, and Bernard Lewis (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), 62.

(٤) في تلك السنة هزم القائد الفرنجي شارل مارتيل الجيوش الإسلامية ما بين بواتييه وتور مؤشراً بذلك إلى نهاية تمدّدها شمالاً.

يتفق المؤرخون القرن أوسطيون والمعاصرون على أن سقوط القدس أثّر في شكل كبير في كل من المسلمين والمسيحيين. وكتب كريستوفر تيارمان في كتابه المرموق عن تاريخ الصليبيين، أن «دخول الخليفة عمر إلى القدس في ٦٣٨ يرتدي طابعاً رمزيّاً متعمّداً في التأريخ الإسلامي الكلاسيكي.» وبالفعل، يضيف تيارمان، «تردّد صدى تلك اللحظة الباهرة على مدى قرون؛ ومن المناسب جداً أن التاريخ المعاصر الأكمل للحروب الصليبية وما أعقبه من استيطان غربي في فلسطين وسوريا في القرن الثاني عشر، والذي وضعه الأسقف وليام الصوري، بدأ بالفتوحات العربية وبفشل الأمبراطور البيزنطي هرقل في الوقوف في وجهها».[1]

راقبت أوروبا المسيحية هذه الأحداث بارتياب تحوّل سريعاً إلى استهوال بعدما شملت الفتوحات العربية شمال إفريقيا لتعقبها شبه الجزيرة الإيبيرية، إلى أن بلغت راية الرسول جنوب فرنسا وصقلية. وشكّلت إسبانيا وصقلية، على مدى عدة قرون، ساحة المعركة الأولى بين الإسلام والغرب التي عبّدت الطريق أمام مفهوم الحرب المقدسة التي أعلنتها البابوية للشروع في الحملة الصليبية الأولى. والمؤكد أن البابا ألكسندر الثاني قد عرض في مطلع القرن الحادي عشر وقف الكفارة ومنح الغفران التام عن الخطايا لجميع الفرسان والرجال الذين تحت السلاح في إسبانيا. وسوّق البابا غريغوري السابع في ١٠٧٤ «المكافأة الأبدية» للجنود الذين يحاربون الكفّار.

بيد أن المدّ الإسلامي كان قد تراجع بعد القرن التاسع ولم يعد يمثّل تهديداً لأوروبا المسيحية. فقد انقلب الهجوم الإسلامي على نفسه إذ أخذت الامبراطورية الإسلامية في التجزّؤ من جراء الانشقاقات الدينية والحكّام المتنافسين. ويحاجُّ باحثون، أمثال تيارمان، في التأريخ الجديد للحملات الصليبية أن ضعف المسلمين بالذات، إضافة إلى المكافآت الدينية والزمنية التي قدّمتها الكنيسة، هو الذي أوصل فرسان أوروبا إلى الأراضي المقدسة. وهكذا، ومع نهاية القرن الحادي عشر، ولّد مفهوم النزاع المحق أخلاقيّاً للدفاع عن الذات المسيحية، مقروناً بالكسب المادي

(١) Tyerman, God's War, 51-52.

على حساب الكفّار، الدعوة إلى الحرب المقدسة. سوى أن تيارمان افترض، في ما يخص الكنيسة، أن:

الدوافع إلى الحرب المقدسة لم تكن إلا في جزء منها لأسباب عملية، وأن تلك التي وُجّهت ضد المسلمين لم تكن متعلّقة في الغالب إلا عرضاً بأي ضرورة عسكرية للدفاع عن النصرانية. فما دخل في حسبان البابوات المتعاقبين هو مكانة هذه الحروب في التاريخ المسيحي والفرصة التي توفّرها لإعادة إحياء الحماسة الدينية والتفاني والتقوى، والتي تمثّل الاهتمامات الداخلية للكنيسة وللمجتمع المسيحيين.(١)

بيد أن دعوة البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية أطلقت حركة ضخمة أثارها القدر نفسه من الجشع المادي الفوري والحماسة الدينية المفرطة. وقدّم البابا أوربان لجنود الصليب الغفران الكامل للخطايا إضافة إلى البحبوحة في الأراضي المقدسة. وقد اعتنى البابا أوربان، في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٠٩٥ في مجمع كليرمونت، بتنظيم النداء إلى نجدة الأراضي المقدسة، وإنقاذ مسيحيي الشرق، وحماية الحجّاج من براثن الكفّار المسلمين بوصف ذلك حدثاً كونيّاً قضت به السماء.

حملت نهاية القرن الحادي عشر زمناً صعباً على فلاحي أوروبا الغربية – تسببت المجاعة، والطوفانات، والاجتياحات، والحروب الصغيرة بانزعاج عام أنتج أرضاً خصبة للتعاليم الرؤيوية التي أقنعت رجل القرون الوسطى بأن «المجيء الثاني» بات في متناول اليد.(٢) من هنا وجدت جاذبية الحملة الصليبية التي نبعت من دراما كليرمونت أرضاً خصبة واجتاحت سريعاً كل زاوية من زوايا أوروبا. ومثّل تحرير القدس جوهر الإعلان المقدّس للحرب. وشدّد البابا أوربان في خطبته العامة أمام الحشود خارج كاتدرائية كليرمونت على الطابع القدسي الخاص للقدس واصفاً آلام

(١) Tyerman, God's War, 54.

(٢) Runciman, History, vol. 1, 115.

الحجاج الذين سافروا إلى المدينة المقدسة وعذاباتهم. وهكذا بات طريق رجال ونساء أوروبا القرون الوسطى يؤدي إلى القدس سواء من خلال الحج، أو التوبة، أو الحرب المقدسة.

دفع مفهوم التبرير الأخلاقي هذا، الذي حفّزه التعصّب الديني، الصليبيين إلى شن الحرب الشاملة. وهكذا تركت سبحة الحصارات والقتل والمذابح ومشهد الوحشية الفردية أو الجماعية، علامة دائمة في الذاكرة الثقافية للمسلمين واليهود والمسيحيين الشرقيين في الشرقين الأدنى والأوسط. وأجبرت الظروف الاستثنائية للحملات الصليبية مقاتلي الطرفين على إعادة النظر في الحرب التقليدية واللجوء إلى التكتيكات الخفيّة، التي اشتملت على الحرب النفسية والجاسوسية والاغتيال وعززت من دور الإرهاب في الحرب. فرواية «أكلة لحوم البشر في المعرّة» ومقتل حاكم صور المركيز كونراد دي مونتفيرات على أيدي الحشاشين وهم النظير القرن أوسطي للإرهابيين المعاصرين المحترفين، يقدمان مثلين على استخدام الإرهاب سلاحاً وعلى ممارسة التكتيكات الخفيّة. وقد ترك كلا الحدثين بصمتهما على إرث الحملات الصليبية في الشرق الأوسط.

في الحالة الأولى تمثّل مدينة المعرّة في سوريا، ربما أكثر من أي موقع آخر على طريق جنود الله المسيحيين، رمزاً للحرب الشاملة كما مورست في حقبة القرون الوسطى. سوى أن التفاصيل ليست دقيقة ويستحيل، في ما عدا المجزرة الشاملة التي حصلت، التحقق تماماً من المدى الكامل لما تعرّض له سكان المدينة من أعمال وحشية.

في ١٠٩٨ تابع سكان مدينة المعرّة، بذعر شديد، معركة أنطاكية التي تبعد عنها مسافة ثلاثة أيام سير فقط.[١] وما لبث أنطاكية أن سقطت ووسع الصليبيون غزواتهم إلى القرى المجاورة. وتم، في الوقت الراهن، تحييد المعرّة. بيد أن بعض العائلات

(١) Amin Maalouf, The Crusades through Arab Eyes, trans. Jon Rothschild (London: Al Saqi, 1984)
يشكّل هذا الكتاب الرواية الأحدث المتعلّقة بهذا الموضوع بالترجمة الإنكليزية. وقد استخدم معلوف السجل الزمني العربي والغربي (الفرنجي) للأحداث.

اختار تجريب حظّه في المدن الكبرى وهي حلب وحمص وحماه – وأثبت ذلك، في إدراك متأخّر، أنه خطوة حكيمة.

وصل الصليبيون عند أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٠٩٨، وسارعوا إلى تطويق المدينة، واحتجزوا جميع سكّانها داخل أسوارها. لم تمتلك المعرّة جيشاً، واعتمدت المدينة في الدفاع عن نفسها على ميليشيا محلّية مؤلفة من شبان متحمسين، لكنهم يفتقرون أساساً إلى الأسلحة المناسبة وإلى التدريب. قاوم هذا الجيش الارتجالي والسكان هجوم الصليبيين الكاسح على مدى ١٤ يوماً، وذهبوا، بحسب أحد مؤرّخي الأحداث العرب، إلى حد قذف الفرسان الغربيين الذين حاولوا خرق الأسوار بخلايا النحل.[١] سوى أن سقوط المعرّة بات مسألة وقت.

اتصل سكان المدينة، في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها، بقائد جيش الصليبيين بوهيموند، سعياً منهم لتسليم المدينة في مقابل الإبقاء على حياتهم.[٢] وقضى جانب من الشروط بإخلاء مواطني المعرّة بعض المباني المجاورة لمحيط المدينة، وانسحب السكان، بعدما وفوا بجانبهم من الصفقة، إلى المنازل والأقبية في وسط المدينة. وانتظروا طوال الليل وهم في حالة من الرعب. أراد المتفائلون أن يصدّقوا أنه سيتم احترام الاتفاق الذي أبرموه مع المقاتلين الغرباء الوافدين من وراء البحار. وانتاب غيرهم تفاؤل أقل وخافوا من الأسوأ، إلا أنهم أحصوا جميعهم ساعات الظلمة التي ستفضي حتماً إلى الفجر وقد قبلوا ذلّ الاحتلال والمستقبل الغامض.

دخل الصليبيون المدينة، مع أولى ساعات الصباح، وبدأت المذبحة. وقد سجّل

---

(١) Maalouf, The Crusades، ٣٨. On the siege see بالنسبة إلى الحصار راجع ابن الأثير Ibn al-Athir in Gabrieli, Arab Historians, 9.

(٢) يقول ابن القلانسي، Ibn al-Qalanisi, The Damascus Chronicle of the Crusades, trans. H. A. R. Gibb (London: Luzac, 1967), 47، إن الفرنج طرحوا تكراراً التفاوض على استسلام المدينة وعرضوا الإبقاء على أملاك سكانها وحياتهم، إلا أن الانقسامات بين المدافعين حالت دون قبول الشروط. وبعدما اخترق الصليبيون الأسوار، هرب معظم السكان إلى منازلهم واستعدوا للدفاع عن بيوتهم، وعرض الصليبيون مرّة أخرى الإبقاء على حياتهم لكنهم لم يحترموا وعدهم.

الكاتب العربي، ابن الأثير، صورة هائلة ولكن مكدّرة للمذبحة التي نزلت بمواطني المعرّة. وكتب، أنهم «استباحوا [المعرّة] لثلاثة أيام، ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا منهم ما يزيد على مئة ألف إنسان وأخذوا الكثيرين غيرهم أسرى».(١) وما لا شكّ فيه أن ابن الأثير قد غالى بما أن معظم المؤرخين قدّروا عدد سكان المعرّة عند أقل من عشرة آلاف. بيد أن تعليقات ابن الأثير تتضاءل بالمقارنة برواية رودولف أوف كاين الذي كتب أن «جنودنا قاموا في المعرّة بسلق الوثنيين البالغين في قدور الطبخ؛ وخوزقوا الأولاد والتهموهم مشويين».(٢)

وضاعفت أكثر في درجة العنف اللامعقول المرتبط بالحملات الصليبية في الشرق الأوسط روايات، قد تكون حقيقية أو خيالية، عن أكل لحوم البشر. وشهد أحد مؤرخي الأحداث على أن جنود الجيش المسيحي، في خلال حصار أنطاكية:

اضطروا، بعدما قتلوا معظم جيادهم، ... إلى شن الحرب على الحيوانات النجسة. اقتات الجنود والفقراء الذين تبعوا الجيش بالجذور والأوراق؛ بل ذهب بعضهم إلى حد التهام جلد أحزمتهم وأحذيتهم؛ فيما نبش الأكثر بؤساً جثامين السراسنة، ونازعوا الموت على فريسته.(٣)

يقدّم فولتشر أوف تشارترز الإثبات على اللجوء إلى أكل لحوم البشر. ويشرح في عرضه لماجريات الحملة الصليبية الأولى:

عانى أناسنا، هنا، بعدما استمر الحصار عشرين يوماً، جوعاً شديداً. وتصيبني القشعريرة لقولي إن الكثيرين من أناسنا وقد أنهكتهم شدة الجوع، قطعوا أجزاء من أعجاز السراسنة الذين ماتوا هناك وقاموا بطبخها، وقد التهموها بأفواههم الوحشية

(١) Maalouf, The Crusades, 38; Ibn al-Athir in Gabrieli, Arab Historians, 9.

(٢) Rudolph of Caen in Maalouf, The Crusades, 39.

(٣) Joseph F. Michaud, History of the Crusades, vol. 1, trans. W. Robson (London: Routledge, 1852; repr., New York: AMS, 1973), 159.

حتى قبل أن تنضج. وهكذا تعرّض المحاصِرون للعذاب وليس المحاصَرين.[1]

ويعلّق وليم الصوري أيضاً، في تأريخه لماجريات الحملة الصليبية الأولى، أن بعض الجنود المسيحيين لجأوا في حصار المعرة وقد استبد بهم الجوع إلى أكل جثث من سقطوا من أعدائهم. غير أن هذا لم يتسبب بالهول كالذي تسبب به اضطرار بعض من هؤلاء الأفراد البائسين، بفعل الجوع، إلى أكل الكلاب.[2] واستخدم قادة الحملة الصليبية، في مناسبات أخرى، أكل لحوم البشر كحرب نفسية للتهويل على المسلمين. وحدثت حالة من هذا النوع قبل الاستيلاء على صور. فقد اضطر الصليبيون إلى التعامل مع جواسيس قاموا، إضافة إلى جمع المعلومات عنهم، بنشر شائعات عن الهزيمة الوشيكة.

أمر بوهيموند، وهو واحد من أوسع القادة الصليبيين حيلة، بإعدام عدة أسرى مسلمين وبشك جثامينهم بالأسياخ وطهوها إعداداً لوجبة طعام له ولجنوده. وبحسب جوزيف ميشو، فإن الجواسيس السراسنة نشروا في شكل واسع ما حصل في المعسكر المسيحي. «وانتقلت روايتهم من فم إلى فم حتى وصلت الأخبار إلى البلدان الأكثر بعداً: وأخذ الرعب بسكان أنطاكية وبكل مسلمي المدن السورية، ولم يعودوا يغامرون في الاقتراب من معسكر الصليبيين».[3] ونجحت الخطّة بالتأكيد، وقد تكون واحدة من مصادر الروايات عن أكل لحوم البشر الذي أصبح جزءاً لا يتجزّأ من النظرة إلى الصليبيين بين المسلمين.

شكّلت صورة الوحشية هذه التي نفّذها أكلة لحوم البشر الذين يقطرون دماً، بالفعل، إطاراً على مدى الزمن لذاكرة الرعب المرتبطة بوصول الصليبيين إلى الشرق الأوسط. وراوحت ردّات فعل المسلمين على المسيحيين الغربيين بين الهول والذل:

---

(١) Fulcher of Chartres in ed. Edward Peters, The First Crusade: The Chronicle of Fulcher of Chartres and Other Source Materials, 2nd ed. (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998), 84.

(٢) أصيب صليبي آخر، هو ألبير دايكس، بهول أكبر لمنظر الجنود المسيحيين وهم يتناولون وجباتهم من لحم الكلاب منه لحالات أكل لحوم البشر. راجع Michaud, History, vol. 1, 184n.

(٣) Michaud, History, vol. 1, 137.

هول ورعب ردّاً على وحشية المسيحيين، والذل نتيجة هزيمتهم على أيدي مثل هؤلاء الوحوش المجانين. وأضافت إقامة المملكة المسيحية في القدس الاشمئزاز إلى هذه النظرة حين بات الفرسان المسيحيون والمسلمون على اتصال يومي في ما بينهم.

غالباً ما يُستشهد بنادرة تُبرز الفروق العميقة في الحشمة إضافة إلى المبادئ الأخلاقية، رواها أسامة بن منقذ عن خادم في حمّام إسلامي نزع عنه أحد الفرنج الذين يزورون المنشأة منشفته. ودُهش الفارس لرؤية الرجل حليق الأعضاء التناسلية. فأمره على الفور بحلق شعر عانته وجلب تالياً زوجته إلى الحمّام وأخضعها للعملية نفسها.[١]

بلغت صورة الصليبيين بوصفهم على هذا الحد من الوحشية والسادية ذروتها في خلال الاستيلاء على القدس. فقد شرعوا، حتى قبل دخولهم المدينة، في موجة من المذابح. وبحسب ريموند داغيلرز، الذي شهد على دخول الصليبيين الدموي إلى المدينة، أن الرحمة المروعة عنت قطع الرؤوس فقط. وجاءت نهاية الكثيرين من سكان القدس أكثر قساوة بكثير. أطلقت السهام على الكثيرين منهم فيما عُذّب آخرون حتى الموت أو ألقي بهم في النار لإطالة عذابهم.

سرعان ما سدّت أكوام الجثث والرؤوس والأطراف شوارع القدس الضيّقة، غير أن ذلك لا يُقاس بالفظائع التي ارتكبها الصليبيون في جبل الهيكل. وكتب ريموند داغيلرز عن المذبحة: «لو قلت الحقيقة لفاقت قدراتكم على التصديق.» واستعار آية من سفر الرؤية في تصوير مذبحة المسلمين، مستذكراً أن «... امتطى الرجال وبلغ الدم ركابهم والزمام.» وأضاف ملتقطاً روح العصر: « مثّلت هذه بالفعل دينونة الله العادلة بأن يطفح هذا المكان بدماء الكفّار كونه عانى طويلاً تجديفاتهم».[٢]

ألقت وفرة الانتقام والحقد والجشع التي كرّسها الصليبيون بشبكة واسعة صادت معظم سكّان القدس بغض النظر عن دينهم. أشبع رجال الصليب شهوتهم إلى الدم

(١) Hillenbrand, The Crusades, 277-278.

(٢) Raymond d'Aguilers, in ed. Peters, First Crusade, 260.

بحجز اليهود في النيران المشتعلة داخل كنسهم، وذبحوا جميع من صادفوهم من المسيحيين الآخرين (الأرثوذكس الشرقيون، والأقباط، والأرمن). كما أن فورة القتل لم تنته بعدما سيطر الفرسان على المدينة. فبعد ذلك ببضعة أيام (١٨ تموز/ يوليو) جمع الصليبيون الناجين من المسلمين وأجبروهم على إزالة البقايا البشرية الآخذة في التحلّل في الشوارع. جرّ الناجون البائسون الجثث والأطراف إلى محارق متعددة مشتعلة خارج أسوار المدينة.وما إن انتهوا من مهمتهم الشنيعة حتى تمت تصفيتهم.[١] وبالإضافة إلى الذبح والتعذيب، سطا غزاة القدس على كل ما وقعت عليه أعينهم من أشياء قيّمة، وسارعوا إلى تدنيس أماكن العبادة الإسلامية، بما فيها قبة الصخرة والمسجد الأقصى.[٢]

تحول النزاع في القرن العشرين إلى حرب شاملة نتيجة استخدام الغازات السامة في الحرب العالمية الأولى. بيد أن هول الحرب الشاملة لم يحصل إلا مع القصف التدميري للمراكز المدنية والمذبحة التي شملت النطاق الصناعي في الحرب العالمية الثانية. وما كان اللجوء، في الحربين، إلى القتال غير النظامي والتخريب والتجسس والتآمر إلا نتيجة ثانوية لليأس في مواجهة الهزيمة. وافق البريطانيون، ومن بعدهم الأميركيون، على استخدام العمليات الخفية إضافة إلى القصف الهائل والحصار، بوصفها الوسائل الوحيدة لضرب دول المحور إلى أن يمكن إقحام جيوشها في عمليات عسكرية تقليدية شاملة.

وبحلول ١٩٤٢ ألقي بما سُمي قواعد الحرب وتحييد المدنيين في العمليات العسكرية في سلّة مهملات التاريخ. والواقع هو أن المدنيين حلّوا مكان الجنود، في الحرب العالمية الثانية، بوصفهم الأهداف الأولية. وهدفت الاستراتيجية الكبرى للحرب إلى تحويل المدن إلى ركام، وحرمان العدو من القدرة الصناعية على شن الحرب، وإلى ضرب معنويات السكان، من خلال استخدام الإرهاب، والقضاء

(١) يفتكر تيارمان في الصفحة ١٥٨ من كتابه «حرب الله» God’s War أنه إذا كانت مذبحة سكان المدينة في ١٥ تموز/يوليو عفوية، فإن الإعدامات «صدى مسبق تقشعر له الأبدان لممارسات الإبادة اللاحقة».

(٢) Tyerman, God's War, 158.

بالتالي على رغبتهم في القتال. وفي هذا السياق الجديد من الدمار الشامل والمطلق والقتل، أصبح الاغتيال والخداع، اللذان شُجبا في السابق بوصفهما لاأخلاقيين ولا شهمين، وسيلتين مقبولتين تُستخدمان في خوض الحرب.

ينضح مختلف تأريخات الحملات الصليبية قصصاً عن الجواسيس ومصيرهم (إذا اعتقلوا). امتلكت الجيوش الإسلامية القليل من المعرفة عن القوى الغربية وتكتيكاتها، فاستخدمت الجاسوسية لجمع ما يلزم من الاستخبارات العسكرية والسياسية. وعندما فرض جيش الحملة الصليبية الأولى الحصار على القدس في تموز/يوليو ١٠٩٩، اتضح أنه يحتاج إلى بناء آليات حصار لدكّ أسوار القدس السميكة. وأُمسك في سياق عملية البناء بجاسوس مسلم وسط العمّال.

اعترف الرجل بعد التحقيق معه (عبر مترجمين) بأن الحامية الإسلامية أرسلته للتجسس على الصليبيين. وبعدما اقتنع الصليبيون بأنه ليس لديه الكثير مما يكشف عنه، قرروا أن يجعلوا منه أمثولة. رُبطت يداه ورجلاه، ووُضع على منجنيق (وهو آلة قرن أوسطية لرمي الصخور). وقضت الفكرة بقذفه من فوق التحصينات إلى داخل القدس، لكنهم أخطأوا وتقطّع جسم الرجل التعيس في إثر اصطدامه بجدران الحجارة الدفاعية.[1] وما لا شكّ فيه أن الوفاة المروعة للجاسوس نتجت جزئيّاً من عدائية الصليبيين التامة حيال المسلمين كما أنه قُصد منها أن تمثّل تحذيراً للجواسيس المستقبليين.

أما المثال الآخر على التكتيكات الخفية فمقتل المركيز كونراد أوف منوتفيرات حاكم صور، وهي آخر مركز مسيحي متقدّم في لبنان، على أيدي الحشاشين، وهم طائفة دينية متخصّصة في الإرهاب. بدأت الأحداث المحيطة بنهاية كونراد في ٢٠ نيسان/أبريل ١١٩٢. فقد استقبل في ذلك اليوم ممثلين عن الحملة الصليبية الثالثة. انحنى رئيس البعثة، هنري أوف شامباني، أمامه وأخبره رسميّاً أن فرسان الحملة الصليبية الثالثة انتخبوه ملكاً على القدس. خرّ كونراد لدى سماعه النبأ جاثياً على

(١) راجع "The Fall of Jerusalem: The Version of Peter Tudebode," in ed. Peters, First Crusade, 247.

ركبتيه. وصلّى لله سائلاً ألاّ يعطيه المنصب الملكي إذا كان لا يستحقّه. ووافق بعد ذلك رسميّاً، واتفق الجميع على أن يتم التتويج في فترة قريبة في عكّا.

بعد ذلك بأيام، في يوم الثلاثاء ٢٨ نيسان/أبريل، انتظر كونراد بفارغ الصبر أن تنضم إليه زوجته الأميرة إيزابيلاّ إلى العشاء. إلا أن الأميرة تباطأت في حمّامها وهي غير مستعجلة في شكل خاص للانضمام إلى زوجها. فزواجهما ليس بالزواج السعيد. وقد أجبر فرسان المملكة إيزابيلّا، الوارثة الوحيدة لعرش القدس، على الطلاق من زوجها السابق، همفري أوف تورون، واضطروها إلى الموافقة على كونراد من أجل مصلحة الدولة.

ضجر كونراد أخيراً من انتظار إيزابيلا وتوجّه إلى منزل صديقه القديم أسقف بوفيه. وها إن المركيز، الذي سيصبح قريباً ملكاً على القدس، قد أصبح في مزاج أفضل بكثير بعد عشاء فاخر، وتوجّه عائداً إلى المنزل.

وفيما كونراد يستدير عند زاوية حادة في شوارع صور المظلمة، التقى رجلين طلبا إليه بتهذيب قراءة رسالة كُلّفا تسليمها إليه. لم يمتلك سبباً كبيراً يدعوه إلى الريبة بالرغم من الساعة المتأخرة والظروف الغريبة، لأنه يعرف الرجلين. فقد وصلا إلى صور لاجئين مسلمين وقبلا بعد بضعة أشهر العماد المسيحي، وكان كونراد واحداً من عرابيهما. غير أنه، وفيما شرع كونراد في قراءة الرسالة، استل أحدهما خنجراً من تحت ردائه وطعنه في صدره. تمكن المركيز من الصراخ وهرع حرّاسه سريعاً إلى المكان وقتلوا أحد المهاجمين واعتقلوا الآخر.

وأتى الاعتراف سريعاً تحت التعذيب. أقرّ القاتل بأنه عضو في طائفة إسلامية

يقضي دورها الرئيسي بالاغتيال.[1] والحشاشون مؤسسة دينية أسسها الفارسي حسن الصباح في العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر. وفي ١١٩١، حكم شيخ الجبل، راشد الدين سنان، الفرع السوري للطائفة. وفضّل الحشاشون حفر قلاعهم في الجبال البعيدة ونشروا الرعب في العالم الإسلامي من خلال القتل. واختارت قلة تحدّي اليد الطولى لشيخ الجبل فطعنت خناجر الحشاشين لا محالة أولئك الذين فعلوا. واللافت هو أنهم نادراً ما حاولوا الهرب بعد إنجاز مهمتهم. وقد توجّب على فعل القتل أن يواكبه موت القاتل من أجل التكفير عن الجريمة ولضمان الحصول على مكافأة الجنة بعد الحياة.

أنهى اغتيال كونراد وجود مركز صليبي متقدّم حساس في الشرق الأوسط. وبالرغم من أن أنطاكية (١٢٦٨) وطرابلس (١٢٨٩) وعكا (١٢٩١) بقيت لفترة أطول، فإنه وبنهاية القرن الثالث عشر اندثرت كل آثار الحكم المسيحي بعد الإخفاق الذريع للحملة الصليبية التاسعة. واستمرت حقبة الصليبيين من ١٠٩٥ إلى ١٢٩٢. وباستثناء الحملتين الصليبيتين الأولى والثالثة، منيت الأخرى كلها بالفشل الذريع. بل ان الحملة الصليبية الرابعة لم تبلغ قط الأراضي المقدسة وعمدت بدلاً من ذلك إلى نهب القسطنطينية مساهمة في الانهيار النهائي للأمبراطورية البيزنطية. وحققت الحملة الصليبية السادسة، بقيادة الامبراطور فريديريك الثاني، نجاحاً محدوداً عندما حصل بالديبلوماسية على القدس والناصرة وبيت لحم لعقد من الزمن.

إلا أن ذلك النجاح لم يعمّر طويلاً، وسقطت في النهاية كل الأراضي التي

---

(١) تتفق المصادر كلّها على أن القاتلين من أتباع راشد الدين سنان؛ سوى أن الدافع إلى الجريمة ليس واضحاً تماماً. ويزعم بعض الصليبيين الفرنسيين أمثال فيليب أوف درو، أن الملك ريتشارد تدبّر قتل مونتفيرات، لكن مصادر أخرى تقول إن سنان برأ، لدى سؤاله، الملك الإنكليزي. ويزعم مصدر مسلم أن صلاح الدين استأجر أشخاصاً لعملية الاغتيال وعرض على سنان مبلغاً كبيراً من المال لقتل ريتشارد وكونراد، أو أي منهما. وبحسب سيدني باينتر Sidney Painter, "The Third Crusade: Richard the Lionhearted and Philip Augustus," in A History of the Crusades, vol. 2, The Later Crusades 1189-1311, ed. Robert Lee Wolf and Harry W. Hazard (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1969), 80-81, هناك قصّة يرويها المؤرخون فحواها أن كونراد قتل لاستيلائه على سفينة تنقل كنزاً يخص الحشاشين وقد رفض إرجاع الشحنة.

سيطر عليها الصليبيون تحت سلطان سكانها المسلمين. ومن المنظور العسكري، هزم المسلمون المسيحيين هزماً واضحاً، وتوجب أن يمثّل ذلك نهاية الأمر.

٣

المهدي

«المرء هو من يجرؤ على أن يدّعي أنه الذي هو».

ـ ألن فورست[١]

تدفّق الألوف من أبناء البلاد المصريين، يرافقهم البدو، على الحي الأوروبي في الإسكندرية في ١١ حزيران/يونيو ١٨٨٢ وهم يصيحون «الموت للمسيحيين!»[٢]. ولّد تصاعد آلاف الأصوات، إلى جانب جيش من الأرجل التي تضرب الشوارع بقوة، هديراً قويّاً حطّم الصمت المريح لفترة بعد الظهر الذي يخيّم على معظم المدن والبلدات المتوسطية. واندفعت هذه الموجة المدّية من الإنسانية اليائسة، المنطلقة في انفعال قاتل، إلى الشوارع والطرق الضيقة لتصطدم بالأوروبيين التعساء الحظ الموجودين في الشوارع. لاقى الحشد الأجانب، في لحظة الحنق الأولى، بوابل من العصيّ وضربهم من دون شفقة وداس ضحاياه بالأقدام. وتلك العصي، أو النبابيت، التي أوقعت الضرر الأكبر، هي كناية عن عصي خشبية غليظة طويلة يستخدمها الحرّاس المحلّيون.[٣]

بقيت هوية المحرّض على الشغب سرّاً مجهولاً، لكن سرعان ما أشارت عدة

(١) Alan Furst, The World at Night (New York: Random House, 1996), 9.

(٢) Charles Royle, The Egyptian Campaigns, 1882-1885: And the Events Which Led to Them, 2 vols. (London: Hurst & Blackett, 1886), 89. يقدّر رويل أن عدد الحشد وصل تقريباً إلى ما بين ٢,٠٠٠ و ٢,٥٠٠ شخص.

(٣) وقد أثبت فيها أكثر المشاغبين مكراً المسامير لتعطي مفعولاً أكبر.

تطوّرات إلى خديوي مصر، توفيق. فقد وُزّعت عربات ملأى بالنبابيت على الفقراء بتوجيهات من قائد الشرطة الموالي للخديوي.(١) ومثّل وجود رجال البدو المسلحين (الموالين أيضاً للخديوي) ممن تسللوا إلى المدينة عبر الشوارع الجانبية وشرعوا لاحقاً في استخدام بنادقهم الطويلة لإطلاق النار على الأوروبيين، دليلاً إضافياً على أن حاكم مصر يقف وراء الهيجان.(٢) فالبدو، تقليدياً، لا يهتمون كثيراً بالإصلاحات الدستورية وحافظوا على ولائهم لرأس الدولة.(٣) ومثّل موكب جنازة جرى بين العاشرة والثانية عشرة ظهراً يرافقه محلّيون يرتدون العمامات الخضراء إشارة إلى الشروع في المجزرة. وتمثّل عشرات التحذيرات التي تلقاها الأوروبيون من خدمهم المصريين ومن أصحاب المتاجر دليلاً إضافياً على أن المذبحة المنظمة التي أُطلقت في الإسكندرية لم تكن عفوية بل اعتُني بالتخطيط لها.

ومنذ أوائل ما بعد الظهر حتى غياب الشمس هاجمت الزمر المسلحة بمختلف أنواع الأسلحة الاعتباطية، إلى جانب بعض البنادق والسيوف، أي أجنبي يقع تحت أنظارها. وقام الجمع الهائج، خارج مكتب البريد النمسوي، بضرب فتى في الخامسة من العمر حتى الموت.(٤) وأمسكوا بعد ذلك بقليل برجل يترنّح في شارع الراهبات وهو ينزف دماً، غير أن منظره لم يؤدّ إلا إلى إهاجة الرعاع فانهالوا عليه بالنبابيت. قتل المشاغبون كل من أمكنهم وضع يدهم عليه وشرعوا في تجريد الضحايا من كل ممتلكاتهم. إلا أن ذلك لم يكف لإرواء عطشهم إلى العنف، فركّزوا ضراوتهم بعد النهب على الجثث فأوغلوا في تشويهها قبل أن يرموا بها في المرفأ.(٥)

---

(١) المصدر السابق.

(٢) يعلن رويل فيRoyle, Egyptian Campaigns, vol. 2, 88، أن البدو شوهدوا يخزنون بنادقهم في مواقع مختلفة من المدينة.

(٣) أعلن نحو مئة بدوي، في سياق الشغب، ولاءهم إلى توفيق ودرويش باشا ممثل السلطان. أنظر "The Crisis in Egypt: Serious Riots in Alexandria," The Times, 11 June 1882; Royle, Egyptian Campaigns, vol. 2, 182.

(٤) Royle, Egyptian Campaigns, vol. 1, 94.

(٥) المصدر السابق، ٩٧.

اكتسبت ضراوة الرعاع زخماً طوال فترة بعد الظهر وسقط المزيد من الأوروبيين ضحايا للطعن والضرب وإطلاق النار. وتدفّق الحشد المتعطّش إلى الدماء إلى المتاجر المجاورة والمقاهي وأي مؤسسة أخرى يملكها أجانب لإشباع غضبه وملء جيوبه. لم يحرّك أفراد فصائل فرض الأمن في المدينة في الغالب ساكناً بل إنهم انضموا أحياناً إلى الرعاع وأشبعوا ضرباً بعض قليلي الحظ من الرجال والنساء أو الأطفال الذين قادهم سوء حظهم إلى طلب اللجوء لدى الشرطة. ووصل جنود الجيش المصري عند المساء واختفى الرعاع فجأة. ولم تحصل أي توقيفات. غير أن هذه الواقعة العنيفة لم تكن إلا مجرّد فصل أول في سياق الأحداث التي نقلت السيادة المصرية من بلاط القسطنطينية إلى لندن.

صوّب الأسطول البريطاني في المرفأ مدافعه إلى المدينة على نحو ينذر بالشر لكنه لم يطلق طلقة واحدة بالرغم من الغضب. فقد سعت حكومة وليام غلادستون في لندن إلى حل سياسي بالتنسيق مع قوى أوروبية أخرى لكنها لم تعثر على من يواكبها في ذلك. ففرنسا التي أصرت في البداية على استعراض للقوة تراجعت الآن عن أي تدخل ما عدا تقديم الدعم المعنوي للبريطانيين. وبعد شهر من الهدوء المضطرب اندلعت أعمال شغب ثانية في ١١ تموز/يوليو في شوارع الإسكندرية مخلّفة وراءها عدداً أكبر من القتلى ومن الدمار. وهذه المرة فتح الأسطول البريطاني النار وشرع في تدمير المرفأ، إلا أن النهّابين، في ما أعقب ذلك من أعمال شغب، أشبعوا شهيتهم من الحقد على الأوروبيين بإشعال النار في المدينة. وفي اليوم التالي بسطت قوة بريطانية مؤلفة من ٢٥٠ بحاراً إلى جانب ١٦٠ من المارينز الأمن وسط الركام المحترق للحي الأوروبي في الإسكندرية. وصادف الجنود المشهد المروع للشوارع الملأى بالجثث وللنساء اللواتي يغمرن الخرق والفرش بالكاز ويستخدمنها لحرق المنازل المتبقية. وكان نذير الاعتماد البريطاني على مصر (إضافة إلى قناة السويس) هو إقفال مكاتب البريد المصرية بحيث لم يترك لشركة تلغراف الشرق من خيار سوى سحب موظفيها وأدواتها. وانقطعت الاتصالات مع الهند؛ وتدهورت بورصة لندن؛ وتبخّرت ملايين الجنيهات الاسترلينية.

نتجت أعمال الشغب والعنف من سخط عميق الجذور غذّاه الحقد على الأجانب وشجع عليه توفيق من خلف الستار. اعتقد حاكم مصر الرديء، الذي يسعى يائساً إلى استعادة السلطة المطلقة، أن غضب القوى الكبرى المطلق سينزل بالقوميين الذين قلّصوا من سلطته. وحاول استغلال الأزمة السياسية التي حرّض عليها البريطانيون والفرنسيون إلا أنه لم ينجح إلا في تنفير الشرائح الأكثر تأثيراً في المجتمع المصري إضافة إلى جماهير الفلاحين الذين اضطروا إلى تحمّل وطأة البلايا الاقتصادية التي تحل بالبلاد. وقد أحاط توفيق نفسه بزمرة من الرجعيين والملاّكين الأتراك والمداهنين ففقد الاتصال بحقائق المجتمع المصري وركّز في شكل شبه حصري على محاولة التغلّب بالمداورة على القوميين وعلى الجيش المصري. غير أن جهود الخديوي، ولسوء الحظ، أوصلت إلى سلسلة من الدسائس والدسائس المضادة وحسب، وأدت أخيراً إلى إغراق الجسم السياسي المصري في بحر من المؤامرات. وسبق لعدم كفاية توفيق، في وقت سابق لأحداث حزيران/يونيو وتموز/يوليو، أن أدت إلى التنازل للجيش ولعناصر المؤسسة الإسلامية ولطبقة أصحاب المهن الحرّة الصغيرة عن الزخم السياسي للتغيير والتقدم.

بدأ العد العكسي لأعمال الشغب في حزيران/يونيو-تموز/يوليو في شتاء ١٨٨٢ عندما اقترح مجلس الأعيان، الذي تمثّل هذه المجموعات الغالبية فيه، أن يعطي لنفسه الحق في التصويت على التصرّف في نصف الميزانية السنوية المصرية البالغة تسعة ملايين جنيه إسترليني موافقاً على أن يُخصص النصف الآخر لدفع الدين الخارجي. واقترح المجلس أيضاً زيادة في النفقات العسكرية لترقية الضباط من أبناء البلاد إضافة إلى رفع عدد عناصر الجيش إلى ١٨ ألفاً تنفيذاً لفرمان السلطان العثماني. غير أن المراقبين البريطانيين والفرنسيين رفضوا، لسوء الحظ، التخلّي عن إمساكهم بمالية مصر ورفضوا التوصيتين كلتيهما.[١] وفي غضون ذلك ازداد توتّر حاملي السندات الأوروبيين، الذين ترتكز ثرواتهم على تمويل الدين المصري،

(١) المصدر نفسه، ٥٤-٥٥.

بسبب عدم الاستقرار المزمن في البلاد. كما أن الحكومة هزّت أيضاً، من خلال نزوة الانقلاب العسكري، ثقة الحكومتين الفرنسية والبريطانية بقدرة مصر على سداد ديونها الضخمة أو خدمة الفائدة عليها.

مهّدت عدم الملاءة المالية الطريق، في أواخر القرن التاسع عشر، أمام الاستعمار المتدرّج لشمال إفريقيا والشرق الأوسط. لم يدرك حكام المقاطعات شبه المستقلة في الأمبراطورية العثمانية أنهم بسقوطهم ضحايا أصوات الدائنين الأوروبيين الفاتنة أنهم، ومع كل دين، يجتزئون من سيادتهم. ولم تكن الأزمة الاقتصادية المصرية فريدة في نوعها في أراضي السلطة العثمانية بل كانت جزءاً من نمط إذن، وعلى مراحل، من الاستعمار الأوروبي للشرق الأوسط. فمثلاً، سبق الوالي العثماني على تونس خديوي مصر في مراكمة ديون ضخمة ومن ثم إعلانه الإفلاس في ١٨٦٩. وأنشئت لجنة مماثلة لإدارة الدين ضمت ممثلين عن فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا.

سوى أن القوى العظمى ضحّت باستقلال تونس في مؤتمر برلين في ١٨٧٨، ليس بسبب مسألة السندات فحسب بل أيضاً للحفاظ على توازن القوة في أوروبا. إذ مثّلت تونس جائزة ترضية لفرنسا في مقابل استحصال بريطانيا على قبرص.[١] واستغلّت الحكومة الفرنسية في نيسان/أبريل ١٨٨١ غارات شنّها رجال القبائل التونسيون وأجبرت الوالي العثماني على قبول الوصاية الفرنسية. ووفرت معاهدة باردو البراعة القانونية لما هو بخلاف ذلك عملية ضم عارية، لكنها أثارت أيضاً انتفاضات في جنوب البلاد ووسطها تم احتواؤها عبر نشر قوات فرنسية. غير أن الآلاف من رجال القبائل انضمّوا إلى المتمرّدين وبحلول حزيران/يونيو تحول النجاح

(١) A. J. P. Taylor, The Struggle for Mastery in Europe, 1848-1918 (Oxford: Clarendon Press, 1965, 271-73. يناقش تايلور بأن الفرنسيين لم يبدوا اهتماماً في البداية لكنهم صمّموا بالدرجة نفسها على حرمان الإيطاليين من هذا الإقليم. وبحسب لويجي ألبرتيني Luigi Albertini, The Origins of the War of 1914, trans. And ed. Isabella M. Massey, vol. 1 (Londong: Oxford University Press, 1952), 29, فإن الشخصية السياسية الرئيسية في إيطاليا في مطلع القرن العشرين، والمحرّك الأول لضم تونس، هو أوتو فون بيسمارك الذي اعتقد بإمكان تحول عداء فرنسا للأمبراطورية الألمانية إلى شمال إفريقيا.

الفرنسي الأولي إلى نزاع طويل الأمد.[1] ومهما يكن من أمر، فقد أقنع الفرنسيون أنفسهم بأن التمرّد في تونس هو جزء من انتفاضة إسلامية أكبر ستتوسع إلى حركة إسلامية تمتدّ إلى مصر والجزائر وتقوّض موقع فرنسا في شمال إفريقيا.[2]

لم يشعر البريطانيون، في المقابل، بالكثير من القلق حيال الوضع في مصر وأقل منه بالتعاطف مع مأزق فرنسا في الجزائر وتونس. والأكثر من ذلك هو أن غلادستون الليبرالي عارض التدخل الخارجي وشعر بأنه في حال توجّب القيام بعمل ما حيال الأزمة المصرية الداخلية فيجب أن يتم الأمر بالاتفاق بين الأوروبيين. ومع ذلك صمّمت حكومة غلادستون بالقدر نفسه على الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع فرنسا ووافقت على إصدار مذكّرة مشتركة في ٨ كانون الثاني/يناير ١٨٨٢ أكدت للخديوي «الدعم الأنكلو-فرنسي في مواجهة الصعوبات المختلفة التي قد تتداخل مع مسار الشؤون العامة في مصر». ومضت المذكرة إلى الإعلان: «أن الضمانة المقدمة في العلن حول نياتهما الرسمية في هذا المجال تتجه إلى تفادي المخاطر ... التي قد تتعرض لها حكومة الخديوي والتي ستجد بالتأكيد أن إنكلترا وفرنسا متحدتان في مواجهتها»[3].

عزّزت الضمانة الأنكلو-فرنسية بالدفاع عن الخديوي ضد جميع أعدائه الداخليين والخارجيين من وجود السفن الحربية البريطانية في الإسكندرية، وحدّدت المسار الذي لا عودة عنه وأدى إلى أعمال الشغب في حزيران/يونيو وتموز/يوليو وفي النهاية إلى خنق السيادة المصرية. اغتنم توفيق على الفور حماية القوى الخارجية وطلب، مع مستهل عنف المشاغبين، اللجوء إلى حماية المدافع البريطانية في الإسكندرية. وخسر توفيق، بقيامه بهذا، شرعيته في حكم المصريين في الوقت نفسه تقريباً الذي شرعت فيه الأصولية الإسلامية في البروز بوصفها البديل عن السلطة العلمانية في السودان وتونس.

---

(١) Thomas Pakenham, The Scramble for Africa: The White Man's Conquest of the Dark Continent from 1876 to 1912 (New York: Random House, 1991), 121.

(٢) Christina P. Harris, Nationalism and Revolution in Egypt: The Role of the Muslim Brotherhood (The Hague: Mouton, 1964), 45.

(٣) Harris, Nationalism, 44-45; سُلمت المذكّرة إلى الحكومة المصرية في ٨ كانون الثاني/يناير ١٨٨٢.

ومن سخرية الأمور أن الفرنسيين الذين حثّوا على التدخل بغية كبح انتشار ما تصوّروا أنه حركة إسلامية حرّضوا على ذلك فقط من خلال قصف البريطانيين للإسكندرية. وكانت ردة فعل زعيم القوميين أحمد عرابي الأولى على البوارج الحربية البريطانية هي في إبلاغ غلادستون أنه «سيتم اللجوء إلى حماسة المحمديين الدينية للدعوة إلى الجهاد في سوريا وشبه الجزيرة العربية والهند.... وأكرّر، وأعيد التكرار، أن الضربة الأولى التي ستتلقاها مصر من إنكلترا أو من حليفاتها ستتسبب بسفك الدم في مختلف أنحاء المدى الممتد من آسيا إلى إفريقيا». وهدّد أيضاً، في رسالته إلى رئيس الوزراء، بمصادرة كل الممتلكات الأوروبية وإلغاء الرقابة المشتركة وبالتنكّر للديون وبتدمير القناة وبقطع الرابط التلغرافي بين بريطانيا والهند.[1] لم توجد فسحة كبيرة للتسوية، وسرعان ما قفزت الأحداث بقوة إلى المواجهة العنيفة. وباتت الحكومة البريطانية، وعلى رأسها غلادستون، مقتنعة بأن عرابي وأتباعه فرضوا الديكتاتورية العسكرية ونظموا أعمال الشغب.

دكّت المدفعية البريطانية حصون الإسكندرية، فاستولى عرابي وأتباعه على السلطة واستعدوا للحرب. وأمر غلادستون، على تردّد، بتدخل عسكري مباشر، ونزل ١٨,٥٠٠ جندي بريطاني على أرض مصر. تناوش الجيشان على مدى عدة أسابيع قبل أن يتصادما أخيراً في ١٣ أيلول/سبتمبر ١٨٨٣ في التل الكبير شمال القناة. وبعد معركة قاسية هزمت القوات البريطانية بقيادة السير غارنت وولسلي جيش عرابي المؤلف من ١٥ ألفاً. وأعيدت مصر إلى توفيق غير الكفؤ. وقرر البريطانيون عندئذ حكم مصر من خلال الخديوي المطواع مدعومين بجيش صغير من الجنود البريطانيين وحفنة من الموظفين الرسميين. وسرعان ما عاد الأجانب إلى الإسكندرية التي أعيد بناؤها وانتشروا أيضاً في القاهرة حيث سارعوا إلى السيطرة على اقتصاد مصر وتجارتها.

---

(١) وصلت الرسالة إلى غلادستون بواسطة بلانت الذي تلقى في ٢ تموز/يوليو ١٨٨٢ نسخة مترجمة من جان صابونجي. W. S. Blunt, Secret History of the British Occupation of Egypt: Being a Personal Narrative of Events (London: Unwin, 1907), 371-74.

طفت الإسلامية التي خشي منها الفرنسيون إلى السطح – ليس في مصر أو الجزائر أو تونس، بل في السودان[1] تحت لواء محمد أحمد بن عبدالله الذي استغل استياء السودانيين من الإدارة المصرية فأعلن نفسه المهدي المنتظر، مخلّص الإسلام.[2] وقضى هدفه بإحياء الإيمان الإسلامي وسنّة الرسول من خلال العودة إلى القرآن وإقامة الجمهورية الإسلامية.[3] وبشّر المهدي بالاقتداء بتعاليم محمد على أساس العودة إلى فضيلة العبادة الصارمة والصلاة والبساطة كما حدّد ذلك القرآن. ودان أيضاً تعاطي التبغ والكحول، ودعا إلى فصل النساء عن مجتمع الرجال.[4] اجتذب أتباعاً كثيرين بلغت أعدادهم مئات الآلاف. وقد تلقى المهدي تعليمه في المدرسة الصّوفية بالرغم من أن فكره اللاهوتي شبيه بتطرفه وبصرامته بفكر الطائفة الوهّابية في السعودية. وبشّر مع ذلك بنزعة إسلامية أصولية ولدودة اجتذبت آنئذ الكثيرين من المسلمين في ما هو أبعد من السودان.

وأعلن المهدي، لتحقيق هذه الغايات، الجهاد ضد الإدارة المصرية؛ وسعى أتباعه بفرح إلى المعركة لتحقيق الشهادة. وسحقت جيوش المهدي المؤلفة ممن أسماهم الجنود البريطانيون «ذوي الشعر الأجعد الأسود» – محاربون شبه عراة من قبائل الهدندوا مسلحون بالرماح والسيوف وقد أسكرتهم الحماسة الدينية – بسهولة القوات السيئة التجهيز والاستعداد التي أرسلتها القاهرة، واستولت مع ١٨٨٣ على معظم الحاميات المصرية المنتشرة في السودان. عَلِقَ آلاف المصريين وواجهوا مصيراً

(١) ضم سودان القرن التاسع عشر سودان اليوم إضافة إلى الصومال وأريتريا وأثيوبيا.

(٢) المنتظر (أو المهدي) هو الذي تم التنبؤ بأنه مخلّص الإسلام الذي سيبقى على الأرض لسبع سنوات أو تسع أو تسع عشرة (بحسب التفسير) قبل يوم الدينونة. ويعتنق الإسلام الصوفي والشيعي هذا المفهوم، إلا أنه لم يصبح قط عقيدة رسمية لدى السنّة الذين لا يساندونه ولا يدينونه. إلا أنه، وبحسب إدوارد مورتيمر، Edward Mortimer, Faith and Power: The Politics of Islam (New York: Vintage, 1982), ٥٤, أمسك بقوة بمخيلة الكثيرين ممن يصفون أنفسهم بأنهم من أهل السنة العاديين، وذلك بفضل الدعوة الصوفية.

(٣) William L. Cleveland, A History of Modern Middle East (San Francisco: West-View, 1994), 117-18.

(٤) Rudolf C. Slatin, Fire and Sword in the Sudan: A Personal Narrative of Fighting and Serving the Dervishes, 1879-1895, trans. F. R. Wingate (London: Arnold, 1896), 126, 132, 141.

رهيباً على أيدي المهدي وأتباعه. وسبق لعدد كبير منهم أن لجأوا إلى الخرطوم، وهي واحدة من الحاميات التي لا تزال تحت السيطرة المصرية.[1] وطلبت الحكومة البريطانية، في ١٨٦٤، إلى الجنرال تشارلز غوردون أن يقود قوة إغاثة مؤلفة من جنود من أبناء البلاد لإنقاذ المصريين العالقين.[2] ونجح الجنرال غوردون في إجلاء ٢,٥٠٠ امرأة وطفل قبل أن يفرض جيش المهدي الحصار على المدينة.

لكن لم تكن المشاعر الإنسانية هي التي حفّزت الحكومة البريطانية بقدر ما أن تمرّد المهدي غمر شرق السودان وهدّد الموانئ التي تحرس المخرج الجنوبي لقناة السويس الذي يربط السودان مع جدّة ومكة. وبات القلق الأكبر من أن نجاح المهدي في نشر التمرد إلى الأقاليم العربية في الأمبراطورية العثمانية سيمثّل تهديداً لطريق الهند. والأكثر من ذلك أن المهدي، إذا نجح في الاستيلاء على الخرطوم، فسيسيطر على وادي النيل من السودان إلى البحر المتوسط. وأجمع المسؤولون البريطانيون في لندن والقاهرة على أن عليهم البقاء في مصر إذا أرادوا احتواء انتفاضة المهدي.

استمرّ غلادستون في التبشير بأن بريطانيا ستنسحب من مصر، لكن ذلك مثّل وعداً أجوف. وما أقلق حكومته هو عدم وجود ما يكفي من الموارد لتحصين مصر واستعادة السيطرة على السودان. وعندما نجحت جيوش المهدي في نشر التمرّد في شرق السودان قررت الحكومة البريطانية تعزيز قواتها في مصر متخلّية في شكل أساسي عن غوردون والخرطوم. وجرت محاولة جدية واحدة لكسر الحصار وإنقاذ غوردون، لكنها فشلت. وسقطت الخرطوم في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٨٨٥، ومُزّق الجنرال غوردون أشلاء وقُطع رأسه. ونسيت بريطانيا، في السنوات العشر التالية، أمر غوردون والخرطوم تاركة السودان للمهدي وخلفائه.

(١) آوت الخرطوم ٦٠ ألفاً من السكان ودافعت عنها حامية مؤلفة من ألفي رجل. أنظر Dominic Green, Three Empires on the Nile: The Victorian Jihad, 1869-1899 (New York: Free Press, 2007), 150.

(٢) اضطر غوردون إلى تدبير نقل نحو ١٥ ألف موظف حكومي وجندي وعوائلهم بالمراكب إلى مصر (Green, Three Empires, 152).

كتب بول كنيدي أن «مصر مقبرة الدبلوماسية الغلادستونية»[1]. واستمر غلادستون، عبثاً، في التأكيد للجمهور البريطاني بأن مغادرة المسؤولين البريطانيين والجنود للبلاد ليست إلا مسألة وقت، لكن مشكلة أمن قناة السويس استمرّت وشوّهت المخططات الليبرالية الكبرى وأدت إلى تدهور سريع في العلاقات مع الفرنسيين وحافظت على كل احتمال بإيقاظ شبح «المسألة الشرقية». فمصر كانت لا تزال إقليماً في الأمبراطورية العثمانية وقد امتلك حكامها السلطة بإنعام من السلطان في القسطنطينية.

كان عطف السلطان، ولو لوقت طويل، شعائرياً، ومع ذلك بقيت مصر، من الناحية الشرعية، ملحقة بالمجال العثماني، ومن شأن أي توسيع جذري لأراضي السلطنة أن يستحضر بالتأكيد مصالح القوى الأوروبية الأخرى. وأقام مؤتمر برلين في ١٨٨٤ شيئاً من التفاهم الواسع حول الاستغلال الأوروبي الرسمي لإفريقيا؛ ومن شأن أي تغيير دراماتيكي في مصر وفي السودان أن يكشف بسهولة عن هذه الاتفاقات.[2]

لم يترك أمن قناة السويس بالفعل الكثير من الملاذ للإنكليز سوى البقاء وتعزيز قبضتهم على مصر وكذلك على المنطقة المجاورة المباشرة. وسهّلت هذه العملية، مع انهيار المطامع الاستعمارية الإيطالية في أثيوبيا، توسيع بريطانيا لمصر لتشمل السودان. ففي الأول من آذار/مارس ١٨٩٦، عانى الجيش الإيطالي هزيمة كارثية في عَدْوَة في الحبشة وخسر ما يزيد على نصف جنوده أمام القوات الحسنة التنظيم

(١) Paul Kennedy, The Realities Behind Diplomacy: Background Influences on British External Policy, 1865-1980 (Glasgow: Collins, 1981), 88.

(٢) حدد التزاحم على إفريقيا، الذي افتتح المؤتمر أعماله به، دوائر النفوذ التي قسمت المنطقة بين القوى الأوروبية.

لأمبراطور أثيوبيا مناليك الثاني.(١) وشجعت الهزيمة خليفة المهدي، خليفة عبدالله، على فرض حصار على حصن الإيطاليين في قصالة في شمال شرقي السودان.(٢) طلب الإيطاليون المساعدة من أجل إنقاذ حاميتهم وأطلقوا في هذا السياق سلسلة من الأحداث حوّلت السودان إلى مستعمرة بريطانية أخرى.

قررت حكومة اللورد ساليسبري أنه من الأفضل غزو السودان بذريعة إنقاذ الإيطاليين بدلاً من السماح للفرنسيين بالتحرّك إلى المنطقة.(٣) وحقق ساليسبري بضربة واحدة الأمن الإمبريالي والانتقام لموت الجنرال غوردون في الخرطوم. وقهر هوراسيو هربرت كيتشنر السودان، بعد حملة مرهقة استمرت ثلاثة أعوام (١٨٩٦-١٨٩٩)، واستولى على الخرطوم، ظاهرياً باسم الخديوي ولكن عملياً لضمان قناة السويس لبريطانيا العظمى. وبحسب أ. ج. ب. تايلور:

> أكملت الحملة البريطانية على السودان الثورة في السياسات المتوسطية. فقد نوى البريطانيون في السابق اعتراض روسيا في المضائق [البوسفور] وسعوا بالتالي إلى إبقاء الفرنسيين على الحياد. إلا أن انهيار إيطاليا وجه الضربة القاضية إلى هذه السياسة. الأسطول الإيطالي عديم الفائدة: فالإيطاليون يحتاجون إلى المساعدة بدلاً من تقديمها.... وبما أنه لا يمكن للبريطانيين عبور المضائق قرروا البقاء في مصر في شكل دائم والدفاع عن قناة السويس بالقوات المسلّحة الموجودة هناك.(٤)

لم تعش دولة المهدي الإسلامية إلاّ عشرين سنة بعد وفاته، غير أن تمرّده وما

(١) نصب مناليك الثاني، حاكم مملكة شيوا المستقلة في أثيوبيا، نفسه أمبراطوراً على أثيوبيا بدعم من الإيطاليين. وأجبره الإيطاليون في ٢ أيار/مايو ١٨٨٩ على توقيع معهادة حوّلت أثيوبيا بالفعل إلى محمية إيطالية مع إقامة جالية في أريتريا. تنكر مناليك في ١٨٩٣ للمعاهدة فحاول الإيطاليون إعادة بسط سلطتهم ليواجهوا هزيمة مذلّة في معركة عدوة في ١ آذار/مارس ١٨٩٦ أدت إلى مقتل سبعة آلاف جندي إيطالي وأسر ثلاثة آلاف آخرين.

(٢) استولى جيش المهدي على قصالة في ١٨٨٥، ثم استولى عليها الإيطاليون في ١٨٩٧.

(٣) أصبح روبرت غاسكوني-سيسيل، مركيز ساليسبري، زعيماً للمحافظين في ١٨٨١ عقب موت بنجامين ديزرايللي، ورئيساً للوزراء في ١٨٨٦. وبقي، لفترة ثلاث سنوات، رئيساً للحكومة حتى ١٩٠٢.

(٤) Taylor, Struggle for Mastery, 367.

أعقبه من نجاح، استجلبا الكثير من الانتباه في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وأثبتت انتصارات المهدي المذهلة، في خلال فترة الاستراحة القصيرة في التوسّع الأوروبي الذي لا يرتوي في الشرق الأوسط، أن في وسع الإسلام هزم الغرب. والدرس الذي أعطته هو أن الإسلام النقي، الموحّد تحت قيادة الخليفة (الملحوظ أن من خَلَفه عُين خليفة)، يمكن أن يمثل قوة ذات بأس.[1]

ومع ذلك، ترك إرث المهدي انطباعاً قوياً بالدرجة نفسها لدى الأوروبيين، خصوصاً البريطانيين والألمان، الذين أقنعوا أنفسهم أن التلاعب بقوة الإسلام من خلال السيطرة على الخليفة يوفّر هامشاً ضخماً بالنسبة إلى المواجهة الاستعمارية التي تلوح في الأفق. بيد أن أياً من البريطانيين أو الألمان، أو القوى الأوروبية الأخرى، لم يقدّر بأن إغراء الدولة الإسلامية الطاهرة، برئاسة خليفة ثيوقراطي-علماني، قد أصبح فكرة مستحوذة على جيش صغير، لكنه ينمو باطراد، من المفكرين المسلمين واللاهوتيين والطلاب. وقد استمر هؤلاء في التراكب في تنظيمات إسلامية متنوعة وقوى مناضلة سرّية، لتبلغ ذروتها في المجموعات الراديكالية والإرهابية التي هيمنت على الشرق الأوسط في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين.

سعت أجهزة الاستخبارات الغربية، منذ الحرب العالمية الأولى حتى السبعينيات، إلى تسخير طاقة الإسلام السياسي لغاياتها الخاصة. وحاولت ألمانيا الاستعمارية في ١٩١٤، وأعقبتها في ذلك بريطانيا سريعاً، استغلال النفوذ الروحي للخلافة لتحقيق أهداف استراتيجية عسكرية محدّدة في الشرق الأوسط. وأقنع الألمان السلطان العثماني بإعلان الجهاد الذي لم يجد له إلا أذناً صمّاء، فيما حاول البريطانيون تنصيب شريف مكة، خادم المدينتين المقدّستين مكّة والمدينة، خليفة عربياً في مقابل السلطان التركي لكنهم اكتشفوا أن ذلك بالكاد أحدث تموّجاً من الاهتمام في العالم الإسلامي. فقد أساءت الأمبراطوريتان في الحكم إلى معنى الخلافة وأخطأتا في فهمها وفي فهم المدى الذي يمكن فيه للإسلام السياسي خدمة مصالح الغرب.

---

(١) Cleveland, Modern Middle East, 102.

٤

أفول الإسلام الإمبريالي

«أعتقد أن هذه الحركة الإسلامية تمثّل واحداً من أكبر المخاطر المستقبلية علينا، وهي بالتأكيد تهديد أكبر بكثير من 'الخطر الأصفر'»

ـ السير أرثور نيكولسون، النائب الدائم لوزير الخارجية[١].

في الخامسة والنصف من صباح الثالث من آذار/مارس ١٩٢٤، شقّت قافلة صغيرة من ثلاث سيارات تتبعها شاحنة طريقها عبر شوارع القسطنطينية الرطبة. غرقت السيارات من وقت إلى آخر في الشوارع الموحلة مما اضطر عناصر الجندرمة الذين يواكبون فريق الثمانية إلى الخروج ووضع الحجارة تحت الإطارات لجعل الآليات تتحرك. نطنطت القافلة على طول البوسفور ومن فوق جسر غلاطة مروراً بجامع بايزيد ثم عبر بوابة إدرين دائرة من حول أسوار يديكول القديمة لتبلغ أخيراً محطة القطار في كاتالا. وعند الحادية عشرة من قبل الظهر نزل الخليفة الأخير، عبد المجيد الثاني، من السيارة تتبعه اثنتان من زوجاته وابنه وابنته ويرافقه كبير الياورين وطبيبه الخاص وسكرتيره الخاص.[٢] قدّم رئيس المحطة لعبد المجيد

---

(1) Joseph Heller, British Policy towards the Ottoman Empire, 1909-1914 (London: Frank Cass, 1983), 39.

(٢) ترأس الخليفة مؤسسة حاكمة هي في الوقت نفسه دين ودنيا. وعلى ما يشرحه برنارد لويس في Bernad Lewis, What Went Wrong?: Western Impact and Middle Eastern Response (Oxford: Oxford University Press, 2002), ١١٤ فإن الخليفة «نفسه لم يكن لا فقيهاً ولا لاهوتياً، بل ممارساً لفنون السياسة وأحياناً الحرب».

كل المجاملة وأنزل الفريق في منزله المجاور للمحطة. وأقامت الشرطة طوقاً لإبعاد المؤمنين والفضوليين وأيضاً لضمان أن يوافق عبد المجيد على قرار البرلمان التركي الجديد بأن يغادر البلاد.(١)

عند منتصف الليل، دخل قطار الشرق السريع النافخ إلى المحطة متمهلاً ليصبح بعد فترة قصيرة جاهزاً لنقل الركاب الجدد. ولما همّ عبد المجيد بدخول العربة الخاصة المخصصة له، سلّمه حاكم اسطنبول ظرفاً يحتوي على ألفي جنيه استرليني وتأشيرة دخول موقّتة أصدرتها القنصلية السويسرية. وهكذا، ومن دون جلبة كبرى، استقال الخليفة العثماني، القائد الروحي والسياسي الأعلى للعالم الإسلامي السنّي، من منصبه وخطا إلى النسيان.(٢) بلغت نصف ألفية من الحكم الإمبريالي العثماني نهاية عاجلة وحقيرة على رصيف محطة القطار في كالاتا على بعد خطوات قليلة من قطار الشرق السريع، وانقطعت استمرارية خلفاء محمد إلى الأبد.(٣) واستذكر عصمت إينونو، وهو أحد مؤسسي الجمهورية التركية وقد طالب مع أتاتورك بإلغاء الخلافة، في كتاب مذكّراته:

> واجهنا أعظم معارضة عندما ألغينا الخلافة. كان إلغاء السلطنة أكثر سهولة لكون بقاء الخلافة قد أرضى مؤيدي السلطنة. غير أنه لا يمكن لنظام الرأسين

(١) Philip Mansel, Constantinople: City of the World's Desire, 1453-1924 (London: John Murray, 1995), 414.

(٢) منذ محمد الثاني وحتى استقالة محمد السادس في ١٩٢٤ اتخذ السلاطين العثمانيون لأنفسهم لقب الخليفة. غير أنه، وبحسب كارولين فينكل Caroline Finkel, Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire, 1300-1923 (New York: Basic, 2006), ١١١ فإن سلاطين بني عثمان استخدموا، حتى سليم الأول، اللقب بمعناه البلاغي بدلاً من التوكيد السياسي-الشرعي على سيادتهم على المجتمع الإسلامي. وتضيف فينكل أنه ظهرت في القرن الثامن عشر روايات، بالرغم من أنها تفتقر إلى الإثبات، بأنه حصل بالفعل انتقال للسلطة إلى سليم من آخر خليفة مملوكي. وبالنسبة إلى التفسير الشيعي للإسلام فإن سلالة محمد تتحدر من صهره علي الذي يُعدّ الإمام الأول. وللأئمة في الإسلام الشيعي دور ديني خاص، وهم يمتلكون وحياً إلهياً انتقل إليهم من محمد، وهو ما لا يملكه الخلفاء السنة. أنظر Cleveland, Modern Middle East, 34-35.

(٣) Andrew Mango, Ataturk: The Biography of the Founder of Modern Turkey (New York: Overlook, 2000), 403. ألغيت السلطنة قبل ذلك بسنتين في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٢.

أن يستمرّ إلى الأبد. إذ غذّى ذلك توقّع عودة السلطان تحت عباءة الخليفة ... وأعطى الأمل [للسلالة العثمانية]. ولهذا كان لإلغاء الخلافة تأثير أكبر وسيصبح المصدر الرئيسي للنزاع.(١)

وبدت ردة الفعل في مكان آخر مكتومة؛ وظهر أنّ قلة من الناس تهتمّ والأقل من ذلك من استمروا في ملاحظة الأمر عندما أصدر عبد المجيد بياناً يعلن فيه استقالته بعد عبور قطاره الحدود التركية_البلغارية. إلا أنه استحال سبر مشاعر المسلمين العاديين في الشرق الأوسط وما وراءه. والمؤكّد هو أن القوى الأوروبية قد ابتلعت في ١٩٢٤ أجزاء كبرى من المناطق الإسلامية تاركة حفنة من البلدان فقط، بما فيها الجمهورية التركية الجديدة، مستقلة عن أي حكم أجنبي. ومن غير المرجّح أن الأسياد الأوروبيين لهذه المجموعات الإسلامية بذلوا أي جهد لقياس ردة فعل رعاياهم المسلمين الجدد على الحدث الخطير الذي حصل في محطة القطار في كالاتا. ولاحظ جيل كيبل أن «إحدى أكبر الصدمات التي لحقت بالإسلام في مطلع القرن العشرين هي قيام أتاتورك في ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة. إذ إن الخلافة أصبحت بالفعل في ذلك الوقت قوة سياسية مُستهلكة غير أنها شكّلت المثل الأعلى للوحدة الروحية في العالم الإسلامي»(٢).

عشية الحرب العالمية الأولى كان جزء كبير من الشرق الأوسط، ما عدا استثناءات قليلة، في قبضة الأمبراطورية العثمانية المنهكة. وتوارد العثمانيون، وهم خليط يائس من الأتراك والمتحولين إلى الإسلام، من آسيا الوسطى كمرتزقة وتحوّلوا بمرور الوقت إلى جيش هائل جرف ما تبقى من الأمبراطورية البيزنطية. وفتح العثمانيون في ١٤٥٣ مدينة القسطنطينية العظيمة وانتشروا مع حلول القرن التالي من البلقان

(١) من مذكرات عصمت إينونو الصادرة بالتركية التي تم الاستشهاد بها في كتاب مانغو «أتاتورك» صفحة ٤٠٣.

(٢) Gilles Kepel, Jihad: The Trail of Political Islam, trans. Anthony F. Roberts (Cambridge: Harvard University Press, 2002), 43.

وآسيا الصغرى ليغطوا معظم الشرق الأوسط. وبرهن العثمانيون على أن جيوشهم لا تُقهر، وقد احتلوا مع حلول القرن السادس عشر معظم شمال إفريقيا وكل أوروبا الجنوبية وأجزاء من المجر، وبلغوا بجيشهم مرتين بوابات فيينا.

ومثّل الحاكم العثماني، بوصفه خليفة، الوحدة الدنيوية والدينية للإسلام التي بلغت ما هو أبعد من تخوم الأمبراطورية التركية لتصل إلى المسلمين الموجودين وراء الحدود.[1] وبحلول القرن الثامن عشر أفل التفوق العثماني وبدأت الأمبراطورية بتراجع طويل لا رجعة فيه إلى حين زوالها النهائي عند نهاية الحرب العالمية الأولى.[2] لكن لم يمكن للقوى العظمى، وخصوصاً بريطانيا، السماح بالانهيار التام للعثمانيين مع ما سينتج من ذلك من فراغ سياسي في الشرق الأوسط، وشرعت بالتالي في دعم الدولة العثمانية. ارتكزت مخاوف البريطانيين، في حال زوال الأمبراطورية العثمانية، على الاحتمال الحقيقي بسقوط أجزاء كبرى من أراضيها في أيدي الروس مما سيعرض طريق البر إلى الهند للخطر.

قضت السياسة البريطانية، وكذلك سياسة فرنسا والنمسا-المجر وبروسيا، حيال «رجل أوروبا المريض» (الوصف الذي أعطي للنظام العثماني في القرن التاسع عشر)، بالحفاظ على وحدة الأمبراطورية العثمانية وسلامتها بغية إبقاء الأسطول الحربي والنفوذ الروسي محتجزين في البحر الأسود. وما دامت الأمبراطورية العثمانية سليمة إلى حد ما فسيتمكن السلطان، بدعم من البحرية الملكية، من الاحتفاظ بالسيادة التركية على

(١) غير أن المسلمين الشيعة لم يعترفوا بأي خليفة سنّي. وتمثل الخلافة بالفعل لب الانشقاق الشيعي-السنّي. أنظر أيضاً Vali Nasr, The Shia Revival: How Conflicts Within Islam Will Shape the Future (New York: Norton, 2006), 40-43.

(٢) أنهى البرلمان التركي، تحت إدارة مصطفى كمال (أتاتورك) الخلافة رسميا في ٣ آذار/مارس ١٩٢٤. وفي اليوم الذي أعقب سنّ القانون أبلغ حاكم اسطنبول وقائد شرطتها الخليفة عبد المجيد بأن عليه المغادرة فوراً. وسبق للأمبراطورية العثمانية أن انتهت رسمياً في الأول من تشرين الثاني ١٩٢٢ عندما ألغت الجمعية العامة في أنقرة السلطنة. وغادر آخر عاهل عثماني، محمد السادس واحد الدين، اسطنبول في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٢ بمساعدة من البريطانيين. وهرب آخر سلطان بطريقة أقل من كريمة من قصره وقد تم تهريبه في سيارة إسعاف ليُنقل إلى مالطا على متن البارجة الحربية البريطانية «مالايا». واستقر أخيراً في الريفييرا الإيطالية. للمزيد من التفاصيل أنظر Mango, Ataturk, 364-65.

المضائق (الدردنيل والبوسفور) ومن منع وصول أسطول البحر الأسود الروسي إلى المتوسط. بيد أن إبقاء السلطان المضائق مقفلة أمام كل السفن الحربية ناسب الروس، في فترات ضعفهم، لأنه يمنع خصوم روسيا من دخول البحر الأسود. ولم يردع هذا بالطبع بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا من استعمار أجزاء واسعة من الأراضي العثمانية وإنجاز تقسيم الأمبراطورية السابقة في إثر الحرب العالمية الأولى.

اختار العثمانيون، في ١٩١٤، ربط قدرهم بألمانيا الإمبريالية في محاولة لاستعادة ما خسروه من أراض ومن أمجاد غابرة. وحاولوا في البداية التحالف مع بريطانيا وفرنسا بل حتى روسيا، لكنهم لم يحصدوا إلا الرفض من كل واحدة منها. ووضع قرار الانضمام إلى ألمانيا الأمبراطورية العثمانية في جانب قوى المحور المهزومة وأثار الشهية المجنونة بين الحلفاء على أراضي السلطان في الشرق الأوسط. وها إن الأحداث تعيد الشرق الأوسط مرةً أخرى إلى دائرة الصفر وقد سيطرت القوى الغربية بعد الحرب العالمية الأولى على معظم العالم الإسلامي.

احتاج الحلفاء في خلال الحرب – وخصوصاً البريطانيين – إلى العرب للقتال ضد العثمانيين، غير أنهم رأوا أيضاً في العرب المفتاح لمواجهة نفوذ السلطان بوصفه خليفة جميع المسلمين وقدرته على إعلان الجهاد. وسيطرت فكرة حرب مقدسة تحرّض على انتفاضة كبرى لرعايا بريطانيا المسلمين على تفكير المسؤولين البريطانيين في وايتهول والقاهرة بالقدر نفسه الذي سيطرت فيه على التفكير في برلين. اقتنع السياسيون والبيروقراطيون في الجانبين بأن لتوسّل المسلمين ميزة استراتيجية. لكن لم يكن في النتيجة لدور السلطان كخليفة أو لإعلان الجهاد أي وقع ذي مغزى على الحرب.

بيد أن العامل الإسلامي حرف السياسة البريطانية حيال الشرق الأوسط في مرحلتي ما قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها إذ أساء البيروقراطيون والسياسيون وضباط المخابرات في لندن والقاهرة فهم الدين والقومية في الشرق الأوسط مفترضين أن في وسعهم السيطرة على الأول وتصنيع الثانية. وفي العقود التي أعقبت ١٩١٨

حاول البريطانيون ومن ثم الأميركيون بالتناوب التلاعب بالدين والقومية بغية ضمان مصالحهم في المنطقة وذلك بالبحث عن رجل قوي يمثل النقطة البؤرية للقومية العربية أو محور الوحدة الإسلامية.

ترك إنهاء الخلافة فراغاً كبيراً في المجتمع الإسلامي مما ولّد عدة تحركات يائسة سعت إلى إعادة بناء الوحدة الإسلامية. إلا أن ظهور خليفة جديد مثّل بالنسبة إلى الكثيرين الإغراء الأكبر.(١) وباتت الوحدة السياسية للمسلمين من خلال إعادة إقامة خلافة جديدة واحداً من الأهداف الأساسية لجماعة الإخوان المسلمين، التي أُنشئت بعد أربع سنوات على استقالة الخليفة العثماني.(٢) وبالتالي ترجّح البحث عن زعامة للمجتمع الإسلامي الدولي أو الإقليمي بين ادعاءات المناضلين الإسلاميين والزعماء العلمانيين المسلمين الطموحين. وافترض ضباط الاستخبارات البريطانيون والأميركيون، في غضون ذلك، أنه يمكن لسيّد واحد أن يقود الإسلام «ذا الكيان الواحد»، وأنه يمكنهم - من خلاله - توجيه الأحداث في الشرق الأوسط. وأصبح هذا الافتراض هو الأحب على قلوب البريطانيين، ولاحقاً على قلوب الخبراء في الشؤون الإسلامية في أجهزة الاستخبارات الأنكلو-أميركية؛ وهو يرتكز على مفهوم أن نوعاً من الكيان، مثل الخلافة، يمثل قوة مركزية تستقطب ولاء المسلمين وتتجاوز أيضاً الحدود القومية. وبرز هذا المفهوم السياسي واللاهوتي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ردّاً على الإدراك بأن نهاية الأمبراطورية العثمانية وشيكة.

---

(١) نشأت حركة الخلافة في العشرينيات من القرن العشرين في مختلف المستعمرات البريطانية في آسيا دفاعاً عن الخلافة العثمانية. وكانت فاعلة على نحو خاص في الهند البريطانية حيث مثلت نقطة التقاء للمسلمين الهنود ومثلت واحدة من أكثر الحركات السياسية الكثيرة المناوئة للبريطانيين التي تحصل على الدعم. وعملت على مدى بضع سنوات بالتحالف مع المجتمعات الهندوسية وحصلت على الدعم من غاندي الذي كان عضواً في اللجنة المركزية للخلافة. انتهت الحركة في ١٩٢٤ بعدما اعتقل البريطانيون معظم زعامتها وانفصلت عنها أجزاء عديدة لتشكل كل واحدة منها منظمة مستقلة. أنظر Ali Rahnema, ed., Pioneers of Islamic Reveival (London: Zed, 2005), 100-102.

(٢) Brynjar Lia, The Society of the Muslim Brothers in Egypt: The Rise of an Islamic Mass Movement, 1928-1942 (Reading: Ithaca, 1998), 80.

مثلت الهزائم بالجملة لجيوش السلطان على يد الروس في ١٨٧٨ وخسارة المزيد من الأراضي دليلاً إضافياً على أفول الأمبراطورية العثمانية وانهيارها الحتمي. وخسرت الأمبراطورية بموجب أحكام معاهدة برلين في ١٨٧٨، التي وضعت حداً للحرب الروسية-التركية، ثمانية بالمئة من أراضيها ونحو ٢٠ بالمئة من سكانها وعدد كبير منهم من المسيحيين. والحصيلة الثانوية الوحيدة لهذه النتيجة، خصوصاً بعد المزيد من خسارة السكان غير المسلمين عقب حروب البلقان (١٩١٢-١٩١٣)، هي من المسلمين الذين باتوا يمثّلون غالبية رعايا الأمبراطورية.(١) وتراجع تنوّع الإثنيات والطوائف الذي ميّز العثمانية على مدى نحو نصف ألفية وباتت عمومية الأمبراطورية متوقفة حصراً الآن على الإسلام.

بيد أن الوضع الديمغرافي الجديد خلق، من خلال استحضار الوحدة الإسلامية، فرصة لمواجهة مطالب أقليات الأمبراطورية بحق تقرير المصير بعدما بات معظمها مسلمين بعد ١٨٧٨. وتولد اقتناع لدى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أن من الضروري إعادة الأمبراطورية إلى جذورها الإسلامية لإنقاذها من الانزلاق المتسارع نحو النسيان. واعتقد أن جهود التحديث، التي تتشبّه بهيكلية الغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، محكومة بالفشل وبمزيد من تفتت سلطة السلطان وقدرته على توجيه الدولة العثمانية. وبالتالي لم يعد، بالنسبة إلى عبد الحميد، للهوية العثمانية العلمانية التي يعلنها المحدثون أي صدى بالنسبة إلى معظم سكان الأمبراطورية. وكتبت كارولين فينكل، في تأريخ حديث للأمبراطورية العثمانية، أن الإسلام قدم إيديولوجية جديدة سمحت لعبد الحميد بأخذ «المفهوم الكامن للسلطان العثماني بوصفه خليفة و[إعادة صوغه] لفرض الولاء ليس على شعبه وحسب بل على جميع المسلمين، مؤكداً أكثر من أي سلطان عثماني قبله قوة هويته كخليفة وملاءمة الإسلام كبؤرة ولاء للدولة»(٢).

(١) بحسب فينكل Osman's Dream الصفحة ٤٩٢ أصبح ثلاثة أرباع سكان الأمبراطورية من المسلمين بعد الخسائر التي نتجت من معاهدة برلين.

(٢) المصدر السابق.

بيد أن تصوّر قَدَر الأمبراطورية الغاشم المعلّق وإغراء الإسلام بوصفه قوة سياسية خلقا طموحات جديدة لدى المتسلطين العرب في الأمبراطورية وكذلك لدى منافسيها الأوروبيين. وبالرغم من أن محاولة إعطاء الاستقلال لشبه الجزيرة العربية واختيار أمير مكّة ليصبح السلطان-الخليفة الجديد تمثّل جزءاً من أسطورة لورنس العرب، فإن البريطانيين قاموا بالمحاولة الأولى في اتجاه هذه الهدف في أواخر القرن التاسع عشر. فبعد الحرب الروسية-التركية شرع حسين باشا، أمير مكة، في مغازلة البريطانيين في شأن ترتيب الخلافة. وفيما أظهر الأمير حسين في العلن ولاء مطلقاً للسلطان، شرع في اتصال دقيق ولكن حذر مع البريطانيين من أجل إثبات أوراق اعتماده الحسنة النية الموالية للبريطانيين فيما أخذ يلمح بطريقة غير مباشرة إلى أن انتقال الخلافة من اسطنبول إلى مكّة سيفيد بريطانيا العظمى.(١) وامتلك حسين وصولاً مباشراً إلى الخلافة بوصفه عربياً وعضواً من قبيلة قريش والعشيرة الهاشمية إضافة إلى عائلة عون.(٢) وقد استند العثمانيون في مزاعمهم إلى المدرسة الحنفية في الفقه الإسلامي التي هي أكثر ليونة من النظرة المتزمتة التي تتمسك بأن يكون الخليفة واحداً من قبيلة قريش.(٣) ورد البريطانيون بحذر ولكن بمحاباة وأبقوا على اتصالهم بالأمير من خلال قنصلهم في الجزيرة العربية.(٤)

افترض السلطان العثماني عبد الحميد الثاني في الأساس أن حكّام مصر سيبرزون كمنافسين، وسيتحدون العثمانيين في سيطرتهم على الأقاليم العربية ويستولون على الخلافة وينهون بذلك الاحتكار العثماني للوحدة الإسلامية. واستمرّت الشائعات، حتى بعد خلع الخديوي اسماعيل وخفض الجيش المصري إلى ١٨ ألف رجل، بأن خليفته، توفيق، يحوك المؤامرات في الحجاز (منطقة مكّة والمدينة). وزاد من جنون

---

(١) S. Tufan Buzpinar, "The Hijaz, Abdulhamid II and Amir Hussein's Secret Dealings with the British, 1877-1880," Middle East Studies 31, no. 1 (January 1995): 99-123, 105-6, 110-16.

(٢) تتبع عشيرة الهاشم أصلها إلى هاشم بن عبد مناف، الجد الأكبر للنبي محمد.

(٣) بالرغم من أن المذاهب الإسلامية الثلاثة الأخرى – الشافعي والحنبلي والمالكي – أكدت على العروبة كشرط أساسي للخلافة، فإنها لم تعارض الزعم العثماني. أنظر Finkel, Osman's Dream, 494.

(٤) Buzpinar, "Secret Dealings," passim.

ارتياب عبدالحميد أن اسماعيل المنفي يرعى صحفاً تدعو علناً إلى نقل الخلافة إلى القاهرة.[1]

بلغت، قرابة ذلك الوقت تقريباً، تقارير إلى السلطان عن مفاوضات الأمير حسين السرّية، مما غذى المزيد من شكوكه بأن البريطانيين يسوّقون خلافة عربية مستقلة. إلا أن اغتيال الأمير في ١٨٨٠ على يد أفغاني مجهول وضع حداً، في الوقت الراهن، لاحتمال خلافة عربية مقبلة.[2] بقي تأجيل الدسائس المتعلقة بالخلافة بوصفها ثقلاً موازناً للسلطان العثماني في عملية كسب «قلوب وعقول» المسلمين معلّقاً على مدى ٢٤ عاماً، لكن الدسائس استؤنفت بإلحاح أكبر بعد الطلقات الأولى للحرب العالمية الأولى.

كان الفيلد مارشال (الفريق الأول) والقنصل العام والعميل البريطاني في القاهرة اللورد كيتشنر واحداً من أوائل مهندسي سياسة الشرق الأوسط البريطانية – وهو في واقع الأمر الوالي البريطاني ومثّل بهذه الصفة القوة الدافعة وراء عرش الخديوي. وأصبح كيتشنر، خلال توليه منصبه في القاهرة، مقتنعاً بأنه في حال سيطرت قوة معادية على الخلافة العثمانية فستتحدى سيطرة بريطانيا على ملايين الرعايا المسلمين في الأمبراطورية البريطانية. وقد شكل المسلمون ٧٠ مليوناً من سكان الهند ونسبة مئوية ذات شأن في الجيش الهندي؛ وقد استمرّ الكثيرون في عدّ السلطان ـ الخليفة

---

(١) F. A. K. Yasamee, Ottoman Diplomacy: Abdulhamid II and the Great Powers (Istanbul: Isis, 1996), 89.

(٢) بحسب ياسمي لم يأت موت حسين مصادفة. فالقاتل لم يكشف، بالرغم مما خضع له من تعذيب، لا عن دوافعه لقتل الأمير ولا إذا كان يعمل لمصلحة أي أحد آخر. ويعلّق بوزبينار (Buzpinar, "Secret Dealings," 118-19) بأن الدليل ليس حاسماً في شأن ما إذا كان عبد الحميد يقف وراء الاغتيال، بالرغم من معرفة السلطان التامة بمفاوضات الأمير السرّية مع البريطانيين. ويضيف بوزبينار أنه فضلاً عن ذلك زادت تحذيرات السفير البريطاني في اسطنبول، لايارد، من مخاوف عبد الحميد من مؤامرات تتعلق بانفصال الأقاليم العربية. وأبلغ لايارد عبد الحميد بوجود جمعية سرّية في الجزيرة العربية تعمل لهذه الغاية إضافة إلى إطاحة السلطان نفسه.

العثماني السلطة الإسلامية العليا.[1] وفي المقابل، بلغ عدد سكان الأمبراطورية العثمانية في ١٨٩٧ تسعة وثلاثين مليوناً بمن فيهم الأقليات غير المسلمة.[2]

أضف إلى ذلك أن الأمبراطورية العثمانية كانت، في مطلع القرن العشرين، آخر دولة إسلامية تحتفظ بسيادتها الكاملة مما جعلها قبلة أنظار جميع المسلمين السنة. وعلى هذا الأساس جادل كيتشنر بأن الدعوة إلى السلاح من الحاكم المسلم الوحيد المستقل ستلهب المجتمعات الإسلامية في الأمبراطورية البريطانية. وشهد كيتشنر بالتأكيد الانفعالات القوية التي تحرّكها الدعوات إلى الإسلام والجهاد. وقد رأى في السودان بأم العين كيف أن الحماسة الإسلامية والتعصب نفخا الحياة في المحاربين المسلمين المسلحين بالحراب والسيوف ودفعتهم إلى قذف أنفسهم في مواجهة جيش مزود بالرشاشات والمدفعية. وغذّت النضالية الإسلامية أيضاً الانتفاضات الجماهيرية في مصر، كما تسببت الحماسة الدينية بالتمرد الهندي الكبير في ١٨٥٧-١٨٥٩.

وسيؤدي تفكك الأمبراطورية العثمانية، وفقاً لذلك، إلى تقويض المصالح البريطانية في الشرقين الأدنى والأوسط وفي شرق البحر المتوسط. بينما سيخلق الفراغ الناتج من ذلك تزاحماً على أقاليمها تمثّل فيه روسيا المنافس الرئيسي. واستنتج ديفيد فرومكين أن كيتشنر كان في هذا السياق أقل قلقاً في شأن ألمانيا منه في شأن روسيا، واستمرّ الشك يراود الفيلد مارشال، حتى بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، في أن السلطان-الخليفة العثماني قد يصبح صنيعة القيصر الروسي.[3] ومثّلت ألمانيا مشكلة أوروبية في الأساس، غير أن روسيا ستبقى، بعد الحرب العالمية الأولى، تمثّل التحدي الأول لبريطانيا في آسيا. وبالنسبة إلى كيتشنر فإن الوفاق الذي وضع حداً للعبة الكبرى وأدى إلى تحالف بريطانيا وروسيا مع فرنسا لا يمثل إلا أمراً ملائماً موقتاً ستنتهي فائدته بعد هزيمة ألمانيا.

(١) David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East (New York: Avon, 1989), 97.

(٢) Hew Strachen, The First World War, vol. 1, To Arms (Oxford: Oxford University Press, 2001), 651.

(٣) Fromkin, Peace, 97.

٥

جهاد لكل المناسبات

«نحن كأمة نحب حباً جَمّاً بعبع جيش متعصّب من ملايين عرب الصحراء الذين يصيحون «الله!» ويقتلون الكُفّار بالسيف وأتخيل أن الفكرة قد تكون نشأت حوالى القرن الحادي عشر في خلال الحملة الصليبية الأولى».

ـ العقيد ك. س. جارفيس (الصحراء الليبية، ١٩١٧)[١].

أقيمت في الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤، في ردهة قصر بوبكابي، حيث يُحتفظ بذخائر النبيّ محمد، مراسم مهيبة لاستحضار قوة الماضي الإسلامي المجيد. وبحضور السلطان ـ الخليفة محمد الخامس رشاد وأصحاب المقام الرفيع من رجال دين وعسكر وسياسة، استحضر شيخ الإسلام سلسلة من الفتاوى التي تسمح بإعلان الجهاد وتجعل بالتالي واجباً مفروضاً على كل مسلم أن يشارك في الحرب المقدّسة ضد الحلفاء.[٢] وهي، على عكس الفتاوى السابقة الداعية إلى الجهاد، لم توجه الآن إلى رعايا الأمبراطورية العثمانية وحسب، بل أيضاً إلى المسلمين الخاضعين للحكم البريطاني والفرنسي والروسي والصّربي والمونتينيغري.[٣]

(١) C. S. Jarvis, Three Deserts (London: John Murray, 1941), 5. كان جارفيس في ذلك الوقت رائداً في الجيش البريطاني متمركزاً في الصحراء الليبية في خلال الحرب العالمية الأولى. وتولى لاحقاً منصب الحاكم في شبه جزيرة سيناء.

(٢) كان شيخ الإسلام أورغوبلو خيري بك مفتياً لاسطنبول لكن سليمان رفعه في ١٥٤٠ إلى مرتبة رئيس المؤسسة الدينية العثمانية والشيخ الأكبر للأمبراطورية.

(٣) تُرجمت على هذا الأساس إلى العربية والفارسية والأوردو والياريك. مثلت الفتوى رأياً شرعياً؛ وفي هذه الحال صدرت خمس فتاوى على شاكلة أسئلة موسعة مع جواب بسيط بالإيجاب أو النفي. أنظر Rudolph Peters, Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History (The Hague: Mouton, 1979), 90-91.

كانت شرعية إعلان الحرب المقدسة مشكوكاً فيها بما أن الأمبراطورية العثمانية تشارك في حرب تتحالف فيها مع قوى مسيحية تحارب ضد قوى مسيحية أخرى.[١] غير أن اللجوء إلى الجهاد مثل ذروة الدعاية الألمانية على أساس الافتراض الحماسي بأنه يمكن للسلطان-الخليفة العثماني أن ينتج انتفاضات جماهيرية في الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والروسية. بيد أن ذلك اليوم المصيري من تشرين الثاني/نوفمبر تطور إلى تركيبة من المسرح ومن التفكير الحالم.

جرت محاولة، أعقبت عدة خطب، لربط أحداث ١٩١٤ بجذور الإسلام ومحمد. وأُتبع إعلان الجهاد بمسيرة على الجياد بقيادة فرقة موسيقية في شوارع اسطنبول ترافقها امرأتان تمثلان زوجة الرسول وخادمتها.[٢] توقّفت المسيرة عند السفارة الألمانية حيث رحّب بها ممثلون عن جمعية الاتحاد والترقي، وهي الحزب الحاكم، وعضو من المفوضية الألمانية يتحدث التركية.

واستمرّت المسرحية فيما ألقى مغربي يرتدي الزي الفرنسي خطاباً وجيزاً بالعربية يثني فيه على الألمان الذين حرّروه ومديناً معاملة الجيش الفرنسي للجنود المسملين. هتفت الجموع باسم الأمبراطور الألماني بوصفه حليفاً للمسلمين. ثم توجّهوا إلى السفارة النمسوية-المجرية متبعين السياق نفسه تقريباً. وبعد ذلك تحول بعض من الحشد إلى رعاع نهبوا عدة متاجر ومنازل تخصّ المسيحيين.[٣]

اختصر غوتفريد هاغن ردات فعل المراقبين المعاصرين على الحدث على أنها «فضول، ارتباك وبعض التفكهة....ونقل تقرير أميركي عن الشائعات بأن المرأتين

(١) Mango, Ataturk, 136.

(٢) Urlich Trumpener, Germany and the Ottoman Empire, 1914-1918 (Princeton: Princeton University Press, 1968), 117.

(٣) يمكن إيجاد التفاصيل، إضافة إلى الحجج المقنعة المتعلقة بفشل الجهاد في Gottfried Hagen, "German Heralds of Holy War: Orientalists and Applied Oriental Studies," coparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East 24, no. 2 (2004): 145. ويستشهد مانغو Mango, Ataturk, 136 أيضاً بأشرف خشباشي، العضو الرائد في المنظمة الخاصة التابعة لأنور باشا، الذي علّق بأن إعلان الجهاد استُقبل ببرودة في اسطنبول وأضاف أن الحماسة كانت أقل بكثير في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي.

اللتين مثلتا عائشة وخادمتها تبيعان في حياتهما العادية الحمّص المشوي على الجسر الذي يعبر القرن الذهبي، لأن النسوة الأكثر احتراماً رفضن المشاركة»[1]. وتبيّن أن دوافع المغربي الوطنية مريبة. فقد تم أسره على الجبهة الغربية والأرجح أنه دُرّب على مخاطبة الجماهير. ووصف أحد شهود العيان الألمان، راقب المشهد من على شرفة السفارة، خطاب الجندي المغربي بقوله: «لا أعتقد أنه تم فهم الكثير مما يقوله هناك في الأسفل. فمن الصعب جداً على الناس فهم كلامه الغامض»[2].

وبغضّ النظر عن مسألة الشرعية، أصدر السلطان في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤ إعلاناً رسمياً بالجهاد في كل أنحاء العالم الإسلامي. ويتفق جميع الباحثين على أن إعلان الجهاد مثل ذروة سياسة ألمانيا العثمانية المتجذّرة في الوعد الذي أطلقه القيصر من دمشق بصداقته الأبدية لجميع المسلمين.[3] وبالرغم من أن غالبية أعضاء جمعية الاتحاد والترقي (السلطة الحقيقية في الأمبراطورية العثمانية) تتبنى نظرة علمانية بدلاً من النظرة الدينية، فإنها أدركت أن تسخير الإسلام يوفّر وسيلة لزرع الشقاق بين الرعايا المسلمين لدول الحلفاء.

شغل احتمال انتفاضة جماهيرية مسلمة بعد دعوة السلطان المؤمنين إلى الجهاد بال الألمان والبريطانيين الذين استهلكوا الكثير من الطاقة العصبية والذهب في تحفيز أو تفادي حرب مقدّسة مقبلة. وأقام الألمان، قبل الحرب، مكتباً للدعاية الإسلامية في برلين ركّز على المسائل الإسلامية في الأمبراطورية العثمانية وكذلك في أراضي الحلفاء التي تضمّ أعداداً كبيرة من المسلمين.[4] وركّز الإنكليز من جهتهم جهودهم على شريف مكّة بوصفه الترياق المحتمل لمواجهة إعلان السلطان الحرب المقدّسة.

(١) Hagen, "German Heralds," 145.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Trumpener, Germany, 112.

(٤) Triman Lüdke, Jihad Made in Germany: Ottoman and German Propaganda and Intelligence Operations in the First World War (Münster: LIT, 2005), 48.

تركّزت استراتيجية الاستخبارات الألمانية والبريطانية في الشرق الأوسط في الواقع على مفهوم الجهاد بوصفه السلاح السّحري الذي يمكن بواسطته تحريك الثلاثمئة مليون مسلم في العالم ليحملوا السلاح. ومثّل المسلمون الشّيعة استثناء؛ فهم لا ينتمون إلى الفرع السنّي من الإسلام الذي يرأسه السلطان ـ الخليفة. وقد طبع الألمان ملايين المناشير ووزّعوها في أماكن وصلت حتى الهند، غير أن الرسالة المطبوعة ذهبت سدى لدى ملايين المسلمين لأن معظمهم كانوا من الأميين.

فشل نداء السلطان الخليفة إلى الجهاد بالرغم من الجهد الفائق والتصميم على دفع المسلمين إلى الحرب وإلى توليد حركة إسلامية. وأحد عوامل هذا الفشل هو أنه في حين أن غالبية المسلمين عدّت عبد الحميد سلطاناً شرعياً وخليفة، كانت جمعية الاتحاد والترقي قد أطاحته عملياً.[1] والاعتبار الآخر هو أن موقع الخليفة بوصفه محصوراً بالسلطان العثماني واجه مع نهاية القرن التاسع عشر تحديات شرعية وعلمانية.

اعتبر يومئذ بعض العلماء المسلمين الثقات بأنه تجب إعادة تكوين الخلافة وإعادتها إلى زعيم عربي.[2] وقد رفض ابن سعود، أمير نجد في قلب شبه الجزيرة العربية ورئيس الطائفة الوهّابية المتزمتة، رفضاً تاماً فكرة أن دور السلطان كخليفة يعطيه سلطة دنيوية على المجتمع الإسلامي. وقاوم الإنكليز بنجاح الوقع المحتمل لجهاد السلطان باستحصالهم على آراء فقهية من خبراء في الفقه الإسلامي ومن رجال دين مسلمين في مصر والهند أكّدوا أن من واجب المسلمين إطاعة السلطات البريطانية.[3]

(١) المصدر السابق ص ٥٠. كان عبد الحميد آخر سلطان ذي سلطة مطلقة. وقد نُفي إلى تسالونيكي. لكن بعد سقوط المدينة في أيدي الجيش اليوناني في ١٩١٢، أعيد عبد الحميد إلى اسطنبول حيث وُضع في الإقامة الجبرية في قصر بيلرباي. أمضى السنوات الأخيرة من عمره يدرس، ويمارس النجارة، ويكتب مذكراته إلى أن وافته المنية في ١٠ شباط/فبراير ١٩١٨.

(٢) Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939 (London: Oxford University Press, 1962), 51. يشير هاغن (Hagen, "German Heralds," 51) إلى أنه بالإضافة إلى ادعاء الشريف حسين بالخلافة حاول خديوي مصر عباس حلمي العمل، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، أن يتم إعلانه خليفة.

(٣) Peters, Islam, 90-94.

واستنتج رودولف بيترز، من جهة أخرى، أن السبب الرئيسي لفشل الجهاد «هو أن الإسلام افتقر إلى أي شكل من أشكال التنظيم الجماهيري. ولم يكن، بالرغم من المفاهيم المبالغ بها السائدة في أوروبا حول قوته ووقعه، أكثر من فكرة اعتنقها بعض المفكرين كردّ على الانتشار السريع للسيطرة الغربية في خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر»[1].

استمرّ الخوف من حركة إسلامية تلتهب بالحماسة الدينية ينتاب الاستراتيجيين الإنكليز ويشغل بالهم – كما بال الأميركيين من بعدهم – وذلك بالرغم من انهيار الجهاد. ففي مطلع ١٩١٧ أغار بضع مئات من رجال القبائل السنوسيين من طرابلس[2] على الصحراء الليبية، بيد أن عدداً قليلاً من الجنود البريطانيين الإقليميين هزموهم سريعاً وشتتوهم. وبحسب ك. س. جارفيس، الضابط البريطاني في الصحراء الغربية، أدت الغارة إلى تعزيز وسواس الجهاد الوشيك. وبناءً على ذلك، ركّز البريطانيون ثلاثين ألف جندي على الحدود الغربية، وُجدت حاجة ماسة إليهم في مكان آخر، وذلك اعتقاداً منهم أن السنوسيّين ألّفوا طلائع قوة أكبر بكثير. وفي المجمل قيّد نحو ألف من رجال القبائل السنوسيين ثلاثين ألف جندي بريطاني دعت الحاجة الماسة إلى وجودهم على جبهات أخرى. وتابع جارفيس مشتكياً:

صعب جداً تقرير من يجب لومه في الواقع على حالة الأمور هذه – ربما جهاز الاستخبارات في المقام الأول، لأنهم شرّبوا الجنود فكرة أنه إذا اخترق السنوسيون وادي النيل فستثور مصر كلها في جهاد مقدس ضدنا وهذه، في أقل الأحوال، مبالغة فظيعة وسخيفة... وبقيت قواتنا على مدى أشهر تواجه، مجردة من الماء، الصحراء الفارغة تماماً التي لا يمكن للعدو التحرك فيها لو شاء ذلك، وبقيت على هذه الحال إلى أن قررت السلطات، بأسف شديد، أن السنوسيّين ليسوا إلا أسطورة.[3]

(١) المصدر السابق ص ٩٤.
(٢) تشكل طرابلس وبرقة وفزّان ليبيا المعاصرة.
(٣) Jarvis, Three Deserts, 4-5.

وبعد ذلك بسنتين، أفاد جارفيس أن الوسواس نفسه تملّك الاستخبارات البريطانية في القاهرة حيث توقعوا انتفاضة عربية جماهيرية جديدة. واستذكر جارفيس أنه في ذلك الوقت:

> انهمرت عليّ البرقيات وفحواها أن جحافل من العرب، تقدّر بأربعين ألفاً، تزحف على القاهرة والإسكندرية من الصحراء الليبية....ولم أنجح بعد يومين من الدوريات غطّت القسم الأكبر من الجزء الشمالي-الغربي من الصحراء الغربية في إيجاد أي شيء على الاطلاق له طبيعة تنظيمية وأبرقت إلى المركز بهذا الخصوص. لم أحظ بالتصديق لأنه سبق للسلطات الموجودة في القاهرة أن توقّعت جدّياً أن ثورة العرب ستأتي كتعاقب طبيعي للأحداث؛ ونحن كأمة لدينا بالتأكيد عقدة عربية ملحوظة.(١)

وفي العقود التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، استمرّ انشغال الذهن بانتفاضة جماهيرية عربية في تلوين سياسات الوايتهول حيال الشرق الأوسط. وفي ١٩٤٦، لاحظ النائب العمالي ر. هـ. س. كروسمان: «أن مسؤولي الجهاز الاستعماري ومختلف السفارات في الشرق الأوسط يستخدمون الآن بحدّة أكثر من ذي قبل خطر الحرب المقدّسة العربية كحجّة ضد الموافقة على التقرير الأنكلو-أميركي»(٢). وبالرغم من أن كروسمان كان صهيونياً رائداً، فإن شعوره بالخيبة من الديبلوماسيين البريطانيين والموظفين الحكوميين عكس موقفاً متأصّلاً ليست له علاقة بالمشاعر الموالية للعرب لدى بعض المسؤولين البريطانيين بقدر ما له علاقة بخوف يكاد يكون لا عقلانياً من شعور إسلامي يقود إلى الجهاد.(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤.

(٢) R. H. S. Crossman and Michael Foot, A Palestine Munich (London: Victor Gollancz, 1946): quoted in Arthur Koestler, Promise and Fulfillment: Palestine, 1917-1949 (London: Macmillan, 1949), 50. التقرير الأنكلو-أميركي أصدرته لجنة التحقيق الأنكلو-أميركية التي أنشأتها الحكومتان الأميركية والبريطانية للنظر في مأزق لاجئي الحرب اليهود في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. وأوصت اللجنة بقبول ١٠٠ ألف من هؤلاء اللاجئين في فلسطين.

(٣) دونت وقائع تجربة كروسمان مع موظفي الحكومة البريطانيين في Diaries of a Cabinet Minister: Richard Crossman (New York: Henry Holt, 1976) التي ارتكز عليها المسلسل الكوميدي الشعبي في البي.بي.سي. «نعم، أيها الوزير»(Yes, Minister)؛ وليس مفاجئاً أن مؤسسة الوايتهول بذلت كل جهد لوقف نشره.

مارس مسلمو الهند في ١٩١٩ ضغطاً على الحكومة البريطانية للحفاظ على كل من حدود الأمبراطورية العثمانية والسّلطة الدينية والدنيوية للسلطان ـ الخليفة. ومثّلت حركة الخلافة التي نشأت في الهند مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى دليلاً إضافياً على قوة الشعور الإسلامي الكامن. بيد أن حركة الخلافة، حسبما يبرهن على ذلك الباحث غايل مينولت، مثّلت محاولة قام بها زعماء المسلمين الهنود لتوحيد جماعتهم سياسياً عن طريق الرموز الدينية والثقافية التي يمكنها أن تجتذب الجماعة كلها – وهي في الواقع الشعور الهندي الإسلامي.[١]

وبالرغم من أن هؤلاء المسلمين الهنود الراديكاليين ليسوا غير متعاطفين مع مصير الخلافة العثمانية فإن الاستخبارات البريطانية في الهند كما في القاهرة ولندن لم تستوعب الفرق. وأضاف مينولت أن زعامة الحركة وفّرت مجموعة من الحجج في المنشورات الإنكليزية، في حين أن رسالتهم إلى المسلمين الهنود باللغة الأوردية وغيرها من اللهجات المحلية امتازت بدرجة دقيقة من الاختلاف لتعكس الطموحات المحلية.[٢] أما هل مسؤولو الاستخبارات البريطانية فكّروا في دعاية سياسية موجهة إلى المسلمين الهنود فسؤال لا يزال مفتوحاً. فعلى غرار الحال في الشرق الأوسط، ركّز الموظفون الحكوميون وضباط الاستخبارات البريطانيون طاقاتهم على النخب الإقليمية –واستندوا إليها في معرفتهم للعوامل الإسلامية.

وبغضّ النظر عن الدليل إلى العكس، لم ينجح السلطان العثماني أو شريف مكّة في ١٩١٤ أو في أي وقت من أوقات الحرب العالمية الأولى في الحشد للحرب المقدسة أو للانتفاضة الجماهيرية. وحتى في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى فشلت التمردات المحلية في الشرق الأوسط، مثل تلك التي قام بها الدروز (وهم أقلية مسلمة) والفلسطينيون إضافةً إلى ثورة رشيد عالي في العراق في خلال الحرب العالمية الثانية، في استثارة ثورات متعاطفة في مناطق عربية أخرى. ومع ذلك، كانت

(١) Gail Minault, The Khilafat Movement: Religious Symbolism and Political Mobilization in India (New York: Columbia University Press, 1982), 2 and passim.

(٢) المصدر السابق ص. ٢.

الحقبة نفسها بمنزلة فترة حمل لحركات أكثر حدة ونضالية، مثل الإخوان المسلمين في مصر، هدفت إلى إحياء الإسلام بوصفه قوة الربط التي توحد جميع المسلمين.

وبالرغم من أنه سبق للنضال الإسلامي أن طفا على السطح منذ أواخر القرن التاسع عشر، مع المهدي في السُّودان، فإن نهاية الأمبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة ولّدا فراغاً حاولت مجموعة متنوعة من التنظيمات والأفراد سدّه. بيد أن النضال والشعور الإسلاميين تجلّيا بطرائق متنوعة في أنحاء مختلفة من الشرق الأوسط. وكتب جيل كيبل على سبيل المثال: «ورث إسلام أيامنا هذه في باكستان سلسلة من الحركات التي أنشئت كردة فعل على قيام الأمبراطورية البريطانية بخلع آخر عاهل إسلامي في ١٨٩٧»[١].

وليست باكستان إلا مثالاً واحداً، تبعتها السعودية ومصر إضافة إلى إيران وهي تمثّل مرتعاً لتيارات قوية لشكل من أشكال الحركة الإسلامية. وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي، مثل تركيا، أخذت الهوية الإسلامية في الحلول سريعاً محل القومية العلمانية. ولكن حتى تركيا العلمانية ارتكزت على إرث مصطفى كمال أتاتورك الذي أدى دور السلطان والخليفة المجرّد من الزخارف الإسلامية. وقد منح تأكُّل العلمانية بعد الثمانينيات من القرن العشرين أرضاً خصبة للمسلمين الأتراك ليحاولوا إعادة تنظيم المجتمع التركي بحسب المبادئ الإسلامية.

التعبير الراهن للإسلام الجهادي هو «الإسلام السياسي»، وهو مفهوم يعتنق العناصر الروحية والثقافية للإسلام إضافة إلى مفهوم الإسلام بوصفه قوة سياسية معبأة لهدف إنشاء الدولة الإسلامية. وهو ما عدا بعض المعتقدات المشتركة في الإسلام، القاسم المشترك الوحيد الموجود بين كل من المنظّرين المناضلين السنّة والشيعة.[٢] لم يفشل البريطانيون ومن بعدهم الأميركيون في ملاحظة هذا التطور وحسب، بل

(١) Kepel, Jihad, 57.

(٢) سيّد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦) ومولانا المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩)، وكلاهما من السنّة وشخصيتان رئيستان في الحركة الإسلامية، وروح الله الخميني (١٩٠٢-١٩٨٩)، رجل الدين الشيعي، اشتركوا في مفهوم الإسلام بوصفه قوة سياسية. أنظر Kepel, Jihad, 23.

حاولوا أيضاً استخدام الإسلام وسيلة لمواجهة القوميتين العربية والإيرانية. فمن خلال معظم القرن العشرين، بدءاً منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى، والقومية العربية تنتاب البريطانيين والأميركيين الذين سعوا إلى تأمين مصالحهم في الشرق الأوسط عن طريق مساندة النضال الإسلامي لموازنة القومية ولاحقاً الشيوعية.

إلا أن ما فشلت أجهزة الاستخبارات الأنكلو-أميركية (إضافة إلى مسؤولية الاستعماريين البريطانيين) في إدراكه هو أن بروز الإسلام يقبع وراء المظهر الخادع للقومية. وبالقدر نفسه من الأهمية، يتخذ التعبير عن الإسلام شكلاً من أشكال الهوية الإسلامية الإقليمية الأقل تركيزاً على مبدأ الخلافة الشاملة. غير أن ضباب الإسلام الجهادي غطى على كل اعتبار آخر. ومن سخرية الأمور أن المجاهدين المسلمين كما وكالة الاستخبارات البريطانية والأميركية، ولأهداف متعارضة وفي فترات مختلفة، سعوا إلى إيجاد شكل مختلف من أشكال الخلافة الجديدة التي يمكنها أن توحد الجماعة الإسلامية للقضاء على الماركسية وعلى بعبع القومية في الشرق الأوسط – بغضّ النظر عن التناقض. وبالنسبة إلى البريطانيين نشأ البحث عن خليفة جديد في الجزيرة العربية التي ساهمت بمرور الوقت في تأثير تدرجي ألهم جيلاً جديداً من المجاهدين المسلمين.



٦

الخليفة الجديد

«تهب ريح جافة من خلال الشرق، والعشب الظمئ في انتظار أن يتألّق. والريح تهب في اتجاه الحدود الهندية».

- جون بوكان(١)

مزقت نيران البنادق هدوء الصباح بعيد انتهاء المؤمنين من صلواتهم عند الفجر الباكر (١٠ حزيران/يونيو ١٩١٦). اخترق الرصاص درف النوافذ الخشبية وانغرز في الأرضية الملمّعة لمبنى الحميدية الذي يحتوي على مكاتب ممثلي الحكومة العثمانية في مكّة. استمرّ الرصاص في اختراق النوافذ والجدران متسبباً بانفجار الشظايا الخشبية الصغيرة ومثيراً غيوماً صغيرة من الغبار. ارتمى البكباشي محمد ضياء بك، الحاكم بالوكالة وقائد القوات التركية في مكة، غريزياً على الأرض بعد الطلقات الأولى وبقي مستلقياً لتفادي الرصاصات التي أخذت تئزّ من فوق رأسه تماماً.(٢) حاول عبثاً الاتصال بالثّكنة التركية المجاورة – فقد قطع المتمرّدون خطوط هاتفها عازلين بذلك الجنود الأتراك القليلي العدد داخل المدينة. واتصل تالياً بالشريف حسين الرجل الوحيد ذي السلطة على البدو والذي يُشكّ بأنه وراء الهجوم.(٣)

(١) John Buchan, Greenmantle (London: Nelson, 1916), 16.

(٢) لم يحتل مكة سوى ١,٤٠٠ جندي تركي إذ تم سحب الجزء الأكبر من الحامية إلى الطائف، المقرّ الصيفي للحجاز، لإبعادهم عن حرّ الصيف الذي بلغ ٤٥ درجة مئوية.

(٣) R. L. Bidwell, ed., The Arab Bulletin: Bulletin of the Arab Bureau in Cairo (Gerrards Cross: Archive Editions, 1986), vol. 1, 258.

افترض ضياء بك، على ما جرت العادة عليه لقرون، أن العرب المحليين يحاولون، بمهاجمتهم الثكنة المجاورة، ابتزاز المال من الحكومة العثمانية. وحصل بينه وبين حسين نقاش وجيز ومثير للقلق. ما إن أمكن ضياء بك الاتصال بالأمير حتى سأله عما يعنيه كل (إطلاق النار) هذا قائلاً: «تمرّد البدو على الحكومة؛ جد طريقاً للخروج.» أجاب الشّريف حسين بتهكّم بارد: «علينا ذلك بالتأكيد» وأقفل الخط على الفور.[١] حاول ضياء بك الثبات في موقعه غير أنه استسلم لأنه لم يمتلك إلا عدداً قليلاً من الجنود تكاد تفرغ منهم الذخيرة، وافتقر إلى الماء في غياب أي انفراج في الأفق.[٢]

أنجز الشّريف حسين في ذاك اليوم العاشر من حزيران/يونيو ١٩١٦، ومن أقدس مدينة في الإسلام، قطيعته مع السلطة العثمانية ورمى بنصيبه مع البريطانيين.[٣] بيد أن الثورة العربية الكبرى لم تكن تفجّراً للقومية العربية بقدر ما كانت بمنزلة أزيز من السياسات المحلية تساندها الانتهازية البدوية. واستراح البريطانيون، وخصوصاً المجتمع الاستخباري البريطاني في القاهرة، على أنه بات يمكن الآن لشريف مكّة الحسين، الخادم الكبير للإسلام، أن يمثل ثقلاً موازناً لسلطان-خليفة الأمبراطورية العثمانية - وهو عامل جعل الموفدين الرسميين للإمبريالية البريطانية يركّزون على إعادة صوغ ديناميات السلطة الإسلامية وتسخير قوة الإسلام خدمة للمصالح البريطانية. واعتقد ضباط الاستخبارات البريطانية، وكذلك المسؤولون في القاهرة ولندن، أن ثورة الحسين ستحشد الدعم في العالمين العربي والإسلامي، وستحثّ

(١) المصدر السابق. أفاد أحد التقارير، بحسب جورج أنطونيوس، أن ضياء بك قال: «العرب في حالة ثورة ويقال إنهم أعلنوا استقلالهم التام». فأجابه حسين: «سمعتُ كذلك أنهم يريدون استقلالهم. وأنا سأفعل بالتأكيد كل ما يمكنني فعله في هذا الخصوص». أنظر Geroge Antonius, The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement Safety Harbor, FL: Simon, 2001), 196n2. Originally published in 1939 by J. B. Lippincott.

(٢) حاصر العرب بالتزامن كل الحاميات والثكنات التركية بواسطة نيران البنادق لكونهم يفتقرون إلى المدفعية. استمر القتال ثلاثة أيام استسلمت بعدها المراكز التركية الصغرى لكن الثكنات الكبرى وحصن الجياد صمدت ثلاثة أسابيع ولم تستسلم إلا بعدما جلب الإنكليز وحدات مدفعية مصرية من السودان. (Antoinius, Arab Awakening, 195).

(٣) قام ابنا الحسين، فيصل وعلي، بالثورة في ٥ حزيران/يونيو ١٩١٦ بمساندة من قبيلتين.

كذلك ١٠٠ ألف جندي عربي على ترك مراكزهم في الجيش العثماني والالتحاق بالشريف. واقتنع الشّريف – أو أقله حاول الاقتناع – بأن عدد الفارين العرب من الخدمة سيصل إلى ٢٥٠ ألفاً، أي تقريباً جميع الجنود العرب المقاتلين في الجيش العثماني.(١)

نُظر إلى ثورة الحسين، في كل من القاهرة ولندن، على أنها منتهى الجهود المخابراتية البريطانية في شبه الجزيرة العربية. إلا أن المهارة في الخداع التي مارسها اللورد كيتشنر ومساعدوه من خلال إطلاق الوعود الغامضة لإقناع الشريف بالانفصال عن العثمانيين لم تؤدّ الدور الأكبر في قراره.(٢) ولاحظ ديفيد فرومكين، وغيره أيضاً من الباحثين، أن الحسين اختار توكيل أمره إلى الحظ في إعلانه استقلال الجزيرة العربية لأنه بات مقتنعاً بأن الأتراك يخططون لخلعه كشريف لمكّة.(٣) إلا أن الوهم استمر، وأصبحت السياسات الغربية حيال الشرق الأوسط، وليس للمرة الأولى في المنطقة، رهينة المفاهيم العابرة وخداع الذات.

ومن سوء الحظ أن اللورد كيتشنر، المهندس الرئيسي للخلافة العربية، فُقد في البحر في الأسبوع نفسه الذي رفع فيه الشريف حسين راية الثورة ضد الأمبراطورية العثمانية. فقد أبحر كيتشنر في الخامس من حزيران/يونيو ١٩١٦ على متن الطراد المدرّع «هامشاير» متوجّهاً إلى مرفأ أركنجل الروسي. وفشل مقر القيادة البحرية في أخذ العلم بتحذيرات الاستخبارات البحرية من أن غواصة ألمانية قد زرعت خط

---

(١) Fromkin, Peace, 219.

(٢) شرع الحسين في مفاوضات رسمية في صيف ١٩١٧ بعد سلسلة من الاتصالات غير الرسمية عبر الوسطاء. وأعطت هذه المناقشات نتيجتها بعد تبادل للرسائل، أربع من كل جهة، بين الشريف والسير هنري مكماهون خليفة كيتشنر في منصب المندوب السامي في القاهرة. وتكشف الرسائل أن الخداع لوّن كل جوانب الاتفاقات، وتنكر الطرفان، بعد الحرب، للوعود والالتزامات الفارغة التي ولّدتها المنفعة. للاطلاع على نص الرسائل أنظر: J. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East: A Documentary Record, vol. 2 (Princeton: Van Nostrand, 1956), 13-17.

(٣) Fromkin, Peace, 218-19. بحسب بروس وستريت Bruce Westrate, The Arab Bureau" British Policy in the Middle East, 1916-1920 (University Park: Pennsylvania State University Press, 1992), 15 اكتشف علي، ابن الحسين، في كانون الثاني/يناير، دسيسة تتضمن الخطوط العريضة لخطة تركيا لخلعه.

الإبحار المقترح للمدرعة بالألغام. وأخذت حالة الطقس، في ذلك الوقت، تزداد سوءاً، إلا أن ذلك لم يردع كيتشنر – الذي استعجل الانتهاء من زيارته الروسية. أبحرت «هامشاير» في الساعة ٤:٤٥ من بعد الظهر؛ واصطدمت السفينة بعد ذلك بثلاث ساعات تقريباً بأحد الألغام. وقال الناجي الوحيد إنه شاهد لآخر مرة كيتشنر يقف بهدوء عند موقع الضباط في طرف مؤخّرة السفينة، وبعد ذلك بخمس عشرة دقيقة ابتلعت الأمواج العاتية المدرعة «هامشاير».(١)

لم يعش كيتشنر ليشهد ثمار عمله المتعلق بالثورة العربية، إلا أنه، وأكثر من أي شخص آخر، حرّك سلسلة الأحداث التي ساهمت في نهاية الأمر في صوغ مستقبل الشرق الأوسط. جزع كيتشنر في أواخر القرن التاسع عشر من فكرة قيام السلطان-الخليفة بإعلان الجهاد ضد البريطانيين بتوصية من قوة منافسة مثل روسيا أو ألمانيا. واعتقد أنه وحدها إقامة الخلافة العربية يمكنها إحباط مثل هذا الاحتمال.(٢) واستدار لهذه الغاية إلى الجزيرة العربية لطرح مفهوم استراتيجي شرق أوسطي يمثل الوسيلة لحفظ المصالح البريطانية في المنطقة ولضمان ولاء رعايا بريطانيا المسلمين. واقتنع كيتشنر بأن في وسعه تحقيق هذا من خلال تسخير قوة الإسلام في مواجهة احتكار السلطان العثماني الروحي لمسلمي العالم.

وسرعان ما عزّزت أحداث مطلع القرن العشرين من مخاوف كيتشنر. استمرّت الأمبراطورية العثمانية في الأفول بعدما نتج من الهزائم العسكرية الجديدة في شمال إفريقيا وفي البلقان في ١٩١٢-١٩١٣ المزيد من خسارة الأراضي إلى جانب مقتل أكثر من نصف مليون مسلم وتدفّق ٤٠٠ ألف لاجئ عبر حدودها الآخذة في الانكماش.(٣) وسرعان ما فاقمت المؤامرات والانقلابات من مصاعب الأمبراطورية

(١) Fromkin, Peace, 217.

(٢) Joshua teiltelbaum, The Rise and Fall of the Hashimite Kingdom of Arabia (London: Hurst, 2001), 47.

(٣) Dennis P. Hu[chick, The Balkans: From Constantinople to Communism (New York: Palgrave, 2002), 321. خسرت الأمبراطورية، في حرب البلقان الأولى، تراقية ومقدونية وألبانيا؛ وأجبر السلطان على التخلي عن ليبيا في حربه مع إيطاليا.

وزادت في صعوبة الوضع العام السياسي والاقتصادي والثقافي. وتصاعدت المعارضة لسلطة السلطان المطلقة مع كل هزيمة ومع كل تدهور في مالية الأمبراطورية.

اندمجت مقاومة السلطان عبد الحميد في ١٨٨٩ في جمعية الاتحاد والترقي، وهي مجموعة متباينة من القوى السرّية والجماعات الداعية إلى روزنامات مختلفة لا تجمع بينها إلا معارضتها للسلطان.إلا أن الجمعية لم تمثّل حركة شعبية أو حتى محاولة لتعبئة كتلة من الأتباع، بل بقيت تشكيلة نخبوية من المجموعات السياسية والعسكرية المتنافسة.(١) وسيتم في وقت لاحق من القرن العشرين، وفي أماكن أخرى من الشرق الأوسط، عكس صورة تقريبية للانتفاضة السياسية في الأمبراطورية العثمانية التي تم فيها استبدال نظام الحكم الملكي التقليدي بالنُّخب العلمانية العسكرية ـ السياسية. وبالرغم من أن بعضاً من هذه المجموعات حقق درجة محدودة من الشعبية، كالضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر في مصر – وبالتأكيد عبدالناصر نفسه – فإنها لم تستول على السلطة على رأس كتلة من الأتباع.

وها قد أخذ خوف كيتشنر الآخر، أي أن تصبح الأمبراطورية العثمانية تابعة لواحد من خصوم بريطانيا، يتحقق بعدما حلّ النفوذ الألماني محل الدور البريطاني البارز في بلاط السلطان. فبعد الخسائر التي مُني بها العثمانيون نتيجة لمعاهدة برلين، استدار عبد الحميد نحو ألمانيا، القوة العظمى الوحيدة التي لا مصالح لها تقليدياً في الشرق الأدنى، دعماً لأمبراطوريته الآخذة في الضعف. ووافق أوتو فون بيسمارك على تقديم مساعدة محدودة للسلطان بالرغم من معارضته التدخل الألماني في الشرق الأدنى. وفي مطلع ١٨٨٠ وصل مستشارون مدنيون ألمان مع الوعد بأن يعقبهم سريعاً خبراء عسكريون.(٢) وفي آذار/مارس ١٨٩٠ عزل القيصر ويلهلم

---

(١) اندمجت جمعية الاتحاد والترقّي أيضاً في جمعية عسكرية سرّية متمركزة في تسالونيكي سيسيطر ضباطها في نهاية الأمر على الأمبراطورية (Fibkel, Osman's Dream, 504-5).

(٢) لم يقف بيسمارك لا مبالياً حيال نتيجة المسألة الشرقية – النتيجة التي أعقبت تفكك الأمبراطورية العثمانية – فقد سبق له في عدة مناسبات أن شجّع فرنسا والنمسا ـ المجر على السعي إلى المستعمرات في أقاليم السلطان، ونصح البريطانيين بضمّ مصر. إلا أن المستشار الأمبراطوري رفض بالقدر نفسه أن يصبح العثمانيون كثيري الاتكال على روسيا. أنظر Yasamee, Ottoman Diplomacy, 73-75.

الثاني بيسمارك من منصب المستشار الأمبراطوري وتولى الإدارة المباشرة للسياسة الخارجية؛ وتوسع، بنتيجة ذلك، الاهتمام الألماني بالأمبراطورية العثمانية توسّعاً كبيراً. رأى القيصر فرصاً مالية واستراتيجية عظمى في أراضي السلطان ونوى أن تأخذ ألمانيا دور بريطانيا التقليدي في دعم الأمبراطورية العثمانية.(١)

حصلت الشركات الألمانية على عقود رابحة لبناء خطوط السكة الحديد العثمانية وغير ذلك من أعمال البناء الكبرى التي ساهمت في توسّع الصناعات الثقيلة الألمانية. وأحد هذه المشاريع هو خط سكة بغداد الذي قصد منه توسيع مجال الأمبراطورية العثمانية حتى الخليج الفارسي ومصر إضافة إلى تمتين قبضة السلطان على الجزيرة العربية وعلى مدينتي مكّة والمدينة المقدّستين. ومن شأن بناء خط السكة أن يأتي أيضاً بالنفوذ والبضائع الألمانية إلى الشرق الأوسط.(٢)

قام ويلهلم، في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٨، بجولة كبرى في الشرق الأوسط بدأها باسطنبول وأعقبها بتوقف في القدس وأنهاها بزيارة لدمشق. وفي الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر استخفته الحمية من جراء الاستقبال الصاخب الذي شهده في خلال جولته فتحدّى الهيمنة البريطانية على الشرق الأوسط بتوجيهه نداء إلى المسلمين داخل حدود الأمبراطورية العثمانية وخارجها. وأعلن في مأدبة أقيمت على شرفه: «يمكن لجلالة السلطان وللمسلمين الثلاثمئة مليون المنتشرين في أنحاء الأرض أن يتيقنوا أن الأمبراطور الألماني هو، وسيبقى طوال الوقت صديقاً لهم».(٣)

---

(١) Peter Hopkirk, On Secret Service East of Constantinople: The Great Game and the Great War (London: John Murray, 1994) 17.

(٢) تضمّن خط سكة بغداد خط الشرق السريع المبني حديثاً ويمتد من قونية في تركيا إلى بغداد ومن هناك إلى البصرة. رحّبت الحكومة البريطانية بخط السكة المقترح، إلا أن رجال المال البريطانيين وقفوا ضده وحرّكوا الرأي العام لمعارضة المشروع. ولهذا أصبح خط سكة بغداد مصدراً للاحتكاك ليس بين بريطانيا وألمانيا وحسب بل مع روسيا أيضاً لأنه سيمثل تحدياً للنفوذ الروسي في القوقاز وشمال بلاد فارس. وفي ١٩١١ و١٩١٣ توصلت روسيا وبريطانيا إلى اتفاقات منفصلة مع ألمانيا. وتخلت شركة خطوط سكة بغداد عن عملياتها في جنوب بلاد ما بين النهرين إلى البريطانيين وأعطت للروس الحق الحصري في سكك الحديد في شمال بلاد فارس. وساهم أيضاً الاستثمار المالي الفرنسي في المشروع في التوصل إلى تسوية. (Strachan, Frist World War, vol. 1, 33.)

(٣) Hopkirk, Secret Service, 23-24; Taylor, Struggle for Mastery, 383.

انتشر الخطاب في أنحاء العالم الإسلامي بفضل الدعاية الألمانية، إضافة إلى الهدايا السخية للصحف العربية والتركية، ووصل حتى الهند البريطانية وآسيا الوسطى – أقله بالنسبة إلى من تمكنهم القراءة.[1] وأبرزت ملاحظات القيصر، بالنسبة إلى البريطانيين، النفوذ الألماني المتزايد في اسطنبول وحملت معها الإمكان الواقعي جداً في أن الأمبراطورية ستصطف، في حالة الحرب، مع قوى المحور. وإعلان السلطان للجهاد، في هذا الاحتمال، لن يستفزّ مسلمي بريطانيا وحسب بل سيقفل في وجههم أيضاً طريق الحجّ السنوي إلى مكّة.

وخمّن كيتشنر أن الوسيلة الفضلى لمواجهة وقع إعلان السلطان ـ الخليفة للجهاد هي في استمالة زعماء الجزيرة العربية الدينيين وشريف مكّة بنوع خاص. فالأراضي العربية المحاذية لقناة السويس تمثل، في منظوره، جزءاً لا يتجزأ من الأمن البريطاني في شرق البحر المتوسط وهي أراض تعود ملكيتها إلى مصر وليس إلى الأمبراطورية العثمانية.[2] وتمثل الخلافة مفتاح هذه المناطق وفي الوقت نفسه الوسيلة لاستباق المنافسين المحتملين في السيطرة على الإسلام؛ ويمر الطريق إلى هذه المؤسسة عبر مكّة. وتنبعث سلطة الحسين ونفوذه من إرثه وموقعه. فموقعه فريد في نوعه في إطار التقاليد والعادات الإسلامية. وقد وصف جورج أنطونيوس، القومي العربي المسيحي، الحسين وموقعه بالعبارات التالية:

> فهو حفيد النبيّ محمد والقيّم على الأماكن المقدّسة؛ وهذان الأمران اللذان يستوجبان التبجيل وضعاه في منزلة ينفرد بها ولا يطاوله بها أحد، وقد بلغت من الرفعة ما مكّنه من أن ينازع الخليفة نفسه سلطانه في الشؤون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدّستين. فقد كان أمير مكة، حاضرة الإسلام ومثابته، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصمّ أذنه عن ندائه وخصوصاً إذا كان عربياً. ويقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس أن الأماكن المقدسة

(١) Hopkirk, Secret Service, 24.

(٢) Mohs, Military Intelligence, 14-15.

في مكّة والمدينة عرضة للخطر. وهكذا فإن مؤازرته في أمر الدعوة إلى الجهاد هي عامل مهم، بل عامل حاسم، ولذلك سعى الأتراك بلهفة إلى الحصول على هذه المؤازرة للأسباب نفسها التي كان الحلفاء يخشونها.[١]

ومن حسن حظ مخططات كيتشنر أن لحسين، شريف مكة، تاريخاً من العلاقات الحارة مع البريطانيين.[٢] ففي أواخر ١٩١٢ أو مطلع ١٩١٣ التقى كيتشنر عبد الله، النجل الثاني للحسين، عندما زار مصر ضيفاً على الخديوي. وقد جد عبدالله في طلب الدعم البريطاني في حال جرّب العثمانيون إزاحة والده.[٣] إلا أن بريطانيا لم تكن في حالة حرب مع الأمبراطورية العثمانية ولم يسع كيتشنر أن يقدم سوى التعاطف.[٤] وما زاد في قلق الحسين، ومعه الزعماء البدو، من النيات العثمانية في الحجاز هو بناء خط سكة الحديد الذي يربط دمشق بالمدينة المنوّرة مع وجود خطط لربطه في النهاية بمكة.[٥]

تمتع البدو على مدى قرون بالاحتكار المطلق للتجارة بالجمال إلى مكّة وبوصفهم حراس طريق الحج السنوي. وها إن خط السكة يهدّد هذا الهامش المدر للربح الذي يدفع السلطان بموجبه رسوماً سنوية للبدو حتى لا يهاجموا الحجّاج ويسلبوهم. كذلك وضعت السكة حداً للعزلة النسبية للحجاز بما يسمح للحكومة المركزية في اسطنبول بتموين جنود الفرق العثمانية الأربع في غرب شبه الجزيرة إضافة إلى تمكينها من التدخل في سياسات الحجاز. وستنهي السكة الحديد العزلة

(١) Antonius, Arab Awakening, 140.

(٢) Teitelbaum, Hashimite Kingdom, 41, يقول المؤلف في هذا الكتاب إن السفير البريطاني في بلاط السلطان أدى دوراً رئيسياً في تعيين حسين شريفاً لمكة.

(٣) يقول تيتلباوم (Hashimite Kingdom, 68-69) إن عبدالله أسرّ إلى السفير الفرنسي قبل مغادرته القاهرة بأنه مشمئزّ من الأتراك ويخطط للتخلي عن مقعده في البرلمان العثماني.

(٤) استخدم عبدالله حجة الذهاب إلى القاهرة من أجل تحسين ظروف السفر للحج السنوي إلى مكة ومن أجل سبر أغوار البريطانيين. أنظر Westrate, Arab Bureau, 14.

(٥) كانت سكة الحجاز كناية عن خط ضيق بنى معظمه الأتراك بمشورة الألمان ومساندتهم؛ وهو يربط دمشق بالمدينة. وبلغ الخط المدينة في الأول من أيلول/سبتمبر وهو ذكرى ميلاد السلطان.

الصحراوية التي مثّلت عازلاً يحمي شريف مكة من دسائس بلاط السلطان ويوفر له درجة كبرى من الاستقلال الذاتي المحلي.

بعد وقت قليل على نشوب الحرب استدعي كيتشنر للعودة إلى لندن وتولي منصب وزير شؤون الحرب، غير أنه، وبالرغم من مسؤولياته الجديدة، حافظ على اهتمامه وتأثيره بالأحداث في الشرق الوسط. وبعد أشهر قليلة على ذلك، أقنع جيلبرت لايتون، الممثل الرسمي لحكومة السودان في القاهرة (وقد ترأس بعد نشوب الحرب كل الاستخبارات البريطانية والمصرية المدنية والعسكرية)، كيتشنر باستئناف الاتصال بالحسين وبإقناع شريف مكّة بالقطيعة مع العثمانيين. وبعد تبادل الرسائل بين المفوض السامي البريطاني في مصر، السير هنري ماكماهون، والحسين التزم المسؤولون البريطانيون في القاهرة التحريض على التمرد داخل حدود الأمبراطورية العثمانية؛ وهو تمرّد سيتطلّب استخدام قوات غير نظامية ويشجّع على إنشاء مؤسسة استخبارات منفصلة في القاهرة.

قدّم الانهيار الوشيك للأمبراطورية العثمانية لأبطال الاستعمار البريطاني المسؤولين عن مصر فرصة اقترحها رونالد ستورم، وكان يومئذ السكرتير الشرقي للوكالة البريطانية (مساعد كبير المسؤولين البريطانيين في مصر)، بإقامة «ولاية إفريقية شمالية أو في الشرق الأدنى تضمّ مصر والسودان وتمتد من عدن إلى الإسكندرونة تُقارن بأهمّيتها وتعقيدها، إذا لم يكن بحجمها الفعلي، بالهند نفسها».[١] وهكذا، تشابكت هذه الأمنيات الاستعمارية مع مواصلة الحرب الاستخبارية ضد العثمانيين في شبه الجزيرة العربية التي لاحق ممارسوها أهدافاً سياسية خارجية شبه مستقلة كجزء من كفاحهم السرّي ضد الأمبراطورية العثمانية في الجزيرة العربية.

لكن كمنت خلف هذه الاعتبارات مسألة الوعود التي أُعطيت إلى الحسين. فقد اقتنع الشريف بأن مكافأته ستتألف من مملكة عربية مستقبلية لا تزال أراضيها غير محدّدة؛ واقتنع البريطانيون بأن القيّم على الأماكن المقدسة سيحل خليفة محل

(١) مذكور في Mohs, Military Intelligence, 15.

السلطان. إلا أن هذه الترتيبات وفّرت للحكومة البريطانية في لندن، بحسب متطلبات الحرب، الكثير من المرونة في إطلاق الوعود الإقليمية للتابعين الحاليين والمحتملين في المنطقة، فيما شرعت في الوقت نفسه في المساومة مع حليفات مثل فرنسا على مستقبل تقاسم المغانم العثمانية في الشرقين الأدنى والأوسط.

لم يؤد مقدمو الوعود المتناقضة ومثيرو الثورة العربية الكبرى، من أمثال ت. أ. لورنس، دور الوسطاء بين لندن والعرب وحسب، بل حاكوا بعد ذلك الأساطير والأوهام التي صاغت مفاهيم الحرب في الشرق الأوسط. فالرجال والنساء الذين ألفوا صفوف مجتمع الاستخبارات التي نبتت في القاهرة، سواء البريطانيون منه أم لاحقاً الأميركيون، تواصلوا من خلال الشبكات الاجتماعية كما من خلال روابطهم بعالم الجاسوسية السرّي والعمليات الخاصة. فقد سهلت الروابط الاجتماعية والشخصية المقاربة المتخصّصة لكوكبة كبيرة من ضباط المخابرات العسكرية والموظفين الحكوميين والباحثين والمستعربين والصحافيين وعلماء الآثار، ناهيك ببعض غريبي الأطوار، الذين اندمجوا في نهاية الأمر في المكتب العربي. وتجاوزت جماعة الشخصيات التي برزت من خلال الحرب العربية السرّية سلسلة القيادة (العسكرية والمدنية معاً) ووجّهت الأحداث على مسرح عمليات الشرق الأوسط في اتجاهات لا تزال أصداء نتائجها تتردد.

٧

الأوهام الشرق أوسطية - الثورة العربية الكبرى

«لم يعدُ الأمر برمّته إلا قصراً في الهواء لن يجد له تجسيداً أبداً».

– من السير إدوارد غراي إلى أوستن تشامبرلاين[١]

تجمّع الجنود المنهكو العظام باستهتار حول الأكواخ المبنية من الطين فيما أرهقتهم الحرارة بلا هوادة وقد بلغت المئة درجة. نخر الجوع الرجال الذين ابتلوا بالملاريا والزحار إضافة إلى طائفة من الأمراض الموهنة الأخرى. قوّض اليأس إرادة القوي ودمّر الضعيف. واصطاد الموت ضحاياه بحرّية في المستشفيات المُرتجلة وفي الثكن البدائية.[٢] وعانى الناجون المضايقة المستمرّة من غيوم كثيفة من الذباب الذي يتسلل من أية شقوق ويغطي كل لقمة طعام. وسرعان ما اختفى كل ما فيه غذاء والتفت الرجال إلى كل ما يشبه القوت ولو من بعيد؛ بل سرعان ما اختفت البقايا القذرة للمادة التي لا يمكن التفكير فيها في البطون الخاوية. راقب الرجال بعضهم بعضاً بارتياب في حال خبأ أحدهم طعاماً متعفناً أو خبّأ أكواماً من العظام التي جرّد عنها أي لحم.

هؤلاء التعساء هم كل من تبقى من الحامية البريطانية في الكوت، القرية المتكبكبة

(١) Elie Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth: The McMahon-Husayn Correspondence and Its Interpretations, 1914-1939 (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), 108.

(٢) يرتكز وصف استسلام القوات البريطانية في الكوت على كتاب راسل برادون Russell Braddon, The Siege (New York: Viking, 1969), passim.

عند إحدى استدارات نهر دجلة، وتبعد ٣٥٠ كلم عن البصرة ونحو ١٧٠ كلم عن بغداد. عانى جنود الفرقة السادسة («بونا») في جيش الهند معاناة فظيعة من مصائب الهزيمة في هذه الأرض الغامضة والقاحلة: الجوع، المياه غير الصالحة، والأمراض التي نقلتها غيوم البعوض والذباب. فقد جاؤوا إلى بلاد ما بين النهرين (عراق اليوم) تحوّطاً لهجوم على حقول نفط بلاد فارس بعد دخول الأمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا. وهي ليست المرة الأولى التي يجد فيها جيش غربي نفسه عالقاً في الوحول العراقية نتيجة الاستخبارات السيئة عن المنطقة وسكانها.

سهل القتال مع الأتراك نسبياً في المراحل الأولى من الغزو البريطاني، غير أنه ومع التقدم صوب بغداد أدت المستنقعات والصحارى والطرق السيئة ومسار دجلة المتعرّج، إضافة إلى المناوشات المستمرة، إلى خفض أفراد الفرقة السادسة من عددها الأصلي البالغ ٣١ ألف جندي إلى نحو ١٣ ألف ضابط وعنصر لدى وصولها إلى الكوت في ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٥.[١] تحصّنوا في هذه القرية العسيرة على الوصف، وبعد ١٤٦ يوماً من الحصار أُجبر الضابط القائد، اللواء تشارلز فير فيريرز تاونشند، على الاستسلام، غير أنه حاول، قبل الموافقة على عار الهزيمة والاستسلام، كسب مهلة لجيشه المقضي عليه. وافقت الحكومة البريطانية وحاول أوبري هربرت وت. أ. لورنس، اللذان سرعان ما سيصبحان عضوين في المكتب العربي، التفاوض مع الأتراك. عرضا مليوني جنيه استرليني لتحرير الحامية، لكن القائد التركي رفض العرض.

وقعت الفرقة الهندية السادسة، في ٢٩ نيسان/أبريل ١٩١٦، في الأسر. وتنوّع سلوك الأتراك الظافرين: تميزت معاملتهم للضباط بالمجاملة، حتى أنهم رحّبوا بتاونشند نفسه، فيما كانوا عديمي الرحمة مع السكان المحليين ممن شكّوا في مساعدتهم للعدو، ولم يبالوا بالجنود الهنود العاديين. أعدم الأتراك أعداداً كبيرة

(١) هذا مجرّد رقم تقريبي؛ وبحسب ما جاء في خطاب كيتشنر أمام مجلس اللوردات بلغ مجموع الذين استسلموا ستة آلاف جندي هندي و٢,٩٧٠ بريطانياً.

من العرب المحليين، حتى الذين راودتهم في شأنهم مجرّد شكوك في تعاونهم مع البريطانيين. وتم شنق المحظوظين على الطريقة التركية، وخنق الأقل حظاً بطوق من الحديد.[1] فُصل الضباط عن رجالهم ونقلوا إلى الراحة النسبية في بغداد. شارك تاونشند الجنرالات الأتراك في طعامهم وشرابهم، وانتهى به الأمر في فيلا فخمة في جزيرة مالكي في بحر مرمرة حيث مكث حتى نهاية الحرب ونسي أمر رجاله تماماً.

بدأ الجحيم على الأرض بالنسبة إلى جنود الفرقة السادسة العاديين منذ لحظة الاستسلام. واضطروا، بالرغم من حالتهم الجسدية اليائسة، إلى السير حتى الغسق وأُطعموا البسكويت القاسي الذي رمي به لهم على الأرض من على ظهور الجمال. واحتوت البسكويتات، بالإضافة إلى القليل جداً مع المغذيات، على القش والتراب، إلا أن الجنود انقضّوا عليها؛ فنخرها بعضهم من أطرافها فيما استخدم آخرون جزماتهم لكسرها قطعاً أصغر. أما القلة التي تميزت بالصبر فنقعتها في الماء لساعات ولاحظت كم أن حجم البسكويتات ينتفخ في شكل كبير. وبدأ الرجال في اليوم التالي يموتون والزبد يخرج من أفواههم فيما أفرزت المعدة والأمعاء إفرازاً لزجاً أخضر اللون. فجميع من تناولوا البسكويت أصيبوا بالاجتفاف وماتوا وهم يئنون من الألم الشديد.[2] مثلت تلك المرحلة الأولى من «جحيم دانتي» الذي استقبل جنود الفرقة الهندية السادسة. وبعد مسيرات لا نهاية لها، وسوء المعاملة المستمرة، والضرب بالسياط، ومن دون أي زاد تقريباً، أنهى الناجون أيامهم يعملون في جماعات على مدّ خط سكة الحديد في الأناضول. لم ينج إلا قلة منهم من المحنة، ولم تعد إلا حفنة من الرجال إلى الديار بعد انتهاء الحرب وقد تحطّموا جسداً وروحاً.[3]

تلك كانت عملية الإذلال الثانية التي ينزلها العثمانيون بالبريطانيين. فقد سبق

(١) على عكس الممارسة الغربية بشنق الشخص من خلال الإطباق بسرعة على الرقبة، اعتمدت طريقة الشنق التركية على خنق الضحية بطرف الحبل.
(٢) شك أطباء الجيش البريطاني في الحمى المعوية، والكوليرا، بل حتى في التسمم.
(٣) نجا نحو ١٣ ألف جندي من الحلفاء في زمن الاستسلام، مات من بينهم ٧٠ بالمئة من البريطانيين و٥٠ بالمئة من الهنود نتيجة المرض أو قيام الأتراك بقتلهم.

لهزيمة غاليبولي أن برهنت بوضوح على أن العثمانيين لا يزالون يملكون قدرة على التحمل، واتضح من كارثة الكوت أن الأمبراطورية تتمتع بعمق هائل.[1] لكن لم يمكن لبريطانيا تحمّل تحويل مزيد من القوات إلى الشرق الأوسط ما دامت الجبهة الغربية تستهلك الجنود على مستوى كبير جداً. وما البديل إلا في تخريب الأمبراطورية العثمانية من الداخل، كما دعا إلى ذلك رفاق كيتشنر في القاهرة وباشر به المكتب العربي المنشأ حديثاً. مثلت الولايات العربية في الأمبراطورية العثمانية مفتاح هذه الاستراتيجية ورافقها الاقتناع أنه بوجود الزعيم المناسب الذي يمتلك المؤهلات الدينية والدنيوية ستقوّض القومية العربية سيطرة تركيا على الشرق الأوسط. وأضافت الهزيمتان في غاليبولي والكوت، بالفعل، المزيد من الزخم إلى المفاوضات السرّية مع الشريف حسين التي أدت، صيف ١٩١٦، إلى التمرد في الحجاز.

وها إن أجهزة استخبارات دولة ما تشرع، للمرة الأولى في الأزمنة الحديثة، في شن حرب سرّية وغير نظامية كرديف للعمليات العسكرية. غير أن العيب الأساسي في استراتيجية مؤسسة الاستخبارات البريطانية هو في عجزها عن فهم الجاذبية المحدودة للقومية العربية. حققت الثورة العربية الكبرى بعض الأهداف الصغيرة نسبياً: شنّ جيش صغير معظمه مؤلف من البدو المدفوعي الأجر غارات ناجحة على خطوط السكك الحديد التركية وغير ذلك من أعمال التخريب. تملّص الشريف حسين من إعلان السلطان للجهاد، مع أن هذا الإعلان لم يلق في العالم الإسلامي الصدى الذي افترض البريطانيون والألمان خطأ بأنه سيحدثه.[2] لم تحصل انتفاضات جماهيرية

(١) دارت معركة غاليبولي في شبه جزيرة غاليبولي في تركيا، غرب الدردنيل، من ٢٥ نيسان/أبريل ١٩١٥ حتى ٩ كانون الثاني/يناير ١٩١٦. خسر البريطانيون ١٢,٢٥٥ قتيلاً و ٥٢,٢٣٠ جريحاً. أضف إلى ذلك أن ١٤٥ ألف جندي بريطاني أصيبوا بأمراض مثل الحمى المعوية والزحار والإسهال. ومن بين إصابات دول الكومنولث الأخرى (جنود من استراليا، نيوزيلندا، نيوفاوندلاند، والهند) هناك ١١,٧٠٢ (قتيل) و٢٨,٠٦٠ جريحاً. وقُتل للفرنسيين عشرة آلاف وجُرح ١٧ ألفاً.

(٢) ما شرحه الحسين للسلطات التركية هو أن جهاداً تسانده مكة سيفضي إلى قيام البريطانيين بحصار البحر الأحمر مما سيتسبب بضائقة كبرى للسكان.

ضد الأمبراطورية العثمانية، وحافظ رعايا بريطانيا المسلمون على هدوء نسبي.[1]

بقي معظم العرب على ولائهم للسلطان بالرغم من فشل دعوته إلى الجهاد، فيما أدت الغارات على خط السكة الحديد التركي في الحجاز، هذا إذا أدت إلى شيء، إلى تعكير موقف المسلمين من تمرد الحسين بما أن عمليات التعطيل حدّت في شكل كبير من الحج السنوي إلى مكّة. ثم إنه، وزيادة في الطين بلة، أنشىء خط الحجاز بأموال جُمعت من المسلمين في مختلف أنحاء العالم؛ وشكّل كل ميل نُسف من السكة خسارة آلاف الليرات من المساهمات التي قدّمها الأغنياء والفقراء من المسلمين على السواء.[2]

ضمن التحالف البريطاني مع الشريف حسين، من جهة أخرى، وصول مسلمي بريطانيا إلى مكة، وربما ساهم رفض الحسين الموافقة على دعوة السلطان إلى الجهاد في انهيار الحرب الإسلامية المقدّسة ضد البريطانيين والحلفاء. إلا أن هذا لا يمثل نجاحاً للاستخبارات البريطانية بقدر ما مثلته المناورة السياسية الماهرة للبريطانيين، وللحسين أيضاً.

فاقم ت. أ. لورنس، الذي أَسَرَتْ إنجازاتُه المخيلة الشعبية في بريطانيا وأميركا، المشكلة بمساهمته في وهم الثورة العربية الكبرى. ونبع قسم من ذلك من روايته الشخصية للتمرد في شبه الجزيرة العربية، مع أن ذلك أتى لاحقاً. فالدعاية الأساسية التي وطّدت الأسطورة حاكها لويل توماس، وهو أستاذ أميركي غامض، وطرح فيها

(١) أعلن الرأي الفقهي في مصر والهند بأنه من واجب المسلمين إطاعة البريطانيين (Finkel, Osman's Dream, 529).

(٢) قدم المسلمون الهنود تبرعات كبرى لمشروع السكة الحديد، بالرغم من جهود الإنكليز لثنيهم عن ذلك، وقد فعلوا بالرغم من أن معظمهم بلغ مكة بعد سفرة طويلة عن طريق البحر. بلغت التبرعات، في ١٩٠٠، ٤١٧ ألف ليرة تركية؛ وارتفعت ما بين ١٩٠٣ و١٩٠٨ من ٦٥١,١٨٤ إلى ١,١٢٧,٨٩٤ ليرة. ونقل خط السكة نحو ثلاثين ألف حاج سنوياً. أنظر Kemal H. Karpat, The Politicization of Islam: Reconstructing Identity, State, Faith and Community in the Late Ottoman State (Oxford: Oxford University Press, 2001), 225.

لورنس كمحارب صحراوي رومانسي مصمّم على إعطاء العرب دولة لهم.[1] غير أن التاريخ كان أقل لطفاً مع لورنس إذ إن المؤرّخين عرّوا، عبر العقود، كل جزء من أجزاء الأسطورة، كاشفين عن دجّال معقّد ولكن داهية سياسي. وربما يقدم هـ. ف. وينستون الموجز الأكثر ملاءمة للورنس ولحرب الصحراء في شبه الجزيرة العربية:

... قصة «لورنس العرب»؛ وهي قصة ذات سذاجة مذهلة سحرت أجيالاً من الكتّاب والمؤرخين والباحثين والشعراء والرجال العاديين والنساء. إنها أسطورة كرّس لها رجال متميّزون أكاديمياً حياتهم العملية وهم يفتّشون من دون توقف بين الرسائل واليوميات بحثاً عن «حقيقة» هذه المغامرة أو تلك، ويكتبون المجلّد تلو المجلد من التقويم وإعادة التقويم، ويعاكسون كل محاولة لوضع المسألة في نوع من أنواع المنظورية بالإلقاء باتهامات الافتراء والتحريف المتعمّد والاستئساد والفضيحة وتشويه السُّمعة العامة... وحتى الألمان، الذين يحرصون أشدّ الحرص على الدليل التوثيقي بحيث أنهم يقلّصون في العادة روايات المغامرة الكبرى إلى سرد لا يُهضم من التفاصيل الواقعية، سقطوا ضحايا السّحر غير القابل للتفسير لهذا الجندي الصغير الثرثار الذي يبدو كالفتاة في ثوبه العربي البدائي، والذي لم يسمع به سوى قلة من العرب، إلى أن دخلت صناعة النشر والأفلام إدراكهم بحيث تذكّره فجأة الرجال المتقدّمون في السنّ في مدن وقرى سوريا والحجاز.[2]

وبالرغم من أن لورنس شكل مثالاً أقصى، فإنه نادراً ما سنحت الفرصة للكثيرين من الرجال وللمرأة الوحيدة (جيرترود بيل) الذين كوّنوا مجتمع الاستخبارات البريطانية المتماسك في الشرق الأوسط في لقاء عرب عاديين. فالجزيرة العربية

(١) أنتج لويل توماس عرضاً مسرحياً، «الحملة الصليبية الأخيرة» (The Last Crusade) وهي في جزء منها وثائقية وفي الجزء الآخر أخبار مأثورة، وقد عرضت أمام جمهور كبير في نيويورك ولندن. ونُشرت «الحملة الصليبية الأخيرة» في ١٩٢٤ في كتاب حمل عنوان «مع لورنس في الجزيرة العربية» With Lawrence in Arabia (New York: Century, 1924).

(٢) H. V. F. Winstone, The Illicit Adventure: The Story of Political and Military Intelligence in the Middle East from 1898 to 1926 (London: Jonathan Cape, 1982), 247-48.

لم تكن بالنسبة إلى علماء الآثار والجغرافيا والتاريخ وغيرهم من الباحثين إلا مسألة طوبوغرافيا وسياسات إمبريالية وفضول أكاديمي.كان ت. أ. لورنس، كما هي حال معظم زملائه، متآلفاً في شكل وثيق مع الصحارى والآثار والعصور الغابرة لكنه، وعلى نحو لافت، منقطع الاتصال بالسكان. فما العرب العاديون، بالنسبة إلى البريطانيين، إلا خدم المنازل وسائقو الإبل وندلاء ومزارعون وماسحو أحذية وشحاذون إضافة إلى البدو الرحّل، لكنهم جمهور بلا صوت: فالتطلعات السياسية لا تعكس إلا وجهات نظر زعمائهم وقناعاتهم.

ورشح، في هذا الصدد، التحليل الاستخباري البريطاني للمشاعر السياسية لجماهير المسلمين في الشرق الأوسط (وفي غيره) من خلال العرب الذين يحتلّون مواقع في المسؤولية. وزاد تجزّؤ الجهود الاستخبارية البريطانية من تفاقم هذه المصاعب. واندمج الأفراد البريطانيون الذين اجتذبهم العمل السرّي في الشرق الأوسط، وفي جنوب شرق بلاد ما بين النهرين، في المكتب العربي. وقد تم ربط المنظمة الجديدة بقسم الاستخبارات في القاهرة مع أنها لم تصبح وكالة مركزية كما اقترح ذلك السير مارك سايكس مستشار الشرق الأوسط لدى كيتشنر.[١] وخطط سايكس لتُشكل الوكالة الجديدة وسيلة لتبسيط الطبقات السياسية المتنافسة لصانعي السياسة البريطانيين في لندن وفي مختلف أنحاء الأمبراطورية.[٢]

انضمّ المكتب العربي إلى غيره من حاملي أسهم السياسة في وزارة الخارجية ومكتب الحرب وحكومة الهند ووزارة المستعمرات والأميرالية ووزارة الحرب في

(١) جاء إنشاء المكتب العربي في ١٩١٦ بعد عودة السير مارك سايكس من جولة كبرى قام بها في ١٩١٥ واستمرت ستة أشهر وحملته إلى البلقان والخليج الفارسي ومصر والهند وناقش فيها مستقبل الشرقين الأدنى والأقصى مع المسؤولين البريطانيين في تلك المناطق. وتضمن جزء من رصده فكرةَ إنشاء مكتب يتولى إدارة الشؤون العربية. وواجه سايكس معارضة قوية من مختلف الأوساط بمن فيهم والي الهند الذي اعتقد أن المنظمة الجديدة ستتجاوز نطاقات اختصاصه. أنظر أيضا Fromkin, Peace, 170-71; and Westrate, Arab Bureau, 27-32.

(٢) إلا أن التسوية كانت ضرورية لإقامة المكتب العربي، ليس من أجل تهدئة مخاوف والي الهند وحسب، بل الأهم من ذلك مخاوف مكتب الهند، ووزارة الخارجية وغيرها من وكالات السياسة الخارجية البريطانية.

محاولة توجيه السياسة البريطانية في الشرق الأوسط. وكان على المكتب العربي في الوقت نفسه أن يقود حرب عصابات بواسطة جيش الحسين البدوي المؤلف من هنا وهناك إضافة إلى تنسيق العمليات الاستخبارية في الشرق الأوسط. وحذا الحسين حذو بريطانيا انطلاقاً حصراً من مصلحته الخاصة فيما اعتمد على الوعود بدولته الخاصة التي ألمحت إليها المراسلات المتبادلة بينه وبين ماكماهون. بيد أن اتفاقية سايكس-بيكو قسمت، قبل نشوب الثورة العربية الكبرى وإنشاء المكتب العربي، الأقاليم العثمانية في الشرق الأوسط، بما فيها الجزيرة العربية، بين دول الحلفاء.[1] إلا أن هذا الترتيب الذي يخدم المصالح الذاتية لم يضاه خيبة الشريف من أنه لا يمثل أكثر من نفسه - ناهيك بالعرب.

وعدّل الوايتهول في مطامح الأمير في الأمبراطورية العربية لتصبح كونفدرالية من الدول العربية على رأس كل منها حاكم مستقل، مع تخصيص الأكثر قابلية للحياة من بينها والأكثر إنتاجاً للإدارة البريطانية والفرنسية المباشرة. واستمرّ مسؤولو المكتب العربي في التمسك بوهم الدولة العربية المستقبلية وعلى رأسها الحسين، فيما ادعى الشريف المراوغ أنه يقود الحركة العروبية إلى التمرد على الأمبراطورية العثمانية. وفضّل المكتب العربي حكماً بريطانياً وفرنسياً غير مباشر من خلال أمير عربي متعاون، مثّل الحسين فيه مرشحه الأول. فحتى لورنس شكك في قابلية البلاد العربية المستقلة حقاً للحياة، بالرغم من أنه لم يفقد ازدواجية الغرض التي وجّهت

(١) أقرت الحكومتان الفرنسية والإنكليزية في مطلع شباط/فبراير ١٩١٦ اتفاقية سايكس-بيكو التي رُفعت بعد ذلك، في نيسان/أبريل، إلى موسكو وأُنجزت العملية في أيار/مايو ١٩١٦. وقُسّمت المنطقة إلى مناطق تقع تحت الحكم الفرنسي أو البريطاني المباشر، وحُددت أخرى بوصفها مناطق نفوذ. وأصبح الشاطئ السوري إضافة إلى جنوب شرق تركيا ولبنان تحت الإدارة الفرنسية المباشرة، فيما أُعلن الداخل السوري مع شمال بلاد ما بين النهرين حول الموصل منطقة نفوذ. ومُنحت بريطانيا السيطرة على المناطق التي تشتمل، في شكل عام، على أردن اليوم وجنوب بلاد ما بين النهرين (بما في ذلك البصرة وبغداد)، ومنطقة صغيرة حول حيفا للسماح لها بالوصول إلى ميناء متوسطي. ووضعت القدس والأماكن المقدسة تحت الإدارة الدولية غير أن بريطانيا ستحتفظ بميناءي حيفا وعكا. وسيوضع ما تبقى، بما في ذلك شبه الجزيرة العربية، تحت الإدارة الدولية التي ستضمّ ممثلين عن شريف مكة. وستحصل روسيا، لقاء موافقتها على التقسيم الأنكلو-فرنسي للشرق الأوسط على القسطنطينية والمضايق والمقاطعات الأرمنية العثمانية.

مشاعره حيال العرب والدولة العربية المستقبلية. وزعم لورنس في تقرير مطوّل عن عمليات الأمير فيصل، نجل الحسين، في ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٦، وقد نشره في «آراب بولتان» Arab Bulletin:

> يوجد بين الزعماء العرب الكثيرون من الرجال الأذكياء الحصفاء من الناجحين بين أبناء جيلهم ولو أنهم لا يتصرفون بالطريقة التي نقوم بها نحن. وهم يفتقرون بالتأكيد إلى الخبرة – ما عدا طبقة الموظفين الأتراك وهي كناية عن قائد أعمى – والنظرية؛ حيث أنه لم يتم التشجيع على دراسة العلوم الاقتصادية التطبيقية. بيد أنني لم أعد أشكّك في مقدرتهم على تأليف حكومة في الحجاز وهذا، في ما يتعلق بمصالح رعاياهم، أفضل من النظام التركي الذي استبدلوه.(١)

بيد أنه، وفي الملاحظة المرفقة بالتقرير والمكتوبة بخط اليد، توصل إلى نتيجة مغايرة:

> إنهم [الزعماء العرب] شحيحو الموارد المادية وسيبقون هكذا دوماً، لأن عالمهم زراعي ورعوي ولن يتمكنوا أبداً من أن يصبحوا أغنياء جداً أو على درجة كبيرة من القوة. ولو أن الأمر عكس ذلك لتوجّب علينا أن نقلّب الرأي مليّاً أكثر في صوابية إنشاء قوة جديدة في الشرق الأوسط تمتلك مثل هذا الشعور القومي المندفع. إلا أن على ضعفهم العسكري الذي يزعجنا الآن أن يضمن لنا من الآن وصاعداً، والحالة هذه، منافع أكبر بكثير من المال والسلاح والذخيرة التي نُطالب الآن بالاستغناء عنها.(٢)

دين الاتفاق، في شكل إجمالي، بوصفه تقاسماً للمغانم بعد الحرب وسينتج

(١) "Extracts from a Report on Feisal's Operations, 30 October 1916," Arab Bulletin, vol. 1, bulletin 31, 465.

(٢) Malcolm Brown, ed., T. E. Lawrence in War and Peace: An Anthology of the Military Writings of Lawrence of Arabia (London: Greenhill, 2005), 61. Originally published in Arnold W. Lawrence, ed., Secret Despatches from Arabia (London: Golden Cockerel Press, 1939).

منه تقسيم الأمبراطورية العثمانية ويمثل خداعاً في ما يتعلق بالوعود المعطاة للعرب. وأعلن جورج أنطونيوس، القومي العربي المشهور (ولكن المسيحي) أن: «اتفاقية سايكس ـ بيكو وثيقة مروعة. فليست هي وليدة الجشع في أسوأ صوره، حين يكون الجشع مقترناً بالريب فيؤدي إلى الحماقة وحسب، بل هي أيضاً صورة مرعبة للمخادعة والمكر».[١] وقد عدّ باحثون آخرون أن رسائل ماكماهون وما رافقها من وعود للحسين لم تكن خداعاً ومكراً بل إنها اقتُرحت في الأساس لإنشاء دولة عربية، ولو كانت دولة تحت الوصاية البريطانية يحكمها الشريف.[٢] والمؤكد أن عناصر المكتب العربي، بالرغم من أنهم مؤيدون للعرب، أسفوا على اتفاقية سايكس-بيكو ولكن ليس لأهدافها الآيلة إلى دولة عربية مستقبلية ترتبط كتابع بالأمبراطورية البريطانية.[٣] ورأى بروس وستريت، في دراسة حديثة عن المكتب العربي، أن سياسة متحمّسي المكتب «مثّلت خدعة أكثر حداثة، وبطريقة من الطرائق أكثر غدراً، وتضمّنت آليات حيلة وتلاعب توفّر المرونة اللازمة لمواجهة المدّ المتصاعد للقومية العربية ولتمديد فترة بقاء البريطانيين في الهند ومصر».[٤] وتوجب على المكتب العربي لتحقيق هذه الغاية أن يساعد على بناء القومية العربية التي ستنقسم على نفسها وتُنشئ كونفدرالية الكيانات السياسية والدينية التي تناصب بعضها بعضاً العداء. وبموجب سياسة فرّق

(١) Antonius, Arab Awakening, 248.

(٢) Efraim Karsh and Inari Karsh, Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789-1923 (Cambridge: Harvard University Press, 1999), 231, يعتبر المؤلفان أن اتفاقية سايكس-بيكو تمثل اعترافاً من قوى الحلفاء بحق العرب في تقرير المصير. Alan Palmer, The Decline and Fall of the Ottoman Empire (New York: Barnes & Noble, 1992), 236 يكتب المؤلف أن الاتفاقية أسهبت في اقتراحات ماكماهون وأوضحتها وأكملتها بدلاً من إبطالها.

(٣) بغض النظر عن تعليقات ت. أ. لورنس المسجلة الأخرى، فإنه يصف اتفاقية سايكس-بيكو في كتابه أعمدة الحكمة السبعة T. E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom: A Triumph (New York: Penguin, 1962), ٢٨٢-٨٣ على أنها خداع وزعم بأنه «أخذ على نفسه عهداً بجعل الثورة العربية محرّكاً لنجاحها الخاص... وأخذ على نفسه عهداً بقيادتها بجنون إلى الانتصار النهائي بحيث تفرض المنفعة على القوى تسوية عادلة للمطالب الأخلاقية العربية؛ أما إيلي قدوري Elie Kedourie, The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies (London: Weidenfeld & Nicolson, 1970) 24 فيستشهد بجيلبرت كلايتون الذي يعبّر عن انزعاجه واستيائه من حصيلة اتفاقية سايكس-بيكو.

(٤) Westrate, Arab Bureau, 205.

تسد هذه ستنتقل السيطرة على بلاد العرب وما يرافقها من محميّات جديدة ويتبعها من انتدابات إقليمية إلى صنائع البريطانيين، بما في ذلك الخلافة الجديدة. ولا شك في أن شريف مكة والقيّم على الأماكن المقدسة يطابق متطلبات الألعوبة هذه. إلا أن فشل الحسين في إشعال تمرد عربي صادق أو في التحريض على عمليات فرار كبرى للعرب الذين يخدمون في الجيش العثماني عرّى في نهاية الأمر الحركة العروبية التي انطلقت من مكة.

وتبقى على درجة متساوية من الإشكالية معرفة هل المكتب العربي بالغ على نحو فادح في تقدير المشاعر القومية للعرب وانغمس في إغراء تصديق تقارير الجمعيات السرّية في سوريا أو دار في خلده مفهوم التمرّد العام على العثمانيين بما يتناسب مع مصالح المسؤولين البريطانيين في القاهرة. وقد ارتكز تقويم المكتب لإمكانات القومية العربية واحتمالات تدبير التمرد على تقارير ضابط عربي شاب في الجيش العثماني. فقد كان الملازم محمد شريف الفاروقي عضواً في جمعية العهد السرية ومركزها في دمشق وتضمّ ضباطاً عرباً في الجيش العثماني إضافة إلى رجال أعمال وشخصيات سياسية في سوريا.[١] ونُقل مركز الفاروقي في خريف ١٩١٥ إلى غاليبولي حيث اجتاز الخطوط وفرّ إلى البريطانيين. وادعى أنه يمتلك معلومات مهمة للاستخبارات البريطانية في القاهرة فنُقل إلى مصر.

من سوء الحظ أن الفاروقي يتحدّث الإنكليزية بركاكة؛ وبالرغم من أن عدة ضباط في جهاز الاستخبارات في القاهرة كانوا متضلعين من اللغة العربية فإن بعضاً مما قاله قد يكون ضاع في الترجمة. إلا أنه تمكن من الإقناع، من أرادوا على وجه الخصوص الاقتناع، بأن العهد والفتاة (الجمعية السرّية الأخرى) متوحدتان في دعم

(١) أسس ضباط في الجيش العثماني في اسطنبول، في ١٩٠٩، جمعية العهد. وقبل ذلك بسنة أنشأ طلاب عرب في اسطنبول جمعية سرية أخرى هي الفتاة، واسمها الكامل «جمعية الأمة العربية الفتاة». وقضى برنامج الجمعيتين بتحسين وضع العرب في الأمبراطورية، لكنهما قررتا، بعد نشوب الحرب، السعي إلى الاستقلال. أنظر Eliezer Tauber, The Arab Movements I World War I (London: Frank Cass, 1993), 2-3.

الحسين، وبأن على البريطانيين أن يوافقوا على الفور على مطالب الحسين بإنشاء دولة عربية مستقلة.[١] وستقود الجمعيتان في المقابل التمرّد ضد العثمانيين. وشدّد أيضاً على أن الأتراك يعرضون على العرب إغراءات مماثلة للحفاظ على ولائهم للأمبراطورية العثمانية وأن الجنود يتعرضون للضغط الشديد وعليهم أن يعطوا جوابهم عن العرض التركي. وأبلغ الفاروقي المحققين معه أن ٩٠ بالمئة من الضباط العرب في الجيش العثماني موالون للعهد، وأن الجمعية جبت أكثر من ١٠٠ ليرة تركية رسوم عضوية. وأضاف أيضاً أن الجمعيتين ضمّتا، بعد توحيدهما الذي نسب إلى نفسه الفضل فيه، عدداً كبيراً من الأعضاء المدنيين الذين انضمّوا إلى العهد.[٢]

صدّقت بريطانيا من دون تحفظ معلومات الفاروقي بالرغم من كونه ضابطاً صغيراً وفاراً يدلي بمزاعم جريئة في شأن نيات الجمعيات السرّية العربية. واقتنع مدير الاستخبارات العسكرية والسياسية البريطانية في القاهرة، جيلبرت كلايتون، بأن العهد والفتاة جمعيتان مشروعتان تمتلكان شبكات واسعة في أنحاء الأقاليم العربية كافة في الأمبراطورية العثمانية، وبأن الألمان والأتراك لن يجرؤوا على تدميرهما بسبب نفوذهما.[٣] وبنتيجة معلومات الفاروقي اختُتمت النقاشات بين الحسين وماكماهون، وأكد البريطانيون للشريف مساندتهم استقلال دولة العرب.[٤]

واللافت في الأمر أن كل ما ادعى الفاروقي أنه يمثله والمعلومات التي نقلها كان

---

(١) فاتحت الجمعية في الأساس ابن سعود بالأمر، لكنه رفض. أنظر Tauber, Arab Movements, 61.

(٢) "Statement by Captain X," Cairo, 12 September 1915, PO 882/15, TNA.

(٣) Tauber, Arab Movements, 73.

(٤) حملت رسالة ماكماهون في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥ المغزى الكبر لأنها وعدت بالمساندة البريطانية للاستقلال العربي ووافقت على رسم الحسين لحدود الدولة المقترحة. وتبقى هذه الرسالة، وما تبقى من رسائل ماكماهون، مثيرة للجدل بسبب النزاع الدائر حول الالتزام البريطاني. وكتب ماكماهون في الرسالة أنه، «مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه [في إشارة إلى بعض أجزاء سوريا التي ستُستثنى من الدولة العربية الجديدة] فبريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في كل الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها شريف مكة.» وتتميز لغة ماكماهون في شكل عام بالمراوغة. فهو، وبالرغم من قبوله استقلال العرب، شدد على الحاجة إلى مسؤولين بريطانيين لتنظيم الإدارة في البلدان العربية. أنظر Hurewitz, Diplomacy, vol. 2, 14-15. ويشير فرومكين (Fromkin, Peace, 183) عن حق إلى أن الدول العربية ستصبح، في ظل تلك الظروف، محميات بريطانية.

تلفيقاً محضاً. فأعضاء العهد لم يمثلوا ٩٠ بالمئة بل أقل من ٠,٥ بالمئة من الضباط العرب في الجيش العثماني. وبحسب إليعازر تاوبر فإن «عدد الجميعة بأسرها بلغ عند نشوب الحرب نحو خمسين ناشطاً لا غير، أربعون منهم من الضباط؛ كذلك بلغ أعضاء الفتاة، عند بدء الحرب، نحو أربعين ناشطاً فقط».[١] قضى هدف هاتين الجمعيتين في البداية، كما أهداف الجمعيات المشابهة التي فرّخت في سوريا ولبنان وبلاد ما بين النهرين، بضمان استقلال ذاتي أكبر مع تعزيز الوضع السياسي والثقافي العربي داخل الأمبراطورية العثمانية، وليس تحقيق الاستقلال أو السيادة.

واللافت بالقدر ذاته أن التماهي مع الإسلام مثّل جزءاً من الأهداف المعلنة للجمعيات.[٢] مثلت القومية العربية، لبعضهم أمراً محلياً يميّز منطقة معينة مثل سوريا والعراق؛ فيما ارتبطت العروبة بالنسبة إلى آخرين، وفي شكل لا يمكن تفسيره، بالدين والإرث الإسلاميين. وحتى الذين طمحوا إلى أمبراطورية عربية فعلوا ذلك من خلال السياق الإسلامي. وأغفل الفاروقي مثل هذه الإشارات، فيما واصل اختلاق حركة عروبية ملتزمة بالشريف. واقتصرت الدعوة إلى العروبة العلمانية على المسيحيين العرب الذين لم يشكلوا إلا أقلية صغيرة.[٣] ومع ذلك واصل الضابط العربي الشاب فرض أوهامه وبلغ به الأمر حدّ الكتابة إلى الحسين مدعياً أن لديه نفوذاً لدى البريطانيين الذين أبلغهم في الوقت نفسه أنه يمثّل الحسين.

فهل الفاروقي مسؤول عن إقناع البريطانيين بدعم الحسين، وبالتالي في إشعال الثورة العربية؟ إذا كان الأمر كذلك فسيمثّل إخفاقاً رئيسياً للاستخبارات البريطانية.

---

(١) يحكي تاوبر (Tauber, Arab Movments, 76) عن انهيار تام في عضوية هاتين الجمعيتين إضافة إلى مشاركتهما في الثورة. ويشير إلى أن أعضاء الفتاة بلغوا ٣٧ قبل الحرب أضيف إليهم ٧٨ آخرون في إبان النزاع؛ وضمت العهد ٥٤ عضواً في صفوفها قبل ١٩١٤، فيما انضم ٥٧ آخرون في سياق الحرب العالمية الأولى. ولم يشارك منهم في القتال إلا ٤٦ (٢٩ من الفتاة و١٧ من العهد). أنظر أيضاً Tauber, Arab Movements, 113.

(٢) Tauber, Arab Movements, 221-22.

(٣) حول التفسيرات العلمية للقومية العربية وعلاقتها بالثورة العربية الكبرى، أنظر Dawisha, Arab Nationalism, 30-40. كذلك بالنسبة إلى الطابع الإسلامي للقومية العربية أنظر Efraim Karsh, Islamic Imperialism: A History (New Haven: Yale University Press, 2006).

ومن غير المرجّح أن المسؤولين عن الاستخبارات الإنكليزية في الشرق الأوسط صدّقوا ادعاءات الفاروقي بقيمتها الظاهرية؛ والأكثر ترجيحاً هو أنهم استخدموه لمواصلة روزنامةٍ تحرّكُها سياسة القاهرة التي صاغها كيتشنر في البداية وتابعها من ثم ستورز وكلايتون وسايكس، وقد اهتدى الأخير وأصبح مؤمناً بالاستقلال العربي. التزم هؤلاء الرجال مفهوم أن بريطانيا لن تكتفي بالعمل كقابلة قانونية للدولة العربية الجديدة وحسب بل ستستخدم هذه الدولة لتوسيع الأمبراطورية البريطانية لتشمل الولايات العربية في الأمبراطورية العثمانية.

وقام، بالفعل، جهاز الاستخبارات في مصر، إلى جانب أسياده في لندن، بتطبيق سياسة خارجية منفصلة في ما يتعلق بالشرق الأوسط. وأصبح من الضروري، على المستوى التكتيكي، زرع الفرقة بين الجنود العرب لأنهم أثبتوا جدارتهم في محاربة البريطانيين إضافة إلى قوات الحلفاء في غاليبولي. واحتوت جبهة غاليبولي على معظم الفرق العربية في الجيش العثماني. وأزالت الهزيمة في غاليبولي أي تردد في الوايتهول في ما يتعلق باللجوء إلى التخريب والتحريض على التمرّد لتكبيل أيدي الوحدات التركية في ولايات الأمبراطورية العثمانية العربية. وكون العرب حاربوا في شكل جيّد ما يؤشر، من جهة أخرى، إلى أن زعم الحسين حصول عمليات فرار جماعية بين الجنود العرب والضباط هو زعم فارغ.

أصبح المكتب العربي، في مطلع ١٩١٦، محور تلك الطموحات والقوة المحرّكة وراء ثورة الحسين العربية. فكون الشريف لم يمثّل إلا نفسه وقاد جيشاً من البدو تم شراء ولائهم بالذهب الإنكليزي، لم يعوّق خطط المكتب العربي لبلاد عربية تحت الوصاية البريطانية. فقد قضت مصلحتهم بألا يقود الحسين قوة عربية كبرى وألا يترأس حركة جماهيرية عروبية. وتسهل كثيراً جداً، في هذه الظروف، السيطرة على طموحات الحسين وتقسيم ولاءات الزعماء العرب الآخرين في بلاد العرب. غير أن صعوبة السياسة الخارجية المقسمة أصنافاً هي في أنها تعرّض المصالح الإقليمية لديناميات الاستراتيجية الكبرى لحقبة ما بعد الحرب، التي يتم توجيهها من لندن.

عقّدت اتفاقية سايكس ـ بيكو العلاقة بين الحسين والبريطانيين. وبالرغم من أن الاتفاقية سرّية فقد أطلع ت. أ. لورنس نجل الحسين، فيصل، عليها.(١) ولا يهمّ كثيراً أن لورنس خان سرّ الاتفاق الأنكلو ـ فرنسي لأن البلاشفة عمدوا، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ بعد ثورة أكتوبر الروسية في ١٩١٧، إلى نشر كل المعاهدات السرّية بين روسيا والحلفاء بما في ذلك اتفاقية سايكس ـ بيكو.(٢) وبغضّ النظر عما أعقب ذلك من نقاش في شأن ما أرادت هذه الاتفاقية تحقيقه وإلى أي مدى خان الإنكليز الثورة العربية، أو لم يخونوها، جاءت ردة الفعل في العالمين العربي والإسلامي سلبية ولا يزال يُنظر إلى سايكس ـ بيكو بوصفها خداعاً.(٣) وكان التالي هو الوهم الثاني: أصدرت الحكومة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، إعلان بلفور الذي تتعهد الحكومة البريطانية بموجبه بإنشاء وطن لليهود في فلسطين. واللافت للنظر أن مراسلات ماكماهون ـ الحسين لم تشر في شكل محدّد إلى فلسطين تاركة للمدافعين عن كل جهة – حينئذ ولاحقاً – تفسير الشروط الإقليمية بطريقة تدعم وجهات نظر كل منها.

تسببت أخبار إعلان بلفور باضطرابات كبرى وباحتجاج بين العرب وفي أنحاء العالم الإسلامي.(٤) وهو سيوفر، إلى جانب اتفاقية سايكس ـ بيكو، حجارة البناء اللازمة لكيل الاتهامات الإسلامية المقبلة للبريطانيين بالغدر وللغرب بالخيانة. فسياسة المكتب العربي في رعاية مفهوم الدولة العربية، بغضّ النظر عن تركيبتها وعن السياسة الواقعية التي مارستها الزعامة في لندن، أدت في وقت واحد إلى توليد ازدواجية في الشرق الأوسط ترجّحت بين توخّي القومية العربية والسعي إلى إعادة إنشاء دولة تُنظّم على أساس المبادئ والممارسات الإسلامية.

(١) Jeremy Wilson, Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T. E. Lawrence (New York: Atheneum, 1990), 404.

(٢) نشر البلاشفة اتفاقية سايكس ـ بيكو في الأزفستيا والبرافدا في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧. وبعد ذلك بثلاثة أيام، في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر نشرتها مانشستر غارديان بالإنكليزية.

(٣) انظر في شأن هذه النقاشات Karsh, Islamic Imperialism, 127-30, 130n10.

(٤) Antonius, Arab Awakening, 267.

اكتسب كل من القومية العربية ونهوض الإسلام الجهادي، بعد الحرب العالمية الثانية، زخماً كبيراً، لكن ردة الفعل العربية على تقاسم البريطانيين والفرنسيين الشرق الأوسط العثماني مثّلت عاملاً مساهماً فيه ترافق مع عواقب إعلان بلفور.[1] وما لا شك فيه أن المجتمع الاستخباري في المنطقة نمّى اتجاهات كل من القومية والإسلام. ضغط المكتب العربي لمصلحة الحسين والقومية العربية التي افترض أنها علمانية فيما سوّق الشريف كخليفة عربي. بيد أن القومية العربية وجدت جذورها في الإسلام، باستثناء المسيحيين العرب وعدد قليل من المثقفين. ونجح البريطانيون، على غير معرفة منهم، في تعزيز الهوية الإسلامية لدى معظم العرب في محاولتها لوضع إحداهما ضد الأخرى. وبعد عقود قليلة من الحرب العالمية الثانية، تبدّدت القومية العربية العلمانية في بحر من الفساد والفقر والهزيمة. وأدى في النهاية صب الزيت على نار القومية العربية والإسلامية إلى إرث صعب للشرق الأوسط وإلى تعقيد دور الاستخبارات الأنكلو-أميركية في المنطقة.

(١) سنحت الفرصة للعرب الذين انضموا إلى الزعماء البريطانيين في الحرب، بغض النظر عن عدد الناشطين في الجمعيات السرّية العربية، بالمشاركة في النقاشات حول مستقبل الشرق الأوسط، كما سنحت الفرصة لقلة منهم باكتساب الخبرة في الحكم داخل إدارات الانتداب البريطانية. (Dawisha, Arab Nationalism, 41).

٨

الجاسوسية – البداية

«ثم كلّم الربّ موسى قائلاً: أرسل رجالاً ليتجسّسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل»

(سفر الأعداد ١٣:١)

غالباً ما توصف الجاسوسية بأنها ثاني أقدم مهنة، وينطبق ذلك أيضاً على العمليات الخفية. توجد إشارات إلى الجواسيس والتخريب والتآمر والعمليات الخاصة في العالم القديم للصين واليابان والهند وأمبراطورية المايا في أميركا الجنوبية. واستخدم الرومان وقدامى الإغريق الجواسيس على نطاق واسع لجمع الاستخبارات العسكرية والسياسية.[١] وما حصان طروادة إلا مثال كلاسيكيّ على النسخة القديمة للقوات الخاصة التي اخترقت المدينة العاصية في عملية خفية بقيادة أوديسيوس الحاضر أبداً. فأوديسيوس، نموذج العميل السرّي الأول والرجل الواسع الحيلة كما وصفه هوميروس، كان سيّداً في التخفّي وكاذباً ماهراً وجاسوساً داهية. تنكّر في إبان حصار طروادة في زي المتسوّل وتمكن من التسلل إلى المدينة والتجوال في شوارعها واستطلاع دفاعاتها قبل أن يعود إلى المعسكر الإغريقي.[٢]

---

(١) في زمن المدن–الدولة في بلاد الإغريق القديمة ترأس الديبلوماسيون شبكات استخبارات تستخدم الجواسيس وغير ذلك من تقنيات جمع المعلومات. راجع André Gerolymatos, Espionage and Treason: A Study of the Proxenia in Political and Military Intelligence Gathering in Classical Greece (Amsterdam: J. C. Gieben, 1986).

(٢) Homer, The Odyssey, trans. Robert Fagles (New York: Penguin Books, 1996), ٤/٢٧١-290. أضحى أوديسيوس في كل جوانب الأوديسة، إضافة إلى الإلياذة، مرادفاً للخداع والجاسوسية والحيلة.

يمثّل الاغتيال، باستخدام السُّم أساساً، واحداً من الأمثلة الأخرى على النشاطات الخفية. ففي سياق التاريخ الروماني، على سبيل المثال، غيّر السم أحياناً في عملية الخلافة السلالية ما أدى بدوره إلى إعادة صوغ مستقبل روما.(١) وأنشأت الأمبراطورية البيزنطية لاحقاً نظام استخبارات متطوّراً لجمع المعلومات، لكنها احتفظت أيضاً بخبراء في الاغتيال إضافة إلى قوات متخصصة في العمليات الخفية.(٢) ووفّر الاستخدام الماهر للتآمر والتخريب والخداع والاغتيال للبيزنطيين وسائل لاحتواء الأعداء الداخليين والخارجيين.(٣) وتحتل الإشارات إلى التجسس والعملاء المزدوجين في الشرق الأوسط مكاناً بارزاً في السجلات المصرية وفي العهد القديم. والحقيقة هي أن تلاعب الأفعى بحواء في جنّة عدن لتأخذ قضمة من التفاحة هو أول فعل مسجّل من الخداع والتآمر.(٤)

مارس السفراء وعملاؤهم، في حقب العصور الوسطى ومطالع العصور الحديثة، التجسس جزئيّاً أو كلّف ذلك عملاء خاصون لقاء مبالغ من المال. واللافت هو ان روسيا الأمبراطورية وفرنسا الثورية، البلدين المتعارضين أيديولوجيّاً، هما اللتان أنشأتا المؤسسات الاستخبارية المحترفة الحديثة الأولى، ليس للحصول على المعلومات عن القدرات العسكرية للقوى الأخرى بقدر ما هو لأمنهما الداخلي. فقد استهدفت لجنة الأمن العام، التي أفرزها جنون الاضطهاد لدى اليعاقبة الفرنسيين، الخونة المحتملين ومعارضي الثورة إضافة إلى مطاردة «الرجعيين» الملكيين.(٥) ومن سخرية

(١) سمّمت أغريبينا زوجها الأمبراطور كلاوديوس لضمان أن يخلفه ابنها نيرون على العرش.

(٢) تُستخدم عبارة الأمبراطورية البيزنطية كمصطلح تأريخي، وقد حدد بدءاً من القرن التاسع عشر الجزء الشرقي من الأمبراطورية الرومانية الناطق باللغة اليونانية. وبالرغم من عدم وجود اتفاق بين المؤرخين حول التاريخ الدقيق للتحوّل من الحقبة الرومانية إلى البيزنطية، فإن بعض الباحثين يحددون التاريخ في ٣٢٤ م. عندما نقل قسطنطين الكبير العاصمة من روما إلى مدينة بيزنطية اليونانية على البوسفور.

(٣) افتقرت الأمبراطورية البيزنطية في خلال تاريخها إلى المقدرة على الاحتفاظ بجيوش كبيرة واعتمدت تعويضاً عن ذلك على القوات المتخصصة وعلى الاستخبارات المنظّمة.

(٤) يصف سفر التكوين (١:٣) الأفعى بأنها «...أحيل جميع الحيوانات البرّية التي عملها الربّ الإله».

(٥) أسس المؤتمر الوطني في ١٧٩٣-١٧٩٤، هذه اللجنة البرلمانية الفرنسية. وساهمت، إلى جانب لجنة السلامة العامة، في قيادة حكم الإرهاب من خلال إدارة أجهزة الشرطة المسؤولة عن التحقيق في تقارير عن الخيانة وغير ذلك من أوجه الأمن الداخلي.

الأمور أن الـ «أوخرانا» الروسية أنشئت ردّاً على شعور القياصرة بالخطر وطاردت الراديكاليين الذين ألهمتهم الثورة الفرنسية.[١] وقد أدار الجهازان جيشيهما الصغيرين من الجواسيس والمخبرين ومفكّكي الرموز والعملاء المحرّضين لمواجهة التهديدات الداخلية، بيد أنهما نشرا أيضاً عملاء في الخارج لتقفي آثار أعداء الدولة. إلا أن جمع الاستخبارات العسكرية والسياسية بواسطة المصادر المفتوحة أو الخفية، بقي نشاطاً متفرّقاً تولاه عملاء خاصون ولم يمثّل جزءاً من أي قطاع حكومي. وبحلول القرن التاسع عشر، كان ضباط الجيش في معظم دول أوروبا الوحيدين الذين جمعوا في شكل منهجي الاستخبارات العسكرية والسياسية. وكان نابليون، في وقت سابق من ذلك القرن، قد شرع في نظام الملحق العسكري باستخدامه جنرالات كسفراء، إضافة إلى وضع ضبّاط من ذوي الخبرة في الخارج لجمع المعلومات عن القوات المسلحة لخصومه أو لحلفائه. وسرعان ما حذت القوى الأوروبية الأخرى حذوه وشرعت في وضع ضبّاط، تقرر أن يتسلّموا مهمات وظيفية أرفع، في البلاطات الخارجية ليراقبوا ويدرسوا القدرة العسكرية للأعداء المحتملين والحلفاء.[٢] وبحسب ألفرد فاغتس:

يمثّل الملحق العسكري في القرن التاسع عشر، من بعض الجوانب، جزءاً من التقدّم العسكري الذي استهلّه نابليون وتبناه من أطاحوه.... ومنذ ذلك الحين اتخذ العسكر في قسم الإفادة الديبلوماسية طابعاً أكثر خبرة، وتطلّب التنافس العسكري معلومات محدّدة عن الجيوش الأجنبية.[٣]

وهكذا، مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، أضحى نظام الملحق وجهاً دائماً من

---

(١) مثّلت الـ «أوبريشينا» (١٥٦٥–١٥٧٢)، التي أنشأها إيفان الرهيب، أول جهاز للشرطة السرّية الروسيّة. وكان عناصرها مسؤولين فعلاً عن تعذيب وقتل أعداء القيصر الداخليين. وحُل الجهاز بعد سنوات من إرهاب الشعب الروسي لأن إيفان خاف من قوته. ولاحقاً، نظمت كاترين الكبرى جهازها الأمني الخاص الذي تغطّى تحت اسم «البعثة السرّية». بيد أن حفيدها ألكسندر الأول حلّ الجهاز في مطلع القرن التاسع عشر كجزء من سلسلة الإصلاحات الليبرالية. وبعد محاولة فاشلة لاغتيال ألكسندر الثاني في ١٨٦٦، أنشأت حكومة القيصر وزارة حماية النظام والسلامة العامة، الذي خلفته الـ«أوخرانا» بدورها في ١٨٨٠. واستُبدلت في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، بعد الثورة البولشفية بالـ«تشيكا» الشيوعية.

(٢) Alfred Vagts, The Military Attaché (Princeton, NJ: Princeton University Press 1967),9-10.

(٣) Vagts, Military Attaché, 15.

أوجه البعثة الرسمية ومصدراً أساسيّاً للاستخبارات العسكرية.(١) إلا أن الملحقين لم ينخرطوا، إلا باستثناءات نادرة، في عملية جمع سرّية للمعلومات. لم يكثر البريطانيون، باستثناء الحقبة الإليزابيثية، من استخدام شبكات التجسس المنظمة ولم يحرّكوا إلا قلّة من الجواسيس في ما وراء البحار. وحُصر جمع المعلومات في السياق الاحترافي بالجيش. بيد أنه، في سنوات ١٨٠٠، مارست أجهزة الاستخبارات العسكرية، لفترة وجيزة، نفوذاً كبيراً داخل القوات المسلّحة والحكومة، لكنها عادت وتراجعت إلى وضعها المغمور نسبيّاً. فالشعار البريطاني الرسمي الذي اعتنقه معظم ضباط الجيش والمسؤولون الحكوميون عدّ التجسس نشاطاً غير مشروع لا يتوافق مع مبادئ الشرف العسكري أو البروتوكول الديبلوماسي. ولم ير معظم الضباط البريطانيين فائدة كبرى في الإبقاء على جهاز استخبارات في زمن السلم يجمع المعلومات عن الجيوش الأجنبية، مفضلين الاعتماد بدلاً من ذلك على قوة النيران والمبادرة في خوض أي حرب مستقبلية.(٢) وجاء في تعليق لجو هاسويل: «شعر معظم الضباط النظاميين أن الحرب على درجة كبيرة من الخطورة بحيث انه من غير الحكمة أبداً أن يُترك أي وجه من وجوهها في أيدي هؤلاء الناس [خبراء الاستخبارات المدنيين] ممن لا يعرفون في الحقيقة شيئاً عن الجيش».(٣)

ثبتت عيوب هذا الموقف في شكل فاضح ومتكرّر في الكوارث التي لازمت

(١) أصبح لتعبير «الملحق العسكري» استخدام نموذجي في الجيش البريطاني بعد ١٨٥٧. ولمختلف الألقاب التي استخدمتها دول أخرى، راجع .Vagts, Military Attaché, 24-26 and 34-35

(٢) استمر هذا الازدراء بالاستخبارات السرّية حتى مطالع سنوات الحرب العالمية الأولى. راجع B. A. H. Parritt, The Intelligencers: The Story of British Military Intelligence up to 1914 (Ashford: Intelligence Corps Association, 1971), 150. ويردّ ف. هـ. هنسلي F. H. Hinsley, British Intelligence in the Second World War: Its Influence on Strategy and Operations, vol. 1 (London: HMSO, 1979), 14, هذا النقص في ضباط الاستخبارات ذوي التدريب الميداني المناسب، في فترة ما بين الحربين، جزئياً إلى تدنّي الاحترام الذي انحدرت إليه الاستخبارات في السابق. ويضيف جوك هاسويل Jock Haswell, British Military Intelligence (London: Weidenfeld and Nicolson, 1973), ١٦١, ان المشكلة الحقيقية تكمن في ان «الاستخبارات، في الكثير من الأذهان العسكرية، ليست مهنة للضابط النبيل».

(٣) Haswell, Military Intelligence, 89.

الجيش البريطاني في حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢).[١] وصحيح أن الجيش البريطاني هزم جيوش البوير في الميدان بحلول ١٩٠٠، إلا أنه واجه حملة مرهقة من حرب العصابات. وأجبرت هذه الظروف القادة البريطانيين في جنوب إفريقيا على القبول، على مضض، بإنشاء وحدات استخبارات ميدانية أدت في مآل الأمر إلى إنشاء جهاز الاستخبارات الميدانية. وأدت في النهاية نشاطات هذه الأجهزة، بالاقتران بالمجموعات المتخصصة المناهضة للتمرد، دوراً كبيراً في الهزيمة النهائية لكوماندوس البوير. وبرهنت الحرب في جنوب إفريقيا أيضاً على ضعف الجيوش التقليدية حيال تكتيكات الهجوم والانسحاب التي تعتمدها قوات حرب العصابات.[٢]

واللافت أن تنتصر قوة العرف على المنطق السليم، وأن تُدخل الأمثولات التي تم تعلّمها طي النسيان بعد انتهاء أعمال العداء.[٣] إذ ألغي في ١٩٠٤ مركز مدير الاستخبارات العسكرية، وخفضت الشعبة إلى مرتبة قسم فرعي للجهاز الاستشاري.[٤] ويرى مؤرخ الاستخبارات البريطانية الرسمي، ف. هـ. هينسلي، أن لإلغاء منصب مدير الاستخبارات العسكرية جذوره في المنافسات بين الشُعَب: «تقرر أن تصبح الاستخبارات قسماً استشاريّاً فرعياً وحسب ربما، في جزء منه، لأن سلطة أوائل مديري

(١) نُسب جزء من الملامة في إخفاق الجيش البريطاني في جنوب إفريقيا إلى شعبة الاستخبارات التي لم تقدّم للحكومة تقديرات واقعية لقدرات البوير. وأشار تحقيق لجنة إلغين حول تأدية شعبة الاستخبارات بوضوح إلى أن الذنب يقع على الحكومة لعدم متابعتها توصيات الجهاز ولتجاهلها وحسب أي استخبارات لا تتوافق مع الأفكار القائمة حول الوضع في جنوب إفريقيا (Haswell, Military Intelligence, 57-58).

(٢) Thomas Pakenham, The Boer War (New York: Avon, 1979), 574.

(٣) أُدمجت شعبة الاستخبارات في مديرية العمليات العسكرية (القسم ج في الأركان العالمة) وتم حلّ وحدات الاستخبارات الميدانية بالرغم من خبراتها في جنوب إفريقيا. واحتوت شعبة الاستخبارات الميدانية، عند نهاية حرب البوير، على ١٣٢ ضابطاً و٢,٣٢١ من الرتب الأخرى. وشكّلت إعادة تنظيم شعبة الاستخبارات واحدة من تغييرات أساسية داخل الجيش البريطاني من بينها إنشاء الأركان العامة وإلغاء مركز القائد العام. (Haswell, Military Intelligence, 64; Pakenham, Boer War, 573).

(٤) تأثر مستقبل شعبة الاستخبارات كثيراً بلجنة هاردويك. وحاول آخر مدير للاستخبارات العسكرية، الجنرال نيكولسون، معارضة النتائج التي توصّلت إليها اللجنة، إلا ان لجنة ثانية، هي لجنة إيشر، أكدّت توصيات لجنة هاردويك. (Haswell, Military Intelligence, 72-73).

الاستخبارات العسكرية أثارت معارضة في داخل الجيش وأخرى مماثلة في جزء من الشعب المدنية».[1]

وردت البنود الوحيدة المتعلّقة بتدريب ونشر ضباط الاستخبارات في أي نزاع مستقبلي في الكتيّب الذي نشرته الأركان العامة (خصص ٢٢ صفحة لعمل الاستخبارات الميدانية) وَوُضِع سجل بالمرشحين المحتملين الذين سيتضمنهم تشكيل وحدة استخبارية مستقبلية. ووفقاً لذلك، دُعيت عدة مئات من المدنيين الغافلين عن الأمر، عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، للانضمام إلى جهاز الاستخبارات الحديث.[2]

بيد أنه، وفي فترة سابقة للحربين العالميتين، أصبحت الجاسوسية والعمليات الخفية، عند حدود الأمبراطورية البريطانية، أدوات في الترسانة الأمبريالية تمارسها السلطات الاستعمارية في شكل شبه حصري. وخيضت «اللعبة [الاستراتيجية] الكبرى» بين الامبراطوريتين البريطانية والروسية للسيطرة على آسيا الوسطى في الخفاء شبه التام.[3] وأضحى الجواسيس والعملاء المزدوجون والتآمر والإرهاب والحرب النفسية والتخريب عناصر أساسية في النزاع الروسي-البريطاني في المنطقة. فالرهانات عظيمة، والحرب الخفية استهلكت حياة الضباط البريطانيين والروس الذين تولوا مهمات سرّية وخطيرة باسم الأمبراطور أو القيصر. ولم تكتف حكايات روديارد كيبلينغ برواية قصص جيدة بل جاءت أيضاً بمنزلة مقالات قصيرة أضفت طابعاً رومانسيّاً على المنافسة الأنكلو-روسية ما ألهم الكثير من الأجيال الشابة.

ومع ذلك استمر البريطانيون، في بريطانيا كما في الهند، في رفض مفهوم إدماج عمل الوحدات العسكرية الاستخباري بوكالة مُكرّسة للتجسس.

(١) Hinsley, British Intelligence, vol. 1, 9.

(٢) Haswell, Military Intelligence, 80.

(٣) بدأ تاريخ فترة المنافسة الأنكلو-روسية التقليدية في آسيا الوسطى منذ معاهدة ١٨١٣ الروسية-الفارسية إلى المؤتمر الأنكلو-روسي في ١٩٠٧. وتراجعت حدّة التنافس بين القوتين بعد ثورة ١٩١٧ البولشفية. بيد أنه، وفي أثر الاحتلال السوفياتي لأفغانستان ودعم الولايات المتحدة للمجاهدين، برزت «لعبة كبرى» جديدة بين الجمهورية الروسية والولايات المتحدة.

إلا أن الحكومة البريطانية اضطرّت، مع نهاية القرن التاسع عشر، إلى موازنة ازدرائها بالتجسس مع الحاجة الماسة إلى الحصول على معلومات استخبارية عن الأعداء المحتملين، إضافة إلى الحلفاء. وأنشأت الحكومة في ١٩٠٩ مكتب الجهاز السرّي – وهو في الواقع أول جهاز تجسس بريطاني مُخطّط له.[١] وتمثّل أحد الاعتبارات الرئيسية في إنشاء هذا الجهاز الجديد في وضع ما أمكن من المسافة بين الحكومة البريطانية ونشاطات التجسس.

وافترض بمكتب الأجهزة السرية أن يؤدي دور العازل بين الجاسوسية والأجهزة العسكرية ووزارة الخارجية. وتمثّلت الغاية منه في توفير المعلومات بالوسائل الخفية وفي مكافحة التجسس بمنع القوى الخارجية من القيام بعمل مماثل في بريطانيا.[٢]وامتلك الجهاز السرّي، لإنجاز هذه المهمات، قسماً داخلياً تطور ليصبح «أم. آي ٦» (جهاز الاستخبارات السرّية).

لم يكن جهاز الاستخبارات السرّية وهو في مرحلة تكوينه بحلول ١٩١٤ سوى قسم صغير ضمن مؤسسة الـ «وايتهول» (المؤسسات الحكومية البريطانية) ولم يمتلك الكثير من التأثير في سياسة الحكومة. وفي الشرق الأوسط بقيت العمليات الخفية

(١) بالرغم من هذا الموقف حيال التجسس، استخدم سلك الاستخبارات في خلال الحرب العالمية الأولى الجواسيس وغالباً ما تنافس مع الأجهزة السرّية في تجنيد عملاء جدد (Haswell, Military Intelligence, 128-129).

(٢) من غير الواضح ما هو السبب الجوهري وراء إنشاء جهاز سرّي وطني في ١٩٠٩. ولا يقدّم هنسلي Hinsley, British Intelligence, vol. 1, 16، أي تفسير عن سبب إنشاء هذا الجهاز في ذلك الوقت، ويعطي مؤرخا جهاز الاستخبارات السرّية، نايجل وست وكريستوفر م. أندرو، أسباباً مختلفة أخرى لذلك. فيوحي وست من جهة West, MI6: British Intelligence Service Operations, 1909-1945 (London: Weidenfeld and Nicolson, 1983), 4, أن مكتب الجهاز السري أبصر النور نتيجة حملة الانتقادات التي شُنت على الحكومة بسبب غياب المعلومات الاستخبارية المناسبة في خلال حرب البوير. ومن جهة أخرى يكتب أندرو Andrew, Secret Service: The Making of the British Intelligence Community (London: Heinemann, 1985), ٥٣، أن الخوف من التجسس الأجنبي هو الذي دفع إلى إنشاء مكتب الجهاز السري في وقت لاحق من ١٩٠٩. ويوحي فيليب نايتلي في كتابه Philip Knightley, The Second Oldest Profession: The Spy as Bureaucrat, Patriot, Fantasist and Whore (London: Andre Deutsch, 1986), أن الجنرال إيوارت، مدير العمليات العسكرية، اقترح الفكرة لأنه أراد الحصول على عملاء يستخدمهم في ألمانيا ولكنه لم يمتلك اتصالاً مباشراً بمثل هذا النشاط.

والتجسس من امتيازات صانعي القرار السياسي الإقليميين الذين لا يستجيبون إلا إلى رؤسائهم في لندن. وهذه الميزة الاستعمارية البريطانية العجيبة القاضية بنقل السلطة التنفيذية إلى الولاة الإقليميين جعلت السياسة العامة لبريطانيا العظمى والاستراتيجية الكبرى تركّزان أحياناً على المصالح الاستعمارية الضيقة. وفي دراسة جديدة عن الاستخبارات العسكرية البريطانية والتمرد العربي في ١٩١٦، يُبرز بولي أ. موس، أنه في حالة مصر:

سواء أكانت هذه نية الحكومة في الأساس أم لا، فإن ضباط الاستخبارات في القاهرة يضعون أنفسهم في موقع المنافس لتقديرات الوايتهول السياسية ووجهات النظر العسكرية التقليدية من أجل التأثير في سياسة بريطانيا العربية. وفي الوقت الذي اطلق فيه شريف مكّة ثورته في حزيران/يونيو ١٩١٦، أخذ مجتمع الاستخبارات في شق طريقه عبر الحدود الفاصلة بين المسؤوليات الرسمية للاستخبار وبين صوغ السياسة.(١)

أضحى النشاط الاستخباري، في ظل هذه الظروف، بمنزلة إقطاعية للوكلاء الاستعماريين المحليين ويتم بما يشبه النزوة. وبات ممارسو عملية الاستخبار، في أقل الأحوال، سريعي التأثّر بتحليلات الأحداث والشخصيات التي يقدّمها العملاء المحليون وهم ممن يعملون في معظم الأحيان على تطبيق روزناماتهم الخاصة. وهذه هي بنوع خاص حال مختلف رتب حفنة من المجموعات القومية العربية المنتشرة ما بين مصر وسوريا، والتي سرعان ما وجدت أذناً صاغية لها لدى السلطات البريطانية في القاهرة والسودان.والمُلاحظ أن القاهرة تطورت سريعاً، طوال فترة الحرب العالمية الأولى، لتصبح مركز العمليات الخاصة التابع للاستخبارات البريطانية في الشرق الأوسط، وهو وضع سمح للعوامل الإقليمية بالتأثير في السياسة البريطانية حيال المنطقة.

---

(١) Polly A. Mohs, Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War (New York: Routledge, 2008), 12.

اللافت أن السيطرة البريطانية على مصر ارتكزت على مجموعة من ٣٩ مسؤولاً رسميّاً مثّلوا من الناحية التقنية مستشارين للوزارات المصرية، ولا يمتلكون أي سلطة تنفيذية. وشكّل هؤلاء المسؤولون، إلى جانب المفوض والقنصل العام البريطانيين، تنظيماً صغيراً حكم مصر عملياً من وراء الكواليس. بيد أنه توافرت حامية بريطانية في قلعة القاهرة في حال أخفق المصريون في قبول نصيحة الممثلين البريطانيين.[١] وبالفعل، وفيما تم استعرض والي الهند البريطانية سلطته بكل زخارفها، تخفت قبضة بريطانيا على مصر والسودان وراء قناع من الإبهام الفعلي. وبقي الخديوي، وكيل السلطان العثماني، حاكم مصر الظاهري، لكنه بقي ميّالاً إلى قبول النصيحة البريطانية وهي في الواقع نصيحة مُلزمة.

(١) Christina P. Harris, Nationalism and Revolution in Egypt: The Role of the Muslim Brotherhood (The Hague: Mouton, 1964), 56, حاجّت المؤلفة في كتابها المذكور ان هيبة الوكالة البريطانية تمتعت بالكثير من الاحترام «بحيث لم يتم اللجوء قط إلى الظرف القاهر».



٩

جواسيس، مغامرون ومجاهدون

«كرّست أجيال من الباشوات والبكوات من سورّاي وكنت حياتها للقضية العربية، وباتت تتماهى انفعالياً معها»

- أرثور كوستلر[١]

انجذب النقيب وليام شكسبير إلى الصحراء واستمتع بالوحدة التي تواكب من يجرؤ من المسافرين على تحدّي براريها الغادرة. وغالباً ما نام وتغذّى منفصلاً عن مرشديه وخدمه مفضّلاً الوحدة على ثرثرات نار المخيم. وُلد في البنجاب لعائلة معروفة من العسكريين البريطانيين-الهنود. خدم، قبل اندلاع الحرب، ضابطاً في الجيش الهندي وعُيّن في الأساس عميلاً سياسياً لحكومة الهند مع أمير الكويت. وأجاد، على غرار لورنس، اللغة العربية، إضافة إلى كونه مسافراً متعطشاً قام برحلات طويلة في الصحراء العربية على طول الحدود الغربية للكويت. التقى في ١٩٠٩ عبدالعزيز بن سعود عندما جاء الأخير زائراً إلى الكويت وترك انطباعاً إيجابياً لدى أمير نجد.[٢]

عقد شكسبير، بعد ذلك بسنة، لقاء رسمياً مع ابن سعود الذي أبلغ الضابط الهندي برغبته في إقامة تحالف مع البريطانيين ضد الأتراك. ومثل ابن سعود، بحسب

(١) Koestler, Promise and Fulfillment, 50.

(٢) Charles Allen, God's Terrorists: The Wahhabi Cult and the Hidden Roots of Modern Jihad (London: Little, Brown, 2006), 244-45.

تقارير شكسبير الزعيم الطبيعي لتمرد عربي ضد الأتراك، لكن وايتهول عارضت الفكرة وعدتها تدخلاً من حكومة الهند.[١] وزار شكسبير ابن سعود في ربيع ١٩١٤ في الرياض حيث أعاد القائد العربي تأكيد رغبته في التحالف مع بريطانيا. وأصبح شكسبير والأمير الوهّابي صديقين.

ولن يكون شكسبير آخر إنكليزي يسقط تحت سحر القائد الصحراوي: فبعد قليل من ذلك سيرتبط هاري سانت جون فيلبي، وهو مصوّر ذائع الصيت وموظف حكومي بريطاني كبير وضابط استخبارات، بعلاقة وطيدة بابن سعود. وفي غضون ذلك عقد شكسبير سلسلة من الاجتماعات مع ابن سعود واصل من بعدها، سيراً أو على ظهر الجمل، رحلة من ١,٨٠٠ ميل شرقاً عبر الصحراء العربية الكبرى إلى الحجاز وقدم في نهاية الأمر تقريره إلى اللورد كيتشنر في القاهرة. وحاول شكسبير مرةً أخرى تسويق ابن سعود بوصفه الزعيم المقبل للعرب، لكن كيتشنر ورفاقه ظلّوا على التزامهم الحسين.[٢]

عندما اختارت الأمبراطورية العثمانية ربط مستقبلها بالألمان، ازداد اهتمام الوايتهول بالزعماء العرب وبكيفية حملهم على الانضمام إلى بريطانيا أو البقاء على الحياد. عُيّن شكسبير ضابطاً سياسياً في مهمة خاصة وكُلّف ضمان ولاء ابن سعود لبريطانيا؛ مع أنه، وفي العالم المعقّد للإدارة الاستعمارية البريطانية، يعمل لمصلحة حكومة الهند. وأُصدرت إليه التعليمات بالبقاء مع ابن سعود وبأن يتخذ له، في حال الضرورة، محل إقامة في الرياض، عاصمة الأمير.[٣] لم يحمل ابن سعود الكثير من الودّ للأتراك، بما أن الأمبراطورية العثمانية ساندت تقليدياً عدوه الألدّ ومنافسه في السيطرة على قلب الجزيرة العربية، ابن رشيد.

تصرّف شكسبير، قبل انضمامه إلى ابن سعود في الجزيرة العربية، كشخص مسكون بحدس داخلي. أدرك فجأة، بعد الكثير من المغامرات الخطرة والمهمات،

(١) المصدر السابق، ص. ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٤٦.
(٣) Winstone, Illicit Adventure, 143.

أنه إنسان فان. وطلب في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٤ من واحد من زملائه أن يكتب لوالدته في حال وفاته؛ وكتب بعد ذلك بأيام وصيته الأخيرة. غادر شكسبير الكويت في ١٢ كانون الأول/ديسمبر لينضمّ بعد ذلك باثني عشر يوماً (٣١ كانون الأول/ديسمبر) إلى ابن سعود في معسكره على مقربة من المَجْمَع في سهل عرماء.[١] كان ابن سعود يتجه شمالاً لمحاربة ابن رشيد أمير حائل وعدوه الموالي للأتراك. تمكن شكسبير وابن سعود، من حول نار المخيم وفي خلال السفرة المضنية من وضع الخطوط العريضة لمعاهدة مع بريطانيا ترضي الطرفين أرسلها شكسبير إلى السير بيرسي كوكس كبير العملاء السياسيين في الخليج الفارسي حيث يمثل حكومة الهند في بلاد ما بين النهرين.[٢]

عسكرا في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩١٥ على مقربة من الزلفي وهي أكبر مدن منطقة السدير حيث حاول ابن سعود إقناع شكسبير بالمغادرة لأنه من غير الضروري للضابط البريطاني أن يشارك في المعركة المقبلة، لكن شكسبير رفض. وتناول في الصباح فطوره على عجل وقرر مراقبة المعركة من الكثبان على مقربة من مدفع الميدان الوحيد المساند لجيش ابن سعود الذي يشغّله عربي شاب. توقف الجيشان لبضع لحظات، ثم، وبصيحات «الله أكبر»، شرعا في الهجوم عبر السهل الفارغ المجاور لواحة جراب. حاربت قوات ابن سعود ببسالة برغم من قلة عددها، وشرع بعض قوات ابن رشيد في فقدان تماسكه.[٣]

توقف شكسبير عن التفرّج، وبدأ بتوجيه المدفع الذي كان له تأثير مدمّر في جنود ابن رشيد لكنه ما لبث أن توقف عن العمل. فَقَدَ جنود المشاة التابعون لابن سعود شجاعتهم وتراجعوا. وفي خطوة زادت الأمور سوءاً انسحبت قبيلة العجمان التي تمثّل جزءاً كبيراً من الخيالة وانحازت إلى ابن رشيد. أمكن لشكسبير أن يرى بوضوح جيش ابن سعود يسقط ضحية للذعر، فحاول إصلاح المدفع، سوى

(١) المصدر السابق، ص. ١٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٥١.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٥٢.

أنه أصبح عندئذ لوحده على الكثيب. تقدم خيالة ابن رشيد إلى موقعه واكتسحوا الضابط البريطاني ومدفعه عديم الفائدة. أصابت عدة رصاصات شكسبير في وجهه ورأسه، لكنه كان لا يزال حياً عندما طعنه واحد من مرافقي ابن رشيد بالسيف وأجهز عليه.[1]

لو أن شكسبير بقي حياً لغطّى على شهرة ت. أ. لورنس، أقله في ما يتعلق بالجرأة والجسارة. فقد غامر بالدخول إلى صحارى الجزيرة العربية وتنقل في شكل واسع في الأناضول وبلاد فارس. اكتسب ثقة واحترام ابن سعود وأتباعه؛ سوى أن مآثره وسياسات حكومة الهند تشكلان معاً مثالاً على تجزئة جهود بريطانيا الاستخبارية في المنطقة. وبرهنت أفعال شكسبير كيف عقّد دور الاستخبارات السرّية سياسات ما بعد الحرب. فهو عمل لمكتب الهند والحكومة الهندية، فيما مثّل لورنس والمكتب العربي مصالح المسؤولين البريطانيين في القاهرة وأمثالهم من المسؤولين في لندن، إضافة إلى سياساتهم الخاصة.

في غضون ذلك كُلّف جهاز الاستخبارات السرية المنشأ حديثاً («إس. آي.إس» إضافة إلى «أم.آي٦») مسؤولية التجسس في باقي أنحاء العالم ولكن ليس في الشرق الأوسط.[2] وقضى أحد الاعتبارات بأن يتم، في ١٩٠٦، تقسيم مناطق عمليات الاستخبارات في الشرق الأوسط بين مكتب الهند ومكتب الحرب وإدارة الاستخبارات العسكرية في لندن بحيث يتولى الأول مسؤولية كل المناطق الواقعة جنوب الجزيرة العربية من العقبة إلى البصرة (ما عدا عسير والحجاز واليمن)،

(١) المصدر السابق، ص. ١٥٣. وبحسب ألن Allen, God's Terrorists, 247-48 كان شكسبير يراقب المعركة عندما هرب مشاة ابن سعود المجاورون له وتركوه يواجه فريق خيالة ابن رشيد. إلا أن شكسبير لم يكن يشغّل المدفع بل ثبت في موقع على قمة الكثيب ودافع عن نفسه مستخدماً مسدسه.

(٢) أنشئ مكتب الاستخبارات السرّية في ١٩٠٩ «لتولي كل المسائل المتعلقة بجمع المعلومات الاستخبارية». أعيدت، في ١٩١٦، تسمية المكتب إلى «مديرية الاستخبارات العسكرية» وقسم إلى قسمين: تعاطت «أم.آي٥» الشؤون الداخلية ومكافحة التجسس، فيما تولت «أم.آي٦» مسؤولية التجسس في ما وراء البحار لتصبح في نهاية الأمر الـ«إس.آي.إس.». ولا يزال يُشار في الأدب الشعبي إلى «إس.آي.إس». الراهنة بوصفها «أم.آي٦». أنظر Nigel West, MI5:British Security Service Operations, 1909-1945 (London: Triad Granada, 1983), 38.

ويتولى الآخر مسؤولية باقي الجزيرة العربية بما في ذلك ولايتا سوريا وبلاد ما بين النهرين العثمانيتان.[١] ونُقلت، في ١٩١٦، منطقة عمليات المكتب العربي في الشرق الأوسط إلى المناطق في الجزيرة العربية التي تقع تحت سيطرة الاستخبارات العسكرية في القاهرة.

كادت لندن والقاهرة تنسيان أمر ابن سعود وقلب الجزيرة العربية بعد مقتل النقيب شكسبير، إلى أن جعل إطلاق الثورة العربية الكبرى كلاً من المنطقة ومن ابن سعود محطّ اهتمام الاستخبارات البريطانية. وبات من الضروري، في أقل الأحوال، ضمان حياد ابن سعود الإيجابي حيال الحسين – بالرغم من أن أمير نجد يحتقر شريف مكة – وإذا أمكن إقناع الزعيم الوهّابي بشن الحرب على أمير حائل، ابن رشيد، الموالي للأتراك. وفي السنوات التي أعقبت مصرع شكسبير بسط ابن سعود سلطته على قبائل وسط الجزيرة وبات في موقع قوي يستطيع معه التسبب بأذى كبير لجيش الحسين.

واختير للمهمة رجل هو هاري سانت جون فيلبي،[٢] الذي انضمّ في ١٩١٥ إلى السير بيرسي كوكس الضابط السياسي المسؤول عن الأراضي التي يحتلها الجيش الإنكليزي في بلاد ما بين النهرين.[٣] واختار كوكس فيلبي لأنه لغوي موهوب يتحدث الأوردو والبنجابية والبالوتشية والفارسية وعدداً من اللهجات العربية، وكلفه مهمات إنشاء وكالة سياسية في الرياض والتودّد إلى ابن سعود ليشن الحرب على القبائل العربية الموالية للأتراك من دون أن يهاجم قوات الحسين في الحجاز. انطلق فيلبي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٧ إلى وسط الجزيرة العربية برفقة ضابطين بريطانيين آخرين. شرع في رحلته عابراً وسط الجزيرة من الشرق إلى الغرب وهو أمر لم يحققه من قبل إلا إنكليزي واحد، ومنحته «جماعة

(١) Winstone, Illicit Adventure, 9.

(٢) كون فيلبي أيضاً ضابطاً في قسم مكافحة الفتنة في الجهاز الخاص التابع للشرطة الهندية.

(٣) بقي كوكس من ١٩٠٤ إلى ١٩١٣ الضابط السياسي التابع لحكومة الهند المقيم في الخليج الفارسي. وعيّن كوكس فيلبي رئيساً للقسم المالي في الإدارة الإنكليزية لبلاد ما بين النهرين.

الجغرافيا الوطنية» Royal Geographical Society ميدالية المؤسس تكريماً له على هذا العمل البطولي.[1]

تكوّنت لدى فيلبي قناعة، بعد لقائه ابن سعود وتوطيد معرفته به، بأن توحيد شبه الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي تحت حكومة واحدة سيخدم مصالح البريطانيين والسعوديين معاً. ويعني هذا طبعاً أن يتولى السعوديون دور الهاشميين كأوصياء على الأماكن المقدّسة على أن يوفّروا في الوقت نفسه الحماية لخطوط الملاحة على طريق السويس-عدن-بومباي التي تعتمدها الأمبراطورية البريطانية. إلا أن السلطات البريطانية في القاهرة ولندن بقيت على التزامها الحسين بالرغم من كون ابن سعود زعيماً عربياً شرعياً يستخدم الحرب والخوف والإيمان لبسط سيطرته على الجزيرة العربية. فأمير نجد ينجز ما خططه المكتب العربي لشريف مكة، في الوقت الذي بذل فيه الحسين جهوداً كبرى لتكديس الألقاب من دون القوة اللازمة لتكريس سلطته.

أعلن الحسين نفسه ملكاً على العرب، في ١٩١٧، لكنه اضطرّ إلى تعديل اللقب ليصبح ملك الحجاز، الأمر الذي حزّ أكثر في نفس ابن سعود الذي لم يعد يطيق صبراً على تسوية الأمور مع الشريف. وفي أيار/مايو ١٩١٩، شن محاربو ابن سعود الأشداء، إلى جانب قوات خالد بن منصور بن لؤي، غارة ليلية صاعقة على جيش عبدالله بن الحسين المعسكر في واحة القرماء الذي تلقى تدريباً بريطانياً. أُخذ جنود الحسين على حين غرّة وذُبح منهم ما يقارب الخمسة آلاف. وتمكن عبدالله من الفرار وهو لا يرتدي سوى ثياب نومه فقط. اتفق الطرفان على هدنة أعقبت هذه الكارثة التي دمّرت جيش الشريف. وبالرغم من وجود فيلبي في إنكلترا فإنه استغل النصر ليوصل إلى الحكومة البريطانية فكرة أن ابن سعود هو الزعيم البارز الوحيد في الجزيرة العربية.

(١) الإنكليزي الآخر هو النقيب فورستر سادلر من الفوج السابع والأربعين. فقد أُرسل سادلر، في ١٨١٩، من الهند لتوفير المساعدة لإبراهيم باشا في وضع حد للقرصنة في الخليج الفارسي. وقد انشغل إبراهيم باشا وقتئذ، نيابة عن السلطان العثماني، في تدمير التمرد الوهابي الذي قاده أجداد ابن سعود. أنظر Elisabeth Monroe, Philby of Arabia (Reading Ithaca, 1973), 53.

واللافت هو أن الوايتهول سيُعلن فيصل ملكاً على سوريا (أعطاه البريطانيون، بعدما أطاحه الفرنسيون، دولة العراق المُنشأة حديثاً). كما منح عبدالله أيضاً شرق الأردن (الأردن). وفي ١٩٢٤، ألغى مصطفى كمال الأمبراطورية العثمانية والخلافة، فأعلن شريف مكة نفسه خليفة – ما روّع معظم العرب والمسلمين. وما زاد الطين بلة أن الحسين قرر منع جميع الوهّابيين المسلمين من المشاركة في الحج إلى مكة.

لم تؤدّ هذه البادرة غير المدروسة إلا إلى استفزاز ابن سعود لشن هجوم آخر على الحجاز فاستولى في فترة زمنية قصيرة على مدينتي مكة والمدينة المقدّستين وأخيراً على جدة. وتولى ابن سعود السيطرة على الأماكن المقدسة إضافة إلى المسؤولية عن الحج الأمر الذي منحه نفوذاً قوياً على المسلمين السنّة. ولم تثر تلك الأحداث وقعاً قوياً في الوايتهول. وأعلن ت. أ. لورنس أن إنجازات ابن سعود في توحيد شبه الجزيرة العربية ليست إلا «قصور أحلام مبنية على الرمل».[1] بيد أن البريطانيين لم يتخلوا تماماً عن ابن سعود: استمرّ الأمير في الحصول على راتب شهري وعلى المساعدة العسكرية.

هاجم ابن سعود في ١٩٢٩ بعض رجال القبائل الوهّابيين بعد فشله في منعهم من شن الغارات وارتكاب المجازر. تلقى المساندة من أربع طائرات حربية بريطانية و٢٠٠ سيارة مصفّحة وناقلة مزودة باللاسلكي، فأباد قوة الخيالة الوهابية، التي تسلّحت بالبنادق القديمة والرماح واليطقانات، على بكرة أبيها. واستغرق ابن سعود عشرة أشهر لإسكات المتمرّدين بالرغم من قوة نيرانه الساحقة. وهو، بعمله هذا، وضع بالفعل نهاية للحرب القبلية المزمنة التي اجتاحت المنطقة على مدى آلاف السنين، وأقام الدولة السعودية على أساس إسلامي. غير أن الدولة السعودية الجديدة افتقرت إلى الموارد وإلى الروابط مع العالم الخارجي وإلى المنعة تجاه القوة البريطانية.[2]

---

(١) كما تم الاستشهاد به في Allen, God's Terrorists, 254.

(٢) Albert Hourani, A History of the Arab Peoples (New York: Warner, 1991) 319. شكّل هذا عاملاً في قرار ابن سعود القضاء على رجال القبائل الوهابيين الأكثر راديكالية، لأنه خشي تدخل البريطانيين لوقف غارات الوهابيين على العراق وسوريا. أنظر Allen, God's Terrorists, 255.

غاب فيلبي، وهو في إجازة في إنكلترا، عن معظم هذه الأحداث في الجزيرة العربية، وأنهى البريطانيون، بعد عودته، البعثة في الرياض. ووضعت الحرب أوزارها بعض فترة قصيرة، لكن السلام لم يمنح العرب دولة واحدة. وحتى تلك الدول الجديدة التي لم تخضع لنظام الانتداب لم تحصل إلا على استقلال محدود.(١) استفظع فيلبي الأمر وعبّر عن وجهات نظره لكل من يريد أن يسمع. وعُيّن، بعدما أسقمه عدم وجود مركز له، مستشاراً لوزارة الداخلية العراقية وذلك في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٠. جاء تعيين فيلبي عقب تمرّد كبير في بلاد ما بين النهرين التي باتت تُعرف باسم العراق.(٢)

هب رجال القبائل ورجال الدين الشّيعة والأعيان والمثقفون الشبان في تمرد شكّل في جزء منه رداً على الحكم البريطاني وجاء في قسم آخر نتيجة ظلامات محلية مثل ارتفاع الأسعار والضرائب. وكانت للأتراك، وللبلاشفة أيضاً، يد في الثورة وقد أرسلوا عملاءهم للتشجيع على معارضة البريطانيين. واستنتج إليعازر تاوبر بأن «معنى الكفاح الوطني بالنسبة إلى السكان المحليين هو: الكفاح للتحرر من الحكم الأجنبي، تحقيق الاستقلال، وإقامة حكومة محلية».(٣) وفي نيسان/أبريل ١٩٢٠، أقرّت جمعية الأمم في مؤتمر سان ريمو الانتداب البريطاني على العراق. ولم يدع هذا الاتفاق أي مجال للشك بأن البريطانيين لن يغادروا العراق وقد ساهم في أسباب التمرد. وندد الكثيرون من المثقفين في بغداد وفي المدن الرئيسية الأخرى في العراق بقرار الحلفاء ودعوا سكان العراق إلى محاربة الحكم الأجنبي.(٤)

(١) في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨، قبل أربعة أيام على الهدنة، اصدرت بريطانيا وفرنسا الإعلان الأنكلو-فرنسي إلى العرب تمنحانهم فيه أساساً حق تقرير المصير ولكن ليس دولة واحدة ذات سيادة. ورأى فيلبي في هذا خيانة أخرى، إلى جانب وعد بلفور واتفاقية سايكس-بيكو، تنكرت فيها بريطانيا لوعدها بدولة عربية واحدة وموحدة كمكافأة للعرب على قتالهم إلى جانب الحلفاء.

(٢) اقتطع ونستون تشيرشل عندما كان وزيراً للمستعمرات العراق من منطقة بلاد ما بين النهرين وذلك بناء على نصيحة من ت. أ. لورنس، وقد تشكل العراق أساساً من ولايات البصرة وبغداد والموصل العثمانية.

(٣) Eliezer Tauber, The Formation of Modern Syria and Iraq (London: Frank Cass, 1995), 315.

(٤) المصدر السابق، ص. ٢٠٧.

شكّل تجاهل مصالح السكان المحليين واحداً من عوارض المواقف البريطانية حيال الشرق الأوسط – والعرب بنوع خاص. واصل البريطانيون حكم معظم الشرق الأوسط وقد اقتنعوا بأنهم يعرفون ما هو الأفضل للعرب، وذلك بالرغم من الوعود بالاستقلال ومن إعلان الرئيس الأميركي وودرو ويلسون في شأن حق تقرير المصير. وتولّى كل من النقيب أرنولد ويلسون وجيرترود بل إدارة العراق وقد اعتقد كلاهما، بغض النظر عن الخلافات بينهما، أنهما يُدركان مشاعر المحليين ورغباتهم. ودعا ويلسون إلى الحكم المباشر، فيما فضّلت بل المحمية.[١]

غير أنهما اتفقا على أن حق تقرير المصير ليس خياراً مطروحاً. وكتبت بل: «وَجَدَ شعب بلاد ما بين النهرين، وقد شهد على النهاية الظافرة للحرب، أن بقاء البلاد تحت السيطرة البريطانية أمر مفروغ منه واقتنعوا ككل بقبول قرار القتال».[٢] وتابعت تقول: إن مفهوم حق تقرير المصير الذي اقتُرح في مؤتمر السلام في باريس «فتح الباب أمام إمكانات أخرى نظر إليها الجميع تقريباً بقلق لكنها أعطت للعناصر الأقل استقراراً والأكثر تعصّباً فرصة دس الدسائس».[٣] إلا أن القادة السياسيين البريطانيين في فرساي لم يهتموا بطريقة إنشاء الدولة الجديدة أو بكيفيتها بقدر ما اهتموا بمشكلة النفط الذي بدا أنه موجود بوفرة في بلاد ما بين النهرين.[٤]

قررت الحكومة نتيجة ذلك إعادة تشكيل بلاد ما بين النهرين فجمعت ولايات الموصل والبصرة وبغداد العثمانية معاً لتصبح العراق وذلك بغضّ النظر عن عدم ائتلاف قاطني هذه المنطقة. ورافقت هويات مواطني العراق الدينية والقومية

---

(١) Fromkin, Peace, 449.

(٢) H. V. F. Winstone, Gertrude Bell (London: Jonathan Cape, 1978), 207.

(٣) المصدر السابق.

(٤) Margaret MacMillan, Paris 1919: Six Months That Changed the World (New York: Random House, 2003), 397. بحسب ماكميلان ازداد الاستيراد البريطاني أربعة أضعاف ما بين ١٩٠٩ و١٩١٩، وجاء معظم الزيادة من خارج الأمبراطورية البريطانية (من الولايات المتحدة والمكسيك وروسيا وبلاد فارس). وتضيف ماكميلان أن البحرية البريطانية اعتبرت، من دون دليل إضافي، أن حقول النفط العراقية هي الأكبر في العالم. أنظر MacMillan, Paris 1919, 395-96.

المتضاربة البلاد لما تبقى من القرن العشرين وامتدت إلى القرن الواحد والعشرين. ولا يزال الآن على الغرب – وخصوصاً الولايات المتحدة – أن يتوصل إلى فهم ديناميات المجتمع العراقي الذي لا يزال يطبق فيه مفهوم الوطنية الغربية. وهو يفعل ذلك بالرغم من المزيج الفريد المكون من العرب والأكراد والأقلية الصغيرة من الأشوريين والذي يشكل أساس العلاقات الدقيقة والمتقلبة في الغالب بين الأكثرية الشيعية والأقليتين السنّية والمسيحية.

وضعت بل تقريراً مطولاً عن الوضع في بلاد ما بين النهرين – وهو في الواقع أعظم ما أبدعت – ساهم في كيفية التحديد الأخير لحدود البلاد الجديدة ما أدى إلى السيطرة السنّية على البلاد التي استمرت حتى الاجتياح الأميركي في ٢٠٠٣.(١) وتمسكت باقتناعها بأن على قيادة العراق أن تكون سنّية لأن الغالبية الشيعية «عازفة عن أمور الدنيا والسياسة،» فيما السنّة «متعلّمون، أقوياء، وفطنون ماليّاً».(٢) وشكّلت بل، على غرار شكسبير وويلسون، تلك التركيبة الفريدة من الجاسوس والمستكشف والبيروقراطي والمغامر التي طبعت الشرق الأوسط، بطريقة أو بأخرى، ببصمة دائمة. غير أن التمرد العراقي وضع حداً لمنصب ويلسون ككبير المديرين المدنيين، وهو بالرغم من إعادته إلى الديار ومنحه رتبة فارس، لم يتمكّن من تقبل النتيجة وترك الوظيفة الرسمية البريطانية.(٣) غير أن بل بقيت واستمرّت في أداء دور أساسي في تنمية الدولة الجديدة. أبقاها برسي كوكس في وظيفتها في العراق لأنه يشاركها في

(١) Gertrude Bell, Review of the Civil Administration of Mesopotamia (London: HMSO, 1920): quoted in Georgina Howell, Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2006), 329.

(٢) Howell, Gertrude Bell, 320. تكوّن سكان العراق في ١٩٢٠ تقريباً من ٥٠ بالمئة من الشيعة و٢٥ بالمئة من السنّة وضمّ ما تبقى أقليات أصغر من اليهود والمسيحيين. وجاء التعقيد الإضافي من أن نصف السكان كانوا من العرب فيما ضم النصف الثاني الأكراد والأشوريين والفرس. MacMillan, Paris 1919, 398.

(٣) استخدمت حكومة الهند ويلسون، على غرار فيلبي. وقد حافظ، في فترة ما بين الحربين العالميتين، على حياته المهنية المتنوعة. فقد عمل في التجارة وانتخب في ١٩٣٣ عضواً في البرلمان. تطوع عند نشوب الحرب في ١٩٣٩ في سلاح الجو الملكي كمدفعي جوي، وقد أسقطت طائرته فوق فرنسا في ٣١ أيار/ مايو ١٩٤٠.

وجهات نظرها المتعلقة بالترتيب النهائي للدولة الجديدة وعلاقاتها مع بريطانيا.

دان فيلبي أيضاً بوظيفته الجديدة في العراق لبرسي كوكس الذي سبق أن استخدمه في بلاد ما بين النهرين في السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى. ولما وصل كوكس في مطلع تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢١ وسُلّم مسؤولية العراق تحرّك سريعاً لتشكيل حكومة موقّتة جميع أعضائها من العراقيين، لكنها حكومة مدعومة بالمستشارين البريطانيين. وبالرغم من أن كوكس يؤيد مبدأ الحكم الذاتي العراقي، فإنه اعتقد بالدرجة نفسها أنه لا يمكن للعرب أن يحكموا أنفسهم إلا إلى حد معيّن، وأنه، في ما هو أبعد من ذلك، سيبقى السلطة النهائية والعليا.[١] وقضى دور المستشارين البريطانيين في توجيه الوزراء العراقيين لاتخاذ القرارات الصحيحة، وفي إطار هذه الاختصاصات شُكلت الحكومة العراقية الأولى في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٠.

وافق فيلبي على هذا الترتيب، لكن صبره على النظام البريطاني بلغ منتهاه عندما هندس ونستون تشيرشل بوصفه وزير المستعمرات وت. أ. لورنس وجيرترود بل انتخاب فيصل ملكاً على العراق. وأبلغ فيلبي وجهات نظره إلى كل من يرغب في الاستماع، وأُجبر في ١٩٢١ على المغادرة بعدما تولى فيصل العرش.[٢] وأُرسل، كتعويض له، إلى شرق الأردن بوصفه كبير الممثلين البريطانيين.[٣] وبعدما أمضى ثلاث سنوات هناك طفح به الكيل، وكذلك الأمر بالمندوب السامي البريطاني في القدس، غير أن فيلبي نجح في تقديم استقالته قبل أن يُعفى من مسؤولياته.[٤] وسواء نتج الأمر من عمل فجائي تولّد من الإحباط أو أنه نتيجة سنين من التراكمات، فإن فيلبي قرر التخلي عن الخدمة العامة الهندية ونقل ولاءه إلى ابن سعود. وبالرغم من أن تبديل الولاءات لم يأت بهذا القدر من السهولة والسرعة، فإن ذروة الخيبات قد

(١) Tauber, Formation, 317.
(٢) Monroe, Philby of Arabia, 99-100.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٠٥.
(٤) المصدر السابق، ص. ١٢٥.

تفسّر دوافع فيلبي في تحوّله النهائي من موظف حكومي بريطاني وضابط استخبارات إلى مستشار للملك عبد العزيز ومعتنق للإسلام.[1] وبالرغم من أن معظم المؤرّخين يتفقون على أن تحوّل فيلبي إلى الإسلام استهكامي ويخدم مصالحه، فإن تصميمه على نيل حظوة الزعيم العربي بلغ مع ذلك حدّ خضوعه لعملية تطهير مؤلمة تلبية لكل متطلبات كونه مسلماً.[2]

مثّل فيلبي تركيبة شجاعة من المستكشف والمغامر والمنحرف اجتماعياً - وأيضاً المراقب المفتون بالطيور.[3] وبغضّ النظر عن دوافع فيلبي الأنانية فإنه، وعلى عكس ت. أ. لورنس، افتُتن حقاً بابن سعود المتقشّف ورأى فيه «شخصية عظيمة ورائعة».[4] وهو لم يصبح في نهاية الأمر المدافع الأول عن الملك وحسب بل إنه خان بلاده أيضاً في الوقت نفسه. وفي السنوات التالية خدع نجله الشهير، هارولد أدريان راسل «كيم» فيلبي، أيضاً زملاءه، سوى أن «ديانة» كيم كانت الماركسية والاتحاد السوفياتي. وعالج كيم فيلبي في مذكّراته نظريات بعض المؤلّفين:

> ممن عزوا السياق غير العادي إلى تأثير والدي. ويمكن أن غرابة أطواره سمحت لي، في مطلع شبابي، في أن أقاوم بعضاً من أكثر الأحكام المسبقة الشائنة لنظام المدرسة الرسمية الإنكليزية منذ أربعين سنة خلت. إلا أن القليل جداً من البحث يظهر أنه، في كل نقطة تحول حاسمة من حياتي، كان بعيداً آلاف الأميال عني. ولو أنه عاش لفترة أطول بعض الشيء وعرف الحقيقة لصعق، لكنه لم يكن بأي من الأشكال ليعارض.[5]

---

(١) اعتنق فيلبي الإسلام في ١٩٣٠.

(٢) بدأ مسيحياً متحمّساً، وأصبح ملحداً واشتراكياً في جامعة كامبريدج، وأعطاه سعود اسم عبدالله بعد تحوله إلى الإسلام. أنظر Monroe, Philby of Arabia, 152-53; Daniel Yergin, The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power (New York: Free Press, 1991), 287.

(٣) أعطي فيلبي الاسم العلمي لنقار الخشب العربي (Descripticus [now Dendrocopos] Dorae)إضافة إلى تسمية سلالات من البوم (Otus scops pamelae) وقد سمى معظم طيوره بأسماء نساء أعجب بهن.

(٤) Monroe, Philby of Arabia, 127; Allen, God's Terrorists, 249.

(٥) Kim Philby, My Silent War: The Autobiography of a Spy (New York: Modern Library, 2002), 131-32. وقد نُشر الكتاب أولاً في ١٩٦٨.

ويمكن لقلة من الناس ممن عرفوا كيم فيلبي الاقتناع بتعليقاته عن حياته. وكتب يوري مودين، ضابط الـ«كا.جي.بي.» المسؤول عمن يسمّون جواسيس كامبريدج (الجواسيس البريطانيون الذين جندتهم الاستخبارات السوفياتية في الثلاثينيات من القرن العشرين)، في القسم المتعلق بالتنويه في كتاب فيلبي:

> لم يكشف [فيلبي] قط عن حقيقة نفسه. ولم يتمكن لا البريطانيون ولا النساء اللواتي عاش معهن ولا نحن من اختراق درع الغموض الذي أحاط به. فالإنجاز العظيم الذي حقّقه في التجسس هو عمل حياته، وقد شغله كلّياً حتى يوم مماته. إلا أنني، في النهاية، يساورني الشك بأن فيلبي سخر من الجميع، بمن فيهم نحن.[١]

وربما اقتربت تعليقات جون لوكاريه أكثر من المزايا التي يتشارك فيها الأب والابن:

> ليس لفيلبي منزل، أو نساء، أو إيمان. فخلف غطرسة الطبقة العليا المتأصلة يقبع كره منحرف عبثي لذاته بحيث لم يعد أي شيء جديراً بولائه. فما يحرّك فيلبي، في نهاية المطاف، هو مخدّر خداع الذات نفسه غير القابل للعلاج.[٢]

وعندما قرأ مترجم البلاط السعودي، الذي عرف فيلبي الأب، مذكرات كيم، لاحظ أن الأخير «نسخة طبق الأصل عن والده».[٣] ففيلبي الأكبر، كما ابنه، بقي معظم حياته شخصاً معقداً لا يتورع عن شيء، ولا يتردّد في استخدام أي كان لتقديم غاياته الخاصة. وقد حاول سانت جون فيلبي، في الفترة ما بين مغادرته الوظيفة الحكومية والعمل مع ابن سعود، القيام بعمل يدرّ عليه المال، من دون نجاح يذكر. أنشأ شركة تجارية في الرياض، غير أنه حقق نجاحاً في التجارة أقل من نجاحه في استكشاف صحارى الجزيرة العربية. تعامل مع رجل الأعمال الثري ريمي فيشر من

(١) Yuri Modin, "On Kim Philby," في المصدر السابق، i.

(٢) John le Carré, "In Kim Philby," في المصدر السابق، i.

(٣) كما نقل عنه يرغين Yergin, Prize, 286.

أجل ضمان عقود رابحة لنفسه. وبدلاً من أن يصاب فيلبي بالإهانة عندما أظهر فيشر اهتماماً بزوجته دورا، حثّها على تشجيع مقارباته، وذلك بغية استرضائه لتتمكن عائلة فيلبي من قضاء العطلة في «عزبته» في فرنسا.(١)

في أيار/مايو ١٩٣٢، تقرّب فرانسيس ب. لوميس، ممثل «ستاندراد أويل أوف كاليفورنيا» (سوكال)،(٢) من خلال القنصل الأميركي العام في لندن، من فيلبي واقترح الشروع في محادثات بغية ضمان الحصول على حقوق امتياز نفطية. وما فتئ فيلبي يشجع ابن سعود على النظر في إمكانية وجود أنهر من النفط تحت أرض الجزيرة العربية يمكنها أن تزيد من مدخول المملكة السعودية. فاحتمالات وجود احتياطي من النفط تقدّم مصدراً جديداً للدخل يحتاج إليه العاهل السعودي في شكل يائس. إذ إن مالية المملكة باتت في حالة سيئة، بعدما تجاوزت مصاريف ابن سعود وبلاطه المداخيل، وباتوا، بحلول الثلاثينيات من القرن العشرين، عاجزين عن الدفع لمدينيهم.

اكتشفت «سوكال» في ٣١ أيار/مايو النفط في البحرين الأمر الذي أقنع الشركة بفائدة التنقيب عن الاحتياطي منه في السعودية. استأنف ممثلون عن «سوكال» الاتصال بفيلبي طلباً للمساعدة على إقناع ابن سعود بمنحهم حقوق التنقيب إضافة إلى الامتيازات في حالة اكتشاف النفط. أثرى فيلبي من دوره الجديد كمستشار للملك وفي الوقت نفسه كوسيط لسوكال. وبالرغم من أن «سوكال» استخدمته كمستشار مدفوع الأجر اتصل أيضاً، من خلف ظهر الشركة الأميركية، بشركة النفط العراقية (وكانت شركة النفط الأنكلو-فارسية هي المساهم الأكبر فيها) في جهد منه لرفع الأسعار وضمان عمولة أكبر لنفسه.

وافق السعوديون، بعد الكثير من المساومة، وضمنت «سوكال» عقدها النفطي

(١) Monroe, Philby of Arabia, 133.

(٢) امتلك جون د. روكفللر «سوكال» التي جعلت منه واحداً من أغنى الرجال في العالم. وحكمت الولايات المتحدة في ١٩١١ بأن «سوكال» شركة احتكارية يجب تقسيمها إلى ٣٤ شركة. وتمثل «إكسون موبيل» اليوم جزءاً كبيراً من الشركة الأم.

الأول مع السعودية. كسب فيلبي رسم استشارة شهرياً بقيمة ألف جنيه استرليني إضافة إلى المنح وغيرها من المزايا المالية.[١] وتم توقيع الاتفاق في ٢٩ أيار/مايو ١٩٣٣، وحصلت «سوكال» ووارثاتها في النهاية على الحق الحصري في الوصول إلى واحد من أكبر احتياطي النفط في العالم.[٢] وتخلى ممثلو شركة النفط العراقية عن الأمر في وقت مبكر ولم يجروا المزيد من المفاوضات. فاهتمامهم لم ينصب كثيراً على الحصول على مصادر جديدة بقدر ما انصب العمل على وقف أي منافسين مستقبليين.[٣] وأثبت ذلك على أنه خطأ استراتيجي فاضح حرم البريطانيين من مصدر آخر من مصادر النفط ومن مكاسب بملايين الدولارات، إضافة إلى بقائهم معتمدين على حقول النفط الفارسية مع كل ما يحمله ذلك من عواقب على بريطانيا العظمى في المستقبل.

وكان دور فيلبي لمصلحة الأميركيين أحد العوامل الحاسمة في كيفية فوزهم بامتيازات النفط السعودية، أما العامل الآخر فهو قصر نظر البريطانيين في عجزهم عن تقدير إمكانات النفط السعودي: وربما كان هذا أكبر إخفاقات الاستخبارات البريطانية في كل الأوقات. وشكلت نيات كولبي تركيبة من الجشع والأنا و-إلى حد ما- الانتقام من سياسات بريطانيا الشرق أوسطية. غير أن الجاسوس البريطاني والموظف الحكومي المنشق يحتاج إلى المال النقدي ليدفع أقساط ابنه في جامعة كامبريدج ليتمكن كيم من إكمال دراسته. وفي الواقع تكفّل سانت جون فيلبي وابنه، في ما بينهما، بانحطاط الاستخبارات البريطانية حتى مطلع الستينيات من القرن العشرين وبالمساعدة على إتمام صفقة «فوستية» (نسبة إلى فوست الذي باع نفسه للشيطان) بين أميركا والسعودية.

---

(١) حصلت «سوكال» بفضل كولبي وحاجة ابن سعود إلى التمويل على حقوق التنقيب عن النفط.

(٢) وافقت «سوكال» على أن تدفع للسعوديين، في مقابل الامتيازات، ٣٥ ألف جنيه استرليني ذهباً كدفعة أولى، و٣٠ ألفاً على شاكلة قرض، وخمسة آلاف دفعة أولى من أصل الحقوق. وستقدم «سوكال» بعد ذلك بـ١٨ شهراً قرضاً ثانياً بقيمة ٢٠ ألف جنيه، على أن يتم دفع القروض من حقوق النفط المستقبلية. أنظر Yergin, Prize, ٢٩١.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢٩٠-٩١.

اكتشفت «سوكال» ووارثاتها احتياطات كبرى من النفط مما ولّد ثروات عظيمة لشركات النفط الأميركية وأثرى العائلة المالكة السعودية بما هو أكبر من أكثر أحلامها جنوحاً. وجرى في ١٩٥٠ تعديل الترتيب غير المتوازن بحيث تم اقتسام عائدات النفط على أساس المناصفة، وهو ما ضاعف كثيراً من مداخيل المملكة.[١] أفسدت الثروة الكبرى الحس السليم، وتبع بيت آل سعود صوتَ أنشودة حورية الجشع التي أبقتهم رهائن الإدمان الأجنبي – والأميركي بنوع خاص – على الوقود الأحفوري. وبغية حفاظ الملوك المقبلين والعائلة المالكة الواسعة المؤلّفة من ألف عضو على شهيتهم المتعاظمة للترف الذي لا حدود له، سلّموا المجتمع السعودي إلى رجال الدين الوهّابيين الذين أبقوا على صيغتهم من الإسلام المتطرف.

ازداد اشمئزاز سانت جون فيلبي، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، من فساد العائلة المالكة السعودية وضعف إدارتها وبخلها، وعبّر عن ذلك علناً. وأثبت هذا على أنه أكثر مما يتحمله خليفة ابن سعود الذي نفى فيلبي. ومن سخرية الأمور أن يختار فيلبي لندن مكاناً لمنفاه.[٢] وعاد هاري سانت جون فيلبي في نيسان/أبريل ١٩٥٥ إلى موطنه من السعودية مخلفاً وراءه إرثاً من النفط والمال والفساد أدى دوراً مساعِداً للإسلام المتعصب.

(١) في ١٩٤٩، بلغت الحصة السعودية من عائدات النفط ٣٩ مليون دولار. أنظر المرجع السابق ص. ٤٤٦-٤٧.

(٢) Monroe, Philby of Arabia, 269-71.

١٠

الإيمان المطلق: الإخوان المسلمون وسياسة استخبارات

«ستصبح كلمتي أكثر قوّة إذا قتلوني».

ـ سيّد قطب[1]

حملت الرياح معها في صباحات أواخر آب/أغسطس الرطبة روائح الصحراء إلى القاهرة. فالرمل يمتص في خلال الليل الرطوبة الباردة ويطلقها قبل ساعات قليلة على الفجر. تتكوّن روائح القاهرة في تلك الساعة من التقاء روائح رطوبة الصحراء المجدبة مع نفحات من الدلتا التي تجمع الروث والنفحات الحادة لمياه الري الآسنة. وتغمر القاهرة، في وقت لاحق من اليوم، الرائحة التي تميّز معظم مدن الشرق الأوسط: مزيج من دخان العوادم، والبخور الرخيص، والسماد، وعَرَق الحيوان.[2] بدت كل المظاهر الخارجية في يوم التاسع والعشرين من آب/أغسطس وكأنها مظاهر الصباح الباكر النموذجية في العاصمة المصرية. سوى أن الحكومة المصرية حرّكت، بعد ساعات قليلة من ذلك، سلسلة من الأحداث التي ستميز ذلك اليوم بوصفه بداية جديدة بالنسبة إلى الشرق الأوسط. فقد زوّد إعدام أحد علماء الدين الإسلاميين، والمنظّر للجهاد، المناضلين المسلمين شهيداً جديداً ذا نفوذ.

(١) قيلت ردّاً على توسّل شقيقته ليستأنف حكم الإعدام الصادر بحقه ويوافق على العفو الذي اقترحه ناصر قبل قليل على إعدامه. أنظر Lawrence Wright, The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11 (New York: Vintage, 2006), 31.

(٢) Artemis Cooper, Cairo in the War, 1939-1945 (London: Hamish Hamilton, 1989), 4.

بيد أن سجين الزنزانة الخاصة في سجن طرة بدا وكأنه غير متأثر بمصيره: انتظر باستسلام وهو يرتدي بزة الخيش الأحمر المخصصة للمحكوم بالإعدام. جاء رجلا شرطة قبيل بزوغ الفجر وأمسك كل منهما بإحدى ذراعي سيد قطب بحيث كادا يحملانه إلى السيارة المنتظرة في باحة السجن وهي جزء من قافلة صغيرة من الآليات التابعة للشرطة والجيش شقّت طريقها مسرعة إلى مكان تنفيذ الإعدام. وبوصولها، اقتيد قطب إلى عمود مشنقة موقتة حيث وُضع الحبل حول عنقه. انتظر الجلاد بصبر تحت علم أسود حتى تعطى الإشارة للشروع في المحنة الأخيرة للرجل المحكوم. وفيما الحراس والرجال المحكومون الآخرون ينتظرون البدء بعمليات القتل، صرصرت سيارة وهي تتوقف في الخارج، واندفع ضابط مصري كبير إلى غرفة الموت.

دخل أنور السادات، العضو السابق في الإخوان المسلمين والوثيق الارتباط بعبدالناصر، مقرّ الإعدام وعرض على قطب اقتراحاً بسيطاً: أن يستأنف الحكم فيمنحه ناصر العفو. فقد أدرك عبد الناصر، خصوصاً بعدما أخذت شوارع القاهرة تكتظ بالمتظاهرين، أن قطب سيمثّل خطورة أكبر وهو ميت. رفض قطب العرض.[1] وبدأ عندئذ الجلّاد بسحب الحبل رافعاً قطب ببطء عن الأرض. شهق قطب واهتزّ بعنف؛ وقضى في غضون دقائق.

وفي محاولة ضعيفة لإعادة الجنّي إلى القمقم، رفضت الحكومة المصرية تسليم الجثة إلى العائلة لمنع تحوّل المقبرة إلى مقام، لكن كان قد فات الأوان.[2] مثّل إعدام قطب واستشهاده، حتى عندما بدا أن الإخوان المسلمين على شفا الاضمحلال، خطّاً حاسماً في تطور الإسلام السياسي، وأصبحت مؤلفاته بمنزلة كتب مقدّسة لمريدي الجهاد المعاصر.[3] وساهم موت قطب، في لحظة من المفارقة الكبرى، في إعادة

---

(١) Wright, Looming tower, 36.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٧.

(٣) حاول شقيق قطب، محمد، الادعاء بأن الجهاد الذي تم اعتناقه في مؤلفات السيد يشدّد على الجهود الفكرية والأخلاقية، بدلاً من العنف، في دفاع المسلمين عن إيمانهم. أنظر Charles Tripp, “Sayyed Qutb: The Political Vision,” in Rahnema, Pioneers, 177.

انطلاق الإخوان المسلمين بالتزامن مع ذروة القومية العربية العلمانية في خلال العقد الأول من مصر عبد الناصر (١٩٥٤-١٩٦٥).[1]

تمثّل حياة قطب ونهايته، إلى حدّ كبير، استعارة للمسيرة الروحية والأيديولوجية التي نقلت الكثيرين من الرجال والنساء في الشرق الأوسط من التزام المثل السياسية العلمانية إلى مذهب الحكم المطلق للإسلام السياسي. كان قطب في الأساس أستاذاً شاباً دمث الأخلاق حقق شهرة في النقد الأدبي. وقد أدت تجربته السياسية في القومية التي اكتسحت مصر في ما بعد الحرب العالمية الثانية واحتكاكاته بالغرب إلى إقناعه بالبحث عن الخلاص في الإسلام. وأصبح سيد قطب المرشد الروحي للإخوان المسلمين وبشّر بتفسير للإسلام لاءم بين المعتقدات الوهّابية المتزمّتة والمعتقدات السائدة خارج الجزيرة العربية، وهو ما وفّر في نهاية الأمر الإطار الفكري والفقهي لأسامة بن لادن وأتباعه في القاعدة.[2] ازدرى قطب الغرب، وخصوصاً الولايات المتحدة، وكنّ العداء نفسه لقومية عبد الناصر العربية.

وُلد الشهيد المسلم في ١٩٠٦ في قرية موشة الصغيرة في مصر العليا. وأُرسل في ١٩٢١ للإقامة مع عمّ له في القاهرة لإكمال دراسته، وتخرّج في دار العلوم، وهي دار لتخريج الأساتذة. وأُرسل بعد تخرجه أستاذاً إلى المحافظات ليعود في النهاية إلى القاهرة مفتشاً على المدارس في وزارة التربية المصرية. واكتسب في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين بعض التميّز كناقد أدبي وكاتب وصحافي.[3] وانغمس في السياسة، على غرار معظم المصريين من أبناء جيله، واستاء من السيطرة البريطانية على مصر. لم يكن قطب قد أصبح في ذلك الوقت ناشطاً دينياً، بل إنه حصر اهتماماته بالنقد الأدبي والشعر، ثم ـ وبعد ١٩٤٥ – بالقومية المصرية التي كرّس نفسه لقضيتها بحماسة كبيرة أغاظت الملك فاروق الذي طلب توقيفه. إلا أن

(١) Kepel, Muslim Extremism, 34.

(٢) Gilles Kepel, The War for Muslim Minds: Islam and the West, trans. Pascale Ghazaleh (Cambridge: Harvard University Press, 2004), 78-83, 174-75.

(٣) Kepel, Muslim Extremism, 39.

وزارة التربية قامت في ١٩٤٨، بفضل علاقاته السياسية، بإبعاده خفية إلى الولايات المتحدة للمزيد من التدريب.[١]

مثّلت تجربة قطب في أميركا بالفعل طريق هدايته فحوّلت رجل الآداب المصري الشاب إلى منظّر إسلامي ملتزم. وعلى الفور تقريباً تعرّض ما اكتشفه من عزم جديد للاختبار على إحدى السفن العابرة للمحيط حين حاولت امرأة أميركية سكرى إغواءه. لم يسقط قطب، كما لم تستهوه لاحقاً مفاتن طريقة الحياة الأميركية. فقد اشمأز من انحياز الأميركيين ضد العرب وراعته الحرية التي يعطيها الرجال الأميركيون لنسائهم. ووصف الكنائس على أنها «مراكز للترفيه وملاعب للجنس».

أدرك قطب، بعد سنتين ونصف السنة من التعرض للحضارة الغربية، أنه يزدري كل ما فيها. وهكذا استقال لدى عودته إلى مصر في ١٩٥١ من وزارة التربية والتحق بنضال الإخوان المسلمين.[٢] وأوقفته شرطة ناصر مع الكثيرين من الإخوان الآخرين في ١٩٥٤. وقضى عشرة أعوام في السجن حيث تمكن من متابعة التأليف والنشر بالرغم من الظروف القاسية. أُطلق في ١٩٦٤ ليوقف من جديد في ١٩٦٥ بعد محاولة عناصر من الإخوان المسلمين اغتيال عبد الناصر.

أصبح قطب المؤيد الأكثر تأثيراً للمفهوم المعاصر للجهاد. ويرى الكثيرون من المناضلين في الشرق الأوسط أن تفسيره للجهاد المقدس يجيز المقاومة الإسلامية العنفية للحكومات التي تدعي الإسلام ولكن تطبيقها لتعاليمه معيب. ويتمتع قطب بشعبية خاصة في السعودية مع أن منشوراته الضخمة تُرجمت أيضاً إلى معظم اللغات الإسلامية. استقطبت أفكار قطب، في الستينيات والسبعينيات عندما تأثر الكثيرون من العلماء الدينيين الأفغان بالإخوان المسلمين، اهتماماً خاصاً في كلّية الشريعة، وترجم العلاّمة برهان الدين رباني كتاباته إلى لغة الداري الأفغانية.

---

(١) المصدر السابق، ص. ٤٠؛ التحق قطب بكلية التربية في جامعة كولورادو الحكومية حيث حاز شهادة الماجستير.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٠-٤٤؛ Tripp, "Sayyid Qutb," 158.

توجد صيغ كثيرة للإسلام الجهادي، وقد فُسّرت كتابات قطب بطرائق مختلفة بالرغم من أنه يُدرّس في كل مكان من ماليزيا إلى المغرب. بل إن بعض المسلمين الراديكاليين كتبوا مجادلات ضد تفسير قطب للإسلام. ويعد قطب والد الإسلام الجهادي المعاصر ومصدر الإيحاء والتأثير للكثيرين من المسلمين الراديكاليين بمن فيهم أسامة بن لادن.[١] وبعد ذلك بسنوات أخذ شقيق قطب، محمد، يعلّم في جامعة الملك عبد العزيز حيث علّم الكثيرين من الشبان العرب، بمن فيهم بن لادن. وأمضى العضو الآخر في الإخوان، عبدالله عزّام، وهو أيضاً مدرّس في الجامعة السعودية ومن أتباع قطب، الكثير من الوقت مع الإرهابي المستقبلي في بشاور في باكستان في إبان الحرب في أفغانستان.[٢]

وسيستمرّ قطب والإخوان المسلمون في حمل راية الإسلام الراديكالي، والمتعصب – بالنسبة إلى الأنظمة الغربية والإسلامية القائمة – إلى حين ظهور القاعدة في التسعينيات من القرن العشرين. وقد استكنّ الإخوان عميقاً في المجتمع المصري وامتدت أذرعهم في أنحاء العالم العربي الإسلامي كافة. وبالرغم من أنه بدا لأول وهلة أن القومية العربية قد فتنت مصر ودولاً عربية أخرى في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فإن الإخوان المسلمين استلبوا روح فقراء مصر ومفكّريها الشبان.

ويضاهي ذلك أهمّية أن الإخوان المسلمين حصلوا على حلفاء أقوياء: فقد ساندت الاستخبارات المركزية الأميركية في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين هؤلاء الراديكاليين المصريين لموازنة النهوض المثير للقلق للقومية المصرية.[٣] توصّل الأخوان دالاس–ألن بوصفه مديراً لـ«سي.آي.إي.» (١٩٥٣-١٩٦١) وجون فوستر بوصفه وزيراً للخارجية (١٩٥٣-١٩٥٩)- إلى عد عبد الناصر شيوعياً موالياً للسوفيات

(١) Robert Irwin, "Is This the Man Who Inspired Bin Laden?," The Guardian, 1 November 2001.

(٢) Robert Baer, Sleeping with the Devil: How Washington Sold Our Soul for Saudi Crude (New York: Three Rivers, 2003), 127.

(٣) Rashid Khalidi, The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood (Boston: Beacon, 2006), xxii;

وعدّا الإسلام بمنزلة السلاح السحري الذي يمكن بوساطته القضاء على القومية العربية وحرمان موسكو، بالتالي، من حلفاء محتملين في الشرق الأوسط.[١] وشجعا، على هذا الأساس، السعودية والأردن على مساعدة وتمويل كفاح الإخوان المسلمين ضد عبد الناصر. ومن سخرية الأمر أن الـ«سي.آي.إي.» ساندت عبدالناصر سرّاً قبل ذلك بسنوات قليلة فقط.[٢]

غير أن الأميركيين ليسوا أول من سعى إلى التحالف مع المناضلين المسلمين لاحتواء الحركة القومية والعلمانية في مصر. فقد طبّق الإنكليز الوصفة نفسها في خلال الحرب العالمية الأولى في محاولة لاستغلال الإسلام ضد الأمبراطورية العثمانية. ومنحوا حسن البنّا، في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، مبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني عبر شركة قناة السويس وساهموا في إنشاء الإخوان المسلمين.[٣] وشرع الإخوان، بعد ذلك بعشر سنوات، في الدعوة إلى تأميم القناة.[٤] لم تكن للبريطانيين، بالرغم من التناقض الظاهر، سوى تحفظات قليلة على تحمّل منظمة تناقض وجودهم في مصر بل حتى مساندتها. وقد حفّز جزئياً على هذه المقاربة الاستهكامية أن الإخوان المسلمين، على غرار البريطانيين، يعارضون القوميين المصريين والتنظيمات اليسارية والمؤسسات العمالية المستقلة والكيانات الشيوعية عموماً.

كانت علّة وجود الإخوان المسلمين، ولا تزال، هي تطهير الإسلام من كل العناصر الطارئة عليه واستعادة جوهره النقي كما مورس في أيام النبيّ محمد. وعمل الإخوان المسلمون ومن تفرّع منهم بتصميم شديد وتعصّب في اتجاه إنشاء الدولة الإسلامية الدينية لتحقيق هذه القيامة. وكرسوا لهذه الغاية أنفسهم للقتال في أنحاء الشرق الأوسط وما هو أبعد منه.

---

(١) Baer, Sleeping, 99.

(٢) راجع الفصل ١٢.

(٣) أسس البنّا الإخوان المسلمين في مدينة الإسماعيلية بمعية ستة من عمال شركة قناة السويس.

(٤) Lia, Society, 41; Mitchell, Muslim Brothers, 9.

جاء تأسيس الجمعية في العشرينيات من القرن العشرين في وقت عاش العالم الإسلامي حالة اختلال. فقد فكّك أتاتورك (مصطفى كمال) في ١٩٢٤ الأمبراطورية العثمانية واستبدلها بجمهورية تركية علمانية. وفكّكت القوى الأوروبية المنتصرة الأراضي الإسلامية، باستثناء تركيا، وأعادت تركيبها دولاً «مُنتدَبة» تفادياً لاستخدام تصنيف «مُستعمرات». وآذنت نهاية الأمبراطورية العثمانية أيضاً بنهاية الخلافة وبتفكك الإسلام. ويؤكد جيل كيبل:

> أسس الإخوان المسلمون جماعتهم في مصر لاستعادة البعد السياسي للإسلام الذي سبق أن حُصر في شخص الخليفة الذي سقط الآن. ورد الإخوان، وقد واجهتهم القومية المصرية حينئذ – التي طالبت بالاستقلال وبخروج البريطانيين وبدستور ديمقراطي – بشعار لا تزال الحركة الإسلامية تستخدمه حتى الآن وهو «دستورنا القرآن»[١].

منذ ١٩٢٤ والتنظيمات الإسلامية المختلفة والأفراد يحاولون، بطريقة أو بأخرى، إعادة تكوين الوحدة الإسلامية التي يرون أن الخليفة العثماني مثّلها. وبقي السعي إلى كيان وحدوي شامل، بزعامة إما كيان ديني- سياسي واحد وإما بزعامة شخص فرد، هو جوهر الاضطراب الإسلامي الذي طبع القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين. وحلّت شخصيات غريبة قذفت بها فوضى شرق أوسط ما بعد العثمانيين في واجهة الأيديولوجيات المتنافسة أو الحركات التي تطرح العروبة أو الإسلام وسيلة لتوحيد العالم الإسلامي المتميّز أصلاً. وقد أيد الزعماء العرب العلمانيون القومية المحلية أو الإقليمية؛ في حين أن الناشطين الإسلاميين، بالرغم من ترحيبهم بمفهوم توحيد العرب، لم يعدوا ذلك إلا خطوة أولى على طريق إقامة الدولة الإسلامية التي ستشكل البديل من دور الخلافة المركزي.[٢]

(١) Kepel, Jihad, 27.

(٢) Dawisha, Arab Nationalism, 102.

حاول البنّا والإخوان المسلمون ملء ذلك الفراغ بالدعوة إلى الإسلام كمخلّص للعرب، ولاحقاً لجميع المسلمين في ما وراء حدود مصر. وركز الإخوان المسلمون حتى ١٩٣٦ على استقطاب الأعضاء منشئين فروعاً في مصر ومقدّمين المساعدات الاجتماعية. إلا أنهم وسّعوا بعد ١٩٣٦ نشاطاتهم إلى ما وراء الحدود المصرية. وقدّم التمرّد العربي على الانتداب البريطاني في فلسطين فرصة فريدة للبنّا لإقحام المجتمع في قضية سرعان ما ستستحوذ على قلوب العرب والمسلمين وعقولهم في أنحاء العالم كافة.[١] ورمى بثقل الإخوان في تنظيم حملة تجنيد للمتطوعين للقتال في فلسطين، وكذلك في جمع الأموال.

لم تكن أزمة فلسطين في ١٩٣٦ هي الأولى ولا الأخيرة، بل واحدة في سلسلة من التمردات العنيفة التي أصبحت في النهاية محفّزاً رئيساً للحركات الراديكالية داخل العالم الإسلامي في القرن العشرين وفي مطلع القرن الواحد والعشرين.[٢] وقد ألهمت المقاومة العربية للبريطانيين النهضة القومية العربية في مصر. وساعدت أيضاً على الحضّ على العروبة وقد اعتقد الكثيرون أنها ستكون بزعامة مصر فعُبِّد بذلك الطريق أمام ثورة عبد الناصر في ١٩٥٢. أغرى الكفاح الفلسطيني القوميين العرب العلمانيين لأنه أكّد أن قتال العرب في فلسطين هو من أجل حق تقرير المصير والدولة. وشكّل، في الوقت نفسه، وضع القدس في الإسلام المغناطيس الذي يجتذب المناضلين المسلمين ممن لا يسعهم قبول خسارة ثالث مدينة مقدسة ذات أهمّية حاسمة جداً للإيمان الإسلامي.

وبرز في قلب الأحجية الفلسطينية مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني الذي يدين

(١) منحت جمعية الأمم الانتداب على فلسطين للبريطانيين في تموز/يوليو ١٩٢٢. وقد وافقت القوى العظمى يومئذ على الوثيقة الفعلية، وقد تضمنت النص الكامل لوعد بلفور، وهي على غرار هذا الوعد، لم تشر قط إلى العرب في فلسطين. ولمزيد من التفاصيل عن إقامة الانتداب راجع Khalidi, Iron Cage, 32.

(٢) Benny Morris, 1948: A History of the First Arab-Israeli War, (New Haven: Yale University Press, 2008), 12. كتب موريس أن ثورات ١٩٢٠، ١٩٢٩، و١٩٣٦-١٩٣٩ تزايدت تدريجاً لتصبح أكثر قتلاً واتساعاً.

بموقعه للبريطانيين ولكنه أيضاً ألدّ عدو لهم قبل تعيينه وبعده.[١] هيمن الحسيني على تاريخ فلسطين منذ بداية الانتداب البريطاني حتى الوقت الراهن؛ وألقى بظله الكبير على جذور الإسلام السياسي. واللافت أنه، في ١٩٢١، لم يمثّل الخيار الأول لمنصب المفتي، بل إنه حاز في الواقع أقل عدد من أصوات الناخبين المسلمين الذين عينتهم الإدارة البريطانية في فلسطين لانتخاب المفتي.[٢] غير أن الحسيني ومؤيديه نظموا حملة لتسويق ترشيحه وألغوا الآخرين بكثير من الحقد. وانهالت على السلطات البريطانية رسائل الدعم من الأعيان الفلسطينيين (بمن فيهم زعماء الطوائف المسيحية)، إضافة إلى المعاريض التي تحمل مئات التواقيع. وبالرغم من أنها أحدثت بعض الوقع على إدارة الانتداب، فإن عوامل أخرى تضافرت لمنح مركز المفتي للحسيني.

وتفيد نظرية حديثة يؤيدها ديفيد دالين وجون روثمان أن اللاعب الأساسي في تعيين الحسيني هو أرنست ريتشموند نائب السكرتير السياسي للمفوضية العليا البريطانية في القدس. فريتشموند هو مستشار المفوض السامي للشؤون العربية، إلا أن ما يوازي ذلك دلالة، بحسب دالين وروثمان، «هو ما دار من شائعات عن أن ريتشموند والحسيني تورطا في علاقة عاطفية مثلية، وبسبب هذه العلاقة تحمّس ريتشموند

(١) تحدّر الحسيني من عائلة مرموقة وذات نفوذ في القدس. عثر بعد الحرب العالمية الأولى على وظيفة كاتب مع غبريال حداد المستشار المسيحي العربي لحاكم القدس العسكري رونالد ستورز. ونُقل حداد في ١٩١٩ إلى دمشق حيث تولى منصب مفوض السلامة العامة، فتبعه الحسيني وسرعان ما انخرط مع القوميين العرب المؤيدين لمطلب فيصل بعرش دمشق. وعاد الحسيني إلى فلسطين بعد نقل حداد إلى لندن وساهم في تنظيم التظاهرات الداعمة لفيصل في القدس ومن ثم، وبعد فترة وجيزة، في التظاهرات المناهضة لليهود. أدت تظاهرة الرابع من نيسان/أبريل ١٩٢٠ إلى موجة من العنف سقط فيها ضحايا من اليهود والعرب. وفوجئ البريطانيون بحدة الاحتجاجات العربية وحاولوا توقيف زعماء الشبكة بمن فيهم الحسيني. أنظر Philip Mattar, The Mufti of Jerusalem: Al-Hajj Amin al-Hussayni and the Palestinian National Movement (New York: Columbia University Press, 1988), 15-17.

(٢) عيّنت الإدارة البريطانية في فلسطين لجنة من الأعيان المسلمين لانتخاب مفتي القدس. اختير أربعة مرشحين توجب على اللجنة انتقاء الثلاثة الذين يحوزون أكبر عدد من الأصوات. وقد تم بالفعل استبعاد الحسيني (Mattar, Mufti, 25).

لاستخدام نفوذه السياسي لإقناع السير هربرت صموئيل بتعيين الحسيني مفتياً»[١]. وما يثير القدر نفسه من الاهتمام هو ادعاء هذين المؤلفين أن «من جاء بريتشموند، الموظف البريطاني الرسمي الصغير السابق في القاهرة، إلى القدس هو عشيقه القديم ومعلّمه السير رونالد ستورز الحاكم البريطاني المنتدب على فلسطين»[٢].

لا يوجد دليل واف يدعم مثل هذه المزاعم المشينة. ويستند دالين وروثمان في نظريتهما إلى إشارة وحيدة في دراسة لإيلي قدوري يعلن فيها أن ريتشموند وستورز تقاسما بيتاً واحداً في القدس – كما سبق لهما وتقاسما الشقة نفسها في القاهرة.[٣] وفي ما عدا ذلك لم يقدّم قدوري المزيد من الوضوح في العلاقة بين ريتشموند وستورز، وهو لا يقدّم بالتأكيد أي تعليق حول أي علاقة مثلية ثلاثية تضمّ الحسيني وريتشموند وستورز. بيد أن قدوري يصرّح بأن تدخل ريتشموند لدى صموئيل كان حاسماً وضَمَن عملياً تعيين الحسيني.[٤]

ربما جاء زعم دالين وروثمان بوجود علاقة مثلية رداً على الشكوك الواسعة في أن يتم انتخاب شخص مثل الحسيني لا يتمتع بالأهلية. فهو لم يمتلك لا علم ولا خبرة المنافسين الآخرين ممن كان يمكن لصموئيل أن يعينهم في منصب المفتي. واللافت بالقدر نفسه هو أن صموئيل يهودي وصهيوني فيما أظهر الحسيني بوضوح نزعاته المعادية للبريطانيين ولليهود. وتتعذّر الإجابة عن السؤال عن سبب قيام شخص له قناعات صموئيل حتى في النظر في مثل هذا الخيار السيّىء من حيث مدى علاقة الأمر بالمصالح البريطانية والصهيونية. ويتكهّن قدوري بأن اختيار الحسيني ناتج من التوقيت ومن التدخل الحاسم الذي قام به ريتشموند. ويعتبر فيليب مطر، من ناحية

(١) David G. Dalin and John F. Rothmann, Icon of Evil: Hitler's Mufti and the Rise of Radical Islam (New York: Random House, 2008), 21.

(٢) المصدر السابق. بحسب قدوري Kedourie, Chatham House, 63 كان ريتشموند يذوي في «لجنة قبور الحرب الإمبريالية» عندما نُقل إلى القدس بفضل ستورز.

(٣) Dalin and Rothmann, Icon of Evil, 21.

(٤) Kedourie, Chatham House, 65.

أخرى، أن عائلة الحسيني احتكرت منصب المفتي منذ القرن السابع عشر وأضفى ذلك بالتالي على الحسيني الشرعية الدينية.(١)

ثمة احتمال آخر وهو أن الإنكليز عيّنوا الحسيني عن مكر بسبب أوجه قصوره بالتحديد. فافتقاره إلى المقدرة والمؤهلات مقروناً بتاريخ آل الحسيني يجعله المرشّح المثالي للتلاعب به.(٢) ويزخر تاريخ السياسة الاستعمارية البريطانية بمبدأ الحكم من خلال زعماء محليّين مطواعين. وثبّت البريطانيون الحسيني مفتياً، وليس مفتياً أكبر، لاحتوائه ولم يسلّموه خطاباً رسمياً بالتعيين.(٣) وعيّن صموئيل الحسيني، علاوة على ذلك، رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى الذي يسيطر على المدارس الدينية ودور الأيتام والمحاكم الشرعية والجوامع وصناديق الأوقاف، مما أعطى الحسيني سلطة عظيمة على الشؤون الإسلامية في فلسطين.

وهناك عامل إضافي واحد قد يقدّم الدليل على نظرية أن البريطانيين اعتقدوا أن في وسعهم التلاعب بالحسيني، وذلك، بحسب رشيد الخالدي، من خلال إعادة تكوين منصب المفتي ليستوعب مصالح السلطة المنتدبة. وعمد البريطانيون أولاً إلى تغيير لقبه إلى المفتي الأكبر في فلسطين (في مقابل مفتي القدس)؛ وكان المنصب الجديد، على الرغم من أهمّيته، محدوداً في الجغرافيا والنفوذ. ولم يمتلك مفتي القدس، قبل تعيين الحسيني، أي سلطة على المفتين الآخرين في فلسطين.(٤) وبموجب شروط هذا الترتيب الجديد، فإن لقب مفتي فلسطين الأكبر والسلطات الممنوحة للمنصب الذي أعيد تكوينه، مقروناً بمنصب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، أعطى صاحب هذا المنصب سلطاناً كبيراً وسيطرة على حياة الفلسطينيين.

(١) Mattar, Mufti, 24-26. يشير مطر إلى عدم وجود دليل توثيقي يدعم تأكيد قدوري بأن تدخل ريتشموند أثر من صموئيل.

(٢) يزعم آل الحسيني أنهم متحدّرون من الأرستقراطية العربية في أيام محمد، وقد تولوا، مع بعض الاستثناءات، هذا المنصب منذ القرن السابع عشر (Mattar, Mufti, 24).

(٣) Mattar, Mufti, 27.

(٤) Khalidi, Iron Cage, 56.

وهكذا إذا تمكّن البريطانيون من التلاعب بالمفتي فسيتمكنون من أن يمارسوا من خلاله درجة أكبر من السيطرة على المسلمين في أنحاء فلسطين.

أثبت الحسيني، بغضّ النظر عن كل هذه النظريات، أنه خيار كارثي على البريطانيين وتسبب لهم بمصاعب لا تنتهي. وقد حرّض على عدد كبير من أعمال الشغب والثورات؛ وتعاون في نهاية الأمر مع النازيين وأمضى معظم الحرب العالمية الثانية في برلين حيث حظي بسمع الفوهرر الألماني نفسه وحمايته. وعاد في نهاية الحرب إلى نقطة البداية حيث استخدمه البريطانيون مرة أخرى. وها إن الحسيني يصبح، في هذه الأثناء، محفّزاً آخر للإسلام السياسي وكان مسؤولاً، ربما أكثر من أي أحد آخر، عن تحويل قضية الفلسطينيين إلى روح الشعب لكل من القوميين العرب والمناضلين الإسلاميين.

كانت ثورة ١٩٣٦ العربية بقيادة الحسيني في فلسطين أكثر من انتفاضة في ما تعلّق بكل من أمدها (١٩٣٦-١٩٣٩) ووقعها على العروبة ومصر.(١) كما أن رغبة الفلسطينيين في التحرر من الحكم البريطاني امتدت إلى خارج تخوم فلسطين وتجلّت في قضية اعتنقها القوميون العرب والمناضلون المسلمون إضافة إلى الأناس العاديين في الشرق الأوسط.(٢) وغرق الكفاح الفلسطيني في النهاية بالفعل في بلاغة العروبيين والمناضلين المسلمين كما في بلاغة التنظيمات الراديكالية والثورية في الغرب.(٣)

مثّلت الثورة الفلسطينية المناسبة الأولى لإخضاع الإخوان المسلمين الكثيرين من أعضائهم لمعمودية الدم. وأدت الأزمة التي استمرت ثلاث سنوات وانتهت بهزيمة الفلسطينيين إلى تطرّف جيل كامل من العرب وولدت مفهوم مصر بوصفها

(١) Harris, Nationalism, 178-79; Mitchell, Society, 16.

(٢) Dawisha, Arab Nationalism, 108.

(٣) بل إن الراديكاليين الغربيين والشرق أوسطيين تعاونوا في إحدى المناسبات في عملية مشتركة. ففي ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٧٦، خطف اثنان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين-العمليات الخارجية بمعاونة ألمانيين اثنين، ويلفريد بوز وبريجيت كولمان، من الخلايا الثورية الألمانية، الرحلة ١٣٩ للخطوط الجوية الفرنسية.

المدافعة عن حقوق جميع العرب، وأوحت في النهاية بإنشاء جامعة الدول العربية في القاهرة في ٢٢ آذار/مارس ١٩٤٥. وأدى بالتالي عمل الاخوان المسلمين في فلسطين إلى ترقية التنظيم من كونه تنظيماً على هامش المجتمع إلى تنظيم متقارب مع النخب السياسية المصرية السائدة.[١]

مثلت ثورة ١٩٣٦، بالنسبة إلى المفتي، بداية رحلة العمر من الهرب والاختباء، بينما يشنّ في غضون ذلك كله حرباً لا هوادة فيها على البريطانيين. غير أنه، وبحلول تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦، أصبح الحسيني وغيره من الزعماء العرب أكثر استرضاء وكادوا يتوصلون إلى اتفاق مع البريطانيين لإنهاء التمرد. سوى أن الحسيني دان لجنة بيل، التي شُكّلت لبحث الأسباب التي أدت إلى نشوب العنف، بعدما أوصت بتقسيم فلسطين، وتعهّد الحسيني، في ٨ تموز/يوليو ١٩٣٧، بمواصلة مقاتلة البريطانيين والصهاينة.[٢]

(١) Harris, Nationalism, 179.

(٢) دعا الاقتراح إلى تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء: يحتفظ البريطانيون بالقسم الذي يضم الأماكن المقدسة بما في ذلك القدس وبيت لحم؛ وتُنشأ دولة يهودية في الجليل؛ ويتم توحيد ما تبقى من فلسطين مع شرق الأردن في دولة واحدة يحكمها ربيب بريطانيا عبدالله بن الحسين.



١١

التحالف العسكري البريطاني-اليهودي

«أسمال، سوء حال، فقر وقذارة، علامات ورموز تشير إلى وجود حكم إسلامي بتأكيد أكبر مما يشير إليه وجود راية الهلال نفسها».

ـ مارك تواين[1]

تركت تشكيلة غريبة وعجيبة من الشخصيات، بمرور آلاف السنين، أثرها في أرض فلسطين المخضّبة بالدم. بعضهم من الأنبياء، وغيرهم من القدّيسين، العرّافين، المتشردين، المشعوذين، الإنجيليين، المُرسلين، المتعصّبين، الحجّاج؛ سوى أن الغالب الأعظم كانوا من الجنود الذين صمّموا على أن ينتزعوا من التاريخ نسختهم عن الأراضي المقدسة. أما بالنسبة إلى الآخرين ففلسطين كانت، ولا تزال، أرضاً للمخيلة الدينية. فعلى مدى القرن التاسع عشر، عرضت آلاف الكتب، وأدلّة السفر، والتواريخ، والمذكرات، والروايات المنشورة في أميركا الشمالية وأوروبا نسخة ذات صبغة غربية عن فلسطين بوصفها أرض الكتاب المقدس. وصاغت المفاهيمُ الغربية للمنطقة مفهومَ فلسطين بوصفها أرضاً مقدسة مسيحية، وفلسطين بوصفها وطن اليهود.[2] وتصوّر، في غضون ذلك، ملايين المسلمين فلسطين، خصوصاً بعد ١٩٤٨، بوصفها مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بإيمانهم وقد فقدها الإسلام. وساهم هؤلاء الأشخاص الفريدون في نوعهم، وبغض النظر عن انتمائهم الديني أو هويتهم القومية، في الأسطورة التي صاغت إرث المنطقة.

---

(1) Mark Twain, The Innocents Abroad (Mineola, NY: 2003), 559.

(٢) Kathleen Christison, Perceptions of Palestine (Berkeley: University of Californian Press, 1999), 17.

من بين هذه الشخصيات، في ١٩٣٨، أحد الحجّاج العسكريين واسمه أورد تشارلز وينغايت. وقد حار المارة الذين يجتازون من حين إلى آخر حقول الجليل المنبسطة وبساتينه لملاحظتهم ضابطاً بريطانياً ملتحياً يعتمر قبعة من القش ويلبس جوارب غير متناسقة ويتدلى مسدّسان من على خصريه، وهو يقود فرقة غير منظّمة من المقاتلين اليهود وحفنة من الجنود البريطانيين.[1] وهو، بحسب أحد المراقبين، موشي شرتوك، «يبدو كرجل يلتهمه نوع من النار الداخلية، مدمن فكرة واحدة تأسر مخيلته»[2]. أما المؤرّخ البريطاني العسكري البارز بازيل ليدل هارت فوصف وينغايت بأنه نوع من لورنس اليهود.[3] وأصبح صهيونياً متحمّساً إلى درجة أكسبته لقب «هايديد،» أو «الصديق»[4].

بيد أنه توجب على خلفية وينغايت أن تؤهله لأن يكون ميالاً إلى العرب كما هي الحال مع بعض عناصر الجيش البريطاني. فابن عم وينغايت السير ريجينالد، على سبيل المثال، وفي تباين صارخ مع قناعات الأخير الصهيونية الراسخة، كان مفوضاً سامياً سابقاً يعتقد بأن اليهود جرّوا الأمبراطورية العثمانية إلى الحرب ضد البريطانيين.[5] وُلد وينغايت في الهند، وهو ابن لضابط استعماري، وسار على خطى أسلافه وانخرط في الحياة العسكرية. التحق وهو شاب بإحدى المدارس المرموقة وتطور لديه منذ الباكر اهتمام بالقضايا العربية. وصل في ١٩٣٦ إلى فلسطين بوصفه

(١) اشتهر وينغايت بكونه غريب الأطوار. وغالباً ما يضع ساعة منبهة حول معصمه ينطلق منبهها، ويجول في المكان وبصلة نيئة تتدلى من عنقه يقضم منها لتناول وجبة خفيفة. وكان، من وقت إلى آخر، يجول في المكان من دون أي ثياب. وتعود المجندون رؤيته، مثلاً، وهو يخرج من الحمّام ولا يرتدي إلا غطاء للرأس وهو يواصل حف جسمه بالليفة ويصبح معطياً الأوامر. أنظر Charles McMoran Wilson, Churchill: Taken from the Diaries of Lord Moran (Boston: Houghton Mifflin, 1966).

(٢) Tom Segev, One Palestine Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate (New York: Henry Holt, 1999), 429.

(٣) من ليدل هارت إلى تشيرشل في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، أرشيف الهاغاناه ٥/٦٩/٨٠.

(٤) John Bierman, Fire in the Night: Wingate of Burma, Ethiopia, and Zion (New York: Random House, 1999), 64-66.

(٥) Trevor Boyle, Orde Wingate: Irregular Soldier (London: Weidenfeld & Nicolson, 1995), 98.

ضابط استخبارات وأصبح مهووساً بالصهيونية.[١] شكّل وينغايت، الذي اشتهر بغرابة الأطوار، ورجاله الفرقة الليلية الخاصة وهي بالفعل واحدة من أولى وحدات القوات الخاصة. كانت الانتفاضة العربية في ١٩٣٦ قد توسّعت سريعاً لتتحوّل إلى تمرّد كامل واحتاج البريطانيون يائسين إلى قوات دعم. فنظّم وينغايت قوته النخبوية المؤلفة من عناصر مكافحة التمرد لتفريق رجال حرب العصابات العرب وإرهابهم وفي الغالب قتلهم في كمائن ليلية. وضمّت الفرقة الليلية الخاصة أربع فصائل تضمّ نحو مئتي جندي، مئة وخمسون منهم من اليهود وقد شكّل الجليل مسرحاً لعملياتها. قضت مهمة الفرقة ظاهرياً بحماية خط أنابيب النفط العراقي، غير أن مهمتها الأساسية كانت مواجهة الإرهاب بالإرهاب.[٢]

وضعت تكتيكات وينغايت، في نهاية الأمر، الخطوط التوجيهية للجيش الإسرائيلي والإطار الأساسي لتنظيم ونشر القوات الخاصة الإسرائيلية. وجاء في منشور أصدرته وزارة الدفاع الإسرائيلية أن «مذهب أورد وينغايت وشخصيته وقيادته شكّلت حجر الزاوية للكثيرين من قادة الهاغاناه، وتُمكن ملاحظة تأثيره في العقيدة القتالية لجيش الدفاع الإسرائيلي»[٣].

لم يتوقف التعاون الأمني البريطاني مع المقاتلين اليهود عند التدريب والتجهيز والدعم اللوجيستي، بل تضمن الاستخبارات والعمل التجسسي. ووفّرت الهاغاناه أيضاً يهوداً يتحدثون العربية أثبتوا أنهم يمثّلون دعماً كبيراً للبريطانيين بما أن سلطة الانتداب افتقرت إلى ضباط ورجال يتقنون اللغة.[٤] ومثّل مؤيدون ملتزمون للصهيونية من أمثال وينغايت استثناء. فالتعاون البريطاني-اليهودي في فلسطين ارتكز على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أنجزت شركة النفط البريطانية العراقية خط الأنابيب في ١٩٣٥.

(٣) Mordechai Naor, Lexicon of the Haganah Defence Force (Tel Aviv: Ministry of Defence, 1992), 140.

(٤) Gudrun Kramer, A History of Palestine: From the Ottoman Conquest to the Founding of the State of Israel (Princeton: Princeton University Press, 2002), 291.

المصلحة الخاصة رداً على التمرّد العربي في ١٩٣٦ الذي قضى على أي احتمال بالتسوية المتعلقة بالتعايش بين اليهود والعرب والبريطانيين في فلسطين.

لم يتمكن البريطانيون من إيجاد الآلية لموازنة مخاوف العرب من الهجرة اليهودية والشراء المتزايد للأراضي، بالرغم من أن العشرينيات من القرن العشرين كانت، مع بعض الاستثناءات، هادئة نسبياً.[1] وفاقمت في الثلاثينيات من القرن العشرين سياسات بولندا المعادية للسامية والاضطهاد الجماعي لليهود في ألمانيا النازية من مسألتي الأرض والهجرة، إذ إنها أدت إلى زيادة كبرى في عدد اليهود اللاجئين الذين يضغطون على شواطئ فلسطين.

تميّز تمرّد ١٩٣٦ بأنه مسألة متعددة الأوجه ولا تحرّكها بالضرورة القومية أو الدين حصراً، إلا أنه كان له وقع حاسم على مستقبل العرب الفلسطينيين. فالبريطانيون عمدوا، منذ بدء الانتداب، إلى تشجيع الدين ودعموا المؤسسات التقليدية كوسيلة لمواجهة القومية. وأوجدوا، في هذا الشأن، سابقة للأميركيين الذين اتبعوا السياسة نفسها في القرنين العشرين والواحد والعشرين وحاولوا أيضاً استخدام الإسلام لمواجهة مصر عبد الناصر وسلّحوا في ١٩٧٩ المجاهدين ودرّبوهم لمواجهة النظام العلماني الموالي للسوفيات في أفغانستان.

حاول مسؤولو الانتداب في فلسطين إبعاد زعامة الفلسطينيين عن القومية من خلال إعادة تكوين المؤسسات، مثل منصب المفتي، ومن خلال إنشاء المجلس الإسلامي الأعلى. وقد عيّن البريطانيون الحاج أمين الحسيني اعتقاداً منهم أنه لن يعارض الانتداب، وأن من شأن هذا الموقع، إلى جانب المجلس الإسلامي الأعلى،

(١) اندلعت في ١٩٢٩ اشتباكات كبرى بين اليهود والعرب في شأن استخدام الحد الفاصل والطاولات والكراسي عند حائط المبكى، وقد أشعلتها نظريات المؤامرة المتفرقة التي ادعت أن اليهود يخططون لإعادة بناء هيكل سليمان، وقد أدت هذه الاشتباكات إلى تحطيم السلام المؤقت في عشرينيات القرن العشرين. وقُتل أكثر من ٢٥٠ شخصاً، ١٣٣ يهودياً و١١٦ عربياً، في القتال الذي استمر أسبوعاً، كما جُرح ٥٧٠. أنظر Kramer, Palestine, 232.

تقويض بروز زعامة سياسية قومية وعلمانية.[١] غير أن تمرّد ١٩٣٦ أدى إلى تسييس المسألة الفلسطينية وتدويلها وأعاد هيكلة زعامة العرب الفلسطينيين.

الفتيل الذي أثار تمرد ١٩٣٦ اشتعل مساء ١٥ نيسان/أبريل ١٩٣٦ عندما أقامت مجموعة من المسلحين العرب حاجزاً على مقربة من بلدة طولكرم كمنت فيه للعابرين اليهود وللقوافل البريطانية ولانتزاع التبرعات من السائقين العرب. وأطلقوا النار في هذه المناسبة على ثلاثة سائقين يهود فقُتل أحدهم على الفور، والثاني بعد ذلك بخمسة أيام، أما الثالث فنجا.[٢] وسرعان ما اندلعت زوبعة الانتقام والعقاب بين اليهود والعرب والعرب المسيحيين. وقَتل عناصر من المنظمة الراديكالية الصهيونية، هاإرغون هاتزفاي هالئومي بيسرائيل (التنظيم العسكري القومي)، اثنين من العرب في منزل على مقربة من مدينة بتاح تيكفا. وبعد ذلك بأيام نفست زمر من القرويين العرب عن غضبها بفورة هيجان في يافا فقتلوا تسعة يهود وجرحوا ستين آخرين. وقد حرّض أعيان مسلمون الجماهير بنشرهم شائعات بأن اليهود قتلوا امرأة عربية وعدة عمّال سوريين.وفي الفترة الممتدة بين ١٩ نيسان/أبريل والواحد والعشرين منه فرّخت اللجان الوطنية للإضراب في كل بلدة عربية تقريباً من غزة إلى نابلس. وفي خلال الصيف، تشكّلت مجموعات مسلحة في الريف، وخصوصاً في المناطق القروية في وسط وشمال فلسطين. وانتشر العنف سريعاً وشلّت الإضرابات العمالية مدناً عديدة.[٣]

لم يكن البريطانيون على ما يكفي من الاستعداد للتعامل مع التمرد لكونه افتقر إلى مركز ثقل جغرافي أو زعامي. وقد حرّكت التمرد بالفعل قوى محلية وإقليمية ولم يُوجّه من فوق. بذل المفتي والأحزاب السياسية القائمة جهدهم للإمساك بزمام

(١) Khalidi, Iron Cage, 57-58. يعتبر الخالدي أن البريطانيين اعترفوا باليهود بوصفهم كياناً سياسياً أو وطنياً فقط، وحاولوا بالتالي تقسيم الفلسطينيين العرب وإلهاءهم حتى لا يتوحدوا في كيان قومي ضد الانتداب.

(٢) Benny Morris, Righteous Victims: A History of Zionist-Arab Conflict, 1881-2001 (New York: Vintage, 1999), 128.

(٣) Kramer, Palestine, 271.

الأحداث، لكن الزعامة العربية بقيت مجزأة.[١] فمنذ بداية الانتداب والمجتمع العربي تمزقه الفئوية والمنازعات المحلية بين مختلف الأعيان – وهو وضع استغله البريطانيون من دون تردد، لكنه لم يعد عليهم بالكثير من النفع في تمرد ١٩٣٦ بما أن الانتفاضة ارتكزت على القاعدة الشعبية.[٢]

أدت التخفيضات، بعد ١٩٣٠، إلى بقاء كتيبتي مشاة وسرب من الطائرات العائدة إلى سلاح الجو الملكي في تصرف سلطة الانتداب. وجاء رد البريطانيين في البداية مكبوحاً انطلاقاً من المفهوم الخاطئ بأن العنف سيخبو سريعاً. إلا أن أسابيع الانتفاضة الأولى طغت على القوات البريطانية فاستُقدم عشرون ألف جندي إضافي من مصر وبريطانيا. إلا أن مناطق فلسطين الريفية، وبالرغم من هذا الدعم، أصبحت بحلول حزيران/يونيو ١٩٣٦ تحت سيطرة فرق رجال حرب العصابات المسلحة ولم يحتفظ البريطانيون بالسلطة إلا على المدن.[٣]

توقف العنف في أيلول/سبتمبر ١٩٣٧ بعد تدخل من الزعماء العرب في السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن.[٤] غير أن السلام لم يعمّر طويلاً لأن العرب لم يقبلوا توصيات لجنة «بيل» الملكية التي تقبّلها اليهود. فقد أوصت اللجنة الملكية بإنهاء الانتداب وتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ومنطقة عربية، على أن تتضمّن المنطقة العربية ٧٠ بالمئة من أراضي الانتداب شرط أن تضمّ إلى شرق الأردن؛ ولن يُخصص إلا ٢٠ بالمئة للدولة اليهودية، وستبقى العشرة بالمئة الممتدة من يافا إلى القدس تحت الانتداب البريطاني الذي سيعاد تحديده.[٥] ردّت الزعامة اليهودية بدعم مُتحفّظ فيما دان العرب رسمياً اقتراحات اللجنة وطالبوا بإنشاء دولة عربية تضم فلسطين بأسرها.

---

(١) أنشأ أعضاء في الأحزاب السياسية في ٢٥ نيسان/أبريل اللجنة العربية العليا برئاسة المفتي.

(٢) Khalidi, Iron Cage, 65-73.

(٣) Morris, righteous Victims, 131-32; Kramer, Palestine, 274.

(٤) بيد أن الدافع الأول لهؤلاء الزعماء العرب كان اقتصادياً. فنشوب الحرب الأهلية الإسبانية وضع حداً للمنافسة بشأن ثمار الحمضيات الفلسطينية وبات موسم القطاف على الأبواب. وارتفعت الأسعار جداً في ظل الظروف الراهنة. أنظر Kramer, Palestine, 278.

(٥) المصدر السابق، ص. ٢٨٠-٨١.

عبأت توصيات لجنة بيل، عن غير قصد، الرأي العام العربي ليس في فلسطين وحسب بل في أنحاء العالم العربي كافة أيضاً. واستؤنف التمرّد بشراسة متجددة، إذ إن البنى التحتية العربية ومقدرتها على شن حرب العصابات لم تُمس بالرغم من عمليات القمع البريطانية الواسعة والقاسية. فقد فشل البريطانيون في خلال السنة المنصرمة في تدمير زمر حرب العصابات العربية أو نزع سلاحها. وفي هذه الحالة صبّ فقدان الوحدة العربية في مصلحة المتمردين. فكلما تمكن البريطانيون من القضاء على زمرة معينة من المقاتلين سارعت واحدة أخرى إلى الحلول محلها. ولم يعط غياب القيادة المركزية والبنى التحتية للإنكليز فرصة ضرب قلب التمرد.

امتلك العرب، من ناحية أخرى، ميزة مهاجمة أهداف ثابتة وأهداف ظرفية - مخافر الشرطة، منظومة السكة الحديد، الطرق، خطوط الهاتف والتلغراف، خطوط أنابيب شركة النفط العراقية، والقوافل البريطانية التي تحاول إيصال الإمدادات إلى المراكز المعزولة. ونشر العرب قناصة تمركزوا في مواقع استراتيجية تُمكّنهم من إطلاق النار على الدوريات والآليات والمارة المدنيين.[1] وأدت الاغتيالات التي استهدفت العرب المعتدلين إضافة إلى الأشخاص العاملين مع سلطة الانتداب إلى وقف التعاون وأبقت الوجود البريطاني مقتصراً على المدن والبلدات. وعلى سبيل المثال اغتال مسلحون عرب في ٢٦ أيلول/سبتمبر لويس ي. أندرو مفوض محافظة الجليل بالوكالة. وقد شنّ المتمردون العرب في سياق ١٩٣٧ ما مجموعه ٤٣٨ هجوماً، ١٠٩ منها ضد الجيش البريطاني وقوات الشرطة، و١٤٣ على المستوطنات اليهودية، فيما استهدفوا في ما تبقى عرباً آخرين. وقُتل ٩٧ شخصاً وجرح ١٤٩.[2]

ضاعف البريطانيون، الذين واجهوا تمرّداً مُتوسّعاً ومنتشراً، من تعاونهم مع الفلسطينيين اليهود. وتلقى البريطانيون نتيجة ذلك الكثير من المعلومات الاستخبارية عن النشاطات العربية من جهاز استخبارات الهاغاناه - شيروت

(١) المصدر السابق، ص. ٢٧٦.

(٢) Morris, Righteous Victims, 144-45.

يديعوت (جهاز المعلومات) ـ الأكثر اطلاعاً في مقابل تنازلات لمحاولات الهاغاناه التوسع عسكرياً.[1] وأنشأ البريطانيون أيضاً وحدات عسكرية خاصة لحماية المدنيين اليهود وللقيام بعمليات مشتركة ضد العصاة العرب. وتضمنت إحداها فرقة «نوديدوت» وهي قوة نخبوية ومتحرّكة في شرطة المستوطنات التابعة لقوة الشرطة اليهودية الخاصة، وتدعى «نوطريم» أو الحرس. وكان كل فرد تقريباً من أفراد «نوطريم» منتمياً إلى الهاغاناه، وبالتالي حظيت «نوديدوت» بقائد «غير شرعي» من الهاغاناه إضافة إلى سلسلة الرتب الرسمية البريطانية.[2] واستخدمت الهاغاناه التدريب البريطاني لتطوير «نوديدوت» لتصبح الوحدة الأولى التي تنشئ التقليد الطويل القاضي باستخدام القوات الخاصة غير التقليدية التي أدت دوراً حاسماً وذا شأن في التاريخ العسكري الإسرائيلي.[3] وكانت الفرقة الليلية الخاصة هي الوحدة الأخرى للعمليات العسكرية المشتركة وقد أنشأها أورد وينغايت في ١٩٣٨.

نصبت الفرق الليلية الخاصة كمائنها الليلية للمقاتلين العرب من ١٩٣٨ إلى ١٩٣٩. ومع مطلع ١٩٣٨، قاد وينغايت ليلاً، من دون إذن من رؤسائه، دوريات صغيرة من جنود الهاغاناه من كيبوتز حانيتا المحاصر في جهد منه لتحريض المقاتلين اليهود على المضي «إلى ما هو أبعد من السياج» وتحويل ذهنيتهم الدفاعية إلى ذهنية هجومية.[4] واشتملت هذه الدوريات على أول أعمال غير رسمية لما سيصبح

(١) Haggai Eshed, Reuven Shiloah-The Man Behind the Mossad: Secret Diplomacy in the Creation of Israel, trans. David and Leah Zinder (Portland: Frank Cass, 1997), 32.

(٢) كان إسحق صاده واحداً من هولاء القادة، وقد أصبح لاحقاً قائداً للبلماخ؛ ومن بينهم أيضاً موشي دايان وإيغال ألون. أنظر Samuel Katz, Israeli Elite Units Since 1948 (Oxford: Osprey, 1988), 3.

(٣) انتقى إسحق صاده أيضاً أفضل مقاتلي «نوديدوت» وغيرها من القوى المتوافرة للهاغاناه لإنشاء أول وحدة كوماندوس تابعة للهاغاناه، وهي «بلوغوت صاده». وبما أن حرف «صاده» بالعبرية يعني أيضاً الحقل، فإنه يمكن أيضاً أن يطلق على هذه الوحدة اسم «كتائب الحقول»، إضافة إلى «كتائب صاده». وقد ضمّت قوة ضاربة شبه مستقلة سيصبح في إمرتها، بحلول ١٩٣٨، أكثر من ١,٥٠٠ مقاتل حسني التدريب شنوا غارات صاعقة على أهداف عربية معادية. أنظر Katz, Elite, 3.

(٤) Bierman, Fire, 83.

لاحقاً الفرقة الوحيدة الأكثر فاعلية في مكافحة التمرد التي استخدمها البريطانيون دوماً ضد المتمرّدين العرب في فلسطين.

وافقت القيادة العليا البريطانية، في ربيع ١٩٣٨، على اقتراح من ١٧ صفحة قدمه وينغايت للاعتراف بالفرق الليلية الخاصة بوصفها وحدة أنكلو - يهودية مشتركة تُنشر «لإقناع العصابات بأنها تواجه في غاراتها الكاسحة كل احتمال اصطدام بعصابة حكومية مصمّمة على تدميرها ليس من خلال تبادل إطلاق النار عن بعد بل بهجوم متقارب بوساطة الحراب والقنابل»[١]. نجحت الفرق الأنكلو - يهودية، المتمركزة في ثلاث مستوطنات يهودية شمالية،[٢] في الكمون لغالبية الهجمات العربية على خط أنابيب حيفا وتمكّنت من إنهاء الحصار على كيبوتز حانيتا.[٣]

وسّعت الفرق الليلية عملياتها في العاشر من تموز/يوليو ١٩٣٨ وتقدّمت صوب الدبورية، وهي بلدة صغيرة عند سفوح جبل طابور، على بعد نحو ثمانية كليومترات جنوب شرق الناصرة، ردّاً على هجمات المتمرّدين على الناصرة. وضمّت قوة وينغايت ٣٢ جندياً بريطانياً و٥٥ مقاتلاً يهودياً، أي نحو نصف الفرق الليلية الخاصة. وسبق له أن تحرّك في الحادي عشر من تموز/يوليو صوب بلدة عين ماهل ووجدها خالية من المتمردين فتوجه إلى الدبورية المجاورة. وفقد رجال وينغايت عنصر المفاجأة في خراج الدبورية بعد تبادل إطلاق النار مع اثنين من الحراس العرب، وأمضوا الساعات الكثيرة التالية في تبادل النار مع المتمرّدين إلى أن اختفى رجال حرب العصابات العرب في التلال المجاورة.

ومن سوء الحظ أنه وفي غمرة الفوضى – فرق متعددة تطارد رجال العصابات الهاربين – أطلقت إحدى وحدات القوة الليلية النار على وينغايت وعدد من رجاله بعدما تعذر تمييز أطيافهم ليلاً من أطياف العدو. أصيب وينغايت خمس مرات في أطرافه من جراء الرصاص المرتد فيما أصيب أحد العناصر اليهود بعدة طلقات في

(١) المصدر السابق، ص. ٨٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٩٠.
(٣) المصدر السابق، ص. ٩٨.

بطنه ومات بعد وقت قصير على ذلك. واستذكر أحد الضباط الإنكليز في الفرقة الليلية أنه «بالرغم من أن وجه وينغايت شحب حتى ابيضّ كالملاءة وأصبح مشدوداً، فإنه جلس هناك في التبن وهو مغطى بالدماء يصدر الأوامر بهدوء بالإنكليزية وبالعبرية....كان رجلاً استثنائياً إلى حد بعيد». واستذكر زفي برينر، القائد اليهودي لإحدى الفرق، كيف أن وينغايت رفض، بالرغم من جروحه، المغادرة إلى أن اطمأن إلى سلامة جميع رجاله: «بدا شاحباً جداً وخائفاً ومشفقاً على نفسه. فقد كان يكره الألم وأول ما قاله لي هو: 'آمل ألاّ أموت بسببكم. فقد رفضت المغادرة إلى أن أيقنت أنكم جميعكم بخير. والآن انقلني إلى المستشفى بسرعة'»[1].

تبع ذلك المزيد من العمليات الناجحة قتلت فيها الفرق الليلية أعداداً كبيرة من مقاتلي حرب العصابات العرب فيما لم تمن تقريباً بخسائر في صفوفها. وربما مثّل رد وينغايت السريع على مجزرة ارتكبت، في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر، في حق ١٩ يهودياً (بينهم ١١ طفلاً) في طبريا أكثر هذه العمليات إثارة. تمكّنت الفرق الليلية التي هرعت إلى المكان من قتل ما بين أربعين وخمسين مقاتلاً عربياً من دون أن تكابد أي خسائر. وفضلاً عن ذلك، وفي خلال عملية تمشيط بعد ذلك بيومين في بلدة الدبورية المنذرة بالسوء، اتصل وينغايت لاسلكياً بسرب سلاح الجو الملكي المحلي لتوفير الدعم الجوي التكتيكي – في منحى تفكير خارج عن المألوف وابتكاري بالنسبة إلى ١٩٣٨. تشجّع وينغايت بنجاحه فكثّف من برنامجه التدريبي في عين هيرودس وشرع هناك أيضاً في مدرسة للضباط اليهود التي لن تتخرج فيها إلا دفعة واحدة في مطلع تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨.[2] إلا أنه أخذ في الوقت نفسه يزداد غرابة مطلقاً لحيته ومعتمراً قبعة قديمة من القش. وظهر في إحدى المناسبات في حفلة في ردهة إحدى السفن في حيفا ببزة قتال قذرة يحمل فوق

(١) حققت العملية نجاحاً كبيراً بالرغم من كارثة النيران الصديقة هذه: قُتل ما لا يقل عن تسعة متمردين عرب – وضعت تقديرات وينغايت الشخصية الرقم عند ١٥ قتيلاً وما لا يقل عن عشرين جريحاً – في مقابل قتيلين وخمسة جرحى للفرقة الليلية الخاصة. وقد مُنح وينغايت وسام الخدمة المتميزة على أعماله. أنظر Bierman, Fire, 98-103.

(٢) المصدر السابقن ص. ١٠٧، ١١٥-١٧.

إحدى كتفيه حقيبة تحتوي على رمّانات يدوية.[١] وحمل هذا النجاح غير المسبوق والوحشي للفرقة الليلية الخاصة التي تضم الكثيرين من اليهود في ساحة الوغى نذير شر مستقبلي بالنسبة إلى المسؤولين البريطانيين في فلسطين.

أخذ التمرد العربي، في ربيع ١٩٣٩، في الخمود وقررت سلطات الانتداب تفكيك الفرقة الليلية الخاصة ونقل وينغايت إلى خارج فلسطين بعدما بخّرت نهاية الأزمة الاهتمام البريطاني بتسليح الصهاينة. وأعقبت انتصار الإنكليز على التمرد العربي في ١٩٣٦ موجة من تبادل الاتهامات بما يناسب كل طرف في عملية إدراك متأخر للأمور. وعبرت مجموعة من المسؤولين البريطانيين عن معارضتها «إلباس اليهود زي الجنود البريطانيين... ووجود نسبة من اليهود في سرايا الفرق الليلية الخاصة.» ونظر آخرون بنفور إلى تكتيكات كمائن الفرق الليلية الخاصة. واشتكى هاغ فوت، الذي سيصبح لاحقاً اللورد كارادون وآخر حاكم لقبرص، من أن الفرق الليلية «أفقدتنا سمعتنا العامة بأننا نقاتل قتالاً عادلاً»[٢].

أعيد في ١١ أيار/مايو ١٩٣٩ تشكيل وينغايت. وغادر فلسطين في ٢٦ أيار/مايو، بالرغم من أنه عرض الاستقالة من مهمته والبقاء في فلسطين بصفة غير شرعية لمساعدة القضية الصهيونية، ولن يعود إليها أبداً. وبلغ التعاون بين قوات الأمن البريطانية والطائفة اليهودية في فلسطين نهاية فجائية لكن متطلبات الحرب العالمية الثانية فرضت تجديد هذه العلاقة. نُقل وينغايت إلى بريطانيا وأصبح عند نشوب الحرب العالمية الثانية آمراً لمدفع مضاد للطائرات لكنه وفّر لنفسه بعد فترة وجيزة مركزاً في السودان.

ميّز نفسه في شرق إفريقيا باستخدام تكتيكات مشابهة لتكتيكات القوات الخاصة التي طوّرها في فلسطين، وبلغ الذروة في إنشاء قوة جدعون – مجموعة حرب عصابات تضم نحو ١,٧٠٠ من الجنود البريطانيين والسودانيين والأثيوبيين،

(١) المصدر السابق، ص. ١٠٨.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٢٥.

ودعا عدداً من قدامى القوة الليلية في الهاغاناه إلى الالتحاق به. حاربت قوة وينغايت الصغيرة بضراوة، في خلال حملة شرق إفريقيا، إلى أن استسلم لها في النهاية عشرون ألف إيطالي. لكن النصر لم يؤدّ إلى الترقية أو الاعتراف بجهوده. وأُرسل مرة أخرى إلى دياره في بريطانيا، ووصل في شباط/فبراير ١٩٤١ إلى بورما. وها هو من جديد ينظم قوات كوماندوس للضرب خلف خطوط العدو، وقد حقق بعض النجاح. ومن المأساة أن وينغايت طار في ٢٤ آذار/مارس ١٩٤٤ لتقويم وضع قوات الكوماندوس التابعة له في بورما، وفي طريق عودته سقطت طائرته وهي من طراز «بي-٥٢ ميتشيل» الأميركية في التلال المغطاة بالأدغال على مقربة من بيشنوبور في شمال غرب الهند فقُتل إلى جانب تسعة آخرين.[1] ومات عن واحد وأربعين عاماً.

مثّل نشوب الحرب في أوروبا فرصة لليهود لمساعدة إخوانهم اليهود من خلال الانضمام إلى القتال ضد النازيين، في الوقت الذي وضعت فيه الانتصارات السريعة للنازيين الإنكليز في وضع غير حصين فطلبوا المساعدة من كل حدب وصوب. غير أن التقرير البريطاني الصادر في ١٩٣٩ والذي حدّ بشدة من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، قد وتّر العلاقات بين الييشوف وسلطات الانتداب. والمؤكّد أن البريطانيين حرصوا على تفادي تجهيز وتدريب «جيش يهودي» سينتهي إلى تحدي الانتداب ويثير المعارضة العربية، وذلك بالرغم من استعداد الفلسطينيين اليهود للقتال ضد المحور. وجاء تصريح ديفيد بن غوريون (الزعيم الصهيوني) الشهير، «علينا أن نحارب ألمانيا كما لو أنه ليس هناك من كتاب أبيض، ونحارب الكتاب الأبيض كما لو أنه ليست هناك حرب»[2]، ليوجز السياسة الصهيونية. ومن ناحية أخرى، رفض البريطانيون رسمياً فكرة التعاون مع اليهود، لكنهم أقاموا بدلاً من ذلك علاقة سرية تحت رعاية أجهزة الاستخبارات البريطانية.

استسلم الفرنسيون في ١٩٤٠، وباتت مستعمراتهم في سوريا ولبنان تحت سيطرة

(١) John Masters, The road Past Mandalay (New York: Bantam, 1979), 217-29.

(٢) Eshed, Shiloah, 42-43.

نظام فيشي. وفي الشهر نفسه رمى زعيم إيطاليا بينيتو موسوليني بقَدَرِهَ مع أدولف هتلر وباتت فلسطين، بين ليلة وضحاها، تحت تهديد الغزو الإيطالي. وفي تأكيد لأزمة البريطانيين واليهود الجديدة في فلسطين قصفت الطائرات الإيطالية حيفا وتل أبيب.[١] وطلب البريطانيون، في أيلول/سبتمبر ١٩٤٠، مجندين من أي جنسية في فلسطين – تطوع ما يقارب ٩٠ ألف رجل وأكثر من خمسين ألف امرأة (من أصل ٦٥٠ ألف يهودي يعيشون في اليشوف) ـ للانخراط بصفات متنوعة.[٢] وبالرغم من أن التعاون مع البريطانيين يعني توفير اليد العاملة لبناء القواعد والطرق في مختلف أنحاء فلسطين والتجارة الصناعية مع الجيش البريطاني، فقد تم رفض الموافقة على مشاركة المتطوعين اليهود أو قبولهم في الجيش البريطاني.[٣] وقضى الإجماع الرسمي في الوايتهول بعدم إعطاء اليهود دوراً قتالياً في الحرب.

بيد أنه سبق للتعاون في النشاطات السرّية بين الاستخبارات البريطانية والوكالة اليهودية (التي تمثل المصالح اليهودية في فلسطين) أن بدأ منذ تموز/يوليو ١٩٤٠. وشُنت العمليات الدعائية في سوريا بمساعدة يهودية وقد وُضع جهاز إرسال راديو فرنسا الحرة في منزل ديفيد كوهين، وهو عميل رفيع المستوى في «شاي»[٤]، في حيفا. وأخذت، في الوقت نفسه، شبكة من العملاء في سوريا ولبنان يديرها ضابط استخبارات اليشوف طوبيا أرازي في توزيع المناشير الدعائية. ونُفّذت عمليات الدعاية هذه تحت إدارة اللواء إيلتيد كلايتون رئيس الاستخبارات العسكرية في مقرّ القيادة البريطانية في القاهرة.[٥]

---

(١) Ian Black and Benny Morris, Israel's Secret Wars: The Untold History of Israeli Intelligence (London: Hamish Hamilton, 1991), 35.

(٢) Jacques Derogy and Hesi Carmel, The Untold History of Israel (New York: Random House, 1979), 50.

(٣) Eshed, Shiloah, 45.

(٤) كان شيروت يديعوت (شاي)، جهاز المعلومات، الجهاز الأول لجمع الاستخبارات في المجتمع اليهودي منذ أواسط الثلاثينيات من القرن العشرين حتى إنشاء دولة اسرائيل في ١٩٤٨ حيث تم عندئذ ضمه إلى مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية.

(٥) Eshed, Shiloah, 48.

شرع جهاز تنفيذ العمليات الخاصة أيضاً في علاقة سرّية مع المنظمات اليهودية. وقد عمل رئيس الجهاز في القاهرة، السير جون بولوك، بالخفاء مع الوكالة اليهودية لإنشاء وحدات خاصة تضمّ مقاتلين يهوداً من الهاغاناه ممن يمكنهم العمل سرّاً وسط السكان العرب.(١) وقضت الخطة بإرسال هذه «المفرزة العربية» إلى سوريا ولبنان لجمع المعلومات الاستخبارية والقيام بأعمال تخريب في حالة احتلال الألمان لسوريا بعد استسلام الجيش الفرنسي في حزيران/يونيو.(٢) ومثّل هذا التعاون خطوة أولى ذات شأن بين الاستخبارات البريطانية والييشوف.

تألفت غالبية أعضاء المفرزة العربية (اليهود الذين يتكلمون العربية) من أشخاص أتوا من بلدان عربية ويمكنهم الاندماج في شكل فاعل مع السكان العرب الأصليين. تلقوا تدريبهم في مدرسة جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في جبل الكرمل، على مقربة من حيفا، وتعلّم أفراد المفرزة العادات العربية مثل الرقص والغناء والألعاب، مثل طاولة الزهر، وغير ذلك من الممارسات الثقافية، إلى جانب التدريب العسكري. ومع ذلك لم يحل تدريبهم دائماً دون كشف أمرهم. وفي إحدى المرات أوقف جهاز أمن فرنسا فيشي اثنين من «العرب» العاملين في الخفاء في دمشق. وقد انتزعهما لاحقاً الرائد نيك هاموند، ضابط الارتباط بين الجهاز والمفرزة العربية، في مخطط دقيق تضمن إرسال اثنين من رجال البالماخ (القوة الضاربة للهاغاناه) ادعيا أنهما بريطانيان فاران من الخدمة. وعمل ك. م. وودهاوس أيضاً مع روفن زاسلاني، الضابط في «شاي» والوكالة اليهودية، غير أنه، وعلى غرار هاموند، أُرسل إلى بعثة جهاز تنفيذ العمليات الخاصة مع المقاومة اليونانية.(٣) وفي النهاية، ولما لم يغز

(١) التعبير العبري لمثل هؤلاء الجنود الذين يعملون في الخفاء هو «مستعرافيم»، أي المستعربون. وقد أعيد إحياء هذا التعبير زمن الانتفاضة في الإشارة إلى القوات الخاصة التي تعمل سراً في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ولا تزال هذه الوحدات ناشطة حتى اليوم، ولا يزال التعبير مُستخدماً.

(2) Eshed, Shiloah, 47.

(٣) Black and Morris, Secret Wars, 32-33. كان روفن زاسلاني (أصبح لاحقاً روفن شيلواه بعدما حول اسمه إلى العبرية في ما بعد ١٩٤٨) خبيراً في الاستخبارات لدى القسم السياسي التابع للوكالة اليهودية وكبير ضباط الارتباط مع الأمن البريطاني. وقد نظّم أيضاً شبكة الاستخبارات الأولى، «شاي»، التابعة للييشوف.

الإيطاليون أو الألمان سوريا، تُرك مقاتلو المفرزة العربية الاثنا عشر في دمشق من دون عمل كثير يقومون به.(١)

وفي أيار/مايو ١٩٤١، وبعدما أنجز الحلفاء خططهم لاجتياح المشرق الذي تسيطر عليه فيشي، استخدم مقرّ جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في القاهرة عملاء يهوداً من فلسطين في خطة للتسلل إلى شمال لبنان وتخريب مصافي النفط في طرابلس. وفي ١٨ أيار/مايو ١٩٤١، أبحرت مجموعة من ٢٣ مقاتلاً من الهاغاناه على متن الزورق «سي ليون» (أسد البحر) في حيفا بقيادة الرائد أنتوني بالمر، وهو ضابط خيالة شاب حسن العلاقات. وقد غادر بالمر، الضابط في فرسان الحرس الملكي، فرقته النخبوية ليخدم مع جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في البلدان المحتلة.(٢)

بعد ذلك بساعة أوقف الفريق اتصاله بالراديو بعدما أفاد عن دخوله المياه اللبنانية. لم يعثر للزورق وفريقه على أثر لبعض الوقت. وتلقى جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في النهاية تقارير عن إشارة أعضاء وحدة لاسلكي ألمانية إلى أن غواصة إيطالية اعترضت زروقاً يحمل جنوداً يهوداً وبريطانيين. وأشار تقرير آخر إلى ضابط فرنسي دفن سبع جثث لفظها الموج على الشاطئ في لبنان بنهاية أيار/مايو ١٩٤١. وأفاد شاهد آخر إلى أن قاضياً من فيشي أبلغه عن مجموعة من الأسرى الفلسطينيين نقلوا في ٢٢ أيار/مايو ١٩٣٩ إلى حلب حيث أعدموا على عجل - وقد دُمر زورقهم من جراء انفجار المتفجرات التي ينقلها.(٣)

أنشأت الهاغاناه في ١٥ أيار/مايو ١٩٤١ قوة عسكرية نخبوية هي البالماخ («بلوغوت صاده» أو سرايا الصدم) «لشن عمليات ضد العدو... بمساعدة أو من دون مساعدة من القوات [البريطانية]». وقد تأثر هذا القرار بدوريات الاستطلاع المشتركة بين جهاز تنفيذ العمليات الخاصة والهاغاناه في سوريا وكذلك بعملية

(١) Eshed, Shiloah, 48.

(٢) Hermione Ranfurly, To War with Whitaker: Wartime Diaries of Countess Ranfurly, 1939-45 (London: Hinemann, 1994), 76.

(٣) Black and Morris, Secret Wars, 52.

طرابلس.[1] نُظمت تسع سرايا يضمّ كل منها ٣٠ متطوعاً نشروا في مختلف الكيبوتزات (حيث عملوا أيضاً بدوام جزئي في الحقول) في فلسطين تحت سيطرة الهاغاناه.[2] وكان للهاغاناه هدفان رسميان: حماية الييشوف من العرب والدفاع عن فلسطين في حالة الاجتياح الألماني. وستعمد البالماخ، في الحالة الأخيرة، إلى استخدام تكتيكات حرب العصابات لقطع خطوط الاتصال الألمانية وتخريب مطارات العدو. بل إن السرايا تبجّحت بامتلاكها «مفرزة ألمانية» مؤلفة من يهود ألمان ونمسويين متآلفين مع كل أسلحة الفيرماخت وأنظمة تسليحه.

حصل التجنيد في البالماخ سرّاً، وقام إسحق صاده، قائد البالماخ والقائد السابق لسرايا الصدم، شخصياً يعاونه قادة سريته بغربلة دقيقة لكل مقاتل محتمل. وعدّت البالماخ، بحلول ١٩٤٣، أكثر من ألف مقاتل وضمت وحدة كوماندوس بحرية، «باليام» (سرايا البحر)، درّبت عناصرها على الإنزال البرمائي والتخريب البحري والعمليات في عمق البحار، وقوة جوية، «بالافير» (سرايا الجو) حلّق طياروها بالطائرات الشراعية وبطائرات النقل الصغيرة. وأثبتت البالماخ في النهاية أنها حقل تدريب للنخبة الحاكمة في إسرائيل وقد سيطر قدامى البالماخ على المراتب العليا للزعامة السياسية والعسكرية الإسرائيلية.[3]

بدأت البالماخ العمل للحلفاء قبل الاجتياح الأنكلو-أميركي لسوريا ولبنان. تسلل مئة من سرية «شاشار» في البالماخ، مؤلفين من يهود متنكّرين كعرب ومتأثرين بالمفرزة العربية في البالماخ، إلى منطقة فيشي حيث ساعدوا عملاء فرنسا الحرة في عمليات سرية مختلفة وجمعوا المعلومات للبريطانيين.[4] ثم إن جهاز تنفيذ العمليات الخاصة أرسل، عشية الاجتياح البريطاني في ٨ تموز/يوليو لسوريا ولبنان، سريتين من البالماخ بقيادة موشي دايان وإيغال ألون إلى منطقة فيشي لقطع خطوط الهاتف

(١) Eshed, Shiloah, 52.

(٢) Derogy and Carmel, Untold History, 53.

(٣) Katz, Elite, 5.

(٤) المصدر نفسه.

وفتح الطريق أمام وحدات الاستطلاع التابعة للجيش الاسترالي والسيطرة والإمساك بعدد من الجسور. وفقد دايان عينه في واحدة من هذه العمليات بعدما أصيب منظاره الميداني برصاصة فرنسية وتحطم في وجهه.(١) وعرض عقيد في الفرقة السابعة من الجيش الاسترالي رفع توصية بمنح أوسمة لمقاتلي البالماخ على بطولتهم ومهارتهم في السيطرة على جسر فوق نهر الليطاني في لبنان، فرفض ألون وطلب بدلاً من ذلك أن يُسمح لهم بالاحتفاظ بأي أسلحة يستولون عليها. وافق العقيد، وعرض عليهم، كعرفان بالجميل، مخبأ أسلحة إضافياً تم الاستيلاء عليه من الفرنسيين.(٢)

وبالرغم من أن دايان أصبح غير صالح للقتال إثر فقدانه عينه، كان لروفن زاسلاني مشروع آخر لصديقه الجريح. وقال دايان في تعليق له:

> طلبت الاستخبارات البريطانية من زاسلاني تقديم اقتراح لإنشاء شبكة سرية تجمع الاستخبارات العسكرية وتزود بها البريطانيين بطريقة من الطرائق [في حال الاجتياح الألماني لفلسطين]. وقد آليت على نفسي تنظيم هذه الشبكة... وقدّمت في آب/أغسطس ١٩٤١ اقتراحاً مفصلاً... صدّق البريطانيون على الخطة وأقيمت في أيلول/سبتمبر ١٩٤١ دورة دراسية لعشرين عاملاً على اللاسلكي... كان اسم الشبكة الرسمي «م. ف.» (مخطط فلسطين)، لكنها عرفت باسم «شبكة موشي دايان»... واقترحت أن نعمد، في حالة استيلاء الألمان على فلسطين، إلى مضاعفة نشاطات جمع الاستخبارات وأن نضيف إلى مجموعة عاملي اللاسلكي وحدات من «العرب المزيفين» أو «الألمان المزيفين» نقوم بتدريبها. والطريقة الفضلى لجمع المعلومات، برأيي، هي في تجنيد يهود يمكن أن يبدوا ويتحدثوا ويتصرفوا كالعرب أو الألمان.... وقد نفذت البالماخ بالفعل لاحقاً فكرة إنشاء وحدة ألمانية ووحدة عربية.(٣)

تولّى زاسلاني مسؤولية تنفيذ المشروع. وحصل في ١٢ كانون الثاني/يناير

---

(١) Derogy and Carmel, Untold History, 57.

(٢) Katz, Elite, 5.

(٣) موشي دايان كما تم ذكره في Eshed, Shiloah, 53.

١٩٤٢ على التفاصيل العملانية اللازمة من الضابط البريطاني المسؤول عن العملية، وطوّر برنامج التدريب لرجال دايان.(١) ووافقت الهاغاناه في ٨ آذار/مارس ١٩٤٢ على طلب زاسلاني إدخال سرايا البالماخ في المخطط، وبدأت بحلول شهر نيسان/أبريل الدروس التدريبية الأولى على القنص والمتفجرات في كيبوتز ميشمار هاعامق، مع دروس في الاستطلاع. وتخرج أول المتدربين في ٣٠ أيار/مايو ١٩٤٢.(٢)

لم يتم إطلاع سلطات الانتداب المحلية على ما يجري من نشاطات في الكيبوتز لأن ذلك يتنافى مع السياسة البريطانية القاضية بالمحافظة على الحياد بين المجموعات الفلسطينية تفادياً لإثارة العنف السياسي. وهكذا عندما اكتشفت شرطة فلسطين جنود البالماخ يحملون السلاح ويقومون بتدريبات عسكرية في الكيبوتز، تم إيفاد النقيب أوبري إيبان،(٣) وهو جنوب إفريقي شاب يعمل لمخابرات الجيش في القاهرة، لضمان عدم التعرض لعملية جهاز تنفيذ العملية الخاصة ولوحدات البالماخ. وقد عيّن لاحقاً ضابط ارتباط بين جهاز تنفيذ العمليات الخاصة ومقرّ الهاغاناه. وقد استذكر تعيينه كالآتي:

> افترض بي الحصول على تعييني من قائد قسم العمليات الخاصة في القاهرة، العقيد داموبل، الذي اشتهر بشجاعته وقدرته الهائلة على تحمل الكحول. وطلبت بالتالي موعداً في العاشرة صباحاً لأتيقن أنني سأجده صاحياً. وسار كل شيء على ما يرام بالرغم من زجاجة الويسكي الكبيرة الموضوعة على الطاولة. غادرت مكتبه وأنا أحمل لقباً مثيراً للإعجاب هو ضابط الارتباط بين العمليات الخاصة والوكالة اليهودية في فلسطين.(٤)

تمت طوال فترة عملية معسكر ميشمار هاعامق تدريب ستمئة مقاتل في البالماخ

(١) Eshed, Shiloah, 54.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٥.

(٣) وهو يهودي وصهيوني سيغيّر اسمه لاحقاً إلى أبا إيبان ويهاجر إلى إسرائيل ويصبح سفيرها لدى الأمم المتحدة، وأخيراً وزيراً للخارجية.

(٤) Derogy and Carmel, Untold History, 52-53.

في مجموعات من مئة بالتعاقب باستخدام المجموعات نفسها من الأوراق المزوّرة.[١] إلا أن التعاون بين البالماخ وجهاز تنفيذ العمليات الخاصة انتهى في شكل سيّىء عندما واجهت قوات المحور الهزيمة في شمال إفريقيا. ورفض البريطانيون، بعد إقفال معسكر التدريب في ميشمار ها عامق، أن يعيدوا إلى الهاغاناه الأسلحة التي ساهمت بها الميليشيا اليهودية، وانتقاماً لذلك اقتحمت مفرزة من البالماخ مدرسة التدريب التابعة لجهاز العمليات الخاصة في جبل الكرمل وسرقت ٢٧٧ بندقية و٢٢ رشاشاً من ترسانتها.[٢] ومثّلت تلك نهاية التعاون بين الجهاز واليهود طول فترة الحرب العالمية الثانية، ولكن ليست نهاية العلاقة بين المنظات اليهودية السرية والاستخبارات البريطانية.

وإلى جانب جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، انخرطت الشعبة التاسعة («أم. آي٩»)، وحدة «الهروب والمراوغة» في الاستخبارات البريطانية، في ترتيب سرّي لاستخدام يهود فلسطين في عمليات خفيّة. وكان أنتوني سيمّوندز هو الضابط المسؤول عن وحدة «أم.آي٩» في جنوب أوروبا في مقرّ قيادة القوات المسلحة البريطانية في القاهرة. وسبق له أن خدم مع وينغايت في فلسطين وأثيوبيا وخدم كذلك مع جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في فلسطين.[٣]

في مطلع ١٩٤٣، وقّع زاسلاني وزئيف شيند، القائد الكبير في «ها موساد لعاليّه بيت»[٤]، اتفاقاً مع سيمّوندز لاستخدام اليهود في عمليات وراء خطوط العدو. وقضت الخطة بإنزال عملاء يهود من فلسطين بالمظلة داخل المناطق الأوروبية

---

(١) المصدر السابق، ص. ٥٧.

(٢) Eshed, Shiloah, 56.

(٣) وُجد في «أم.آي٩» في القاهرة إلى جانب سيمّوندز جندي عريق آخر من جنود فلسطين أيام الثورة العربية، وهو العميد دادلي كلارك.

(٤) كانت «هاموساد لعاليّه بيت» (مؤسسة الهجرة ب) منظمة سرّية خاصة داخل الهاغاناه، أُسست في ١٩٣٩ لتسهيل الهجرة غير القانونية في انتهاك للحصة التي حدّدها الكتاب الأبيض حول عدد المهاجرين اليهود المسموح به إلى فلسطين. وقد بقيت موجودة بالرغم من خمودها في زمن الحرب وعادت إلى العمل من جديد عند انتهاء الحرب.

التي يحتلها النازيون وتدبير إجلاء اليهود من رومانيا إلى تركيا إضافة إلى استخدام شبكاتهم لمساعدة الجنود البريطانيين الذين فرّوا من الأسر. وبحسب شاول أفيغور فإنه من أصل ٣٢ مظلّياً دُرّبوا لهذه المهمة نفذ ٢٦ منهم عمليات ومن بينهم ٢١ قاموا بذلك مع «أم.آي٩».[١]

حققت عملية «أم.آي٩» بعض النجاح، لكنها دفعت أيضاً ثمناً كبيراً. فقد قفز روفن دافني بالمظلة، في ١٣ آذار/مارس ١٩٤٤، إلى يوغوسلافيا وتمكن من تنظيم إنقاذ ١٢٤ طياراً بريطانياً وأميركياً. غير أنه، ولسوء الحظ، اعتقل، مع نهاية المهمة، ١٣ من أصل العملاء الـ٢٦ الأصليين وقد أُعدم سبعة منهم.

وإلى جانب التعاون بين جهاز تنفيذ العمليات الخاصة و»أم.آي٩»، أقام جهاز الاستخبارات السرّية البريطانية («أم.آي٦») علاقة منفصلة مع المنظمات اليهودية السرّية. احتاجت شعبة الارتباط بين الأجهزة، وهي الاسم الرمزي لجهاز الاستخبارات السرّية في الشرق الأوسط، يائسة في ١٩٤٣ إلى عاملي لاسلكي لرومانيا وللحفاظ على الاتصال بأنصار تيتو. فاتحت شعبة الارتباط الوكالة اليهودية بالأمر فاختار زاسلاني من جهاز «شاي» في حيفا ١٤ متطوعاً سيتلقون التعليمات من البريطانيين حصرياً ما إن يشرعوا في المهمة. أصبح المتطوع الأول، روفن دافني، جاهزاً للنزول بالمظلة في يوغوسلافيا في آذار/مارس ١٩٤٣. إلا أن المهمة أرجئت إلى أيار/مايو لأن المجنّدين اليهود رفضوا الانخراط في الجيش البريطاني بعكس الاتفاق الحاصل بين شعبة الارتباط وزاسلاني. حُلّت المشكلة واستمرّت العملية حتى صيف ١٩٤٤.[٢]

جرت الاتصالات البريطانية مع المنظمات اليهودية الخفية، بالرغم من سرّيتها، بين مديريات مجتمع الاستخبارات البريطانية والمنظمات التي تسيطر عليها الوكالة اليهودية – الهيئة الشرعية التي تمثل الفلسطينيين اليهود. وقد احتاج البريطانيون إلى

---

(١) تطّوع في الأساس ٢٥٠ يهودياً فلسطينياً خضع ١٧٠ منهم لتدريبات للمهمة. أنظر، Eshed, Shiloah, ٥٩-٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٤-٥٥.

عملاء يتقنون لغات مختلفة، ولديهم معرفة بالمدن الأوروبية، إضافة إلى معرفتهم بشمال إفريقا والشرق الأوسط. وقد تعاونت الوكالة اليهودية وغيرها من المنظمات اليهودية مع البريطانيين والحلفاء في قتال العدو المشترك ولكن أيضاً لاستغلال الخبرة العسكرية والاستخبارية البريطانية كما الأميركية من أجل إنشاء دولة إسرائيلية.

غير أن العلاقات السرّية مع اليهود الفلسطينيين امتدت إلى ما هو أبعد من الأقسام شبه الشرعية للوكالة اليهودية لتصل إلى مجموعات أكثر راديكالية بكثير تتكفل باستخدام الإرهاب وهي التي ستُنزل تكتيكاتها أضراراً كبيرة بالبريطانيين في حقبة ما بعد الحرب.



١٢

اقتلوا المفتي: سياسات وردود فعل سلبية

«من غير المرجح أن تكون لإطاحة المفتي نتائج سلبية، بما أن القوة، وليس الضعف، هي التي تثير الإعجاب في العالم العربي».

ـ رؤساء الأركان البريطانيون، [١] ١٩٤٠

استغل البريطانيون فرصة قيام متطرفين عرب بقتل مفوض قطاع الجليل، لويس ي. أندرو، لملاحقة المفتي وغيره من زعماء الانتفاضة العرب. أوقف أكثر من مئتين من الأعضاء القياديين العرب وجَرّد البريطانيون الحسيني من رئاسة لجنة الأوقاف. خشي المفتي توقيفه فانسل خارجاً من القدس مساء الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ليبلغ بعيد ذلك لبنان. وواصل الحسيني من منفاه قيادة الثورة، وما لبث أن قصد بغداد في أواخر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٩ بعد انهيار الثورة في فلسطين.

ساهم المفتي في العراق في التحريض على الثورة العراقية على البريطانيين وأصبح جزءاً لا يتجزأ منها. وحاول الحسيني تنظيم جبهة مشتركة من الزعماء العرب من فلسطين والعراق وشرق الأردن وسوريا. وقام أيضاً بتسهيل المفاوضات مع الألمان

(١) ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، 367/31, FO 371/32900, TNA.

لتوفير الأسلحة والدعم السياسي من دول المحور.[١] واعتقدت السلطات البريطانية في لندن أنه إذا توصل العراق إلى اتفاق سرّي مع دول المحور، فستشكل هذه النتيجة نكسة في الشرق الأوسط. وفضلاً عن ذلك، ستهدد حكومة موالية لدول المحور في العراق إمدادات بريطانيا من النفط إضافة إلى الطرق البرية والجوية إلى الهند.[٢] وكان اتجاه الحرب، في ربيع ١٩٤١، يسير في غير مصلحة البريطانيين الذين مُنوا بهزائم في البرّ اليوناني وكريت وشمال إفريقيا. وهكذا لم يكن للثورة العراقية أن تأتي في وقت أسوأ من ذلك بالنسبة إلى البريطانيين. وفاقم الحسيني الأمور بإصداره فتوى تحث العرب والمسلمين على تقديم الدعم لتحرير العراق من البريطانيين.[٣]

شرعت الحكومة البريطانية، منذ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، في النظر في عدة خيارات للتعامل مع الحسيني، بما في ذلك الخطف. وتكهّن ليو آمري من مكتب الهند كالتالي: «هل يمكن لبضعة فتية شجعان أن يخطفوا المفتي في بغداد، والهرب به جنوباً بسيارة إلى طائرة منتظرة، ومن هناك إلى قبرص؟ سيؤدّي ذلك إلى إضحاك آل النشاشيبي[٤] في فلسطين واليهود والشرق الأوسط بأسره في الواقع، وسيتم بالتالي تجنب خطر كبير جداً»[٥]. إلا أن وزير الخارجية لشؤون المستعمرات ردّ بحماسة أقل، مشيراً إلى:

إن محاولة اختطاف المفتي لن تشكل سياسة عملية.... لا شك في أن يبعث

(١) Mattar, Mufti, 95. بحسب تقرير استخباري من الملحق العسكري البريطاني، مستنداً فيه إلى معلومات حصل عليها من الأركان العامة التركية في ٣ أيار/مايو، حصل تنظيم المفتي في بغداد على مبلغ كبير من المال، يفترض أنه من الألمان، مع تعليمات بالشروع في التمرد من خلال اغتيال مسؤولين بريطانيين وفرنسيين ومسؤولين عرب أصدقاء لهم. (Military Attaché Ankara to C-in-C Middle East, 3 May 1940, E1940, FO 371/24568, TNA).

(٢) C-in-C Middlea East to War Office, 1 October 1940, E2802/448/93, FO 371/24558, TNA; Martin Gilbert, Finest Hour, vol. 6 of Winston S. Churchill (London: Heinemann, 1983), 1079, 1124.

(٣) Mattar, Mufti, 95.

(٤) وبالأخص كبير مناوئي المفتي السياسيين، راغب النشاشيبي. وآل النشاشيبي ينافسون تاريخياً آل الحسيني في زعامة العرب في فلسطين.

(٥) من ليو آمري إلى وزير الخارجية في ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، E2762/367/31, FO 371/24568, TNA.

ذلك السّرور لآل النشاشيبي وليهود فلسطين، غير أنني متيقّن أن المشاعر التي سيثيرها في العراق ومصر والسعودية ستكون مختلفة جداً. أدرك أن المفتي الآن أشبه ببطل قومي في بغداد، ومن شأن أي تحرّك مباشر ضده بتحريض منا أن يؤدّي إلى استياء واسع. وللمفتي، علاوة على ذلك، أصدقاء نافذون في مصر وسنجد صعوبة في شرح الموقف للحكومة المصرية ناهيك بشرحه لابن سعود.[١]

وتابع محذّراً:

ما من شيء يؤكّد أن عملية الخطف ستتمّ بنجاح. أعرف أن للمفتي حرسه الخاص. وقد تحصل مقاومة وإصابة أو إصابتان. وربما قُتل المفتي نفسه. وربما يُعتقل الخاطفون ويسجنون، وتنكشف الرواية برمّتها في المحاكم العراقية. أخشى أن تؤدّي النتجية إلى صفعة قوية للهيبة البريطانية في مختلف أنحاء الشرق الأوسط.[٢]

واقترح رؤساء الأركان، من ناحية أخرى، تصفية الحسيني. وأعلن الرؤساء في تقرير إلى حكومة الحرب: «توجد وفرة من الأدلة إلى أن [الحسيني] على جدول معاشات العدو. ومن غير المرجّح أن تكون لإطاحة المفتي نتائج سلبية، بما أن القوة، وليس الضعف، هي التي تثير الإعجاب في العالم العربي»[٣]. وقد عارض قسم المشرق في وزارة الخارجية الاغتيال وشعر بالقلق حيال انعكاساته المحتملة، بغض النظر عن نجاحه أو فشله، لأنهم يخشون من أنه سيؤدّي حتماً إلى إغضاب الرأي العام العربي. وتجاوز تشيرشل هذه الاعتراضات بإعلانه أنه يمكن للقسم المعني «أن يقوم بالعمل المطلوب لتطبيق التوصيات المختلفة التي يحتويها [تقرير رؤساء الأركان]»[٤].

---

(١) من وزير الخارجية إلى ليو آمري، ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، E2762/367/31, FO 371/24568, TNA.

(٢) ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١، E2762/367/31, FO 371/24568, TNA.

(٣) ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، E2900/367/31, FO 371/24568, TNA.

(٤) ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٠، E2900/367/31, FO 371/24568, TNA.

وبالفعل، حرّك قرار تشيرشل المبهم محاولة للقضاء على المفتي واجتاز بهذا عتبة حساسة في العمليات الخفية من خلال سماحه باستخدام الاغتيال في زمن الحرب.[1] وقد أنشأ البريطانيون في تموز/يوليو ١٩٤٠ جهاز تنفيذ العملية الخاصة مع انتداب بالتخريب والتدمير والدعاية. ودخل في هذا الانتداب ضمناً استخدام الاغتيال كوسيلة بديلة لتحقيق أهداف عسكرية وسياسية. وبناء على ذلك، أنشئ الإطار السياسي، وسيصبح المفتي الهدف الأول لما سيصبح في نهاية الأمر عملية، ولو سرّية، ستميّز العمليات الاستخبارية الخفية البريطانية والأميركية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

بيد أن الممانعة استمرت في ربط السياسة البريطانية بالموافقة الرسمية المقيتة على القتل. وجاء رد وزارة الخارجية على الاغتيال المقترح للمفتي بالتحذير من أنه يجب عدم تورط موظفين بريطانيين في الاغتيال بما أنه «يُحتمل، ولو نجح التنفيذ، ألا تصب عملية القتل في مصلحتنا؛ لكن لو فشلت المحاولة ... فستكون النتائج كارثية ... وستُغضب الرأي العام العربي في أنحاء الشرق الأوسط كافة»[2].

أجمع الرأي في النهاية على ترك الأمر لرؤساء الأركان ليقرّروا كيفية التعامل مع المفتي وتوقيته. وقضت الخطة التي تبناها رؤساء الأركان بعد نيسان/أبريل ١٩٤١ باستخدام أعضاء لا يزالون مسجونين من منظمة الإيرغون المحظورة على أن يتنكروا

(١) محاضر اجتماع وزارة الخارجية، ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٠، E2900/367/31, FO 371/24568, TNA.

(٢) المصدر نفسه.

كعرب ويضطلعوا باغتياله.[1] وبناء على ذلك، أمر القائد الأعلى في الشرق الأوسط الجنرال أرشيبالد وافل بإطلاق رئيس الإيرغون ديفيد رازئيل وعدد من رفاقه من أحد سجون فلسطين.[2]

حطّت مساء السابع عشر من أيار/مايو ١٩٤١ طائرة من نوع «داكوتا» في قاعدة الحبّانية التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني. نزل منها أربعة مسلحين توجهوا إلى مقرّ القيادة المرتجل للجيش البريطاني. قضت مهمتهم في الظاهر بتدمير إمدادات فيول الطائرات العراقية في بغداد. غير أنه وقبل أن يشرع رجال الكوماندوس في تفجير الخزانات أعطاهم الجنرال البريطاني القائد تعليمات بالاتصال بالضابط المسؤول عن إحدى الوحدات الهندية والتيقن من عدد وقوة الوحدات العراقية المواجهة لجيشه.

رافق رازئيل ورائد بريطاني اثنين من رجال الإيرغون (يعقوب ميريدور ورفيق له) إلى ضواحي المدينة وأرسلاهما على متن زورق صغير في مهمة استطلاعية. وبعد وقت قصير على تحديد مكان وجود الرائد قائد الوحدة الهندية، عاد رازئيل والرائد

(١) Yitshaq Ben-Ami, Years of Wrath, Days of Glory: Memoirs from the Irgun (New York: Speller, 1982), ٢٤٥-٤٦. يزعم المؤلف أن ديفيد رازئيل هو من طرح فكرة اختطاف المفتي أو القضاء عليه. والكلمة التي استخدمها في مذكراته هي «الحصول» على المفتي. وأضاف أيضاً أن الإنكليز في الحبانية لاقوا صعوبة في الحصول على أثواب عربية لكوماندوس الإيرغون. وكانت الإيرغون («ها إيرغون هاتزفاي هاليئومي بارتز يسرائيل» أو المنظمة العسكرية القومية في أرض إسرائيل) واحدة من ثلاث منظمات شبه عسكرية إلى جانب عصابة شتيرن والبالماخ، وقد انبثقت من الهاغاناه (منظمة الدفاع اليهودية). انفصل أعضاء الإيرغون عن الهاغاناه لأنهم قرروا الانتقام من ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ العربية، فيما تبنت الهاغاناه سياسة دفاعية. أنظر Y. S. Brenner, he Stern Gang, 1940-1948," in Palestine and Israel in the 19th and 20th Centuries, ed. Elie Kedourie and Sylvia G. Haim (London: Frank Cass, 1982), 114.

(٢) واجه وافل تهديدات متعددة: الفيلق الإفريقي الألماني في الصحراء الغربية، الانسحاب البريطاني من البر اليوناني، والتهديد الفوري لكريت، إضافة إلى الإمكانية الحقيقية في أن تقطع حكومة معادية في العراق الإمدادات النفطية وتعرّض الجناح الشرقي لتسلل ألماني من سوريا التي تسيطر عليها فيشي. وحاول نقل المشكلة العراقية إلى قيادة الهند، إلا أن تشيرشل أصرّ على أن يتولى وافل نجدة القوات البريطانية في العراق لأن نقل الدعم من فلسطين أسرع وأقرب. أنظر Victoria Schofield, Wavell: soldier and Stateman (London: John Murray, 2007), 183-84.

البريطاني والعنصر الثالث من الإيرغون إلى سيارتهم، لكن، وفي الوقت الذي طلب فيه رازئيل سيجارة، أصابت قنبلة أسقطتها طائرة ألمانية السيارة إصابة مباشرة. فقد السائق ساقيه، فيما قُتل الضابط البريطاني ورازئيل على الفور؛ ونجا رجل واحد من دون أن يصاب بأذى.(١)

لم يردع فشل المهمة البريطانيين عن تبني الاغتيال وسيلة لتحقيق أهداف استراتيجية أو تكتيكية في المستقبل. فقد بذلوا، على سبيل المثال، في سياق حملة الصحراء في ١٩٤١-١٩٤٢، جهوداً كثيرة لاغتيال المارشال إروين رومل قائد الفيلق الإفريقي. وقرّرت قيادة الشرق الأوسط أنه لو قُتل رومل، القائد الساحر الذي أحرجت انتصاراته المتكررة البريطانيين، فسيقضي ذلك على معنويات الفيلق الإفريقي كما أنه سيُسهّل على الجيش الثامن أن يهزم الألمان.(٢)

قامت القوات الخاصة الجنينية البريطانية بمحاولات نفذتها وراء خطوط العدو وفشلت كلها. وكانت الإصابات في كل مرة كبيرة، ومع ذلك تجذّر مفهوم الاغتيال في الفكر الاستراتيجي البريطاني. وقد برع البريطانيون في الواقع، لبعض الوقت، في استخدام القوات الخاصة المنشورة خلف خطوط العدو؛ واستوحى مختلف وحدات الكوماندوس التي ظهرت في شمال إفريقيا في الحرب العالمية الثانية من ت. أ. لورنس ومن استخدامه للبدو في التخريب والإغارة على القوات العثمانية في شبه الجزيرة العربية في إبان الحرب العالمية الأولى.

كان الهدف الأول للاغتيال في أوروبا ضابط نازي كبير في أوروبا المحتلة مثّل تهديداً حقيقياً للمسار المستقبلي للمقاومة الأوروبية. وهبط في ٢٧ أيار/مايو ١٩٤٢ بالمظلة في تشيكوسلوفاكيا التي يحتلها الألمان اثنان من عملاء تشيكوسلوفاكيا الحرة، دربهما جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، وقتلا واحداً من ضباط هتلر المفضلين في الـ«أس.أس.»، رينهارد هيدريتش، بإلقاء قنبلة على سيارته. وحققت عملية

(١) Ben-Ami, Years of Wrath, 246; J. Bowyer-Bell, Terror out of Zion (London: Avon, 1997), 70.

(٢) William Seymour, British Special Forces: the Story of Britain's Undercover Soldiers (Toronto: Grafton, 1985), 152.

«ضوء النهار» أهدافها بالقضاء على زعيم نازي فاجر ولكنه كفؤ جداً كان يمكنه التأثير في هتلر بطريقة تؤدّي إلى إطالة أمد الحرب.[1] غير أن التشيكيين تعرّضوا لعمليات انتقامية واسعة ووحشية.[2]

لم تنفع انتقامات الـ«أس.أس.»، كما ستثبت ذلك الأوضاع اللاحقة في أوروبا والشرق الأوسط، إلا في تطرّف السكان المحليين والمساهمة في توسّع نشاطات المقاومة. وليس بالأمر الاستثنائي أن اغتيال جهاز تنفيذ العمليات الخاصة البريطاني لهيدريتش دفع الألمان إلى المبالغة في ردة الفعل منتقمين من السكان المحليين بما أدى تالياً إلى تضخيم صفوف المقاومة التشيكية. ومع ذلك سيرتكب البريطانيون في فلسطين الخطأ نفسه الذي ارتكبه الألمان من خلال محاولتهم قمع حركة المقاومة اليهودية باعتماد التهويل وغير ذلك من تكتيكات مناهضة التمرد المريبة. إلا أنه بالكاد تُمكن مقارنة أفعال السلطات البريطانية الفلسطينية بأفعال النازيين بالرغم من كونها في الغالب قاسية وعنيفة؛ بيد أنهم نجحوا في تنفير اليهود ولم يتركوا لهم سوى خيار الانضمام إلى التنظيمات شبه العسكرية الراديكالية والمتطرفة.

في غضون ذلك، دفع الوضع اليائس البريطانيين في السنوات الأولى على الحرب العالمية الثانية، إلى اللجوء ليس إلى الاغتيال وحسب بل أيضاً إلى تنظيم برنامج واسع من التعاون مع مجموعات سرّية في أوروبا المحتلة. وتضمّن الأمر تدريب أفراد

(١) قضى هيدريتش، بوصفه حامي (حاكم) الرايخ في بوهيميا ومورافيا، على السوق السوداء وضاعف من الحصص الغذائية والمنح الحكومية ووضع مبدأ الضمان ضد البطالة موضع التنفيذ. لكن، ومن جهة أخرى، كان كل من يرتبط بحركة المقاومة أو السوق السوداء يواجه التعذيب والإعدام. وقد تم إخضاع تشيكوسلوفاكيا تحت إدارة هيدريتش وازداد الإنتاج الصناعي فيها. ودفع نجاحه في براغ هتلر إلى التفكير في تعيينه حاكماً على باريس. وعندما أصبحت الاستخبارات البريطانية على علم بهذا قررت بأنه يجب وقف هيدريتش قبل أن يُحدث وقعاً مشابهاً في فرنسا وبالتالي في أنحاء أوروبا المحتلة كافة.

(٢) مات هيدريتش بعد ذلك بأسبوع، في ٤ حزيران/يونيو ١٩٤٢، متأثراً بجراحه. وقامت الـ«أس.أس.» نتيجة ذلك بتوقيف نحو ١٣ ألف شخص، وترحيلهم أو سجنهم أو قتلهم. وفي العاشر من حزيران/يونيو ١٩٤٢ أُعدم كل الذكور ممن هم فوق السادسة عشرة في قرية ليديسي، على بعد ٢٢ كلم شمال غرب براغ، إضافة إلى قرية أخرى هي ليزاكي. وقد أحرقت منازل القريتين ومبانيهما كلها وسوّيت بالأرض. ولرواية مفصلة عن اغتيال هيدريتش وعواقبه أنظر Callum MacDonald, The Killing of SS Obergruppenführer Reinhard Heydrich (New York: Free Press, 1989).

على الأعمال العسكرية الخفية ومدّهم بالأسلحة والمتفجرات وتزويدهم خبرات حرفة الاستخبار وأساليب الدعاية. ومما يحمل الدلالة نفسها هو القرار بالسماح لجهاز تنفيذ العمليات الخاصة بإنشاء تحالفات خفية مع منظمات كانت على طرفي نقيض مع المصالح والقيم البريطانية السابقة للحرب.

ولتحقيق هذا الهدف تعاون جهاز تنفيذ العمليات الخاصة والـ«أم.آي٦»، إضافة إلى تشكيلة من الاستخبارات الحليفة ومنظمات الدعاية والأمن، مع قوى المقاومة الشيوعية في أوروبا وآسيا المحتلتين، ومع جمهوريين في بلدان ذات أنظمة حكومية ملكية في المنفى في لندن، ومع فوضويين وتروتسكيين وزعماء عمّاليين ومسيحيين محافظين. وأجرى جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في بعض الحالات اتصالات مع منظمات يمينية متطرفة بل حتى مع منظمات سبق أن تعاونت مع دول المحور. ولم تعد سوى مسألة وقت لتمتد القائمة وتشمل مجموعات يهودية متطرفة، مثل الإيرغون، التي حظرها البريطانيون ووسموها بالإرهابية، بل لتشمل حتى متطرفين مسلمين، وهو ليس بالأمر المفاجئ في ظل تلك الظروف.

انحاز كل من العرب واليهود، مع بداية الحرب العالمية الثانية، إلى واحد من الفريقين. وساند معظم العرب دول المحور وتطلعوا إلى النازيين ليساعدوهم على القضاء على اليهود في فلسطين.[1] واختارت الجماعة اليهودية من جهتها مساندة البريطانيين بالرغم من الكتاب الأبيض الذي أصدرته لندن في أيار/مايو ويحدّ بقساوة من عدد اليهود الذين تمكنهم الهجرة إلى فلسطين. وحتى مع ذلك بذلت الوكالة اليهودية، وهي حكومة الأمر الواقع للجماعة اليهودية في فلسطين، كل جهد لمساعدة البريطانيين. شرعت الشعبة «د»، سلف جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، منذ ١٩٤٠ في تجنيد اليهود للمشاركة في العمليات في شرق أوروبا المحتل. وما ساوى ذلك أهمّية، بالنسبة إلى البريطانيين، هو أن تتمكن الوكالة اليهودية من تزويدهم

(١) استناداً إلى استطلاع للرأي طلبته القنصلية الأميركية في القدس في بداية النزاع، أيد ٨٨ بالمئة من الفلسطينيين العرب ألمانيا و٩ بالمئة فقط بريطانيا العظمى. أنظر Morris, 1948, 21.

المعلومات عن النشاطات الألمانية في فلسطين إضافة إلى تمكينهم من استغلال العلاقات اليهودية العربية في سوريا.(١)

بدا محتملاً، في ١٩٤٠، أن تتمكن المجتمعات اليهودية في أوروبا الشرقية من تقديم المساعدة للعمليات البريطانية الخفية، وذلك بالرغم من الدعاية النازية المعادية للسامية. وفي ١٩٤٠، وفرت البالماخ، قوة الكوماندوس اليهودية التي أنشئت بتواطؤ بريطاني، أربعين خبيراً في الاستطلاع والهندسة العسكرية للحملة الحليفة ضد قوات فيشي الفرنسية في لبنان وسوريا.(٢) ووفّرت البالماخ والهاغاناه، في فترة ١٩٤٣-١٩٤٥، نحو خمسة وعشرين يهودياً فلسطينياً يتقنون اللغات الأوروبية، لاستغلالهم كعملاء لمصلحة «أم. آي٦» القاهرة، وقد تلقوا تدريباً على التخريب والاتصالات اللاسلكية أُنزلوا من بعده بالمظلات في أوروبا التي يحتلها النازيون.(٣) والتحق بعد الحرب بعض من الناجين من تلك المهمات بجهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد. وقضى الترتيب المعمول به بين أجهزة الاستخبارات البريطانية والوكالة اليهودية بتقاسم المعلومات التي يجمعها العملاء الفلسطينيون.(٤)

غير أن جهاز تنفيذ العمليات الخاصة سيصبح لاحقاً أقل حماسة في تشغيل العملاء اليهود في الشرق الأوسط. فقد خشي مقرّ الجهاز في القاهرة المشاكل مع العرب وتحفّظ حيال دعم المطامع الصهيونية في حقبة ما بعد الحرب. وقد اعترض جهاز الاستخبارات السرية البريطاني وجهاز تنفيذ العمليات الخاصة على منشورات الوكالة اليهودية التي تعلن فيها تعاونها مع البريطانيين، وخشيا أيضاً محاولة اليهود التغلغل في تنظيمات الاستخبارات والأمن البريطانية في فلسطين.(٥) ولم تكن الشكوك من دون أساس.

---

(١) 21 March 1940, 28 March 1940, 29 May 1940K HS 3/201, TNA.

(٢) Morris, 1948, 28.

(٣) Morris, 1948, 28; Franklin Lindsay, Beacons of the Night: With the OSS and Tito's Partisans in Wartime Yugoslavia (Stanford: Stanford University Press, 1993), 361n.

(٤) Lindsay, beacons, 361n.

(٥) C. M. Keble to Lord Moyne, 16 January 1943m 89637/537/1817, HS 3/209, TNA.

انضم أكثر من ٢٦ ألف فلسطيني يهودي، من الرجال والنساء، إلى القوات المسلحة البريطانية وتلقوا درجة ما من درجات التدريب العسكري أثبتت أنها ذات منفعة في كفاح ما بعد الحرب لإنشاء دولة إسرائيل. وخدم في المقابل ١٢ ألف عربي في صفوف البريطانيين في الحرب العالمية الثانية.[١] ومن غير المعروف عدد اليهود أو العرب الذين استخدمتهم الأجهزة الخفية البريطانية. فمنذ ١٩٤٢ قدر جهاز الاستخبارات السرّية («أم.آي٦») أن للهاغاناه ثلاثين ألف مقاتل مسلّح من أصل العناصر في صفوفها الذين يراوح عددهم ما بين خمسين وسبعين ألف رجل وامرأة. وبعد ذلك بسنة حذّر القائد الأعلى في الشرق الأوسط اللواء هارولد ألكسندر من وجود احتمال بتمرد الجماعة اليهودية في إسرائيل بعد نهاية الحرب.[٢]

وكانت هي الحال بالتأكيد مع واحدة من المجموعات شبه العسكرية اليهودية، وتُعرف باسم عصابة شتيرن – ولاحقاً باسم مقاتلي الحرّية في إسرائيل – التي عارضت البريطانيين بعنف حتى منذ بداية الحرب العالمية الثانية. وقد أنشأ المنظمة في ١٩٣٩-١٩٤١ منشقّون عن الإيرغون من الذين استاؤوا من الهدنة بين البريطانيين والجماعة اليهودية، وقد التزموا صراع موت أو حياة في سبيل إنشاء دولة إسرائيلية تضمّ جميع يهود أوروبا وروسيا. وقد اقتنع رئيس المنظمة، أبراهام شتيرن، بأن المصالح البريطانية في الشرق الأوسط تتعارض تعارضاً تاماً مع إقامة الدولة اليهودية. وبالإضافة إلى ذلك تكونت لدى شتيرن وأتباعه نظرة مشتركة بأن البريطانيين هم العدو المباشر بالرغم من أن العرب هم الأعداء النهائيون.[٣] لم تكن أعداد شتيرن كبيرة كأعداد الإيرغون، لكنها نُظمت لشن حرب مدن خفية من خلال استخدام الاغتيال والتخريب والخوف: أي، في واقع الأمر، منظمة إرهابية.

اعتقدت شتيرن أنه، في حال وجد يهود أوروبا المضطهدون ملجأ لهم في فلسطين،

(١) Morris, 1948, 29.

(٢) Ronal W. Zweig, Britain and Palestine During the Second World War (London: Royal Historical Society, 1986), 165n68.

(٣) Howard M. Sachar, A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our time (New York: Knopf, 2007), 247; Brenner, "Stern Gang," 115.

يجب هزم البريطانيين بما أنهم هم الذين يمنعون اليهود من الهرب من أوروبا. حتى أن عصابة شتيرن ذهبت، من أجل هذه الغاية، إلى حدّ محاولة التحالف مع ألمانيا النازية. وحاول شتيرن في أواخر ١٩٤٠ الاتصال بالمبعوث الألماني في سوريا، أوتو فون هنتيغ، لإيجاد أرضية مشتركة للكفاح ضد البريطانيين، لكنه ووجه بالرفض المزدري.(١) لكن هذا لم يردع شتيرن الذي أوفد لاحقاً مبعوثاً للقاء أحد المسؤولين النازيين في بيروت. وعرض المتطرفون اليهود على الألمان المساعدة العسكرية والسياسية والاستخبارية، إلا أن النازيين لم يبدوا اهتماماً. وأحبطت أجهزة الأمن البريطانية محاولات أخرى باعتقالها ممثلي عصابة شتيرن قبل تمكنهم من لقاء المسؤولين النازيين في بلدان محايدة وذلك بفضل إخباريات جاءت في غالبها من الهاغاناه.(٢)

اضطرت عصابة شتيرن، على عكس المنظمات اليهودية الرئيسية التي وفرت التمويل من مؤيدين في مختلف أنحاء العالم، إلى الشروع في حملة من السطو على المصارف لتمويل عملياتها. وأدت هذه الأفعال إلى مقتل جنود بريطانيين إضافة إلى رجال شرطة يهود عن طريق الخطأ. وأدت عمليات إطلاق النار وأعمال التخريب، في الوقت نفسه، إلى مقتل مارة أبرياء ولم تكسب عصابة شتيرن الكثير من دعم الجماعة اليهودية في فلسطين. وسهّلت مثل هذه التكتيكات البغيضة على أجهزة الأمن البريطانية، إضافة إلى شرطة فلسطين، العثور على مخبرين والقضاء على الكثيرين من أعضاء عصابة شتيرن. وفي ١٢ شباط/فبراير ١٩٤٢، حشر البريطانيون أبراهام شتيرن في منزله الآمن وأطلقوا عليه النار وقتلوه.(٣) ولم يتبقّ عندئذ إلا اثنان فقط من الأعضاء المؤسسين لعصابة شتيرن، وقررا إنهاء كل النشاط العنفي فيما يعيدان بناء العصابة من صفوف الأتباع غير الناشطين والاحتياطيين. وعادت العصابة إلى الظهور بعد سنتين وواصلت بتصميم شرس حربها على البريطانيين حتى مغادرتهم فلسطين في ١٩٤٧.

(١) Sachar, History of Israel, 247.

(٢) Morris, 1948, 29.

(٣) Ben-Ami, Years of Wrath, 295.

مع استئناف عصابة شتيرن حملتها الإرهابية في ١٩٤٤، قررت الإيرغون أيضاً، وقد باتت تحت قيادة مناحم بيغن، إنهاء هدنتها وأعلنت الحرب على البريطانيين.[١] وتمكّنت المنظمتان، وقد بات لهما هدف مشترك واحد، من التوصل بسهولة إلى اتفاق للتعاون السياسي والعسكري.[٢] وتضاعفت قوة الإيرغون، مع بداية ١٩٤٦، إلى ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف رجل وامرأة، فيما بلغ عدد عناصر شتيرن حوالى الـ٢٥٠.[٣]

بثّت نهاية الحرب في الشرق الأوسط والإصرار البريطاني المستمر على الحدّ من هجرة اليهود إلى فلسطين حياة جديدة في الإيرغون. وأحد العوامل الحاسمة في عودتها كانت مقدرتها على رفد صفوفها باليهود البولنديين الذين فرّوا من الجيش البولندي الذي يقوده الجنرال فلاديسلاف أندرز وجاء بهم البريطانيون إلى فلسطين. امتلك المتطوعون الجدد التدريب العسكري وذاكرة ملتهبة عن فقدان أفراد من أسرهم في المحرقة.[٤] ونفذت الإيرغون العشرات من أعمال العنف وحوّلت فلسطين، جنباً إلى جنب مع تلك التي ارتكبتها عصابة شتيرن، إلى ساحة حرب. ففي ما بين أيلول/سبتمبر ١٩٤٦ وأيار/مايو ١٩٤٨، على سبيل المثال، نفذت عصابة شتيرن لوحدها أكثر من مئة عملية تخريب ضد البريطانيين في فلسطين.[٥]

كره الخط السائد في المجتمع اليهودي العنف في البداية ولم يعرب عن الكثير

---

(١) Brenner, "Stern Gang," 121. جاء في تقرير للـ«أم.آي٦،» مُرّر إلى واشنطن (٢١ شباط/فبراير ١٩٤٤، HNO 867108, NARA)، أن الإيرغون ستعمل على تدمير الممتلكات لكنها لن تلجأ إلى الاغتيال، فيما ستلجأ عصابة شتيرن بسهولة إلى القتل.

(٢) ٢٨ آذار/مارس ١٩٤٦، KV 5/30, TNA.

(٣) امتلكت الهاغاناه في الفترة نفسها جيشاً ميدانياً من ١٦ ألفاً، فيما ضمت البالماخ ستة آلاف رجل وامرأة تقريباً. وأمكن للمنظمتين جلب المزيد من المجندين من قوة ساكنة من أربعين ألفاً متمركزين في المناطق الريفية والمدينية (Colonial Office, "Palestine Statement of Information Relating to Acts of Violence," KV 5/30, TNA).

(٤) Sachar, History of Israel, 266.

(٥) Brenner, "Stern Gang," 134; Colonial Office, "Palestine Statement of Information Relating to Acts of Violence," KV 5/30, TNA.

من التعاطف مع عصابة شتيرن والإيرغون، إلا أن الأناس العاديين باتوا، مع وصول أخبار المحرقة إلى فلسطين، أقل ميلاً لمساندة البريطانيين، الذين يستمرّون في حظر بلوغ اللاجئين اليهود فلسطين، أو التعاون معهم. وساءت الأمور أكثر مع الأخبار التي بلغت فلسطين عن المجازر التلقائية التي استهدفت الناجين من معسكرات الموت النازية في بولندا مما أدى إلى ألوف اللاجئين الجدد الذين ازدحموا في مخيمات المهجرين في أوروبا.(١)

تبنت عصابة شتيرن في غضون ذلك استراتيجية جديدة قضت بإرسال مجموعات صغيرة مسلحة برشيشات خفية ومسدسات إلى الشوارع لفتح النار على أي من المارة من الجيش البريطاني أو الشرطة. وردّ البريطانيون بسياسة ترويع تضمّنت عمليات اعتقال جماعية ومنع للتجوال وإنزال عقوبة الإعدام بكل من تُضبط معه أسلحة نارية. إلا أن هذه الإجراءات المضادة فشلت فشلاً ذريعاً؛ وهي بدلاً من تخويف اليهود أدت سريعاً إلى تطرّف شبه كامل للطائفة اليهودية في فلسطين. ولم يعد الجنود مرحباً بهم في المدن اليهودية كما أن المتاجر رفضت خدمتهم.(٢)

---

(١) غادر بولندا في ١٩٤٦ ما يزيد على تسعين ألف يهودي؛ ورفعوا، إلى جانب ٢٥ ألفاً من البلقان، عدد اللاجئين في مخيمات المهجرين في ألمانيا الغربية إلى ٢٥٠ ألفاً. أنظر، Sachar, History of Israel, 264.

(٢) Brenner, "Stern Gang," 123.



١٣

بالدم والنار

«ليس من ينزلون الأذى الأكبر هم الذين ينتصرون بل من لديهم القدرة الأكبر على التحمل».

- تيرنس ماكسويني، رئيس بلدية كورك[١]

يقع منزل اللورد موين في شارع ابن زنكي في منطقة الزمالك السكنية الحصرية على مقربة من نادي الجزيرة الرياضي في القاهرة. وقد عمل حرّاس الشرطة الذين يحرسون في العادة الوزير البريطاني المقيم في نوبات من الثامنة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر. غير أن معظم ضباط الشرطة المصريين لا يتعبون أنفسهم بالالتزام بساعات العمل ويتركون رجالهم يعملون لساعتين أو ثلاث بعد انتهاء النوبة. وافتُرض وجود أربعة عناصر في الخدمة، إلا أن اللورد موين، وعلى جاري عادته، صرف في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤ حراسه باكراً. وغالباً ما تجادل أ. و. سانسوم، ضابط مكافحة التجسس وحماية كبار الشخصيات في مصر، مع موين في ما يتعلّق بسلامته.[٢]

وكتب سانسوم أنه «ما عمل أكثر مشقة على ضابط الأمن أكثر من محاولة حماية

(١) قال ماكسويني ذلك في سياق إضرابه عن الطعام الذي أعقب سجنه بوصفه عنصراً في الجيش الجمهوري الإيرلندي. وقد مات ماكسويني في سجن بريكستون في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٠ بسبب سوء التغذية التي نتجت من ٧٣ يوماً من الإضراب عن الطعام.

(٢) A. W. Sansom, I Spied Spies (London: Harrap, 1965), 168-70.

رجل شجاع»[١]. فموين حارب كجندي وجُرح في حرب جنوب إفريقيا؛ وشارك في الحرب العالمية الأولى في حملة غاليبولي، وكذلك في مصر حيث مُنح وسام الخدمة المميزة وترقية إضافة إلى ثلاث برقيات تنويه. وكره موين، بحسب سانسوم، البقاء محبوساً في مكتب؛ فهو رجل حركة - يتوق إلى السفر إلى أماكن بعيدة وخطرة ويهوى علم الآثار، وقد وجد أنه من المثير للحنق أن يعاني التضييقات الأمنية على التنقلات الشخصية. وغالباً ما صرف حراسه رافضاً التصديق أنه يواجه أي خطر، أو مقتنعاً بأن في وسعه التعامل مع أي تهديد لحياته.[٢] فقد حصلت محاولات اغتيال لمسؤولين بريطانيين في فلسطين قام بها متطرفون يهود، لكنها لم تخرج قط عن نطاق الولاية ولم تحصل بالتأكيد في مصر.

وفي وقت ما، بعيد الساعة ١٢:٤٥ بعد الظهر، وبالرغم من الشمس الحارقة وصل رجلان على متن دراجتين هوائيتين إلى منزل الوزير واختبآ في الرواق. وصل اللورد موين بعد ذلك بدقائق فقفز الرجلان خارج الرواق وأمطرا سيارته برصاص رشيشيهما.[٣] حاول سائق اللورد موين الإمساك بواحد من القاتلين، لكنه صُرع. أفرغ الرجل الثاني رصاص رشيشه في المقعد الخلفي قاتلاً اللورد موين على الفور. ألقى الرجلان بسلاحيهما، وأخرجا دراجتيهما وحاولا الاختفاء في زحمة السير في القاهرة لكن من دون جدوى.[٤] فبعد مطاردة شعواء اصطدم الرائد سانسوم ومعه ضابط مصري، حرفياً، بالدرّاجين واعتقلاهما. ولم يصب القاتلان بأي أذى سوى بعض الجروح والرضوض.

انتمى الرجلان إلى عصابة شتيرن السيئة السمعة بالرغم من عدم ورود اسميهما في لائحة من خمسين مشتبهاً فيهم بانتمائهم إلى المنظمة الإرهابية.[٥] كان أحد

(١) المصدر السابق, ص. ١٦٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تقول رواية أخرى إن موين وسائقه قتلا بثلاث رصاصات أطلقت بتتابع سريع. أنظر Thurston Clarke, By Blood and Fire: The Attack on the King David Hotel (New York: Putnam, 1981), 44-45.
(٤) Sansom, Spies, 180.
(٥) المصدر السابق، ص. ١٧٧.

القاتلين، إلياهو حكيم، فاراً من الجيش البريطاني؛ أما الآخر، إلياهو بيت- زوري فطالب في الجامعة العبرية.[1] ولم يُعربا لدى استجوابهما ومحاكمتهما عن أي ندم واستمرا في الإصرار على أنهما جنديان في حرب ضد الأمبراطورية البريطانية.[2] أعدم الرجلان شنقاً في ٢٢ آذار/مارس ١٩٤٥، وافتُتحت بهذا عملية إحصاء جثث الشهداء – وقد تم، في حالة بيت-زوري وحكيم، تأخير الإجراء.

عدّ المتطرفون اللورد موين معادياً للسامية ومؤيداً للكتاب الأبيض الصادر في ١٩٣٩ الذي يحدّ من الهجرة اليهودية، ومسانداً للعرب؛ وقررت عصابة شتيرن، على هذا الأساس، أن تجعل منه عبرة لمن يعتبر. غير أن الاغتيال أثار استفظاع زعماء اليهود في الولايات المتحدة وبريطانيا إضافة إلى الجماعات اليهودية في العالم. وبُذل كل جهد لمساعدة بريطانيا على اعتقال القتلة وتدمير عصابة شتيرن، إلا أن السموّ الأخلاقي البريطاني المفاجئ لم يعمّر طويلاً.[3] لم ينج ما أقيم من علاقات إيجابية وتعاون بين البريطانيين واليهود عند اندلاع الأعمال العدائية في ١٩٣٩ مما أعقب الحرب العالمية الثانية من تغييرات سياسية في لندن. فانتخاب حزب العمال في بريطانيا وإلغاء ما تعهّدت به الحكومة الجديدة من إلغاء للكتاب الأبيض وسماح لضحايا المحرقة القابعين في معسكرات الاعتقال في أوروبا بالدخول إلى فلسطين أدّيا إلى تبخّر أية أوهام في شأن احتمالات إقامة دولة إسرائيلية مادام البريطانيون مستمرين في سيطرتهم على فلسطين.[4] وبهذا انطفأت الإرادة الطيبة التي ولّدتها ردات الفعل الارتدادية على اغتيال اللورد موين. وردّ المجتمع اليهودي على سياسة

---

(١) Brenner, "Stern Gang," 124.

(٢) جاء في تقرير من شعبة التحقيق الخاص في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤ أن السلطات البريطانية في مصر خشيت أن يرى الجنود من أبناء البلاد في القاتلين بطلين ويقوموا بتقليد عملهما (CO 732/88/32, TNA).

(٣) أصدرت الوكالة اليهودية أمراً للهاغاناه بمطاردة أعضاء عصابة شتيرن وأيضاً بمساعدة السلطات البريطانية على اعتقالهم. وبنتيجة ذلك اعتقل البريطانيون ٢٧٩ عضواً في كل من عصابة شتيرن والإيرغون. أنظر Christopher Sykes, Crossroads to Israel (Cleveland: World, 1965), 257.

(٤) Brenner, "Stern Gang," 131. In Israeli accounts.

الحكومة البريطانية الجديدة بتظاهرات حاشدة ومقاومة سلبية. لكن السلطات البريطانية في فلسطين أساءت التعامل مع الوضع.

هدفت «عملية أغاتا» إلى تدمير الهاغاناه والحد في شكل قاس من قدرة اليهود على شن حرب على الجيش البريطاني. وعلى مدى أسبوعين بدءاً من ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٤٦ نفّذ أكثر من مئة ألف جندي بريطاني وعشرة آلاف شرطي عملية تفتيش واسعة للمدن اليهودية والمستوطنات وقاموا أيضاً باعتقالات جماعية للمشتبه فيهم من الناشطين، غير أنهم فشلوا في اعتقال زعماء اليهود السياسيين أو العسكريين. أضرّت العملية بصورة بريطانيا في الولايات المتحدة – وهذا اعتبار حرج نظراً إلى أن الاقتصاد البريطاني وحاجات بريطانيا الأمنية تعتمد على أميركا – إلا أنها، وهو الأهم، أجبرت الوكالة اليهودية على تغيير تكتيكاتها.[١] بل سبق للهاغاناه، حتى قبل ذلك، أن أعلنت في ١٢ أيار/مايو:

ترتكز السياسة البريطانية الراهنة على افتراض خاطئ: تقوم بريطانيا التي تنسحب من سوريا ولبنان ومصر [كذا] بتركيز قواعدها العسكرية في فلسطين وهي مهتمة بالتالي بإحكام قبضتها على الانتداب واستخدام مسؤوليتها عن الشعب اليهودي كوسيلة لهذه الغاية.... ونحن نحذّر بالتالي حكومة صاحب الجلالة بأنها إذا لم تف بمسؤولياتها بموجب الانتداب – وفوق ذلك كله في ما يتعلق بمسألة الهجرة – فستبذل حركة المقاومة اليهودية كل جهد لعرقلة نقل القواعد البريطانية إلى فلسطين ولمنع إقامتها في هذا البلد.[٢]

فضّلت الوكالة اليهودية وأجنحتها العسكرية، حتى حزيران/يونيو ١٩٤٦، استراتيجية المقاومة السلبية والتكتيكات العسكرية التقليدية. وقد حث على ذلك أيضاً عملية علاقات عامة استهدفت صانعي السياسة الأميركيين إضافة إلى المانحين اليهود في الولايات المتحدة. وعلاوة على ذلك كانت لزعماء صهاينة من أمثال

(١) Ben-Ami, Years of Wrath, 376; Morris, 1948, 35; Brenner, "Stern Gang," 132.

(٢) كما تم الاستشهاد بذلك في Sachar, History of Israel, 264065.

حاييم وايزمان اتصالات واسعة وعلاقات شخصية بالمؤسسة السياسية البريطانية وقد فضّلوا تجنب العنف المفرط. غير أن «عملية أغاتا» أثبتت أنها علامة فارقة حاسمة. فالقوات البريطانية، في محاولتها إضعاف القدرة العسكرية للطائفة اليهودية، قتلت وجرحت المئات من المارة الأبرياء وعاملت بقسوة الآلاف من اليهود الملتزمين بالقانون.

لم يأل البريطانيون جهداً، في عمليات المسح الضخمة للمدن اليهودية، في محاولة مطاردة كل من ينتمي إلى الهاغاناه والبالماخ والإيرغون أو عصابة شتيرن. ففي تل أبيب مشطوا أبنية المدينة مجمعاً مجمعاً، وتفحصوا بدقة الأقبية والعلّيات، ونقّبوا في المنازل والمدارس بل حتى المستشفيات، وغالباً ما قاموا بكسر قوالب جفصين المرضى الذين اشتبهوا في كونهم من المناضلين. ولم يكسب مثل هذا التدقيق الكثير من المفخرة للبريطانيين وضمن الكراهية الحارقة لليهود العاديين.(١)

أثبتت أفعال البريطانيين أنها أكثر مما يمكن للقيادة المعتدلة في الوكالة اليهودية تحمله. فلا يمكن للوكالة كمنظمة أن تتبع المتطرفين؛ وبات عليها بالتالي أن تقود المعركة ضد الإنكليز من أجل الحفاظ على زعامتها وتنسيقها للمقاومة اليهودية. وما جاء من تقارير، عقب المحرقة الفظيعة، عن اعتراض الإنكليز للسفن التي تنقل الناجين من المحرقة من أوروبا وأحياناً إغراقها، أدى في النهاية إلى انقلاب الرأي العام اليهودي في شكل عام – وخصوصاً في فلسطين – ضد بريطانيا. وانتهى الأمر بالكثيرين من المهاجرين، الذين أمسك بهم البريطانيون، سجناء في مخيمات في قبرص. وأثار مشهد اليهود من وراء الأسلاك الشائكة، ولو أن ذلك لا يشبه في شيء معسكرات الموت النازية، غضب الصهاينة المعتدلين والمتطرفين على السواء. وأدت هذه الأحداث المأسوية في النهاية، إضافة إلى الخيانة المفضوحة لحزب العمال في لندن وأفعال الجيش البريطاني في فلسطين، إلى تطرّف مجتمع بأسره وصيّرت الجيش البريطاني وحشاً.

(١) Sachar, History of Israel, 265.

دفع الانتصار البريطاني السهل على القوات التقليدية للوكالة اليهودية الكفاح اليهودي العسكري إلى السرّية. وبالرغم من موقف مسؤولي المكتب الاستعماري ضد سياسة «التشدد» التي زعموا أنها لن تؤدي إلا إلى تضخّم صفوف الإيرغون وعصابة شتيرن، أيّد الجيش البريطاني بقيادة رئيس هيئة الأركان الاستعمارية العامة الفيلد مارشال فيسكاونت مونتيغومري بطل العلمين استخدام التكتيكات القاسية.(١) وها هو الجيش البريطاني، بدلاً من محاربة وحدات الهاغاناه الضعيفة نسبياً والسيئة التسلح، يواجه عدواً غير منظور أدى الضرب والهرب ضد قواته وغير ذلك من أعمال التخريب إلى تجاوز حدود قدرته على السيطرة على فلسطين. واقتصرت كل الخبرة البريطانية السابقة في التعامل مع التمرد الفلسطيني على المناطق الريفية ونشأت من العمليات التي شُنّت ضد العرب في انتفاضة ١٩٣٦. إلا أن الإيرغون وعصابة شتيرن ركزتا جهودهما في شكل شبه تام في بيئة مدينية استخدمتاها لشن حرب عصابات في المدن. وعلاوة على ذلك ضمّ القسم السياسي في شعبة التحقيق الجنائي في الشرطة الفلسطينية، الوحدة الرئيسية المسؤولة عن الاستخبارات، الكثير من الموظفين الذين يتحدثون العربية، لكنه افتقر إلى موظفين يتحدثون العبرية أو اليديش.(٢)

برهنت التجربة السابقة ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي على عقم شن حرب خفية بوسائل تقليدية ضد عدو يضرب بسرعة ويختفي بالسرعة نفسها وسط عامة السكان. ففي خلال حرب الاستقلال في إيرلندا (١٩١٩-١٩٢١)، على سبيل المثال، نظّم مايكل كولينز من الجيش الجمهوري الإيرلندي طوابير متحركة من ١٥ إلى ٣٠ رجلاً تكمن لوحدات الجيش البريطاني أو الشرطة على طرق ريفية منعزلة أو في أزقة المدن؛ وتهاجم مخافر الشرطة؛ وتحرق مباني المحاكم ومكاتب الضرائب ومحطات خفر السواحل. ففي ١٩١٩ لوحدها شن الجيش الجمهوري الإيرلندي

---

(١) Richard J. Aldrich, The Hidden Hand: Britain, America and Cold War Secret Intelligence (New York: Overlook, 2002), 261.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٢٥٩.

ثلاثة آلاف غارة أدت إلى مقتل مئتي شرطي أو جندي.[١] أنشأ كولينز كذلك وحدة خاصة عرفت بـ«الفرقة» ضمت ١٢ متطوعاً اختيروا بعناية وأعدموا في يوم واحد ١٤ عنصراً من جهاز الاستخبارات البريطانية في خلال فترة نصف ساعة.[٢] ردّ البريطانيون بإنشاء وحدتين خاصتين لمكافحة التمرد – قوة الشرطة الملكية الإيرلندية الاحتياطية (بلاك أند تانز) وكتيبة الشرطة الملكية الإيرلندية الرديفة (أوكسيز) – ليرهبوا بهما الإرهابيين.[٣]

باشر عناصر «بلاك أند تانز» و«أوكسيز» حملة من العنف والترهيب لم تكسبهم سوى الخزي لكونهم مجرمين بطاشين. وأثبتت الشدة المفرطة لقوات مكافحة التمرد هذه لكولينز بأنها تشكّل فائدة كبرى إذ ضخّم الإيرلنديون الذين استفظعوا الأمر صفوف الجيش الجمهوري الإيرلندي فيما لطخت مثل هذه الفظاعات صورة بريطانيا في الخارج.[٤] قام البريطانيون، بالرغم من دروس إيرلندا، ولفترة وجيزة، بإنشاء وحدة خاصة في فلسطين لمكافحة الإرهاب بالإرهاب المضاد – وهي في الواقع محاولة فاترة في التعذيب والاغتيال أدت في فلسطين إلى عواقب مشابهة لعواقبها في إيرلندا. وقد برز التأثير المنهك لمثل هذه النشاطات على الموظفين البريطانيين من خلال إنهاء الحياة المهنية للرائد روي فرّان، وهي لولا ذلك حياة مهنية مميزة لضابط تلقى الكثير من الأوسمة، وقد اتهم بقتل فتى إرهابي فلسطيني بدم بارد.[٥]

(١) Mathew Carr, The Infernal Machine: A History of Terrorism (New York: New Press, 2007), 60.

(٢) Peter Taylor, Provos: The IRA and Sinn Fein (London: Bloomsbury, 1997), 21.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢٠. استحق الـ«بلاك أند تانز» اسمهم الغريب من بزاتهم التي تم جمعها على عجلٍ تألفت من فائض من بزات الشرطة الدكناء وفائض من سراويل الجيش الكاكية وهي تشبه قطيعاً شهيراً من كلاب صيد الثعالب: The Scarteen Black and Tans.

(٤) اعتقلت وحدة من «بلاك أند أتانز» في واحدة من هذه العمليات عدة عناصر في الجيش الجمهوري الإيرلندي في كيري بايك على مقربة من كورك وشرعت في قطع أنف أحد الرجال ولسان آخر وحطمت جمجمة ثالث واقتلعت قلب ضحية بائسة رابعة. (المصدر السابق).

(٥) Sykes, Crossroads, 308. هاجر فرّان، الذي تضمّنت أوسمته ميدالية الخدمة المميزة والصليب العسكري مع شريطتين، عقب ذلك إلى كندا حيث أصبح سياسياً ناجحاً في إحدى المقاطعات ووزيراً في الحكومة.

أنشأ نائب المفتش العام للشرطة الفلسطينية، اللواء برنارد فيرغوسون،[1] في شباط/فبراير ١٩٤٧، وحدة خاصة شبه عسكرية مؤلفة من سرايا (دوريات «كيو») ضمّت جنوداً سابقين في الجهاز الجوي الخاص (إس.آي.إس) وجهاز تنفيذ العمليات الخاصة ممن امتلكوا خبرة استخدام الإرهاب في خلال الحرب العالمية الثانية. واتخذت دوريات «كيو» هذه «إجراءات خاصة»، مثل التسلل والخطف والكمائن للإرهابيين، وهي إجراءات تقع خارج نطاق الشرطة والجيش النظاميين.[2] ووصف فرّان بنفسه الإثارة التي شعر بها لكونه جزءاً من هذه القوة الخاصة الجديدة لدى تلقيه أوامره:

> شُرح لنا الأمر في مقر الشرطة في القدس. سيتمتع كل منّا بالسلطة المطلقة في التصرّف كما يحلو له كل في المنطقة المحدّدة له. سنقدّم المشورة حول الدفاع ضد الإرهاب ونشارك في شكّل فاعل في مطاردة المنشقّين... شكّل ذلك، بكل مقاصده وأغراضه، تفويضاً مطلقاً وقد ملأني المفهوم الأصلي لدورنا بالحماسة. إطلاق يدنا ضد الإرهاب فيما يتعثّر الآخرون في شكل شبه تام![3]

جالت مجموعات الوحدة الخاصة بشاحنات نقل مدنية وتزيت بزي أفراد الطائفة اليهودية العاديين. قضت مهمتهم الأساسية بنصب الكمائن واعتقال من يُشتبه في انتمائهم إلى الإيرغون وعصابة شتيرن. إلا أن قضية روبوفيتز أضرّت بالعملية كلها. فقد اتُهم فرّان في أيار/مايو ١٩٤٧ بخطف وقتل ألكسندر روبوفيتز، ابن السادسة عشرة والعضو في عصابة شتيرن.[4]

رُبطت عملية خطف ألكسندر روبوفيتز بفرّان من خلال اكتشاف قبعة مدنية

---

(١) لم يكن فيرغوسون، وهو المعاون الشخصي السابق لوافل في فلسطين، غريباً عن العمليات الخاصة: فقد قاد وحدة «سينديت» (لواء المشاة الخامس عشر) في أدغال بورما وأنهى الحرب مديراً للعمليات المشتركة في القيادة العملانية للكوماندوس البريطاني وغيره من القوات الخاصة.

(٢) "Roy Farran (Obituary)," Daily Telegraph, 5 June 2006.

(٣) Roy Farran, Winged Dagger: Adventures on Special Service (London: Collins, 1970), 348.

(٤) Aldrich, Hidden Hand, 263.

من اللباد وعصابة رأس ذات حروف نافرة تحمل اسمه. وبقيت الشبهة تحوم حول الضابط بالرغم من أن هذا الدليل مثّل الرابط الوحيد، وبالرغم من فشل الشهود على اختطاف روبوفيتز في الإشارة إلى فرّان من ضمن ثلاثة طوابير من الناس.(١) وعلاوة على ذلك، قرر المفوض السامي البريطاني، بسبب حساسية الرأي العام الداعم للموقف اليهودي في فلسطين، وخصوصاً في الولايات المتحدة، وضع فرّان في السجن الاحتياطي تمهيداً لمحاكمته أمام محكمة عسكرية بتهمة القتل. وُضع فرّان في الإقامة الجبرية؛ لكنه هرب إلى سوريا عندما شعر بأنه قد يصبح كبش محرقة.(٢)

لم يتضح هل أُعطيت ضمانات لفرّان، لكنه سلّم نفسه إلى القنصل البريطاني في دمشق بعد ذلك بعشرة أيام. عُقدت المحكمة العسكرية في ٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ في القدس. وفي غياب أي دليل على أن روبوفيتز مات بالفعل – إذ لم يتم العثور على جثته – إضافة إلى فشل الادعاء في ربط فرّان مباشرة بجريمة القتل المزعومة، حكمت المحكمة بالتبرئة. لم يتم قط حل لغز اختفاء روبوفيتز. ومع ذلك، استقال فرّان من مهمته لدى عودته إلى إنكلترا، إلا أنه لم يكن في منأى عن متناول عصابة شتيرن. فقد وصل في ١٩٤٨ طرد إلى منزله؛ ولما فتحه شقيقه ريكس انفجر الطرد وقتله على الفور.(٣)

غير أنها ليست المرة الأولى التي يدفع فيها الإحباط والسخط والخوف السلطات البريطانية إلى اتخاذ إجراءات قصوى. فموت أبراهام شتيرن، الذي تتم الإفادة في الغالب بأنه قُتل في تبادل للنار مع الشرطة وهو يحاول الفرار، كان في الواقع عملية إعدام. وقد أبلغ البريطانيون ممثلين للـ«أو. أس. أس.» الأميركية في الشرق الأوسط أنه عندما اقتحم البريطانيون المنزل الآمن لشتيرن، كان المكان مطوّقاً، وهو غير

(١) المصدر السابق. اعترف فرّان لكن روايته المكتوبة للحادثة اعتُبرت غير مقبولة.

(٢) "Major Roy Farran (Obituary)," The Times, 6 June 2006.

(٣) المصدر نفسه.

مسلح. لكن الشرطة فتحت النار وقتلته حين رفع يديه مستسلماً. وكان التفسير الذي قدمه البريطانيون لأندادهم الأميركيين هو أن شتيرن أخطر من أن يُترك حيّاً.(١)

كان إنشاء الوحدة الخاصة في فلسطين بمنزلة إيجاد وسيلة رسمية للتعامل مع الإرهابيين بما هو أبعد من متناول الشرطة والأجهزة الأمنية التقليدية. وقد عملت لأقل من شهر؛ وذلك هو المدى الذي استُخدم فيه خبراء حرب العصابات في فلسطين.

دفعت الحاجة البريطانيين، في مطلع الحرب، إلى اللجوء إلى استخدام غارات الكوماندوس بالتزامن مع النشر الخفي للقوات الخاصة إلى جانب تنظيمات المقاومة التي تحارب دول المحور. فبعد هزيمة فرنسا وانسحاب قوة البعثة العسكرية البريطانية في دانكرك، وافق تشيرشل على إنشاء جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، الذي، ومن سخرية الأمور، تبنى الكثير من تكتيكات الجيش الجمهوري الإيرلندي واستخدمها لتدريب منظمات المقاومة التي انطلقت في أوروبا الواقعة تحت احتلال المحور. وقد سبق لكل من كولن غوبينز وجي. سي. هولاند، اللذين ابتكرا الإطار المفهومي والتنظيمي لجهاز تنفيذ العمليات الخاصة، أن خدما في إيرلندا في خلال فترة «الاضطرابات» ودرسا تقنيات الجيش الجمهوري الإيرلندي التابع لمايكل كولينز لاستخدامها مع قوى المقاومة في أوروبا المحتلة.

وقضى جزء من انتداب جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في أن يكون، في شكل أساسي، فاسقاً سياسياً و»على استعداد للعمل مع أي رجل أو مؤسسة، كاثوليكية أو ماسونية، تروتسكية أو ليبرالية، نقابية أو رأسمالية، عقلانية أو شوفينية، راديكالية أو محافظة، ستالينية أو فوضوية، أممية أو يهودية، يمكنها مساعدته على التغلب على النازيين»(٢). لكن وبالرغم من أن جهاز تنفيذ العمليات الخاصة درّب آلاف اليهود

(١) Robert Kumanato, Internation Terrorism and American Foreign Relations (Boston: Northeastern University Press, 1999), 17.

(٢) M. R. D. Foot, S.O.E. in France: An Account of the Work of the British Special Operations Executive in France, 1940-1944 (London: HMSO, 1966), 13-14. يمكن العثور في النص الأصلي على الاستخدام الغريب لرسائل لورنس.

على الاستعداد للاحتلال الألماني المحتمل لفلسطين، إضافة إلى المئات غيرهم، للعمل الخفي وراء خطوط العدو في أوروبا المحتلة، لم تتم دعوتهم إلى أداء دور في محاربة المقاومة اليهودية في فلسطين. هذا بالرغم من أنه سبق لجهاز تنفيذ العمليات الخاصة أن توقّع، في ربيع ١٩٤٣، المشاكل في شرق أوسط ما بعد الحرب واقترح استخدام اتصالاته مع مثل هذه المنظمات السرّية لتحديد المجموعات الإرهابية المحتملة واختراقها.[١]

حُلّ جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في ١٩٤٥، ولم تجد سوى حفنة من الخبراء وظيفة مع جهاز الاستخبارات السرّية، الذي يُعرف أيضاً باسم «أم.آي٦». وقد واجه البريطانيون صعوبات مماثلة في اليونان وإيطاليا وفرنسا في حقبة ما بعد الحرب حيث حوّلت هذه التنظيمات نفسها على الفور إلى منظمات سياسية على تناقض مع السياسة البريطانية. وفي تلك الحالات أيضاً ضاعت الذاكرة المؤسساتية المقيمة مع جهاز تنفيذ العمليات الخاصة عندما حُل التنظيم السرّي بعد نهاية الحرب. وتولّت «أم.آي٦» في الواقع مهمة التعاطي مع المنظمات السرّية السابقة وهي تكاد لا تملك أي معرفة أو اتصالات أو فهم للشخصيات أو للتطلعات السياسية للمقاومة في تلك البلدان.[٢] ففي اليونان على سبيل المثال، ساهمت السلطات العسكرية والسياسية البريطانية في سلسلة من الأحداث التي أدت إلى انتفاضة كبرى في أثينا، وذلك لأنها لم تعرف الكثير عن حساسيات وتعقيدات المشهد السياسي في يونان ما بعد الحرب.[٣]

وتصعب، في أفضل الظروف، مواجهة حرب العصابات في المدن من دون نشر قوة مفرطة وشبكات واسعة من المخبرين والجواسيس. وفي معظم الحالات تؤدّي الديناميةالقائمة بين حركات المقاومة وقوات مكافحة التمرد إلى أن تجرّ المقاومة

(١) 89846, HS 7/269, TNA.

(٢) André Gerolymatos, Guerrilla Warfare and Espionage in Greece. 1940-1944 (New York: Pella, 1992), 335-36.

(٣) André Gerolymatos, Red Acropolis, Black Terror: The Greek Civil War and the Origins of Soviet-American Rivalry (New York: Basic, 2004), passim.

جيش الاحتلال إلى شن حرب على عامة السكان. وتحقق المقاومة في هذا السياق ثلاثة أهداف حاسمة: فهي تجبر أوّلاً قوة تقليدية على تنفيس غضبها بالمواطنين العاديين الملتزمين في الغالب القانون مما يدفع الكثيرين منهم إلى الانضمام إلى المجموعات السرّية بفعل الغضب أو الخوف؛ وهي، ثانياً، تستخدم الإرهاب لتبرهن على أن المقاومة تسيطر على الشوارع والمناطق الريفية؛ وتقوم، ثالثاً، بخلق الشهداء. وهي تحقق الهدف الأول من خلال القتل العشوائي للجنود واغتيال الضباط الكبار والمسؤولين؛ والثاني من خلال عمليات تخريب لأهداف أساسية؛ والثالث من خلال جرّ العدو إلى إعدام مقاتلي المقاومة الذين يُرفعون نتيجة ذلك إلى مصاف الأبطال الوطنيين.

نجحت أجهزة الأمن والاستخبارات البريطانية، ما بين ١٩٣٩ و١٩٤٦، في تحديد وتوقيف وقتل عدد كبير من المناضلين اليهود، غير أنها واجهت بعد عملية «أغاتا» عدداً جديداً من المجنّدين المجهولين الذين انضمّوا إلى الكفاح الخفي في خلال الفترة الانتقالية.[١] سبق للهاغاناه وللوكالة اليهودية، قبل ١٩٤٦، أن ساعدتا، مباشرة وغير مباشرة، البريطانيين على اعتقال أفراد من عصابة شتيرن، لكن هذا التعاون انتهى نتيجة أعمال مكافحة التمرد البريطانية. والعاقبة الأخرى لعملية «أغاتا» هي في أنها أدت إلى تحالف بين الهاغاناه والإيرغون وعصابة شتيرن. وأضاف التعاون بين من سبق وصفهم بـ«الإرهابيين» والذراع العسكرية الرسمية للوكالة اليهودية المزيد من المصداقية إلى الإيرغون وإلى عصابة شتيرن. وأعطت مبادرة القيادة القائمة للطائفة اليهودية، التي تحظى بالاحترام، إلى تغيير تكتيكاتها دعماً فاعلاً لحرب الإرهاب الخفية التي شرعت فيها أساساً الإيرغون وعصابة شتيرن وأضفتا عليها الشرعية.[٢]

(١) نجح مفكّكو الرموز البريطانيون في ١٩٤٦ في التنصت على الاتصالات بين الوكالة اليهودية في فلسطين وممثليها في لندن وباريس. وتمكنت أجهزة الأمن البريطانية نتيجة ذلك من توقيف ٢,٦٥٠ رجلاً و٥٩ امرأة. أنظر Ben-Ami, Years of Wrath, 375-76.

(٢) Brenner, “Stern Gang,” 132.

وأدت، علاوة على ذلك، كل محاولات الترويع التي قام بها البريطانيون إلى ردة فعل عكسية، لأن أعمال البريطانيين الوحشية مدّت المقاومة اليهودية بفيالق من المؤيدين وآلاف من المجنّدين. حاول البريطانيون فرض فترات سجن طويلة ولجأوا إلى الجلد والإعدامات لمحاربة «الإرهابيين»، لكن عصابة شتيرن والإيرغون ردتا بالمثل. وفي إحدى المرات، عندما حكم البريطانيون على فتيين من الإيرغون بخمس عشرة سنة سجناً وثماني عشرة جلدة هدّدت عصابة شتيرن بالانتقام. وقام البريطانيون في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٦ بجلد واحد من الفتيين، فردت شتيرن بخطف رائد بريطاني وثلاثة ضباط صف وقامت بجلدهم.

استسلم البريطانيون ولم يجلدوا الفتى الثاني. وفي نيسان/أبريل ١٩٤٧، أعدم البريطانيون شنقاً أربعة مقاتلين من الإيرغون، وأتبعوا ذلك بمزيد من الإعدامات. فأسرت الإيرغون بعد فترة وجيزة ضابطي صف بريطانيين وشنقتهما في إحدى الأشجار.[١] وأصيب رجال الشرطة والجنود البريطانيون في تل أبيب بشعور من الإحباط والعجز والغضب بعد إعدام ضابطي الصف البريطانيين الأمر الذي أثار حالة من الهيجان. وفي الوقت الذي تمت فيه إعادة النظام كان قد قُتل ستة يهود وجرح ١٦ وأحرقت عشرات المتاجر اليهودية. اجتاح الجنود البريطانيون بسيارة مصفّحة موكباً جنائزياً؛ وفتح رجال شرطة النار على أحد الباصات وأطلقوا الرصاص على مقهى مزدحم.[٢] لكن البريطانيين تفادوا، منذ ذلك الحين وحتى استقلال إسرائيل، تنفيذ المزيد من الإعدامات.

سيطرت المنظمات السرّية بالفعل على الشوارع وتحدت البريطانيين بنجاح في شأن أمن فلسطين. وكما سبق لكل جيش احتلال أن اكتشفه – وما تنساه في العادة الجيوش التالية – يميل ميزان المعركة لمصلحة القوة التي تضمن الأمن. فلم يكن من شيء خارج متناول الإرهابيين اليهود، وسرعان ما مثّلت فلسطين خطراً على

(١) فخخت الإيرغون أيضاً الجثتين مما أدى إلى مزيد من الإصابات البريطانية. أنظر المصدر السابق، ص. ١٣٧-٣٨.

(٢) Aldrich, Hidden Hand, 262.

الموظفين البريطانيين – فالموت يتربص بهم في زقاق ما أو في شارع رئيسي في وضح النهار – وأصبحت السلامة وهماً.[1] وأمكن البريطانيين تركيز قوة ساحقة في مدينة محدّدة أو منطقة، وفرض منع التجوال، والقيام باعتقالات جماعية، إلا أن كادرات الإيرغون وعصابة شتيرن كانوا يختفون ببساطة ويضربون في مكان آخر. وسبق للمنظمتين أن اعتمدتا السرّية حتى قبل نشوب الحرب العالمية الثانية وتفادتا منع التجوال بإصدار تعليمات للأعضاء في المناطق باستخدام تقديرهم الخاص في تنفيذ العمليات. ونجح البريطانيون في زيادة أعضاء البالماخ بما يقارب الخمسين في المئة، لكن ذلك ترك الساحة مفتوحة للإيرغون وعصابة شتيرن الأكثر خبرة لشن معركة غير تقليدية ضد قوة تقليدية محبَطة.[2]

برهن اغتيال اللورد موين وإعدام الضباط البريطانيين وقتل الجنود العاديين في فلسطين على أن ما من أحد بمنأى عن متناول أيدي رجال حرب العصابات المدينية. وأبرزت الإيرغون هذا في شكل أكبر في ٢٢ تموز/يوليو ١٩٤٦. ففي ذلك اليوم جلبت مجموعة صغيرة من الإيرغون المتنكرين بزي عربي شحنات ناسفة في أباريق الحليب إلى البهو الواقع خارج مقهى ريجنسي في الطابق السفلي لفندق الملك داود. وقد صادر البريطانيون هذا الجزء بالذات من الفندق، وهو مؤلف من خمس طبقات في الجناح الجنوبي، واستخدموه مقرّاً للإدارة. بعد تجهيز المتفجرات اتصلت امرأة مجهولة بمقسم هاتف الفندق وقالت إن انفجاراً سيحصل في غضون دقائق قليلة وإنه يجب إخلاء جميع من في الفندق.[3]

(١) تكهن أمن الجيش البريطاني في فلسطين عن حق، منذ ١٩٤٦، أن عصابة شتيرن تبنت تكتيكات إرهابية جديدة من خلال الكمون بلا تمييز للموظفين البريطانيين وقتلهم كجزء من خطة المنظمة للاغتيال ([1] 1282, KV 5/30, TNA).

(٢) قدّرت أجهزة الأمن البريطانية في كانون الثاني/يناير ١٩٤٧ أن الإيرغون وعصابة شتيرن تضمان ٤٧٤ عضواً تقريباً (أو من يشتبه فيهم بأنهم أعضاء) ولم يمكنها تحديد بلد منشأ إلا ١٢٩ منهم فقط. وجاءت الغالبية من روسيا (١٣) وبولندا (٥١) وفلسطين (٢٤)؛ وجاء الباقون من تشيكوسلوفاكيا (٩) والنمسا (٨) ورومانيا (٧) وألمانيا (٧) وليتوانيا (٤) وبلغاريا (٢) والمجر (١) ومصر (١) وتركيا (١) وإيران (١). لكنها لم تتمكن من تحديد أصول الأعضاء الـ٣٤٥ الآخرين. (H. J. Seager to S. H. E. Burley, 6 November 1947, KV 5/38, TNA)

(٣) Clarke, Blood and Fire, 211.

ومن سوء الحظ أنه تم تجاهل تحذيرها. وانفجرت الشحنات عند الساعة ١٢:٣٧ بعد الظهر وتحوّلت الطوابق الخمسة والغرف العشرون فوراً إلى ركام. فقد ٩٢ بريطانياً ويهودياً وعربياً حياتهم. ومن بين الضحايا مسؤولون عسكريون ومدنيون بريطانيون إضافة إلى الجنود والكتّاب والطابعين والمنظّفين والسائقين والسعاة. وقد استهدف الإرهابيون مقرّ الإدارة العسكرية البريطانية لفلسطين إضافة إلى عدة أقسام من حكومة فلسطين. وما له القدر نفسه من الأهمية أن الفندق مثل رمزاً للسلطة الإمبريالية البريطانية - والمؤسف للبريطانيين أنه كان أيضاً مركزاً لعملياتهم في مكافحة التجسس والتمرد.[١] كان الدمار وما نتج من ذلك من خسائر في الأرواح متواضعاً بالمقاييس المعاصرة، إلا أن تدمير الفندق شلّ في شكل فاعل قدرة أجهزة الأمن البريطانية على المشاركة في الحرب الخفية التي تشنها المقاومة اليهودية.

دانت الوكالة اليهودية التفجير على أنه «جريمة خسيسة» ارتكبتها «عصابة من الخارجين على القانون» ودعت يهود فلسطين إلى «الانتفاض ضد هذه الفظاعات البغيضة». ولم يكن الأمر مجرّد كلام، بل نفوراً حقيقياً من الهجوم الإرهابي البذيء المُرتكب في قلب القدس. فمعظم الضحايا من الرجال والنساء العاديين - جنود، يهود أبرياء، وعرب -ومعظم القتلى والجرحى من بينهم كانوا من العرب.[٢] وقد نظّمت الوكالة اليهودية تذكاراً في اليوم التالي، فتوقّف عند الثالثة من بعد ظهر الثالث والعشرين من تموز/يوليو العمل وحركة السير فيما وقف الناس لثلاث دقائق من الصمت حداداً على القتلى.

انتصر البريطانيون مرّة أخرى في الساحة الأخلاقية، ولكن ليهدروا الفرصة في شكل شبه فوري. فقد أثبت الهجوم على فندق الملك داود وعواقبه أنه دون جدوى - حالة تمكنت فيها الزعامة اليهودية من إيقاف موجة الإرهاب التي عمت كل

(١) Aldrich, Hidden Hand, 261.

(٢) Clarke, Blood and Fire, 250.

فلسطين.[١] سوى أن البريطانيين أساؤوا الفهم أو لم يهتموا بالتفريق بين المعتدلين والراديكاليين. فبعد ثمانية أيام على تدمير فندق الملك داود عزل البريطانيون تل أبيب وقاموا على مدى أربعة أيام بعملية بحث من منزل إلى منزل انتهت بتوقيف ثمانمئة يهودي، لم يشارك أي منهم في التفجير، وأُرسلوا عقب ذلك إلى معسكرات الاعتقال.[٢]

مثل الاعتقال المتسرّع لليهود عملاً نابعاً من العجز اليائس في مواجهة خصم مصمّم وعنيد أكثر منه عملية مدروسة بعناية ترتكز على معلومات موثوق بها. صعب على الأجهزة الأمنية اعتقال الإرهابيين لأن التغلغل في تنظيمات المجموعات المتطرفة المتماسكة لم يكن بالأمر السهل. فإلياهو حكيم، أحد قتلة موين، هو على سبيل المثال صديق الطفولة لأميهاي باغلين قائد العمليات في الإيرغون.[٣] إلا أن حكيم لم يكشف بعد توقيفه أي شيء عن عصابة شتيرن أو الإيرغون بالرغم من التحقيقات واحتمال إعدامه شنقاً.

عانت العلاقات العامة البريطانية ضربة كبرى أخرى بعد وقت قصير على التفجير، عندما سطّر القائد الأعلى في فلسطين، الجنرال السير إيفلين باركر، رسالة سرّية اقترح فيها معاقبة «اليهود بالطريقة التي يكرهها عرقهم – بالضرب على جيوبهم»[٤]. واقترح باركر حظر أي تآخ بين الجنود البريطانيين والمجتمع اليهودي. أصبحت الرسالة، التي كُتبت بعد فترة وجيزة على الانفجار، كابوس العلاقات العامة البريطانية وألحقت ضرراً كبيراً بصورة بريطانيا في العالم، وخصوصاً في الولايات المتحدة، بإضفائها مصداقية على ادعاءات العداء للسامية وبصرفها الانتباه عن مأساة فندق الملك داود.[٥] وبالرغم من أن الهاغاناه أنهت علاقتها بالإيرغون وبعصابة شتيرن

---

(١) وافقت الهاغاناه على الهجوم لكنها طلبت لاحقاً تأجيله. أنظر Clarke, Blood and Fire, 45, 144.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٥١.

(٣) المصدر السابق، ص. ٤٠.

(4) Sykes, Crossroads, 301.

(٥) Clarke, Blood And Fire, 251-52.

نتيجة التفجير، فإن التكتيكات العنفية للأخيرتين احتفظت بدرجة من درجات المشروعية في المجتمع اليهودي. ورفعت الإيرغون، علاوة على ذلك، عدد هجماتها وحدّتها. وحاولت الإيرغون أيضاً، بالإضافة إلى التفجيرات والخطف والإعدامات الانتقامية للجنود البريطانيين، اغتيال مسؤولين بريطانيين خارج فلسطين.

افترضت المؤسسة السياسية والعسكرية في لندن والقدس بأن في وسعها الإمساك بفلسطين بغض النظر عن هندسة جغراسية ما بعد الحرب ومأساة المحرقة الوجدانية التي تعتصر القلوب. وكان الجيش البريطاني، علاوة على ذلك، غير مجهّز كما يجب لخوض حرب ليس فيها حدود موضوعة للتمييز بين المدنيين والمقاتلين. وفشلت «أم.آي٦» و«أم.آي٥» والاستخبارات الميدانية في تقدير الفروق بين الجيش النظامي الذي تمثّله الهاغاناه والوحدات شبه العسكرية مثل البالماخ وبين الإيرغون وعصابة شتيرن الأكثر راديكالية.

اعتمد البريطانيون في شكل كبير على الاستخبارات الإلكترونية (كسر الرموز) التي يحددون من خلالها الأعضاء اليهود في المنظمات غير الشرعية. وإحدى مشاكل هذه الطريقة هي في انتماء كل عضو تقريباً في المجتمع اليهودي إلى إحدى المنظمات السرّية. وغرق البريطانيون في غمرة المشتبه فيهم. أما الصعوبة الأخرى فهي أن الإيرغون وعصابة شتيرن، إضافة إلى غيرهما من المجموعات المتطرفة، صغيرتان ولا يسهل اختراقهما بعملاء مزدوجين. فعلى سبيل المثال، عندما اغتالت مجموعات منشقة عن عصابة شتيرن، عرفت بالجبهة الوطنية، الكونت فولك برنادوت في ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨،[1] فشلت الاستخبارات البريطانية وأجهزة الأمن في الكشف عن المؤامرة لأن المجموعة المنشقة صغيرة وقد انفصلت حديثاً عن عصابة شتيرن. وفشل قسم الاستخبارات المركزية في اختراق الإيرغون أو عصابة شتيرن بالرغم من أنه تمكن من اختراق الهاغاناه والبالماخ وحصل على محاضر اجتماعات

---

(١) قُتل برنادوت لأنه اعتُبر منحازاً إلى العرب. أنظر Brenner, "Stern Gang," 137.

اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في غضون ساعات على اجتماعاتها.[1] ونجحت الحركات اليهودية السرّية في المقابل في زرع عملاء لها في الشرطة وفي عدد من أقسام حكومة فلسطين. وفي ١٩٤٧ فكّرت لجنة الاستخبارات المشتركة مليّاً في أن الكثيرين في الإيرغون وعصابة شتيرن تلقوا التدريب على يد الـ«أم.آي٦» وجهاز تنفيذ العمليات الخاصة، وأخذوا يستخدمون أسرار المهنة ضد البريطانيين.[2]

تولّت «أم.آي٥» مسؤولية التعامل مع المقاومة اليهودية في الوقت الذي عملت فيه «أم.آي٦» أيضاً في فلسطين من دون أن تُكلّف جمع المعلومات الاستخبارية عن المنظمات اليهودية الراديكالية، بل أعطيت بدلاً من ذلك التعليمات بمنع دخول اللاجئين من أوروبا. ويذكر تاد زولتش أن وزير الخارجية العمالي أرنست بيفن أعطى تعليمات للـ«أم.آي٦» لتنفيذ عمليات خاصة ضد اليهود.[3] وحتى ذلك الوقت كان جهاز تنفيذ العمليات الخاصة لوحده يتولى عمليات التخريب والتآمر والاغتيال فيما حصرت «أم.آي٦» نشاطاتها بجمع الاستخبارات.

لجأت «أم.آي٦»، وهذا ليس بالمفاجئ، إلى عناصر جهاز تنفيذ العمليات الخاصة لشن حملة تخريب ضد نقل اللاجئين اليهود إلى فلسطين. وأنشأ جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في ١٩٤١ فرقاً خاصة لتنفيذ عدة مهمات تخريب في الاجتياح المخطط له لسوريا الواقعة تحت سيطرة فيشي، تضمنت الخبرة في نسف السفن. وكان كاتال أوكونور هو الخبير الذي وقع عليه الاختيار للتدرب مع جهاز تنفيذ العمليات الخاصة على تقنيات تدمير السفن وغير ذلك من عمليات التخريب؛ وبعد الحرب

(١) إحدى الصعوبات تمثلت في أن الإيرغون وعصابة شتيرن تألفتا من خلايا صغيرة مستقلة. ولم يستخدم أفراد الخلايا أسماءهم الحقيقية أو عناوينهم بحيث إذا تم توقيف أحدهم فلن يتمكن من القيام بالكثير لمساعدة السلطات. أنظر Aldrich, Hidden Hand, 258.

(٢) Final, Possible Future of Palestine, 9 September 1947, JIC(47)5(0), IOR/L/WS/1/1162, India Office Records (IOR), British Library (BL).

(٣) Tad Szulc, The Secret Alliance: The Extraordinary Story of the Rescue of the Jews Since World War II (London: Macmillan, 1991), 48-50.

ضمّت «أم.آي٦» فريق أوكونور إلى تنظيمها تحت اسم «فيالق كنت الخاصة».[١]

قضت مهمة «فيالق كنت الخاصة» بمنع السفن التي استأجرتها الوكالة اليهودية من بلوغ فلسطين. وحاول أعضاء هذه القوة، في شكل عام، إغراق مثل هذه السفن عندما يشغّلها طاقم صغير جداً وترسو خارج الموانئ. ففي صيف ١٩٤٧ وصلت أكبر سفينتين استحصلت عليهما الوكالة اليهودية، «بان يورك» و«بان كريسنت»، إلى كل من ميناءي مرسيليا والبندقية. وتمكنت «فيالق كنت الخاصة» من تفجير «بان كريسنت»، لكن منظمة «موساد ليعاليّه بت» (مؤسسة الهجرة غير الشرعية)، رائدة الموساد، تمكنت من تأمين إصلاح السفينة التي غادرت إلى جانب «بان يورك» إلى ميناء كونستانزا في رومانيا.[٢]

نظر البريطانيون في استخدام قدرات أسلحة إشارتهم لتضليل سفن اللاجئين من خلال بعث رسائل لاسلكية مزوّرة وتوجيهها إلى حيث يمكن للبحرية الملكية اعتراضها. لكن تقرّر أن المنظمات اليهودية ستكتشف هذا التكتيك سريعاً وتغيّر ترددات موجاتها اللاسلكية فيستحيل بذلك على سلاح الإشارة البريطاني في مقر الاتصالات الحكومي تعقبها.[٣] وركّز البريطانيون بدلاً من ذلك أربعة أسراب للتصوير الاستطلاعي الجوي في فلسطين أدت، بالاشتراك مع سلاح الإشارة، إلى اعتراض ١٧ سفينة في ١٩٤٦. وأدى هذا إلى هجمات جديدة شنتها الإيرغون وعصابة شتيرن وإلى مزيد من الإضرار بصورة بريطانيا في الخارج. معظم السفن لم يكن صالحاً للملاحة، واضطرّ البريطانيون إلى احتجاز من على متنها في مخيمات أقاموها في قبرص.[٤] وهذا أيضاً ما حصل في نهاية الأمر لمن كانوا على متن «بان كريسنت» و«بان يورك». وبالرغم من كونهما صالحتين للملاحة فقد حاصرتهما البحرية الملكية

(١) Dorril, MI6, 547.

(٢) Jon Kimche and David Kimche, The Secret Roads: The "Illegal" Migration of a People, 1938-1948 (London: Secker & Warburg, 1954), 161.

(٣) Illegal Immigration to Palestine, 9 September 1947, LCS (47) 5, CAB 81/80.

(٤) Roy C. Nesbit, Eyes of the RAF: A History of Photo-Reconnaissance (Kettering: Sutton, 1996), 267-68.

وواكبتهما إلى قبرص حيث أُنزل ركابهما الـ١٥ ألفاً واحتجزوا في الأول من كانون الثاني/يناير ١٩٤٨.(١)

تمكّن الكثيرون من اللاجئين اليهود من مغادرة البلقان بمساعدة من وسائل النقل العسكرية الأميركية إضافة إلى مساعدة من عملاء سرّيين يرتدون زي العناصر الأميركيين.(٢) أنشأ جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، في إبان احتلال المحور للبلقان، طرق هروب تمتد من البلقان عبر اليونان إلى عدة جزر من بين آلاف الجزر اليونانية في بحر إيجه، وأخيراً إلى فلسطين ومصر. وهدفت هذه الطرق السرّية إلى تسهيل هروب مئات الآلاف من الجنود البريطانيين الذين علقوا بعد انسحاب قوة التدخل البريطانية في نيسان/أبريل ١٩٤١ من اليونان. وكان عدد من عملاء جهاز تنفيذ العمليات الخاصة من الفلسطينيين اليهود الذين استخدموا خبرتهم في زمن الحرب لترتيب تهريب اللاجئين إلى فلسطين.

لاقت احتجاجات البريطانيين لدى واشنطن أذناً صماء. فإدارة هاري ترومان لم تكن راغبة في إثارة الرأي العام في الولايات المتحدة من خلال ربطها بالسياسة البريطانية المناوئة لليهود. وقد حلّت مسألة الصوت اليهودي الأميركي في ما هو أبعد من خزي منع ضحايا المحرقة ومعسكرات الموت من مغادرة شواطئ القارة التي أنزلت بهم كل مهانة يمكن تخيّلها وصولاً إلى الإبادة الجماعية. وبنتيجة ذلك غيّرت بريطانيا تكتيكاتها وحاولت تصوير سكّة اليهود السرّية على أنها جزء من خطة سوفياتية لإغراق فلسطين بآلاف الشيوعيين المتشدّدين. وقد تمكّنت الـ«كا. جي.بي.» من إرسال عدة عملاء اختارتهم بعناية متنكّرين كلاجئين، غير أن شبح جيش من اليهود الشيوعيين السوفيات الذين يصلون إلى الغرب بوصفهم لاجئين شكّل خداعاً كبيراً للذات من قبل الـ«أم.آي٦».(٣)

(١) Dorril, MI6, 549.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٤٨.

(٣) أعدّت أجهزة الاستخبارات والأمن البريطانية عدة تقارير تشير إلى أن عصابة شتيرن والإيرغون، بل حتى الهاغاناه، كانت على اتصال بالسوفيات أو تلقت منهم الأموال. (KV 5/39, TNA)

وعلى العموم، شكّلت جهود الاستخبارات البريطانية في فلسطين فشلاً ذريعاً. ويستنتج ريتشارد ألدريتش في دراسته الموثوق بها عن الاستخبارات البريطانية والأميركية في الحرب الباردة أن: «فلسطين مثلت حرباً استخبارية خسرتها بريطانيا. فقوات الأمن البريطانية فاقت خصومها عدداً بأكثر من عشرين إلى واحد، وهو معدّل أفضل مما تمتع به البريطانيون لاحقاً في حملتهم الناجحة ضد رجال حرب العصابات في مالايا (١٧ إلى واحد)»[١].

قلّل مجتمع الاستخبارات البريطانية، وكذلك الحكومة، من شأن وقع المحرقة، ليس على المجتمعات اليهودية في العالم وحسب، بل أيضاً على الرأي العام الأوسع في أوروبا والولايات المتحدة. فقد أثار الحظر البريطاني الذي منع اللاجئين اليهود – معظمهم من الناجين من معسكرات الموت – من الدخول إلى فلسطين استفظاع المنظمات الراديكالية واستمر في تنشيطها. وفي غضون ذلك، ومن سخرية الأمور، أن مجموعات مثل الإيرغون وعصابة شتيرن أخذت في استخدام اليهود ممن تلقوا تدريباً بريطانياً ضد البريطانيين. ففي ١٩٤١ على سبيل المثال سلّح البريطانيون ودرّبوا يعقوف ميريدور وديفيد رازئيل لاغتيال المفتي. قُتل رازئيل في المهمة الفاشلة لكن ميريدور أصبح عندئذ قائداً للإيرغون وجنّد، قبل أن يعتقله البريطانيون من جديد، الرجل المسؤول عن تحضير الشحنات الناسفة للانفجار الذي دمّر فندق الملك داود.[٢] وأجبرت الحرب السرّية البريطانيين في النهاية على الانسحاب من فلسطين، وأصبحت إسرائيل في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨ دولة. وانتقلت ساحة العمليات السرّية على الفور إلى مناطق الشرق الأوسط المسلمة وقد باتت الآن تضمّ الأميركيين.

بالرغم من أن الحرب غير المعلنة في فلسطين استمرّت لعامين فقط، فإنها أظهرت عالماً مصغّراً من الإرهاب الذي لا نهاية له ومن مكافحة الإرهاب سيربك، لعقود تالية، صانعي السياسة في واشنطن ولندن إلى جانب مؤسساتهم الاستخبارية.

(١) Aldrich, Hidden Hand, 257.

(٢) Clarke, Blood and Fire, 43.

وعندما أصبحت إسرائيل جمهورية في أيار/مايو ١٩٤٨ ألحقت بها جميع المنظمات الراديكالية والمتطرفة والإرهابية الموجودة. وعاد بعض الإرهابيين السابقين إلى الحياة المدنية؛ ووجد آخرون وظائف لهم في أجهزة الاستخبار والأمن الإسرائيلية الجديدة. وبعد ١٩٤٨، شرع إرهابيو الأمس في محاربة إرهابيي الغد.

تحوّل بعض العرب، وقد واجهوا الهزيمة على أيدي الإسرائيليين في ١٩٤٨، إلى العمليات السرّية ليحاربوا بواسطتها دولة إسرائيل، وفي النهاية البريطانيين والأميركيين أيضاً. وعلى عكس عناصر الإيرغون وعصابة شتيرن السابقين الذين أمكنهم البدء بحياة سياسية أو مهنية جديدة في إسرائيل الحديثة والديمقراطية، واجه نظراؤهم العرب الفلسطينيون حياة مؤبدة بوصفهم لاجئين محترفين. فكل فشل في محاولة استعادة فلسطين ضاعف من إحساسهم بالإحباط والخيانة. لقد لطخت خسارة فلسطين ضمير أجيال من العرب في الشرق الأوسط إضافة إلى مسلمي باقي العالم. وثار غضب الكثيرين لعجز العرب عن هزم إسرائيل وهو عجز ربطوه بعلمانية الدولة العربية. ففلسطين المحتلة – كما تُسمّى إسرائيل – شكّلت بالنسبة إلى الكثيرين من العرب جزءاً من تاريخ الإذلال الذي افتُتح بسقوط الأمبراطورية العثمانية ونهاية السلطان ـ الخليفة.

اجتذبت الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى في ١٩٤٨ آلاف الإخوان المسلمين الذين تطوعوا للقتال في فلسطين التي أصبحت ساحة تدريب للمجاهدين الراديكاليين والإسلاميين بالرغم من أنها تجسّد الهزيمة. وأصبحت، في الوقت نفسه، تنظيمات مثل الإخوان المسلمين قوات صدم الحكومة المصرية؛ غير أنهم سرعان ما استداروا على نظام الملك فاروق العلماني والمفلس. ففي طيف السياسة المتقلّب في الشرق الأوسط تنافست العلمانية والعروبة والإسلام من دون هوادة في صراع حياة أو موت للسيطرة على الدول المسلمة. حققت العلمانية العربية والقومية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانيةتفوّقاً سطحياً أنتج مجموعة جديدة من الزعماء عادت سياستهم الإنكليز في البداية ومن بعدهم الأميركيين. ونُظر إلى الإسلام بوصفه الترياق الشافي من القومية العربية واجتذب هذا الهدف أجهزة الاستخبارات الأنكلو ـ بريطانية كما

تجتذب النار الفراشة. وفي العقد الأول الذي تلا الحرب العالمية الثانية واصل الأميركيون السياسة البريطانية القاضية بتوفير خدمات الرجال المسلمين الأقوياء – شخصيات دينية أو علمانية – ممن لهم تأثير في الشرق الأوسط بالنيابة عن واشنطن وممن يمنعون في الوقت نفسه المنطقة عن السوفيات.



١٤

الـ«سي.آي.إي.» وعبد الناصر: بيلي غراهام المسلم

«محاولة عبد الناصر أداء دور كليوبترا الذكوري من خلال التلاعب بالقوتين العظميين والعناد البريطاني بالتمسك ببقايا الأمبراطورية اتجها إلى صدام، وصدام سيّىء، ولو أنه ليس واحداً خسرنا فيه، كما فعلنا، ثقة الجميع».

ـ دين أتشيسون(١)

اعتقدت إدارة ترومان، منذ ١٩٤٧، أن مصر تبدو مهيّأة للتوغل السوفياتي ما لم تستبدل الولايات المتحدة القبضة البريطانية المنحلّة على خناق الشرق الأوسط بمنظومة أمنية أميركية خيّرة. إذ اقتنع الأميركيون بأن الاستعمار البريطاني الذي طال أمده إضافة إلى انزلاق مصر ما بعد الحرب العالمية الثانية البطيء نحو الفوضى سيؤديان في نهاية المطاف إلى تسهيل الاختراق الشيوعي للبلاد. وتعزّزت هذه المخاوف في كانون الثاني/يناير ١٩٥٢ بعدما اجتاحت التظاهرات الشعبية شوارع القاهرة والإسكندرية بما ذكّر بعنف ١٨٨٢ عندما نزل المصريون إلى الشوارع للاحتجاج على النفوذ الأجنبي المتزايد والمتفشّي الذي حوّل بلادهم إلى دولة تابعة لبريطانيا وفرنسا. ومن سوء الحظ أن شغب ١٨٨٢ أطلق سلسلة من الأحداث وفّرت لحكومات لندن المتتالية سبباً لتحويل مصر إلى ما يشبه المستعمرة البريطانية.

عاشت تظاهرات ١٩٥٢ الحسنة التنظيم عنفاً ودماراً ردّاً على مهاجمة البريطانيين

(١) Dean Acheson, Present at the Creation: My Years in the State Department (New York: Norton, 1969), 567.

في الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير ثكنة للشرطة المصرية. ومثّل عدم مغادرة البريطانيين البلاد بعدما ألغت الحكومة المصرية من طرف واحد معاهدة ١٩٣٦ الأنكلو-مصرية السبب الجذري لأعمال الشغب.[١] وقد مثلت المعاهدة الواجهة القانونية لاحتلال بريطانيا منطقة قناة السويس ورفض البريطانيون المغادرة بالرغم من أن الحكومة المصرية ألغت المعاهدة من جانب واحد. فقناة السويس أهمّ للمصالح البريطانية بكثير من تركها في أيدي المصريين – أقلّه هذا ما قضى به المذهب الفكري في لندن. فالسويس أصبحت مرادفاً للأمبراطورية؛ وهذا مفهوم بائس بقي يلقى صداه في دوائر الـ«توري» (المحافظين) في لندن وانتعش بعودة حكومة تشيرشل المحافظة في ١٩٥٢. ولم يوافق المصريون، بل ردّوا عندما بقيت القوات البريطانية في أماكنها. فقد ترك أكثر من ستين ألف عامل وظائفهم في منطقة القناة وقام الكثيرون منهم بأعمال تخريب قبل الانسحاب من أعمالهم وتطوع المئات للتدرب على خوض حرب العصابات.

تكون لدى البريطانيين اقتناع بأن قوات الشرطة المصرية الرديفة مسؤولة عن تسليح مجموعات حرب العصابات وتدريبها. وبلغ التوتّر نقطة الانكسار عندما أطلق المشاغبون النار على راهبة أيرلندية المولد وقتلوها بعدما اقتحموا أحد الأديرة. وردّ الجيش البريطاني بالسيطرة على مدينة الإسماعيلية الواقعة مباشرة خارج منطقة القناة. وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٥٢ اقتحمت قوة مدرعة بريطانية ثكنة الشرطة في الإسماعيلية مخلفة وراءها ٤٣ قتيلاً وعدداً أكبر بكثير من الجرحى.[٢] أدى الخبر إلى إغضاب المصريين وإثارتهم. نزل في اليوم التالي، وهو يوم السبت الأسود، آلاف الطلاب إلى شوارع القاهرة؛ وسرعان ما انضمّ إليهم آلاف الكادرات من الإخوان المسلمين إضافة إلى غيرهم من الجماعات السياسية

(١) امتلك البريطانيون، بموجب بنود ذلك الترتيب، الحق في الاحتفاظ بقواعد عسكرية وفي جباية الرسوم من السفن التي بدورها يتم توجيهها من قبل ربابنة إنكليز وفرنسيين، وهذه كلها تذكر المصريين بوضعهم التابع.

(٢) Heikal, Lion's Trail, 25.

الراديكالية – بمن فيهم رجال شرطة أُرسلوا للسيطرة على الحشود. وسبق للكثيرين من الإخوان المسلمين أن شاركوا أيضاً، ما بين ١٩٥١ و١٩٥٢، في حملة حرب العصابات ضد البريطانيين في منطقة القناة. وللمناسبة فقط عقد الإخوان المسلمون تحالفاً موقتاً مع الشيوعيين والاشتراكيين المصريين وتعاونوا لجعل التظاهرات تتميز بعنف خاص.[١]

اندفع المشاغبون بعنف في الشوارع مركّزين غضبهم على الأجانب الذين شاء سوء حظّهم أن يمسك بهم الغوغائيون وعلى الأبنية التي تتماثل مع الغرب. وأضرم المتظاهرون الهائجون، إلى جانب مثيري الاضطراب الهادئين والمنظمين تنظيماً حسناً، النار على امتداد النهار في ٤٧٥ مبنى. وبحسب وسلي أدامز، السكرتير الثاني في السفارة الأميركية، ركّز الغوغائيون في شكل أساسي على دور السينما والمطاعم الفخمة وعلى كل متجر للخمور في القاهرة إلى جانب أي مؤسسة أجنبية تصادفهم بما في ذلك فندق «شيبهرد» و«تورف كلوب» – وكلاهما رمز كبير من رموز الإمبريالية البريطانية.[٢] وأقدموا، بالإضافة إلى ذلك، على قتل وتشويه أي أوروبي اعترض سبيلهم عن غير قصد إلى جانب مصريين أبرياء علقوا في المؤسسات الأجنبية المعرضة للهجوم. تردّد فاروق، فيما القاهرة تحترق، أملاً منه في استغلال الأزمة. وأصدر بعد ذلك بساعتين أوامره إلى الجيش لإحلال النظام. وكان البريطانيون قد أرسلوا في غضون ذلك قواتهم الخاصة وبدا هناك احتمال كبير أن يصطدموا بالقوات المصرية.

وسبق لصانعي السياسة والديبلوماسيين الأميركيين، في وقت سابق من ١٩٥١، أن خشوا أن يوفّر النزاع المستمرّ بين مصر وبريطانيا فرصة سانحة لموسكو لتوسيع النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط؛ وشكّلت أعمال الشغب في كانون الثاني/يناير

---

(١) Harris, Nationalism, 187, 192 وهو يعلّق أيضاً بأن بعض المراقبين يزعمون بأن الشيوعيين هم المسؤولون الأوائل عن العنف المنظّم.

(٢) Matthew F. Holland, America and Egypt: From Roosevelt to Eisenhower (London: Praeger, 1996), 24.

مثل تلك الفرصة. واقتنع دين أتشيسون في وزارة الخارجية وألن دالاس في «السي.آي.إي.» أيضاً أن مصر وبريطانيا على شفير الحرب بل إن المزيد من تدهور الوضع في القاهرة سيؤدّي إلى أزمة كبرى. وافترض أتشيسون أنه إذا لم تعمد الولايات المتحدة «إلى إخماد هذه النيران»، فإنها «ستهدد بتوريط شمال إفريقيا في نزاع دام»[١]. وتبنى أتشيسون مقاربة خفية في الأساس في التعاطي مع مصر ليتفادى إهانة كل من البريطانيين والإسرائيليين.

بالرغم من أن الديبلوماسية السرّية ليست بجديدة على العلاقات الدولية، فإن الأفراد هم الذين مارسوها في العادة نيابة عن الدول وليس أجهزة الاستخبارات. ولم يضع هذا الدور الديبلوماسي الجديد «السي.آي.إي.» في نهاية الأمر في موقع تنفيذ السياسة (الخفية والمكشوفة معاً) وحسب بل أيضاً في موقع المحرّك للأحداث السياسية – في مصر كما في أمكنة أخرى. وشكّل كيرميت روزفلت، حفيد الرئيس ثيودور روزفلت والضابط الكبير في قسم الشرق الأوسط في «السي.آي.إي.»، أداةَ آليةِ هذه السياسة الجديدة.

عمل روزفلت، في إبان الحرب العالمية الثانية، في مكتب الخدمات الاستراتيجية («أو.أس.أس»). وتمركز في القاهرة لإقامة قناة اتصال غير مباشرة مع الحكومة المصرية والنظام الملكي. وكلّف أتشيسون في ١٩٥١ روزفلت مسؤولية اللجنة الخاصة المؤلفة من مختلف الأقسام لدراسة الوضع في مصر. وخلصت اللجنة في النهاية إلى أن: «على مبدئنا أن يقضي بتشجيع بروز قادة أكفاء ميالين نسبياً إلى الغرب من خلال برامج مصمّمة لهذه الغاية، بما في ذلك، كلما أمكن، جهد مدرك ولو سرّي ربما لتنمية ومساعدة مثل هؤلاء القادة المحتملين حتى ولو كانوا خارج السلطة»[٢].

سبق لروزفلت، وهو ضابط في «أو.أس.أس.»، أن تعرّف إلى فاروق في أيام التوتّر في ١٩٤٢ عندما احتل البريطانيون مبنى القصر في القاهرة وأجبروا الملك

(١) Acheson, Creation, 565-66.

(٢) Holland, America and Egypt, 23; Lucas and Morey, “”Hidden’Alliance,’” 97.

السيّىء الحظ على تطهير حكومته من الوزراء المؤيدين للمحور.[1] وأقام روزفلت حينئذ علاقة جيدة مع الملك بالرغم من اللقاء في ظل مثل تلك الظروف الصعبة. حاز روزفلت ثقة فاروق وأصبح مستشاراً غير رسمي للملك وأقام في الوقت نفسه علاقات ممتازة مع حاشية العاهل المصري. وسوّق روزفلت مع فاروق فكرة أنه «يمكن، بعد الحرب، عقد صفقة جيدة مع مصر تجعل من الملك 'أول حاكم لمصر الحرة منذ ألفي سنة'»[2].

تدبّر روزفلت، في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، إرسال عدّة أفراد، معظمهم من أجهزة الشرطة المصرية، إلى الولايات المتحدة حيث تلقوا تدريبات على محاربة الشيوعية والتخريب.[3] وعمل روزفلت بعد تسريحه مراسلاً لصحيفة «ساترداي إيفنينغ بوست» وسافر في شكل واسع في أنحاء الشرق الأوسط. إلا أنه أعيد في ١٩٥٠ إلى عمل الاستخبارات وأوفد بعد ذلك بسنتين إلى القاهرة من أجل إنقاذ فاروق ومصر. وقد حاولت وزارة الخارجية إقناع الحكومة المصرية بالمشاركة في الدفاع عن الشرق الأوسط من خلال إنشاء «قيادة الشرق الأوسط» التي افتُرض أن تضم البريطانيين أيضاً.

اعتقد الأميركيون، على غرار البريطانيين، أن مصر هي الزعيمة الطبيعية للدول العربية وأنه يمكن نتيجة ذلك جلب الشرق الأوسط إلى تحت المظلة الأمنية الأميركية وبالتالي حماية طرق النفط من الخليج الفارسي وإليه. ركّزت المصالح الأميركية على ضمان الوصول إلى بلدان الخليج الغنية بالنفط. كما ركّزت على الحالة الطارئة الإضافية التي تسبب بها اندلاع الحرب الكورية في ٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٥٠. وجاء النزاع الكوري، عقب الحرب الأهلية اليونانية (١٩٤٦-١٩٤٩)

---

(١) في التاسعة من مساء الرابع من شباط/فبراير ١٩٤٢ قام المفوض السامي البريطاني السير مايلز لامبسون، محاطاً بمفرزة من الضباط البريطانيين وبطابور من الدبابات وناقلات الجند المصفحة، بإجبار الملك فاروق على الانصياع لرغباتهم.

(٢) Holland, America and Egypt, 24.

(٣) Heikal, Lion's Tail, 50n2.

التي اعتقد الأميركيون أن المطامع الروسية في البلقان وفي شرق المتوسط هي التي تسببت بها، ليشكّل دليلاً إضافياً على زحف الشيوعية في العالم عموماً وفي الشرق الأوسط خصوصاً.

اعتقد أتشيسون، بالرغم من انهيار قيادة الشرق الأوسط بسبب الاعتراضات المصرية، أن في الإمكان استمالة مصر لو أن هذا البلد أمكنه فقط تحقيق الاستقرار. واقتنع وزير الخارجية بأن وضع مصر المتقلّب ناتج من فساد حكومة الوفد وبأن في وسع فاروق، بمساندة أميركية، ترسيخ استقرار البلاد وجعلها تنضم إلى التحالف الأنكلو-أميركي. وعاد كرميت روزفلت في مطلع ١٩٥٢ إلى مصر وحاول إقناع فاروق بإصلاح الحكومة الفاسدة.

خطط العميل الأميركي لتنظيم ثورة سلمية لتغيير النظام السياسي الفاسد معطياً لفاروق دور الديكتاتور الكفؤ. وتضمّنت الخطة في جزء منها إعطاء المال لفاروق لرشوة الإخوان المسلمين لدعم النظام الملكي. غير أنه، وفي عالم سياسات الشرق الأوسط الغامض، يبقى حتى اللاعب القدير مثل روزفلت مبتدئاً. ذهب فاروق بالفكرة خطوة إضافية إلى الأمام وحاول تنظيم انقلابه الخاص بعمله مع الإخوان المسلمين على إنشاء دولة أصولية إسلامية. وأعلنت الأوقاف الإسلامية، لهذه الغاية، أن فاروق يتحدّر من النبي محمد وأصبح يُعرف باسمه الجديد السيّد فاروق الأول. أما الإخوان المسلمون فعمدوا من جهتهم ببساطة إلى أخذ مال فاروق الأميركي لإنشاء تحالف مع ضباط مصر الأحرار، التنظيم العسكري المسلح الذي يخطط لقلب النظام الملكي.[1]

عاد روزفلت بعد حوالى الشهر إلى واشنطن وقد أدرك أخيراً أن فاروق ميؤوس منه تماماً. وبالرغم من أن الملك أظهر في البداية اهتماماً وإرادة في معالجة مشاكل البلاد، فإنه أدار بالسرعة نفسها انتباهه إلى زيادة ثروته الهائلة ومجموعته الخلاعية وتحبيذه لحفلات المجون الجنسية فيما استمرّت مصر تتخبط في الفساد. ولم يكن

(١) Holland, America and Egypt, 26.

البدلاء إلا واحداً من الإخوان المسلمين المتزمّتين والكارهين للأجانب أو من الضباط الأحرار. وأيّد السفير الأميركي في القاهرة جفرسون كافري استيلاء الجيش المصري على السلطة؛ معتبراً أن الجيش سيمثل قوة استقرار وسيتمكن من الحفاظ على الأمن الداخلي بالرغم من أن لا فائدة عملية منه في محاربة الأعداء الخارجيين.(١)

طُبّق المنطق نفسه على بلدان أخرى تعاني الأزمات، مثل يونان ما بعد الحرب العالمية الثانية التي بدت للزعماء السياسيين وصانعي القرار الأميركي بأنها على شفير السقوط في أيدي الشيوعية.(٢) وفي هذه الحالات قدّم الجيش في البلدان المُعرّضة الضمانة الفضلى للتحكم في المؤسسة السياسية الفاسدة ولإبعاد الشيوعيين. وقضى التكتيك الأميركي في كل من اليونان ومصر باستغلال المسؤولين السياسيين الصوريين لكن مع إقامة قنوات مستقلة مع الجيش من خلال «السي.آي.إي.». وخسرت واشنطن في نهاية المطاف السيطرة على العلاقات الخفية تاركة «السي.آي.إي.» تقود سياسة مستقلة حيال الدول التابعة. ومن غير المفاجئ، كما أظهرت الأحداث ذلك في البلقان والشرق الأوسط وأميركا الجنوبية، أن البزة العسكرية لا تشكّل ضمانة ضد الطمع والفساد. والمؤكّد في حالة مصر، ومن بعدها إيران، أن دعم «السي.آي.إي.» لرجال الجيش الأقوياء أو للملوك ساهم في تأكل المركز السياسي تاركاً الجسم السياسي تحت رحمة الجنرالات الفاسدين أو المتعصبين الدينيين المتطرفين.

التقطت السفارة الأميركية في ١٩٥٢ شائعات عن انقلاب وشيك ينظمه ضباط مصريون. وفي ما يتعلّق بكافري وروزفلت مثّل الجيش المصري خياراً أفضل لإنقاذ مصر من الفساد العضوي المتفشي في القصر والمؤسسة السياسية. وافق أتشيسون وحرّك روزفلت الدواليب لإقامة روابط مع الضباط الأحرار، التنظيم السرّي الملتزم إطاحة النظام الملكي. أوفد روزفلت ضابطاً جسوراً غير نظامي في «السي.آي.إي.»،

(١) المصدر السابق، ص. ٢٥.

(٢) المصدر السابق. بالنسبة إلى دور الولايات المتحدة في الحرب الأهلية اليونانية، أنظر Gerolymatos, Red Acropolis.

هو مايلز كوبلاند، إلى مصر للبحث عن هؤلاء الضباط والتحقق من نياتهم بالنسبة إلى الغرب، وخصوصاً حيال الولايات المتحدة.[1] وأقام كوبلاند اتصالات مع الوسطاء وفي نهاية المطاف مع عبد الناصر زعيم الضباط الأحرار.

قام روزفلت في آذار/مارس ١٩٥٢ بزيارة أخرى لمصر وشرع في سلسلة من الاجتماعات مع عبد الناصر والضباط الأحرار. وأكد عبد الناصر لروزفلت، بحسب كوبلاند، أن الانقلاب سيحصل وسأل الأميركي إذا كانت الولايات المتحدة ستمتنع عن التدخل.[2] واتُفق أيضاً على أن اعتراف الولايات المتحدة بالنظام الجديد سيتضمن تفاهماً سرّياً بأن «الشروط المسبقة لحكومة ديمقراطية لم تكن موجودة ولم تكن لتوجد على مدى سنوات كثيرة». وهذه إشارة إلى أن «إعادة العملية الديمقراطية» و«الحكومة ذات التمثيل الفعلي» ستُخصص للاستهلاك العام فقط.[3]

بعد ذلك بأربعة أشهر استولى عبد الناصر وضباطه الأحرار، في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢، على السلطة وألغوا النظام الملكي. وسيطر مجلس قيادة الثورة، الذي يهيمن عليه الجيش، برئاسة عبد الناصر على النظام الجديد؛ وعُين اللواء محمد نجيب رئيساً للجمهورية المصرية. غير أنه لم يكن في واقع الأمر إلا رئيساً صورياً إذ حكم عبدالناصر البلاد من وراء الكواليس. وفاجأت سرعة الانقلاب وفاعليته

(١) المصدر الأول لدور «السي.آي.إي.» في مصر هو ضابط «السي.آي.إي.» السابق مايلز كوبلاند الذي تم التشهير به كثيراً. وتقدّم مذكّراته الثلاث Game of Nations: The Amorality of Power Politics (New York: Simon & Schuster, 1969); The Real Spy World (London: Weidenfeld & Nicolson, 1974); The Game Player: Confessionsof the CIA's Original Political Operative (London: Arium, 1989) نظرة ثاقبة مثيرة للاهتمام ومفصلة لعمليات «السي.آي.إي.». وأنا أوافق لوكاس وموراي Lucas and Morey, "Hidden' Alliances,'" 118n44 أن الدليل التوثيقي، بما في ذلك سجلات الأرشيف في واشنطن ولندن، تؤكّد معظم رواية كوبلاند للأحداث. وعلّق سكوت وموراي بأن بعض المؤرّخين «عاملوا أعماله بالتشكيك» في جزء من ذلك «بسبب ميله إلى المبالغة في دوره في الأحداث،» ومن «خلال حملة الوكالة لتشويه سمعة كوبلاند من خلال 'معلومات' تُعطى لمعارف موثوق بهم.» والواضح أن العائق الأكبر أمام تأريخ الاستخبارات هو قدرة أجهزة الاستخبارات على ممارسة الخداع ضد المؤرّخين كما ضد أعدائها.

(٢) Copeland, Game Player, 153-54.

(٣) المصدر نفسه، ص. ١٥٤.

معظم السفارات بما فيها السفارة البريطانية.[1] وبحسب ويلبور إيفلند، ذهلت السفارة الأميركية وكذلك «السي.آي.إي.» أيضاً بالانقلاب، وقد زعم أيضاً أنه من غير المرجّح أن يكون كرميت روزفلت قد أدى أي دور، مباشر أو غير مباشر، في إطاحة فاروق.[2] ويعلن كوبلاند، من جهته، أن رئيس محطة «السي.آي.إي.» في القاهرة اعتمد في استخباراته في شكل شبه حصري على مسؤولين وسياسيين مرتبطين بنظام فاروق وأن «رئيس المحطة اعتقد حتى يوم الانقلاب أن فاروق يتابع في شكل يومي النشاطات السرّية للضباط الأحرار وأنه سينقض عليهم ما إن تحين اللحظة الاستراتيجية»[3].

ليست هذه الادعاءات المتضاربة في شأن ما عرفته «السي.آي.إي.» والسفارة الأميركية في شأن الانقلاب ومدى تورط المسؤولين الأميركيين في إطاحة فاروق متناقضة بقدر ما هي نتيجة تداخل الوكالات التي شكّلت «السي.آي.إي.» في بداية الخمسينيات من القرن العشرين. فروزفلت وكوبلاند انتميا إلى مكتب التنسيق السياسي، وهو وحدة استخبارات أنشئت في ١٩٤٨ للقيام بعمليات خفية على مبعدة من الحكومة الأميركية. وبالرغم من أن ميزانيتها وموظفيها يأتون من «السي.آي.إي.»، فإن رئيس مكتب التنسيق السياسي يرفع تقاريره مباشرة إلى وزيري الخارجية والدفاع

(١) Michael Holzman, James Jesus Angleton, the CIA, and the Craft of Counterintelligence (Amherst: University of Massachussets Press, 2008), 161. يوحي المؤلف أن مديرية روزفلت ساندت الضباط الأحرار ونظّمت لاحقاً قوات أمن عبد الناصر.

(٢) Wilbur Crane Eveland, Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East (New York: Norton, 1980), 97n.

(٣) Copeland, Game Player, 156.

متجاوزاً مدير «السي.آي.إي.».[١] وشكّل الأمر، في أفضل حالاته، وضعاً أخرق أدى إلى انقسامات خطيرة داخل «السي.آي.إي.» في وقت لم تتبين فيه بعد لإدارة البيت الأبيض الوجهة التي يعطيها للوكالة الجديدة.

كان رئيس مكتب التنسيق السياسي، فرانك ويسنر، ضابطاً بحرياً ومحامياً ثريّاً من الميسيسيبي، وذا ارتباطات جيدة مع المؤسسة السياسية في واشنطن. وبخلاف الجواسيس الراغبين في بناء حياة مهنية في «السي.آي.إي.» اختار ويسنر عناصر مكتب التنسيق السياسي من بين صفوف جنتلمانات رابطة آيفي ذوي المداخيل المستقلة إلى جانب حفنة من غريبي الأطوار والمستفرِدين ممن سبق لهم العمل في الاستخبارات الأميركية في سياق الحرب العالمية الثانية. وزادت هذه الفروق في فصل مكتب التنسيق السياسي عن باقي مديريات «السي.آي.إي.» وفاقمت الوضع. فعلى سبيل المثال، كان ضباط مكتب العمليات الخاصة، نظير مكتب التنسيق السياسي، من محترفي «أو.أس.أس.» زمن الحرب إلى جانب قلّة أخرى من العناصر السابقين في «السي.آي.إي.». وكتب كوبلاند بأن عناصر مكتب العمليات الخاصة، على عكس جنتلمانات مكتب التنسيق السياسي الأثرياء، «عاشوا من رواتبهم وامتلكوا منازل متواضعة في فرجينيا المجاورة»[٢]. وأضاف كوبلاند أن معظم عناصر مكتب التنسيق السياسي انتموا إلى «نادي الميتروبوليتان و/أو إلى نادي تشيفي تشيز كاونتري كلوب، وامتلكوا منازل مترفة في جورجتاون أو في وسلي هايتز»[٣].

---

(١) أنشئت «السي.آي.إي.» في الأساس، في ١٩٤٧، لجمع المعلومات وتحليلها من خلال التجسس ومن خلال المصادر المفتوحة، ولتفيد بها مجلس الأمن القومي. وشكّل مكتب العمليات الخاصة ذراعها العملانية، وهو من بقايا وحدة الخدمات الاستراتيجية التي هي بدورها من بقايا الـ«أو.أس.أس.» بيد أن وزيري الخارجية والدفاع لم يريدا، بهذا الشأن، أن تنخرط «السي.آي.إي.» في أعمال خفية، وبالرغم من أن مكتب العمليات الأمنية صُمّم لهذه الغاية فقد أنشئ مكتب التنسيق السياسي للقيام بالعمليات الخفية. أنظر Evan Thomas, The Very Best Men: The Daring Early Years of the CIA (New York: Simon & Schuster, 1995), 29.

(٢) Copeland, Game Player, 112-113.

(٣) المصدر نفسه.

انتمى كرميت روزفلت، بوصفه حفيد رئيس شهير، إلى الطبقة المحظية في واشنطن، بيد أنه انتمى أيضاً إلى تلك المجموعة المميزة من مغامري زمن الحرب التي جاء بها فرانك ويسنر وألن دالاس إلى مكتب التنسيق السياسي وقد تعوّد أفرادها العمل بمبادرة شخصية منهم بالحدّ الأدنى من الإشراف من رؤسائهم المباشرين. وعلى ما لاحظه إيفان توماس فإن «كيم روزفلت شكّل، إلى جانب ابني عمه أرتشي وكورنيليوس، نوعاً من الخلية داخل الخلية في 'السي.آي.إي.'»[١] وقد تمتع آل روزفلت، وهم خارج الوكالة، بأولوية اجتماعية سمحت لهم ببلوغ المؤسسة السياسية على مستوى اجتماعي، متجاوزين من وقت إلى آخر سلسلة القيادة.

يقع منزل روزفلت المحاط بالأشجار في شمال غرب واشنطن على مسافة كتلة أبنية واحدة وحسب من منزل الجنرال والتر بيدل سميث، رئيس الأركان السابق لأيزنهاور في مقر قيادة الحلفاء في إبان الحرب العالمية الثانية؛ وكان سميث واحداً من أوائل مدراء «السي.آي.إي.» ونائباً لوزير الخارجية في عهد إدارة أيزنهاور. وكان آل روزفلت أيضاً أصدقاء العائلة المقرّبين من ألن وجون فوستر دالاس، وهما مدير «السي.آي.إي.» ووزير الخارجية. وفي غير مناسبة أفاد كرميت روزفلت مباشرة وزير الخارجية ووزير الدفاع بل حتى الرئيس نفسه، متجاوزاً بذلك رؤساءه المباشرين.[٢] ويضيف توماس: «في تلك السنوات الأولى، حين ساور زوجة أرتشي روزفلت اللبنانية-الأميركية، سلوى، القلق بشأن إذا كانت تقوم بالأمر «الصحيح» اجتماعياً، قاطعها أرتشي وقال: 'انظري، ما نقوم به هو الصحيح'»[٣].

المؤكد أن كرميت روزفلت مارس حرّية كبرى في العمل في توجيه سياسة أميركا الخفية في مصر. بيد أن وصوله، الذي لا مثيل له، إلى القيادة السياسية في الولايات المتحدة يعني أن روزفلت لم يعمل من تلقاء نفسه بل نفّذ أهداف الإدارة القائمة في

(١) Thomas, Very Best, 108.

(٢) Kermit Roosevelt, Countercoup: The Struggle for the Control of Iran (New York: McGraw-Hill, 1979), 3-4.

(٣) Thomas, Very Best, 108-9.

البيت الأبيض. وقضت السياسة الأميركية في ١٩٥٢ بالإبقاء على عبد الناصر في السلطة وحمايته من الأعداء الداخليين والخارجيين الذين يُعدّون لاغتيال أول زعيم مستقل لمصر منذ نحو ألفيتين. وقضى عنصر لا يتجزّأ من السياسة الأميركية بتثبيت عبد الناصر زعيماً للعالم الإسلامي، وحليفاً لأميركا موثوقاً به بصفة خاصة. وكان وصف كوبلاند المختصر لهذه السياسة هو في تحويل عبد الناصر إلى «بيلي غراهام المسلم»: رجل في وسعه استخدام المنبر لتوجيه ذلك العالم في اتجاه تحالف دفاعي مع الغرب بعيداً من قبضة الاتحاد السوفياتي.[١]

(١) Copeland, Game of Nations, 198.

١٥

الطريق إلى الهلاك: منظمة غهلن

«مثّل استخدام أي نذل ما دام معادياً للشيوعية عملاً غريزيّاً.»

ـ هاري روسيتزكي[1]

تحوّلت النشوة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، في أقل من سنة، إلى عدم يقين تصاعد إلى جنون ريبة الحرب الباردة. أشارت الانتفاضات في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط إلى العدوان السوفياتي بوصفه المذنب. وسرعان ما تحوّل حلفاء الأمس إلى أعداء ألدّاء وشرعوا في التحديق بعضهم إلى بعض عبر خط إيديولوجي فاصل لا يمكن ردمه تجلّى في سلسلة من الأزمات. فالحزب الشيوعي الإيطالي ضم في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥، ١/٨ مليون عضو واستحصل على ١٩ بالمئة من التصويت الشعبي في الانتخابات الإيطالية؛ واضطر مكتب العمليات الخاصة في «السي.آي.إي.» إلى التدخّل الخفي في ١٩٤٨ لمنع الشيوعيين من تشكيل الحكومة. وضم الحزب الشيوعي الفرنسي ما يقارب المليون عضو؛ وأضرب في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ مليونا عامل في فرنسا بطلب من مكتب الإعلام الشيوعي، «الكومنفورم»، وتبعت ذلك إضرابات إضافية في إيطاليا. واندلعت الحرب الأهلية في اليونان في ١٩٤٦ وهدّدت بإدخال البلاد في الكتلة الشيوعية.

---

(١) هاري روسيتزكي الرئيس السابق لعمليات «السي.آي.إي.» السرّية داخل الاتحاد السوفياتي كما استشهد به Christopher Simpson, Blowback: The First Full Account of America's Recruitment of Nazis and Its Disastrous Effect on the Cold War, Our Domestic and Foreign Policy (New York: Macmillan, 1988), 159.

واستؤنفت كذلك الحرب الأهلية الصينية في الشرق الأقصى وأعطت، في أقل من ثلاث سنين، النصر للشيوعيين.(١)

أعلن مبدأ ترومان، في ١٢ آذار/مارس ١٩٤٧، النيات الأميركية التغلّب على الاتحاد السوفياتي في اليونان وتركيا وإيران. واستولى الشيوعيون بعد ذلك بسنة على تشيكوسلوفاكيا. وبعد ذلك بأربعة أشهر سدّ السوفيات كل منافذ السكة الحديد والبرّية إلى القطاعات الغربية من برلين، وشرعت الولايات المتحدة في جسر جوي هائل لكسر الحصار السوفياتي وتموين المدينة المحاصرة بالغذاء والفيول. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٠ اجتاح شيوعيو كوريا الشمالية معظم كوريا الجنوبية وهددوا بإبادة القوات الأميركية التي تحاول الدفاع عمّا تبقّى من البلاد. وزيادة في الطين بلّة اختبر السوفيات بنجاح قنبلتهم الذرية الأولى في ١٩٤٩ وأنهوا بذلك احتكار الولايات المتحدة للأسلحة الذرية.(٢)

شكّل مشهد الحرب الباردة التي واجهت الولايات المتحدة، في جزئه الأكبر، أرضاً مجهولة وقد لاح في الأفق احتمال حصول محرقة نووية. وكان «التلغرام الطويل» الذي أرسله جورج ف. كينان في ٢٢ شباط/فبراير ١٩٤٦، وهو لا يزال سفيراً في الاتحاد السوفياتي، المحاولة الأولى لتوفير تحليل شامل عن النيات السوفياتية. وقدّم تفسير كينان للسياسة السوفياتية صورة عن خصم هائل ينظر إلى العالم الخارجي بوصفه معادياً الأمر الذي أعطى التبرير لديكتاتورية ستالين. وبينما لم تمتلك الحكومة الأميركية معلومات استخبارية أخرى لدعم وجهة نظر كينان أو رفضها، قدّمت لجنة أمن الدولة السوفياتية («كا.جي.بي.») لستالين نسخة فورية عن البرقية.(٣) وسعت إدارة ترومان ومن بعدها إدارة أيزنهاور يائستين إلى معلومات عن الاتحاد السوفياتي عموماً وعن النيات السوفياتية خصوصاً. إلا أن مجتمع

(١) أعلن ماو تسي تونغ في أيار/مايو ١٩٤٩ إقامة جمهورية الصين الشعبية.

(٢) في ١٩٥٠، امتلكت الولايات المتحدة ٣٦٩ قنبلة جاهزة والاتحاد السوفياتي خمس قنابل. أنظر Niall Ferguson, The War of the World: Twentieth-Century Conflict and the Descent of the West (New York: Penguin, 2006), 597.

(٣) John Lewis Gaddis, The Cold War: A New History (New York: Penguin, 2005), 29-30.

الاستخبارات الأميركي الناشئ بقي في الظلام ممسكاً بقصاصات المعلومات التي لا تعد إلا باختلاس النظر إلى أهداف موسكو ويسعى في شكل محموم إلى عملاء يمكنهم أن يكشفوا بالحيلة أسرار الكرملين.(١)

قضى أحد الخيارات باللجوء إلى أعداء سابقين امتلكوا الخبرة في اختراق الاتحاد السوفياتي. ودفع المثل القديم والمُجرّب جدّاً، «عدو عدوّي هو صديقي،» بضباط استخبارات الجيش الأميركي في ألمانيا المحتلّة (ومن بعدهم «السي. آي.إي.») إلى استخدام ضباط استخبارات ألمان سابقين ومن خلالهم أفراد في الـ«أس.أس.» النازية السابقة والغيستابو. وكان محفّز علاقة «السي.آي.إي.» بأتباع هتلر الأوفياء هو رينهارد غهلن، الجنرال في الجيش الألماني المسؤول عن منظومة استخبارات القوات المسلحة الألمانية السياسية والميدانية في الجبهة الشرقية، «فريمدي هير أوست» (الجيوش الأجنبية شرقاً)، التي ركّزت، في خلال الحرب، على جمع الاستخبارات وشن العمليات الخفية ضد الاتحاد السوفياتي.

تكوّن لدى غهلن اقتناع، مع اقتراب نهاية الحرب، بأنه وبالرغم من أن ألمانيا ستواجه الهزيمة في كفاحها ضد الشيوعية فإن هذا القتال سيستمر في ظل قيادة الأميركيين. وعمد غهلن، في سبيل المشاركة في النزاع الجديد وكذلك لموضعة نفسه وتنظيمه للدور الجديد في ألمانيا ما بعد الحرب، إلى إخفاء ثلاث مجموعات كاملة من الوثائق السرّية، بما في ذلك ملفات العملاء السوفيات الذين تجسسوا

(١) أنجز تشيرشل وستالين في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٤ ما سُمّي باتفاق النسب المئوية قُسّم بموجبه البلقان إلى دوائر نفوذ بريطانية وسوفياتية. لم يرض الرئيس فرانكلين د. روزفلت بمفهوم دوائر النفوذ التي تقسم أجزاء من أوروبا. بيد أن الصحافة السوفياتية وحدها لم تدن أعمال تشيرشل عندما حاول الشيوعيون اليونان الاستيلاء على البلاد وحاربوا البريطانيين. التزم ستالين من جانبه الصفقة. بيد أنه بعد وفاة روزفلت في نيسان/أبريل ١٩٤٥ وهزيمة تشيرشل في انتخابات تموز/يوليو من السنة نفسها، ضاعت مقدرة ستالين على الاحتفاظ من جانبه بالصفقة مع القيادة السياسية الجديدة في لندن وواشنطن. وبالفعل فإن درجة ما من درجات الانتهازية والأمن الإقليمي وجّهت بعد ١٩٤٦ سياسات الديكتاتور السوفياتي أكثر مما وجهها الالتزام بالشيوعية الدولية. بالنسبة إلى اتفاق النسب المئوية أنظر Gerolymatos, Red Acropolis, 125-28, 206-7؛ وبالنسبة إلى سياسة ستالين الخارجية أنظر Vladislav Zubok and Constantine Pleshakov, Inside the Kremlin's Cold War: From Stalin to Khrushchev (Cambridge: Harvard University Press, 1996), chapter 2.

لحساب تنظيمه.(١) وبعد أسبوعين على انتهاء الحرب استسلم غهلن للنقيب جون بوكر وهو ضابط في فيلق مكافحة التجسس في الجيش الأميركي. وعومل غهلن، على مدى أشهر، كما يعامل أي سجين حرب آخر؛ ولم يشرع الجيش الأميركي في استجواب كبير الجواسيس الألمان على مستوى الشعبة الثانية (شعبة الاستخبارات) إلا عندما أعرب السوفيات عن اهتمامهم به. عرض غهلن، إبان استجوابه، جمع الاستخبارات التكتيكية لمصلحة الولايات المتحدة إضافة إلى إعادة تنشيط عملائه في الاتحاد السوفياتي ووضعهم في تصرّف الأميركيين.(٢)

اقتنع فيلق مكافحة التجسس أخيراً بأن لدى غهلن الكثير لتقديمه وبأنه تمكن من إعادة تنشيط تنظيمه مع شبكته التجسسية التي أقيمت في روسيا في خلال الحرب وجعلها تعمل للولايات المتحدة.(٣) وجيء في آب/أغسطس ١٩٤٥ بغهلن وأقرب شركائه إلى واشنطن لمواصلة المفاوضات. ووقّع غهلن، في نهاية المطاف، اتفاقاً مع الأميركيين أعاد تكوين ما تبقى من استخبارات «الجيوش الأجنبية شرقاً» في «تنظيم غهلن» – وكالة استخبارات خاصة تعمل لمصلحة استخبارات الجيش الأميركي.(٤) ووُضع غهلن وشركاؤه، في نهاية المطاف، في بولاخ، على مقربة من ميونيخ، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧.

لكن لم تُسلّم مسؤولية التعامل مع الألمان إلى فرع الاستخبارات السرّية في «أو.أس.أس.» بإدارة فرانك ويسنر.(٥) إلا من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٧ عندما انتقل

(١) Reinhard Gehlen, The Service: The Memoirs of General Reinhard Gehlen, trans. David Irving (New York: World, 1972), 111.

(٢) Richard Helms, A Look over My shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (New York: Ballantine, 2003), 84.

(٣) Gehlem, Service, 107-8; Joseph J. Trento, The Secret History of the CIA (New York: Prima, 2001), 22-23.

(٤) بحسب ترينتو Trento, Secret History, 29 بقي غهلن ومجموعته مدة عشرة أشهر في قاعدة للجيش على مقربة من واشنطن العاصمة؛ أما بالنسبة إلى ريتشارد هيلمس، Richard Helms, Look, 88-89 فلم يمكث غهلن وشركاؤه إلا بضعة أسابيع فقط.

(٥) R. Harris Smith, OSS: The Secret History of America's First Central Intelligence Agency (Guilford, CT: Lyons, 2005), 220.

غهلن وشركاؤه موقتاً إلى سيطرة الجيش الأميركي، من غير المؤكد هل التقى ويسنر غهلن شخصياً، بالرغم من أن بعض روايات «السي.آي.إي.» يؤكّد أن ألن دالاس أوفد ويسنر، الذي أصبح بعد فترة قصيرة من ذلك رئيساً لمكتب التنسيق السياسي، للاتصال بغهلن.[١] وسيقوم ويسنر في النهاية بوصفه رئيساً لمكتب التنسيق السياسي باستغلال تنظيم غهلن استغلالاً كبيراً باستخدامه واجهة لغربلة معسكرات اللاجئين بحثاً عن متطوعين محتملين يتم بواسطتهم اختراق الكتلة الشيوعية. وتولّى تنظيم غهلن أيضاً بالنيابة عن مكتب التنسيق السياسي مهمات في الشرق الأوسط لا تتمتع بالسمعة الكبيرة.

وفي ألمانيا، شرع تنظيم غهلن في البحث عن المعلومات في مخيمات المهجّرين وعن متطوعين محتملين مستعدّين للعودة إلى بلدان نشأتهم في ما وراء الستار الحديدي لمحاربة السوفيات. وفي الوقت نفسه جنّد كشافة غهلن أيضاً عناصر سابقين في تنظيمات الاستخبارات النازية، والكثيرون منهم من مجرمي الحرب المطلوبين، بالرغم من أن غهلن وعد أسياده الأميركيين بعدم تجنيد مثل هؤلاء الأشخاص البغيضين. وكان عذر غهلن أن النازيين السابقين يمثلون ركائز استخبارية قيّمة بسبب معرفتهم الكبرى بالسوفيات. بيد أن المعلومات التي جُمعت من هذه المصادر كانت في أفضل الحالات غير جديرة بالثقة، وأثبتوا بعد فترة ليست بالطويلة أنهم أدوات مفيدة لأجهزة الاستخبارات السوفياتية لاختراق تنظيم غهلن وتغذية «السي.آي.إي.» بمعلومات استخبارية تم التلاعب بها. فمنذ اللحظة التي عاد فيها تنظيم غهلن إلى العمل تقريباً زرعت «إن.كا.في.دي.» (سابقة «الكا.جي.بي.») عشرات العملاء بين الروس في معسكرات المهجرين الذين تسللوا بسهولة إلى تنظيم غهلن بوصفهم ركائز استخبارية موثوقاً بها.[٢]

جاءت كلفة إحياء استخبارات هتلر كبيرة على الصعيدين المالي والأخلاقي.

---

(١) Gehlen, Service, 116; Trento, Secret History, 23.

(٢) Simpson, Blowback, ٥٢-٥٦.

فقد أنفقت الولايات المتحدة ما ينيف على ٢٠٠ مليون دولار على نحو أربعة آلاف عنصر يعملون بدوام كامل في تنظيم غهلن فيما تخلّت عن المستوى الأخلاقي الرفيع باحتضانها أزلام هتلر السابقين باسم محاربة الشيوعية. وكانت المعلومات الاستخبارية التي أنتجها مصنع غهلن للمعلومات في بولاخ أكاذيب طُعّمت ببعض أطراف المعطيات التكتيكية عن الجيش الأحمر في ألمانيا الشرقية. وساهمت معلومات غهلن في تصعيد التوتّر بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة من خلال الإشارة إلى أن الجيش الأحمر يستعد لاجتياح أوروبا الغربية. وأبقت النظرة إلى الاتحاد السوفياتي المعادي بطبيعة الحال غهلن في جدول معاشات الولايات المتحدة، فيما وجدت تقاريره عن عدوان شيوعي وشيك جمهوراً متقبّلاً في واشنطن.

وجد مقاتلو الحرب الباردة الناشئون والمناهضون المسعورون للشيوعية تعليلاً في توقّعات غهلن المتشائمة. كذلك وجد البنتاغون تأكيد غهلن للموقف الحربي للكرملين مُطمْئناً وأداة مفيدة في حض الكونغرس على زيادة المشتريات العسكرية. ولم يكن تلفيق الوقائع البديلة بجديد على غهلن؛ فهو، بعد كل شيء، تعلّم في ألمانيا النازية كيفية إشباع شهية زعيمه لمثل هذه المعلومات – فهتلر أراد معرفة ما أراد سماعه وحسب.[١] وبحسب فيكتور مارشيتي، كبير محللي «السي.آي.إي.» حول القدرات السوفياتية – الذي أدلى بتعليقاته هذه بعد التقاعد من الوكالة – لم يتغير الكثير على غهلن في تجسّده الجديد كجاسوس أميركي:

> أحبّت الوكالة [«السي.آي.إي.»] غهلن لأنه زوّدنا ما أردنا سماعه.... وقد استخدمنا مواده باستمرار وزوّدنا بها الآخرين جميعهم: البنتاغون؛ البيت الأبيض؛ الصحف. وقد أحبوها أيضاً. بيد أنها كانت بضاعة مُختلقة ورخيصة عن البعبع الروسي وتسببت بالكثير من الضرر لهذه البلاد.[٢]

غير أنه، وبعد ثلاث سنوات على الحرب، أخذ عمل الاستخبارات العسكرية

(١) المصدر السابق، ص. ٦٠-٦٥.

(٢) مقالة مع مارشيتي في Simpson, Blowback, 65.

الأميركية في ألمانيا في التقلّص فيما تصاعد حجم وكلفة تنظيم غهلن إلى ما هو أكبر من قدرة شعبة الاستخبارات في الجيش الأميركي. وبعد الكثير من الضغط الذي مارسه البنتاعون حُوّل غهلن وجيشه الصغير من الجواسيس إلى «السي.آي.إي.» المُنشأة حديثاً.(١) لكن لم توجد سوى قلّة في داخل الوكالة ممن اهتموا أو رغبوا في تحمّل المسؤولية عن غهلن. وكتب ريتشارد هيلمس، الرجل المسؤول مباشرة عن غهلن، في مذكّراته أنه، بالإضافة إلى الاعتراضات الأخلاقية التي كانت للكثيرين في الوكالة في شأن العمل مع غهلن وشركائه الأدنى سمعة منه، فإن:

> ضباط «السي.آي.إي.» في ألمانيا تملّكهم الجزع في شكل موحّد من جراء النشاط الصاخب وغير الآمن لعملاء «راستي» [تنظيم غهلن]. فالاستخبارات، وخصوصاً في ألمانيا الشرقية، كانت قيّمة لكنها، من وجهة نظر محطتنا الألمانية، بالكاد تعوّض عن الأمن والانضباط الضعيفين لعملاء «راستي».(٢)

بعد فترة قصيرة على تولّي «السي.آي.إي.» المسؤولية عن غهلن وعملائه، اندمج مكتبا العمليات الخاصة والتنسيق السياسي ليصبحا جهاز الوكالة الخفي. وعارض الكثيرون في «السي.آي.إي.» العمل مع نازيين سابقين مبررين ذلك بأنه ما إن يصبح الأمر معلوماً حتى يوفّر للسوفيات منجماً من الدعاية. وانزعج آخرون من الالتباس الأخلاقي الذي رشح إلى السياسة الأميركية من خلال النازيين القدامى. فمن الناحية الرسمية دُفع لمجموعة غهلن لتزويد جهاز الاستخبارات الأميركي معلومات عن الاتحاد السوفياتي، غير أنها عملت أيضاً في السرّ لمكتب التنسيق السياسي الذي رأسه ويسنر. وبهذه الصفة ساعد عملاء غهلن مكتب التنسيق السياسي على القيام بعمليات خفية وأدوا دور الرابط بين الوكالة والأعضاء السابقين في «سيشرهايتسديانست» (جهاز أمن «الأس.أس.») والغيستابو وغيرهم من عناصر جهاز الاستخبارات العسكرية الألمانية في زمن الحرب ممن لحق بهم العار.

---

(١) دخل اتفاق رسمي للتعاون حيّز التنفيذ في حزيران/يونيو ١٩٤٩. أنظر Prados, Safe, 51.

(٢) Helms, Look, 88.

ولم يمثل رد الاعتبار لغهلن وشركائه إلا جزءاً صغيراً من برنامج كبير يهدف، من أجل مصلحة الأمن القومي، إلى تجنيد عملاء ألمان وتقنيين ومهندسين لمواصلة العمل على تطوير الصواريخ وأنظمة الأسلحة الجديدة. واعتقدت حكومة الولايات المتحدة، في فترة الارتباك وجنون الريبة التي أعقبت نهاية الحرب، أن التهديد الجديد من الاتحاد السوفايتي يفوق أي تحفظات أخلاقية في شأن استخدام النازيين. وحصلت عملية نقل العلماء النازيين إلى الولايات المتحدة تحت غطاء «عملية مشبك الورق» التي سهّلت في الوقت المناسب نقل أكثر من ١٥٠٠ ألماني وعائلاتهم.[١] ومثلت «عملية المصالح القومية» مناورة سرّية أخرى لتجاوز القوانين الأميركية والحصول على خدمات النازيين والمتعاونين مع النازيين ممن يمكنهم أن يوفروا الفائدة السياسية ضد الاتحاد السوفياتي. وكان من بينهم رجال استخبارات نازيون ومتخصصون في الأمن إضافة إلى المتعاونين مع النازيين ممن عادوا بهدوء إلى الأجهزة الحكومية في بلدان أوروبا الشرقية.

لا يتوقف البقاء، في هذا النوع الجديد من الحرب الباردة، على الخروج من ملاجئ القنابل عقب الحرب الذرية وحسب بل على منع الانقضاض الشيوعي من ابتلاع العالم الحر. وأدى الخوف من الشيوعية وآليات الحرب الباردة التي لم تترك إلا حيّزاً صغيراً لمعركة عسكرية كبرى، إلا إذا رغب الطرفان في المخاطرة بمحرقة نووية، إلى تعزيز حرب الظل بين الجواسيس وسياسات التخريب. وبالرغم من انتفاء عمليات القتل على مستوى كبير، أقله في العقود الأولى للحرب الباردة، فإن الحكومات الأميركية المتعاقبة والمؤسسة السياسية-العسكرية-الاستخبارية في واشنطن اعتقدت أن الصراع مع الاتحاد السوفياتي هو مسألة بقاء.

ومثل النجاح المالي المستمرّ للغرب مفتاح النصر، وهو نجاح كان بمنزلة أكثر من منافسة لما قطعته الاشتراكية الجماعية السوفياتية من وعد واعتمد على الوصول من دون عرقلة إلى حقول النفط في دول الخليج؛ وعنى ذلك ضرورة وجود سياسة

(١) يمكن العثور على التفاصيل المتعلّقة بعملية مشبك الورق في سجلات مكتب وزير الدفاع RG 330, U.S. National archives and Records Administration (NARA).

أميركية قوية لا لبس فيها بالنسبة إلى الشرق الأوسط. غير أن الواقع السياسي للدعم الأميركي لدولة إسرائيل الجديدة اشتبك مع الحقائق الجغراسية للقومية العربية المدعومة بالنفط. وقدّم عالم مع بعد الاستعمار في الشرق الأوسط، وقد ملأته الحركات القومية الصخّابة وجرّته الزعامات الطامحة في اتجاهات متعددة، فرصة كبرى للاختراق السوفياتي. ومثّلت المنطقة، بالنسبة إلى صانعي السياسة الأميركيين في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، متاهة من التيارات المتقاطعة: الطموحات الوطنية، التعصب الديني، والولاءات المتضاربة.

حاول الأميركيون، على غرار البريطانيين من قبلهم، العثور على رجل قوي واحد في وسعه خلق النظام من الفوضى واستباق الدسائس السوفياتية في الشرق الأوسط. وكان عبد الناصر مرشحاً محتملاً – زعيم حركة شعبية قومية حقيقية ورئيس أكبر الدول العربية التي أخذت في البروز كدولة رائدة في المنطقة. بيد أن عبدالناصر لم يسعه ربط مصيره كله بالأميركيين لأن العامل الإسرائيلي مثل هوّة أكبر من أن يتمكن من تجاوزها. واضطرت إدارات ما بعد الحرب في أميركا، أيضاً بدءاً بترومان، إلى السير بحذر في جهد منها لموازنة الدعم لإسرائيل مع إقامة روابط أوثق مع العالم العربي. وعلى هذا الأساس تطورت العلاقات مع عبد الناصر على مستويين: علاقة ديبلوماسية رسمية بكل ما يرافقها من قيود وروابط قائمة بذاتها جرت سرّاً من خلال «السي.آي.إي.». وعلاوة على ذلك، أمكن لـ«السي.آي.إي.»، عندما عجزت في شكل مباشر عن تقديم خدمات معيّنة طلبها عبد الناصر، أن تستخدم تنظيم غهلن الذي أمكنه تقديم الخبرة والعناصر الضروريين موفّرين بذلك للحكومة الأميركية ورقة تين الإنكار القابل للتصديق.

استمرّ عبد الناصر في تفادي رصاصة القاتل بالرغم من جهود الإخوان المسلمين وغيرهم من التنظيمات المعادية لنظامه. وأحد العوامل هو الحظ؛ غير أن اعتباراً ملموساً أكثر هو أن عبد الناصر امتلك جهازاً أمنياً قديراً في شكل استثنائي، جهّزته «السي.آي.إي.» ودرّبته في شكل غير مباشر. وجاء انخراط الوكالة مع عبد الناصر حصيلة ثانوية للخوف من الشيوعية الذي اجتاح أميركا بعد الحرب العالمية الثانية.

وأبدت إدارة ترومان، وكذلك الحكومات التي أعقبتها، اهتماماً بعبد الناصر بسبب قناة السويس ونفط دول الخليج والخوف من أن يمهد الاستعمار البريطاني والفرنسي الطريق لسيطرة الاتحاد السوفياتي على الشرق الأوسط (١٩٤٥-١٩٥٨). وسيُنظر بعد انهيار الاتحاد السوفياتي (١٩٩١) إلى النفوذ السريع الانتشار للإسلام السياسي بوصفه الخطر الجديد على الشرق الأوسط،[١] في حين استمر الاختراق الشيوعي للمنطقة، بعد نهاية الحقبة الاستعمارية، مترسّخاً لدى الأميركيين.

ومثّل تأسيس إسرائيل العامل الحاسم الآخر الذي صاغ السياسة الأميركية المبكرة حيال الشرق الأوسط. وبالرغم من أن عواقب هذا الحدث الجسيم تفاقمت حدتها مع الوقت، فإنها أدت في شكل فوري إلى تشويه العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. بيد أن العامل المُلطِّف الذي رفع من شأن الولايات المتحدة فوق الأمبراطوريات الأوروبية السابقة هو أن إدارة أيزنهاور عارضت الاستعمار بوضوح. واعتقد ألن دالاس، المدير الجديد «للسي.آي.إي.»، وشقيقه جون فوستر دالاس، وزير الخارجية، إلى جانب عدد كبير من رجالات الكونغرس أن قناة السويس أصبحت، في شكل خاص، رمزاً للاستعمار الغربي في الشرق الأوسط.[٢] ودفعت مثل هذه المفاهيم إدارة ترومان، و«السي.آي.إي.» في أيامها الأولى، إلى اعتبار عبدالناصر حصناً ممكناً للاستقرار في المنطقة وبالتالي عائقاً في وجه الشيوعية.

وهكذا مثلت العلاقة المتنامية بين «السي.آي.إي.» وعبد الناصر جزءاً من التركيبة الأمنية الأميركية الآخذة في التطور والهادفة إلى احتواء التوسع السوفياتي. ففي السنوات الأولى للحرب الباردة، عوّقت ندرة المعلومات عن الاتحاد السوفياتي الجهود الأميركية لتبيّن النيات السوفياتية ولمواجهة النفوذ الروسي في العالم. وعقب النهاية الفورية للحرب العالمية الثانية افتقرت وحدات الاستخبارات الأميركية الوليدة،

(١) يمثل «الإسلام السياسي» وصفاً لحيّز واسع من التنظيمات والمؤسسات الدينية التي تراوح بين الاعتدال والتطرف وبرزت في القرنين العشرين والواحد والعشرين، أحياناً في معارضة للاستعمار والأنظمة العلمانية والديكتاتوريات المطلقة.

(٢) Yergin, Prize, 481.

وهي في معظمها من بقايا «الأو.أس.أس.» وفيلق مكافحة التجسس، إلى شبكات التجسس في كل من داخل الستار الحديدي وخارجه، وبالكاد أمكنتها مواكبة «الكا. جي.بي.» الهائلة المنتشرة في شكل واسع عبر ميادين قتال الحرب الباردة.

أدمجت، في نهاية المطاف، القطع المتفرّقة لوحدات الاستخبارات العاملة لهذا الغرض في أوروبا في «السي.آي.إي.» التي تشكّلت في البداية من مكتب العمليات الخاصة. وقد انبثقت من وحدة الخدمات الاستراتيجية («أس.أس.يو.») وهي بدورها من بقايا «أو.أس.أس.» زمن الحرب، وركّزت على جمع الاستخبارات. وأنشئ مكتب التنسيق السياسي، من جهته، للقيام بعمليات خفية وشبه عسكرية. وقد أنشئ لمواجهة العدوان السوفياتي المكشوف إضافة إلى عدوان الدول الدائرة في فلكه، ولتنفيذ هذه المهمات باستخدام الدعاية والحرب الاقتصادية والتخريب والوقيعة إضافة إلى تشجيع مقاومة الأنظمة الشيوعية ومساندتها.[1]

لم تكن «السي.آي.إي.» نفسها في البداية إلا هيكلاً لتسهيل المعاشات وتوفير الأماكن للمكاتب وتقديم ما هو غير ذلك من الدعم الإداري لفرعيها، «أو. أس.أس.» ومكتب التنسيق السياسي اللذين احتفظا بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتي وبقيا على مدى عدة سنوات متميّزين عن «السي.آي.إي.»؛ وبحسب إيفان توماس، امتلك ويسنر في الواقع استقلالاً ذاتياً تاماً وكان مسؤولاً بالاسم تجاه جورد كنّان رئيس فريق التخطيط السياسي في وزارة الخارجية. فاستقلالية مكتب التنسيق السياسي كانت في أحد المجالات مفيدة حيث إنها سمحت للإدارة باستحضار المبدأ والنأي بنفسها عن النشاطات الأكثر كرهاً للمديرية الخفية الجديدة. بيد أن سنوات «السي.آي.إي.» الأولى مثلت انعكاساً لمؤسسة ليست أقل من مجموع أجزائها وحسب بل إنها منخربة أيضاً بمزيد من الأقسام الفرعية لوحدات شبه مستقلّة. وقد وسم مكتب التنسيق السياسي، وقد أعيدت تسميته لاحقاً مديرية العمليات، «السي.آي.إي.» بوكالة الحيل القذرة – وهي صورة لا تزال تلازم الوكالة إلى اليوم.

(١) Thomas, Very Best, 29-30.

احتاج كل من مكتب العمليات الخاصة ومكتب التنسيق السياسي، في البداية، في شكل يائس إلى المعلومات والعملاء واضطرا إلى التنافس مع الأصدقاء والأعداء على السواء للحصول عليهم. فقبل أن تحط الحرب العالمية الثانية تقريباً رحالها شرعت وكالات استخبارات الحلفاء المنتصرين، بمن فيهم الحياديون، في تلمّس طريقهم والتحقق منها حول الحطام الإنساني لأوروبا وآسيا ما بعد الحرب بحثاً عن عملاء محتملين يمكن بواسطتهم اختراق الاتحاد السوفياتي. والتقى ضباط «السي.آي.إي.» وسط الخرائب مجموعة غير مألوفة من الأفراد الغرباء والتنظيمات الغامضة ممن لفظتهم سكرات موت أوروبا القديمة.

أثبت الحطام البشري لباعة المعلومات الجوالين والمحتالين على الثقة إلى جانب جيوش صغيرة ممن نصّبوا أنفسهم ثوريين ومعادين للشيوعية وبائعي الأسلحة والمهربين والمهجرين وأمراء وملوك ممن تُركوا للأقدار، بأنه ليس إلا كناية عن مصنّعين للمعلومات الاستخبارية أثبتوا على أنهم أقل من ذوي فائدة. واكتشف مسؤولو الاستخبارات الأميركية الذين أبحروا عبر هؤلاء الدساسين أنهم مهما دفعوا لقاء المعلومات السرّية فإنها تبقى وفي شكل ثابت غير جديرة بالثقة وأن في وسعهم بما يكفي من المال النقدي أن يشتروا أي عدد من الأكاذيب أو نظريات المؤامرة، غب الطلب تقريباً.[١] وحدد إيفان توماس واحداً من مثل هذه الأمثلة وعلّق عليه:

> أدى العطش إلى المعلومات الاستخبارية من داخل الستار الحديدي إلى بروز صناعة جديدة تماماً، مصانع ورق تتمخض عن روايات رائعة عن الثورة والدسائس في «المناطق المحظورة.» بل ذهب الأمر بمجموعة مهاجرين تمولها الولايات المتحدة، وتُعرف باسم «تس أوبي» TsOpe وهي الحروف

(١) يكتب تيم واينر في كتابه «إرث من الرماد» (الترجمة العربية لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر) Tim Weiner, Legacy of Ashes: The History of the CIA (New York: Doubleday, 2007), ١٧ أن ريتشارد هلمس، رئيس مكتب العمليات الخاصة ولاحقاً مدير «السي.آي.إي.»، حدد بأن نصف المعلومات تقريباً عن الاتحاد السوفياتي والدول الأوروبية الشرقية التي تدور في فلكه، كانت عديمة الفائدة.

الأولى لاسمها الروسي، إلى نسف مقرّها وألقت بالملامة في ذلك على «الكا.
جي.بي.». وقضت الفكرة بإظهار أن الروس يخشون «تس أوبي» بالفعل،
وعلى واشنطن أن تزيد بالتالي من تمويلها.[1]

نظر ضباط الاستخبارات الأميركية في مفاهيم خيالية كثيرة وقد حرّكهم تصميم يكاد يكون هاجسيّاً على كشف أسرار الكرملين. ولم تبد أي فكرة أو خطة فائقة الجنون؛ وكان بعض المحاولات لخلق قوى معادية للشيوعية لا يُعقل منذ البداية. فقد جند الجيش الأميركي، على سبيل المثال، أربعين ألف لاجئ (من أصل ٧٠٠ ألف موجودين في مخيمات المهجرين) في وحدات خدمات العمل للمساعدة على إزالة الركام من ألمانيا ما بعد الحرب. وبما أن معظم هؤلاء اللاجئين جاء من ألمانيا الشرقية أو من دول ما وراء الستار الحديدي، فقد بدوا المرشحين المثاليين للعمل داخل الاتحاد السوفياتي.[2]

استخدم ويسنر تنظيم غهلن للتنقيب في وحدات العمل ولتجنيد، في نهاية المطاف، نحو خمسة آلاف متطوع في «جيش سرّي» يتم تدريبه على حرب العصابات لاجتياح الاتحاد السوفياتي بعد الحرب النووية. وشُكّل الآخرون في وحدات خلفية تتولى عمليات التخريب عقب الاحتلال السوفياتي لأوروبا الغربية. واختير عدد منهم لمهمّات سرّية وراء الستار الحديدي. وتمّ على مدى بضع سنوات إنزال عشرات المتطوعين بالمظلات في أوكرانيا وغيرها من أماكن الاتحاد السوفياتي إما للتجسس على الروس وإما لإقامة روابط مع حركات المقاومة التي وُجدت في شكل أساسي في مخيّلة رجال من أمثال ويسنر. وكان معظم المتطوعين من اللاجئين الأوكرانيين الذين حاربوا مع النازيين في الحرب العالمية الثانية، وأوهم ويسنر نفسه

(١) Thomas, Very Best, 36. ويعني الاختصار «تسنترالنوغو أوبيدينينيا بوليتشيسكيخ إيمغرانتوف إيز أس.أس.أس.آر.» (الاتحاد المركزي للمهاجرين السياسيين من الاتحاد السوفياتي)، ومركزه ميونيخ.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٢٥، ٣٦. وقد ضمّوا في صفوفهم أوكرانيين وتشيكيين وبولنديين ومجريين وروساً؛ وسبق لمعظمهم أن قاتل ضد الجيش الأحمر وهم يرتدون الزي الألماني وطلبوا اللجوء إلى الغرب.

بالاعتقاد أن هؤلاء الأشخاص البائسين سينضمّون إلى مجموعات من أهل البلاد الأوكرانيين لشن حرب خاطفة في جبال كارباتيا.(١)

من المأساة أن مفهوم حركات المقاومة التي تحارب الروس مثّل سراباً أودى بحياة المئات، إذا لم يكن الآلاف، من المتطوعين الأوروبيين الشرقيين الذين أقنِعوا بالسماح لأنفسهم بأن يُنزلوا بالمظلات في داخل الكتلة الشيوعية وانتهوا إلى التعذيب والموت. تلوّثت أيدي بعض هؤلاء المتطوعين بالدماء من جراء عملهم مع «الأس. أس.» في خلال الحرب، والمؤكد أنهم واجهوا العدالة القاسية. غير أن الكثيرين غيرهم كانوا من الأناس اليائسين الذين حاولوا التخلص من حياة المخيمات، بل إن بعضهم كان من المثاليين الذين ذهبوا في شكل أعمى إلى مصيرهم المحتوم بعد استماعهم إلى أغنية ويسنر المغوية.(٢)

يجب وضع أفعال رجال من أمثال ويسنر في سياق العقد الأول من الحرب الباردة. فهو ليس بمحارب بارد وحيد: لأن معظم الزعامة السياسية والعسكرية الأميركية كان رهينة مفهوم الأمبراطورية الشيوعية المتوسعة التي تهدد بابتلاع أوروبا والشرق الأوسط وآسيا. وفي السنوات الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية أعطت الأفعال السوفياتية للمؤسسة السياسية والعسكرية في واشنطن كل المؤشّرات إلى التوسّع العدواني. ولم تؤدّ الأحداث في أوروبا وفي العالم الثالث، بغض النظر عما إذا كانت بتحريض من موسكو أم لا، إلا إلى تغذية جنون ريبة الحرب الباردة المتصاعد. وأدى غياب أي معلومات استخبارية واقعية (أو وجود المعلومات الزائفة من مصادر، مثل غهلن، تعمل لخدمة مصالحها الذاتية) إلى جعل الأمور أكثر صعوبة وساهمت في تعزيز الشك بأن دسائس الشيوعية ذات السياق الواحد تتخفّى وراء كل انتفاضة وكل حركة قومية وكل نزاع.

(١) المصدر السابق، ص. ٣٦.

(٢) عن تعاون المتطوعين مع النازيين أنظر Burton Hersh, The Old Boys : The American Elite and the Origins of the CIA (New York : Scribner's, 1992), 274-77.

١٦

حرب من نوع جديد: عمليات التخريب و«السي.آي.إي.»

«كلما أردنا تخريب مكان ما يكون للبريطانيين جزيرة في المتناول».

ـ فرانك ويسنر إلى كيم فيلبي[١]

بعد نحو أسبوعين على نهاية الحرب العالمية الثانية في أوروبا، دخل ضابط نازي بزيّه «الأس.أس.» الكامل وهو مدجّج بالسلاح برفقة ألمانيين آخرين إلى مقر الجيش الأميركي في سالزبورغ في النمسا للاستسلام. واحتلّ المقدم أوتو سكورزيني مكانه على لائحة النازيين المطلوبين جداً من الحلفاء، غير أن ضابط «الوافن ـ أس.أس.» تمكّن من التملّص بالرغم من الجهود اليائسة للعثور عليه. وكرّر راديو لوكسمبورغ الذي يسيطر عليه الحلفاء، إضافة إلى الصحف المحلية، النداءات لمعرفة مكان وجوده لكن من دون جدوى.[٢]

أخذت أجهزة الاستخبارات الحليفة تواجه، في الأيام الأولى من أيار/مايو ١٩٤٥، سيناريوهاً خيالياً يُحتمل أن يصبح كابوساً. فقد ذكرت شائعات تسرّبت من بقايا ألمانيا النازية أن هتلر جهّز معقلاً في جبال الألب ليقاتل منه أكثر جيوشه تعصّباً حتى الموت. وآخر ما أراده الحلفاء في الأيام الجامحة التي أعقبت استسلام القوات

(١) Philby, Silent War, 154.

(٢) Charles Whiting, Skorzeny: The Most Dangerous Man in Europe (Conshohocken, PA: Combined, 1972), 96-97.

المسلحة الألمانية خوض معركة أخرى يطول أمدها وتسقط فيها إصابات لا لزوم لها.(١)

بيد أن الشائعة استمرّت، وبحسب تخمينات الأسرى النازيين ممن يخدعون ذواتهم أو يراودهم التفكير الرغبي فإن هتلر أصدر مثل هذه الأوامر واختار أوتو سكورزيني قائداً لهذه الهمروجة.. وكان سكورزيني، النمسوي المولد، واحداً من أكثر كوماندوس هتلر إقداماً ومهارة. وتضمّنت إنجازاته عملية الإنقاذ الجريئة لموسوليني من سجنه الجبلي في ١٩٤٣. فقد انقضّ سكورزيني ومجموعة من كوماندوس النخبة على السجن بالطائرات الشراعية – وهو عمل بطولي يكاد يكون مستحيلاً – واقتلعوا الديكتاتور الإيطالي من حراسه المذهولين. ونظم سكورزيني بعد ذلك بسنة عملية اختراق قام بها ألمان يتحدثون الإنكليزية وراء الخطوط الأميركية؛ وادعوا، في خلال هجوم الأردين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٤، أنهم جنود أميركيون وتسبّبوا بارتباك عظيم.

بلغت شهرة سكورزيني السيئة ذروة جديدة في ١٩ كانون الأول/ديسمبر عندما استسلم ضابط في سلاح الجو الألماني، يرتدي بزة الجيش الأميركي، للأميركيين على مقربة من لياج في بلجيكا. وأبلغ المحققين معه في مقرّ الجيش الأميركي الأول أن العقيد أوتو سكورزيني قد عبر الخطوط مع ٦٤ كوماندوساً ألمانياً بغية اغتيال الجنرال دوايت أيزنهاور القائد الأعلى للحلفاء في مقره خارج باريس.(٢) وتبين أن مؤامرة اغتيال أيزنهاور ليست إلا خدعة، غير أن فريقاً أنكلو-أميركياً مشتركاً من مكافحة الإرهاب اكتشف في خلال التحقيق منظمة تخريب أنشأها هنريتش هيملر، واقتنعوا بوجود المعقل المزعوم في جبال الألب الذي، بالاشتراك مع حرب العصابات، سيسمح للنازيين بالصمود أمام الحلفاء حتى بعد سقوط ألمانيا. وبحسب جهاز مكافحة التجسس في المقرّ الأعلى لقوة التدخّل الحليفة فإن:

(١) Glenn B. Infield, Shorzeny: Hitler's Commando (New York: Military Heritage Press, 1981), 78.

(٢) Heron [Stuyvesant Wainwright, Jr.] to Berding, SCI Headquarters, 12 AG, 20 December 1944, Box 89, Entry 139, RG 226, NARA.

الإجماع العام هو أن سكورزيني سينظّم، بعد تحرير ألمانيا، حملة إرهابية ... لإحداث انتفاضة سياسية من خلال الاغتيالات والإرهاب وأعمال التخريب في الاجتماعات السياسية بطريقة تضع اللوم على عناصر يسارية وشيوعية ... وهذه العمليات ... ستوجّه من أجل استمرار الإرهاب النازي بغية السيطرة على الشعب الألماني ومنع التعاون مع الحلفاء. فالعلم بوجود مقر قيادة نازي وإمكان إحياء النازية سيبقي العقائد الألمانية حيّة ويشجّع على تشكيل حركات مستقلّة في أنحاء ألمانيا كافة.(١)

اشتبه فريق مكافحة التجسس الأنكلو-أميركي بأن سكورزيني، نظراً إلى إنجازاته المتهوّرة الكثيرة وفضلاً عن ولائه لهتلر، سُلّم قيادة المعقل النازي في الألب إضافة إلى حملة إرهاب ما بعد الاحتلال. ورأت استخبارات الجيش الأميركي أنها في حال تمكّنت من تحديد مكان سكورزيني، فستتحقق من وجود مثل هذا الحصن النازي الخفي المعشش في عمق الجبال أو عدم وجوده. وصحيح أنه لسهل على سكورزيني أن يقول لهم ببساطة بأن فكرة خندق الدفاع الأخير ليست إلا من تلفيق مخيّلة حفنة من النازيين ممن التمسوا الراحة في تخيّلاتهم عن آخر أيام هتلر. وجال سكورزيني على ما يُسمّى المعقل، ولما اكتشف أنه مجرّد ثمرة من ثمرات الخيال قرر الاستسلام. قام، من دون جدوى، بمحاولات متكررة للاتصال بالأميركيين. بعث برسائل إلى أقرب مقارّ القيادة الأميركية، لكنه لم يلق جواباً، فيما أخذت وحدات أميركية في البحث المحموم عن أي إشارة عنه.(٢)

هكذا، وبعد ١١ يوماً على انتهاء الحرب، نزل سكورزيني من الجبال برفقة ضابط صف ومترجم للتقدّم من الجيش الأميركي في سالزبورغ. عرّف عن نفسه لدى وصوله إلى أول معسكر عند أطراف المدينة وعرض الاستسلام، لكن رقيب الخدمة لم يتأثّر. وأبلغ الأميركي الألمان بأنهم إذا كانوا على هذا القدر من الأهمية

(١) SHAEF, Counter Intelligence War Room London, "The German Intelligence Service," April 1945, William J. Donovan Collection, Military History Institute, Carlisle, PA.

(٢) Infield, Skrozeny, 122.

التي يعتقدون أنهم عليها فسيزوّدهم سيارة جيب وسائق ليتمكّنوا من الاستسلام لمقر الفرقة. وبوصولهم إلى المدينة، حاول سكورزيني من جديد الاستسلام، وهو لا يزال مدجّجاً بالسلاح، لكن أول ضابط أميركي التقاه، وهو برتبة رائد، طلب إليه التوجه إلى مكان آخر.(١)

وأدرك أحدهم، في نهاية المطاف، أن هذا هو سكورزيني الشهير وبلغت رقصة الاستسلام البطيئة الساخرة نهاية مفاجئة. عومل سكورزيني بالتالي بالشدّة المناسبة التي تليق بسجين خطير. انتُزع منه سلاحه وجُرّد من الثياب للتيقن أنه لا يحمل أي سمّ. وأُرسل قائد كوماندوس «الأس.أس.» بعدئذ، مع رفيقيه، إلى سالزبورغ مع واحد من أفراد الشرطة العسكرية الذي صوّب رشاشه إلى وجهه وعُرض هناك على الصحافة. وقد أُجبر على الجلوس ويداه موثقتان خلف ظهره وأعطى مقابلة لصحافة الحلفاء.(٢) واجه سكورزيني عدة تهم في خلال المحاكمة، بما فيها ارتداء الزي العسكري الأميركي واستخدام الرصاص السام. وقد بُرّئ لكن لم تكن لدى الأميركيين النية في تركه حرّاً.

في السابع والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤٨، فرّ سكورزيني من معسكر الاعتقال في دارمستاد بمعاونة ثلاثة ضباط سابقين في «الأس.أس.». وسافر الكوماندوس السابق، على مدى عدة سنوات، من ألمانيا إلى فرنسا وإسبانيا وسوريا، منشئاً خطوطاً لتسهيل هروب مجرمي الحرب من ألمانيا، وهو ما مكّن في نهاية الأمر الكثيرين من النازيين غير التائبين – بعضهم من ذوي النفوذ وبعضهم لا – من إيجاد سبيلهم إلى أميركا الجنوبية ومن ثم إلى الشرق الأوسط. وعمل سكورزيني، على مدى عدة سنوات، مع تنظيم غهلن – وسبق له أن عمل في شكل ظرفي مع رينهارد غهلن في السنوات الأخيرة للحرب – إلى أن استقر أخيراً في إسبانيا حيث أنشأ مؤسسة للاستشارة الهندسية الدولية ولتجارة الأسلحة.(٣)

(١) Whiting, Skorzeny, 97; Infield, Skorzeny, 123.

(٢) يزعم وايتينغ في كتابه عن سكورزيني (ص. ٩٧) أن يديه قيّدتا بالأصفاد وراء ظهره، لكن إينفيلد أصرّ في كتابه عن سكورزيني (ص. ١٢٦) أنه ما أمكن له الظهور أمام الإعلام ويداه موثقتان.

(٣) استنادا إلى إينفيلد في كتابه عن سكورزيني (ص. ٥٦-١٥٥)، فإن غهلن هو الذي نظّم عملية الهروب.

أصبح سكورزيني، في خلال الخمسينيات من القرن العشرين، لاعباً أساسياً في عملية خفية معقّدة جاءت بخليط من الضباط الألمان السابقين واختصاصيي الاستخبارات النازية والأمن إلى مصر. أما اللاعب الآخر في هذه المهمة الخفية فإيطالي-أميركي ضئيل ذو ماض متقلّب لكنه يتمتع بأصدقاء ذوي نفوذ في وزارة الخارجية الأميركية. وقد ترعرع كارمل أوفي في عائلة إيطالية كبيرة وفقيرة في شارون في بنسلفانيا. هاجر أهله من نواحي نابولي وعمل والده حمّالاً ينقل الأمتعة في إحدى محطات القطار. وانتقل أوفي وهو في السابعة عشرة إلى واشنطن وعثر على وظيفة طابع ومختزل في لجنة التجارة بين الولايات.(١)

بعد ذلك بثلاث سنوات، في ١٩٣١، وافقت وزارة الخارجية على طلبه الحصول على وظيفة كاتب. وبعد مهمة قصيرة في هندوراس، نُقل إلى موسكو في نهاية ١٩٣٤ كسكرتير مؤتمن للسفير الأميركي وليام ك. بوليت. وتمتع أوفي بنزعة طبيعية إلى التودّد وسرعان ما مثل دور المداهن. وأصبح لا غنى للسفير عنه وتولّى كل أنواع المهمات، المهنية منها والشخصية. وأصبح أوفي متوافراً لبوليت على مدى ٢٤ ساعة تقريباً في اليوم ورقّاه السفير في المقابل إلى مرتبة ملحق. واستحصل أوفي بمرور الأيام على الفضائل الاجتماعية الغائبة عن خلفيته وطوّر لائحة مثيرة للإعجاب من المعارف في الأوساط المهنية والاجتماعية.

نُقل بوليت في آب/أغسطس ١٩٣٦ إلى باريس وجلب معه محميّه. ويصف بورتون هرش أوفي بأنه: «حيوان بوليت الأليف، وجروه المؤدّي، الذي تتمتّع رطوبة عينيه بجدارة تفاضلية فيما يحوز، من خلال تلاعبه بدقائق البروتوكول، تصفيق المجتمع الدولي»(٢). وها إن أوفي يصبح، بفضل جهود بوليت، سكرتيراً ثالثاً في سفارة باريس. وقد امتاز بوصفه من محبي الحفلات الاجتماعية ويمكنه سحر الرجال والنساء لمصلحة بوليت. ورعى عدداً من الناس – وهي مهارة صقلها على مرّ

(١) Hersh, Old Boys, 42.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٦٢.

السنين – أثبتوا أنهم مفيدون في مساعدته على الإبحار في السلالم الخلفية لمؤسسة واشنطن. فقد أقام مثلاً، علاقة ممتازة بمارغيت «ميسي» ليهاند، سكرتيرة الرئيس فرانكلين روزفلت الخاصة. وأخذ، من وقت إلى آخر، يرسل إليها هدايا تراوح بين العطور والكبد الدسم foie gras. وهكذا أمكنه استخدام «ميسي» كقناة خلفية إلى روزفلت وجعلها تعطي الأفضلية الأولى لتقارير بوليت، في الوقت الذي يكيل فيه بالمدائح للرئيس.[١]

بعدما فقد بوليت حظوته لدى روزفلت وخسر، في آب/أغسطس ١٩٤٠، سفارة باريس أُلحق أوفي بوزارة البحرية لكنه استمرّ في خدمة بوليت في وقته الحر. ولما شرع بوليت في حملته لتحطيم سامنر ولز، كان أوفي هو الذي وزّع في تلة الكابيتول المناشير التي ذكرت أن ولز راود اثنين من حمّالي سكة الحديد عن نفسيهما. ونجحت الحيلة، واضطرّ روزفلت إلى صرف ولز، لكن ذلك لم ينفع بوليت كثيراً؛ إذ لم يمكن للرئيس أن يغفر له دوره في تحطيم سمعة واحد من أصدقائه.[٢] ونُقل أوفي في آذار/مارس ١٩٤٣ إلى طاقم المجلس الاستشاري للحلفاء في إيطاليا. واكتسب في أوروبا معرفة فريدة بشخصيات الحكومات في المنفى واللاجئين من أوروبا الشرقية إضافة إلى عشرات المجموعات المناوئة للشيوعية التي سبق أن عملت للنازيين وتعرض الآن خدماتها على الحلفاء.

بلغت حياة كارمل أوفي المهنية في وزارة الخارجية نهاية مفاجئة. ففي ١٩٤٧ كشف تدقيق روتيني في الحقيبة الديبلوماسية في فرانكفورت عن أربعة آلاف دولار نقداً غير مصرّح بها من أوفي. وكشف المزيد من التحقيق عن تجارة غير مسموح بها بالماس وروبل السوق السوداء بل حتى عن ٣٠٠ قطعة كركند نقلت جواً إلى فرانكفورت على متن طائرة عسكرية. لم يملك أوفي من خيار إلا الاستقالة من وزارة الخارجية، غير أن معارفه الكثيرين تعاونوا لإيجاد وظيفة جديدة له. وبعد ذلك ببضعة

(١) المصدر السابق، ص. ٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص.٥٢-١٥١.

أشهر دبر له تشيب بوهلن، وهو أحد رعاته النافذين، أن يلتقي فرانك ويسنر من مكتب التنسيق السياسي المنشأ حديثاً. ويذكر بوهلن أن خبرة أوفي الأساسية كانت معرفته الواسعة بالكتلة الشرقية. وهذا ليس بالثناء الفارغ؛ فقد عمل أوفي مع ألن دالاس في إنشاء راديو أوروبا الحرة ووظّف مهاجرين من بلدان يحتلّها الاتحاد السوفياتي للإذاعة في ما وراء الستار الحديدي.(١)

وبنتيجة ذلك استخدم ويسنر الموظفَ السابق الذي لحق به العار في وزارة الخارجية بوصفه مساعده الخاص وأوكل إليه مسؤولية شؤون اللاجئين. وشرع أوفي، كما في حالته مع مستخدمه السابق، في التودّد إلى ويسنر. واعتنى ببوللي، زوجة ويسنر، وكذلك بأولاده وسرعان ما تم قبوله كفرد موثوق به من أفراد العائلة. وأصبح أوفي، بالإضافة إلى ذلك، ناصح ويسنر الاجتماعي. وبعبارات جايمس أنغلتون: «كان أوفي محنّكاً من الفئة العالمية يمكنه أن يغرز خنجراً في خصمه ويقدّم له أطروحة عن الكونياك. وهو يقدّم الخدمة في الوقت نفسه."(٢)

امتلك المسؤول السابق في وزارة الخارجية بالفعل حدساً في عمل الاستخبارات وقد تعلّم منذ نعومة أظفاره عيش حياة مزدوجة. فأوفي، وعلى غرار الجواسيس الذين سعى إليهم، صاحب خبرة في كونه كل شيء لجميع الناس، فيما يحتفظ بأنا أخرى سرّية. وكان أوفي مثلي الجنس، وهي، في الأربعينات والخمسينات، حالة قاتلة لأي وظيفة في الحكومة أو في الصناعة الخاصة.(٣) وسمحت هذه الخبرة لأوفي، إضافة إلى حياة أمضاها بأكملها في صقل مهارته في التلاعب، بتولي مهمات صعبة وخفية. وشكّل، في الوقت نفسه، وجوده في مكتب التنسيق السياسي وعمله في عالم الجواسيس الغامض والعملاء المزدوجين، ومن ضمن حدود أخلاقية مرنة، تجربة تحريرية لرجل لديه الكثير ليخفيه. وأسقط أوفي، في مكتب التنسيق السياسي، كل محاولاته إخفاء مثليته الجنسية وامتلك الثقة ليعيش شخصيته على المكشوف. وإلى

(١) Trento, Secret History, 47.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٤٧-٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٤٧.

حد ما، تخلّص الحجم الكبير للأسرار التي كان على أوفي أن يحميها من حرّيته التي اكتشفها حديثاً.

أصبح كارمل أوفي وفرانك ويسنر صديقين حميمين. وبما هو أبعد من علاقة المداهن والسيّد، اشتركا في شغفهما لمواجهة السوفيات. وحجب هذا الصراع الملحمي الجديد ضد الشيوعية أي شك في شأن نوعية الأشخاص الذين يمكن تجنيدهم للقتال من أجل الخير الأعظم. وهكذا بات يتوجب، في هذا السياق العالمي، تسخير أتباع هتلر الأمناء، بمن فيهم خدم الموت، في معركة الحرب الباردة الخفية. وبات السباق بين الحلفاء، الذين حاربوا ألمانيا النازية وهزموها، لتطويع العلماء الألمان والمهندسين.

أصبح أوفي قيصر عملية «مشبك الورق» – البرنامج الخفي الذي تقفّى أثر خبراء الصواريخ والمهندسين الألمان وجلبهم إلى الولايات المتحدة – وعملية «بلادستون» الأكثر غموضاً التي بحثت عن نازيين محددين ومتعاونين من زمن الحرب ممن يمكن استمالتهم، بطريقة أو بأخرى، للعمل من أجل الأميركيين داخل الأمبراطورية السوفياتية.(١) أدرك أوفي أن المتعاونين مع النازية الذين نجوا من تحرير بلدانهم وانسلوا بهدوء عائدين إلى وظائفهم السابقة ضعيفون في نوع خاص حيال الإقناع أو الابتزاز.(٢) وجيء بآخرين، وخصوصاً النازيين الذين جُنّدوا تحت رعاية «عملية بلادستون"، إلى الولايات المتحدة ووُظفوا بوصفهم خبراء في الاستخبارات والعمليات الخفية. ولم يكن هؤلاء الرجال والنساء من المُضلَّلين أو حتى من المتعاونين الانتهازيين الذين باسم معاداة الشيوعية احتضنوا كابوس هتلر الأوروبي: بل كانوا من النازيين الرفيعي المقام وخبراء أمنيين ضمّتهم عدة لوائح لمجرمي الحرب.

---

(١) حصلت عملية «مشبك الورق»أيضاً على رعاية وكالة الهدف الاستخباري المشترك التي أنشئت في ١٩٤٥ بوصفها لجنة فرعية للجنة الاستخبارات المشتركة لرؤساء الأركان المشتركة. وتم تجنيد ما يقارب ١,٥٠٠ عالم ألماني ومهندس وتقني وعائلاتهم. للتفاصيل الكاملة أنظر سجلات مكتب الدفاع الأمني RG 300, NARA.

(٢) Trento, Secret History, 51-52.

نشأت «عملية بلادستون» أساساً في وزارة الخارجية. وأقرّت لجنة التنسيق بين الخارجية والجيش والبحرية وسلاح الجو العملية في ١٠ حزيران/يونيو ١٩٤٨ وبعد ذلك بشهر وسّع رؤساء الأركان المشتركة نشاطات «بلادستون»:

> لتضم تلك النشاطات ضد العدو التي تقوم بها القوى الحليفة أو الصديقة في ما وراء خطوطه ... ولتشمل الحرب النفسية والتآمر والتخريب وطائفة أخرى من العمليات مثل الاغتيال والأسر وإنقاذ طياري الحلفاء.(١)

جاء مكتب التنسيق السياسي في الواقع إلى الوجود لتنفيذ الهجمات الخفية ضد الاتحاد السوفياتي وحلفائه. وانتهت أول عملية لمكتب التنسيق السياسي من العمليات الخفية شبه العسكرية بكارثة. ففي ١٩٤٩ اتصل ممثلون لمنظمة سرّية بولندية تدعى «الحرية والاستقلال» («وين» بالاختصار البولندي) بمهاجرين بولنديين في لندن وادعوا أن في وسعهم حشد جيش من مقاتلي حرب العصابات وقلب نظام بولندا الشيوعي.(٢)

شكّ مكتب التنسيق السياسي بداية في الأمر، لكن «وين» زودته صوراً فوتوغرافية عن هجماتها ضد منشآت عسكرية ومخافر للشرطة، بل حتى دليلاً إلى معركة ضارية ضد دبابات سوفياتية. وأتبع ذلك بتقارير استخبارية من عملاء «وين» داخل وزارة الدفاع البولندية تضمّنت معلومات عن نظام المعركة التابع للجيش الأحمر في أوروبا الشرقية.(٣) ووقع مكتب التنسيق السياسي اتفاقاً في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠ مع «وين» تقوم المنظمة السرّية بموجبه بعمليات تجسس وبأعمال

---

(١) 2 August 1948, JSPC 862/3, NARS, RG 319, NARA.

(٢) تأتي المعلومات عن وجود «وين» من جوزف سيينكو العضو السابق في المقاومة البولندية؛ أنظر Thomas Powers, The Man Who Kept the Secrets (New York: Knopf, 1979), 41 حمل سيينكو الخبر إلى الفريق فلاديسلاف أندرز قائد الجيش البولندي في المنفى، وادعى أن لدى «وين» خمسمئة عضو إلى جانب عشرين ألف مؤيد ومئة ألف آخرين على استعداد لمحاربة الشيوعية؛ أنظر Harry Rositzke, The CIA's Secret Operations: Espionage, Counterespionage, and Covert Action (Boulder, CO: Westview, 1988), 168-71.

(٣) Edward J. Epstein, Deception: The Invisible War Between the KGB and the CIA (New York: Simon and Schuster, 1989), 34.

تخريبية لمصلحة الأميركيين في مقابل التدريب والمال والعناصر وعمليات إنزال جوية.[١] وأقحم الأميركيون أيضاً «أم.آي٦» في العملية بما أن وكالة الاستخبارات البريطانية تسيطر على مجموعات المهاجرين الأوروبيين الشرقيين في لندن وفي وسعها تحريك العملاء في ما وراء الستار الحديدي.[٢]

وافقت «أم.آي٦»؛ إلا أنها، ومن سوء الحظ، لم ترسل إلا كيم فيلبي إلى واشنطن لتنسيق عملية حرب العصابات الأنكلو-أميركية في بولندا. لم يعرف أحد حينئذ بأن كولبي عميل خفيّ قديم العهد للروس ويمثّل جزءاً من عملية الخداع السوفياتية للغرب. وقضى تكتيكه الافتتاحي بأن يعرض على الأميركيين استخدام ضباط مكافحة التجسس الألمان السابقين ممن وضعهم البريطانيون سرّاً في كندا. وسبق لهؤلاء الألمان أن استَخدموا في خلال الحرب مخبرين بولنديين وغيرهم من الأوروبيين الشرقيين وتمكن الكثيرون ممن نجوا من إخفاء خيانتهم ومن إيجاد وظائف لدى الأنظمة الشيوعية الجديدة. وهم بناء على ذلك غير حصينين وفي الإمكان إجبارهم على التعاون مع الوكالات الغربية تحت التهديد بفضحهم، الأمر الذي يعني تعرضهم للتعذيب والموت المحتّم. وأمكن بنتيجة ذلك لخبراء مكافحة التجسس النازيين السابقين أن يزوّدوا «السي.آي.إي.» قوائم طويلة من العملاء المحتملين.[٣]

دفقت «السي.آي.إي.» على مدى ١٨ شهراً المال والتجهيزات على المقاومة البولندية حتى أخذت الأمور تسوء.[٤] لم تتطابق معلومات «وين» عن الجيش الأحمر مع صور الاستطلاع الجوي واعتراض الاتصالات. وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض العملاء الذين أُنزلوا بالمظلة في بولندا أو أولئك الذين حرّكهم الخبراء الألمان

---

(١) Hersh, Old Boys, 279.
(٢) Epstein, Deception, 34.
(٣) المصدر نفسه، ص. ٣٤-٣٥.
(٤) أنفقت «السي.آي.إي.» على مدى نحو سنتين نحو مليون دولار من العملة الذهبية، إضافة إلى أجهزة اللاسلكي وغيرها من التجهيزات. أنظر Hersh, Old Boys, 279.

السابقون في مكافحة التجسس اختفوا بعد اتصالهم بـ«وين»، فيما أصبحت رسائل اللاسلكي التي يبثها آخرون عرضة للمزيد من الشبهة. شكّت «أم.آي٦» في فيلبي الذي انخرط انخراطاً وثيقاً بالبرنامج، وأعادته إلى لندن حيث أعفي سرّاً من العمل في جهاز الاستخبارات. وكشفت الحكومة البولندية في النهاية، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥١، في بثّ عبر الراديو استمر ساعتين أن «وين» شكّلت خدعة منذ البداية. وقد تم توقيف كل العملاء في اللحظة التي أجروا فيها الاتصال بـ«وين» واستفادت أجهزة الاستخبارات البولندية والروسية استفادة كبرى من الذهب والأسلحة والتجهيزات التي سخت «السي.آي.إي.» في تقديمها.[١]

ونشأ وضع مشابه في ألبانيا. وشكّلت عملية «فاليوابل» (القيّمة)، على غرار «وين"، جهداً مشتركاً بين مكتب التنسيق السياسي و«أم.آي٦» لتدريب المغتربين الألبانيين وإعادتهم إلى ألبانيا للتحريض على انتفاضة ضد النظام الشيوعي أو في أقل الأحوال الشروع في حرب عصابات طويلة. وقد نشأت عملية «فاليوابل» مع البريطانيين الذين اعتقدوا أن ألبانيا جاهزة للثورة المضادة. أرادت لندن أن تعاقب نظام الديكتاتور الألباني أنور خوجا على مساندته الشيوعيين في الحرب الأهلية اليونانية (١٩٤٦-١٩٤٩). وقد كلّف النزاع اليوناني البريطانيين غالياً من الناحية المالية وأدى في نهاية المطاف إلى استحضار مبدأ ترومان الذي وضع حدّاً لدائرة النفوذ البريطانية في جنوب شرق أوروبا وفي شرق المتوسط.[٢]

شكّلت ألبانيا هدفاً ممكناً بسبب موقعها الجغرافي. فقد أصبحت البلاد منفصلة عن أراضي الكتلة الشرقية الشيوعية بعد انشقاق تيتو في ١٩٤٨. ولن يتمكّن الروس، في حالة الانتفاضة الناجحة، من بلوغ ألبانيا برّاً. وجرى التخطيط للعملية في وقت لاحق من ١٩٤٨، وشرع مكتب التنسيق السياسي و«أم.آي٦» في الطواف في معسكرات اللاجئين بحثاً عن متطوعين. وخرج البحث بمئتي لاجئ ألباني يعاني

(1) Epstein, Deception, 39.

(٢) Aldrich, Hidden Hand, 160-61.

معظمهم سوء التغذية وتدنّي المستوى الصحي.[١] درّبت «أم.آي٦» متطوعيها في مالطا فيما أهاب مكتب التنسيق السياسي بألبانييه في جنوب ألمانيا. واقترح البريطانيون إيصال مقاتلي الحرّية التابعين لهم بحراً إلى الشاطئ الألباني، وخطط الأميركيون لإنزال مقاتليهم بالمظلات.[٢]

شرع البريطانيون في تنفيذ الجزء المتعلّق بهم من العملية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٩ من خلال تجهيز أسطول صغير من المراكب الخاصة المُستأجرة لإنزال ٢٦ متطوعاً على الشاطئ الألباني. وقد تعرّضوا لكمين شبه فوري. أصيب أربعة منهم وتمكّن الباقون من الهروب بعبورهم الجبال إلى اليونان.[٣] وواجهت عدة محاولات أخرى الفشل أيضاً وانسحب البريطانيون بحلول ١٩٥١ من العملية تاركين ألبانيا للأميركيين.

وسبق في ١٩٥٠ لمكتب التنسيق السياسي، وهو لا يزال يتعاون مع الـ«وايتهول»، أن أنشأ – بمبادرة من كارمل أوفي – «السرية ٤٠٠» التي ضمت خمسين متطوعاً ألبانياً. وقد اتصل مكتب التنسيق السياسي بالجناح السياسي المنفي لمقاتلي الحرية الألبان، «بالي كومبيتار» (الجبهة الوطنية)، المتمركز في روما وأثينا. غير أنه لم يمكن «لأي.أم٦» ومكتب التنسيق الاتفاق على من سيقود بالفعل حركة المقاومة الألبانية. وحصل الكثير من الجدل بين الحلفاء ويتحدّث كيم فيلبي في مذكّراته عن بعض الإحباط الأميركي حيال الدور البريطاني الرئيسي الأولي في العمليات. وأشار فيلبي إلى شكوى ويسنر منه وفحواها أنه «كلما أردنا تخريب مكان ما يكون للبريطانيين جزيرة في المتناول».[٤]

سبق لبعض من اختارهم الأميركيون والبريطانيون أن تعاونوا مع الألمان والإيطاليين في خلال الحرب. وسبق لأحد محمييهم، ظافر ديفا، أن تولى وزارة

(١) المصدر السابق، ص. ٥٢-١٦١.
(٢) المصدر نفسه، ص. ١٦٢.
(٣) المصدر نفسه، ص. ١٦٣.
(٤) Philby, Silent War, 154.

الداخلية الألبانية في ظل النازيين. وقد ساعد على إنشاء فرقة «سكاندربرغ» الجبلية الواحدة والعشرين في الـ«وافن أس.أس.» غير المؤهلة عسكرياً ولكن المثيرة للرعب، وقد جنّد لها ألباناً من كوسوفو. وأشرف ديفا شخصياً، في ٤ شباط/فبراير ١٩٤٤ على المجزرة التي نفذها الغيستابو ضد مقاتلي المقاومة الألبانية. ووقع الخيار الأميركي الآخر على حسن دوستي الذي تولى وزارة العدل في حكومة الاحتلال الإيطالية.[١] وقد واجه مكتب التنسيق السياسي عقبات جمّة لدى محاولته الإتيان بهؤلاء الرجال إلى الولايات المتحدة لأن بعض هؤلاء «الضيوف» من مجرمي الحرب المطلوبين بل إن بعضهم لم يكن يحوز جواز سفر.[٢]

بيد أن مكتب كارمل نجح في إقناع الجمارك الأميركية ومسؤولي الهجرة بغض النظر من أجل المصلحة الوطنية. وسافر الألبان إلى الولايات المتحدة في ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٤٩، وفتحوا في نيويورك مكتب لجنة ألبانيا الحرّة المدعومة أميركياً. وبوفاة رئيس المنظمة في نيويورك بعد إصابته بذبحة قلبية، ضغط أوفي بقوة لإبداله بحسن دوستي المتعاون السابق مع الفاشية. وأُجبر أوفي على مغادرة مكتب التنسيق السياسي بعد فترة وجيزة على نجاحه في إحلال دوستي في رئاسة اللجنة.

شرع مكتب التنسيق السياسي، في غضون ذلك، في عملية تسلل المتطوعين الألبان، إلا أن كل محاولات نقلهم جواً أو بحراً انتهت إلى كارثة. وفي واحد من هذه الجهود، في حزيران/يونيو ١٩٥١، أُسقطت ثلاث مجموعات بالمظلات. أبيدت المجموعة الأولى لدى هبوطها. وتمكّنت الثانية من الاختباء في أحد المنازل، غير أن قوات الأمن الألبانية طوقتها وأشعلت النار في المنزل واحترق جميع من فيه وهم أحياء. وقُتل اثنان من المجموعة الثالثة واعتقل اثنان. وحوكما بعد ذلك بفترة قصيرة.[٣] وشرعت المجموعة الوحيدة من المظليين التي تمكّنت من النجاة في البث

(١) لجأ الرائد عباس كوبي، الذي اختاره البريطانيون لرئاسة الحكومة الألبانية في المنفى، إلى التعاون مع المحور لحماية نفسه من مؤيدي الشيوعية. أنظر Aldrich, Hidden Hand, 162.

(٢) Prados, Safe, 61.

(٣) المصدر نفسه.

اللاسلكي المنتظم، لكن سرعان ما تبيّن أنهم تحت سيطرة أمن الدولة الألبانية.[١]

حقّق الأميركيون بعض النجاح في إرسال بعض المتطوعين إلى ألبانيا باستخدام الطرق البرّية من اليونان. بيد أن هذه الحفنة من المتسللين الألبان الذين تمكنوا من النجاة واجهوا سكاناً عدائيين إلى حدّ كبير. وبلغ الرعب من جهاز الأمن الألباني بمعظم السكان حدّاً كبيراً منعهم من المشاركة في أي حركة مقاومة؛ كما أنهم خشوا العقاب القاسي إذا لم يسلّموا مقاتلي الحرّية.[٢] وأقام نظام خوجا في نيسان/أبريل ١٩٥٤ محاكمة استعراضية استمرّت أسبوعاً اعترف فيها متسللون أسرى بعملهم لمصلحة «السي.آي.إي.» وقاموا بمحاولة بائسة وعقيمة لطلب الرحمة. وفي أثر هذه الكارثة أسدل مكتب التنسيق السياسي الستارة بهدوء على العملية الألبانية.[٣]

كان كارمل أوفي قد أصبح بحلول ١٩٤٩ مسهّل مكتب التنسيق السياسي لبقايا الحرب العالمية الثانية غير المرغوب فيهم. مثّل آلاف الرجال والنساء في الجانب الخاطئ من النظام الجديد في أوروبا الذين هجّرتهم الحدود الجديدة، حشوة المدفع الجاهزة لحرب مكتب التنسيق السياسي السرّية ودخلوا بالتالي مجال اختصاص أوفي. وبالفعل أصبحت الشبكات المتفاوتة للمهاجرين ومتعاوني زمن الحرب ومجرمي الحرب بمنزلة تجمع لمواهب «السي.آي.إي.» للحرب الخفية حتى بعدما اندمج مكتب التنسيق السياسي في الوكالة. وتم في الوقت نفسه، من خلال أوفي، توجيه كل العمليات الخفية التي تضمّ تنظيم غهلن، إضافة إلى الاستخدام العام للنازيين واختصاصيي مكافحة التجسس النازيين والجنود السابقين في الجيش الألماني.[٤] وتمكّن أوفي في واقع الأمر من نقل أخلاقيته المرنة إلى سياسة مكتب التنسيق السياسي ومن التخفيف من أي شكوك يمكن أن تراود رئيسه فرانك ويسنر في تشغيل مجرمي حرب أو إرسال مئات من الرجال ليلاقوا حتفهم المؤكد في ما وراء الستار الحديدي.

---

(١) Aldrich, Hidden Hand, 164.

(٢) المصدر السابق؛ Philby, Silent War, 156

(٣) Prados, Safe, 64.

(٤) Hersh, Old Boys, 269.

ومن سخرية الأمور أن مكتب كارمل أوفي وقع ضحية جنون الارتياب المعادي للشيوعية الذي ساهم ويسنر في نقل عدواه إلى المؤسسة في واشنطن وإلى الجمهور الأميركي. وفي الخامس والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٥٠ ندد السناتور جو مكارثي، من قاعة مجلس الشيوخ الأميركي، بالنشاطات التخريبية لبعض موظفي الحكومة، ولم يشر إلى أوفي بالاسم لكنه أعلن بصوت عال أن عنصراً معيّناً من عناصر «السي.آي.إي.»، عمل سابقاً في وزارة الخارجية، هو مثلي الجنس أمضى وقته متسكّعاً عند مراحيض الرجال في لافاييت بارك.[1] إلا أن أوفي ساهم، قبل أن يُجبر على مغادرة مكتب التنسيق السياسي، في إحلال نموذج تسخير خدمات النازيين والفاشيين والمتعاونين ومجموعات متنوعة من المهاجرين والمتطوعين اليائسين من مخيمات اللاجئين في الحرب الأميركية ضد شبح الشيوعية العالمية.

واستمر هذا النمط في «السي.آي.إي.» إذ واصلت الوكالة الاعتماد على أفراد ومجموعات من الراديكاليين والمتطرفين، من هذا النوع أو من غيره، للقيام بما تأمرهم به. غير أن لمثل هؤلاء الأفراد والجماعات في الغالب روزناماتهم الخاصة والمختلفة. وسهلت نسبياً السيطرة على النازيين والفاشيين والمتعاونين السابقين معهم ومجرمي الحرب الفارين وحفنة من المعادين الحقيقيين للشيوعيين والمستعدين للتضحية بالذات. وما إن تحركت وكالة التجسس الأميركية إلى ما هو أبعد من محاولاتها العقيمة شن حرب عصابات في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي، حتى واجهت عوائق جديدة وظروفاً معاكسة. وفيما حققت نجاحاً فورياً في الأميركتين اللاتينية والجنوبية، واجهت في الشرق الأوسط وضعاً صعباً جداً. وربما خدم العمل باسم معاداة الشيوعية مع القوميين العرب والمتطرفين المسلمين المصالح القصيرة المدى لجميع الأطراف المعنيين، لكنه حفّز أيضاً قوى ما إن أُطلقت حتى خرجت في النهاية عن السيطرة.

(١) سجلات الكونغرس الأميركي، ٢٥ نيسان/أبريل ١٩٥٠.



١٧

نازيو عبد الناصر

«كنّا السبب في خروج [عبد الناصر] عن متناول القتلة المحتملين بما أننا نحن الذين صممنا التدابير الأمنية من حوله».

ـ مايلز كوبلاند، «سي.آي.إي.»[١]

عكس المنحى الفكري في واشنطن الاقتناع بأن الفوضى التي أعقبت إنهاء أوروبا القديمة استعمارها الشرق الأوسط عرضت المنطقة للاختراق السوفياتي. وصحّ المنطق نفسه لاحقاً في الحرب الكورية ومن بعدها في فيتنام. وتمّت الاتصالات الأولى لوكالة الاستخبارات المركزية بالقوميين العرب في مصر الآخذين في النجاح بقيادة جمال عبد الناصر، وتورّط «السي.آي.إي.» بعد ذلك مع الإخوان المسلمين – وفي النهاية مع المجاهدين في أفغانستان –، في سياق الخوف الأميركي من الشيوعية. فقد واجه الأميركيون حرباً مشتعلة في كوريا اندلعت في ١٩٥٠ ومثلت، بعكس النزاع الفيتنامي الذي تلاها، مواجهة حقيقية بين الشرق والغرب في ساحة الوغى. وبالرغم من أن الروس لم يشاركوا على نحو مباشر في المعارك الكورية فإنهم موّلوا علانية الكوريين الشماليين ومن بعدهم الصينيين لمحاربة قوات الأمم المتحدة التي تقودها الولايات المتحدة.

تطلّع الأميركيون، لمواجهة خطط موسكو ابتلاع دول الخليج الفارسي الغنية

(١) Copeland, Game Player, 165.

بالنفط، إلى احتضان رجل شرق أوسطي قوي يمكنه على التوالي إدارة كل من تطلعات العرب والمسلمين العلمانية والدينية. حاول البريطانيون طرح حسين مكّة لمثل هذا الدور، بل حتى ابن سعود، لكن لم يجد أي منهما صدى له في العالم الإسلامي. فالجزيرة العربية ذات كثافة سكانية منخفضة جداً ومنعزلة جداً لتقود العرب ناهيك بجميع المسلمين السنّة. فما أمكن لأيّ من شريف مكة أو الملك السعودي الجديد تعبئة مكان السلطان ـ الخليفة – وهو الفراغ الذي أفقد سفينة المجتمع الإسلامي دفتها. وبعد الحرب العالمية الثانية مثّل عبد الناصر، بوصفه زعيم الدولة الإسلامية والعربية الأكبر، الوعد بجمع الشرق الأوسط بمنأى عن السوفيات؛ وبات بالفعل بيلي غراهام المسلم الذي سعت إليه «السي.آي.إي.».[١]

أما اللغز الذي واجه الأميركيين فهو أن أي علاقة مع عبد الناصر لن تؤدي إلى تعقيد الدعم الأميركي لإسرائيل وحسب، بل ستسير أيضاً في اتجاه معاكس لروح التحالف التاريخي الأنكلو-أميركي. فلا يمكن لواشنطن التخلي عن الإسرائيليين من أجل مصر – الدولة المهمة إلى حدّ ما، لكنها ليست دولة تمتلك احتياطات من النفط؛ كما لا يمكنها السماح لدعمها عبد الناصر أن يتدخّل في العلاقات الخاصة القائمة عبر الأطلسي. وبناءً على ذلك، توجّب على الارتباطات الأميركية بالزعيم المصري أن تصاغ في السرّ واستوجب الأمر بالتالي تسليمها إلى «السي.آي.إي.». وبات في الواقع على مكتب التنسيق السياسي، وبالتحديد قسم الشرق الأدنى التابع له، أن يؤدي فجأة دوراً ديبلوماسياً خفياً. وباتت الأمور أكثر تعقيداً بكثير عندما طلب عبد الناصر من كرميت روزفلت مساعدته على تدريب استخباراته العسكرية وقوى الأمن الداخلي.[٢]

توجّب القيام بالمهمة في شكل خفي، ولذا تحوّل ألن دالاس إلى تنظيم غهلن ومجموعته المؤلفة من اختصاصيين في الاستخبارات النازية والأمن لتقديم المعرفة

(١) أنظر الفصل الثاني عشر.

(٢) Copeland, Game of Nations, 103.

المناسبة. واستذكر غهلن «إننا، وبناء على طلب ألن دالاس من 'السي.آي.إي.'، بذلنا نحن في 'البولاخ' أفضل جهودنا لحقن الحياة والخبرة في جهاز الاستخبارات المصرية، وزوّدناهم ضباط 'الأس.أس.' الذين سبق أن ذكرتهم»(١). امتلك الألمان الخبرة الحديثة الضرورية في عمل الشرطة والأمن إضافة إلى عمليات الاستخبار ومكافحة الاستخبار. وهم على استعداد للعمل بكلفة رخيصة، وفي الإمكان الثقة بهم لإبقاء عملهم سرّياً بما أن أسماء معظمهم موجودة على عدة لوائح للمطلوبين. ولا يمكن إنكار أن معظمهم من المعادين المتطرّفين للسامية مما جعلهم أكثر قبولاً لدى عبد الناصر.(٢) ولم يقض عمل مكتب التنسيق السياسي في مصر، على عكس تجارب «السي.آي.إي.» في بولندا وأوكرانيا وألبانيا، بزعزعة استقرار الحكومة بل بحماية عبد الناصر وتمكينه، في شكل غير مباشر، من شن حرب غير مؤذية نسبياً وخفيفة الحدة ضد البريطانيين.

حاول غهلن، من جهته، تلزيم مهمة التدريب برمّتها لأوتو سكورزيني، لكن قائد «الأس.أس.» السابق أحجم عن القبول لأنه لم يعتقد أن في وسع المصريين أن يدفعوا له بقدر ما يعتبر نفسه أنه يستحقه. غير أن غهلن وعد سكورزيني بزيادة معاشه من أموال «السي.آي.إي.» التي سيتم تبييضها عبر تنظيم غهلن. وبقي سكورزيني متشككاً، غير أنه، كما يخبر ذلك مايلز كوبلاند، «تم الاتصال به بطريقة روتينية، ومن ثم على مستوى أرفع، وبعدها من خلال زيارة شخصية قام بها لواء معروف جداً في الجيش الأميركي، وأخيراً عبر حميه الدكتور هيالمار شاخت، وزير مالية هتلر السابق»(٣). ووافق سكورزيني على المساعدة بفعل هذه المناشدات – أو الأحرى لأنه رأى في الأمر بعض الكسب المحتمل.(٤)

وبالرغم من أن الأمر موثّق جدّاً في المذكّرات والمقابلات والسير الخاصة، فقد

---

(١) Gehlen, Service, 260.

(٢) Simpson, Blowback, 249.

(٣) Copeland, Game of Nations, 104.

(٤) المصدر السابق.

تم تقصّد تعمية الأثر الدقيق للعلاقة بين عبد الناصر ومستشاريه النازيين. ولا تكشف الوثائق المتوافرة في «السي.آي.إي.» صراحة عن أي تورط لها في وضع ضباط نازيين سابقين في جهاز أمن عبد الناصر. غير أن الأدلة المتراكمة تُقنع، عند جمعها معاً، بأن الوكالة أدت دوراً ذا مغزى في عملية إنشاء الاستخبارات المصرية الجديدة وأجهزة الأمن. والأدبيات الثانوية، وهي في معظمها لمؤلفين أميركيين، تشير بقوة إلى أن دين أتشيسون من وزارة الخارجية وكرميت روزفلت من «السي.آي.إي.» قاما بعملية مصرية من النوع الذي يمكن نكران حصوله.

أديرت العملية بتواطؤ من حكومة كونراد أديناور عبر تنظيم غهلن (و«بوندسناكريشتنديانت»، جهاز الاستخبارات الفيديرالي، أو «بي.أن.دي.»، الذي حل محل التنظيم في «بولاخ» في ١٩٥٦)، بغية إسداء المشورة للقادة المصريين حول الاستخبارات والأمن وتجنيد خبراء نازيين سابقين لمصر. وربما جاء ألن دالاس هو بنفسه بسكورزيني في البداية إلى العملية، وقد قيل إنه هو الذي وظّف المحترف الطليعي في الاستخبارات والأمن، يواكيم دوملينغ، بالرغم من أن سجلات «السي.آي.إي.» تعلن أن القائد النازي الأرفع الموجود بالفعل في مصر، فيلهلم فوس، هو من قام في الواقع بتجنيد دوملينغ. بيد أن ما يبدو أكثر ترجيحاً، من الناحية العامة، هو أن معظم النازيين دلفوا إلى مصر فرادى أو في مجموعات صغيرة من مصادر مختلفة وعبر طرق أو مسالك سرّية متنوعة: بعضهم من ألمانيا الغربية، وبعضهم من ألمانيا الشرقية، وبعضهم الآخر من إسبانيا وإيطاليا، وأكثر من قلّة من أميركا الجنوبية ومن الأرجنتين بصفة خاصة. والمرجّح أن سكورزيني سهّل انتقال مئة فقط من هؤلاء الرجال.

والانطباع الذي تعطيه ملفات «السي.آي.إي.» الموجودة، سواء عن قصد أو لا، هو أن فيلهلم فوس، الموجود أصلاً في مصر منذ ١٩٥١ بتكليف من الملك فاروق، هو الذي جنّد الكثيرين من الألمان؛ وكان فوس أول من أقحم سكورزيني

في المسألة، وهو الذي عمل مباشرة مع وزارة خارجية أديناور التي استمالت رينهارد غهلن. وبدا بالتأكيد أن فوس امتلك دوماً خطاً مباشراً مع بون لقيامه شخصياً بعمليات التجنيد والعمل من وراء ظهر ممثلي بون الديبلوماسيين في القاهرة.

شرعت سجلات «السي.آي.إي.»، في مطلع الخمسينيات، في تقفي خلفيات مختلف النازيين السابقين ونشاطاتهم الراهنة وقد انتقل الكثيرون منهم إلى الشرق الأوسط وباتوا يعملون مستشارين أمنيين للحكومات المحلية ويتحركون على هامش تجارة الأسلحة وتهريبها. وبدت «السي.آي.إي.» في بعض الحالات وكأنها تختبر الأرضية لإجراء اتصال بهؤلاء الأشخاص من أجل الحصول على معلومات داخلية عن حكومات الشرق الأوسط. وكانت «للسي.آي.إي.» في حالات أخرى أسبابها للاعتقاد بأن هؤلاء النازيين السابقين يتلقّون بالفعل معاشات من الكتلة الشرقية، وأملت تحويلهم إلى عملاء مزدوجين.

يظهر من الوثائق الأميركية المتوافرة ومن المصادر الثانوية أن «السي.آي.إي.» استخدمت بنجاح تغطية تنظيم غهلن (ولاحقاً «بي.أن.دي.») لتفادي أي تورّط مباشر في التوظيف الفعلي للخبراء الألمان في مصر. بيد أن «السي.آي.إي.» أقامت لاحقاً اتصالات مباشرة مع هؤلاء النازيين السابقين ما إن وصلوا إلى القاهرة. ويقول تيموثي نفتالي:

> بلغ حجم تجنيد غهلن لضباط سابقين في «أس.دي.» [جهاز استخبارات «الأس.أس.»] والغيستابو...حدّاً كبيراً. فقد خدم ما لا يقل عن مئة من ضباط غهلن وعملائه مع «الأس.دي.» أو الغيستابو، بل ربما كان الرقم أكبر بكثير- شارك بعض من تم توظيفهم في أسوأ الفظائع التي ارتكبها النظام النازي.[1]

تظهر سجلات «السي.آي.إي.» وجود اتصال متسق ووثيق بين الوكالة وتنظيم

(١) Timothy Nafatali, "Reinhard Gehlen and the United States," in U.S. Intelligence and the Nazis, ed. Richard Breitman et al. (Cambridge: Cambridge University Press, 2005), 377.

غهلن أو «بي.أن.دي.» (أطلق عليه على التوالي اسم «أبسوينغ» أو «زيبر»).[1] ويُذكر أعضاء هذه التنظيمات في شكل متكرّر كمصادر للتقارير الاستخبارية، واستخدموا كذلك وسطاء مع نازيين سابقين اهتم الأميركيون بتجنيدهم. ويمثّل «زيبر» في هذه التقارير الاسم الرمزي لتنظيم غهلن وهو يمثّل تجسيداً متصاعداً «للبي.أن.دي.».[2]

ليست «السي.آي.إي.» هي التي أدخلت جميع عناصر الجيش الألماني والأمن إلى مصر، لأن بعض الألمان، من أمثال فيلهلم فوس، وصلوا قبل ١٩٥٣ بدعوة من الملك فاروق. وكانت واحدة من المجموعات الأولى الواصلة في ١٩٥٠، وعددها نحو ثلاثين ضابطاً، بقيادة الجنرال فيلهلم فارمباخر وستة من معاونيه.[3] ومعظمهم من الجنود النظاميين غير السرّيين، من رجال رومل، وقد وظّفهم فاروق، الذي طالما كان للفيلق الإفريقي موقعه في قلبه، ليحلوا محل البعثة العسكرية البريطانية التي غادرت مصر في ١٩٤٧. وأعقبهم بعد فترة قصيرة خبراء اقتصاديون وصناعيون وإداريون وانضم إليهم بدورهم مهندسو الصواريخ والطائرات وغيرهم من علماء الأسلحة.

كان بعض الاختصاصيين الألمان عسكريين في الأساس، مثل فارمباخر، لكن وجدت نواة صلبة من النازيين الأدنى سمعة بكثير والبغيضين. وزاد عمل سكورزيني «للسي.آي.إي.» من عدد النازيين الخبثاء في مصر بتجنيده نماذج من عناصر «الأس.أس.» و«الوافن أس.أس.» والغيستابو و«السيشرهيتسدينست» (جهاز أمن «الأس.أس.»، «أس.دي.») السابقين إلى جانب دعائيين حاقدين معادين للسامية

(١) مراجعة نفتالي لملفات «السي.آي.إي.» المتعلقة ببعض المستشارين النازيين في مصر ولدت لديه انطباعاً بعدم وجود رابط مباشر بين المستشارين و«السي.آي.إي.». غير أن وجهة النظر هذه تستند إلى كون ملفات «السي.آي.إي.» لا تعترف صراحة بمثل هذا الرابط. ومن الممكن جداً أن يبرهن غياب هذه المعلومة على الرقابة التي فرضتها «السي.آي.إي.» على ملفاتها. ولا يقدّم نفتالي أي دليل من الملفات يشكّل نفياً لتورّط «السي.آي.إي.» ويذكر أن طلباته بالوصول إلى مزيد من وثائق «السي.آي.إي.» المتعلقة بسكورزيني جوبهت بالرفض. أنظر Naftali, “Gehlen,” 417n166.

(٢) راجع مختلف الوثائق المتعلقة بمحاولة تجنيد دوملينغ في Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.

(٣) Cairo Embassy to African Department, 6 February 1953, V6703174, FO 371/102869, TNA.

من وزارة إعلام جوزف غوبلز إضافة إلى ضباط طبيين سابقين وإداريين وحراس من معسكرات الموت التي حدثت فيها المحرقة، وقد جُنّدوا لبناء معسكرات الاعتقال الصحراوية لعبد الناصر.

وضمّت لائحة الفاشيين الناشزين والساخطين نحو مئة «مستشار» جُرفوا من مخابئهم في ألمانيا وأميركا الجنوبية وإسبانيا. وشقّوا طريقهم إلى مصر عبر المسالك السرّية التي أدارها مختلف النازيين الجدد وتنظيمات الهروب. ومن بين المجنّدين البارزين في متحف المارقين من مجرمي الحرب هذا، وفي تسمية لبعضهم فقط، اللواء في «الأس.أس.» هرمان لاوترباخر، رئيس مقاطعة هانوفر والنائب السابق لقائد شبيبة هتلر، وقد حوكم لارتكابه جرائم حرب وأخلي سبيله بسبب خطأ شكلي، وأوفده غهلن إلى مصر كضابط ارتباط في «بي.أن.دي.»؛ البروفيسور يوهانس فون ليرز، المعادي الآثم للسامية والمسؤول الكبير في وزارة دعاية غوبلز، وقيل إن المفتي أوصى به وقد عرفه جيداً في برلين؛ ورفيقه الوثيق الملازم في «الأس.أس.» فارنز بونش، الذي اشتهر أكثر ما يكون بمؤلفه البذيء «عادات اليهود الجنسية» الذي تشارك في كتابته مع أدولف إيخمان، وقد خدم في فرع الشؤون اليهودية التابع لإيخمان في «رايخسيشرهيتسهاوبتامت» (مقر قيادة «الأس.أس.»، أر.أس. إتش.اي.) واقترح أن يُنشئ لعبد الناصر شبكة استخبارات عالمية مهيبة يُوَظّف فيها مصريون ونازيون سابقون من شتى أنحاء العالم؛ والعقيد في «الأس.أس.» سب تيفنباخر، رئيس الأمن الشخصي لهيملر وصديق المفتي، الذي سيصبح المساعد الأمين لفيلهلم فوس في القاهرة.[1]

لم يمض سكورزيني الكثير من الوقت في مصر؛ وبدا أن دوره في مهمة التدريب اقتصر على تجنيد المجموعة الأولى، ولكن ليس على إدارة البرنامج. والرجل الذي

(١) أنظر CIA Name Files Issue 1:32-2000/06/07 and Issue 2:45-2002/A/11/2, RG263, NARA (Lauterbacher); Issue 1:32-2000/06/07, RG 263, NARA (Leers); Issue 1:51-2000/07/04 and Issue 2:52-2002/A/11/3 RG263, NARA (Tiefenbacher). وللمزيد عن بونش، أنظر Copeland, Game of Nations, 154-56.

يُرجّح أكثر ما يكون أنه تولى مسؤولية المستشارين الاستخباريين والأمنيين الألمان هو بالتأكيد نازي كبير جداً: اللواء في «الأس.أس.» فيلهلم فوس، الصديق الحميم لكل من هيملر وهيدريتش، وأحد حاملي خاتم رأس الموت الذي يعطى لنخبة «الأس. أس.»، ولا يضعه إلا قلّة قليلة جداً من الحلقة الضيقة من معاوني هيملر. وفوس، الاقتصادي المتخرّج من الجامعة والمحاسب اللامع، تولّى لوحده وبفاعلية الاقتصاد التشيكي برمّته في زمن الحرب وعمل في الوقت نفسه مديراً عاماً لمصنع «سكودا» العملاق في بيلسن حيث جرى، في أواخر مراحل الحرب، تطوير أسلحة فائقة السرّية (طائرات نفاثة، صواريخ، قنابل ذرية، وأدوات مضادة للجاذبية). وأعفي فوس من منصبه في شباط/فبراير ١٩٤٥، وكُلف قيادة وحدة مقاتلة من «الأس.أس.» (بالرغم من نفيه ذلك) عندما أسره الجيشُ الأميركي وسلّمه بعد التحقيق معه إلى التشيكيين. وبالرغم من أنه دين كمجرم حرب وتقرر إعدامه، أعاده التشيكيون في شكل غامض إلى الأميركيين.[1]

شهد فوس لمصلحة الادعاء الأميركي في عدة محاكمات لجرائم الحرب وأقام بالتالي، غالباً في الإقامة الجبرية، في روتاخ على تيغرنسي، على مقربة ملائمة من تنظيم غهلن في بولاخ. وبحسب السجل اليومي «للسي.آي.إي.» (١٩٥٢/٠٠٩/٠٩) مثل فوس اتصالاً مهماً لغهلن وهو ربما غادر بطلب منه إلى مصر في ١٩٥١.[2] وبحسب السفارة البريطانية في القاهرة ترأس فوس في مصر جميع الهاربين النازيين

(١) سجلات الأرشيف البريطانية الأكثر إخباراً في ما يتعلّق بفوس هي FO 371/102869, FO 371/108489, and FO 371/118975, TNA؛ والسجلات الأميركية ذات الصلة هي Name Files Issue 1:53-2000/07/04, and Issue 2:53-2002A/11/3, RG263, NARA.

(٢) ١٩٥٢/٠٠٩/٠٩. والمرجح بالدرجة نفسها أن الملك فاروق هو الذي دعاه إلى مصر. وبحسب لويس أ. فرانك: Lewis A. Frank, "Nasser's Missile Program," Orbis 11, no. 3 (fall 1967): ٥٧-٧٤٦ «طلبت حكومة الملك فاروق في ١٩٥١ من فريق صغير برئاسة خبير التسلح الألماني في الحرب العالمية الثانية الدكتور فيلهلم فوس تطوير صاروخ من عيار صغير وصنع أسلحة للحرب المعاصرة».

والمخربين ومثيري الاضطراب.(١) كان موقعه الرسمي في مصر هو المستشار الخاص لوزارة الإنتاج الوطني. وهكذا يبدو أن دور سكورزيني في مهمة التدريب التي رعتها «السي.آي.إي.» في مصر اقتصرت على التجنيد فقط فيما تولى فيلهلم فوس إدارة موقع العلميات وقام بنفسه أيضاً بتجنيد اختصاصيين تقنيين.(٢)

مثل المقدّم في «الأس.أس.» («أس.دي.») الدكتور يواكيم دوملينغ، وهو شرطي محترف واختصاصي رفيع المستوى في الاستخبارات والأمن بين الألمان، أحد الأعضاء الرئيسيين في بعثة التدريب النازية. كان دوملينغ طالباً ألمانياً نموذجياً من عائلة من الطبقة المتوسطة وجد في الحركة النازية فرصة لمتابعة الحياة المهنية. وأنهى تعليمه في ١٩٣٧ وهو يعمل ضابطاً في «الأس.أس.» في هانوفر وحصل على إجازة في الحقوق. وتمكن بعد ذلك بسنتين من الترقّي إلى نخبة «الأس.دي.» في مقر «الأس.أس.» في برلين وسُلّم مسؤولية المكتب البولندي.(٣)

أصبح في تموز/يوليو ١٩٤١ رئيساً لـ«أويلن غيستابو»، لكنه نُقل بعد فترة قصيرة عائداً إلى برلين وسُلّم مسؤولية مكتب الشؤون البولندية داخل ألمانيا. ومما له مغزى أن رئيسه المباشر هو العقيد في «أس.أس.» («أس.دي.») أيروين فاينمان، الطبيب المتدرّب المسؤول عن القتل الجماعي للأوكرانيين اليهود في ١٩٤٢-١٩٤٣. غير

(١) Copeland, Game of Nations, 87-88; Aide-memoire from Belgian Counselor, JE1202/13, FO 371/102869, TNA; African Department to Cairo Embassy, 1 April 1954, JE1203/4, FO 371/108489, TNA.

(٢) حصل فوس، من جانب واحد، على خدمات بعض الخبراء التقنيين والعلميين المهمّين الألمان ممن بدا أن لهم الأولية في عملية التجنيد التي قام بها. أنظر JIC Summary, Ministry of Stateto Prime Minister, 30 April 1953, PM/MS/53/93, PREM 11/391, TNA.

(٣) سجلات البريطانيين عن دوملينغ واهية؛ أنظر على سبيل المثال برقية ب. أ. ويلكينسون في سفارة بون إلى ت. و. غارفي في سفارة القاهرة بتاريخ ٢٠ آذار/مارس 1956 JE1194/4, FO 371/118975, TNA, التي تلاحظ أن «الأميركيين هنا...أعربوا عن اهتمام خاص بدوملينغ [كذا].» وفي المقابل فإن السجلات الأميركية ذات الصلة واسعة نسبياً؛ أنظر CIA Name Files Issue 1:10-2000/06/04, and Issue 2:13-2002/A/10/3, RG263, NARA.

أن أمراً ما لم يجر كما يجب بالنسبة إلى دوملينغ،[1] وأعفي في ربيع ١٩٤٣ من مركزه في برلين ونُقل إلى قيادة إحدى فرق الموت التابعة «للأس.أس.» في شمال يوغوسلافيا، وهي إينزاتسكوماندو (فرقة المهمات العملانية، «إي.كي.») ١٠ب، وهي قسم من إينزاتسغروب هـ (قوة المهمات العملانية، «إي.جي.») في (كرواتيا).[2]

أصيب دوملينغ في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٤ بجروح خطيرة ولزم أحد المستشفيات العسكرية لما تبقى من فترة الحرب. سجنه الأميركيون بعد الاستسلام الألماني في أيار/مايو ١٩٤٥، لكنه تمكن من الفرار وعمل، مستخدماً اسماً مستعاراً، فلاحاً على مقربة من براونشفيغ على مدى السنتين التاليتين. وعثر، في وقت ما في ١٩٤٨-١٩٥١، على وظيفة مع إحدى المنظمات الرديفة للجيش البريطاني وكمستشار قانوني في إحدى شركات التأمين.[3] والأكثر ترجيحاً هو أن فيلهلم فوس هو الذي جنّده من خلال تنظيم غهلن. واتخذ دوملينغ لبلوغ مصر، وهو طبعاً الخبير في تلك المسائل، احتياطات أمنية استثنائية تفادياً لاكتشافه من البريطانيين. ووصل في النهاية إلى مصر في شباط/فبراير ١٩٥٤ برفقة زوجته وبناته الثلاث بعد تأخير مغادرته بسبب كسر في ساقه.[4]

ادعى يواكيم دوملينغ في السنتين اللتين أمضاهما في مصر أنه موظف في وزارة الشؤون الاجتماعية يعمل لوزارة الصحة أو أنه تم توظيفه مباشرة من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية. غير أن لقبه الرسمي كان «المستشار في شؤون الاستخبارات

(١) أعلن مرؤوس سابق أن دوملينغ قد يكون أعفي من منصبه ونُقل إلى فرقة الموت لأنه دخل في نوع من المفاوضات غير المُصرّح بها مع الزعماء البولنديين. ووصف المصدر نفسه دوملينغ بأنه «يس إلا نازياً فاتراً.» أنظر CIA Name Files Issue 1:10-2000/06/04, RG263, NARA.

(٢) Michael Wildt, Generation des Unbedingten: Das Führungskorps des Reichssicherheitshauptmates (Hamburg: Hamburger Edition, 2003), 934.

(٣) من ب. أ. ويلكينسون في سفارة بون إلى ت. و. غارفي في سفارة مصر، ٦ نيسان/أبريل ١٩٥٦، JE1194/6, FO 371/118975, TNA.

(٤) استناداً إلى مصدر مجهول الهوية بتاريخ ٧ تموز/يوليو ١٩٥٤، «تم تجنيد دوملينغ في تشرين الثاني/نوفمبر أو كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣». أنظر Name Files Issue 1:10-2000/06/04, RG263, NARA.

لمدير الاستخبارات العسكرية في الجيش المصري،» هذا بالرغم، على ما يبدو، من أنه مارس عمله الفعلي في وزارة الداخلية. وكان المقدم في «الأس.أس.» («أس.دي.») والرئيس السابق للغيستابو في بولندا ليوبولد غليم اليد اليمنى لدوملينغ في مصر يساعده في الأوجه الأمنية لعمله. ويلاحظ ملف «السي.آي.إي.» عن دوملينغ أنه «ناشط في جمع المعلومات وتقويمها»، وأنه «لم يمتلك روابط مع الخبراء الألمان الباقين في مصر (مجموعة الجنرال فارمباخر)»، وأن «نشاطاته أُبقيت بمنأى عن المجموعة وسرّية»[١].

وُصف عمل دوملينغ «الحقيقي» بأنه «تنظيم الاستخبارات ووكالة أمن مركزية شبيهة بمنظمته الألمانية السابقة»[٢]. وما أنجزه في القاهرة بالفعل هو إعادة تنظيم جهاز الاستخبارات المصري على غرار «أر.أس.إتش.إي.» (مقر قيادة «الأس.أس.»)، بالرغم من أن مايلز كوبلاند يزعم أنه بني على غرار «السي.آي.إي.».[٣] لكن، لو أن جهاز الاستخبارات المصري استخدم تنظيم «السي.آي.إي.» كمسوّدة، فمن المنطقي القول إن ضباطاً من جهاز التجسس الأميركي قادوا عمل دوملينغ.

بالرغم من أن ملف «السي.آي.إي.» عن دوملينغ يوحي أن الوكالة لم تتصل به خلال الفترة التي أمضاها في مصر، فإنه يتضمن ما يكفي من التفاصيل للإشارة إلى أن الأميركيين تحمّسوا لجعله يعمل لهم. وقد طلبت إحدى مذكّرات حزيران/يونيو ١٩٥٨ من متلقّيها أن «يبلغ 'إبسوينغ' [«بي.أن.دي.» وأيضاً غهلن] بأن لدينا مطالب نودّ الحصول عليها عبر «إبسوينغ» حول ما إذا كان الشخص المعني [دوملينغ] على استعداد للتعاون. ونقدّر قيام 'إبسوينغ' بجهد التجنيد في أقرب وقت وإحاطتنا علماً بالنتائج». جرى إمرار هذا الطلب وأجاب غهلن أنهم لا ينوون تجنيد دوملينغ لأنه يعد «غير موثوق به». وقد أبلغت «وينترستاين» في وقت سابق من الشهر نفسه «السي.

(١) Memo, ca. 1954, Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.

(٢) تقرير عن «نشاطات الخبراء الألمان في مصر»، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٨ Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.

(٣) Copeland, Game of Nations, 81.

آي.إي.» بأن «'بي.أن.دي.' (الاستخبارات الفديرالية) اهتمت عملياً» بدوملينغ إلا أنه «لا يوجد أي اتصال كما أنه من غير المعتقد بإمكان الاستغلال المخابراتي». ترك هذا المنحى الذي أخذته الأمور «السي.آي.إي.» في موقف صعب لأنهم لم يشعروا بأن الاستخبارات الألمانية صادقة في شأن علاقتها الخاصة بدوملينغ. وسبق لتنظيم غهلن أن اعترف بأن دوملينغ يحظى باهتمامه العملاني.

طلب تنظيم غهلن في مطلع حزيران/يونيو من «جهاز المعلومات الحليف («إي.آي.إس.») ألا يقوم بمزيد من الاتصال» لكنه «بدا مستعداً لتلبية متطلبات 'كوبارك' [مقر قيادة «السي.آي.إي.»]». وخططت «السي.آي.إي.» ردّاً على ذلك على إمرار الطلبات من مساعد رئيس الأركان لشؤون الاستخبارات [إي. أس.سي.آي.] بناء على طلب مقر قيادة «السي.آي.إي.» من أجل أن تستجيب لها «إبسوينغ» (غهلن).[1] وبناءً على طلب من مساعد رئيس الأركان للاستخبارات التقت الاستخبارات العسكرية دوملينغ في ١٨ أيار/مايو بنيّة استجوابه في ما يتعلق بالدعم السوفياتي لجهاز الاستخبارات المصري من حيث التدريب وفي العمليات ضد الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي في مصر. رفض دوملينغ واستاء من إجراء الاتصال به. إلا أنه تم الشعور بأن دوملينغ قد يعيد النظر بالطلب إذا جاءه من مقر «السي.آي.إي.».[2]

بالرغم من أن ملف دوملينغ لا يشير إلى تفاعل بينه وبين «السي.آي.إي.» في الفترة التي قضاها في مصر، فإنه يُظهر بوضوح أن دوملينغ قام بعمل استخباري لمصلحة غهلن و/أو «السي.آي.إي.» في فترة معينة ما قبل ١٩٥٨. ومنذ حزيران/ يونيو ١٩٥٨ «رفض دوملينغ كل الاقتراحات باستمرار العمل الاستخباري لمصلحة 'إبسوينغ' (غهلن) أو أي جهاز آخر»[3].

يشير ملف دوملينغ، إضافة إلى أي اتصال قد تكون «السي.آي.إي.» أجرته

(١) Munich to Director, 29 May 1958, Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.
(٢) Frankfurt to Director, 27 May 1958, Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.
(٣) Memorandum, June 1958, Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.

معه في مصر، إلى أن الوكالة أخذت تجمع المعلومات عنه «من مصدر موثوق به، هو ضابط استخبارات ألماني سابق في القاهرة»[1]. بعد ذلك بتسع سنوات، في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٦٧، لحق ماضي دوملينغ النازي به. فقد اعتقل إلى جانب برنهارد باتز وإميل برندورف وبضعة ضباط سابقين في قيادة «الأس.أس.» وحوكم بعدما اتهم بأنه مجرم حرب. وسجنوا جميعهم في برلين واتهموا في ما سُمّي «محاكمة قيادة الأس.أس.». وبحسب الاتهامات فإن دوملينغ، بوصفه الرئيس السابق للمكتب البولندي، مذنب لمساعدته على مقتل ١٥٠ شخصاً من خلال تحضير وإصدار قرارات من شرطة الدولة تجيز المعاملة السيئة للعمال البولنديين ولسجناء الحرب إلى جانب تنفيذ الإعدامات. وقد اتهم في مقتل ٣,٨٢٣ شخصاً، لكنه أطلق (لسبب تقني) في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨. ومات في شباط/فبراير ٢٠٠٧ عن سبعة وتسعين عاماً.[2]

مثل تدريب فرق الإخوان المسلمين شبه العسكرية على حرب العصابات واحداً من أكثر النشاطات إثارة للجدل انخرط فيها الضباط النازيون الذين قدموا خدماتهم للمصريين. وأصرّ الديبلوماسيون الألمان، بالرغم من وجود عناصر نازيين مريبين جداً في مصر، وفي استخفاف بالدليل المعاكس، على أن «التعامل الأقرب إلى تدريب حرب العصابات هو قيام الرائد مرتينز بتشكيل وتدريب وحدات من المغاوير في الجيش النظامي المصري»[3].

رأى البريطانيون، في ١٩٥٣، في الرائد في سلاح الجو الألماني غيرهارد مرتينز في مصر، وهو مهندس سابق في سلاح المظليين وخبير في التخريب، الضابط الألماني الأساسي «المرتد» الذي يضرّ وجوده في مصر بالمصالح البريطانية. وفيما وجد البريطانيون الخبراء الآخرين بأنهم متعاونون إلى حد ما مع حكومة ألمانيا الغربية التي حاولت التحقق من عدم انخراط الضباط الألمان في نشاط معاد للبريطانيين في

(١) Report on "The German Advisory Group in Egypt," ca. 1954, Box 13, Entry ZZ-18, RG 263, NARA.

(٢) Wildt, Generation, 738-39, 828-30,934-35.

(٣) "Egyptian Soldiers Learn the German Way," Daily Telegraph, 17 July 1953, JE1202/16, FO 371/102869, TNA.

مصر، سرى الاعتقاد بأن مرتينز متورط جداً في تدريب فرق الإخوان المسلمين. ودار اعتقاد أيضاً بأن بعض المستشارين الألمان الآخرين منخرطون في نشاطات مشابهة لكن الخارجية البريطانية لم تعرف أسماءهم.(١) كان واضحاً أن مستشارين ألمان، من أمثال مرتينز، يدرّبون كتائب التحرير الشرعية التابعة للحكومة المصرية؛ بيد أن سجلات الأرشيف تكشف عن قصة مغايرة بالرغم من المحاولات المتأنية للتعمية على واقع الحال.

أعلن اللواء نجيب في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٢ نيته تشكيل تنظيم رسمي من نوع «أربيتسديانتس» (جهاز العمل) يخصص لتوفير الانضباط والتوظيف للطلاب ويتضمن جناحاً شبه عسكري هو «كتيبة التحرير». وشُنت حملة تجنيد ذات دعاية كبرى مع إقامة معسكرات التدريب لهذه الكتيبة.(٢) ووصلت، في خلال ١٩٥٣، تقارير مختلفة إلى العالم الخارجي عن كيفية تنظيم هذه المعسكرات وإدارتها، وعمن يتم تدريبهم فيها. وبالرغم من أن نجاح حملة التجنيد خاضعة للنقاش، جاءت المعلومات لتفيد بأن الحضور في معسكرات التدريب الحكومية جاء ضعيفاً في شكل قاطع غير أنه آخذ في التحسن. «بيد أنه من غير المرجح أن يكون أكثر من نحو عشرة آلاف رجل قد تلقوا تدريبات في المعسكرات.» أما الواقع البليغ فهو أن «ما قد يقارب الستة آلاف من هؤلاء كانوا من الإخوان المسلمين الذين استغلوا التدريب الذي تمنحه المعسكرات التي تنظمها الحكومة من دون أن ينقلوا في أي حال من الأحوال ولاءهم من فرق الإخوان المسلمين إلى تجمّع التحرير»(٣).

شارك أعضاء من الإخوان المسلمين بالفعل في معسكرات الحكومة. وتم، بعد انقلاب كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، حلّ كل تنظيمات حرب العصابات الموجودة. غير أن جماعة الإخوان المسلمين، وهي تمتلك خبرة عظيمة في الحرب السرّية،

(١) Minutes, August 1953, JE1202/15, FO 371/102869, TNA.
(٢) من هانكي إلى ساليزبوري، ٢٠ تموز/يوليو ١٩٥٣، JE1202/15, 371/102869, TNA.
(٣) المصدر نفسه.

بقيت سليمة، والمعروف أن هذه الفرق عاودت تدريباتها مع نهاية ١٩٥٢.[١] وكان الجناح العسكري للإخوان المسلمين، كتائب الإخوان، قد أدار حتى مطلع حزيران/ يونيو ١٩٥٣، معسكراته الخاصة واستخدم مدربيه الخاصين. وبعد ذلك التاريخ بات التدريب، أقله جزئياً، تحت إشراف الحكومة المصرية ويقوم به ضباط من الجيش المصري في معسكرات تابعة للجيش.[٢] ومنذ تلك الفترة فصاعداً التحق أعضاء الإخوان المسلمين في شكل عام بمعسكرات كتائب التحرير لتلقي التدريبات الأولية.

بيد أن الإخوان المسلمين احتفظوا بمعسكرات التدريب السرّية الخاصة بهم من أجل «التحضيرات النهائية» لأعضائهم.[٣] وعُرف عن هذه المعسكرات أنها تقوم بالتجنيد داخل الجامعات وقد نُظمت في ثلاث فئات: الرجال غير المرتبطين، الرجال الذين لديهم من يتعلّق بهم ولكن من دون أولاد، والرجال الذين ليس لديهم من يتعلّق بهم. «وستناط المهمات الأكثر خطورة برجال الفئة الأولى ممن يمكنهم أيضاً العمل بوصفهم 'فرقاً انتحارية'»[٤]. وقد تم توقّع أن يأتي المهاجمون الانتحاريون، الذين استبق البريطانيون وجودهم، من صفوف الإخوان المسلمين.[٥] وساد الاعتقاد بأن عناصر فرق الإخوان المسلمين وتدريبهم ومعنوياتهم أفضل من تلك التي للوحدات الحكومية. وتشير التقديرات إلى أن ما يناهز الثمانية آلاف رجل، بالإضافة إلى الوحدات الموجودة، تلقوا تدريباتهم في معسكرات الإخوان المسلمين الخاصة ولم يتم بعد تشكيلهم في فرق.[٦]

انخرط المستشارون الألمان بالتأكيد في التدريب في معسكرات الحكومة، غير أن وجودهم بدا أكثر قوة في المعسكرات الحصرية بالإخوان المسلمين وكذلك في

(١) المصدر السابق.

(٢) JE1202/15, FO 371/102869, TNA.

(٣) "Egyptian Para-Military Forces," HQBTE Report, August 1953, JE1202/24, FO 371/102869, TNA.

(٤) HQBTE Report, May 1953, JE1202/15, FO 371/102869, TNA.

(٥) من هانكي إلى ساليزبوري، ٢٠ تموز/يوليو ١٩٥٣، JE1202/15, FO 371/102869, TNA.

(٦) المصدر نفسه.

معسكرات التحرير التي أقيمت في شكل جانبي لتدريب أعضاء الإخوان المسلمين.[١] وأشار تقرير بريطاني في أيار/مايو ١٩٥٣ إلى دليل عن «مساعدة كبرى» يقدمها المستشارون الألمان إلى الذراع شبه العسكرية للإخوان المسلمين (كتائب الإخوان)، فيما لم يؤد المستشارون أنفسهم دوراً مباشراً في التدريب في المعسكرات الحكومية. ومضى يقول:

> اعتُني جدّاً في شكل خاص [بالتدريب] على المتفجرات والتفجير والتخريب الخ. التي ستطبع عمليات كتائب الإخوان المسملين. ويقوم خبراء من بين المستشارين الألمان بتدريب هذه الكتائب على عمليات التخريب الخاصة. والمرجّح أن تصبح أهداف مثل محطات التنقية، ومستودعات ذخيرة القاعدة التاسعة (باد ٩)، ومستودعات الأسلحة والمقار الرئيسية ومراكز الاتصال هدفاً لعمليات تخريب يجري توقيتها والتخطيط لها بدقة وكانت محور تدريب خاص بل حتى تمارين تجريبية بالدقة الألمانية الكاملة.[٢]

ولاحظ تقرير لاحق:

> هناك تأثير ألماني كبير جداً هذا إذا لم يكن مساعدة على التدريب. وقد أثار هذا المزيد من الانتباه إلى تقنيات ربما هي أكثر فاعلية في استخدام المتفجرات والتخريب وعمليات من نوع الكوماندوس المتحرك. وربما مثل هذه المساعدة أكثر ظهوراً في معسكرات الإخوان المسلمين مما هي في مؤسسات وحدات التحرير.[٣]

ووُجدت، بما هو أبعد من التدريب البسيط، «مؤشرات إلى نفوذ ألماني عظيم

(١) "Egyptian Para-Military Forces," HQBTE Report, August 1953, JE1202/24, FO 371/102869, TNA.

(٢) HQBTE Report, May 1953, JE1202/15, FO 371/102869, TNA. «باد ٩» هي مستودع ذخيرة القاعدة التاسعة في فيلق الذخائر الملكي الذي أقيم في شكل دائم على مقربة من قرية أبو سلطان.

(٣) Egyptian Para-Military Forces," HQBTE Report, August 1953, JE1202/24, FO 371/102869, TNA.

بل حتى إمكان قيادة ألمانية لحرب العصابات»[1]. وأصرّ بعض التقارير على أن جزءاً كبيراً من الشعب المصري قد يكون مسلّحاً ومُدرّباً على استخدام الأسلحة، وأنه «من المرجح قيام وحدات التحرير التي دربها الألمان بهجمات واسعة ومنسقّة» في حالة وقوع نزاع. وبالرغم من أن ضباطاً في الجيش المصري باللباس المدني أو بأزياء وحدات التحرير أو كتائب الإخوان المسلمين سيقودون مثل هذه الهجمات، افترض البريطانيون أن هجمات أكبر قد تحصل بقيادة الألمان.[2] لم تحصل فرق الإخوان المسلمين على تدريب منفصل على تكتيكات فريدة في نوعها وحسب بل بقيت منفصلة إيديولجياً عن الوحدات الحكومية. ورأى اللورد هانكي أن الإخوان المسلمين لن يتعاونوا مع قوات التحرير في صدام مع قوات أجنبية. وأشار إلى أن الإخوان المسلمين كتنظيم بقوا في حل من اضطرابات ١٩٥١ وأعلن رأيه «بأنه من غير المرجح أن يحرقوا أصابعهم في سبيل مجلس قيادة الثورة»[3]. ولوحظ أن الإخوان المسلمين بقوا «مسألة أكبر بكثير» من كتائب التحرير النظامية خصوصاً أنهم «أمكنتهم الاستفادة من التدريب في المعسكرات الحكومية من دون أن يخسروا هويتهم»[4]. وهذه الأمور هندستْها «السي.آي.إي.»، لكنها مثلت نذيراً بالبيئة الخطيرة جداً التي ساهموا في بنائها. ونتيجة ذلك باتت كتائب الإخوان المسلمين القوة شبه العسكرية الأكثر تدريباً وقوة في مصر. وقد تم التشجيع على عزلهم عن كتائب التحرير.

أخذ البريطانيون يراقبون بقلق المستشارين الألمان في مصر وقد خشوا أنهم ربما يشجعون النشاط المعادي للبريطانيين أو يحرّضون عليه. واتصلوا في ١٩٥٣ بنائب الجنرال فارمباخر، الجنرال أوسكار مونزل، وهو قائد سابق للدبابات الألمانية في الصحراء الغربية تحت قيادة رومل. زوّد مونزل الملحق العسكري

(١) المصدر السابق.
(٢) من هانكي إلى ساليزبوري، ٢٠ تموز/يوليو ١٩٥٣، JE1202/15, FO 371/102869, TNA.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

البريطاني معلومات عن الموظفين الألمان، وطمأن البريطانيين، على غرار ما فعلته حكومة ألمانيا الغربية، بأن المستشارين لا يورّطون أنفسهم في سياسات تضرّ بالبريطانيين.(١) بيد أن البريطانيين امتلكوا معلومات بالعكس. ووضعت الحكومة (الألمانية الغربية) في حزيران/يونيو ١٩٥٣ مسوّدة رد على سؤال نيابي أعلنت فيه أن المستشارين الألمان في مصر متورطون في تدريب رجال حرب العصابات. ولاحظت المسودة أيضاً أن الحكومة الألمانية أوفدت ممثلاً عنها إلى مصر بالرغم من أنه ليست لها سيطرة مباشرة على هؤلاء المستشارين الذين جنّدتهم الحكومة المصرية بطريقة غير رسمية.(٢)

ونفى هذا الممثل، وهو الديبلوماسي الألماني الغربي المحترف هيلموت ألاردت، بالتالي تورّط الألمان في نشاطات مؤذية للبريطانيين، ونصح بعدم صرفهم من الخدمة. وشُطبت كل هذه المعلومات من المسوّدة التي تمت الموافقة عليها والتي أعلنت ببساطة أن المستشار الألماني الغربي وعد بإجراء تحقيق بالرغم من أن المصريين هم الذين قاموا مباشرة بتجنيد الخبراء. وأعلنت المسودة التي وافقت عليها الحكومة رداً على سؤال محدّد تدريب رجال حرب العصابات: «نظرتُ إلى الكثير من التقارير في شأن نشاطاتهم. وأفضّل عدم الدخول في التفاصيل في انتظار نتائج التحقيق». وتمّت هذه المراجعة من أجل إنقاذ المستشار الألماني الغربي من الإحراج.(٣)

أدرك البريطانيون تمام الإدراك أنه يتم تدريب فرق الإخوان المسلمين على تكتيكات حرب العصابات، وأن «مرتينز يقوم بالأمر في شكل جانبي»، وأنه «ليس الوحيد في ذلك»(٤). وحصلت الاستخبارات البريطانية في الواقع على كم كبير

(١) من مكتب المحفوظات في القسم الإفريقي، ٦ شباط/فبراير ١٩٥٣، E1202/2, FO 371/102869, TNA.

(٢) مسودة رد على سؤال برلماني، ١٧ حزيران/يونيو 1953، JE1202, FO 391/102869, TNA .

(٣) المصدر السابق.

(٤) Minutes, August 1953, JE1202/15, FO 371/102869, TNA.

من المعلومات في شأن تدريب رجال حرب العصابات. وتشير ملاحظة في ملف لوزارة الخارجية يعود إلى آب/أغسطس ١٩٥٣ إلى تدريب المستشارين الألمان لفرق التخريب التابعة للإخوان المسلمين. وكتب السير ريجينالد ج. بوكر أن «ما من شك في أن مرتينز هو الذي يتولى هذا. وبحسب علمي إننا طلبنا من الحكومة الألمانية طرده». وفي تلك الفترة تكوّن لدى وزارة الخارجية البريطانية الانطباع بوجود موقف ودّي من البريطانيين لدى غالبية المستشارين – إلا مرتينز الذي مثّل استثناء قاطعاً – في تعاطيهم مع الحكومة المصرية وإنهم لهذا السبب لا يدرّبون المصريين على حرب العصابات.[1] لكن ومع ما عرفته وزارة الخارجية عن هذه النشاطات، فمن المحتمل أنها لم تعرف سوى القليل بالمقارنة بأجهزة الاستخبارات البريطانية الخفية، مثل «أم.آي٦.».

لم تكن هذه إلا واحدة وحسب من المشاكل الكثيرة التي فرّخت من عملية اللجوء إلى مجرمي حرب كجزء من العلاقة الأميركية الخفية مع عبد الناصر. والمؤكد أن أفعال «السي.آي.إي.» في مصر كانت ضد بريطانيا، الحليف الأوثق لأميركا، وساعدت في الوقت نفسه الاستخبارات السوفياتية. والمؤكد أن عدداً من النازيين الذين جُنّدوا للعمل من أجل عبد الناصر هم من العملاء المزدوجين وكانوا لبعض الوقت تحت سيطرة «الكا.جي.بي.» السوفياتية. لكن لا «السي.آي.إي.» ولا غهلن تنبها كثيراً إلى خلفية المجندين النازيين في مصر.

وعلى سبيل المثال، فإن فيلهلم فوس، بعد استسلامه الأول للأميركيين في ١٩٤٥، وقع أيضاً في الأسر الروسي والتشيكي لكنه لم يُحاكم قط أو يُحكم عليه من أي من السلطتين وأعيد بالتالي إلى الأميركيين، إنما يوحي أن الشرق ربما أعاده إلى الغرب جاسوساً مزروعاً أو عميلاً مزدوجاً. وما دعم وجهة النظر هذه هي حقيقة أنه ظهر للمرة الأولى في مصر برفقة مساعدين تشيكيين وأنه جنّد بالتالي عناصر تشيكيين،

---

(١) المصدر السابق.

وكذلك حقيقة أن الشخص المرموق الأول الذي جنّده فوس – عالم الصواريخ رولف إنغل – شيوعي معروف.[١]

والمثل الآخر هو غيرهارد مرتينز نفسه الذي أصبح بعد مغادرته مصر واحداً من أقوى التجار والشاحنين العالميين لفائض الأسلحة الألمانية (مؤسسة ميريكس). والمرجّح أن البريطانيين أدركوا جيّداً في ١٩٥٦ ارتباطات مرتينز السرّية مع «البي. أن.دي.» وارتباطاته المزدوجة الممكنة مع موسكو الأمر الذي جعل من حضوره وسط رجال حرب عصابات الإخوان المسلمين، وربما زودهم أيضاً الأسلحة، أكثر زعزعة للاستقرار.[٢]

المؤكد أن الروس لم يعتمدوا على النازيين فقط في مصر من أجل الاستخبار عن عبد الناصر و»السي.آي.إي.». فأحد أفضل عملاء الاستخبارات السوفياتية كان زئيف أفني (المولود ولف غولدستين). وهو اقتصادي يتقن عدة لغات. أمضى الحرب العالمية الثانية في سويسرا حيث جندته الاستخبارات العسكرية السوفياتية، «جي.أر.يو.». هاجر في ١٩٤٨ إلى إسرائيل وعثر على وظيفة في وزارة الخارجية الإسرائيلية. عُيّن في ١٩٥٢ في بروكسل ملحقاً تجارياً وأيضاً ضابطاً أمنياً. استخدم منصبه الجديد للوصول إلى خزنة السفارة الإسرائيلية فصوّر محتواها لحساب أسياده السوفيات. كذلك جنّدته الموساد وهو في بروكسل، واستخدم إتقانه اللغة الألمانية ليدعي أنه رجل أعمال ألماني. ونُقل في تلك الفترة من «الجي.آر. يو.» إلى

(١) بحسب برقية السفير كافري، فإن فوس نفسه طرح وجود شائعات تدور مغزاها أنه شيوعي. ولاحظ فوس أن من الواضح أن ذلك مستحيل بما أن الروس مسؤولون عن خسارة زوجته وأبنائه في خلال الحرب. وأشار إلى الظروف الرهيبة السائدة في ألمانيا الشرقية بالمقارنة بالوضع المؤاتي في ألمانيا الغربية؛ وبدا فوس في هذا الصدد أنه لا يحمل أية أوهام في شأن النظام الروسي في القطاع الشرقي. إلا أنه ربما أخذ فوس في إصدار نفي وقائي بعدما شعر بارتياب أميركا المكارثية. أنظر مذكرة المحادثة رقم ٢٩٠٥ مع الدكتور فيلهلم فوس، ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٥٣ الملحقة ببرقية السفارة رقم ٢٢٧٦، ٢٨ نيسان/أبريل 1953، CIA Name FILE, Issue 2:53-2002A/11/3, RG263, NARA.

(٢) أنظر Heinz Vielain, Waffenschmuggel im Staatsauftrag: Was lange in Bonn geheim bleiben musste (Herford: Busse Seewald, 1986), passim; Martin A. Lee, The Beast Reawakens (New York: Routledge, 2000), 184.

«الكا.جي.بي.». فاستخدم غطاءه كرجل أعمال ألماني لاختراق صفوف النازيين العاملين لناصر وفي شكل غير مباشر «للسي.آي.إي.». كذلك أمر أفني «للكا. جي.بي.» شيفرة الموساد ومكّن بذلك وكالة التجسس السوفياتية من كسر رموز جهاز الاستخبارات الإسرائيلي. وأُمسك به في ١٩٥٦ وحُكم عليه بـ١٤ سنة سجناً.(١)

المؤكد أن موسكو استخدمت معلومات أفني عن عبد الناصر لإبقاء عين يقظة على أولئك الألمان الذين يعملون بالفعل في خدمة «الكا.جي.بي.» وللحصول على معلومات عن الباقين بغية تجنيد عملاء جدد عن طريق الإكراه. وشكل استخدام النازيين، بالنسبة إلى الأميركيين، بداية سياسة تدعو إلى استخدام أي كان أو أي منظمة ممن يمكن تحديدهم بأنهم معادون للشيوعية. وأدى عبد الناصر نفسه هذا الدور على مدى بضع سنوات؛ وبعدما تخلّى عن العلاقة الخفية مع الولايات المتحدة وتحوّل إلى الاتحاد السوفياتي طلباً للدعم، بدّلت «السي.آي.إي.» من مسارها وسعت إلى تقويض «بيلي غراهام المسلم» المصري. ومرّة أخرى يذيّل المثل القديم «عدو عدوي هو صديقي» حرب «السي.آي.إي.» ضد عبد الناصر. وفي هذه الحال مثّل تسخير قوى الإسلام من خلال الإخوان المسلمين لمواجهة القومية العربية بقيادة عبدالناصر نذير سياسة أميركية خطيرة وعقيمة حيال الشرق الأوسط.

(١) Christopher Andrew and Vassili Mitrokhin, The World Was Going Our Way: The KGB and the Battle for the Third World (New York: Basic, 2005), pp. 226-27.



١٨

إرث من الانقلابات: التدخل الأنكلو-أميركي في سوريا

سأل رجل متقدم في العمر جندياً يجلس في دبابة:
«ما الذي يحصل يا بني؟»
«هس،» قال الجندي، مشيراً إلى الرجل بالصمت.
«هذا انقلاب!»
ورد الرجل حائراً، «حسناً...لكن ما هو الانقلاب؟»[1].

قبل نصف ساعة على منتصف ليل التاسع والعشرين من آذار/مارس ١٩٤٩، أرسل القائد الأعلى للجيش السوري، الزعيم حسني الزعيم، وحدات عسكرية لتوقيف أعضاء في الحكومة السورية. انقضّت مفارز الجيش للمّ المسؤولين المقصودين وإقفال الشوارع وقطع الاتصالات وإغلاق الحدود السورية_اللبنانية. وفي السادسة من صباح الثلاثين من آذار/مارس أُعلن حظر التجوال؛ واكتملت عملية السيطرة مع حلول الصباح وترددت أصداء أحذية الجنود في أنحاء شوارع دمشق. عرّف بيان صدر عبر الإذاعة بالنظام الجديد وشرح الخطوط العريضة لرسالة الزعيم إلى البلاد والعالم. وأعلن المذيع برزانة تتطلبها المناسبة: «لقد أُجبرنا، بدافع من الحماسة الوطنية، على قلب الحكومة السابقة. ونحن لا يحرّكنا الطموح بل الرغبة فقط في

(١) طُرفة ترددت في شكل عام حول فجر التاسع والعشرين من آذار/مارس، عندما استولى الزعيم حسني الزعيم على مقاليد السلطة في سوريا. Sami Moubayed, "Keeping an Eye on Syria: March 29, 1949," Mideastviews: Middle East Analysis by Sami Moubayed, 29 May 2009, http://www.mideast-views.com/articleview.php?art=387.

خلق دولة ديمقراطية بالفعل». وأصرّ الزعيم على أن الثورة «محلّية وحسب ولا تورّط خارجياً فيها.»[1]

كان الإيحاء بعدم وجود تورّط خارجي مثيراً للضحك. فالجغرافيا السورية تمتطي منطقة استراتيجية – للدولة، التي تشكل طريقاً مثالياً لنقل النفط، حدود مشتركة مع عدة دول شرق أوسطية رئيسية، من بينها إسرائيل وهي بقعة الاضطراب المستمرّة بالنسبة إلى المنطقة. وهناك، نتيجة ذلك، اهتمام راسخ لحلفاء سوريا بمن يمسك بالسلطة في دمشق. ولهذا السبب لم يكن لانقلاب آذار/مارس تورط خارجي وحسب، بل أيضاً، وبالتأكيد، تدخّل خارجي مباشر من خلال «السي.آي.إي.».

منذ ١٥٠٠ حتى ١٩١٨، لم توجد سوريا، وكذلك كل من الجوار اللبناني والأردني والفلسطيني، كدولة بل كوحدات إدارية في الأمبراطورية العثمانية. واقترحت بريطانيا، في إبان الحرب العالمية الأولى، إنشاء دولة عربية مستقلة لضمان ولاء شريف مكة الحسين الهاشمي واستطراداً ولاء عرب الأمبراطورية العثمانية. ولمّا يمض وقت طويل على ذلك حتى عرضت بريطانيا فلسطين دولة قومية لليهود. وخان البريطانيون في الواقع كلاً من الحسين والقومية العربية. فقد دعا اتفاق سايكس-بيكو في ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا إلى منح سوريا ولبنان بعد الحرب إلى فرنسا واعتبرت فلسطين منطقة دولية تحت الانتداب البريطاني. وبالرغم من استغاثة سوريا وفلسطين بسياسة وودرو ويلسون المتعلقة بحق تقرير المصير، قصر الأميركيون عن دعم إنشاء دول عربية مستقلة فقُسّم الشرق الأوسط بعد الحرب بدرجة تزيد بعض الشيء أو تقلّ عن اتفاق سايكس-بيكو. ونشأ لبنان كدولة ضمن سوريا وجعلت منه فرنسا في ١٩٢٦ كياناً منفصلاً مؤسّسةً بهذا للتدخل السوري اللاحق الذي لا هوادة فيه في لبنان إذ بقيت كل الأنظمة في دمشق ملتزمة مفهوم أن لبنان جزء من سوريا الكبرى.

---

(١) "Army Coup in Syria: Government Overthrown," Sunday Morning Herald, 31 March 1949; "Syria Army Takes Over Government: Leaders Ousted in Bloodless Coup d'Etat," Evening Independent, 30 March 1949.

رسّخت فرنسا، قبل الحرب، وجودها في المنطقة بإقامة تحالفات مع الأقليات في سوريا والمنطقة، مدعية لنفسها الحق في حماية المسيحيين الموارنة الذين أقاموا روابط مع الفرنسيين في خلال الحملة الصليبية الأولى. إلا أنه، وبالرغم من هذا الرابط التاريخي، عمّ القمع في خلال الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان مما أثار تمرد السكان المحليين. ولم تحصل سوريا في النهاية على استقلالها عن فرنسا إلا عند نهاية الحرب العالمية الثانية.(١) وأدت نهاية الحرب إلى التطبيق المتردّد لوعد بلفور بعدما أنشأت الأمم المتحدة الدولة اليهودية في فلسطين – وهي اللحظة الحاسمة في التاريخ السوري.

تُشكّل سوريا اليوم خليطاً مركّباً من الفئات الدينية والثقافية والسياسية تورّط الكثير منها في صراعات تاريخية من أجل السيطرة بل حتى البقاء. وتعمّقت، بمرور الوقت، الانقسامات الراسخة في المنطقة وانحرفت وقدّ تلاعبت بها العناصر المحلّية والخارجية في السعي إلى التفوّق المالي والسياسي والإيديولوجي. فالصراع على النفط والنزاع مع إسرائيل ومنافسات الحرب الباردة، على مدى عقود من الزمن، حرّكت في شكل فاعل سياسة الغرب الخارجية في الشرق الأوسط. وحاولت دول الشرق الأوسط، في خلال الحرب الباردة، تفادي ربط مصائرها رسمياً بأي من الغرب أو الكتلة السوفياتية الشرقية وفضّلت البقاء على الحياد. بيد أن بريطانيا والولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي لم تستسغ الحياد، وشن البريطانيون والأميركيون والإسرائيليون والسوفيات نتيجة ذلك حرباً خفية بالواسطة على سوريا للسيطرة على المنطقة.

صاغ الخوف من شرق أوسط يسيطر عليه السوفيات، إضافة إلى الحركة القومية العربية التي تعمل كواسطة تحريك لروزنامة موسكو، المنحى الفكري الاستراتيجي الغربي. وتعود جذور القومية العربية في سوريا إلى مطلع القرن العشرين بالرغم من أنه غالباً ما يتم ربطها بالزعيم المصري جمال عبد الناصر. بدأت الحركة مع

(١) Bonnie F. Saunders, The United States and Arab Nationalism (Wesport, CT: Praeger, 1996), 4; Patrick Seale, The Struggle for Syria (London: I. B. Tauris, 1985), 15.

طلاب سوريين تأثروا بالتاريخ العربي في الجامعة الأميركية في بيروت وبمحاولات الأمبراطورية العثمانية سحق الثقافة العربية. وتحوّل مفهوم الثقافة العربية تدريجاً إلى المطالبة بأمة عربية مستقلة إلى جانب إحياء العروبة.[1] ولأن العالم العربي مؤلف من طيف من الطوائف الدينية والروحية، فقد عنت الوحدة العربية ضمناً وحدة عبر الحدود الدينية. غير أن فسيفساء المجموعات العربية الدينية والثقافية والأقلوية كانت في الوقت نفسه سريعة التأثر بتلاعبات القوى الأجنبية واستغلالها.

استمالت «السي.آي.إي.» وغيرها من وكالات المخابرات الأميركية، كما فعل البريطانيون من قبلها، الحركات السياسية والفئات المنشقة في أنحاء الشرق الأوسط التي يمكنها أن تفيد الغرب ووضعتها في مواجهة من يشكلون تهديداً للمصالح الأميركية. واستعانت القوى الغربية، في ردها على الشرّين التوأمين المتمثلين بالشيوعية والقومية العربية، بالمجموعات الدينية المتطرفة التي تعارض من حيث تكوينها كلاً من الأيديولوجيا السوفياتية الملحدة وعلمانية القومية العربية. وشكّل الإخوان المسلمون واحدة من هذه المجموعات وقد سلّحهم الغرب وموّلهم لمواجهة القومية العربية والنفوذ السوفياتي.

التحق طلاب سوريون في الثلاثينيات بجامعة الأزهر في القاهرة وعادوا بالإخوان المسلمين معهم إلى سوريا.[2] عمل الجناح السياسي للإخوان المسلمين لبعض الوقت في دمشق وحلب تحت اسم الجبهة الاشتراكية الإسلامية، إلا أن المنظمة تبنت بعد ١٩٤٥ اسم الإخوان المسلمين لتمثيلها في نشاطاتها السياسية. واللافت هو تمكّن الاخوان المسلمين من إثارة حنق كل من البريطانيين والشيوعيين السوريين. ووصف تقرير لوزارة الخارجية البريطانية الإخوان المسلمين بأنهم «مشروب ماركسي في كوب إسلامي.»[3] ومن جهته وصف الحزب الشيوعي السوري الإخوان المسلمين بـ«الإخوة

(١) Dreyfuss, Devil's Game, 47; Saunders, Nationalism, 2.

(٢) Hanna Batatu, "Syria's Muslim Brethren," MERIP Reports, no. 110 (November-December 1982): 12-20, 34, 36; Dreyfuss, Devil's Game, 47-48, 199.

(٣) FO 370/2719, TNA.

البريطانيين.»[١] وبغض النظر عن هذه المشاعر، قلقت الخارجية البريطانية جداً في ١٩٥٠ بشأن الروابط بين الإخوان المسلمين في سوريا والشيوعية السوفياتية.[٢] بيد أن الإخوان وجدوا في الولايات المتحدة شرّاً أقلّ من شر الشيوعيين، فيما لم يشعر الأميركيون بالكثير من الندم في العمل مع منظمة إسلامية مجاهدة.

شكّل الإخوان واحداً من تنظيمات علنية وسرّية كثيرة وجدت في سوريا ساحة مناسبة للحرب السرّية. فمثلاً، وقبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبح لبنان وسوريا قاعدتين لمجموعات إرهابية متنافسة بعضها موالٍ للصهيونية وغيرها يمارس سياسات مناهضة لها. وكانت الوكالة اليهودية والهاغاناه قد أنشأتا بحلول ١٩٤٣ جهاز استخبارات في سوريا ولبنان. وقد راقب المكتب الأميركي للخدمات الاستراتيجية هذه المجموعة وجمع المعلومات عن المنخرطين فيها وتابع نشاطاتهم.[٣]

في السنوات التي أعقبت الحرب انصب اهتمام الأميركيين والبريطانيين الخاص على مجموعات اللاجئين البولنديين الذين أخذوا ينشئون خلايا إرهابية في المنطقة. وشرع جهاز مكافحة التجسس الأميركي والاستخبارات البريطانية في جمع المعلومات عن مجموعات اللاجئين البولنديين هذه التي ارتبطت بدورها بالإيرغون.[٤] حتى أن لبنان آوى، مع حلول الخمسينيات، منظمات نازية جديدة مثل «بي.دي.أو.» (وهي منظمة قومية ألمانية مؤلفة من نازيين سابقين) اختبأ أعضاؤها في بيروت وانخرطوا في النشاطات السياسية السورية.[٥] ومن ناحية أخرى أصبحت دمشق، في خلال الخمسينيات، مركزاً للتنظيمات في كفاحها التخريبي المستمر ضد إسرائيل. وفي ١٩٥٥ اتصل ضباط في الجيش المصري بالاستخبارات العسكرية السورية طالبين أسماء إرهابيين فلسطينيين يقيمون في سوريا ويمكن للمصريين نشرهم في مواجهة

(١) FO 371/82792, TNA.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Indices to Series 16, 36433C, Box 351, Entry 14, RG 226, NARA.

(٤) Folder 8, Box 125, Entry 99, RG 226, NARA.

(٥) KV 2/1970, TNA.

إسرائيل على طول الحدود الأردنية. وحظيت العملية بدعم السعودية وجرى التخطيط لها في سفارتها في دمشق بإشراف جمال الحسيني الناشط الفلسطيني شقيق أمين الحسيني ومؤسس الحزب العربي الفلسطيني.(١) وجيء بالمجندين أيضاً من بين أنصار أمين الحسيني في الأردن، وأدى المفتي نفسه دور المنظّم الأكبر من موقعه المعتاد في القاهرة. وسرت شائعات بأن المفتي يقف وراء شبكة إرهابية واسعة غير أن التنظيم لم ينشط في الحقيقة إما لنقص في التمويل وإما لأن أعضاءه أخذوا في انتظار اللحظة المناسبة. خسر المفتي حظوته موقتاً لدى حكومة عبد الناصر بسبب ارتباطاته بالإخوان المسلمين، لكن القاهرة عادت ورحبت به اعتقاداً من المصريين بإمكان استخدام شبكته لخلق المتاعب لإسرائيل.(٢)

أدركت الخارجية البريطانية تمام الإدراك استخدام مصر للاجئين الفلسطينيين في عمليات تجسس ضد إسرائيل، غير أن البريطانيين تفادوا تحذير الحكومة السورية خوفاً من الإضرار بالعلاقة مع دمشق.(٣) فقد تأنى البريطانيون في خطاهم في مطلع الخمسينيات في العالم غير المستقر كثيراً للسياسة السورية. واشتكى ممثل الخارجية البريطانية في دمشق من السياسة البريطانية «السلبية» حيال سوريا، فيما شدد مكتب القاهرة على أهمية الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع العالم العربي بكليته. واعتبرت وزارة الخارجية أن التأكيدات البريطانية الراهنة المتعلقة بالإبقاء على الحدود الإسرائيلية أو تقليصها ليست كافية.(٤) وعَلِق البريطانيون في عملية استرضاء للنظام السوري لمعرفتهم بإمكان أن تستدير سوريا، على غرار دول شرق أوسطية «حيادية» أخرى، صوب أصدقاء آخرين، والاتحاد السوفياتي هو الأكثر بروزاً بينهم؛ غير أن البريطانيين قلقوا أيضاً بشأن الأميركيين، حلفائهم المنافسين لهم. وقد حذّرت وزارة الخارجية في الأربعينيات والخمسينيات لندن تكراراً من

---

(١) كانت الخارجية البريطانية في ١٩٥٧ على اتصال بجمال الحسيني. وكان المفتي يزودهم في ذلك الوقت تقارير عن الوضع السياسي في سوريا. أنظر FO 371/128226, TNA.

(٢) VR1092/120-121, VR1092/123-124, VR1092/129-130, FO 371/115899, TNA.

(٣) VR1092/144, VR1092/149, FO 371/115900, TNA.

(٤) FO 371/82800, TNA.

أن أي خطوات سياسية تزعج العالم العربي لن تؤدي إلا إلى دعوة واشنطن للحلول محل بريطانيا في المنطقة.(١)

بدأت علاقة أميركا بالشرق الأوسط في مرحلة متقدمة من القرن العشرين حيث مثلت سوريا المنطلق الأول للتدخل الأميركي في المنطقة. ولم تكن للولايات المتحدة مصلحة كبرى في الشرق الأوسط قبل الحرب العالمية الأولى.(٢) لكن مع الازدياد الكبير في استهلاك النفط في الديار في العشرينيات من القرن العشرين، شرع الأميركيون في تحدي السيطرة البريطانية الحصرية على الاحتياطات النفطية في الشرق الأوسط. وتوسّعت الاستثمارات الأميركية في نفط الشرق الأوسط طوال الثلاثينيات والأربعينيات، ومثّل أمن المنطقة مع نهاية الحرب العالمية الثانية مصدر قلق استراتيجي كبير للولايات المتحدة. وكانت طوبوغرافية سوريا مثالية للنقل الفاعل والرخيص للبترول. فهي تقع بين الخليج الفارسي والمتوسط مما يجعل البلاد طريقاً مثالياً لخطوط أنابيب النفط ليحل محل الطريق الطويل من حول السعودية إلى قناة السويس. وعقدت شركة خط الأنابيب عبر البلاد العربية (التابلاين) في ١٩٤٩ اتفاقاً مع الحكومة السورية وبدأ العمل بخط الأنابيب بحلول ١٩٥٠. والتابلاين شركة فرعية لشركة النفط العربية-الأميركية وهي بدورها شركة فرعية لشركة «تكساكو» التي تملكها كاليفورنا.(٣)

برزت الولايات المتحدة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية بوصفها لاعباً رئيسياً في الشرق الأوسط. وأقام الأميركيون بعد ١٩٤٥ شبكتهم الاستخبارية الخاصة وأخذت وزارة الخارجية تتلقى تقارير منتظمة من مكتب الخدمات الاستراتيجية، الاستخبارات الخاصة، عن مناطق أساسية في الشرق الأوسط.(٤) واتخذ عملاء

(١) E1284, FO 371/45542, TNA.

(٢) Saunders, Nationalism.

(٣) المصدر نفسه، ٥-٧.

(٤) Folder 8, Box 125, Entry 99, RG 226, NARA.

الاستخبارات الأميركية من الإدارة الاقتصادية الخارجية ومن مراكز في وزارة الخارجية غطاء لهم في عواصم في أنحاء الشرق الأوسط كافة.(١)

خشي كل من الاستخبارات البريطانية والأميركية، مع توسّع تنافس الحرب الباردة بين الغرب والكتلة الشرقية، أن تصبح سوريا دولة تدور في الفلك السوفياتي.(٢) وتزايدت هذه المخاوف بعد إنشاء خط الأنابيب واعتماد سوريا المتزايد على السلاح السوفياتي والمال.(٣) واستمرّ الوضع في التدهور، في أواخر الأربعينيات، لأن الأميركيين اقتنعوا بأن سوريا آوت «نسقاً مدهشاً من التنظيمات اليسارية بما في ذلك الحزب الشيوعي الأكثر نشاطاً في العالم العربي.»(٤) وبالفعل توسّع النفوذ السوفياتي بحلول الخمسينيات في شكل كبير في سوريا وقد تركّزت «الكا.جي.بي» جيداً في دمشق.(٥) ولبى السوفيات، من طرفهم، حاجات السوريين وزوّدوهم على سبيل المثال، الأسلحة في الحرب العربية-الإسرائيلية في ١٩٤٨. وأصبحت الحرب العربية-الإسرائيلية في الواقع مصدراً رئيساً للخلاف بين الولايات المتحدة وسوريا ولم يخف على واشنطن أن سوريا كلما نفرت من الأميركيين تقرّبت من موسكو.(٦) وشرعت لندن وواشنطن، رداً على ذلك، في التفكير في استخدام استراتيجية خفية لتطبيق إجراءات مناهضة للشيوعية في سوريا، وأخذت أجهزة استخبارات البلدين تخطط، مع نهاية العقد، لتغيير النظام في دمشق.(٧)

وأخذت البلاد نفسها تعاني في غضون ذلك التخبط. فالحرب العربية-

---

(١) Folders 09271-6, 09290, 09302, ox 195, Entry 210, RG 226, NARA.

(٢) غير أن الخارجية البريطانية رأت في الأكراد السوريين مشكلة أصغر بكثير من الأكراد العراقيين والإيرانيين.

(٣) Saunders, Nationalism, 7.

(٤) Douglas Little, "Cold War and Covert Action: The United States and Syria, 1945-1958," Middle East Journal 44, no. 1 (Winter 1990): 52.

(٥) FO 371/128226, TNA.

(٦) Little, "Cold War," 54.

(٧) FO 371/82792, TNA.

الإسرائيلية في ١٩٤٨ جاءت مباشرة عقب الحرب العالمية الثانية.[١] ألقى الجيش باللوم في الهزيمة على الحكومة واتهمها بسوء الاستعداد. وزاد النائب اليميني في البرلمان فيصل العسلي من استياء الجيش بعدما حقّره في العلن على تأديته الضعيفة. ويشعر بعض المؤرّخين أن هذه الهجمات أوصلت مباشرة إلى الانقلاب المقبل للزعيم.[٢] وهكذا بدأت سلسلة من الانقلابات أدت إلى درجة هائلة من عدم الاستقرار الاجتماعي-السياسي في الدولة الحديثة وإلى تفشّي الفساد.

تسببت الهزّات الارتدادية للخسائر السورية في حرب ١٩٤٨ العربية-الإسرائيلية في النهاية باستقالة الحكومة الوطنية/الشعبوية المنتخبة. وبعد وقت ليس بالطويل قلب الزعيم، في آذار/مارس ١٩٤٩، الحكومة الانتقالية وكان يومئذ رئيساً لأركان الجيش.[٣]

جاء ارتقاء الزعيم حسني الزعيم إلى السلطة بعد سلسلة من الاجتماعات مع عميل «السي.آي.إي.» ستيفن ميد. وأفاد ميد في آذار/مارس عن طلب الزعيم «بأن يثير عملاء الولايات المتحدة الاضطرابات الداخلية ويحرضوا عليها...لأن ذلك ضروري للانقلاب، أو أن يُعطى له التمويل الأميركي لهذا الغرض.»[٤] ويستحيل التأكيد بتقديم المال، سوى أن الاتصالات بين «السي.آي.إي.» والزعيم ازدادت في شكل كبير وأدت إلى الانقلاب.[٥] وقد أوجز مايلز كوبلاند، عميل «السي.آي.إي.» السابق، كيف دعم وستيفن ميد الزعيم، وتؤكّد مصادر الأرشيف الأميركي

(١) فشل الجيش في النهاية في هجومه على إسرائيل بالرغم من أن سوريا اكتسبت بعض الأراضي في ما وراء حدودها الأصلية وهو ما سيصبح مصدراً للتوتّر المستمر بين سوريا وإسرائيل. وحولت الأمم المتحدة هذه الأراضي المُكتسبة حديثاً إلى منطقة منزوعة السلاح، غير أن إسرائيل استحوذت عليها في شكل تدريجي على مر السنوات الآتية.

(٢) Seale, Struggle, 41-43.

(٣) Saunders, Nationalism, 10-11.

(٤) Meade to G-2, 18 March 1949, 350 Syria, Damascus Post Files, Box 49, RG 84, NARA, quoted in Little, "Cold War," 56.

(٥) Little, "Cold War"; Saunders, Nationalism, 11-12; 27.

أن ميد أقام في تلك الفترة روابط مع عناصر اليمين المتطرف في الجيش السوري الذين نفذوا في النهاية الانقلاب.(١)

أدت «السي.آي.إي.» أيضاً دوراً في تنصيب العقيد الشيشكلي في الانقلاب الأخير للعام ١٩٤٩. وكان الزعيم حليفاً ممتازاً للولايات المتحدة. وحظر، بعد استيلائه على السلطة، الحزب الشيوعي السوري وأقام اتفاقات سلام مع إسرائيل وتركيا ووفر موطناً للاجئين الفلسطينيين. ومن سوء الحظ أن فترة توليه رئاسة سوريا لم تعمّر طويلاً. فقد قُتل الزعيم في آب/أغسطس ١٩٤٩ واستُبدل بالعقيد سامي الحنّاوي. ولا يوجد دليل على التورط الروسي الفعلي بالرغم من المخاوف الأميركية؛ ولم يمتلك الحناوي ميولاً سياسية حزبية وعارض في صفة خاصة حكم الزعيم الشاذ والاستبدادي.(٢) وكان الحناوي عقيداً يتولى قيادة وحدات الجيش الرئيسية في جنوب سوريا. وثمة مزاعم على أن العراقيين دعموا الانقلاب جزئياً لأنهم لم يحبّوا سياسة الزعيم الموالية لمصر واستجابوا لنداء الحنّاوي من أجل الوحدة السورية ـ العراقية. والمؤكد أنه كانت للعراقيين اتصالات مع الحناوي إلى جانب آخرين غيره في الجيش السوري، وقد ادعى لاحقاً واحد من المتآمرين، الملازم الأول فضل الله أبو منصور، أن العراق تورّط في شكل مباشر.(٣)

أعاد الرجل السوري القوي الجديد إحياء الشيوعيين وألمح إلى تجدد العداوة مع إسرائيل واقترح توحيد سوريا والعراق. وحرص الأميركيون على المبادرة إلى إحباط الحناوي والتحرّك سريعاً قبل تدخّل السوفيات. وعثر مايلز كوبلاند على طامح للزعامة، هو الشيشكلي، ليكون «المارق المحبوب»، وهيّأ له الحصول على المساعدة الأميركية المالية والعسكرية.(٤) سيطر الشيشكلي على الحكومة في كانون الأول/

(١) Miles Copeland, Game of Nations; Stephen Meade to G-2 (Intelligence), 3 December 1948, 350 Syria, Damascus Post Files, Box 49, RG 84, NARA.

(٢) Saunders, Nationalism, 11.

(٣) لكن لا يوجد أي دليل موثق إلى أن العراقيين كانوا متورّطين. أنظر Seale, Struggle, 73-74.

(٤) Weiner, Legacy, 159.

ديسمبر ١٩٤٩ وتعاون مع الأميركيين في ما يتعلّق بخط الأنابيب وإسرائيل. وبقي في السلطة لمدة أربع سنوات. وبالرغم من أن الأميركيين وجدوا جهود الشيشكلي المعادية للشيوعية غير كافية، فإن سياساته المؤيدة للغرب أصبحت في نهاية الأمر مصدراً للغضب العام. وأطاحه نتيجة ذلك ضباط في الجيش بقيادة العقيد عدنان المالكي في شباط/فبراير ١٩٥٤.[١]

شكّلت الحكومة الانتقالية التي أعقبت الانقلاب السوري في ١٩٥٤ تهديداً رئيسياً لواشنطن ولندن. وعلاوة على ذلك، واجهت المعارضة المؤيدة للغرب مقاومة داخلية كبرى فيما انقسم الجيش نفسه إلى معسكرين يساري ويميني. وأبلغ المخبرون اتصالاتهم البريطانية باستحالة تغيير النظام من دون مساعدة خارجية، ويُفضّل أن تأتي من العراق. وقد رأوا أن العراق سيحظى بدعم القبائل في الشمال على طول الحدود التركية إلى جانب بعض القبائل وفصائل الجيش في الجنوب من خلال الارتباطات بالسعودية. وأجرى البريطانيون عدة نقاشات مع موظفي السفارة التركية في شأن الوضع السوري، فيما تريثت وزارة الخارجية البريطانية لكون مرشحَيْن محتملين لمنصب الديكتاتور السوري هما في السجن.[٢]

لاحظ مدير «السي.آي.إي.» ألن دالاس في الوقت نفسه أن سوريا «ناضجة لانقلاب عسكري».[٣] ففي ١٩٥٦ قلّب الأميركيون الفكر في «عملية ستراغل»، المخطط الذي يقضي بدعم الحزب السوري القومي الاجتماعي،[٤] وهو حزب يميني صديق للولايات المتحدة، ليطيح نظام المالكي. لكن تم التخلّص من الخطة لأن «السي.آي.إي.» خشيت من فشل الحزب القومي. وهناك عامل حاسم آخر وهو أن قضية السويس انفجرت فيما كانت «ستراغل» على وشك الانطلاق، ما أطاح أكثر فرص الانقلاب الأميركي في الشرق الأوسط.

(١) Little, “Cold War”; Saunders, Nationalism, 11-12; 27.

(٢) FO 371/128222, TNA.

(٣) Weiner, Legacy, 159.

(٤) ويشار إليه أيضاً باسم الحزب السوري القومي.

شرعت لندن وواشنطن، بعد انقشاع غبار قناة السويس، في عملية مشتركة أنكلو-أميركية لإطاحة النظام السوري. وضغط عملاء من قسم الشرق الأدنى في «السي.آي.إي.» بقيادة كرميت روزفلت ونظراؤهم بقيادة نائب مدير الاستخبارات السرية البريطانية السير جورج يونغ على العناصر ذوي الميول اليمينية في الجيش السوري للتخطيط لانقلاب فيما وفّرت «السي.آي.إي.» مئات الآلاف من الليرات السورية دعماً للعملية الجديدة. وقضى المخطط بزعزعة الاستقرار داخل سوريا وعلى طول حدودها. وسيقوم عملاء الاستخبارات البريطانية والأميركية بتشجيع الاخوان المسلمين على التمرّد فيما يتم تدبير هجمات «سورية» في الأردن والعراق. وسيسمح عندئذ هذا النشاط العدواني السوري المزعوم للولايات المتحدة باستحضار مبدأ أيزنهاور فتمدّ العراق بالمساعدة لاجتياح سوريا.[١]

من غير المفاجئ أن يشكّل الإخوان المسلمون بيادق هذه المؤامرة. فقد تمتّع البريطانيون والأميركيون في أواسط الخمسينيات بعلاقات ناشطة مع الإخوان المسلمين وربطتهم معاً معارضتهم العنيفة لعبد الناصر. قمعت مصر عبد الناصر بقسوة الإخوان في ١٩٥٤، واعتقلت وقتلت عدداً كبيراً من عناصرهم. وهرب بعضهم إلى سوريا ووجد آخرون الملجأ والدعم في السعودية. وبالإضافة إلى الاتصالات المباشرة بالإخوان المسلمين ساند الأميركيون الجهود السعودية التي سهّلت نشاطات الإخوان الإرهابية عبر الشرق الأوسط.[٢]

امتلك الإخوان، مع تطور الانقلاب، سبباً آخر لمساعدة البريطانيين؛ فقد افترقت سبل حزب البعث (التنظيم العلماني والقومي في سوريا) والإخوان المسلمين قبل انتخابات كانون الثاني/يناير ١٩٥٧ وسرعان ما أصبحا عدوّين لدودين.[٣] وتسببت بالصدع، في شكل شبه مؤكد، العلاقة المتنامية بين حزب البعث السوري ومصر عبد الناصر التي أصبحت رسمية في مطلع ١٩٥٧. وسبق للبعثيين في سوريا أن قادوا

(١) Weiner, Legacy, 159-60; Saunders, Nationalsim, 48-51.

(٢) Dreyfuss, Devil's Game, 126-27.

(٣) FO 371/128222, TNA.

حملة ناجحة للوحدة السورية-المصرية (وقد أثمرت في ١٩٥٨). بيد أن عبد الناصر كان عدواً لدوداً للإخوان الذين تيقنوا المصير القاسي الذي ينتظرهم في حال الوحدة بين سوريا ومصر.[١]

اختار الأميركيون، بالرغم من كارثة أزمة السويس السياسية وأزمة العلاقات العامة، أو ربما بسببها، الاستمرار في استخدام العمليات الخفية بغية التدخل في الشرق الأوسط بدلاً من المقاربة البريطانية-الفرنسية-الإسرائيلية المستبدة في مصر. وربما اعتقدت إدارة أيزنهاور أن انقلاباً تموّله أميركا سيكون أقل إثارة للاشمئزاز من الاجتياح العسكري أو أنها اقتنعت بأن «السي.آي.إي.» لن تفشل. وبغض النظر عن هذه الاعتبارات وغيرها، ضاعفت انتخابات ١٩٥٧ السورية من مخاوف واشنطن ولندن من تحوّل سوريا المتدرّج صوب السوفيات وسرّعت في خطط قلب النظام في دمشق.

اكتسح اليسار السلطة في سوريا في ظل الجبهة الوطنية التقدمية وهي كناية عن تحالف الشيوعيين والبعثيين والقوميين. وأبرزت نتائج الانتخابات قدرة الجيش والمجموعات اليسارية على السيطرة على سوريا.[٢] واستثنت الحكومة الجديدة، في شكل عام، العناصر اليمنيين واستبعدت الشخصيات السياسية الصديقة للغرب. وارتفع مستوى جنون الارتياب سريعاً وباتت الحكومة البريطانية في لندن عرضة لتقارير سياسية مسعورة من وزارة الخارجية حددت شخصيات سياسية سورية رئيسية على أنها تمثّل تهديداً لبريطانيا وللولايات المتحدة، وقد سقط هؤلاء الرجال لاحقاً ضحايا الاغتيال.[٣] ومع اكتساح حزب البعث السلطة، تلهّف الإخوان المسلمون، على غرار الأميركيين والبريطانيين، على التخلص من النظام الجديد وإن لدوافع مختلفة جذرياً.

تفشت في سوريا في الخمسينيات الشائعات والاتهامات بالتدخّل الغربي في

(١) Seale, Struggle, 310-12.

(٢) FO 371/128224, TNA.

(٣) FO 371/128220, TNA.

سياسات البلاد؛ واستغل عملاء الحكومة مناخ الانقلاب الوشيك هذا واعتقلوا في الصباح الباكر من الثاني عشر من آب/أغسطس ١٩٥٧ مئات المشتبه فيهم. وعُقدت بعد ذلك ببضعة أشهر جلسات للمحاكمة وجّهت التهم للموقوفين بالتآمر لإطاحة الحكومة بدعم من العراق والولايات المتحدة وبريطانيا. واتُهم العراق، في ظل نوري السعيد، بالتحريض على مخططات الانقلاب التي تضمّنت مؤامرة لاغتيال الزعيم الشيوعي خالد بكداش على أن يعقب ذلك اغتيال زعيم حزب البعث، ورئيس الأركان العامة صلاح البزري، ورئيس الاستخبارات العسكرية عبدالحميد السرّاج.

وزيادة في الطين بلّة تورّط الحزب السوري القومي الاجتماعي، صديق واشنطن القديم، حتى أذنيه في المؤامرة الأمر الذي ربط الأميركيين بها في شكل غير مباشر.[1] وأعلنت لائحة الاتهام أن مسؤولين عراقيين التقوا الشيشكلي في اجتماع في جنيف في مطلع ١٩٥٦ قام الأخير بعده بزيارة إلى باريس. وفي نيسان/أبريل ١٩٥٦، نُقل أديب الشيشكلي وشقيقه صلاح، وهو متورّط أيضاً في محاولة الانقلاب، من باريس إلى لبنان على متن باخرة شحن بريطانية. استُخدمت بيروت قاعدة للتخطيط للانقلاب وعقد آل الشيشكلي اجتماعاتهم في منزل مجاور للسفارة البريطانية.[2]

مثّل الانقلاب الذي تم الكشف عنه في آب/أغسطس١٩٥٧ تكراراً مع بعض الاختلاف لعملية «وابن» التي استنبطتها «السي.آي.إي.» وجهاز الاستخبارات السّرية البريطانية («إس.آي.إس.») في ١٩٥٦. وكان روكي ستون من «السي.آي.إي.» اللاعب الأساسي فيها. شرع ستون منذ لحظة وصوله إلى سوريا في نيسان/أبريل كرئيس لمحطة «السي.آي.إي.» في دمشق في العمل على إقامة اتصالات مع ضباط في الجيش السوري ورعايتهم. لكن ما إن بلغ ستون في النهاية المرحلة التي

(١) Saunders, Nationalism, 41.

(٢) TNA: FO 371/128220, TNA.

سيسلّم فيها مبالغ كبيرة من «السي.آي.إي.» إلى الضباط السوريين ظهر الذين اتصل بهم على التلفزيون الوطني ليتهموه بأنه جاسوس.(١)

نُظّمت المؤامرة على ثلاثة مستويات. تولى الحزب السوري القومي الاجتماعي تدريب القوات شبه العسكرية، ووافق العراق على تقديم السلاح والمال وجرى إعداد مجموعة سياسية داخل الحكومة السورية.(٢) وحشدت «السي.آي.إي.»، إضافة إلى الإخوان المسلمين، المساعدة من مجموعات إسلامية متطرفة ومجاهدة متنوعة ضمّت جمعية الخلاص الوطني الإسلامي من الطغيان الروسي وجمعية (سرّية) تحرير الأرض المغتصبة لوضع الأساس للانقلاب.(٣) وهُرّبت الأسلحة من العراق والأردن وتركيا ووُزعت على المتآمرين داخل سوريا وكذلك على الدروز وقبائل المساعيد.(٤)

استُخدم معسكر قريب من بيروت، في بيت مري على الأرجح، لتدريب عناصر الحزب السوري القومي الاجتماعي وقد عولج الكثيرون منهم في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت.(٥) وافتُرض، مع إنجاز الاستعدادات كلها وتوفير الأسلحة الكافية، أن تُعلن إشارة الانقلاب من برنامج صوت بريطانيا من إذاعة الشرق الأدنى التي تُشغلها الاستخبارات البريطانية. وتوجب الشروع في تنفيذ الاغتيالات فيما تحتل إحدى الخلايا مدينة حمص وأخرى حماة لاستكمال إطاحة الحكومة.(٦) واستهدف البريطانيون أحد الضحايا المقترحين وهو السرّاج. فقد حثّت وزارة الخارجية البريطانية ومعها الحزب السوري القومي الاجتماعي السرّاج على قبول مركز

(١) Matthew Jones, “The Preferred Plan: The Anglo-American Working Group Report on Covert Action in Syria, 1957,” Intelligence and National Security 19, no. 3 (Autumn 2004): 401-15; Andrew Rathmell, Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria, 1949-1961 (London: I. B. Tauris, 1995); and Weiner, Legacy, 159-60.

(٢) FO 371/128221, TNA.

(٣) FO 371/128221, FO 371/128231, TNA.

(٤) حقق وزير الدولة الأطرش في هذه النشاطات وزُعم أنه تجاهل قيام السير جون غلوب بتهريب السلاح من الأردن إلى القبائل الدرزية.

(٥) FO 371/128220, FO 371/128221, TNA.

(٦) FO 371/128220, TNA.

الملحق العسكري في القاهرة. واحتجت الفصائل الشيوعية والاشتراكية على نقل السرّاج الذي سبق أن تعرّض لمحاولة اغتيال في السنة السابقة وألقت الاستخبارات السورية باللوم في ذلك على الموساد الإسرائيلي، إلا أن وثائق الخارجية البريطانية تناقش صراحة الحاجة إلى القضاء على السرّاج إضافة إلى شخصين آخرين مزعومين رفيعي المستوى استهدفتهما المؤامرة.(١)

اتهمت الحكومة السورية أجهزة الاستخبارات البريطانية والأميركية بتدبير المؤامرة منذ مراحلها الأولى. وامتلكت الأدلة الوافرة على ذلك إذ عثرت في حوزة الكثيرين من المتهمين على كميات كبيرة من المال. وادعت السلطات السورية أن داعميهم زوّدوهم السجائر الأميركية وغيرها من البضائع. وشوهد عملاء بريطانيون في المناطق القبلية في الأشهر المؤدية إلى الانقلاب المخطط له.(٢) ونقلت الصحافة الغربية هذه المزاعم: قدّم الأميركيون ما يراوح بين ٣٠٠ و٤٠٠ مليون دولار وأُنيط بستون تنفيذ المخطط. وذكرت الأسوشيتدبرس أنه تم، لدى الكشف عن المؤامرة، تهريب الشيشكلي إلى بيروت في سيارة ديبلوماسية أميركية.(٣) وأصدرت فيه محكمة سورية حكماً غيابياً بالموت. وعاد بعد ذلك إلى البرازيل التي أقام فيها قبل المؤامرة. وفي ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٦٤ اغتال الدرزي السوري، نواف غزالي، الشيشكلي في البرازيل.(٤)

حطّم الفشل الكارثي لمؤامرة ١٩٥٧، إلى جانب ما تكشّف في المحكمة السورية، سمعة أميركا ودفع الكثير من المجموعات المحلية إلى طلب الدعم والحماية من السوفيات.(٥) وزادت هزيمة مماثلة في العراق من تأكُّل نفوذ الولايات المتحدة

(١) FO 371/128222, TNA.
(٢) FO 371/128220, TNA.
(٣) "U.S. Accused of Syrian Coup Attempt," The Age, 14 August 1957.
(٤) طلب غزالي الثأر لقصف جبل الدروز في ١٩٥٤. وسحق الشيشكلي وهو في السلطة كل المعارضة بمن فيها الأقلية الدرزية في جبل الدروز التي كانت تخطط لانقلاب بالتنسيق مع الأردن. وأمر الشيشكلي بقصف المناطق الدرزية.
(٥) Weiner, Legacy, 161-63.

وفضحت البريطانيين والأميركيين بوصفهم مخططين ضعفاء للانقلاب. وتواطأت الولايات المتحدة مع الحكومة الملكية في العراق وأُخذت على حين غرّة عندما أطيح فجأة النظام الملكي الهاشمي في انقلاب نفّذه ضباط عراقيون بقيادة عبدالكريم قاسم؛ وانسحب النظام الجديد من حلف بغداد، منظمة المعاهدة المركزية، وأقام علاقات ودية مع الاتحاد السوفياتي. وفي إحراج آخر، نشرت حكومة قاسم وثائق كشفت عن المدى الكامل لمؤامرة «السي.آي.إي.» على سوريا.[١]

وفي تداعيات النكبة السورية، أفادت الخارجية البريطانية أن سوريا طردت روكي ستون واثنين آخرين من العملاء الأميركيين.[٢] وزادت المحاكمة اللاحقة وما رافقها من دعاية في تأكّل سمعة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى. واستمرّ بالتالي، لسنوات، ربط المؤامرات الجديدة والتدخلات العسكرية بالبريطانيين والأميركيين. وفي خريف ١٩٥٧ اكتشف السوريون جنوداً أميركيين مختلطين مع الجنود الأتراك على طول الحدود السورية-التركية.[٣] وسهّل مناخ الشك وجنون الارتياب على السوفيات كثيراً تطبيق مخططاتهم في المنطقة.

شن السوفيات في أواسط الستينيات عملية «بوليا» (الرصاصة). وصُممت «بوليا» «لفضح» مؤامرة «السي.آي.إي.» الجديدة على النظام البعثي. غير أنها لم تكن إلا حملة للتعمية قدّم فيها مخبرو السوفيات أسماء «الجواسيس» و«الخونة» وتفاصيل عنهم (بعض المعلومات حقيقي وبعضها الآخر كاذب) للحكومة السورية. بل ذهب الأمر بعنصر في السفارة السوفياتية إلى الاتصال بضابط مؤيد للأميركيين في الجيش السوري، مدعياً أنه صديق، وحذّره من أنه على وشك أن يُفضح بوصفه من المتصلين بالأميركيين. وسأله الضابط، وقد تملكه الذعر، إذا كان عليه الاختباء أو طلب اللجوء إلى السفارة الأميركية؛ وطبيعي أنه تم التنصت على هاتفه؛ بات ما قاله يوازي الاعتراف وفُضح الضابط على أنه عميل أميركي – ليس هناك من

(١) المصدر السابق، ١٦٢.

(٢) FO 371/128226, TNA.

(٣) FO 371/128233, TNA.

سجلات تفيد عن مصيره النهائي. وتم، نتيجة عملية «بوليا» القضاء على بعض عملاء «السي.آي.إي.» ومخبريهم ما زاد في توتير العلاقات الأميركية-السورية ودفع دمشق إلى مزيد من التقرّب من السوفيات.[١]

استبد القلق بالمسؤولين البريطانيين، عقب أزمات ١٩٥٧، لانهيار العمليات الخفية الأميركية والبريطانية، وخصوصاً تلك المتعلقة بمكافحة التخريب. وتشرح مذكّرة إيجاز عن زيارة هارولد ماكميلان لواشنطن عيوب الاستخبارات الأميركية:

> يوجد في الجانب البريطاني فريق خبير إلى حد يشمل وزارة الخارجية و«أم. آي٦» ودائرة البحث في المعلومات وإلى حد كبير وزارة الدفاع (ودوائر الخدمات) والمكتب الاستعماري ومكتب علاقات الكومنولث.... غير أن التنظيم في الجانب الأميركي ليس على هذا القدر من الإحكام، والتنسيق غير كامل بين وزارة الخارجية و«السي.آي.إي.»، إذ لا يثق أي طرف منهما بالآخر.
>
> ويحتاج الطرفان إلى توقّع أفضل لبقع الاضطرابات المحتملة، وتوافر أسرع لنوع الاستخبارات المطلوبة لشن عمليات مكافحة التخريب، وفوق ذلك كله توفير مالي ولوجستي أسرع وأكبر للوازم العسكرية وغيرها لكل هذه العمليات...
>
> ...يجب أن يُعنى بمجموعات العمل أناس رفيعو المستوى يخوّلون التحدث في المسائل السياسية والعملانية ويجب أن يلتقوا في فترات متكرّرة. وفي حالة لبنان اجتمعت مجموعة العمل غير أن تمثيل وزارة الخارجية جاء غير ملائم.[٢]

(١) Andrew and Mitrokhin, World, 196.

(٢) PREM 11/2324, TNA وقد تم الاستشهاد به في Richard J. Aldrich, Espionage, Security and Intelligence in Britain, 1945-1970 (Manchester: Manchester University Press, 1998), 212-13. «فرق العمل» المشار إليها كانت مسؤولة عن الانقلابات. أنظر Dorril, MI6, 656-58.

بيد أن الدسائس الأنكلو_أميركية في سوريا لم تحقق الكثير سوى تمهيد الطريق أمام حضور سوفياتي قوي في دمشق. واللافت هو أن السوفيات قرّروا، على غرار الأميركيين، أن المجموعات الدينية تمثّل الآلية الفضلى التي يمكن من خلالها كسب النفوذ في سوريا. وأخذ التغلغل السوفياتي شكل بعثات أرثوذكسية شرقية إلى سوريا. وقد وصلت بعثة أرثوذكسية سوفياتية برئاسة أسقف موسكو إلى سوريا في أيار/مايو ١٩٥٧ في زيارة استغرقت شهراً في ضيافة البطريركية الأرثوذكسية في دمشق. وقد ترافقت مع زيارة لـ«بعثة ثقافية» سوفياتية من ستة أشخاص. ووصل بطريرك أنطاكيا إلى موسكو في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧، وفي سياق الزيارة أكّد بطريرك روسيا، ألكسي، لرجل الدين السوري أن صداقة الاتحاد السوفياتي ساهمت في الحفاظ على استقلال سوريا. كذلك تلقت الكنيسة الأرثوذكسية في سوريا عروضاً بتقديم المال والدعم؛ وأطلق البريطانيون، في حركة مضادة، خططاً تقضي بإقامة كنيسة إنكلترا علاقات مع كنائس المنطقة.[١]

في شباط/فبراير ١٩٥٨ جمع شكري القوتلي وجمال عبد الناصر سوريا ومصر في الجمهورية العربية المتحدة. واستمرّت هذه الوحدة حتى أيلول/سبتمبر ١٩٦١ عندما وضع انقلاب عسكري جديد، سرت شائعات بأن «للسي.آي.إي.» يداً فيه، نهاية للجمهورية العربية المتحدة.[٢] والضابط الذي وقف وراء الانقلاب هو العقيد عبد الكريم النحلاوي الذي ينتمي إلى جماعة اجتماعية ودينية لها روابط مباشرة بالإخوان المسلمين. واستعاد الإخوان المسلمون شرعيتهم عقب تغيير النظام في ١٩٦١ وضاعفوا من عدد أعضائهم في سوريا. إلا أن هذا لم يحل دون نجاح الانقلاب البعثي في آذار/مارس ١٩٦٣ الذي قام به المجلس الوطني لقيادة الثورة المكوّن أساساً من ضباط في الجيش السوري.[٣] بيد أن انقلاباً آخر قام به الجيش في شباط/فبراير ١٩٦٦ أطاح أمين الحافظ والأعضاء الآخرين في مجلس قيادة

---

(١) FO 371/128268, TNA.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Batatu, "Brethren," 18.

الثورة وألغى الدستور الموقت المعمول به منذ ١٩٦٤. وأشار النظام الجديد إلى نفسه بأنه بعثي زاعماً أنه يعود إلى شكل أكثر طهراً من أشكال الحكم البعثي.

طُبعت الستينيات من القرن العشرين بأعمال الشغب والمؤامرات التي حرّض عليها الإخوان المسلمون ضد النظام البعثي. وكانت مقاومة الإخوان المسلمين مدفوعة بالاعتراضات على الأيديولوجيا العلمانية لحزب البعث، وسياسات الحكومة الاقتصادية والخوف من الشيوعية. وعلّق حنّا بطاطو بأن تجار المدن الصغار والحرفيين الذين يدعمهم الإخوان المسلمون «رأوا في 'اشتراكية' [النظام القائم] سلاحاً سعت من خلاله الشرائح الأكثر وعياً من سكان الريف، الذين أُهملوا طويلاً وكبتوا، إلى الانتقام من المدن الرئيسية».(١) وازداد الخوف من التغلغل الشيوعي في شباط/فبراير ١٩٦٧ عندما أتى انقلاب عسكري بنظام صديق لموسكو. وافقت الحكومة الجديدة على مساعدة مالية من السوفيات لقاء السماح للحزب الشيوعي السوري بإعادة بناء نفسه. غير أن هذا النظام تعرّض للاهتزاز الخطير نتيجة حرب الأيام الستة مع إسرائيل في حزيران/يونيو ١٩٦٧ التي خاضها الجيش السوري بتسليح سيِّىء وعانى في خلالها خسائر كبرى.(٢) ووضع الجميع تقريباً اللوم على الحكومة، ولمّا يمض وقت طويل حتى أقام انقلاب آخر نظاماً جديداً في دمشق.

أطاح حافظ الأسد جديد في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠. وعلى عكس الهيئات الحاكمة تقليدياً في سوريا يأتي الأسد (وجديد) من الأقلية العلوية. وقد تفرّع العلويون من الإسلام الشيعي واستُبعدوا تاريخياً عن المناصب العسكرية والسياسية الرفيعة في سوريا. لكن، ولأسباب لا تزال عرضة للنقاش، لم يكتف العلويون بالانضمام إلى حزب البعث بل ازدهروا أيضاً.(٣) وعلى عكس جديد الذي تحاشى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انتهت حرب الأيام الستة بين الجيش الإسرائيلي وسوريا ومصر والأردن بسيطرة الإسرائيليين على شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان.

(٣) استطلع دانيال بايبس بعضاً من الباحثين بشأن هذه المسألة. وقد ركّز لبّ النقاش على ما إذا كان العلويون بذلوا جهداً طائفياً واستراتيجياً للتغلغل في صفوف حزب البعث. أنظر Daniel Pipes, "The Alawi Capture of Power in Syria," Middle Eastern Studies 25, no. 4 (October 1989): 429-50.

العلويين وهو في السلطة، عبّأ الأسد القيادة العليا ومراكز الاستخبارات الرئيسية بضباط علويين. تصرّف الأسد، بغض النظر عن أصوله العلوية، بحذر شديد منشئاً ما يصل إلى ١٥ جهاز استخبار وأمن منفصلاً استخدمت آلاف الموظفين وجيشاً صغيراً من المخبرين.[١]

ساند الإخوان المسلمون الأسد ضد جديد لأن الأخير جرّب البرامج الاشتراكية التي عارضها بضراوة الإخوان ومؤيدوهم من الحرفيين المدينيين والتجار الصغار. واعترض بعض الأعضاء الأصغر سنّاً في الإخوان على أي دعم لأي فئة بعثية وانتقلوا إلى الأردن حيث انضمّوا إلى حركة فتح الفلسطينية. ولم يواجه الذين بقوا في سوريا الكثير من المعارضة أو الاضطهاد من جانب الأسد.[٢] غير أن العلاقة بين الإخوان والأسد توتّرت جداً بعد ١٩٧٣ وسرعان ما انقلب الإخوان على الديكتاتور السوري.

مثل اعتماد الأسد في ١٩٧٣ دستوراً علمانياً أول نقطة احتكاك.[٣] وانتهت الصداقة الهشة عندما تحرّك النظام السوري ضد الفلسطينيين في الحرب الأهلية اللبنانية. ففي ١٩٧٦ ساعد الجيش السوري الكتائب على ذبح فلسطينيي مخيم تل الزعتر في لبنان. ولاحظ الإخوان المسلمون في الفترة نفسها أن نظام الأسد يتقصّد إقصاء المسلمين السنّة عن مراكز السلطة. وبالرغم من أن المسلمين السنّة يحظون بتمثيل جيّد في العناصر الظاهرة من الحكم فإن بطاطو يرى أن «الأسد وقادة ثلاثة أجهزة استخبارية ووحدتين أساسيتين شديدتي التسلح تعزّزان البنية برمّتها،» يمسكون بالسلطة الفعلية.[٤]

شرع الإخوان المسلمون في ١٩٧٦ بحملة لإطاحة الأسد وإقامة حكم سنّي في سوريا. واستهدفت حملة من الاغتيالات ضباطاً عسكريين بعثيين وسياسيين علويين. وفي حزيران/يونيو ١٩٧٩ أحكم أعضاء في الإخوان إغلاق مدرسة حربية سورية

(١) Andrew and Mitrokhin, World, 197-99.

(٢) Batatu, “Brethren,” 19.

(٣) Dreyfuss, Devil’s Game, 199-205.

(٤) Batatu, “Brethren,” 12-20, 34-36.

وذبحوا المتدربين المسجونين بالأسلحة الرشاشة والقنابل الحارقة وقتلوا ٨٣ منهم. وحاول الإخوان من ثم اغتيال الأسد في ١٩٨٠ وقتلوا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١ مئتي شخص بتفجير سيارة ملغومة في دمشق.[١]

لم يعمل الإخوان المسلمون وحدهم. ففي ١٩٨٣ وقّع الأسد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفياتي، وطلبت «السي.آي.إي.» مرة أخرى المساعدة من المجاهدين المسلمين. وبالرغم من انتفاء الدليل الموثّق إلى أن الأميركيين موّلوا الإخوان في شكل مباشر في خلال الثمانينيات، فإنه لا يوجد الكثير من الشك في أن إسرائيل والأردن دعمتا الجماعة منذ أواخر السبعينيات. وبالرغم من أن الدولة اليهودية والأردن العلماني ليسا حليفين بديهيين للإخوان فقد دعماهم لموازنة نظام الأسد ومنظمة التحرير الفلسطينية. وأدركت «السي.آي.إي.» جيّداً المساندة الإسرائيلية والأردنية للإخوان لكنها لم تحاول منعها. وبحسب ما شرحه رئيس مكتب الاستخبارات والأبحاث في الشرق الأدنى: «نعرف عن الإخوان المسلمين...أكثر بكثير مما هو على الورق. ونظرنا إليه نظرة حميدة. عرفنا أنه يمثل مخاطرة، لكن الحياة مخاطرة».[٢] بل إن السفير الأميركي وضع الأمر باستهكام أكبر: «لا أعتقد أن الأمر أزعجنا كثيراً ما داموا يتسببون بالمشاكل للأسد."[٣]

ما إن أصبح الإخوان المسلمون مرتبطين بالمصالح الغربية حتى قررت «الكا.جي.بي.» القضاء على التنظيم في سوريا. ومثل رفعت الأسد، الشقيق الأصغر للديكتاتور السوري، الأداة لتدمير الإخوان. ورعت «الكا.جي.بي.» في ١٩٧١ رفعت لأن في تصرّفه، بوصفه قائد سرايا الدفاع ذات الاعتبار في الجيش السوري، القوة الأكثر تأثيراً في البلاد.[٤] وأقامت «الكا.جي.بي.» أيضاً في السبعينيات

(١) Drefuss, Devil's Game, 199-205.

(٢) مقابلة أجراها روبرت دريفوس مع ديفيد لونغ في نيسان/أبريل ٢٠٠٤، في Dreyfuss, Devil's Game, 202.

(٣) مقابلة أجراها روبرت دريفوس مع تالكوت سيلي في حزيران/يونيو ٢٠٠٤، في Dreyfuss, Devil's Game, 203.

(٤) Andrew and Mitrokhin, World, 198-200.

علاقات مع منظمتين فلسطينيتين: الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وهي بزعامة شخص أرثوذكسي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين-القيادة العامة وهي مجموعة منشقة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكارلوس، ابن آوى، عضو فيها، للعمل ضد الإخوان والبريطانيين والأميركيين.

زوّدت «الكا.جي.بي.» التنظيمين المال والسلاح فيما استغلت حبّ رفعت للترف. ورفعت، على عكس شقيقه الأكبر الانطوائي والمتقشّف، أحب السفر إلى الخارج والترف الغربي واستغل موقعه لجمع ثروة صغيرة. وأقامت سرايا الدفاع، بتوجيه منه، سوقاً أسبوعية في دمشق لبيع بضائع في السوق السوداء هُرّبت من لبنان. وغالباً ما تتم الإشارة إلى رفعت على أنه «ملك السجّاد الشرقي» بسبب مصادرته المتكررة لهذه البضائع بواسطة الميليشيات اللبنانية الخاصة به التي أطلق عليها بشكل مهين اسم «الفهود الوردية».[1] ومن غير المفاجئ أن رفعت الأسد هو الذي قاد في شباط/فبراير ١٩٨٢ الحملة على الإخوان المسلمين. ودكّت سرايا الدفاع التابعة لرفعت، في شباط/فبراير ١٩٨٢، مدينة حماة التي يسكنها ١٨٠ ألف شخص ودارت فيها أعمال الشغب التي أوحى بها الإخوان المسلمين. استمرّ الهجوم ثلاثة أسابيع وأدى في النهاية إلى مقتل ما بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف مقاتل ومدني.[2]

دعمت أجهزة الاستخبارات الغربية، وقد ساقها إلى ذلك خوفها من التغلغل السوفياتي في سوريا، المجموعات المتطرفة وخلقت عن غير قصد ثقافة نظريات المؤامرة وهو بالضبط ما أرادته «الكا.جي.بي.». فقد استغلّت أجهزة الاستخبارات السوفياتية الخوف السائد من التدخل الغربي عن طريق تلفيق مؤامرات تحوكها «السي.آي.إي.» تهدف إلى إطاحة نظام الأسد. وأدى هذا إلى تفاقم هاجس

(١) المصدر السابق، ٢٠٠.

(٢) James Kelly and William Stewart, "Syria: The Proud Lion and His Den," Time, September 5, 1983. يُزعم أن «السي.آي.إي.» دعمت في تلك الفترة نشاط الإخوان المسلمين. أنظر Dreyfuss, Devil's Game, 202-5.

الديكتاتور السوري بأمنه الشخصي. ونتيجة ذلك تولى حرس رئاسي مؤلف من أكثر من ١٢ ألفاً حماية الأسد، يدعمهم ما لا يقل عن ١٥ جهاز استخبارات وأمن تضمّ خمسين ألف موظف إلى جانب عدد أكبر من المخبرين.(١) وبعد عقود من الانقلابات والانقلابات المضادة «وقى» الأسد سوريا من الانقلابات.(٢)

تجاهل كل من «السي.آي.إي.» وجهاز الاستخبارات السرية البريطاني تقارير من مراقبين غربيين بل حتى من ضباطهم في الميدان تطمئنهما إلى أن سوريا ليست على وشك التحول إلى «حمراء.» وقد طعن باتريك سيل في فرضية أن سوريا أوشكت في شكل خطير على أن تصبح دولة تدور في الفلك السوفياتي، مستنتجاً أن «'السي. آي.إي.' قد عبثت بالمنطقة».(٣) وهناك عملاء كثيرون في «السي.آي.إي.» أمثال روبرت باير الذي حاول إقناع رؤسائه بأن مساندة الإخوان المسلمين في سوريا تمثّل سياسة جدية وخطيرة، لكن قيل له: «إن الاخوان المسلمين ليسوا هدفاً لنا».(٤)

(١) Andrew and Mitrokhin, World, 199.

(٢) Baer, Sleeping, 93.

(٣) FO 371/170603, TNA.

(٤) Baer, Sleeping, 95-97.

١٩

عيون أميركا في الشرق الأوسط:
السي.آي.إي. والاستخبارات الإسرائيلية

«لا أعرف أي بلد يمنح مثل هذا التقدير العلني لضابط استخبارات أجنبي».

ـ وليام هود (بشأن التكريم الإسرائيلي لجايمس جيزاس أنغلتون)[١]

بقيت بريطانيا حليفاً وثيقاً للولايات المتحدة بالرغم من الخلافات في وجهات النظر حول السياسة في بعض أقسام الشرق الأوسط؛ بيد أن جهاز الاستخبارات السرّية الإسرائيلي، الموساد، أصبح مصدر «السي.آي.إي.» الأول للاستخبار عن المنطقة وبلدان الكتلة الشرقية إضافة إلى الاتحاد السوفياتي. ويعلّق واينر في كتابه عن تاريخ «السي.آي.إي.» أن «القناة [الموساد] أنتجت الكثير من استخبارات الوكالة عن العالم العربي، لكن بثمن – وهو الاعتماد الأميركي المتزايد على إسرائيل في شرح أحداث الشرق الأوسط. وقد لوّن المنظور الإسرائيلي التصورات الأميركية لعقود تالية».[٢]

كان جايمس جيزاس أنغلتون، رئيس مكافحة التجسس في «السي.آي.إي.»،

(١) William Hood, "Angleton's World," in Myths Surrounding James Angleton: Lessons for American Counterintelligence, ed. William Hood et al. (Washington, D.C.: consortium for the Study of Intelligence, 1994), 10.

(2) Weiner, Legacy, 123.

مهندس هذه العلاقة ورجل الاتصالات الوحيد مع إسرائيل.[١] ولا يمكن تحديد علاقة أنغلتون بإسرائيل بعبارات الأبيض والأسود المطلقة – فهو موالٍ لإسرائيل وللصهيونية، ليس بالتأكيد اقتناعاً مطلقاً بشخص مثل أورد وينغايت، بل بظلال خفية من الرمادي. التزم أنغلتون التحالف الإسرائيلي-الأميركي لكنه توجّس من المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة وكذلك من الأفراد اليهود داخل «السي.آي.إي.» وخارجها معاً. دعم عملية «السي.آي.إي.» القاضية بشراء شركة جمع نفايات أميركية تجمع نفايات السفارة الإسرائيلية ومكتب «بناي بريث» ثم تأخذها إلى الوكالة لفرزها وتحليلها.[٢]

ومع ذلك بقي أنغلتون، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عقود، الحليف الأقرب إلى إسرائيل في واشنطن؛ وكانت لأنغلتون، حتى قبل ١٩٤٨، روابط وثيقة بالمنظمات اليهودية السرّية. وباتت مشاعر إسرائيل حيال ضابط الاستخبارات الأميركي المتحفظ معروضة للجمهور. فعند شمال القدس تماماً، على الطريق العام الذي يربط القدس بتل أبيب، تم النقش على سلسلة من الصخور تمثل نصباً تذكارياً لأبطال الحرب الإسرائيليين الذين قدموا التضحية العظمى لبلادهم. وخُصّصت واحدة من هذه الصخور لجايمس أنغلتون. نُقش على الصخرة بالإنكليزية والعبرية: «جايمس جيزاس أنغلتون. ١٩١٧-١٩٨٧. في ذكرى صديق جيّد.»[٣] وتوجد صخرة مكرّسة بالمثل على تلة تشرف على بوابة يافا على مقربة من فندق الملك داود في القدس وتحمل النقش التالي بالإنكليزية والعبرية والعربية: «في ذكرى الصديق العزيز جايمس (جيم) أنغلتون.»[٤] وقد أزيحت الستارة عن الأخيرة في احتفال

---

(١) Eveland, Ropes, 95; William Colby and Peter Forbath, Honorable Men: My Life in the CIA (New York: Simon & Schuster, 1978), 365, 367.

(٢) Holzman, Angleton, 154.

(٣) Andrew Cockburn and Leslie Cockburn, Dangerous Liaisons: The Inside Story of the U.S.-Israeli Covert Relationship (Toronto: Stoddart, 1991), 15.

(٤) Appendix 21 of Eshed, Shloah.

خاص حضره أعضاء كثيرون حاليون وسابقون في مجتمع الإستخبارات الاسرائيلية لاستذكار حياة حليفهم الأميركي الأكبر.(١)

يعود تاريخ علاقة أنغلتون مع أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية إلى الحرب العالمية الثانية عندما عمل وهو ضابط في «أو.أس.أس.» (مكتب الخدمات الاستراتيجية – الجهاز الأميركي الخفي الأول) مع الشبكات اليهودية السرّية في إيطاليا. وأصبح أنغلتون بعد الحرب صلة الوصل الوحيدة بكل أجهزة الاستخبارات الحليفة وقناة المعلومات الوحيدة مع مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية.(٢)

وصف واحد من أصدقاء أنغلتون المقربين أهمّية هذا الموقع:

إنها وظيفة حساسة إلى حدّ كبير ... من النوع الذي لا تقرأ عنه. كان وهو على ارتباط بالجميع يجعلهم يقدّمون الخدمات إما «للسي.آي.إي.» – أمور لم ترد «السي.آي.إي.» القيام بها مباشرة؛ كما لو أنها لم تقتل أحداً قط، أليس كذلك؟ ـ وإما لغاياته الخاصة. بل إنه أمكنه، على مستوى عادي أكثر، استخدام علاقاته بالاستخبارات الإسرائيلية، التي احتفظ بها لنفسه، كوزن لكل فكرة يريد أن يروّجها في «السي.آي.إي.»، على غرار «مصادري الإسرائيلية تقول لي هذا وذاك،» ولا يوجد من يناقضه لأنه من غير المسموح لأحد غيره التحدث مع الاستخبارات الإسرائيلية. ولطالما تكوّن لدي انطباع بأنه استخدم الإسرائيليين بهذه الطريقة، بتقويلهم أن الروس لم يقطعوا فعلاً مع الصينيين أو أموراً من هذا النوع. وسيسعدون جداً بتقديم أي خدمة له. وشعر فوق ذلك كله أنه يستفيد من شبكات الإسرائيليين وارتباطاتهم في كل مكان وليس داخل الكتلة الشرقية وحسب.(٣)

(١) Dan Raviv and Yossi Melman, Every Spy a Prince (Boston: Houghton Mifflin, 1990), 91.

(٢) Gordon Thomas, Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad (New York: St. Martin's Press, 2007), 37. كتب وليام كولبي، مدير «السي.آي.إي.» الذي أجبر في النهاية أنغلتون على التقاعد، إن أنغلتون شكّل إحدى روابط «السي.آي.إي.» الأولى مع الاستخبارات الإسرائيلية، غير أن هذه العلاقة كانت شخصية جداً وخاصة. أنظر Colby and Forbath, Honorable Men, ٣٦٥.

(٣) Cockburn and Cockburn Dangerous, 42-43.

وشرح زميل سابق لأنغلتون عن اهتمام الأخير بعمله:

> اعتقد جيم أن الممارسة الحقيقية للسلطة في الدول وفي ما بينها تحصل من خلال شبكات من القادة. وهنا تكمن أهمّية وحدة الارتباط. فهي قد عملت من خارج القنوات العادية الأمر الذي أثار بعض الأحيان حقاً حفيظة الناس في وزارة الخارجية. والكثير من ذلك يعود إلى علاقات أُنشئت في خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها تماماً. وهو قد رعى هؤلاء الناس سواء كانوا في الحكم أو خارجه.[١]

كان جايمس جيزاس أنغلتون المحرّك الرئيسي الذي ساهم في صوغ العلاقة بين «السي.آي.إي.» والاستخبارات الإسرائيلية. بدأ التحالف في أيار/مايو ١٩٥١ عندما هيّأ أنغلتون لرئيس الوزراء ديفيد بن غوريون لقاء مدير «السي.آي.إي.» يومئذ والتر بيدل سميث، الذي استضاف من ثم، في وقت لاحق من تلك السنة، العقل الموجّه لمجتمع الاستخبارات الإسرائيلي روفن شيلواه (زاسلاني سابقاً) لوضع مسودة أول اتفاق أميركي-إسرائيلي لتبادل المعلومات الاستخبارية.[٢] وعلى عكس الاعتقاد الشائع تم هذا الاتفاق في البداية بشكله الشفهي فقط من دون أي عقد خطّي.[٣] وقام أنغلتون برحلته الأولى إلى إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر من تلك السنة – وهي بداية حجّ سنوي سيستمرّ طوال حياته المهنية.[٤]

صاغت المحرقة موقف أنغلتون حيال إسرائيل كما أن موقفه تأثر بنجاح الشبكات اليهودية السرّية. وخدم، بعدما جنّده قسم مكافحة التجسس في «الأو.أس.أس.» في ١٩٤٣، لفترة قصيرة في بريطانيا لكنه أمضى معظم الحرب في إيطاليا. وكان من بين أفضل مصادره عملاء فلسطينيون يهود تمكنوا بعد انتهاء الحرب في أوروبا من تهريب

(١) المصدر السابق، ٤٣.

(٢) Black and Morris, Secret Wars, 169.

(٣) Yossi Melman and Dan Raviv, Friends in Deed: Inside the U.S.-Israeli Alliance (New York: Hyperion, 1994), 61.

(٤) Cockburn and Cockburn, Dangerous, 41; Melman and Raviv, Friens, 63.

الآلاف من أنسبائهم الأوروبيين المضطهدين إلى فلسطين عبر شبكات للتهريب في إيطاليا.(١) وبالرغم من أن أنغلتون أصبح لاحقاً جزءاً لا يتجزّأ من اتفاق ١٩٥١ بين «السي.آي.إي.» والموساد، فقد خشي أن يحمل تدفق مهاجري الكتلة السوفياتية إلى إسرائيل معه جواسيس يسعون إلى التغلغل في الغرب.(٢) وانضمّ عملاء سوفيات بالفعل إلى موجات المهاجرين لكن ارتدّ عدد كبير منهم، أو تم اكتشافهم، أو أثبتوا أنهم غير قادرين على العمل في أي وظيفة استراتيجية مهمة بعد وصولهم إلى إسرائيل.

قضت السياسة السوفياتية في ١٩٤٧ بأن تصبح إسرائيل حليفة للاتحاد السوفياتي لمواجهة محاولات أميركا استخدام الروابط الإسرائيلية مع الطائفة اليهودية في الولايات المتحدة. وباتت استراتيجية «الكا.جي.بي.» تقضي بالتحقق من وجود عدد كبير من عملائها بين اليهود الذين يُسمح لهم بالمغادرة إلى إسرائيل. وكان الأكثر نجاحاً من بين الجيل الأول من العملاء السوفيات الذين تغلغلوا في إسرائيل عالم الأوبئة أفراهام ماركوس كلينبرغ الذي جُنّد في ١٩٤٨ للعمل في الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. وأصبح كلينبرغ لاحقاً واحداً من مؤسسي المؤسسة الإسرائيلية للأبحاث البيولوجية في نيس زيونا (جنوب شرق تل أبيب). واللافت أنه بقي عميلاً ناجحاً للاتحاد السوفياتي على مدى ٣٥ عاماً. وفي ١٩٥٣ أمسك جهاز الأمن الإسرائيلي، «شين بت»، بالعضوين الإسرائيليين في الكنيست، يعكوف ريفتين وموشي سنيه، وهما يُمِرّان معلومات للسفارة السوفياتية عن السياسة الخارجية الإسرائيلية.(٣) وكلاهما عضوان في المابام، الحزب الماركسي الصهيوني الإسرائيلي، وقد أدت المعلومات التي أمرّاها إلى السوفيات إلى تأكيد شكوك موسكو في الطبيعة الخاصة للعلاقة الإسرائيلية ـ الأميركية. واخترقت «الكا.جي.بي.» في الخمسينيات الموساد نفسه عبر خدمات زئيف أفني الديبلوماسي الإسرائيلي والعميل للموساد.

---

(١) Raviv and Melman, Spy, 78.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كان ريفتين عضواً في لجنة السياسة الخارجية والأمن في الكنيست. أنظر Andrew and Mitrokhin, World, 225.

وفي الفترة نفسها التي تم فيها الإمساك بأفني تقريباً، جندت «الكا.جي.بي.» يسرائيل بير أستاذ التاريخ العسكري في جامعة تل أبيب والمعلّق العسكري والمُقدّم الاحتياطي في الجيش الإسرائيلي. أصبح بير صديقاً مقرّباً إلى شمعون بيريز ثم نائباً لوزير الدفاع. وأمكن لبير، إلى حين كشفه كعميل للسوفيات، أن يزوّد أسياده بمحاولات بيريز السرّية في ١٩٥٧ الحصول على المساعدة من ألمانيا الغربية وشراء غواصات ألمانية تم ترميمها. والمرجّح أكثر ما يكون أن بير هو الذي سرّب الخبر إلى الإعلام وكاد ما نتج منها من استهجان أن يُجبر بن غوريون على الاستقالة. وأُمسك به بعد ذلك بفترة قصيرة، في ١٩٦١، ثم حُكم عليه، بعد ذلك بسنة، بسبع عشرة سنة سجناً لكنه توفي بعد أربع سنوات على سجنه.[١]

لم يحقق أي من اليهود السوفيات أو الإسرائيليين، في الستينيات، أي أمر له قيمة كما فعل أفني وبير، إلا أن أنغلتون بقي حذراً في شأن ضعف سكان إسرائيل المهاجرين ممن لا يمكن تقفي خلفياتهم في ما وراء الستار الحديدي. ويبرز تقرير من السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية هذه المخاوف إذ حذّر من أن:

> المشكلة الدائمة التي قُدّر لإسرائيل بموجب طبيعتها بالذات أن تواجهها ... [هي أنها] بلاد مهاجرين لا يُعرف في حالات كثيرة شيء عن أصولهم وماضيهم إلا ما يكشفونه بأنفسهم. وقد أشير إلى أن مئات الناس ممن هم في مراكز المسؤولية يمثّلون من الناحية النظرية المخاطر نفسها التي مثّلها بير.[٢]

بالرغم من هذا العائق لم يمكن لا لأنغلتون ولا لكبار قيادة «السي.آي.إي.» أن يتجاهلوا المساعدة الاستخبارية الإسرائيلية. فقد جمعت الموساد من الدفق الثابت للاجئين اليهود الذين جعلوا طريقهم إلى إسرائيل كمية كبيرة من الاستخبارات عن قوى حلف وارسو وأرسلتها إلى واشنطن من خلال أنغلتون.[٣] ولما ألقى زعيم

(١) المصدر السابق، ٢٢٩.

(٢) من السفارة في تل أبيب إلى وزارة الخارجية البريطانية، ١٧ نيسان/أبريل ١٩٦١، FO 371/1546, TNA.

(٣) John Ranelagh, The Agency: The Rise and Decline of the CIA (New York: Simon & Schuster, 1978), 286; Hersh, Old Boy, 359.

الاتحاد السوفياتي نيكيتا خروتشوف خطابه في شباط/فبراير ١٩٥٦ أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ودان فيه تجاوزات ستالين، تمكّنت الموساد من تسليم نسخة منه إلى أنغلتون في نيسان/أبريل ١٩٥٦ فأمرّه بدوره إلى ألن دالاس الذي أقرّ بالجميل.(١)

حصل فيكتور غرايفسكي، الصحافي اليهودي البولندي الذي يمتلك حسّاً قوياً من الصهيونية، على نسخة غير رسمية من الخطاب من أحد سكرتيري مكتب رئيس الحزب الشيوعي البولندي إدوارد أوشاب. وبدلاً من بيع الخطاب للأميركيين أو لأي قوة غربية أخرى، اختار غرايفسكي أن يقدّم النسخة هدية إلى إسرائيل.(٢) وسمح غرايفسكي لأحد الديبلوماسيين الإسرائيليين بتصوير الصفحات الخمسين كلّها فوتوغرافياً قبل أن يعيدها. ولما حطّ الخطاب، بعد ذلك بأيام قليلة، على مكتب بن غوريون دعا إلى اجتماع طارئ لكبار مسؤوليه وقرر تسليم الخطاب «إلى السي. آي.إي.»، موطّداً بذلك التحالف وصائغاً روابط أكثر وثوقاً مع وكالة الاستخبارات الأميركية.(٣) وقد تحرّك الإسرائيليون في الوقت المناسب إذ إن نائب مدير «السي. آي.إي.» للتخطيط، فرانك ويسنر، قد استحصل من نسخته عن الخطاب من الفرنسيين.(٤)

غير أن الأمور لم تسر في اتجاه واحد، إذ إن أنغلتون، بحسب محمد هيكل، ردّ بإمرار معلومات حيوية ساعدت الإسرائيليين على تطوير برنامجهم النووي، وكان في أقل الأحوال صوتاً قوياً ونافذاً يدعم إسرائيل في واشنطن.(٥) وكان هيكل مساعداً مقرّباً من عبد الناصر ولا يكن الكثير من المودّة لأنغلتون أو لإسرائيل، لكن من المؤكد أن رئيس مكافحة التجسس المتحمّس في «السي.آي.إي.» أعطى الموساد

---

(١) استحصل الإسرائيليون على النسخة من أحد عملائهم في بولندا. أنظر Hersh, Old Boys, ٣٨١.

(٢) Melman and Raviv, Friends, 67.

(٣) المصدر نفسه، ٦٨.

(٤) Cockburn and Cockburn, Dangerous, 63.

(٥) Heikal, Lion's Trail, 86.

شيئاً في المقابل. ويطرح مايكل هولزمان في سيرة حياة أنغلتون الأخيرة سيناريوهاً مثيراً للاهتمام:

أقام الإسرائيليون، أول نصب في أثر وفاة أنغلتون، ويمكن اعتبار أن النصب العام هو لتخليد علاقته العملانية الطويلة مع أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية. أما الثاني، وهو النصب ذو الموقع الغامض، فربما اعتُبر، جزئياً، تخليداً لخدمة محدّدة جداً قام بها أنغلتون: وهي المساعدة التي قدمها للقنبلة الذرية الإسرائيلية.(١)

ما يؤكّده هولزمان ليس بعيداً جداً عن التصديق إذا أُخذ في سياق الحرب الباردة. فأنغلتون، فوق كل شيء، عدو لدود للشيوعية، ومن المنطقي بالنسبة إليه، أو لأي من الإدارات التي خدمها، الخوف من ضربة سوفياتية لإسرائيل. وربما مثل إمرار تكنولوجيا الأسلحة، في ظل هذه الظروف، جزءاً من استراتيجية أميركا الرادعة وليس بالضرورة من عمل أنغلتون الموالي لإسرائيل لوحده.

وإذا لم يعط أنغلتون إسرائيل أسراراً أميركية علمية سرّية فلا بد أنه، في أقل تقدير، استخدم نفوذه الكبير داخل «السي.آي.إي.» باسم الدولة اليهودية. ومثّلت، بالإضافة إلى ذلك، حساسية البيت الأبيض في عهد ترومان حيال الصوت اليهودي عاملاً آخر في السياسة الأميركية تجاه الشرق الأوسط. ومن جهة أخرى، حاولت إدارة أيزنهاور، التي أعقبت إدارة ترومان، أن تضمن في الأساس تحالفات مع الدول العربية ولم تكن ميّالة إلى دعم إسرائيل، لكن هذه السياسة تغيّرت بعد بضع سنوات.(٢)

لم يمنع بروز أنغلتون بوصفه الحليف الرئيسي لإسرائيل في واشنطن الإسرائيليين من محاولة التلاعب برئيس مكافحة التجسس في «السي.آي.إي.». فقد أفادت

---

(1) Holzman, Angleton, 163-64.

(٢) Sachar, History of Israel, 312, 460-61; Christison, Perceptions of Palestine, 67, 96-99. لم يكن أيزنهاور مؤيداً جداً للعرب ولاحقاً لإسرائيل بقدر ما كان معادياً للشيوعية. وقد لوّن الخوف من النفوذ السوفياتي في المنطقة سياسة إدارته حيال الشرق الأوسط، أنظر Christison, Perceptions, 98-99.

برقية من الملحق العسكري في السفارة الأميركية في تل أبيب في ١٩٥٦ أن إسرائيل عبّأت احتياطيّيها، كذلك بعث كرميت روزفلت بمعلومات مماثلة إلى دالاس. وجاء تحذير آخر من لندن، وتوقّع نائب مدير «السي.آي.إي.» للاستخبارات روبرت أموري هجوماً في غضون ٢٤ ساعة.[١]

دعا ألن دالاس إلى اجتماع للجنة المراقبة في «السي.آي.إي.»، فالتأمت بعد ساعة من ذلك في مكتب دالاس. واستذكر أموري:

> اندفع جايمس أنغلتون في تلك اللحظة خارجاً من الحمّام الذي يربط مكتب ألن بباب مكتب نائب المدير المجاور. وكنا نستخدمه لمنع زوّار المدير من التقاء بعضهم بعضاً في الخارج. فأنت لا تريد لرئيس الاستخبارات الباكستاني، على سبيل المثال، أن يلتقي وهو خارج نده الهندي. على أي حال جاء أنغلتون مندفعاً وقال: «يمكنني التشكيك في ما يقوله أموري. لقد أمضيت الليلة الفائتة مع أصدقائنا وأكدوا لي أنهم يقومون وحسب بإجراءات وقائية في مواجهة الأردنيين.» بيد أن ذلك أغضبني. وقلت لألن: «إن دافعي الضرائب ينفقون عليّ ١٦ ألف دولار في السنة كنائب للمدير لأزوّدك أفضل الاستخبارات المرتكزة على دلائل متوافرة. فإما أن تصدّقني وإما أن تصدّق العميل الذي استماله الإسرائيليون هنا»، وأشرت إلى أنغلتون.[٢]

يمكن أن يكون هذا أقسى ما قاله أموري عن أنغلتون بحضور رئيس «السي.آي.إي.». غير أن دالاس وثق بأنغلتون وعندما هاجمت إسرائيل مصر في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦ اعتبر دالاس العدوان مجرّد عمل استطلاعي. غير أنه سرعان ما تبيّن أن الإسرائيليين يتحرّكون ضد مصر وأُخذ دالاس و«السي.آي.إي.» على حين غرّة. وأصيب أنغلتون بالإحراج عندما شرعت إسرائيل في اجتياح سيناء والاستيلاء على قناة السويس كجزء من المؤامرة الثلاثية مع بريطانيا وفرنسا. ولاحظ

(١) Holzman, Angleton, 162.

(٢) Cockburn and Cockburn, Dangerous, 65.

أحد زملاء أنغلتون: «تمكّن الإسرائيليون في تلك المرة من الإفلات من كذبهم على جيم. ولا أعتقد أنهم عاودوا ذلك.»(١) لكن، وبحسب رودري جيفري-جونز، «حصل الكثير من التخمين في شأن هذا الفشل الاستخباري المفترض. فعلى سبيل المثال يتهم بعضهم أنغلتون ... بإخفاء بعض المؤشّرات على الهجوم لأنه يتعاطف مع أهدافه، فيما يفيد آخرون أنه غضب جدّاً لإخفاء أصدقائه الإسرائيليين الأمور عنه. لكن ثمة بعض من الشك في شأن هل «السي.آي.إي.» أُخذت فعلاً في غفلة من أمرها.»(٢)

ليست هذه بالمرة الأولى التي يتوتّر فيها التحالف الأميركي-الإسرائيلي. فقد حدّدت «الأف.بي.آي.» في فترة ١٩٥٢-١٩٥٣ أن الموساد ومديرية الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، «أمان»، يقومان بنشاطات تجسس على الأرض الأميركية. وأُمسك بالديبلوماسي الإسرائيلي إلياشيف بن-هورين وهو يحاول تجنيد ديبلوماسيين عرب للتجسس على بلدانهم. وبالرغم من أن هذا يمثل ممارسة نموذجية لعملاء الاستخبارات الإسرائيلية في العواصم الغربية، فإنه لم يرق مضيفيهم الأميركيين. وحققت العملية الإسرائيلية أبعاداً أشبه بالنكبة عندما ادعى الملحق العسكري الأردني أنه يوافق على تجنيده لكنه أفاد «الأف.بي.آي.» عن نشاطات الموساد. وأنقذ فريق المراقبة التابع «للأف.بي.آي.» لاحقاً الأردني من بن-هورين الذي يحمل مسدّساً بعدما استفزّه الأردني في جدال داخل أحد المطاعم. طُرد بن-هورين من البلاد ومُنع من العودة إلى الولايات المتحدة لسنوات لاحقة بالرغم من سيرته الناجحة كديبلوماسي بما في ذلك الفترة التي أمضاها سفيراً في ألمانيا. واشتبهت «الأف.بي.آي.» أيضاً في محاولة الملحق العسكري الإسرائيلي في واشنطن العقيد حاييم هيرتزوغ سرقة تكنولوجيا دفاعية، غير أنه تُرك وشأنه بسبب ضعف الدليل

(١) المصدر السابق، ٦٧.

(٢) Rhodri Jeffrey-Jones, The CIA and American Diplomacy (New Haven Yale University Press, 1989), 108-9.

ضده ولأن فترة عمله في السفارة شارفت النهاية.[١] ورُقّي لدى عودته إلى إسرائيل إلى رتبة جنرال وعُيّن رئيساً لـ«أمان.»

أخذ أنغلتون، منذ بداية اتفاق التعاون الاستخباري، يجتمع بانتظام مع ميمي دي شاليط ضابط الاستخبارات الإسرائيلي غير الرسمي وشبه العامل في واشنطن في ١٩٥١. وعُيّن شاليط الرابط الرسمي مع «السي.آي.إي.» وقد طوّر صداقة طويلة الأمد مع أنغلتون الذي يتشارك معه في تاريخ المولد نفسه وهو التاسع من كانون الأول/ديسمبر (سيتبادل الاثنان بطاقات المعايدة على مدى عقود). واستذكر شاليط: «أثار جيم إعجابي. بدا منعزلاً يعمل بحذر شديد واحتراس.» وقد عقد شاليط معظم اجتماعاته مع أنغلتون في منزله في جادة ماساتشوستس، وأحياناً في المطاعم. واستذكر اجتماعاته: «كان يأتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع في المساء الباكر إلى منزلي وغالباً ما يبقى حتى ساعات الصباح الأولى. وحصل غير مرة أن اتصلت زوجته سيسيليا هاتفياً قرابة الرابعة فجراً لتعرف إذا كان الاجتماع لا يزال مستمرّاً أم لا.»[٢]

استقرّ التحالف السرّي بين البلدين، بالرغم من التوتّرات الأولى، على علاقة منتجة ومتبادلة، وأخذت اجتماعات أنغلتون مع شاليط تؤتي ثمارها. وتقدّم أنغلتون، من وقت إلى آخر، بطلبات وسأل أحياناً عن خدمات ليس في مقدور «السي.آي.إي.» توفيرها. وعلى ما يتذكّره شاليط، «فقد طلب إلينا مرّة إذا أمكننا أن نوفّر له عملة ذهبية. فالحصول على العملات الذهبية بالنسبة إليهم [«السي.آي.إي."] ليس بالمسألة السهلة. أما بالنسبة إلينا فهي سهلة جداً. استحصلنا عليها من أصدقاء في أوروبا وأعطيناها إلى الأميركيين [ليدفعوا بواسطتها لعملائهم في ما وراء الستار الحديدي].»[٣] وسأل أنغلتون في مناسبة أخرى إذا كان في إمكان الاستخبارات الإسرائيلية إيجاد عمل لعازفة موسيقى هي زوجة سوفياتي منشق بغية

(١) Melman and Raviv, Friends, 64.
(٢) المصدر نفسه، ٦٢-٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ٦٥.

إبقاء الرجل سعيداً واستمرار فك عقدة لسانه. وأراد من الموساد الطلب إلى عازف كمان يهودي مشهور جداً في حلبة الموسيقى الدولية تقديم خدمة وتوظيف المرأة، غير أنه وبالرغم من الجهود الإسرائيلية وجد عازف الكمان أن زوجة المنشق لا تتمتع بالمهارة المطلوبة. وفي المقابل ساعدت «السي.آي.إي.» إسرائيل بإعطائها معدات تجسس: أدوات تنصت، أجهزة تلق، وأجهزة بث تُركّب عند الحدود السورية لبث المعلومات الكاذبة. كذلك استضافت «السي.آي.إي.» موظفي الاستخبارات الإسرائيلية للتدريب في لانغلي.[1]

تميّز الإطار العام للتحالف بالبساطة: يحصل مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي على التدريب والتكنولوجيا في مقابل الاستخبارات عن الكتلة السوفياتية.[2] وتضمّنت الاستخبارات التي وفّرتها إسرائيل حيّزاً من المواضيع عن الاتحاد السوفياتي. وأثمر برنامج سرّي جداً للشاباك، من خلال التحقيق مع الدفق المستمر من المهاجرين إلى إسرائيل من الكتلة السوفياتية، معلومات حيوية عن مواضيع تراوح بين المنشآت العسكرية والأوضاع الاقتصادية ومعنويات المواطنين السوفيات. وعلى ما يستذكره تيدي كوليك:

> تحدّث جماعتنا المهاجرون وترجموا ما قيل لنا إلى الإنكليزية وأعطوا المادة للأميركيين. اهتمّت «السي.آي.إي.» بأي كسرة معلومات من الكتلة الشرقية، من سعر الخبز ومواعيد القطارات إلى وصف طوابير الناس التي تنتظر دخولها إلى متاجر الأغذية.[3]

قدّر كوليك أن ربع المعلومات كلها عن السوفيات التي استحصل عليها الأميركيون في خلال الخمسينيات من القرن العشرين جاء من الاستخبارات الإسرائيلية.[4] وفي إظهار للامتنان استضافت «السي.آي.إي.» في ١٩٥٢ عدداً من كبار ضباط

---

(١) المصدر نفسه، ٦٦.
(٢) Eshed, Shiloah, 167.
(٣) Melman and Raviv, Friends, 62, 169.
(٤) المصدر نفسه، ٦٢.

الاستخبارات الإسرائيلية في دورة تدريب على التقنيات المعاصرة للاستخبار والتجسس.[١] بل حصل الإسرائيليون على المساعدة من رئيس الاستخبارات النازية السابق رينهار غهلن بوصفه رئيساً لـ«البي.أن.دي.». وقدّمت الـ«بي.أن.دي.» بعد حرب سيناء التدريب وساعدت على تغلغل العملاء الإسرائيليين. وقدّم الألمان أيضاً للإسرائيليين مشورة الخبراء في تنظيم أجهزة الاستخبارات وتطويرها.[٢]

بيد أن العلاقة الأساسية أقيمت مع الولايات المتحدة وتقاسم الإسرائيليون المغانم مع أصدقائهم في مؤسسة الاستخبارات الأميركية. فقد تمكّنت الاستخبارات الإسرائيلية في ١٦ آب/أغسطس ١٩٦٦ من الحصول على طائرة ميغ-٢١ السوفياتية وقدّمتها إلى حلفائها في «السي.آي.إي.». فوجئ الأميركيون وابتهجوا بفرصة حصولهم على فهم ثاقب للقدرات الجوية للكتلة السوفياتية. بدأت فصول العملية في أواخر ١٩٦٤ عندما أبلغ «يوسف»، وهو تاجر يهودي عراقي، المسؤولين الإسرائيليين أن شقيقة صديقته متزوجة طياراً في سلاح الجو العراقي اسمه منير روفا لديه مصلحة في الهروب بالميغ لأنه محبط من التمييز الذي يواجهه بوصفه مسيحياً. إلا أن روفا خاف على عائلته لمعرفته بأنها ستواجه عقاباً أكيداً بل ربما الموت على أيدي جهاز الأمن العراقي. تمكّن الإسرائيليون، من خلال التخطيط الواسع وبمساعدة من المقاتلين الأكراد، من تهريب عائلة روفا من العراق. وبعد ذلك انطلق روفا بطائرته الميغ من العراق وحطّ بها في إسرائيل. واستقر وعائلته تحت اسم جديد ومن المرجّح أنهم لا يزالون في مكان ما في إسرائيل.[٣]

وفي مناسبة أخرى زوّدت إسرائيل الولايات المتحدة محطة رادار سوفياتية كاملة استولى عليها الإسرائيليون من العرب بعد بضعة أشهر على حرب سيناء. وسبق «للسي.آي.إي.» أن طلبت من نظرائها الإسرائيليين تزويدها نماذج عن المعدات

---

(١) Black and Morris, Secret Wars, 169.

(٢) المصدر نفسه، ١٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢٠٧-٩.

العسكرية السوفياتية التي استولى عليها الجيش الإسرائيلي.[١] وكان الكوماندوس الإسرائيليون أغاروا في أيلول/سبتمبر ١٩٦٩ على محطة رادار على الجانب الآخر من قناة السويس وسرقوا المحطة كلها – وهي الأكثر تطوراً في التكنولوجيا السوفياتية. رفعت أربع طائرات هليكوبتر المحطة ثم نُقلت جواً وهي مفكّكة إلى الولايات المتحدة ليتم تفحصها من كثب. وكان الرادار من النموذج نفسه الذي تستخدمه القوات الفيتنامية الشمالية ووفّر ذلك مساعدة لا تقدّر بثمن للقوات الأميركية المقاتلة في فيتنام.[٢]

وحصلت ضربات موفقة أخرى، وإن أقل قيمة، خدمت المصالح الأميركية كما الكندية. فقد تمكنت الاستخبارات الإسرائيلية، على سبيل المثال، من كشف جاسوس سوفياتي نائم في شرطة الخيالة الملكية الكندية. ففي ١٩٥٩، عُيّن روي غيدون ضابط استخبارات في السفارة الكندية في موسكو. وقد حاول مرات عديدة إقامة علاقات مع نساء السفارة ولم يفلح مما لفت إليه انتباه الاستخبارات السوفياتية. وهيأت «الكا.جي.بي.» له «فخّاً معسولاً» هو عبارة عن عميلة شابة وجميلة أطلقت على نفسها اسم لاريسا فيديروفنا دوبانوفا. وهيأت «الكا.جي.بي.» لغيدون أن يلتقي دوبانوفا في ما يشبه المصادفة في مسرح البولشوي للباليه وعاش الاثنان علاقة على مدى عدة أشهر إلى أن أخبرته بأنها حامل. وأُجبر غيدون، بعد زواج متعجّل غير شرعي، على تزويد السوفيات الرموز الديبلوماسية الكندية بل حتى زرع أجهزة تنصت في سفارته، وذلك بتهديده بأنه لن يتمكن أبداً من رؤية دوبانوفا. واستمرّ غيدون في التجسس للسوفيات بعد نقله إلى واشنطن في مقابل زيارات غير متكررة مع زوجته – التي لم تلد أي طفل بعد عملية إجهاض مزعومة. وكُشف غيدون بعد نقله إلى السفارة الكندية في تل أبيب حيث تنصّتت الشاباك على هاتفه كما هي الحال مع معظم الديبلوماسيين الأجانب الآخرين في إسرائيل. وأبلغت الاستخبارات الإسرائيلية «الأم.آي٦» بالأمر بعد استماعها إلى محادثات غيدون المتهوّرة مع

(١) Melman and Raviv, Friends, 89.

(٢) المصدر نفسه، ١٥٤.

مشغّله السوفياتي، وتشاطر البريطانيون بدورهم هذه المعلومات مع شرطة الخيالة الملكية الكندية التي استدرجت غيدون بحجة ما للعودة إلى الديار واعتقلته. وقد تفادى المحاكمة والسجن في مقابل الاعتراف الكامل والتعاون.(١)

عندما تمكّنت الاستخبارات الإسرائيلية من كشف الهوية الحقيقية لكيم فيلبي، أشهر الجواسيس الذين زرعهم السوفيات في جهاز الاستخبارات السّرية البريطانية، «أم.آي٦»، مهدت في نهاية الأمر لتحسين العلاقات بين لندن وتل أبيب. فقد التقى كوليك فيلبي في مقر «السي.آي.إي.» في لانغلي عندما اجتمع ضابط الاستخبارات الإسرائيلي للمرة الأولى مع أنغلتون وقد حذّره حينئذ من ميول فيلبي اليسارية التي ظهرت عندما تعارف الاثنان في استراليا في الثلاثينيات من القرن العشرين (وهو جزء من ماضي فيلبي أخفاه عن أرباب عمله في «أم.آي٦»). كذلك تلقت الاستخبارات الإسرائيلية معلومات من امرأة يهودية بريطانية، حاول فيلبي في الأربعينيات من دون نجاح تجنيدها في الاستخبارات السوفياتية. فقد زلّ لسان المرأة بالمعلومة في حفل كوكتيل في أثناء زيارتها إسرائيل في ١٩٦١. وبالرغم من أن التحذير ذهب أدراج الرياح بعد ارتداد فيلبي، فإن هذا التحذير من الاستخبارات الإسرائيلية أثار مع ذلك إعجاب موريس أولدفيلد، وكان يومئذ نائباً لرئيس «أم.آي٦»، وبيتر رايت، نائب رئيس «أم.آي٥». وأدى هذا التقدير الجديد لقدرات الاستخبارات الإسرائيلية إلى توقيع اتفاق رسمي بريطاني-إسرائيلي على تبادل المعلومات الاستخبارية شبيه بالاتفاق الموقع مع الولايات المتحدة.(٢)

تطلّبت العلاقة مع مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية بروتوكولاً خاصاً. فقد عُين جون هادن رئيساً لمحطة «السي.آي.إي.» في تل أبيب واستحصل على درجة من الخبرة في المهارة المناقضة للتوقعات والمعقدة التي يستلزمها الاتصال مع الاستخبارات الإسرائيلية. ووصف هادن الاستخبارات الإسرائيلية-الأميركية بأنها

(١) المصدر السابق، ١٥٤.

(٢) Raviv and Melman, Spy, 93-94.

بعيدة كل البعد عن «لعبة الورق» أو مبادلات الشيء بالشيء بين أجهزة الاستخبارات الصديقة مثل تلك الموجودة بين البريطانيين والألمان الغربيين التي تنتهي في النهاية إلى قيام كل واحد بإعطاء الآخر ما يريده. أما الاجتماعات مع الإسرائيليين فهي بحسب هادن «جنون». ويستذكر خضوعه للدقائق الخمس والأربعين من الخطاب اللاذع الذي يتحدّث فيها الإسرائيليون عن سلسلة من التهديدات الخطيرة لأمن إسرائيل ويقدّمون بياناً بالمعدات العسكرية والاستخبارية التي يحتاجون إليها للتغلب على هذا التهديد. «يا للهول!» يستذكر هادن بإحباط، «فها أنت في كرسيك وهم يصرخون بعيداً وراءك! أمر شائن تماماً! إنهم يطلبون القمر!»(١)

قضى أسلوب هادن في التعامل مع الإسرائيليين، الذي نصح به أنغلتون وغيره من المفاوضين الأميركيين، بالاستماع باحترام وبالاعتناء بتدوين الملاحظات، ومن ثم التحدث لخمس وأربعين دقيقة عن الموقف الأميركي من دون السماح بمقاطعته. وسيتجاهل الأميركيون في غضون ذلك كل ما قاله الإسرائيليون ويبذلون أفضل ما في وسعهم ليكونوا على القدر نفسه من الشناعة. ومن ثم يسير الطرفان براحة وبطء في اتجاه الاتفاق. وفيما أدت الأحاديث الإسرائيلية الصاخبة والمناجاة الفردية إلى إغضاب بعض المفاوضين الأميركيين، شعر هادن بالتسلية وحسب ونصح زملاءه بالقول: «تمسّكوا بقبعاتكم وحسب وقوموا بالرحلة!»(٢)

أوصى هادن أيضاً خليفته في مركز «السي.آي.إي.» في تل أبيب «بتعلّم العبرية. سيخاف منك أقرانك في المهنة، غير أن الإسرائيليين العاديين سيتحدثون بحرّية أكبر. وهذا هو المهم بالنسبة إلى رجل الاستخبارات.» وحث ضباط «السي.آي.إي.» على عدم السقوط في فخّ الديبلوماسيين الأميركيين الآخرين الذين عشقوا الإسرائيليين وبلادهم ووجدوا أنفسهم غير قادرين على مواجهتهم. وأضاف هادن:

بغض النظر عن حقيقة شعورك فإنك لن تصل مطلقاً إلى أي مكان إلا إذا كنت

---

(١) مقابلة مع هادن كما وردت في Melman and Raviv, Friends, 127-29.

(٢) المصدر نفسه.

واحداً من أصدقائهم. ... وستكون عديم الفائدة لحكومة الولايات المتحدة إذا لم تخصص جزءاً من دماغك لتكون ودّياً وتشاطرهم اهتماماتهم. فعندما تكون في هامبورغ، تُبحر، وعندما تكون في النمسا، تتزلّج. أما عندما تكون في إسرائيل، فتحفر.[١]

وهو سيقترح بالفعل على ضباط «السي.آي.إي.» المتمركزين في إسرائيل أن يهتموا بعلم الآثار، ملاحظاً أن الإسرائيليين يستهويهم ماضيهم. غير أنه حذّر من أن التعيين في تل أبيب مُحطّم للسيرة المهنية لأن العمل في إسرائيل يستبعد العمل في أي بلد عربي. وقال إن عليهم أن يستعدوا لإقامة طويلة لأنه «سيستغرق أكثر من سنتين ليدرك الإسرائيليون أنك لا تعمل للاستخبارات السعودية.» وبالرغم من أن معظم الإسرائيليين يحبون الثرثرة فإنه لا يمكن قول الشيء نفسه عن عملاء استخباراتهم: «لن تعاملك الموساد [وأمان] بوصفك حليفاً، حتى ولو جعلت بعض الإسرائيليين يعدونك فرداً من العائلة.» ووصف هادن إسرائيل بأنها ليست أرضاً حليفة مثل بريطانيا ولا أرضاً عدوّة مثل ألمانيا الشرقية.[٢] واشتكى في النهاية من عدم وجود الكثير للقيام به في تل أبيب لناحية عمل الاستخبارات «بما أن واشنطن مهتمة بمحاباة الروس فقط.،» وأن العدد القليل من الجواسيس السوفيات في إسرائيل قد «استقطبتهم تماماً أجهزة مكافحة التجسس الإسرائيلية.»[٣]

ذهب التحالف بين الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية إلى ما هو أبعد كثيراً من تبادل الخدمات التكنولوجية والحرفية. فقد عملت إسرائيل، بطلب من «السي.آي.إي.» التي لم ترد التورّط مباشرة في الأمر، كمدرّب وبائع أسلحة دعماً لبعض أكثر أنظمة العالم وحشية ولكنها صديقة لأميركا. ففي سياق عملية «كي.كي. ماونتن» في الستينيات من القرن العشرين حصل الإسرائيليون على ١٠ إلى ٢٠ مليون دولار في السنة لتمويل القيام بمهمات حساسة «للسي.آي.إي.» أو أي وكالة استخبارات

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه، ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ١٢٣-٢٥.

أميركية غيرها.[١] وتضمّن جزء من هذه المهمات تدريب الجيش والشرطة السرّية في دول إفريقية وأميركية جنوبية مختلفة إضافة إلى فرق الموت التابعة لكارتل مديلين وهو كان قبل تدميره أكبر كارتل للمخدرات في العالم.[٢]

سبقت ذلك كله عمليات التدريب والأسلحة التي وفّرتها إسرائيل والولايات المتحدة للقوات المسلحة وأجهزة الأمن التابعة لشاه إيران. وفي مراجعة سرّية وضعتها «السي.آي.إي.» في ١٩٧٦ واستولى عليها الطلاب الإيرانيون في إبان ثورة الخميني، أفادت «السي.آي.إي.»:

> أقامت الموساد في أواخر ١٩٥٨ ارتباطاً ثلاثياً رسمياً يدعى «تنظيم الحربة ذات الرؤوس الثلاثة» مع جهاز الأمن الوطني التركي (تي.أن.أس.أس.) وجهاز الاستخبارات الوطني الإيراني (سافاك) ... يتضمّن هذا التنظيم الثلاثي تبادل الاستخبارات إضافة إلى اجتماعات نصف سنوية على مستوى رؤساء الأجهزة.[٣]

وارتبطت إسرائيل وإيران، قبل هذا التحالف الذي ضمّ تركيا، بعلاقة مستمرة. ففي ١٩٥٠ اشترت إسرائيل من الشاه اعتراف الأمر الواقع الديبلوماسي بها لقاء ٤٠٠ ألف دولار. وبدأ في ١٩٥٤ العمل في برنامج مشترك لتبادل الخدمات بادلت فيه إيران النفط بالخبرة الإسرائيلية في الاستخبارات والدفاع والأمن الداخلي.

رأى شاه إيران في إسرائيل بوابة عبور إلى الغرب. وبحسب حاييم هيرتزوغ، وقد تولّى حينئذ رئاسة «أمان»، اعتقد الشاه أن كل إسرائيلي يمثل رابطاً مع واشنطن. ويستذكر ديفيد كيمحي، المسؤول الكبير السابق في الموساد والمدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية: «أخذ الشاه يتصل في كل مرة يصدر فيها موضوع مناوئ لإيران في أي صحيفة في الولايات المتحدة أو حتى في أوروبا، ويقول، 'لماذا

(١) Cockburn and Cockburn, Dangerous, 100-101.
(٢) المصدر نفسه، ٢١٢-١٥.
(٣) المصدر نفسه، ١٠٠.

سمحتم لهذا بالحدوث؟' وكنا نحاول عبثاً إثبات براءتنا قائلين إننا لا نسيطر على كامل وسائل الإعلام في العالم، ولا نسيطر على المصارف كما يعتقد بعض الناس ذلك.»[١]

أخذت أجهزة الأمن الإسرائيلية، بعد ذلك بوقت ليس بالطويل، في العمل كقناة ومن ثم كوكيل «للسي.آي.إي.» من أجل إنشاء جهاز استخبارات وأمن فعال للشاه. وأنشأت «السي.آي.إي.» نتيجة ذلك السافاك في ١٩٥٧ بمساعدة فاعلة من ألمانيا وإسرائيل.[٢] نُظّمت السافاك في عدّة مكاتب: تعاطى المكتب الثاني الاستخبارات الخارجية، وحلّل السابع الاستخبارات، وقام الثامن بعمليات مكافحة التجسس، فيما أنيط الأمن الداخلي بالثالث. وقد استخدمت الولايات المتحدة في هذا المكتب الثالث، الذي اشتهر بوحشيته، خبرة إسرائيل في التدريب. وقد نفت «السي.آي.إي.» أنها درّبت السافاك على التعذيب زاعمة أن الإسرائيليين هم الذين عملوا في «الأمور الصعبة.»

بدأت علاقة الموساد ـ السافاك في خريف ١٩٥٧ في روما عندما التقى عنصر الموساد السابق إيسر هاريل الرئيس الأول للسافاك الجنرال تيمور بختيار.[٣] وبعد ذلك بفترة وجيزة التقى بختيار في أيلول/سبتمبر ١٩٥٧ السفير الإسرائيلي في فرنسا يعقوف زور. اقترح الجنرال الإيراني، متحدّثاً باسم الشاه، التعاون وتبادل وجهات النظر السياسية بين البلدين. والتقى بختيار وهاريل من جديد في تشرين الأول/أكتوبر في روما واتفقا على تعاون استراتيجي أكثر عمقاً. وأصبحت العلاقات الإيرانية ـ الإسرائيلية أكثر وثوقاً بعد انقلاب عبد الكريم قاسم على النظام الملكي في العراق

(١) المصدر السابق، ١٠٠-١٠٢.

(٢) Samuel Segev, The Iranian Triangle (New York: Free Press, 1988), 31. امتلك كامل جهاز الأمن الإيراني الكثير من المنظمين الأجانب. وكشف اثنان من كبار ضباط السافاك لدى محاكمتهما في ١٩٧٩ عقب الثورة، وهما الجنرال منوشهر وجدي ورضا بافاريس، أن الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل وألمانيا ساعدت على إنشاء السافاك والجيش الإيراني. أنظر Segev, Triangle, 43.

(٣) Cockburn and Cockburn, Dangerous, 103-4.

الأمر الذي أدى إلى انسحاب العراق من حلف بغداد وتحالفه مع عبد الناصر.[1] بعد ذلك وصل، في ١٩٦٠، رئيس «أمان» الجنرال حاييم هيرتزوغ في زيارته الأولى إلى طهران واقترح أن تتبادل الدولتان الملحقين العسكريين. وافق الشاه وعيّن بن غوريون يعقوف نمرودي.[2]

مثّل نمرودي خياراً مثالياً لهذا المركز. فضابط «أمان» البدين كان سابقاً عميلاً في «شاي»، الجهاز السابق لمديرية الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، ويتحدث الفارسية والعربية بطلاقة. أقام عميل «أمان» في طهران مدة ١٣ عاماً وحذّر من أنه «سيُسمح لنا في يوم من الأيام أن نتحدّث عن كل ما قمنا به في إيران وسيروعكم الأمر.... لأنه يفوق تصوّركم.» وبالكاد بقي نمرودي بعيداً عن الأضواء، بل على العكس من ذلك أظهر قوته ونفوذه وطبع بطاقات زيارة وعليها لقبه «الملحق العسكري الإسرائيلي،» والتقى كبار المسؤولين الإيرانيين ونال حظوتهم.[3] وغالباً ما تمت في غضون ذلك، في الستينيات من القرن العشرين في إسرائيل، رؤية ضباط الجيش والاستخبارات الإيرانيين الذين بالكاد تمكنوا من البقاء بعيدين عن الأضواء وهم يتلقون تدريباتهم.[4]

اعترف الشاه شخصياً، في مقابلة أجرتها معه في ١٩٧٥ جريدة المستقبل الصادرة باللغة العربية في باريس، بالترتيبات القائمة مع إسرائيل واشتكى من أن عداوة عبد الناصر لإيران لم تترك له الكثير من الخيار. وكشف أن إيران وإسرائيل تتشاركان في التقويمات الاستخبارية وتتبادلان المعلومات المتعلقة بالنشاطات الإرهابية الفلسطينية إضافة إلى الإيرانيين الذين يتلقون التدريبات في قواعد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. واعترف ضابطا السافاك (جهاز الاستخبارات والأمن

---

(١) Segev, Triangle, 32-35.

(٢) المصدر نفسه ٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ١٠٤-٦.

(٤) Raviv and Melman, Spy, 82.

الوطني)، الجنرالان هاشمي منوشهر وعلي بارفاريش، في خلال محاكمتهما في ١٩٧٩ أنهما كشفا عن مواقع القواعد الفلسطينية في لبنان لحلفائهما الإسرائيليين. ودرّبت إسرائيل، بالإضافة إلى التعاون الاستخباري، نحو أربعمئة طيار إيراني ورجل كوماندوس ومدفعي، كما أنها زودت الشاه أعداداً كبيرة من الأسلحة.

انتهى التحالف الإسرائيلي-الإيراني مع الثورة الإيرانية في ١٩٧٩ عندما حل نظام حكم رجال الدين بزعامة آية الله روح الله الخميني محل النظام الملكي وأعلن عداوته اللدودة لإسرائيل والغرب. لكن وبالرغم من هذا التحول الدرامي في السياسة الإيرانية ستستأنف إسرائيل والولايات المتحدة دعمهما العسكري لإيران في أواسط الثمانينيات ردّاً على شبح الانتصار العراقي في الحرب الإيرانية-العراقية.

في هذه الأثناء، أعقبت الثورةَ عمليةُ تطهير واسعة في الأجهزة الإيرانية العسكرية والسياسية والمدنية. ولم تسلم الأجهزة الأمنية، بل تم إعدام ضباط كبار في السافاك إلى جانب الضباط المتورّطين في عمليات تعذيب وفي إعدام معارضي الشاه، وخصوصاً أولئك التابعين للمكتب الثالث الشهير.[1] بيد أن ضباط الصفوف المتوسطة والدنيا استمروا، بحسب مقابلة أجريت مع إليعازر تسافرير الرئيس السابق لمحطة الموساد في إيران، في العمل مع «فافاك» – وزارة الاستخبارات الجديدة في إيران ما بعد الثورة – وفي جهاز استخبارات ما بعد الثورة «سافانا». أدى هؤلاء الخبراء الذين دربهم الموساد دوراً حيوياً في الاحتفاظ بدرجة عالية من الكفاءة في مجتمع استخبارات ما بعد الثورة.[2] وقرر ضباط السافاك، سواء أكان خوفاً على حياتهم أم نتيجة واقعية عفوية، العمل للنظام الجديد وجلبوا معهم المهارات والتدريبات التي تلقوها من الموساد ومن الجيش الإسرائيلي. وجاء في مقابلة مع ضابط الموساد السابق إليعازر تسفرير أنه عندما ساهم الحرس الثوري الإسلامي الإيراني، الباسدران،

(1) Cockburn and Cockburn, Dangerous, 103.

(2) Shay Shaul, The Axis of Evil: Iran, Hizballah and the Palestinian Terror (New Brunswick, NJ: Transaction, 2005).

في إنشاء حزب الله في لبنان عقب الاجتياح الإسرائيلي في ١٩٨٢، درّبوا وكلاءهم اللبنانيين الجدد على استخدام الأسلحة وفنون الاستخبارات الإسرائيلية.[١]

سمحت مؤسسة الاستخبارات الأميركية، في كل من حالتي مصر وإيران، للإدارات المتعاقبة في واشنطن بالانخراط في ديبلوماسية سرّية وخوض حرب خفية ضد السوفيات في الشرق الأوسط. ومثّلت إسرائيل شريكاً كبيراً في هذا الجهد إضافة، ويا للسخرية، إلى حيّز من المنظمات الراديكالية التي يحفّزها الإسلام السياسي. وقد استخدم المناضلون المسلمون، في عدة مناسبات، فنون الاستخبارات التي نقلتها «السي.آي.إي.» والموساد، بعناية كبرى وسرّية، إلى الأفراد والمنظمات الملتزمين تدمير دولة إسرائيل وهزم الولايات المتحدة. بيد أن الهدف الأميركي الرئيسي في الشرق الأوسط، في سياق الحرب الباردة، قضى، من خلال استغلال دور الإسلام في العالم الإسلامي، بإعاقة القوميات العربية والإيرانية والجنوب آسيوية عن خدمة مصالح الاتحاد السوفياتي.

(١) مقابلة مع إليعازر تسفرير أجريت في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر في رامات هاشارون في إسرائيل. وتسفرير ضابط كبير سابق في الشاباك والموساد ومستشار رئيس الحكومة للقضايا العربية. عمل رئيساً لمحطات الموساد في كل من كردستان العراقية وإيران ولبنان. كان رئيساً لمحطة الموساد في إيران ما بين ١٩٧٩ و١٩٨٧. وقد نشر كتابين عن تجاربه: Satan Gadol, Satan Katan [الشيطان الكبير والشيطان الصغير: ثورة وهروب من إيران] (Tel Aviv: Maariv 2002)؛ وPlonter [متاهة لبنان] (Tel Aviv: Yediot, 2006).

٢٠

الجهاد الإيراني

«أدين بعرشي إلى الله، وإلى شعبي، وجيشي – وإليك».

ـ الشاه محمد رضا بهلوي إلى كرميت روزفلت[١]

بقي عبد الناصر، لفترة قصيرة من الزمن، الزعيم العربي الذي يعد بالمساهمة في الأمن الأميركي في المنطقة. إلا أن الشيوعية والقومية احتلّتا، في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، قلب مسرح السياسة الداخلية والخارجية للولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن الهستيريا المكارثية أخذت في ١٩٥٣ بالاضمحلال، فقد وُجد استعداد مسبق لدى إدارة أيزنهاور للارتياب بموسكو والخوف منها. واعتقد وزير الخارجية الجديد ألن فوستر دالاس بنوع خاص أن القومية الراديكالية عبّدت الطريق أمام الاختراق السوفياتي للعالم الثالث. وأفاد دالاس مجلس الشيوخ بأنه: «سواء تعلّق الأمر بالهند الصينية أو بالمغرب أو بمصر أو بالجزيرة العربية أو بإيران ... فإن الشيوعيين السوفيات هم الذين يمسكون بالقوى المثيرة للشغب»[٢].

وكون أيزنهاور سلّم في الحقيقة الشؤون الخارجية لدالاس، وشقيق دالاس، ألن، أصبح مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، يعطي لهذه التعليقات قوة كبرى لأنها تؤكّد سياسة أميركا الخارجية. وبالرغم من هذه التعليقات وتأكيد جون فوستر دالاس

(1) Roosevelt, Countercoup, 199.

(٢) تم الاستشهاد بذلك في Michael B. Oren, Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to Present (New York: Norton, 2007), 510-11.

للكونغرس أنه سيعمل على التخلص من البوابات القومية لعبور الشيوعية، بدا للوهلة الأولى أنه لا يستطيع أن يقرر هل تصبح الولايات المتحدة قوّة للتغيير في الشرق الأوسط أو ضمانة للركائز الاستعمارية للأنظمة القديمة. فمن جهة ساند الوزير تأميم عبد الناصر لقناة السويس (تموز/يوليو ١٩٥٤)، وعارض الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا (١٩٥٥) وواجه المحاولة الأنكلو-فرنسية-إسرائيلية للاستيلاء على القنال في ١٩٥٦. غير أنه ساند من جهة أخرى الانقلاب الأنكلو-أميركي ضد حكومة مصدّق في إيران دعماً للمصالح البريطانية القديمة. وليست هذه السياسات متناقضة كثيراً بقدر ما يوجّهها مبدأ المصلحة الخاصة في مواجهة الانقضاض الشيوعي.

وضع ما اعتمده دالاس من سياسة الحرب الباردة المناهضة للشيوعية و«من ليس معنا فهو ضدنا» الولايات المتحدة في القيود الأيديولوجية. وعلى هذه الخلفية وضع دور عبد الناصر المتزايد في حركة عدم الانحياز وقرار الزعيم المصري في ١٩٥٥ شراء الأسلحة من الاتحاد السوفياتي (عبر تشيكوسلوفاكيا) الولايات المتحدة في مسار تصادمي مع مصر.[1] وبذل دالاس عدة محاولات لاستمالة عبد الناصر للعودة إلى الحضن الأميركي، والانضمام بصفة خاصة إلى «ميدو» (منظمة الدفاع الشرق أوسطية)، لكن الزعيم المصري رفض واعترف بدلاً من ذلك بالصين الشيوعية.[2]

كذلك صدّ عبد الناصر محاولات دالاس التوسط بين إسرائيل ومصر. فقد سبق لوزارة الخارجية الأميركية أن أنتجت في ١٩٥٤ الاقتراح السرّي المعروف باسم «ألفا» الذي تقوم إسرائيل بموجبه بالتخلي عن أجزاء كبيرة من الأرض في مقابل معاهدة عدم اعتداء توقّعها مصر. غير أن صعود عبد الناصر الهائل في العالم العربي جعل من الصعب عليه المساومة على المسألة الفلسطينية-الإسرائيلية التي سرعان ما

---

(١) Hersh, Old Boys, 395.

(٢) نظرت مؤسسة السياسة الخارجية في الولايات المتحدة في خطط لاستبدال بريطانيا بوصفها القوة البارزة في الشرق الأوسط. واقترح بول نيتزي، وكان يومئذ رئيس فريق التخطيط السياسي الأميركي، إنشاء منظمة الدفاع الشرق أوسطية التي ستحمي قناة السويس وتوفّر الأمن العسكري للمناطق المنتجة للنفط ولبلدان الشق الشمالي وهي إيران وباكستان وتركيا.

ستصبح مسألة مستعصية، فماطل ثم رفض.[1] ولم يأت مخطط السلام الثاني «غاما» بنتيجة أفضل فخرج وزير الخارجية عن طوره حيال عبد الناصر وأعطى موافقته على عملية «أوميغا» وهدفها إطاحة الحكومة المصرية بشتى الوسائل ما عدا الحرب. ودعت الخطة إلى حرمان مصر من التمويل اللازم لبناء سدّ أسوان، وتضمّنت بنداً يقضي بتعزيز موقع العاهل السعودي سعود ليصبح بمصاف «بابا» المسلمين.[2]

تخلّى صانعو السياسة بالفعل عن عبد الناصر بوصفه خليفة معاصراً يمكنه توحيد المسلمين وقيادتهم بعيداً عن الشيوعية؛ وقاموا بدلاً من ذلك بأبلسته كما لو أنه طراز من طُرُز صدّام حسين. والفارق أنه بدلاً من اتهام عبد الناصر بتكديس أسلحة الدمار الشامل وُصف بالبائع الجوال للتغلغل السوفياتي في الشرق الأوسط. وأصبح الإسلام الحصن الحامي من السوفيات لغياب أي ائتلاف ممكن بينه وبين الماركسية، ولأنه يمكن الاعتماد على المسلمين المتدينين في صدّ انتهاك موسكو الملحدة. وبناء عليه، وإلى جانب دعم السعوديين وغيرهم من الأنظمة المبالغة في محافظتها في الشرق الأوسط، مثل إيران والأردن وباكستان وتركيا، استعانت الولايات المتحدة بالإخوان المسلمين لمحاربة عبد الناصر ومواجهة الشيوعية في أنحاء المنطقة كافة.

اتصل مسؤولون سياسيون أميركيون في البداية بحسن البنّا في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين في كل من القاهرة وجدّة. واستناداً إلى هيرمان إيلتس، وكان يومئذ ديبلوماسياً حديث العهد في السعودية، فإن السفارة الأميركية في القاهرة:

> عقدت في حينه اجتماعات منتظمة مع حسن البنّا ووجدته متعاطفاً جداً. بقينا على اتصال معهم [الإخوان المسلمين] وذلك لغايات رفع التقارير بنوع خاص، لأن الإخوان المسلمين مثّلوا في ذلك الوقت عنصراً يُنظر إليه على أنه قد يحمل أهمية سياسية. ولا أعتقد أنهم أصابونا بالخوف بالرغم مما اعترانا من قلق عندما اغتال الجهاز السرّي في الإخوان رئيس الوزراء [المصري محمد

(١) رفض عبد الناصر توقيع«ميدو» قبل أن تقنع الولايات المتحدة إسرائيل بوقف غاراتها على الأراضي المصرية. (Oren, Power, 513-14)

(٢) المصدر نفسه، ٥١٤.

النقراشي باشا]. خشينا أساساً على الاستقرار وقضى توقّعنا بأن الاغتيالات أمر مثير للقلق لكنها لا تُنبئ بعدم استقرار سياسي خطير.(١)

عزّزت كل إشارة في إعلانات الإخوان المسلمين التزام التنظيم معاداة الشيوعية، مما جعلهم أحبّ أكثر فأكثر إلى قلب الولايات المتحدة. وأعلن القاضي حسن الهضيبي المرشد الأعلى للإخوان المسلمين في مقابلة مع صحيفة المصري أن «الشيوعية تنكر كل دين وتناقض أسس الإسلام وتقوّض نظمه الأخلاقية والاجتماعية». وأبرز في المقابلة نفسها اقتناعه بأن «الإسلام يمثل الحاجز الأقوى في وجه الأفكار الشيوعية»(٢).

بعد وفاة حسن البنّا شرع صهره سعيد رمضان في أداء دور بارز في قيادة الإخوان المسلمين وأصبح صلة وصل مهمة مع الأميركيين. وشارك رمضان في أيلول/سبتمبر ١٩٥٣ في ندوة عن الثقافة الإسلامية شاركت في رعايتها جامعة برينستون ومكتبة الكونغرس. بيد أن تمويل ضيوف الشرق الأوسط جاء من الإدارة الدولية للإعلام، وهي فرع من فروع الخارجية الأميركية، وقد تولتها لفترة قصيرة وكالة الأخبار الأميركية المرتبطة «بالسي.آي.إي.».(٣)

انسلّ رمضان، في خلال المؤتمر الذي استمرّ تسعة أيام، إلى واشنطن وأتيحت له الفرصة لالتقاط صورة له مع أيزنهاور. وقد سجّل روبرت دريفوس وقائع مشاركة رمضان في الندوة، وبرّر سعي «السي.آي.إي.» إلى تحويل رمضان إلى عميل بوجود دليل ظرفي.(٤) وبحسب مقالة لسيلفان بنسون في صحيفة «لو تان» الصادرة في جنيف، اعتقدت السلطات السويسرية في الستينيات من القرن العشرين أن رمضان عميل للاستخبارات البريطانية والأميركية إضافة إلى السويسرية.(٥) والمؤكد أن سيرة

(١) Dreyfuss, Devil's Game, 66.

(٢) برقية وزارة الخارجية البريطانية، المصري، ١٨ آب/أغسطس ١٩٥٣.

(٣) Dreyfuss, Devil's Game, 76.

(٤) المصدر نفسه، ٧٦-٧٧.

(٥) Sylvain Benson, "When the Swiss Protected Radical Islam in the Name of Reasons of State," Le Temps, 26 October 2004, quoted in Dreyfuss, Devil's Game, 79.

رمضان التي تلت ذلك، بوصفه سفيراً جوالاً ممثلاً للإخوان المسلمين من أجل قضية الإسلام السياسي، قد أتاحت له فرصاً كبرى في رفع التقارير عن الوضع إلى مشغّليه، غير أن ذلك غير محتمل. فليس صعباً التكهّن بأن «السي.آي.إي.» بذلت جهداً لتجنيده، وبأن رمضان ماشاها بالدرجة التي تناسب مصالح الإخوان المسلمين. وبعبارات أخرى، فإن الأمر مثّل مسعى استكشافياً، لكنه من غير الواضح ما الذي استحصل عليه كل من الطرفين.

بعدما حظر عبد الناصر تنظيم الإخوان المسلمين وسجن الآلاف من عناصره، وجد الناجون ملجأ لهم في السعودية. وقد حاول الملك سعود استغلال كره الإخوان لعبد الناصر في صراعه مع المصريين على زعامة العالم العربي. غير أن الإخوان في السعودية انضمّوا إلى المتطرفين المحليين وساهموا في تطرّف الجيل التالي من المتعصّبين المسلمين. ومن سخرية الأمور أن المنتسبين اليوم إلى الإسلام السياسي، سواء منهم المفكرون الناشطون أو المحاربون الذين يقاتلون في جبال أفغانستان أو رجال حرب عصابات المدن الذين يُصعّدون في مستوى الإرهاب فيها، قد تم تصديرهم إلى الولايات المتحدة من خلال مدارس التطرّف التي عمل الإخوان المسلمون في قسم منها. والواقع هو أن مغازلة «السي.آي.إي.» للإسلام السياسي في كفاحه ضد عبد الناصر أو ضد السوفيات في أفغانستان لم تكسب الولايات المتحدة سوى القليل من الإقرار بالفضل بين معظم المسلمين.

تطول لائحة الشكاوى من الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ولا تبدأ كثيراً باعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل في ١٩٤٨ بقدر ما تبدأ بالانقلاب على محمد مصدّق في إيران، ويلي ذلك الدعم المفتوح تقريباً لكل نظام فاسد وقمعي في المنطقة.[١] ونجح الانقلاب الأنكلو-أميركي ضد حكومة إيران العلمانية لأن كرميت

---

(١) كُتب الكثير عن الانقلاب في إيران، بما في ذلك نشر العملية الفعلية: Donald Wilber, Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952-August 1953 (Nottingham: Spokesman, 2006). See also Roosevelt, Countercoup, passim. For the British perspective see C. M. Woodhouse, Something Ventured: The Autobiography of C. M. Woodhouse (London: Granada, 1982), passim. كان وودهاوس نِدّاً لروزفلت في «أم.آي٦».

روزفلت تمكن من الغب من بئر الاستياء الكامنة داخل المؤسسة الدينية الإيرانية. ومثل آية الله كاشاني حليفاً مناسباً لعملية «السي.آي.إي.» في إيران. فهو ساند آية الله مصدّق في البداية، لكنه تحوّل ضد رئيس الوزراء لاستيائه من سلطته، وانفتح على الاتصالات الأميركية ليتمكّن من تحقيق أفضلية أكبر. ونصح عملاء روزفلت عميل «السي.آي.إي.» بإمكان شراء مشاركة كاشاني في الانقلاب، فسلّم واحداً من مؤتَمني آية الله مبلغ عشرة آلاف دولار.[١]

كان كاشاني معادياً بشراسة للغرب ويمقت الأفكار الليبرالية ويتمسك باقتناعه بأن على المسلمين ألا ينصاعوا إلا للقوانين العلمانية التي تتناغم مع الشريعة الإسلامية. ولم يدعم الزعيم الديني مصدّق إلا لأنه يكره الإنكليز أكثر منه ويريد لإيران أن تنجز استقلالها فتتمكن من الانضمام إلى فديرالية إسلامية. ونظّم كاشاني أتباعه الدينيين الذين نزلوا إلى الشوارع دعماً لمصدّق تماماً كما سيعمد هو وغيره من الزعماء الدينيين إلى إلهاب الشارع ضد رئيس الوزراء.[٢] فعلى غرار الأميركيين كره آيات الله الشيوعية ونقموا على تحالف مصدّق السياسي مع الحزب الشيوعي الإيراني.

نجح الانقلاب الأنكلو-أميركي على المدى القصير لأن روزفلت وعملاءه سخّروا نفوذ المؤسسة الدينية واشتروا وسائل الإعلام وتمكّنوا من تسيير تظاهرات كبرى خالقين الانطباع بوجود معارضة شاملة لمصدّق. ومثلت قدرة عملاء روزفلت الإيرانيين على تعبئة البازار بطبقاته المعقدة، المؤلفة من رجال الأعمال والموالي وأصحاب المتاجر الصغيرة وتجّار السجّاد وبائعي التوابل والسّحرة والشّحاذين والفنانين والكتبة والخطباء المثيرين لعواطف الدهماء وليس أقلّهم جميعاً الحكواتيين،

(١) Mark J. Gasiorowski, "The 1953 Coup d'Etat Against Mosaddeq" in Mohammad Mosaddeq and the 1953 Coup in Iran, ed. Mark J. Gasiorowski and Malcolm Byrne (Syracuse: Syracuse University Press, 2004), 254. ويرى جازيوروفسكي بأن ليس مؤكداً هل تسلم كاشاني المال، أو هل باشر في حال تسلمه في تنظيم التظاهرات. غير أن آية الله بهبهاني أدى دوراً أساسياً في تنظيم التظاهرات ضد مصدّق في ١٩ آب/أغسطس ١٩٥٣.

(٢) Stephen Kinzer, All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror (Hoboken, NJ: John Wiley, 2003), 75-76.

عاملاً حاسماً في الانقلاب. واللافت أن روزفلت نجح في تحويل الحكايات عن مصدّق ضد رئيس الوزراء وفي مصلحة الشاه. بيد أنه مثل انتصاراً باهظ الثمن ولو أنه أبقى العاهل الإيراني في السلطة مدّة ربع قرن. وتمكّن آية الله الخميني، بعد ذلك بستة وعشرين عاماً، من تسخير قوة الرأي العام، إضافة إلى البازار، ضد الشاه واستولى في ١٩٧٩ على السلطة في إيران.

صوّر آية الله روح الله الخميني، رجل الدين الصارم الذي قاد الثورة الإيرانية، نفسه على أنه المنتقم لكل الإذلال الذي أنزله الغرب طوال أكثر من قرن بالمسلمين في الشرق الأوسط. وعلى عكس أتاتورك أو عبد الناصر اللذين اعتنقا العلمانية لمواجهة سلطة الغرب، تطّلع الخميني إلى الماضي وقام بثورة إسلامية. سار آية الله عبر التاريخ؛ أسقط الملكية الإيرانية لكنه أشعل في الوقت نفسه معارضة كبرى للأفكار الغربية وممارساتها في العالم الإسلامي. شرعنت انتصارات الخميني الإسلام بوصفه مصدر السلطة ونشّطت مفهوم الدين بوصفه الحكم في كل مظهر من مظاهر الحياة.

في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، نجح ما بين ثلاثمئة وخمسمئة طالب في الهجوم على السفارة الأميركية في طهران والاستيلاء عليها. أُخذ ٥٢ ديبلوماسياً أميركياً رهائن واحتُجزوا أربعمئة وأربعة وأربعين يوماً. بدت الولايات المتحدة عاجزة لا حول لها ولا قوة. أعطى الخميني الطلاب دعمه الكامل واستمتع بمأزق الرئيس جيمي كارتر. أدى أخذ الرهائن إلى أزمة في الولايات المتحدة ومثل عاملاً موحّداً في إيران. وحال تشدّد الطلاب دون أي احتمال لتأليف حكومة معتدلة. وزادت محاولة إنقاذ قام بها الأميركيون في ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٠ وانتهت بكارثة في سلطة الخميني.

امتلكت ثورة الخميني حياة محدودة خارج حدود العالم الإسلامي الشيعي. غير أن هذا لم يردع النظام الجديد في طهران عن محاولة بسط النفوذ الإيراني في المنطقة. وحده لبنان، في العالم الإسلامي ذي السيطرة السنّية، قدّم قاعدة مثالية لنشر نموذج الخميني للإسلام في الشرق الأوسط. فقد مثل لبنان أرضاً خصبة لامتلاكه

تاريخاً طويلاً من المزيج المعقد من الطوائف الدينية ذات الولاءات الفريدة لمختلف الأطياف الإسلامية كما المسيحية.

في إبان الحملات الصليبية ألقى المسيحيون اللبنانيون الموارنة بمصيرهم في كفة الغرب، ولمّا طُرد المحاربون المسيحيّون من لبنان انسحب الموارنة إلى الجبال الشمالية حيث لا يزال الكثير من قراهم الأصلية موجوداً حتى اليوم.[١] وكتب روبرت فيسك أنهم تعلّموا من هذه التجربة أن «مسؤولية وجودهم بالذات تقع حصرياً بين أيديهم وأن قدرهم يتوقّف في النهاية على تصميمهم وعزمهم فقط. وهي مزايا سيتشاركون بها مع جميع الأقليات في لبنان؛ ولاحقاً مع الإسرائيليين»[٢].

أدركت القوى الخارجية، منذ مطلع الأزمنة الحديثة، أن في وسعها استغلال المنطقة ومواصلة أهدافها الخاصة من خلال التلاعب بمجموعات دينية معيّنة. فتقليدياً وبسبب الصلات الدينية، حابى الفرنسيون المسيحيين الموارنة، والروس المسيحيين الأرثوذكس، وساند البريطانيون الخيار الدرزي. وهكذا تمكّنت القوى الغربية من التدخل في البلاد بحجة حماية حلفائها الدينيين. وبحسب توم راسل فإن «إقحام المصالح الأجنبية حصل في سياق انتقال طويل للسلطة في جبل لبنان ... من الدروز إلى الموارنة وساهم في التوتّرات بين مختلف الطوائف والعشائر الحاكمة»[٣].

أعطت حرب كبرى نشبت في ١٨٦٠ بين الدروز والمسيحيين في لبنان الفرصة للفرنسيين للتدخل الظاهر لحماية الطائفة المارونية. وأعطيت فرنسا في ١٩٢٠ حصّة من الشرق الأوسط وانتداباً على لبنان وسوريا. وأنشأت بعد ذلك بفترة قصيرة دولة لبنان الكبير، إلى أن أصبح لبنان كياناً منفصلاً عن سوريا في ١٩٢٦.[٤]

(١) Robert Fisk, Pity the Nation: The Abduction of Lebanon (New York: Thunder Mouth, 2002), 55.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Tom Russel, "A Lebanon Primer," MERIP Reports, no. 133 (June 1985), 17-19.

(٤) Fisk, Pity, 55-57.

احتلت قوات فيشي البلاد في خلال الحرب العالمية الثانية حتى الاجتياح البريطاني وفرنسا الحرة في ١٩٤١. وحصل لبنان على استقلاله في ١٩٤٣ وانسحبت القوات الفرنسية أخيراً في ١٩٤٦. ونظم الميثاق الوطني الموضوع في ١٩٤٣ الحكم اللبناني على أساس ديني. ويضيف راسل بأنه «أعطى المسيحيين أفضلية ٦ إلى خمسة في البرلمان ومواقع الحكم الرئيسية بما في ذلك سلك الضباط. وعلى الرئيس أن يكون مارونياً، ورئيس الوزراء سنّياً، ورئيس مجلس النواب شيعياً»[١].

بالرغم من الميثاق ومحاولات إيجاد توازن في السلطة بين المجموعات الدينية الرئيسية الثلاث، أدى إنشاء إسرائيل في ١٩٤٨ ووصول ١٢٠ ألف لاجئ فلسطيني إلى تغيير لبنان تغييراً دائماً.[٢] وقد أدى وجود مثل هذا المجتمع الكبير من اللاجئين الساخطين إلى ولادة مجموعات فلسطينية مقاتلة هاجمت إسرائيل في شكل دوري عبر الحدود اللبنانية.

والعامل الآخر في زعزعة استقرار المجتمع اللبناني هو أن لبنان، على غرار سوريا، بقي معظم فترة الحرب الباردة محايداً وميداناً وسطياً تعارك فيه الغرب والسوفيات للسيطرة على القومية العربية. وأدى لبنان في هذا السياق دور المحور ومنصة الدعاية للأميركيين والسوفيات طوال فترة الحرب الباردة.[٣] ولم يعد لبنان في خلال النصف الثاني من القرن العشرين مركزاً للمجموعات الفلسطينية الرئيسية المناضلة وحسب بل بات أيضاً موطناً لمجموعات إرهابية متنافسة متنوعة يستغلها خصوم الحرب البادرة بوصفها قوى سرّية. وأدت الطبقات المتعدّدة للأيديولجيات المتصارعة، والخصومات، والميليشيات الخاصة إلى تجزئة لبنان وحولته أرضاً مثالية للتغلغل الإيراني. وشرع الإيرانيون في توفير التمويل والتدريب العسكري لمجموعات راديكالية شيعية في المنطقة المحيطة. وأقيم معسكر على مقربة من منزل الخميني قُدمت فيه الأسلحة والتدريبات للإرهابيين وجُهّزوا للقيام بعمليات

(١) Russell, "Primer," 17.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) FO 371/142062, TNA.

انتحارية. وبالإضافة إلى لبنان، بلغت قوات الصدم التابعة للخميني البحرين والكويت والسعودية والعراق.[1]

أمر الرئيس العراقي صدّام حسين في مطلع ١٩٨٢ باغتيال السفير الإسرائيلي في لندن شلومو أرغوف. وأمل أن يُلقى اللوم بهذا الفعل على منظمة التحرير الفلسطينية مما سيتسبب بدوره باجتياح إسرائيلي للبنان. وستضطرّ إيران، عند هذا الاجتياح، إلى تحويل بعض من قواتها المستعدة لاجتياح العراق. لم ينجح المخطط كما توقع له صدام. فقد اجتاحت إسرائيل لبنان بالفعل في ٦ حزيران/يونيو ١٩٨٢ وجاءت ردّة فعل الخميني كما هو مُتوقّع، إلا أنه لم يرسل إلى لبنان إلا ألفاً واحداً من حرّاس الثورة. أقام الإيرانيون قاعدة لهم في سهل البقاع حيث امتلكوا بالفعل شبكة واسعة من المجموعات المتطرفة.[2]

مثلت حركة أمل (أفواج المقاومة اللبنانية) في ذلك الوقت الميليشيا الشيعية الرئيسية في لبنان، وهي كناية عن مجموعة علمانية في الأساس تحارب من أجل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية. وما لبث أن انفصل الكثيرون ممن بدأوا حياتهم العسكرية تحت مظلة أمل لينضموا إلى مجموعات أصولية أكثر تشدداً. وقد نظم الإيرانيون مراكز للتدريب وشبكات استخبارات وزودوها الأسلحة والمال لتشكيل المقاومة ضد القوات الإسرائيلية. ولم يُنشأ حزب الله في الأساس كقوّة مستقلة بذاتها ولذاتها، بل كجهاز تنسيق يشرف على نشاطات كل المجموعات المنشقة الموالية لإيران والعاملة في لبنان. وبحسب كنيث بولاك:

> كانت إيران، في خلال الأمر كله، القوة المحركة الأساسية وراء حزب الله فزودته البنية التنظيمية والتدريب ومعدات الدعم والإرشاد الأخلاقي، وغالباً

(١) Dilip Hiro, The Iranian Labyrinth: Journeys Through Theocratic Iran and Its Furies (New York: Nation, 2005), 346; Kenneth M. Pollack, The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America (New York: Random House, 2004) 198-205.

(٢) Pollack, Puzzle, 199-200.

التوجيهات ... ولطالما كان جماعة حزب الله والإيرانيون دوماً على الخط الأيديولوجي نفسه.[1]

لم يبق حزب الله مجرد لجنة إشراف، بل تحوّل سريعاً إلى قوة رئيسية في لبنان. وفي ١٩٨٣، تحدّت إيران الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من خلال حزب الله. وفي ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٣ قتل مفجّرون انتحاريون ٢٤١ من المارينز الأميركيين و٥٨ مظلّياً فرنسياً في بيروت. لم يحدّد المحقّقون الأميركيون هوية الرجلين اللذين قادا شاحنتين محمّلتين بالمتفجرات إلى مقرّي ثكنتي المارينز الأميركيين والكتيبة الفرنسية؛ غير أن منظمة الجهاد الإسلامي تبنّت العمليتين وشددت على أن منفذي العملية مسلمان لبنانيان وليسا إيرانيين أو فلسطينيين. وقضى حزب الله، في وقت سابق من السنة، على الاستخبارات الأميركية في لبنان عندما قام مسلحون شيعة في ١٦ آذار/مارس باختطاف رئيس محطة «السي.آي.إي.» في بيروت وليام باكلي وقوضوا بذلك قدرة الولايات المتحدة على خوض حرب خفية في الشرق الأوسط. وبالرغم من أن منظمة الجهاد الإسلامي ادعت أنها أعدمت ضابط «السي.آي.إي.» الأميركي في ٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥، فإنه مات في الحقيقة في الأسر من عوارض تشير إلى إصابته بذات الرئة في الثالث من حزيران/يونيو من تلك السنة.[2]

ضاعف سوء إدارة الدعم الخفي للمجاهدين في أفغانستان، حيث دفعت الولايات المتحدة ثمن السلاح والتدريب اللذين جعلا الانتصار الإسلامي ممكناً، إخفاق الولايات المتحدة في إيران ولبنان. فقد مجّدت حكايات البازار المجاهدين لكنها استمرت في لعن الأميركيين. ولو أن الخميني سنّي مسلم لأمكنه الحلم بتولي منصب الخلافة. ولربما مثل مصدر وحي لملايين المسلمين، لكن إيمانه الشيعي حال بينه وبين أي مطالبة بقيادة جميع المسلمين.

وهكذا، فإن كل محاولات أميركا إحلال ملك السعودية أو رجل مصر القوي

(١) المصدر السابق، ٢٠١.

(٢) U.S. Security Council, “U.S./Iranian Contacts and the American Hostages,” NSC Chronology of Events, 17 November 1986.

أو حتى شاه إيران خليفة جديداً، كما محاولات الإنكليز من قبلها، باءت كلها بالفشل. وكل محاولة للعثور على صلاح الدين جديد لقيادة الإسلام في المستقبل ستبقى بالتأكيد حلماً رمليّاً. فهذا النسيج من الخداع والتلاعب بالدين والقومية لم ينفع إلا بإعادة إيقاظ الإسلام الجهادي. فقد سيطر مفهوم الإسلام السياسي على العالم الإسلامي وانتشرت عدوى الممارسات الإسلامية المتطرفة لتبلغ مسلمي وسط وجنوب شرق آسيا. وأصبحت أزمة الشرق الأوسط، بما يكاد يكون بين ليلة وضحاها، مرتبطة في شكل لا يمكن تفسيره بجنون الشك الإقليمي والمخاوف في جنوب آسيا تدعمها احتمالات وجود الأسلحة النووية.

٢١

تجسّس، دين، وحرب
عند الحدود الشمالية الغربية

«اجتمعت كل كوابيس القرن الحادي والعشرين في باكستان».

- بروس ريدل[1]

استقر الزورق المطاطي الصغير بهدوء قرابة الساعة ٩:١٥ من يوم ذلك الأربعاء القاتل عند شاطئ جالية صيادي السمك في مومباي ونزلت منه مجموعة من عشرة شبّان. تحرّكوا بصمت، وتحرّكت معهم ظلالهم الطويلة التي عكستها أضواء الليل. التقى بهارات تاموري، الشخص المنفرد الوحيد على الشاطئ في تلك الليلة، المجموعة، واستذكر أنه عندما سألهم عما يفعلونه على الشاطئ ادعى الشبان أنهم طلاب. ولما تمادى تاموري أكثر بالسؤال أجابه الشبان، «بأنهم متوتّرون ولا يريدون المزيد من التوتّر.» وشقوا طريقهم بعد ذلك إلى مومباي وقد صمّموا على أن يعيشوا فساداً بعاصمة الهند الاقتصادية.[2]

تميّزت الخطة بالبساطة. نزل المسلّحون إلى وسط المدينة فرقاً كل واحدة من اثنين وقد تجهّز كل منهم ببندقية هجومية من طراز «إي.كي-٤٧» وبذخيرة مؤلفة من ٣٥٠ طلقة وشرعوا في قتل ما أمكن من الناس. وقاموا في الفنادق والمطاعم

(١) Bruce Riedel, "Pakistan and Terror: The Eye of the Storm," The ANNALS of the American Academy of Political and Social Science 618, no. 1 (2008): 31.

(٢) "Mumbai Terror Attacks: Nightmare in the Lap of Luxury," The Observer, 30 November 2008.

وغيرها من الأماكن العامة المستهدفة بالتدقيق، عندما تسمح الظروف، بهويات الضحايا المُحتملين. وأعدموا كل من يحمل جواز سفر أميركياً أو بريطانياً. أخذ الإرهابيون، وعلى مدى ثلاثة أيام (٢٦-٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر)، وسط مومباي رهينة وانغمسوا في عربدة من الموت نتج منها مقتل ١٦٤ مدنياً وعنصراً عسكرياً هندياً و٢٩٣ جريحاً. وبحلول اليوم الثالث كانت قوات الأمن الهندية قد قتلت تسعة من الإرهابيين واعتقلت أحدهم.

هددت الحكومة الهندية، وعلى مدى بضعة أيام، بأعمال عدائية ضد باكستان بعد اتهامها بأنها منبع الإرهابيين. غير أن نيودلهي قبلت بالتدريج، وعلى مضض، أن الحكومة الباكستانية لا تقف وراء الهجوم. سوى أن الأمر ما لبث أن تكشّف عن حقيقة أكثر ظلاماً: فالقتلة من جنود منظمة عسكر طيبة الإسلامية الإرهابية وهي بدورها صنيعة أجهزة الاستخبارات الباكستانية. وسمحت الحكومة الهندية لنفسها بأن تقتنع، بالرغم من صدمة عمليات القتل في مومباي، بأن إسلام أباد لا تتحمل المسؤولية المباشرة عن الإرهابيين - أقله ليس هذه المرة.

بدأت الرحلة الدموية إلى مومباي في ١٩٤٧ مع تقسيم الهند وإنشاء باكستان، وحرّض عليها الخوف والحقد والحرب التي لازمت العلاقات بين البلدين على مدى أكثر من نصف قرن. وهذا النزاع هو بدوره إرث الراج (حاكم الهند) البريطاني. فقد احتفظ البريطانيون بسيطرتهم على مستعمرتهم في جنوب آسيا من خلال إذكاء الصراعات الدينية التي ألّبت الهندوس والمسلمين والسيخ بعضهم ضد بعض من خلال سياسة فرّق تسد الكلاسيكية. جاءت هذه السياسة الاستعمارية الاستهكامية بالفائدة عند الحدود الشمالية الغربية للأمبراطورية حيث توجّب على البريطانيين الدفاع عن أكثر طرق الاجتياح المباشرة إلى الهند وحمايتها من الدسائس الأجنبية بين قبائل المنطقة الصعبة المراس.

وللحدود الشمالية الغربية على نحو خاص مكانة فريدة في تاريخ الاستخبارات البريطانية، وقد ساهمت النشاطات الاستخبارية في المنطقة مساهمة كبرى في تطوير

الإسلام السياسي المتطرّف. أصبحت الحدود الشمالية الغربية، في سياق القرن التاسع عشر، أرض تدريب للبريطانيين قاموا فيها بعمليات خاصة وبالتجسس على الأمبراطورية الروسية في سياق «اللعبة الكبرى». وبالرغم من أن أفراداً من الضباط البريطانيين قاموا بأنواع من العمليات الخفية في المنطقة، فإن أجهزة الاستخبارات الرسمية لم تبدأ العمل في الحدود الشمالية الغربية إلا مع منتصف القرن التاسع عشر.

في ١٨٤٦، أوصى العقيد السير هنري لورنس، العميل السياسي البريطاني في الحدود الشمالية الغربية، بتشكيل قوة خاصة حملت عند تأليفها اسم فيلق المرشدين الهندي. وطالب لورنس من مثل هذه الوحدة أن تساعده على الاحتفاظ بالسيطرة البريطانية على البنجاب، وأصرّ على تجنيد المرشدين من القبائل المحلية. ولاحظ تقرير وُضع في ١٨٦٢ أن «الفيلق تألف من أكثر العناصر تنوّعاً؛ وكادت لا توجد قبيلة متوحشة أو محاربة في أعالي الهند لم تتمثل في صفوفها.... وقد احتُسب لهم أن يقدّموا المساعدة القصوى لقسم التموين العام بوصفهم مخبرين، وخصوصاً في مواكبة ضباط الاستطلاع.»[١] وساهم الميل البريطاني إلى مجنّدي الحدود الشمالية الغربية في نهاية الأمر في تنظيم القوات المسلحة الهندية والباكستانية وتطويرها.

قضت السياسة البريطانية منذ أواخر القرن التاسع عشر وما تلاه بتجنيد جنود هنود ممن تُسمّى بالأعراق المقاتلة في الحدود الشمالية الغربية. وكان اللورد روبرتس، الذي أصبح في ١٨٨٥ القائد الأعلى للجيش الهندي البريطاني، من بين أول مهندسي أسطورة «الأعراق المقاتلة.» وبحسب روبرتس فإن المنطقة الشمالية من الهند مأهولة «بأعراق مولعة بالحرب وجسورة،» فيما يتألف الجنوب من «أناس مخنثين.»[٢] وقد تقصّد البريطانيون، بعد احتلالهم الهند، إبقاء المناطق الشمالية خالية من الصناعة

---

(١) Thomas G. Fergusson, "Army Annual Inspection Report, 1852" in IBritish Military Intelligence, 1870-1914: The Development of a Modern Intelligence Organization (Frederick, MD: University Publications of America, 1984), 135-36; WO 4/171, WO 6/138, WO 40/10, TNA.

(٢) Shuja Nawaz, Crossed Swords: Pakistan, Its Army, and the Wars Within (Oxford: Oxford University Press, 2008), 11, quoting Frederick Sleigh Roberts, Forty-one Years in India: From Subaltern to Commander-in-Chief, vol. 2 (London: Bentley, 1897), 442.

وفي مستوى تعليمي منخفض، من أجل حماية قاعدة تجنيدهم ومنع «الأعراق المقاتلة» من الانخراط في مساع سلمية وانشغالات. وطلب البريطانيون المجندون، حتى في المنطقة نفسها، من الأجزاء الأكثر ريفية متفادين القرى الكبيرة والمدن.[١] وتقصّد البريطانيون، إضافة إلى مفهوم المحاربين التقليديين، إبقاء الجيش الهندي مجزّأً، فعزلوا مجموعات من مناطق معيّنة داخل التشكيلات العسكرية الأكبر وأبقوها في حالة تنقّل في أنحاء البلاد لمنعها من إقامة روابط «محلّية».[٢]

وتم، نتيجة سياسة تجنيد «الأعراق المقاتلة»، تطويع عدد غير متناسب من الجنود والضباط الآسيويين الجنوبيين من بين المسلمين والسيخ. ولأن هذه المجموعات أبقيت معاً، أقام الجنود روابط إخلاص متينة ترتكز على الانتماءات الدينية. وبعد إنشاء باكستان في ١٩٤٧، استمرّت الحكومات الباكستانية المتعاقبة، والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجيش، في التجنيد من المناطق الجغرافية نفسها متبعة بذلك السياسة البريطانية الاستراتيجية القاضية برعاية «الأعراق المقاتلة.»

ففي خلال الثمانينيات، على سبيل المثال، تم تجنيد ثلاثة أرباع الجيش الباكستاني من ثلاث مقاطعات في البنجاب واثنتين في ولاية الحدود الشمالية الغربية – وهي مناطق تمثل معاً ٩ بالمئة فقط من السكان.[٣] ويخدم بعض مجندي الجيش هؤلاء في جهاز الاستخبارات الباكستاني، وقد أدى ما لديهم من روابط عائلية وقبلية في منطقة الشمال الغربي الباكستانية المضطربة إلى خلق روابط فريدة في نوعها لمؤسسة الاستخبارات الباكستانية مع الحدود الشمالية الغربية. ففي مطلع الثمانينيات، على سبيل المثال، كان الجنرال أختار عبد الرحمن مديراً لأجهزة الاستخبارات الباكستانية، وهو، على غرار الكثيرين من الضباط الباكستانيين، من

---

(١) Nawaz, Swords, 11-13.

(٢) WO 33/36, TNA.

(٣) يضم الجيش الهندي الآن من السيخ أكثر مما يضم من المسلمين مع أن السيخ يمثلون ٤ بالمئة من السكان والمسلمين ١٢ بالمئة. أنظر Stephen P. Rosen, Societies and Military Power: India and Its Armies (Ithaca: Cornell University Press, 1996), 217.

البشتون من بيشاور على الحدود مع أفغانستان. وفي ١٩٨٧ حلّ الجنرال حميد غول، وهو مسلم متديّن من البنجاب وتربطه علاقات وثيقة بالسعودية، محل عبد الرحمن على رأس أجهزة الاستخبارات. ودان الرجلان بتعيينهما لضياء الحق، ديكتاتور الباكستان بعد ١٩٧٧، وهو أيضا يتحدّر من البنجاب.[١]

أصبح الجنرال نصير الله بابار في التسعينيات من القرن العشرين اليد الموجّهة لسياسة رئيسة الوزراء بنازير بوتو في أفغانستان - ويعتقد بعضهم أنه العقل المدبّر وراء إنشاء الطالبان - وهو أيضاً بشتوني من مواليد منطقة الحدود الشمالية الغربية.[٢] وأصبح بابار، بعد تقاعده من الجيش، وزيراً للداخلية بين ١٩٩٤ و١٩٩٧، في خلال ولاية بوتو الثانية كرئيسة للوزراء. ولشبه القارة الهندية بالتأكيد مكانة فريدة في تاريخ أجهزة الاستخبارات البريطانية والباكتسانية، ويمثل اليوم بالتأكيد ساحة قتال حاسمة بين الإسلام السياسي والغرب، فيما تبقى أجهزة الاستخبارات الباكستانية حليفاً خفيّاً للمتطرّفين المسلمين من أجل تقديم المصالح الباكستانية الاستراتيجية والأمنية في جنوب آسيا.

شُنّت «اللعبة الكبرى» في شكل شبه حصري في الخفاء وقضت بالتنافس بين الأمبراطوريتين البريطانية والروسية للسيطرة على آسيا الوسطى.[٣] وأصبح الجواسيس والعملاء المزدوجون والدسائس والإرهاب والحرب النفسية والتخريب والاغتيال عناصر أساسية في النزاع الروسي-البريطاني في المنطقة. كانت المخاطر مرتفعة وقضت الحرب الخفية على ضباط بريطانيين وروس قاموا بمهمات سرّية وخطيرة

(١) Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001 (New York: Penguin, 2004), 64, 174-75.

(٢) Rasul Bakhsh Rais, Recovering the Frontier State: War, Ethnicity, and State in Afghanistan (New York: Lexington, 2008), 71.

(٣) تعود فترة التنافس التقليدي الأنكلو-روسي في آسيا الوسطى إلى معاهدة ١٨١٣ بين الروس والفرس وميثاق ١٩٠٧ بين إنكلترا وروسيا. وتراجعت المنافسة بين القوتين في أثر الثورة البولشفية في ١٩١٧. وبرزت في خلال الاحتلال السوفياتي لأفغانستان والدعم الأميركي للمجاهدين لعبة كبرى جديدة استمرت بين الجمهورية الروسية والولايات المتحدة.

باسم الأمبراطور أو القيصر. ولم تمثل حكايات روديارد كيبلينغ قصصاً طويلة جيدة وحسب، بل عرضت أيضاً لمقالات رومانسية قصيرة عن المنافسات الأنكلو-روسية التي ألهمت أجيالاً من الشبان.

بالرغم من أن أرثور كونوللي، ضابط الاستخبارات في فرقة الخيالة الخفيفة البنغالية السادسة في شركة شرق الهند، هو الذي استنبط تعبير «اللعبة الكبرى» فإن كيبلينغ هو الذي شهرها مع نشر روايته «كيم» في ١٩٠١.(١) وأصبحت الرواية أيضاً مصدر إلهام لهارولد أدريان راسل فيلبي، الذي أطلق عليه والده لقب «كيم» بسبب انجذابه إلى الفتى الجاسوس في الرواية.(٢) وكان فيلبي الأب موظفاً حكومياً بريطانياً وجاسوساً وقد تحوّل لاحقاً إلى الإسلام. وولد كيم فيلبي في الهند وأصبح واحداً من أشهر الجواسيس المزروعين وأنجحهم في القرن العشرين متجسساً لمصلحة «الكا. جي.بي.» السوفياتية فيما يترقّى في مناصب الاستخبارات السرّية البريطانية.(٣)

كان استخدام الاستخبارات والعمليات الخفية في آسيا الوسطى وفي شمال الهند ناتجاً، إلى درجة ما، من الحاجة والطبوغرافيا وانتهاز الفرص. فالمسافات الشاسعة والحدود الطويلة مع الأمبراطورية الروسية (بلغت، بحسب الفترات، ما بين ألف وألفي ميل طولاً)، إضافة إلى وعورة الحدود الشمالية الشرقية للهند وآسيا الوسطى، أجبرت السلطات البريطانية والروسية على الشروع في استكشاف مناطق مجهولة، وإجراء عمليات مسح ووضع خرائط بغية بسط السيطرة على المنطقة. أضف إلى ذلك أن الأراضي التي تضمّ طائفة من رؤساء القبائل والأمراء وطائفة من الملوك الصغار

---

(١) سبق لكونوللي أن أشار في رسالة إلى صديق إلى مشاركته في «لعبة كبرى، لعبة نبيلة» في آسيا الوسطى. ووصلت الرسائل إلى المؤرخ السير جون كاي الذي استخدم عبارة «اللعبة الكبرى.» أنظر Karl E. Mayer and Shareen B. Brysac, Tournament of Shadows: The Great Game and the Race for Empire in Central Asia (Washington, D.C.: Counterpoint, 1999), xxiii; and Peter Hopkirk, The Great Game: The Struggle for Empire in Central Asia (New York: Kodansha International, 1992).

(٢) Philip Knightley, The Master Spy: The Story of Kim Philby (New York: Knopf, 1989), 24.

(٣) عمل فيلبي في ١٩٤٩ في واشنطن ضابط ارتباط بريطانياً مع «السي.آي.إي.» و«الأف.بي.آي.»، وهذا جزء من مسار وظيفي يؤهله لأن يصبح رئيساً للاستخبارات السرّية البريطانية. (Knightley, Master Spy, 1) للمزيد عن والد كيم فيلبي، هاري سانت جون فيلبي، أنظر الفصل السابع.

تقع على طول خطوط الاتصال الاستراتيجية، وقد حفّزت على التسابق الأنكلو-روسي من أجل كسب ولاء هؤلاء الحكام المحليين.

خدم ضباط بريطانيون ومغامرون مدنيون، إضافة إلى أبناء البلاد من العاملين في حكومة الهند أو في الجيش، جنوداً في الحرب غير المعلنة. واضطرّ الطرفان إلى السير بحرص لأنه أمكن لأبسط المهمات الديبلوماسية الهادفة إلى ضمان ولاء حاكم محلي أن ينتج منها اتهام بالتجسس مع ما لذلك من عواقب قاتلة. وأحد هذه الأمثلة هو المصير القاسي للمقدّم تشارلز ستودّارت الذي، وعلى غرار غيره من الضباط السيئي الحظ، أضحى واحداً من قتلى اللعبة الكبرى.

سافر ستودّارت في ١٨٣٨ إلى بخارى في مهمة لحفظ حرّية عدد من العبيد الروس وليعرض على الحاكم المحلي الحماية البريطانية. خشي البريطانيون أن يستغل الروس قضية العبيد حجة لضم بخارى. ومن سوء الحظ أن الأمير المحلي، نصرالله خان، اشتبه في أن نية الضابط الحقيقية هي التجسس؛ كذلك شعر الأمير بالمهانة لعدم إظهار ستودّارت الاحترام الواجب، إذ غفل الضابط الإنكليزي عن آداب المكان بعدم ترجّله عن جواده قبل الدخول إلى المدنية، إضافة إلى تجاهله الدقائق التقليدية للتملّق وتبادل الهدايا.[١]

أوقف ستودّارت بعد نحو يومين وقُيّد بالسلاسل ورمي به في سجن بخارى. وربّما في استخدام كلمة سجن الكثير من السخاء في تحديد المُنشأة: فهي في الأساس حفرة عمقها ٢١ قدماً ملأى بالعظام وبأجساد السجناء السابقين، إضافة إلى كونها مأوى لجيش من القوارض وأنواع عديدة من الحشرات. وزيادة في الطين بلّة أجبر الأمير ستودّارت على التحول إلى الإسلام وإلا واجه الإعدام.[٢]

وجد الأمير، على مدى السنوات الأربع التالية، لذّة في العبث بستودّارت. فكان

(١) Robert Jhonson, Spying for Empire: The Great Game in Central and South Asia, 1757-1947 (London: Greenhill, 2006), 84.

(٢) Johnson, Spying, 85.

الضابط الإنكليزي السيّىء الحظ يُخرج في بعض المناسبات من الحفرة ويوضع في سجن أكثر راحة في المدينة، ثم يُعاد رميه فيها بنزوة من الأمير. وقد تقلّب مزاج الأمير – ووضع ستودّارت – بحسب انتصارات أو هزائم الجيش البريطاني في آسيا الوسطى. وشقّ ضابط بريطاني آخر، هو أرثور كونوللي (أول من استخدم تعبير «اللعبة الكبرى")، طريقه إلى بخارى في ١٨٤١ لإنقاذ ستودّارت، إلا أنه اعتُقل هو الآخر، وأمضى الرجلان بضعة أشهر في الحفرة القذرة قبل أن يُقطع رأساهما في إعدام علني في يوم من أيام حزيران/يونيو ١٨٤٢.[١]

بعد ذلك بسنة، قرر الأب جوزف ولف، الذي هالته لا مبالاة الحكومة البريطانية ببلوى الضابطين، أن يقوم بعملية إنقاذ خاصة به. وبعد الكثير من الحظ السيّىء، بما في ذلك تخلّي مرشديه عنه، دخل في نهاية المطاف متعثّراً إلى بخارى لكن ليكتشف أن الأمير لا يزال يتوجّس من الزائرين البريطانيين. اتُهم الرجل المسكين أيضا بالتجسس وألقي به في السجن السيّىء الذكر. ومن حسن حظه أن شاه الفرس تدخّل فتُرك حرّاً.[٢] كان ولف محظوظاً، على عكس ستودّارت وكونوللي اللذين خسرا حياتهما لأن لا الجيش البريطاني ولا القيادة المدنية في الهند أو في لندن تمتع بالحكمة اللازمة لإنشاء جهاز استخبارات محترف ذي عناصر تتمتع بالتدريب المناسب.

استوعب الجيش الهندي أخيراً في ١٨٧٩ أن عليه تنظيم قسم الاستخبارات الخاص به بمجموعة كاملة من خمسة ضباط (أنيطت باثنين منهما مهمات جزئية) وعدة موظفين محليين وواضعي خرائط. وتعلّقت مهمات الوحدة الجديدة بالاستخبار العسكري عن نظام المعركة للجيش الروسي والتهديد المحتمل للهند في نزاع مقبل؛

(١) اعتقد كونوللي أن في وسعه وقف الضمّ الروسي لآسيا الوسطى من خلال توحيد جميع الخانات (جمع خان، أي الحكام المحليين)، وعندما فشلت مهمته توجّه لإنقاذ ستودّارت (Johnson, Spying, 86).

(٢) Mayer and Brysac, Tournament, 12-32. يبدأ هوبكيرك (Hopkirk, great Game, 1) دراسته عن اللعبة الكبرى بإعدام الضابطين البريطانيين ويلاحظ أن سيّاح أيامنا هذه يصلون إلى موقف للباصات موجود في الساحة التي كانت في ما مضى مكاناً للإعدام. ويرقد رفات الرجلين في قبرين من دون شواهد تحت الساحة. ويضيف هوبكيرك أيضاً أن النقيب أرثور كونوللي ابتكر تعبير «اللعبة الكبرى».

وكذلك التجسس على الحركات الوطنية والدينية. كما أن ضباط الحدود استمروا في جمع الاستخبارات السياسية وقيادة غزوات خفية في المناطق العدوة والمحايدة لمصلحة القسم السياسي في حكومة الهند.[1] واستمرّ البريطانيون، في بريطانيا كما في الهند، في رفض مفهوم إدماج عمل الوحدات العسكرية الاستخباري بوكالة مُكرّسة للتجسس.

في خلال القرن التاسع عشر، كلُف جهاز الخدمة المدنية الهندي ودائرة الخارجية ودائرة المسح، والأهم من ذلك، الجيش الهندي الذي يعمل فيه الإنكليز أساساً مهمات الاستخبار. وتكوّن لدى السلطات البريطانية في لندن في السبعينيات من القرن التاسع عشر اقتناع بأن الروس يخططون لاجتياح جنوب آسيا وبأنها تفتقر إلى وسائل الحصول على الاستخبارات عن أفغانستان – طريق الاجتياح التقليدي إلى الهند. وكتب توماس فيرغوسون، المتخصص في التاريخ القديم للاستخبارات العسكرية البريطانية، أنه: «بالرغم من أن جيش الهند بقي في صيف ١٨٧٨ من دون فرع الاستخبارات الخاص به ... فإن فرع استخبارات مكتب الحرب لم يحاول من تلقاء نفسه جمع المعلومات داخل الهند. فكل الاستخبارات في شأن الهند بلغت، عملياً، مكتب الحرب والفرع من خلال مكتب الهند.»[2] ولما يمض وقت طويل على ذلك حتى أضيف، في ١٨٧٨، فرع استخبارات إلى جيش الهند يمكنه، بحسب فيرغوسون، «أن يجمع ويفيد عن كمية كبرى من المعلومات يتم الحصول عليها ليس من وحدات الجيش الهندي الموجودة في أنحاء شبه القارة كافة وحسب بل أيضاً من فروع أخرى في الحكومة الهندية، وهي مصادر لا وصول إليها، في أفضل الأحوال في شكل غير مباشر، إلا لفرع الاستخبارات في لندن.»[3]

ردّ البريطانيون على النشاطات الإرهابية المتزايدة في جنوب آسيا فأنشأوا في ١٩٠٤ شعبة الاستخبارات المركزية لمراقبة تحركات المتطرفين. وتضمّنت المؤسسة

---

(١) أنشئ مكتب الاستخبارات في ١٨٨٥. أنظر Hopkirk, Great Game, 422-23.

(٢) Fergusson, "Report," 63. كلف القسم «د» رسمياً بالهند في تلك الفترة.

(٣) المصدر نفسه، ٨٥.

الاستخبارية الجديدة فروعاً دينية نُظمت لاختراق مختلف الطوائف الدينية في الراج والتأثير فيها. وقضت مهمة الفروع الدينية الأساسية بتقويض نهوض حركات الاستقلال لدى الهندوس والسّيخ والمسلمين. وجنّد مكتب الاستخبارات الهندي، تطبيقاً لسياسة فرّق تسد، ضباطاً من أبناء البلاد من الطوائف الدينية المختصة ممن طوّروا مهارات في التلاعب بالدين بما يخدم المصالح الاستعمارية البريطانية.[1]

أدرك البريطانيون مع الوقت أن المجموعات الإسلامية في أنحاء جنوب آسيا تتماهى مع الإسلام بدلاً من الحركات القومية العلمانية. واستنتج البريطانيون أنه يمكن استخدام الإسلام لموازنة جماعة الهندوس الأكثر عدداً بكثير وصدّ ما يرافق ذلك من موجة قومية هندية. وطالما بقي الهندوس والسيخ والمسلمون في جنوب آسيا على عداء فسيتمكن البريطانيون من حكم شبه القارة الهندية بقوات محدودة وحسب. ووصف ونستون تشيرشل في الثاني من شباط/فبراير ١٩٤٠ العداء الهندوسي-الإسلامي بأنه «حصن الحكم البريطاني في الهند» وأضاف بأنه إذا تم وضع حد له فستنتج عن التعايش السلمي بين هذه المجموعات «الطوائف الموحدة التي تنضمّ بعضها إلى بعض لطردنا.»[2]

حاول البريطانيون، إضافة إلى التشجيع على التنافس الهندوسي-الإسلامي لتقويض نشوء حركة قومية قوية، استخدام الإسلام لمواجهة انتشار الشيوعية. وكان نورمان نابيير إيفلين براي أحد أول عملاء الاستخبارات البريطانية الذين ركّزوا على الحركات الإسلامية في الهند. وحظي براي بسيرة مهنية مميزة كضابط في الجيش الهندي وعميل للاستخبارات الخاصة وضابط في جهاز الاستخبارات السرّية ومتعدد اللغات وناقد لـ ت. أ. لورنس. وقد ألف أيضاً عدة سير حياة وأعمال تاريخية وخدم لاحقاً في سلاح الجو الملكي. وواجه في الثلاثينيات من

(١) Hussein Haqqani, Pakistan: Between Mosque and Military (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2005), 20; Johnson, Spying, 127.

(٢) Piers Brendon, The Decline and Fall of the British Empire 1781-1997 (London: Jonathan Cape, 2007), 382.

القرن العشرين أوقاتاً صعبة: فقد اشتبه في أنه يميل إلى الفاشية واتهم بتهريب السلاح.

بدأت سيرة براي في عمل الاستخبارات في مطلع ١٩٠٠ عندما جنّده مدير الاستخبارات الجنائية في الهند السير تشارلز كليفلاند لتقفّي جذور الاضطرابات الإسلامية في جنوب آسيا. وتآلف براي، في سياق تحقيقاته، مع الحركة الإسلامية في الشرق الأوسط كما مع عدة مسلمين نافذين في المنطقة وفي جنوب آسيا.(١)

أصبحت سلطات الاستعمار في الهند، في ١٩١٦، على علم بتنظيم «الجند الرباني» الذي يدعو إلى جبهة موحّدة ضد البريطانيين. وبدلاً من مواجهة هؤلاء الراديكاليين المسلمين، شنّ براي حملته الخاصة التي مثل قادة مسلمون راديكاليون واجهتها وحاول تقويض الحركة الإسلامية من داخل المجتمع الإسلامي. زار براي أيضاً علي بن الحسين، ملك الحجاز وشريف مكة، وفي نيته توحيد المسلمين في الهند وبلاد فارس وأفغانستان تحت راية الثورة العربية.(٢) ورفع بعد ذلك بسنة تقريراً إلى وزارة الخارجية حول «المسألة المحمدية،» حذّر فيه من أن ألمانيا وتركيا واليابان وروسيا متورّطة في شكل ناشط في محاولات استخدام الحركة الإسلامية وسيلة لزعزعة استقرار سكان الأمبراطورية المسلمين الكثيري العدد.(٣) وأضاف براي، «لا يتعلّق الأمر بمجرّد 'محمديين مخلصين' يريدون الاستقلال بل 'بآلاف من ... المتعصّبين الذين يَعْدون قبل أن يتمكنوا من المشي.' وما لم يتم اتخاذ إجراءات لتقطيع أوصالهم فسيمثلون 'خطراً حقيقياً وداهماً ... إذا ما استُخدموا سلاحاً في يد أعداء المستقبل'.»(٤)

وأصرّ براي على أن قمع الراديكاليين المسلمين أو الحركة الإسلامية نفسها ليس

(١) John fisher, Gentleman Spies: Intelligence Agents in the British Empire and Beyond (Stroud: Sutton, 2002), 107-8.

(٢) المصدر السابق، ١٠٨-١٠.

(٣) المصدر نفسه، ١١٢.

(٤) المصدر نفسه.

بالاستراتيجية الناجحة، بل ما سينجح هو القيام بحملة الدعاية الخاصة ببريطانيا، وهي الحملة التي أضفى عليها الشريف الشرعية وهو بالفعل حليف لبريطانيا ويتلقى منها مساعدة عسكرية سخية. وشعر براي بأن ثورة الحسين العربية توفّر مخرجاً بديلاً من الجهاد المقدّس الذي شهده يختمر في شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس وأفغانستان وفي الشمال الغربي.(١) واستمرّ الإنكليز طوال فترة الحرب في الخشية من الألمان والعثمانيين و – بعد ١٩١٧- من التلاعب السوفياتي والدسائس التي تستهدف الحركة الإسلامية، فيما غفلوا عن بزوغ القومية العربية.(٢)

واصلت اللجنة المشتركة بين الإدارات حول البولشفية التي يرأسها براي، في العشرينيات من القرن العشرين، التحذير من التدخل «البولشفي» في الهند عبر الحدود الشمالية الغربية.(٣) وبغض النظر عن مدى صحة هذه الشكوك فقد اقتنع بها رؤساؤه، بمن فيهم تشيرشل، بسهولة لأن الخصومة التاريخية مع روسيا أضفت صدقية على هذا التهديد، ولأنهم اقتنعوا بأن القومية والدين يمثلان التحدي الأخطر للأمبراطورية البريطانية. ولاح جداً في الأفق، في سياق هذه المخاوف، بروز الاتحاد السوفياتي – الحليف المحتمل لعشرات الحركات القومية والإسلامية التي أخذت تنشط في الأمبراطورية البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى.

في مناخ جنون الريبة الإمبريالي هذا، وفّر استغلال الحركات الإسلامية وسيلة لمواجهة ما نُظر إليه بوصفه الشرّ المزدوج المتمثل بالشيوعية وبالقومية. وهذا كان، إلى حد ما، إرث رجال من أمثال براي رأوا أن البلاشفة يكمنون عند حدود الأمبراطورية البريطانية، وسوّقوا فكرة أن الإسلام هو الترياق لهذين الشرّين. لم تؤّثر مثل هذه

---

(١) أوصى براي لاحقاً بمركزية جمع الاستخبارات ومكافحة التجسس، وبقيام الحسين شريف مكة بتأسيس مدرسة دينية. أنظر المصدر السابق، ١١٢-١٣.

(٢) في الفترة المباشرة لما بعد الحرب وفي خلال العشرينيات من القرن العشرين، لم يتمكن مسؤولو الاستخبارات البريطانية من الاتفاق على حجم الإسلام ومغزاه، سواء في الشرق الأوسط أو في جنوب آسيا. أنظر Martine Thomas, Empires of Intelligence: Security Services and Colonial Disorder After 1914 (Berkeley: University of California Press, 2008), 75.

(٣) Fisher, Spies, 125.

المفاهيم في السياسة البريطانية في فترة ما بين الحربين وحسب بل وجّهت أيضاً مجتمع الاستخبارات البريطاني في جنوب آسيا في خلال الحرب العالمية الثانية. وستخلّف فكرة إمكان استمالة الإسلام لخدمة مصالح الدولة إرثاً خطيراً، ليس للحكومة الباكستانية وللجيش ولمؤسسة الاستخبارات وحسب، بل أيضاً للولايات المتحدة.

كانت المخاطر عالية في جنوب آسيا لاعتماد وضعية بريطانيا الاقتصادية والاستراتيجية على الراج. ففي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، كان الشرق الأوسط وشرق المتوسط حيويين للمصالح البريطانية طالما أمكن استخدام هذه المناطق لضمان الطرق البحرية والبرية إلى الهند. وقد تصوّرت الأولويات الاستراتيجية البريطانية في فترة ما بين الحربين (١٩١٩-١٩٣٩) الشرق الأوسط بوصفه منطقة حشد للموارد العسكرية التي سيُدفع بها إلى جنوب آسيا في حالة الحرب مع الاتحاد السوفياتي أو مع اليابان.

بيد أن الاستخبارات البريطانية في جنوب آسيا نُظّمت، في جزئها الأكبر، للتعامل مع تهديدات الحركات القومية والدينية الداخلية أكثر من التعامل مع التهديدات من خارج الأمبراطورية. ويرى الخبير ريتشارد ألدريتش أن جهاز الاستخبارات السرّية البريطانية في الهند تميّز «بالفاعلية ولو أنه ضيّق التركيز... وقد صُمّم للتعامل مع التهديدات الداخلية من القوميين والشيوعيين أو أي نوع آخر من 'مثيري الشغب'.»[١]

أجبر نشوب الحرب العالمية الثانية البريطانيين على تغيير أولويات استخباراتهم في آسيا الجنوبية والوسطى وعلى استمالة الإسلام ليصبح حليفاً في النزاع العالمي الجديد. تولى جهاز الاستخبارات السرّية البريطانية (وقد تغطّى باسم قسم الاتصال بين مختلف الأجهزة) وجهاز تنفيذ العمليات الخاصة إضافة إلى وحدات

(١) Richard J. Aldrich, “Britain Secret Intelligence Service in Asia During the Second World War,” Modern Asian Studies 32, no. 1 (February 1998): 184.

الاستخبارات المحلية بما فيها مكتب الاستخبارات الهندي مسؤولية الاستخبارات البريطانية في الهند في خلال الحرب.[١] وكان جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، على عكس أجهزة الاستخبارات التقليدية، جهازاً سرّياً أنشئ في تموز/يوليو ١٩٤٠ ردّاً، بالتحديد، على الحرب وعلى الاحتلال الألماني لأوروبا (ولاحقاً لأجزاء من آسيا). وأُنشئ الجهاز، في هذا الصدد، لغرض واحد - محاربة المحور - ولم يشارك في إرث جهاز الاستخبارات السرّية المناهض للشيوعية وللقومية. وبلغت الصولة الاستعمارية الطويلة الأمد للاستخبارات البريطانية نهايتها في الهند إذ ركّز جهاز تنفيذ العمليات الخاصة على هزم المحور بدلاً من صون الأمبراطورية على المدى الطويل. وهكذا عمل الجهاز سرّاً مع الشيوعيين والمجموعات الإسلامية المتطرفة لكبح جهود اليابانيين في جنوب آسيا.[٢]

طبّقت اليابان، منذ ١٩٣٩، جهداً دعائياً مكثّفاً يهدف إلى التحريض على التمرد في صفوف ضباط وأفراد الجيش الهندي. استهدفت الحملة القوميين في الهند، وحاولت رعاية حركة القومية الآسيوية التي تستهدف البريطانيين والاستعمار الغربي.[٣] وأنشأ اليابانيون في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١ الجيش الوطني الهندي بالتعاون مع القوميين الراديكاليين الهنود. وقد جُندت هذه القوة من مدنيين هنود في مالايا ومن جنود هنود وقعوا أسرى بعد سقوط سنغافورة في ١٩٤٢. وانضمّ بعض هؤلاء المجندين إلى الجيش الوطني الهندي للتخلّص من الظروف الرهيبة

---

(١) تمركز كل من جهاز الاستخبارات السرية وجهاز تنفيذ العمليات الخاصة في مكان آخر في آسيا قبل سقوط سنغافورة في ١٩٤٢، فانتقلا بعد ذلك إلى الهند. احتفظ جهاز الاستخبارات السرّية بقاعدة له في آسيا قبل الحرب، لكن تم إهمالها. أما جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، الذي لم يُنشأ إلا في خلال الحرب، فأقام وجوداً قوياً له في المنطقة وتفوّق في بعض الأحيان في الفاعلية والإنجاز على جهاز الاستخبارات السرّية.

(٢) سمّي جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في جنوب آسيا «البعثة الشرقية» وأصبح لاحقاً «بعثة الهند،» أو القوة ١٣٦.

(٣) أقام ضباط الاستخبارات اليابانية روابط مباشرة مع رابطة الاستقلال الهندية التابعة لبريتام سينغ ومع النقيب موهان سينغ ولاحقاً مع القومي المعروف جداً شوبا شاندرا بوز.

في معسكرات أسرى الحرب، غير أن العدد الأكبر منهم حمل السلاح إلى جانب اليابانيين كرد فعل على ما عدُّوه عرقية المستعمرين البريطانيين في آسيا.(١)

شنّ اليابانيون، بالإضافة إلى محاولة استغلال القومية الهندية، حملة دعاية في مالايا مؤيدة للإسلام بغية إقناع المسلمين المحليين بحشد الجيوش الإسلامية ضد البريطانيين لكنهم لم يحققوا أي نتائج تُذكر.(٢) وردّاً على التهديد الخطير المحتمل الذي يمثله ارتداد الجنود الهنود إلى اليابان أنشأت الاستخبارات البريطانية جهازاً مكرّساً لذلك. ووُضع الجهاز الجديد بإمرة قسم الحرب النفسية في القيادة البريطانية في الهند، وأشرف عليه جزئياً اللواء والتر ج. كاوثورن الذي سيُنشئ لاحقاً جهاز الاستخبارات السرّية في باكستان.(٣) وتولّت هذه الوحدة، بحلول ١٩٤٣، كل نشاطات قسم الحرب النفسية الهندية التي أذاعت دعاية مناهضة لليابان من خلال مكتب الشرق الأقصى.(٤) ولملم كاوثورن والضباط البريطانيون في جيش الهند خيوط إرث براي لتوسيع اتصالاتهم مع الإسلاميين كجزء من الاستراتيجية البريطانية المتواصلة لاستغلال المجموعات المسلمة ضد القوميين الهنود الذين تدعمهم اليابان، وكذلك ضد المجلس الوطني الهندي.

لم تمثل جهود الاستخبارات البريطانية السبب الغالب لفشل اليابان في تحويل مجرى الحرب. فالرابطة الإسلامية في الهند، وعلى عكس المجلس الوطني الهندي ذي الغالبية الهندوسية، دعمت بثبات المجهود الحربي البريطاني. فقد شعر محمد

(١) Christopher Bayly and Time Harper, Forgotten Wars: The End of Britain's Asian Empire (London: Penguin, 2007), 19.

(٢) Louis Allen, "Japanese Intelligence Systems," Journal of Contemporary History 22, no. 4 (October 1987): 547-62. لم ينضم الضباط المسلمون إلى الجيش الوطني الهندي لا عن اقتناع قومي أو عن اقتناع ديني بل لحماية رجالهم من فظائع معسكرات سجناء الحرب اليابانية. وانضم آخرون بغية حصر التورّط الياباني أو لتخريب الجيش الوطني من الداخل. أنظر أيضاً Christopher Bayly and Tim Harper, Forgotten Armies: The Fall of British Asia, 1941-1945 (New York: Allen Lane, 2004), 256.

(٣) Richard J. Aldrich, Intelligence and the War Against Japan (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 159.

(٤) المصدر نفسه، ١٦٣.

علي جناح، زعيم الرابطة الإسلامية والمؤسس المستقبلي للدولة الباكستانية، أنه ليس من مصلحة المسلمين أن تغادر بريطانيا الهند قبل إنشاء باكستان لأن ذلك سيترك الهنود المسلمين وسط دولة هندوسية معادية.[1] بيد أن الكثيرين من الزعماء المسلمين لم يعتبروا أن إنشاء باكستان في مصلحة المجتمع الإسلامي. فبغض النظر عن الطريقة التي سيتم فيها تقسيم الهند، ستُترك أعداد كبرى من المسلمين قابعة وسط دولة ذات غالبية هندوسية.

ورفض حزب المؤتمر في غضون ذلك التعاون مع المجهود الحربي البريطاني ما لم يتم منحهم الاستقلال الفوري. وأخذ الزعماء الهنود يشجعون المقاومة داخل الهند وهي تهدف إلى استنزاف الموارد التي للبريطانيين حاجة ماسة إليها لخوض الحرب. واستذكر دارميندرا غور الذي عمل مع جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في خلال الحرب العالمية الثانية، كيف أن الجهاز استعمل كلاً من جناح والرابطة الإسلامية لخلق عازل ضد القوميين الهنود. ويزعم غور أن تشيرشل تخوّف كثيراً من تشكيل حكومة وطنية في الهند ولهذا السبب سلّح البريطانيون الرابطة الإسلامية.[2]

وفي آب/أغسطس ١٩٤٢، عمّت أعمال الشغب عدة مدن وقرى في الهند ردّاً في جزء منها على دعوة غاندي إلى العصيان المدني، وكردّة فعل في جزئها الآخر على انهزام الجيوش البريطانية في آسيا على أيدي اليابانيين. وما أربك السلطات البريطانية هو أن الاضطراب وجد جذوره في حركة شعبية غير منظّمة تتجاوز سيطرة أي تنظيم بالذات أو شخص.[3] فقد سجن البريطانيون الزعماء الهنود في حزيران/يونيو ١٩٤٢، وخلقوا بذلك فراغاً في الزعامة، لفترة من الوقت، مما ترك الحركة الوطنية من دون توجيه أو قيادة.

لم تغيّر الحرب العالمية الثانية في علاقة بريطانيا مع جنوب آسيا وحسب،

(١) Akbar Ahmed, Jinnah, Pakistan and Islamic Identity: The Search for Saladin (London: Routledge, 1997), 82.

(٢) Dharmendra Gaur, Behind the Enemy Lines (New Delhi: Sterling, 1975).

(٣) Bayly and Harper, Armies, 247.

بل أدخلت الأميركيين أيضاً في تركيبات المنطقة الدينية والقومية المعقدة. واتّبع مكتب الخدمات الاستراتيجية (أو.أس.أس.)، وهو شبه النظير الأميركي لجهاز تنفيذ العمليات الخاصة، خطوات البريطانيين ومارس سياسة طويلة الأمد تقضي برعاية الإسلام.[1] واستعد رئيس «الأو.أس.أس.» الجنرال وليام دونوفان، مع حلول حزيران/يونيو ١٩٤٤، لتطبيق سياسة مؤيدة للإسلام، ويرى ريتشارد ألدريتش أن ما أثار هذه الأفكار هو الاهتمام بدول الخليج العربية ورغبته في بناء «نوع من 'الاستخبارات' السرّية جداً في السعودية ربما تحت غطاء بعثة علم آثار كبيرة.»[2] وكلّف دونوفان الرائد كارلتون س. كون – عالم الأنتروبولوجيا والمستعرب والمتخصص في شمال إفريقيا والشرق الأوسط – التخطيط لهذا المشروع. واستنتج كون في وقت لاحق من ١٩٤٤، وبعد رحلة واسعة إلى المنطقة، بأن على جمع الاستخبارات ألا يقتصر على السعودية وحسب بل يجب أن يشمل العالم الإسلامي بكليته على أن تؤدي السعودية دور بوابة العبور إلى الشرق الأوسط وجنوب آسيا المسلمَيْن.[3] وسبق للأميركيين، حتى قبل نهاية الحرب، أن توصلوا إلى الاستنتاج نفسه الذي توصل إليه البريطانيون من أن الشرق الأوسط يرتبط، في ما يتعلق بالإسلام، ارتباطاً لا ينفصم بجنوب آسيا. ومن سوء الحظ أنه تم نسيان هذه الأمثولة قبل الاجتياح السوفياتي لأفغانستان وبعده.

بات على البريطانيين، بعد إنشاء دولة باكستان الإسلامية في ١٩٤٧، أن يعيدوا اختراع سياستهم حيال جنوب آسيا. وامتدت العلاقة الخاصة التي قامت بين جناح والبريطانيين في خلال الحرب العالمية الثانية إلى حقبة ما بعد الحرب. وشعرت الحكومة البريطانية ومؤسسة الاستخبارات براحة أكبر في إقامة روابط وثيقة مع باكستان منه مع الهند التي استمرّ الاعتقاد بأنها لا تزال مناهضة للبريطانيين وتحتفظ بروابط مع الشيوعية. وفيما حرص البريطانيون على وجود باكستان إلى جانبهم، لم

(١) Aldrich, Intelligence, 134.

(٢) المصدر نفسه، ٣٠٧.

(٣) المصدر نفسه.

يهتموا بإقامة علاقة متساوية. ونشأت على الفور مسألتان بين بريطانيا وباكستان: مقدار الاستخبارات التي على البريطانيين تقاسمها مع باكستان، ونوعية المساعدة التي ترغب بريطانيا في تقديمها لإقامة الهيكلية الأساسية للاستخبارات الباكستانية. خيّمت المخاوف في شأن الأمن في باكستان، وخصوصاً في شأن التسريبات الاستخبارية والتغلغل الشيوعي، وذلك بالرغم من وجود تمثيل واسع للموظفين البريطانيين في المراتب الرفيعة في الأجهزة المدنية والعسكرية.

قررت لجنة الاستخبارات البريطانية المشتركة، في ١٩٤٧ و١٩٤٨، أن المعلومات البريطانية في مأمن في أيدي الباكستانيين أكثر مما يمكنها أن تكونه مع الهند. وهذه الثقة بباكستان تعود، في قسمها الأكبر، إلى إرث مسلمي الهند – وخصوصاً الرابطة الإسلامية التابعة لجناح – مع البريطانيين في خلال الحرب العالمية الثانية. كذلك اعتبرت لندن أنه يمكن الركون أكثر إلى باكستان ويعود ذلك في جزء منه إلى الوجود الواسع للضباط البريطانيين في المواقع الرئيسية. كان معظم الضباط الذين يتبوّأون مراكز عليا في باكستان – وخصوصاً في وزارة الدفاع وفي الجيش – لا يزالون من البريطانيين. وكان هذا الترتيب ضرورياً بالنسبة إلى البريطانيين (وقد وافق رئيس الوزراء الباكستاني أيضاً على أنه يعود بالفائدة على البلاد) لتقاسم المعلومات السرّية والحساسة مع الباكستانيين.[١] وساد اعتقاد كذلك بأن الباكستانيين، ككل، ليسوا معادين لبريطانيا كما كانت الحال مع القوميين الهنود.

شعر الكثيرون من المراقبين، بالرغم من النظرة العامة إلى باكستان على أنها أقل إشكالية من الهند، بأن الإجراءات الأمنية في المؤسسات الباكستانية غير ملائمة وبأن «الذهن الشرقي» لن يحمل نفسه على «النظر إلى مشكلة [الأمن] بالجدية التي يُنظر إليها فيها في أمكنة أخرى.»[٢] واستمرت أيضاً المخاوف في شأن العناصر الشيوعيين في الهند وباكستان. فقد تم في ١٩٤٦-١٩٤٧، على سبيل المثال، تسريب معلومات

(١) DEFE 11/31, TNA.

(٢) CAB 159/6, Part 2, TNA.

معينة إلى مجموعات شيوعية في الهند، ويُعتقد أن التسريب تم عبر خلية شيوعية في الجيش الهندي افتُرض أنها لا تزال موجودة.[١]

عامل البريطانيون باكستان شكلياً بعد نيسان/أبريل ١٩٤٨ على أنها دولة من الفئة «أ» وهو ما مكنّها من الحصول على معلومات تصل إلى حدّ «السرّي للغاية» مع وضع قيود على المعلومات الأميركية المصدر. غير أن الواقع هو أن باكستان حصلت على القليل جداً من المعلومات، وهذه ممارسة استراتيجية طُبّقت في الهند قبل إنشاء باكستان واستمرت في باكستان. لكن ومع حلول ربيع ١٩٤٨ أصبح لباكستان عدد كبير من ضباط الارتباط في لندن بحيث لم يعد ممكناً المحافظة على هذه الخديعة.

أعادت بريطانيا بعد وقت قصير على ذلك تقويم وضع باكستان وبدّلت من سياستها في ما يتعلق بتقاسم المعلومات الاستخبارية. وتوجّب خفض منزلة باكستان إلى الفئة «ب"، مما يعني إمكانها الحصول على معلومات تصل إلى مستوى «السرّي": وقد طابق هذا الخفض في الحقيقة السياسة مع الممارسة الفعلية. وأُبلغ الباكستانيون أن خفض المنزلة هذا يعود إلى واقع أن ترتيباتهم الأمنية لا تفي بالغرض وأن «الجمعيات السياسية» الباكستانية لم تحسم أمرها بعد. لكنهم لم يُبلّغوا بأنه لا تمكن مشاركتهم في المعلومات ذات المصدر الأميركي من دون موافقة الأميركيين، وهي موافقة غير محتملة في حالة باكستان.[٢]

لم يملك جميع من في المعسكر البريطاني مثل هذه التحفظات حيال إمكان الوثوق بباكستان. فقد دافع كاوثورن، الذي سيشارك لاحقاً في إقامة جهاز الاستخبارات السرّية، عن إجراءات الأمن في الجيش وفي المؤسسات الحكومية، مصرّاً على أن الشخص الباكستاني وطني في كل جزء منه ويفكّر أمنياً مثل الشخص الإنكليزي. واعتبر أن الأمن ممتاز في باكستان بسبب احتمال الغزو الهندي.[٣] وعلّق كاوثورن أيضاً على «التضامن السياسي الناتج من الانتماء عملياً بنسبة مئة بالمئة إلى

(١) CAB 158/3, TNA.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) DEFE 11/31, TNA.

الإيمان الديني الواحد.»[١] غير أنه قلق من أن الموقف الباكستاني الحسن النية حيال بريطانيا عرضة للخطر من جراء عدم رغبة بريطانيا في تقاسم المعلومات الاستخبارية في شكل صريح، وخصوصاً تلك المتعلقة بالهند، وبالقيود المفروضة على تدريب ضباط الاستخبارات البريطانية. واعتبر كاوثورن وغيره أن باكستان ذات أهمّية استراتيجية حيوية لبريطانيا بما أنها قدّمت للبريطانيين قاعدة للدفاع عن المحيط الهندي. أضف إلى ذلك أن باكستان وفّرت فرصاً خاصة لجمع الاستخبارات. وأشار كاوثورن في تقرير إلى رؤساء الأركان إلى أنه «من الواضح أن باكستان، بوصفها دولة إسلامية تقع عند خاصرة الكتلة الشرق أوسطية الإسلامية وأفغانستان وبلاد فارس، تمتلك بصفة خاصة إمكانية سياسية كبرى في ما يتعلّق بالمصالح البريطانية في الشرق الأوسط.»[٢]

وفي نهاية المطاف، تم استخراج جهاز الاستخبارات، الذي ساعد البريطانيون على إنشائه في باكستان، من هيكلية الاستخبارات البريطانية في الهند. وقد أقيم في ١٩٤٨ في باكستان مكتب للاستخبارات مواز لـ«أم.آي٦»[٣] ملئت وظائفه جزئياً بطاقم بريطاني. وصيغ مكتب الاستخبارات على هيئة القسم الإسلامي في مكتب الاستخبارات السابق في الهند (القائم سابقاً في دلهي) وضمّ المجموعة التي تولت مسؤولية الحدود الشمالية الغربية وأفغانستان وبلاد فارس. وأنشئ كذلك مكتب حدودي لتغطية شرق باكستان وأجهزة مماثلة أقيمت في بيشاور وكويتا.[٤]

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) جهاز الأمن ومكافحة التجسس البريطاني.
(٤) DEFE 11/31, TNA.

٢٢

جهاز الاستخبارات الباكستانية المشتركة والإرهاب المنظّم في جنوب آسيا

«إنهم أبناء شعبنا: وليسوا بأعدائنا.»

ضابط في أجهزة الاستخبارات الباكستانية مشيراً إلى الطالبان في منطقة الحدود الشمالية الغربية(١)

لا يزال مكتب الاستخبارات الباكستاني موجوداً إلى اليوم، وهو مُكلّف الآن مراقبة السياسيين والناشطين السياسيين وعملاء الاستخبارات الخارجية.(٢) ويراقب المكتب الآن أوضاعاً دولية معيّنة: وخصوصاً مواطني الدول التي تُعد «معادية» لباكستان. بيد أن مديرية جهاز الاستخبارات المشتركة أنشئت في ١٩٤٨ بغية مواجهة التهديدات الخارجية.(٣) وسرعان ما برز جهاز الاستخبارات المشتركة بوصفه أقوى وكالات الاستخبارات الباكستانية ولم يمض وقت طويل عليه حتى أصبح متورّطاً سرّاً في الشؤون الدينية والسياسية.

تولّى إدارته أوّلاً العميد سيّد س. حميد، السكرتير العسكري السابق في الهند

(١) Graham Usher, "Taliban v. Taliban," London Review of Books 31, no. 7 (9 April 2009).

(٢) بحسب PakistaniDefence.com وهو موقع إعلام إخباري على الأنترنت متخصص في البحث المستقل في مكونات الأمن العالمي الاجتماعية والبيئية والسياسية والعسكرية. http://www.pakistanidefence.com/Info/Intelligence.html وقد تم ولوج الموقع في ٧ أيار/مايو ٢٠٠٩.

(٣) أنشئ كذلك في ١٩٤٨/ مطلع ١٩٤٩ مكتب مشترك لمكافحة التجسس كلّف ضمان أمن الجهاز؛ وقد ترأسه ضابط بريطاني. أنظر Political Intelligence, India: Disclosure of Information, 3 parts, WS 17079/3-5, IOR/L/WS/1/1074, BL.

الذي أصبح لدى إنشاء باكستان مديراً للحرس الوطني الباكستاني.(١) وأشرفَ كاوثورن، نائب رئيس أركان الجيش الباكستاني وسكرتير لجنة قادة الأجهزة المشتركة الباكستاني، على تنظيم جهاز الاستخبارات المشتركة وعملياته الأولى.(٢) وليس بالأمر غير العادي أن يخدم ضباط بريطانيون في كل من الجيشين الهندي والباكستاني. فقد بقي كاوثورن طوال ثلاثين عاماً مع الجيش الهندي، وتلقى تفويضه في خلال الحرب العالمية الأولى.(٣) أُلحق في العشرينيات من القرن العشرين بالفوج البنجابي السادس عشر وخدم ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٥، في السرّ وفي العلن، في الحدود الشمالية الغربية وعيّن بعدها في وزارة الحرب في لندن.(٤) بيد أن خبرة كاوثورن في الحدود الشمالية الغربية هي التي جهّزته للعمل الاستخباري.

نشطت الاستخبارات البريطانية في الثلاثينيات من القرن العشرين على الحدود الشمالية الغربية؛ وعمل ضباط الاستخبارات مع المجموعات القبلية في تلك المنطقة لمواجهة النفوذ الشيوعي والتغلغل فيها.(٥) فخدمة كاوثورن في الحدود الشمالية الغربية زودته خبرة هائلة في العمل الاستخباري وهو ما سيستخدمه لاحقاً أفضل استخدام في باكستان المُنشأة حديثاً. ولا شكّ في أنه جاء إلى باكستان باتصالاته في الحدود الشمالية الغربية وصاغ لجهاز الاستخبارات المشتركة روابط جديدة مع المجموعات القبلية في المنطقة.

(١) أعلن حميد في خلال زيارته للندن في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٩ أن جهاز الاستخبارات موجود منذ عشرة أشهر مما يعني أنه أنشئ في شباط/فبراير ١٩٤٩ (أنظر CAB 159/6, Part 2, TNA)؛ بيد أن اللواء ج. ف. والتر، حامل وسام الاستحقاق، زار حميد في مقرّ جهاز الاستخبارات في كاراتشي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، وأفاد بأن جهاز الاستخبارات هو في مراحل إنشائه الأولى (أنظر WO 208/4961; CAB 159/6 Part 2, and WO 208/4961, TNA). ويرد اسم حميد الكامل في تقرير الموجز الاستخباري الاستراتيجي عن باكستان في تموز/يوليو ١٩٤٨ الذي يورد حميد بوصفه مديراً للحرس الوطني (أنظر WO 208/4960 and WO 208/4961, TNA).

(٢) CAB 159/6, Part 2, TNA.

(٣) WO 208/4960, TNA.

(٤) Peter Hohnen, "Cawthorn, Sir Walter Joseph (1896-1970)," Australian Dictionary of Biography, vol. 13 (Melbourne: Melbourne University Press, 1993), 329-93.

(٥) أنظر التقارير الأسبوعية لقسم مكتب الهند السياسي والسري، IOR, BL.

ضم جهاز الاستخبارات المشتركة كل أجهزة الاستخبارات العسكرية الباكستانية التي أصبحت جزءاً من جهاز مشترك يرأسه مدير واحد ويتلقى المشورة من لجنة قادة الجهاز المشترك وخصوصاً من سكرتيرها كاوثورن.(١) غير أن كلاً من الأجهزة المسلحة استمرّ في الاحتفاظ بمديريات استخبارات مستقلة فيما يعمل من كثب مع جهاز الاستخبارات المشتركة.(٢) وفي نيسان/أبريل ١٩٤٩، وفي مناخ أقل تقييداً نوعاً ما من الذي سبقه في العام السابق، تدبّرت لجنة الاستخبارات المشتركة لرؤساء الأركان البريطانيين أن تُرسل الأقسام البريطانية استخبارات ذات صلة ومعلومات إلى جهاز الاستخبارات المشتركة الباكستاني.(٣)

اهتمت باكستان، أكثر من أي مسألة أخرى، بالاستخبارات البريطانية المتعلّقة بالهند. وقد توجب عليها، في حقبة ما بعد الحرب، أن تواجه دولة هندية أكبر منها وأقوى بكثير. وزادت حرب ١٩٤٧ بين الهند وباكستان حول كشمير في إبراز أن الحرب التقليدية تعطي في النهاية الغلبة للهند. أضف إلى ذلك أن حدود الدولة الباكستانية تعطيها عمقاً استراتيجياً ضيقاً - فللقوات الباكستانية في الواقع مجال محدود للتراجع إذا لم يمكن احتواء أي اجتياح للجيش الهندي عند الحدود. وتبنّت باكستان، رداً على هذه المحدودية الاستراتيجية، عمليات حربية خفية وغير تقليدية في كل من كشمير والهند. فالتكتيكات الخفية واستخدام منظمات سرّية لا يمكن ربطها بها، حررت الدولة الباكستانية من أي التزام بمتطلبات المعاهدة وقد اعتمدت على إنشاء جهاز استخبارات كبير وصونه.

(١) عندما تم التخطيط لمكتب مكافحة التجسس الذي يتم إدخاله في جهاز الاستخبارات المشتركة، ارتئي أن يتولى ضابط بريطاني إنشاءه وتوجيهه. وسيتمتع رأس هذه الوحدة «بحق الولوج الكامل إلى مكتب الاستخبارات المدنية ونشاطاته.» ومن غير الواضح من الوثائق المُجملة هنا إذا كان ضابط بريطاني قد تولى هذا المركز أم لا (DEFE 11/31, TNA). وكانت مكافحة التجسس، حتى سلخ باكستان من الهند، مُنظمة في ظل مكتب الاستخبارات في نيودلهي وفي ظل مكتب التحقيق الجنائي الإقليمي؛ وافترضت لجنة الاستخبارات المشتركة أن هذا النظام لا يزال قائماً في ربيع ١٩٤٨ في كل من الهند وباكستان. ولم تمتلك لجنة الاستخبارات المشتركة في ذلك الوقت ضابط ارتباط في كاراتشي كما كانت الحال في نيودلهي. أنظر CAB 158/3, TNA.

(٢) WO 208/4961, TNA.

(٣) CAB 159/5, Part 1, TNA.

مثلت تلك بداية ترتيب مثالي: فبالرغم من الاتفاق في ١٩٤٨ على وقف النار بين باكستان والهند، فإن المناضلين الأفراد لم يمثلوا جزءاً منه إضافة إلى أنهم ليسوا رسمياً تحت سيطرة الحكومة الباكستانية.[١] وساعد جهاز الاستخبارات المشتركة، على مدى نصف عقد من الزمن، مجموعات إرهابية مسلمة وساند مجموعة متنوعة من التنظيمات الدينية الراديكالية كجزء من مخطط كبير لتقديم مصالح باكستان في كشمير من خلال حرب عصابات لا تنتهي.[٢] ولم يبق النزاع بشأن منطقة كشمير واحدة من المسائل الأكثر إثارة للخلاف والدمار المستشرية بين الهند وباكستان وحسب، بل أصبح مُكوّناً أساسياً في تحويل باكستان إلى تربة خصبة للإسلام السياسي والنضال الإسلامي.

أعطى مكتب المستعمرات البريطانية، في الفترة التي أعقبت إنشاء باكستان في ١٩٤٧، انتباهه الشديد للدور الذي يؤديه الدين وأفاد بأن الإسلام يمثل الآلية السياسية الأقوى للوحدة في المنطقة. فباكستان افتقرت إلى الهوية الوطنية المتماسكة، واستنتج البريطانيون أنه يمكن للدين أن يمثل الروابط الجامعة للدولة الجديدة خصوصاً وأن الإسلام هو الذي يميّز باكستان من الهند الجارة الأقوى والأكبر بكثير. ولهذه الغاية شجعت الحكومة البريطانية السياسيين الباكستانيين على استخدام الخطاب الديني والاستغاثة بالإسلام، ومع ذلك بدا أن التقارير التي رفعها مكتب المستعمرات في ١٩٤٨ يشوبها بعض من القلق وهي تصف السكان «المتعصبين» الذين يُلهبهم الإسلام فوق أي انشغالات اجتماعية أو سياسية أخرى.

رغم ذلك ركن مكتب المستعمرات، وهو يصف السكان في وجه عام بأنهم متعصّبون تعصباً أعمى، إلى طمأنة الزعامة التي ساهم في جلبها إلى السلطة – جناح

(١) Jessica Stern, "Pakistan's Jihad Culture," Foreign Affairs 79, no. 6 (November-December 2000): 117-18.

(٢) بعد إنشاء باكستان في ١٩٤٧ ترك الخيار للولايات الإسلامية في الراج البريطاني في الانضمام إلى أي من باكستان أو الهند. وبالرغم من أن غالبية سكان كشمير وجامو تتبع الدين الإسلامي، فضّل المهراجا، حاكم الولاية التاريخي، الهند. إلا أن باكستان لم تقبل قط قراره ولا الحدود التي تفصل بين الدولتين الجديدتين.

بصفة أساسية ولياقات علي خان – بأن باكستان ستبقى تحت السيطرة العلمانية. وافترض المسؤولون البريطانيون أن هؤلاء القادة سيدّعون التديّن وحسب لتوظيف الإسلام للغايات السياسية.(١) وعلى ما لاحظه أحد التقارير: «أثبت الدين جدواه في كونه سلاحاً سياسياً فعّالاً، وهو سلاح قد تدعو إليه الحاجة من جديد.»(٢) وهي ليست المرة الأولى التي ينظر فيها البريطانيون إلى وضع يمكن فيه استخدام الدين كآلية للروزنامات العلمانية.

أصبح الجيش الباكستاني، منذ مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، القوة الأقوى في البلاد، وتبنّى لدى استيلائه على السلطة واجهة إسلامية استخدمها أداة للتلاعب. وأقام أيوب خان في ١٩٥٨ ديكتاتورية عسكرية في باكستان. وبالرغم من أنه من غير الواضح تماماً ما الذي امتلكه البريطانيون من معلومات عن هذا الانقلاب أو مدى ضلوعهم فيه فإنهم اعتقدوا أن الولايات المتحدة دعمت أيوب خان في عملية إطاحته للحكومة.(٣) وبدا مسؤولو مكتب المستعمرات راضين على أيوب خان وعلى موقفه حيال الإسلام؛ وشعر بعضهم بأن «الأمر سياسي في المقام الأول – ورأى أنه يشكل وزناً مضاداً للتحديات الهندية من دون أن يتمسّك 'بوجهات نظر تقليدية متزمتة.'»(٤)

مُنح أيوب تقديراً مشروطاً على خطاباته التي شددت، في ربيع ١٩٥٩، على التهديد الشيوعي للإسلام. وتقبّل البريطانيون والأميركيون هذا التركيز على الإسلام لأن خطابات أيوب تضمّنت انتقاداً عاماً للعقائدية. وقال أيوب إن «معجزة الإسلام

---

(١) DO 142/345, TNA.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Tariq Ali, The Duel: Pakistan on the Flight Path of American Power (New York: Scribner, 2008), ٥٠. يأتي معظم التقارير المتوافرة عن هذه الحقبة من مكتب المستعمرات ، ومن الممكن، كالعادة، أن تكون «اليد اليمنى» للحكومة البريطانية رغم ذلك غير مدركة ما تفعله «اليد اليسرى» للاستخبارات في باكستان.

(٤) خارج هذا العالم المتديّن – أقله اسمياً – اتخذ الرئيس الموقف «الصحيح» حيال شخصيات خطرة مثل عبد الناصر؛ فهو لا يحبه شخصياً وحاذر الاتصال به. أنظر DO 35/8962, TNA.

هي في أنه دمّر الأصنام، ومأساة المسلمين هي في أنهم حوّلوا الدين إلى شكل من أشكال الصنمية.» وامتُدح أيوب، طبعاً، لأن خطاباته شنّعت الشيوعية وعدّتها عدوّة للإسلام. وساد شعور أيضاً بأن المجموعات المدنية تعتنق رؤية مُرضية لدور الإسلام؛ وقيل عن مولانا برويز، مدير الأبحاث القرآنية في لاهور، إنه يعبّر عن فهم ديمقراطي للإسلام «على الطريقة الأميركية.»(١)

استمرّ البريطانيون، طوال الخمسينيات من القرن العشرين، في جمع الاستخبارات عن تأثير الإسلام في باكستان تحت ستار القيام «بأبحاث.» وفي الفترة المؤدية إلى انقلاب أيوب خان في ١٩٥٨، راقب العملاء البريطانيون المجموعات الدينية في باكستان وأقاموا اتصالات بها اعتقاداً منهم بأن في وسع ذلك تزويدهم المعلومات المفيدة أو بالتأثير وسط حالة عدم اليقين السياسي السائدة. وإحدى المجموعات التي دأب مكتب المستعمرات على مراقبتها في أواسط الخمسينيات من القرن العشرين هي الجماعة الإسلامية التي وصفها مراقبوها البريطانيون بأنها يمينية متطرفة جداً ومعادية للشيوعية. وقد أنشأ أبو الأعلى المودودي الجماعة الإسلامية في ١٩٤١ في الهند. وهي تنظيم إسلامي متعصّب أنشئ، في جزء منه، كمناوئ للرابطة الإسلامية التي يُنظر إليها بوصفها موالية للبريطانيين وللعلمانية. وقد وقفت الجماعة الإسلامية في الأربعينيات ضد إنشاء دولة إسلامية بالرغم من أنها أصبحت الداعية الأكثر مجاهرة إلى نظام شرعي وسياسي إسلامي متشدّد بعد نيل باكستان الاستقلال.(٢) وتأثر المودودي نفسه بعلماء دين سعوديين وأقام اتصالات وثيقة بالسعوديين قبل إنشاء باكستان.(٣)

حُظرت الجماعة الإسلامية في ١٩٥٤ بعد اتهامها بالتخطيط لانقلاب وبقيادة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) Pooja Joshi, Jamaat-i-Islami: The Catalyst of Islamization in Pakistan (New Delhi: Kalinga, 2003), 15-21; Ali, Duel, 23.

(٣) أصبحت جماعة علماء الإسلام أيضاً لاعباً قوياً في باكستان وأفغانستان. ولهم أيضاً خلفية وأساس وهابيان، وهم يتبعون التقليد الديوباندي الذي عُدَّ «بيت التعصب السنّي في الهند قبل تقسيمها.» أنظر، Ali, Duel, 23.

الاضطرابات الطالبية في لاهور وبتلقي الأموال من مجموعات أجنبية معادية لحكومة باكستان. وفي ١٩٥٨، أفاد مكتب المستعمرات أن للجماعة نفوذاً كبيراً لكنه لا يكفي لإطاحة النظام. وشبّهت التقارير الجماعة الإسلامية بالإخوان المسلمين في مصر بالرغم من عدم إقامة أي رابط بين التنظيمين في ما هو أكثر من تنديد الجماعة باضطهاد الحكومة المصرية للإخوان.[١] واسترعت الجماعة الإسلامية انتباه البريطانيين مرة أخرى في ١٩٦٤ عندما استعادت وضعها الشرعي بعدما حكمت المحكمة العليا ضد الحكومة الباكستانية. وأفيد في ذلك الوقت بأن الجماعة مناهضة جداً للشيوعيين وتعارض حركة الاستقلال الكشميرية.[٢]

بات البريطانيون، عند هذا الحد، مجرّد مراقبين للأحداث في باكستان. وقد انضم الأميركيون في الخمسينيات من القرن العشرين إلى البريطانيين وتورطوا في كل من السياسة الباكستانية والجيش. وتراجع النفوذ البريطاني في البلاد سريعاً بعد وصول الأميركيين وحلّت واشنطن محل لندن كراعية لباكستان وحليفة لها. وأجرى القادة الباكستانيون التعديل اللازم بسهولة واستغلوا موقع باكستان الجغراسي وأوراق اعتمادها الدينية للحفاظ على العلاقة مع الأميركيين ومتابعة سياسة جريئة في أفغانستان.

ونُظر إلى باكستان على أنها تحتل موقعاً فريداً بامتلاكها حكومة إسلامية ظاهرياً، وهي في الواقع متعاطفة مع الغرب، «وليس إيمانها الإسلامي ... في الغالب إلا سطحياً،» في الوقت الذي يسكنها مسلمون متدينون يمكن تجنيدهم لمحاربة الشيوعية بالإسلام.[٣] وبحلول ١٩٥٢-١٩٥٣ أدى بروز القومية العربية والتهديد الماثل بتأميم إيران صناعتها النفطية إلى زيادة الاهتمام الأميركي بباكستان. وعوّم وزير الخارجية جون فوستر دالاس في ١٩٥٢ فكرة «الجزء الشمالي» للدول الإسلامية المترابطة

---

(١) DO 35/5154, TNA.

(٢) DO 196/418, TNA.

(٣) أنظر: Rizwan Hussain, Pakistan and the Emergence of Islamic Militancy in Afghanistan (Farnham: Ashgate, 2005), 69, الذي يستشهد أيضاً بمايلز كوبلاند Game of Nations الصفحة ٥٨.

الذي يضمّ إيران وباكستان وتركيا بوصفه منطقة دفاعية ضد التوغّل السوفياتي.[١] وأطلقت الولايات المتحدة أيضاً، في سياق الخمسينيات، برامج مساعدة مختلفة لباكستان رأى فيها بعضهم واجهة للتدخل السياسي والاجتماعي.[٢]

أصبحت باكستان بالفعل حاجة استراتيجية إلى الولايات المتحدة لأنها تحتل موقعاً جغرافياً رئيسياً بوقوعها بين الشرق الأوسط وجنوب آسيا. أضف إلى ذلك أن علاقة الاتحاد السوفياتي بالهند حدّت في شكل كبير من النفوذ السوفياتي في باكستان. وقد اشتكى وزير خارجية الاتحاد السوفياتي أندريه غروميكو من «شبكة [غربية] غادرة علقت فيها باكستان منذ نشوئها تقريباً كدولة مستقلة.»[٣] وبرزت باكستان الجديدة كدولة خط تماس في الحرب الباردة وكحليف استراتيجي للولايات المتحدة من ١٩٤٧ إلى ١٩٨٩.

بحلول أواسط الخمسينيات كان الجيش الباكستاني قد دخل شراكة أوثق مع الولايات المتحدة، لسبب أساسي وهو عضوية باكستان في حلف بغداد الذي أصبح لاحقاً «منظمة المعاهدة المركزية» (السنتو).[٤] وبالرغم من حالة الجَيَشان التي أعقبت تقسيم الهند، قدّم إنشاء باكستان في ١٩٤٧ للبريطانيين ومن بعدهم للأميركيين أفضلية فريدة في نوعها في المنطقة. فالدولة الجديدة قائمة في منطقة

(١) Hussain, Emergence, 59.

(٢) يعطي حمزة علوي وصفاً للتورط الأميركي في مطلع الخمسينيات في ما يُزعم أنه أزمة غذاء مصطنعة في باكستان أدت إلى تغيير في السلطة لمصلحة حكومة تؤيدها الولايات المتحدة. أنظر Hamza Alavi, "Pakistan-US Military Alliance," Economic and Political Weekly 33, no. 25 (20-26 June 1998): 1554.

(٣) Andrei Gromyko, Memories (London: Hutchinson, 1989), 246-47. يبرز إحباط غروميكو حيال باكستان في ما كُشف عن عمليات الاستخبارات السوفياتية في العالم الثالث وهو ما تضمّنته الوثائق التي هرّبها إلى الغرب عامل الأرشيف السابق في «الكا.جي.بي.» فاسيلي ميتروخين. ولم تحقق الاستخبارات السوفياتية سوى القليل من الاختراقات في باكستان ما عدا بعض النشاطات الاستخبارية الصغيرة وعمليات التخريب. أنظر Andrew and Mitrokhin, World, 341-68.

(٤) منظمة الحلف المركزي، وقد عُرفت أساساً بمنظمة معاهدة الشرق الأوسط أو حلف بغداد، وتبناها في ١٩٥٥ كل من إيران والعراق وباكستان وتركيا وبريطانيا. وشكّل الحلف اتفاقاً تعاونياً غير تدخلي صُمم لحماية الجزء الشمالي من الشرق الأوسط من التدخل السوفياتي.

حيوية جداً يسيطر عليها قادة متعاونون وتُدار على أساس إسلامي ظاهري. وعلى عكس الهند التي أزعجت واشنطن وروّعتها باعتمادها سياسة عدم الانحياز والصداقة مع الاتحاد السوفياتي، بقيت باكستان حليفة ثابتة للولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أن الأميركيين كوّنوا انطباعاً سيئاً عن الهند والهندوسية. وأصبحت الهند غير مرغوب فيها سياسياً لأن السوفيات أصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من حزب المجلس.[١] ونظر الأميركيون إلى الهندوسية على أنها تبدو متخلّفة وسلبية. وفي المقابل بدا الدين الإسلامي التوحيدي أقرب إلى المسيحية وبدا زعماء باكستان «أكثر قوة بكثير، وهِماماً، وصريحين، ومولعين بالحرب، وباختصار أكثر رجولة.»[٢]

شرع الجيش الباكستاني في تلك الفترة في التحوّل عن جذوره البريطانية إذ شرع جيل جديد من الضباط الباكستانيين في تلقي التدريب في بلادهم في إطار العقيدة العسكرية الأميركية.[٣] وترافق هذا التغيير أيضاً مع مواقف لبعض الضباط الذين تبنّوا تقديراً مُضخَّماً عن مزاياهم ومزايا باكستان العسكرية وافترضوا أن جنديّاً باكستانياً واحداً يوازي عشرة جنود هنود أو أكثر. وترتبط هذه النظرة طبعاً بأيديولوجيا «الأعراق المقاتلة» التي استخدمها البريطانيون في الهند.[٤] وقد نتج من التشديد على المزايا الفريدة للجيش الباكستاني تشديد مماثل على المزية الإسلامية للقوات المسلحة.

أصبح الدين عنصراً حاسماً في هوية الجيش الباكستاني، بما أنه، ما عدا الإسلام، لا يمكن تمييزه من الجيش الهندي من حيث تنوّع العناصر الإثنية في الجيش المؤلف من تنوّع من «الأعراق المقاتلة». وبالرغم من عدم الاعتقاد بتحول الجيش الباكستاني تحولاً كبيراً صوب الإسلام السياسي قبل السبعينيات، فإن التركيز على

(١) Andrew and Mitrokhin, World, 341.

(٢) George C. Herring, From Colony to Superpower: US Foreign Relations Since 1776 (Oxford: Oxford University Press, 2008), 680-81.

(٣) Stephen P. Cohen, The Idea of Pakistan (Washington, D.C.: Brookings Institution, 2004), 102.

(٤) المصدر نفسه، ١٠٣.

الإسلام في ما يتعلّق بالروح العسكري مهّد الطريق لتطورات لاحقة في العلاقة بين الإسلام السياسي والجيش الباكستاني. ولم يمثل ضباط جهاز الاستخبارات المشتركة استثناء. فقد وسّعت الأحداث المحلية والدولية في السبعينيات في اتصالات الجهاز بالإسلام السياسي وبالمجموعات الإسلامية الراديكالية في أفغانستان.

وبالرغم من أن محمد ضياء الحق هو الزعيم الباكستاني المسؤول في الأساس عن مضاعفة قوة جهاز الاستخبارات المشتركة، فإن سلفه ذو الفقار علي بوتو أدى أيضاً دوراً مهمّاً في دعم جهاز الاستخبارات والإسلام الجهادي. فقد حظر بوتو الكحول وجعل من يوم الجمعة يوم عطلة. وعدَّ أيضاً طائفة الأحمدية بأنها غير مسلمة، حيث إن معظم المسلمين يعدُّها من البدع. ومثل هذا عملاً مساعداً على احتكارية المجموعات المتطرفة في باكستان وتنازلاً تطالب به الجماعة الإسلامية منذ زمن طويل ولم يشأ أي زعيم آخر منحه لها.[1] وما دفع بوتو إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات، أقله جزئياً، هو المخاوف الأمنية في شأن أفغانستان. ومنذ ١٩٤٧ وما بعدها تبنّى الجيش الباكستاني استراتيجية مفادها أن أفغانستان تمثّل المفتاح لتصحيح افتقار باكستان إلى العمق الاستراتيجي. واعتقد بعضهم أنه بما أن غزاة الهند أتوا تاريخياً عبر أفغانستان، فإنه لا يمكن ضمان الدفاع عن باكستان إلا بإدماج الدولتين، غير أن وجود أفغانستان صديقة مثّل بالنسبة إلى الكثيرين أمراً أكثر واقعية بكثير.

لم يُغْرِ مفهوم الوحدة هذا بعض الأفغانيين كثيراً لتمتعهم بشعور مختلف من الهوية الإثنية والعرقية، لكنه مثّل جاذباً للبشتون الذين تمتطي قبيلتهم كلاً من الشمال الغربي لباكستان وأفغانستان. ومثّل احتمال الوحدة مع باكستان، من جهة أخرى، جاذباً للأفغان الملتزمين بالإسلام – فمنذ بداية باكستان تقريباً والتهديد بتدخل الهند في أفغانستان وإمكان أن تستغل الهند أفغانستان لمهاجمة باكستان يستحوذ

(١) Ali, Duel, 107. أقامت الاستخبارات المشتركة أيضاً في عهد بوتو «خلية انتخابية» هدّدت الناخبين وتلاعبت بالنتائج. وقد أدى موقف بوتو الديني إلى تبديل عميق في استقامة باكستان السياسية.

دوماً على السياسيين الباكستانيين والجنرالات. ووفقاً لذلك شرعت الاستخبارات المشتركة في الستينيات في تشجيع المجموعات الإسلامية الباكستانية الجهادية على رعاية المنظمات التي تفكّر بالمثل في أفغانستان.[١] وشرعت الاستخبارات الباكستانية، في عهد بوتو، في تزويد المنفيين الأفغان السلاح وفي التحريض على الثورات القبلية بغية إبقاء الهند خارج أفغانستان ومنعها من أن تُقْدم في النهاية على استيعاب الدولة الافغانية.[٢]

دعمت العمليات الخفية والتحريض على أعمال التمرد في كشمير هذه الاستراتيجية، وخصوصاً بعد حرب ١٩٦٥ بين الباكستان والهند عندما اكتشفت إسلام أباد حدود التحالف مع الولايات المتحدة. فقد قرر الأميركيون، بعد اندلاع أعمال العداء، فرض حظر على كل من باكستان والهند. ولأن باكستان تعتمد في شكل شبه حصري على الأسلحة وغيرها من الإمدادات العسكرية من الولايات المتحدة فإن الحظر قوّض قدرة جيشها على هزم الهند – أقله تلك هي النتيجة التي تم استخلاصها في إسلام أباد. وحاولت إدارة جون ف. كنيدي بعد ذلك بثلاث سنوات تحسين علاقاتها مع الهند، وهي الخطوة التي أثارت استفظاعاً عظيماً؛ وبالرغم من عدم تحقيقها الكثير، فقد فتح الباكستانيون نقاشات مع الصين وروسيا. وزوّد الروس باكستان بعض الأسلحة لكن بما لا يكفي لاستبدال تلك التي وفّرتها الولايات المتحدة. وبالرغم من عدم حصول انتفاضات واسعة تتزامن مع اندلاع أعمال العداء في ١٩٦٥، استمرت الاستخبارات المشتركة في تشجيع تنظيم حركة حرب عصابات معادية للهند.[٣]

---

(١) Haqqani, Pakistan, 165-67.

(٢) Ali, Duel, 119.

(٣) Haqqani, Pakistan, 265; Victoria Schofield, Kashmir in Conflict: India, Pakistan and the Unfinished War (London: I. B. Tauris, 2000), 113; Herring, Colony, 712-13; Arif Jamal, Shadow War: The Untold Story of Jihad In Kashmir (Brooklyn, NY: Melville House, 2009), 86-87. وبحسب عارف جمال وجدت ما بين ١٩٦٥ و١٩٧١ ثمانون خلية سرية أقيمت في وادي كشمير يعمل بعضها مع جهاز الاستخبارات المشتركة.

نشبت الحرب الأهلية في باكستان في ١٩٧٠، حيث قاتل الجزء الشرقي للانفصال عن البلاد.[١] وإحدى نتائج هذا النزاع الذي ساعدت فيه الهند الانفصاليين هي مضاعفة بوتو ميزانية جهاز الاستخبارات المشتركة مضاعفة كبرى. والملاحظ أن بعض التمويل جاء من الولايات المتحدة بسبب مصلحة الأميركيين الخاصة في مساعدة باكستان في المواجهة الهندية-الباكستانية التالية في ١٩٧١. فقد اعتقد ريتشارد نيكسون وإدارته أن من الحيوي أن يظهروا للمجتمع الدولي – وللصين بنوع خاص (وهي المؤيد القوي لباكستان) – أن الولايات المتحدة تساند شركاءها الاستراتيجيين في أوقات الأزمة. وقد افترض البيت الأبيض أن الهند مصممة على إذلال باكستان في شأن بنغلادش وأنها أبرمت، لهذه الغاية، تحالف الأمر الواقع مع السوفيات.

وهكذا تجاهلت الإدراة الاعتراضات القوية من وزارة الخارجية وأمرت بانعطاف ديبلوماسي في اتجاه باكستان لمنع تفكيكها ولتبرهن للصين بأن الولايات المتحدة ستقاوم أي تدخل عسكري مدعوم من السوفيات.[٢] وساند السعوديون أيضاً باكستان الإسلامية. وبالرغم من استخدام الحرب الخفية في نزاعي ١٩٤٧-١٩٤٨ و١٩٦٥ مع الهند، شجّع جهاز الاستخبارات المشتركة على التمرّد الواسع النطاق في الحرب الأهلية الباكستانية في ١٩٧٠-١٩٧١.[٣] وتم تجنيد جيوش حرب عصابات إسلامية للقيام بعمليات في بنغلادش – وهي الدولة الإسلامية بالكامل. وجاء معظم هؤلاء الرجال من مجموعات بنغالية إسلامية مناضلة مُختارة.[٤] وأعطت زيادة المساندة من باكستان، وكذلك من الولايات المتحدة والسعودية، في حرب ١٩٧٠-١٩٧١ جهاز الاستخبارات المشتركة سلطة محلّية أكبر وشبكة واسعة من الاتصالات مع مجموعات

(١) نجحت الحركة الانفصالية وأنشئت الدولة التي تُعرف الآن ببنغلادش في ١٩٧١ المؤلفة مما كان يعرف سابقاً بشرق باكستان.

(٢) Henri Kissinger, Years of Renewal, vol. 3 (New York: Simon & Schuster, 1999), 82.

(٣) Cohen, Idea, 100.

(٤) المصدر نفسه، ١٠٥.

حرب العصابات الإسلامية المناضلة. وأصبحت الاستخبارات المشتركة، نتيجة ذلك، في موقع التدخّل المكشوف في السياسة الباكستانية والدين والمجتمع.[١]

أطاح ضياء بوتو في تموز/يوليو ١٩٧٧ وأقام ديكتاتورية عسكرية في باكستان استمرت ١١ سنة. حاز هذا الانقلاب دعم البيت الأبيض الذي أراد استقرار باكستان بغض النظر عن الكلفة والعواقب. شعر الأميركيون أن ضياء في موقع القادر على حفظ استقرار ليس باكستان وحسب بل المنطقة كلها أيضاً بما فيها أفغانستان.[٢] وبالرغم من استخدام بوتو السابق للمتطرفين الدينيين لتمكينه من السيطرة على باكستان، فإن نظام ضياء هو الذي أنجز تحويل جهاز الاستخبارات المشتركة إلى سلاح سياسي وعزّز علاقته بالمجاهدين الإسلاميين. وأمسك جهازُ الاستخبارات المشتركة وزملاؤه الإسلاميون بقوة بالسياسة في باكستان وبأجزاء كبرى من المجتمع. وقد تغلغلوا في الجامعات وفي وسائل الإعلام، وساعدوا على تنظيم المجموعات الإرهابية للعمل في الداخل والخارج. وأقامت الجماعة الإسلامية، من خلال الاستخبارات المشتركة، روابط مع الولايات المتحدة والسعوديين.[٣] غير أن كلا السعوديين والأميركيين تضايق من التنظيم الإسلامي الباكستاني.

واستخدم ضياء، بوساطة جهاز الاستخبارات المشتركة، أحزاباً إسلامية مثل الجماعة الإسلامية لمواجهة المعارضة للديكتاتورية العسكرية ولإضعاف مكانة مناوئيه السياسيين. ضاعف ضياء من دعمه للجماعة الإسلامية وساعد على نشر نفوذ المنظمة إلى أفغانستان. وبفضل رعاية ضياء، تعاظمت قوة الجماعة التي سبق أن حازت أقل من خمسة بالمئة من الأصوات في الانتخابات الحرة، وازداد نفوذها في خلال السبعينيات.

تبخّرت أية هواجس أميركية من شرعية نظام ضياء مع الاجتياح السوفياتي لأفغانستان المجاورة في ١٩٧٩. وخلق ما تبع ذلك من جهاد ضد السوفيات الظروف

(١) المصدر السابق، ١٠٠.

(٢) Ali, Duel, 113-19.

(٣) المصدر نفسه، ٢٣، ١٢٣.

المثالية لباكستان للتدخل المباشر في أفغانستان – الذي جرى هذه المرة بالتواطؤ مع الولايات المتحدة. وسوّق جهاز الاستخبارات المشتركة الحرب الأفغانية بوصفها معركة ضد الملحدين الشيوعيين وجنّد المقاتلين من أنحاء الدول العربية وجنوب آسيا والشرق الأوسط كافة. وساعد الجهاز الجماعة الإسلامية على إقامة روابط في أفغانستان التي ساعدته بدورها على إنشاء الحركات الإسلامية الجهادية[١].

أنشأ مدير جهاز الاستخبارات المشتركة الجنرال أختر عبد الرحمن مكتباً أفغانياً للجهاز تعاون مع وكالات الاستخبارات الأميركية في مقابل تزويده السلاح والمال. ولم يشأ ضياء مواجهة السوفيات علانية، فقام جهاز الاستخبارات المشتركة «المتكتّم والمتحفّظ» سراً بتجيير الأموال الأميركية والسعودية إلى المحاربين.[٢] وبموجب هذه الخطة ذهب التمويل إلى المجاهدين من خلال جهاز الاستخبارات المشتركة فيما نفت الحكومة تورّطها.[٣] وتركّزت المساعدة على مجموعات مقاومة إسلامية شبيهة بالجماعة الإسلامية.[٤] وقد أرادت «السي.آي.إي.» تقديم المساعدة مباشرة إلى القادة الميدانيين للمجاهدين، غير أن جهاز الاستخبارات المشتركة أصرّ على العمل من خلال الأحزاب الدينية.[٥] وناسب هذا التدبير جيداً ضياء وجهاز الاستخبارات المشتركة اللذين استغلا السخاء الأميركي لتمويل مجموعات في أفغانستان تناسب أيديولوجياتها مصالح باكستان. وعلى المدى الطويل دعمت تجربة الحرب الأفغانية روابط باكستان – وخصوصاً جهاز الاستخبارات المشتركة – بالمجاهدين المسلمين

(١) Cohen, Idea, 195; Hussain, Emergence, 249.

(٢) Ali, Duel, 119P Lawrence Ziring, Pakistan at the Crosscurrent of History (Oxford: Oneworld, 2003), 180.

(٣) Stephen Tanner, Afghanistan: A Military History from Alexander the Great to the Fall of Taliban (Cambridge: Da Capo, 2002), 250.

(٤) Ziring, Crosscurrent, 177.

(٥) Tanner, Afghanistan, 254. تمكّنت «السي.آي.إي.» بعد وفاة ضياء في ١٩٨٨ من كسب الحق في توزيع السلاح في الميدان. غير أن جهاز الاستخبارات المشتركة والسعوديين استمروا في التلاعب بالساحة من خلال تقديم مساعداتهم بطريقة انتقائية. أنظر Tanner, Afghanistan, 274.

في كل من أفغانستان وباكستان، وأبرزت قيمة الحرب الخفية بوصفها الوسيلة الأساسية لمحاربة الهند.[١]

استمرت سلطة جهاز الاستخبارات المشتركة ونفوذها في السنوات الأخيرة في الازدياد في باكستان مع مضاعفة الروابط بالإسلام الراديكالي. واستمرّت العلاقة المثلثة بين الحكومة الباكستانية وجهاز الاستخبارات المشتركة والمجاهدين الراديكاليين في عهد بنازير بوتو التي جاءت إلى السلطة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨. وتحدث الجنرال حميد غول، الذي تولّى منصب المدير العام لجهاز الاستخبارات المشتركة في عهد بنازير، في مقابلة في ٢٠٠٨ بصراحة عن علاقاتها «بالجهاديين» ـ ودعمها لهم.[٢] فقد تورطت حكومة بوتو تورّطاً مباشراً في تغلغل عناصر من الطالبان في أفغانستان في التسعينيات، فيما زعمت بوتو أن باكستان تعيد لاجئين أفغاناً إلى ديارهم وحسب. ولم يسع الطالبان تحقيق المكاسب التي حققوها في أفغانستان في مطلع التسعينيات لولا الدعم الذي تلقوه من جهاز الاستخبارات المشتركة.[٣] وفي غضون ذلك، وبعد انهزام الاتحاد السوفياتي في أفغانستان، أشاحت الولايات المتحدة أساساً بعينيها عما يجري في المنطقة إلى حين أحداث ٩/١١ عندما أصبحت باكستان من جديد جزءاً لا يتجزّأ من العلاقة الأنكلوـأميركية مع الإسلام.

سبق في خلال هذه الفترة لعدة أشخاص رئيسيين في نظام الجنرال برويز مشرّف العسكري أن خدموا في جهاز الاستخبارات المشتركة.[٤] وفي الواقع فإن مشرف

(١) حتى أن سياسيين أميركيين بارزين كانوا مستعدين للتسليم بالضرر الذي تسببت به السياسة الأميركية في خلال الحرب الأفغانية. وفي نقاش بين الخبراء في ٢٠٠٨ قال النائب السابق لوزير الخارجية ريتشارد أرميتاج بصراحة إن الولايات المتحدة عرفت ماذا سيكون وقع أفعالها في خلال الحرب في باكستان. «وبعبارات أخرى فإنها عرفت تمام المعرفة أنها سلّمت البلاد إلى المجموعات الدينية وإلى جهاز الاستخبارات المشتركة.» أنظر Ali, Duel, 251.

(٢) المصدر السابق، ١٣٧ وهو ينقل عن "Get America Out of the Way and we'll be Okay," interview with Hrinder Baweja, Tehelka Magazine, 2 February 2008.

(٣) Ali, Duel, 136-37, 142.

(٤) Hussain, Emergence, 249.

نجح في التولي على باكستان بمساعدة مدير الجهاز محمود أحمد الذي نجح في استمالة ضباط رئيسيين كبار في الجيش الباكستاني إلى مشرّف.[١] والمهم هنا هو أن سلك الضباط الباكستانيين أخذ يرتبط في شكل متزايد بالمجموعات الإسلامية. فأحمد نفسه، أعاد في شكل شبه فوري بعد الانقلاب، اكتشاف جذوره الإسلامية وأصبح مسلماً متديّناً ومؤيداً متحمّساً للطالبان وللمجموعات الإسلامية الأصولية التي تقاتل في كشمير.

ولم يمتلك أحمد، بوصفه رئيساً لجهاز الاستخبارات المشتركة وعضواً أساسياً في الطغمة الحاكمة، السيطرة على العمليات الخفية وحسب بل أيضاً على سياسة باكستان الخارجية كاشفاً بذلك زيف احتجاجات مشرف المناهضة للإرهاب.[٢] ويستذكر مدير «السي.آي.إي.» جورج تينت فطور عمل جمعه مع رئيس الاستخبارات الباكستانية أحمد أن «هذا الشخص لم يتزحزح عن موقفه عندما تعلّق الأمر بالطالبان والقاعدة.»[٣] كذلك اجتمع أحمد مع أعضاء في الكونغرس في تلة الكابيتول في الوقت نفسه الذي وصلت فيه تقارير إلى واشنطن عن أن طائرتين ضربتا البرجين التوأمين في نيويورك والبنتاغون. ولمّا يمض وقت طويل على ذلك حتى استبدل مشرّف أحمدَ في رئاسة جهاز الاستخبارات المشتركة ليداهن الأميركيين ويظهر أن باكستان مستعدة للانضمام إلى الحرب الأميركية على الإرهاب؛ غير أنه لم يتغيّر الكثير في الواقع. وتؤشّر حقيقة أن واشنطن صدّقت مشرّف إلى الصعوبات التي واجهت الأميركيين لدى تعاطيهم مع جنوب آسيا. وبات على مشرّف موازنة الضغط الهائل من إدارة جورج و. بوش مع النزعة داخل سلك الضباط الباكستانيين إلى الإسلام.

قبل ذلك بنحو عقد من الزمن شرعت أعداد متزايدة من الضباط الباكستانيين

(١) George Tenet, At the Center of the Storm: My Years at the CIA (New York: Harper-Collins, 2007), 142.

(٢) Ahmed Rashid, Descent into Chaos (New York: Viking, 2008), 24.

(٣) Tenet, Center, 141.

الكبار في التحول إلى الإسلام والتنظيمات الإسلامية. وقد حضر ١٩ ضابطاً متقاعداً في الجيش الباكستاني مؤتمر الجماعة الإسلامية في ١٩٩١، وبات من الشائع أن يشارك ضباط جهاز الاستخبارات بعد تقاعدهم في سياسة الجماعة الإسلامية بما في ذلك الانضمام إلى الجماعات الإسلامية المجاهدة.(١) أضف إلى ذلك أن جهاز الاستخبارات المشتركة نفسه قد اتُهم بتوسيع نطاق النشاطات الإرهابية في السنوات الأخيرة، بما في ذلك قتل دانيال بيرل وطائفة من الاغتيالات داخل باكستان وتفجير إحدى الكنائس في إسلام أباد وأخيراً الهجمات على مومباي. وبحسب الخبير طارق علي فإن الكثير من هذه الأفعال هدف إلى معاقبة زعماء باكستانيين على «خيانتهم» للطالبان بعد ٩/١١ وكتحذير لحكومة باكستان بعدم الخضوع كثيراً للطلبات الأميركية.(٢) ومن غير المرجّح، بالرغم من هذه الاتهامات، أن يكون جهاز الاستخبارات هو الذي نظّم هذه الهجمات – بل إنها على الأرجح من تنظيم مجموعات راديكالية ليس لجهاز الاستخبارات سوى سيطرة محدودة عليها.

تورّط جهاز الاستخبارات المشتركة أيضاً مباشرة في إعادة تنظيم الطالبان ومدّهم بالدعم المتواصل. فقد منح الجهاز الطالبان حق الوصول إلى الغذاء والمؤن الطبية والقدرة على جمع الأموال (عبر مصادر خاصة) والمعلومات الاستخبارية والنصح الاستراتيجي في معاركهم الأساسية. بل إنه ساعدهم على التفاوض على اتفاقات مع القادة المحليين وأسياد الحرب. وقد فرّخ الكثير من المنظمات في أفغانستان لمحاربة السوفيات والتنافس في السيطرة على البلاد عقب هزيمة السوفيات غير أن الطالبان خرجوا بالنجاح الأكبر. وبنتيجة ذلك تخلى جهاز الاستخبارات المشتركة عن مجموعات المجاهدين الأخرى في أفغانستان لمصلحة الطالبان. ولم يسع جهاز الاستخبارات سلوك مثل هذه السياسة البالغة الأهمية من دون تواطؤ الحكومة الباكستانية. واللافت هو أن التزام باكستان بالطالبان لم يتوسّع على يد حكومة مؤيدة للإسلام مثل حكومة ضياء، بل جاء بعد انتخاب بنازير بوتو، المرأة ذات الاتجاهات

(١) Cohen, Idea, 112.

(٢) Ali, Duel, 149-50.

الليبرالية الواضحة المتحدرة من عائلة كوزموبوليتية وتلقّت تعليمها في الغرب. لكنها، على ما يعلّق به رسول بخش ريّس، «افتقرت إلى السيطرة على السياسة الباكستانية حيال أفغانستان.»[١]

ثمة عوامل مركّبة وراء سياسة مختلف الأنظمة الباكستانية المؤيدة للطالبان وهي: مشاعر البشتون الباكستانيين، وتأثير المؤسسة الإسلامية المجاهدة، وجهاز الاستخبارات المشتركة. وجاء الدعم الأكبر للطالبان من زعماء البشتون القبليين والإقليميين. وأصبحت الروابط مع الزعماء القبليين المحليين أكثر وثوقاً بعد ٢٠٠١ عندما طرد الجيش الأميركي الطالبان من أفغانستان. وعمد كل من الطالبان والقاعدة، كجزء من حملة التودّد لبشتون باكستان، إلى تشجيع قيادتهما على الزواج من داخل عائلات رؤساء القبائل المحلية. وبعبارات رئيس محطة «السي.آي.إي.» السابق في كابول، غراهام فوللر فإن:

> الطالبان يمثلون الإسلاميين المتشددين الجبليين والكثيري الجهل. وجميعهم أيضاً من البشتون. ويرى معظم البشتون في الطالبان – سواء كانوا مثلهم أم لا – الآلية الأساسية لاستعادة سلطة البشتون في أفغانستان التي فقدوها في ٢٠٠١. والبشتون أيضاً من بين أشد الشعوب في العالم وطنية وقبلية وكرهاً للأجانب، ولا يتوحدون إلا ضد الغازي الأجنبي. وربما كان الطالبان، في النهاية، بشتوناً أكثر من كونهم إسلاميين.[٢]

يمثّل الدين عاملاً كبيراً وجزءاً حاسماً من بقاء الطالبان. فديوباندي جامعة علماء الإسلام،[٣] إضافة إلى معظم التنظيمات الأخرى التي تشكّل الحركة

---

(١) Rais, Recovering, 71.

(٢) Graham E. Fuller, "Obama's Policies Making Situation Worse in Afghanistan and Pakistan," Huffington Post, 6 September 2009, http://www.huffingtonpost.com/graham-e<->fuller/global-viewpoint-obamas-p_b_201355.html.

(٣) الرابطة التي تجمع علماء الدين المسلمين.

الديوباندية وشبكة المدارس (الدينية) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطالبان.[١] وجامعة علماء الإسلام، على غرار الجماعة الإسلامية، تقبل مفهوم العرقية والانقطاع للإسلام وتنغمس في السياسة الباكستانية. وقد شاركت في العملية الانتخابية الباكستانية وانضمّت في ١٩٩٣-١٩٩٦ إلى حكومة بنازير بوتو الائتلافية. لكن، وبحسب تقرير صدر بعد الحرب، «يوجد في العمق عامل إثني مشترك يربط ما بين كل هؤلاء العناصر.»[٢] ويضمّ سلك الضباط الباكستانيين، وكذلك جهاز الاستخبارات المشتركة، بالتأكيد بشتونيين من الأقاليم الباكستانية الشمالية الغربية – وهذا إرث مفهوم «الأعراق المقاتلة» الذي لا يزال يسيطر على القوات المسلحة الباكستانية.

ويظهر أن جهاز الاستخبارات المشتركة هو الذي يدير العمليات السياسية الخفية والمُعلنة حيال أفغانستان والهند. بيد أن الجهاز ليس عنصراً مارقاً، بل الأحرى يمثل زبدة سلك الضباط الباكستانيين ويمتلك فهماً دقيقاً للحدود الشمالية الغربية أفضل من أي جهاز محلي أو خارجي آخر. ويعتبر رسول بخش ريّس أن من غير المرجّح أن يسير الجهاز بروزنامة منفصلة عن الزعامة السياسية والعسكرية الباكستانية. ففي كل مرّة هددت الظروف في أفغانستان – أو أي مكان آخر في المنطقة – المصالح الباكستانية تحمّل جهاز الاستخبارات المشتركة عبء استخدام الوسائل الخفية لمواجهة التحدي.

في الأشهر العنيفة والسنوات التي أعقبت هزيمة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان، أخذ اهتمام الولايات المتحدة بباكستان في التناقص، واحتجبت المنطقة في نهاية الأمر بعيداً عن أنظار واشنطن. وكانت باكستان والهند تعودان أحياناً إلى دائرة التركيز القوي خصوصاً عندما حازت الدولتان قدرات الأسلحة النووية. غير

(١) مرّ معظم قادة وأفراد الطالبان بالمدارس الديوباندية في ولاية الحدود الشمالية الغربية وبالوشيستان. أنظر "Pakistan: Madrasas, Extremism and the Military," ICG Asia Report, no. 36 (29 July 2002); "Pakistan: Karachi's Madrasas and Violent Extremism," ICG Asia Report, no. 130 (29 March 2007); and Rais, Recovering, 72.

(٢) Rais, Recovering, 71.

أن القيادة السياسية الأميركية بقيت غير مهتمة بجنوب آسيا بالرغم من ردها بفرض عقوبات اقتصادية على الدولتين. وشعر سلك الضباط الباكستانيين بأنه تعرض للخيانة ولتخلي الأميركيين عنه. وفاقم غياب الاهتمام الأميركي بمشاكل باكستان الأمنية تدهور العلاقة بين الحليفين السابقين. بل إن الباكستانيين حاولوا بعد هزيمة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان إقامة حكومة صديقة في كابول، أو أقله حكومة تبقي الهند خارج أفغانستان.(١)

بيد أنه، وبحلول ١٩٩٢، أصبحت الحكومة الانتقالية في كابول معادية لباكستان، وأمكنها بالتالي منع هذه الأخيرة من بلوغ الجمهوريات الإسلامية الجديدة في آسيا الوسطى. وزاد الأمور سوءاً خوف الحكومة الباكستانية من انفتاح الإدارة [الأميركية] الجديدة على مفاتحات الحكومة الهندية التي قد تؤدي في النهاية إلى ضرب النفوذ الباكستاني في المنطقة. وهناك أيضاً احتمال – مهما كان بعيداً – أن يطالب النظام الأفغاني ببشتونيستان في شمال غرب باكستان. وقد تحققت هذه المخاوف عندما توسّع الحضور الهندي (وخصوصاً جهاز الاستخبارات) في أفغانستان توسّعاً كبيراً. زد على ذلك ازدياد عزلة باكستان مع استمرار إدارة بيل كلينتون في فرض عقوبات اقتصادية قاسية عليها في الوقت الذي أقامت فيه علاقات ودّية مع الهند.(٢) وأصبح لزاماً على باكستان، في ظل هذه الظروف، السيطرة على الوضع السياسي في أفغانستان. وبحسب لورنس زيرينغ:

> طوّر جهاز الاستخبارات المشتركة بالتالي استراتيجية لم تؤد إلى تقويض الحكومة الأفغانية العلمانية وحسب، بل أيضاً إلى تغذية الحركة الأفغانية الإسلامية. وقضى قرار حاسم للجهاز ... بتشكيل الطالبان وتجنيده الباكستانيين

(١) أحد الاعتبارات الحاسمة الأخرى هو اعتبار أن إسلام أباد تدعم البشتون الأفغان لمصلحة البشتون الباكستانيين، وأيضاً لأن غير البشتون حصلوا على الدعم من الهند وإيران وروسيا. أنظر Rashid, Descent, 25.

(٢) المصدر نفسه، ٢٦.

إضافة إلى الأفغان. وبحلول ١٩٩٣ أضحت «تحريك-إي-طالبان» قوة هائلة ذات ارتباطات مباشرة بالجيش الباكستاني.[١]

وعندما نشد الطالبان في ١٩٩٥ الدعم من المدارس الدينية الباكستانية حصلوا على ردّ حماسي، بيد أن جهاز الاستخبارات المشتركة هو الذي واصل السيطرة على عملية التجنيد المستمرة للمناضلين وتدريبهم وبالتالي إرسالهم إلى أفغانستان.[٢] ولبّى الطالبان في النهاية مطالب باكستان بالنسبة إلى أفغانستان. ويشدد فوللر على أن «باكستان لن تعمد بالتالي أبداً إلى قطع الروابط مع البشتون أو التخلي عنهم، سواء أكانوا من الإسلاميين الراديكاليين أم لم يكونوا. فلا يمكن أبداً لباكستان أن تتحمل وجود بشتون مناوئين لإسلام أباد في موقع السيطرة على كابول أو في الديار.»[٣]

وأدى دعم جهاز الاستخبارات المشتركة للطالبان وغيره من المجموعات المتطرفة أمثال عسكر طيبة إلى تعزيز امتداد الإسلام السياسي الذي برز كعامل اجتماعي سياسي رئيسي في باكستان. والواقع هو أن جهاز الاستخبارات المشتركة - الذي أنشأه البريطانيون ورعاه الأميركيون والسعوديون - قد أصبح، سواء أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ، جزءاً من تطوّر باكستان الاجتماعي والسياسي. وقد برهنت مجزرة مومباي في ٢٠٠٨ على أنه يمكن للتنظيمات الإسلامية المتطرفة والمجموعات الإرهابية أن تتخلص بسهولة من سيطرة جهاز الاستخبارات المشتركة. وبالرغم من أن المجموعات الإسلامية المجاهدة لم تخترق جهاز الاستخبارات المشتركة، فمن الواضح أن مؤسسة الاستخبارات الباكستانية باتت رفيقة سفر الإسلام السياسي.

---

(١) Ziring, Crosscurrent, 283.

(٢) Tanner, Afghanistan, 282.

(٣) Fuller, "Policies."



بيبليوغرافيا

British Library (BL), London
INDIA OFFICE RECORDS
10R/L/WS/1/1074; IOR/L/WS/1/1162
The Haganah Archives, Tel Aviv
80/69/5
The National Archives of the UK, Kew, Surrey (TNA)
RECORDS OF THE CABINET OFFICE
CAB 81/80; CAB 158/3; CAB 159/5; CAB 159/6
RECORDS OF THE COLONIAL OFFICE
CO732/88/32
RECORDS OF THE DOMINIONS OFFICE
DO 35/5154; DO 35/8962; DO 142/345; DO 196/418
FO 370/2719; FO 370/82792; FO 371/1546; FO 371/24558; FO 371/24568;
FO 371/32900; FO 3714/45542; FO 371/82800; FO 371/102869;
FO 371/108489; FO 371/115899; FO 371/115900; FO 371/118975;
FO 371/128220; FO 371/128221; FO 371/128222; FO 371/128224;
FO 371/128226; FO 371/128233; FO 371/128268; FO 371/170603;
FO 371/183884
RECORDS OF THE MINISTRY OF DEFENCE
DEFE 11/31
RECORDS OF THE PRIME MINISTER'S OFFICE
PREM 11/391
RECORDS OF THE SPECIAL OPERATIONS EXECUTIVE (SOE)
HS 3/201; HS 3/209; Hs 7/269
RECORDS OF THE SECURITY SERVICE (M15)
KV 2/1970; KV 5/30; KV 5/38; KV 5/39

RECORDS OF THE WAR OFFICE

WO 4/171; WO 6/138; WO 33/36; WO 40/10; WO 208/4960; WO 208/4961

US National Archives and Records Administration,

College Park, Maryland (NARA)

RECORDS OF THE CENTRAL INTELLIGENCE AGENCY (RG 263)

RECORDS OF THE FOREIGN SERVICE POSTS OF THE DEPARTMENT OF STATE (RG 84).

RECORDS OF THE OFFICE OF THE ARMY STAFF GROUP RG 319).

RECORDS OF THE OFFICE OF THE SECRETARY OF DEFENSE (RG 330).

RECORDS OF THE OFFICE OF STRATEGIC SERVICES (RG 226).

PUBLISHED SOURCES

Abdullahzadeh, Mahmoud. "The Political Significance of the Bazaar in Iran." In Technology, Tradition and Survival: Aspects of Material Culture in the Middle East and Central Asia. Edited by Richard Tapper and Keith McLachlan London: Frank Cass, 2002.

Acheson, Dean. Present at the Creation: My Years in the State Department. New York: Norton, 1969.

Ahmed, Akbar S. Jinnah, Pakistan and Islamic Identity: The Search for Saladin. London: Routledge, 1997.

-. Living Islam: From Samarkand to Stornoway. London: Penguin, 1995.

Aid, Matthew M. "The Secret reclassification Program." Organization of American Historians Newsletter 34 (May 2006).

Alavi, Hamza. "Pakistan-US Military Alliance." Economic and Political Weekly 33, no. 25 (20-26 June 1998).

Albertini, Luigi, The Origins of the War of 1914. Translated and edited by Isabella M. Massey. 3 vols. London: Oxford University Press, 1952-1957.

Adlrich, Richard J. "Britain's Secret Intelligence Service in Asia During the Second World War." Modern Asian Studies 32, no. 1 (February 1998).

-. "Did Waldegrave Work? The Impact of Open Government upon British History." Twentieth Century British History 9, no. 1 (1998).

-. Espionage, Security and Intelligence in Britain, 1945-1970. Manchester: Manchester University Press, 1998.

-. The Hidden Hand: Britain American and Cold War Secret Intelligence. New York: Overlook, 2002.

-. Intelligence and the War Against Japan. Cambridge: University Press, 2000.

ALi, Tariq. The Duel: Pakistan on the Flight Path of American Power. New York: Scribner, 2008.

Allen, Charles, God's Terrorists: The Wahhabi Cult and the Hidden Roots of Modern Jihad. London: Little, Brown, 2006.

Allen, Louis. "Japanese Intelligence Systems." Journal of Contemporary History 22, no. 4 (October 1087): 547-62.

al-Qalanisi, Ibn. The Damascus Chronicle of the Crusades. Translated by H. A. R. Gibb. London: Luzac, 1967.

al-Rasheed, Madawi. A History of Saudi Arabia. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

Andrew, Christopher M. Secret Service: The Making of the British Intelligence Community. London: Heinemann, 1985.

Andrew, Christopher, and Vasili Mitrokhin. The World Was Going Our Way: The KGB and the Battle for the Third World. New York: Basic, 2005.

Antonius, George. The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement. Safety Harbor, FL; Simon, 2001.

"Army Coup in Syria: Government Overthrown." Sunday Morning Herald, 31 March 1949.

Baer, Robert. Sleeping with the Devil: How Washington Sold Our for Saudi Crude. New York: Three Rivers, 2003.

Batatu, Hanna. "Syria's Muslim Brethren." MERIP Reports, no. 110 (November-December 1982).

Bayley, Christopher, and Tim Harper, Forgotten Armies: The Fall of British Asia, 1941-1945. New York: Allen Lane, 2004.

-. Forgotten Wars: The End of Britain's Asian Empire. London: Penguin, 2007.

Bell, Gertrude. Review of the Civil Administration of Mesopotamia. London:

HMSO, 1920.

Ben-Ami, Yitshaq. Years of Wrath, Days of Glory: Memoirs From the Irgun. New York: Speller, 1982.

Bergen, Peter L. Holy War, Inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden. New York: Free Press, 2001.

Bidwell, R.L., ed. The Arab Bulletin: Bulletin of the Arab Bureau in Cairo. 4 vols. Gerrards Cross: Archive Editions, 1986.

Bierman, John. Fire in the Night: Wingate of Burma, Ethiopia and Zion. New York: Random House, 1999.

Black, Ian, and Benny Morris. Israel's Secret Wars: The Untold History of Israeli Intelligence. London: Hamish Hamiltom, 1991.

Blunt, W.S. Secret History of the British Occupation of Egypt: Being a Personal Narrative of Events. London: Unwin, 1970.

Bower, Tom. The Perfect English Spy: The Unknown Man in Charge During the Most Tumultuous Scandal-Ridden Era in Espionage History. New York: St. Martin's Press, 1995.

Braddon, Russell, The Siege. New York: Viking, 1969.

Brendon, Piers, The Decline and Fall of the British Empire, 1781-1997. London: Jonathan Cape, 2007.

Brenner, Y.S. "The Stern Gang, 1940-1948." In Palestine and Israel in the 19th and 20th Centuries. Edited by Elie Kedourie and Sylvia G. Haim. London: Frank Cass, 1982.

Brown, Malcolm, ed. T.E. Lawrance in War and Peace: An Anthology of the Military Writings of Lawrence of Arabia. London: Grennhill, 2005.

Buchan, John. Greenmantle. London: Nelson, 1916.

Buzpinar, S. Tufan. "The Hijaz, Abdulhamid II and Amir Hussein's Secret Dealings with the British, 1877-1880." Middle East Studies 31, no. 1 (January 1995).

Caroz, Yaacov. The Arab Secret Service, London: Corgi, 1978.

Carr, Matthew. The Infernal Machine: A Hisoty of Terrorism. New York: New Press, 2007.

Christison, Kathleen. Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle

East Policy. Berkeley: University of California Press, 1999.

Clarke, Thurston. By Blood and Fire: The Attack on the King David Hotel. New York: Putnam, 1981.

Cleveland, William L. A History of the Modern Middle East. San Francisco: Westview, 1994.

Cockburn, Andrew, and Leslie Cockburn. Dangerous Liaison: The Inside Story of the U.S. -Israeli Covert Relationship. Toronto: Stoddart, 1991.

Cohen, Stephen P. The Idea of Pakistan. Washington, D.C.: Brookings Institution, 2004.

Colby, William, and Peter Forbath. Honorable Men: My Life in the CIA. New York:Simon & Schuster, 1978.

Coll, Steve. Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001. New York: PEnguin, 2004.

Cooley, John K. Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism. Sterling, VA: Pluto, 2000.

Cooper, Artemis. Cairo in the War, 1939-1945. London: Hamish Hamilton, 1989.

Copeland, Miles. Game of Nations: The Amorality of Power Politics. New York: Simon&Schuster, 1069.

-. The Game Player: Confessions of the CIA's Original Political Operative. London: Arium, 1989.

-. The Real Spy Worl. London: Weidenfeld& Nicolson, 1974.

Crile, George. Charlie Wilson's War: The Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History. New York: Atlantic Monthly Press, 2003.

"The Crisis in Egypt: Sterious Riots in Alexandria." The Times, 11 June 1882.

Crossman, R. H. S. The Diaries of a Cabinet Minister: Richard Crossman. New York: Henry Holt, 1976.

Crossman, R.H.S., and Michael Foot. A Palestine Munich. London: Vitor Gollancz, 1946.

Dalin, David G., and and John F. Rothmann. Icon of Evil: Hilter's and the Rise of Radical Islam. New York: Random House, 2008.

Dawisha, Adeed. Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair. Princeton University Press, 2003.

Deacon, Richard. "C": A Biography of Sir Maurice Oldfield, Head of M16. London: Futura, 1984.

Derogy, Jacques, and Hesi Carmel. The Untold History of Israel. New York: Random House, 1979.

Disraeli, Benjamin. Contarini Fleming: A Psychological Romance. London: John Lane, 1927.

Dorril, Stephen. M16: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service. New York: Free Press, 2000

Downton, Eric. Wars Without End. Toronto: Stoddart, 1987.

Dreyfuss, Robert. Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam. New York: Metropolitan, 2005.

Epstein, Edward J. Deception: The Invisible War Between the KGB and the CIA. New York: Simon&Schuster, 1989.

Eshed, Haggai. Reuven Shiloah-The Man Behind the Mossad: Secret Diplomacy in the Creation of Israel. Portland: Frank Cass, 1997.

Esposito, John L., ed. The Oxford Dictionary of Islam. Oxford: Oxford University Press, 2003.

Eveland, William Crane. Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East. New York: Norton, 1980.

Failie, J.A. "The Economic Effects of Ship Canals." Annals of the American Academy of Political and Social Science 11 (January 1898).

Farran, Roy. Winged Dagger: Adventures on Special Service. London: Collins, 1970.

Ferguson, Niall. The War of the World: Twentieth-Century Conflict and the Descent of the West. New York: Penguin, 2006.

Fergusson, Thomas G. "Army Annual Inspection Report, 1952." In British Military Intelligence, 1870-1914: The Development of a Modern Intelligence Organization (Frederick, MD: Univerity Publications of America, 1984).

Fielding, Xan. One Man in His Time: The Life of Lieutenant-Colonel N.L. D.

("Billy") Mclean, DSO. London: Macmillan, 1990.

Finkel, Caroline. Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire, 1300-1923. New York: Basic, 2006.

Fisher, John. Gentleman Spies: Intelligence Agents in the British Empire and Beyond. Stroud: Sutton, 2002.

Fisk, Robert. The Great War for Civilization: The Conquest of the Middle East. London: Fourth Estate, 2005.

-. Pity the Nations: The Abduction of Lebanon. New York: Thunder Mouth, 2002.

Foot, M.R.D.S.O.E. in France: An Account of the Work of the British Special Operation Excecutive in France, 1940-1944. London: HMSO, 1966.

Frank, Lweis A. "Nasser's Missile Program." Orbis 11, no. 3 (Fall 1967): 746-57.

Fromkin, David. A. Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East. New York: Avon, 1989.

Fuller, Grahan E. "Obama's Policies Making Situation Worse in Afghanistan and Pakistan." Huffington Post, 6 September East. York: Avaon, 1989.

Fuller, Graham E. "Obams's Policies Making Situation Worse in Afghanistan and Pakistan." Huffington Post, 6 September 2009, http:.//www.huffingtonpost.com/graham-e-fuller/global-viewpoint-obamas-p_b_201355.html.

Furst, Alan. The World at Night. New York: Random House, 1996.

Gabrieli, Francesco, Arab Historians of the Crusades, Translated by E.J. Costello, Berkeley: University of California Press, 1969.

Gaddis, John Lewis. The Cold War: A New History. New York: Penguin, 2005.

Gasiorowski, Mark J. "The 1953 Coup d'Etat Against Mosaddeq." In Mohammad Mosaddeq and the 1953 Coup in Iran. Edited by Mark J. Gasiorowski and Malcolm Byrne. Syracuse: Syracuse University Press, 2004.

Gaur, Dharmendra. Behind the Enemy Lines. New Delhi: Sterling, 1975.

Gehlen, Reinhard. The Service: The Memoirs of General Reinhard Gehlen. Translated by David Irving. New York: World, 1972.

Gerolymatos, André. Espionage and Treason: A Study of the Proxenia in Politi-

cal and Military Intelligence Gathering in Classical Greece. Amsterdam: J.C. Gieben, 1986.

-. Guerrilla Warfare and Espionage in Greece, 1940-1944. New York: Pella, 1992.

-. Red Acropolis, Black Terror: The Greek Civil War and the Origins of Soviet-American Rivalry. New York: Basic, 2004.

Gilbert, Martin. Finest Hour. Vo. 6 of Winston S. Churchill. London Heinemann, 1983.

Green, Dominic. Three Empires on the Nile: The Victorian Jihad, 1869-1899. New York: Free Press, 2007.

Gromyko, Andrei. Memories. London: Hutchinson, 1989.

Hagen, Gottfried. "German Heralds of Holy War: Orientalists and Applied Oriental Studies." Comparative Studides of South Asia, Africa and the Middle East 24, no. 2 (2004): 145-162.

Haqqani, Husain. Pakistan: Between Mosque and Military. Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace, 2005.

Harris, Chiristina P. Nationalism and Revolution in Egypt: The Role of the Muslim Brotherhood. The Hague: Mouton, 1964.

Haswell, Jock. British Military Intelligence. London: Weidenfeld&Nicolson, 1973.

Heikal, Mohammed H. Cutting the Lion's Tail: Suez through Egyptian Eyes. New York: Arbor House, 1987.

Heller, Joseph. British Policy Towards the Ottoman Empire, 1900-1914. London: Frank Cass, 1983.

Helms, Richard. A Look over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency. New York: Ballantine, 2003.

Herring, George C. From Colony to Superpower: US Foreign Relations Since 1776. Oxford: Oxford University Press, 2008.

Hersh, Burton. The Old Boys: The American Elite and the Origins of the CIA. New York: Scribner's, 1992.

Hillenbrand, Carole. The Crusades: Islamic Perspectives. Edinburgh: Edinburgh

University Press, 1999.

Hinsley, F.H., and others. British Intelligence in the Second World War: Its Influence on Strategy and Operations. Vol. 1. London: HMSO, 1979.

Hiro, Dilip. The Iranian Labyrinth: Journeys Through Theocratic Iran and Its Furies. New York: Nation, 2005.

Hohnen, Peter. "Cawthorn, Sir Walter Joseph (1896-1970)," Australian Dictionary of Biography. Vol. 13. Melbourne: Melbourne University Press, 1993.

Holland, Matthew F. America and Egypt: From Roosevelt to Eisenhower. London: Praeger, 1996.

Holzman, Michael. James Jesus Angleton, the CIA and the Craft of Counterintelligence. Amhest: University of Massachusetts Press, 2008.

Homer. The Odyssey. Translated by Robert Fagles. New York: Penguin, 1996.

Hood, William. "Angleton's World." In Myths Surrounding James Angleton: Lessons for American Counterintelligence. Edited by William Hood et al. Washington, D.C.: Consortium for the Study of Intelligence, 1994.

Hopkirk,, Peter. The Great Game: The Struggle for Empire in Central Asia. New York: Kodansha International, 1992.

-. On Secret Service East of Constantinople: The Great Game and the Great War. London: John Murray, 1994.

Hourani, Albert. Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939. London Oxford University Press, 1962.

-. A History of the Arab Peoples. New York: Warner, 1991.

Howell, Geogina. Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations, New York: Farrar, Straus & Giroux, 2006.

Hupchick, Dennis P. The Balkans: From Constantinople to Communism. New York: Palgrave, 2002.

Hurewitz, J.C. Diplomacy in the Near and Middle East: A Documentary Record. 2 vols. Princeton: Van Nostrand, 1956.

Hussain, Rizwan. Pakistan and the Emergence of Islamic Militancy in Afghanistan Farnham: Ashgate, 2005.

Infield,, Glenn B. Skorzeny: Hitler's Commando. New York: Military Heritage

Press, 1981.

Irwin, Robert. "Is This the Man Who Inspired Bin Laden?" The Guardian, 1 November 2001.

Jamal, Arif. Shadow War: The Untold Story of Jihad in Kashmir. Brooklyn, NY: Melville House, 2009.

Jarvis, C.S. Three Deserts. London: John Murray, 1941.

Jeffrey-Jones, Rhodri. The CIA and American Diplomacy. New Haven: Yale University Press, 1989.

Johnson, Robert. Spying for Empire: The Great Game in Central and South Asia, 1757-1947. London: Greenhill, 2006.

Jones, Matthew. "The 'Preferred Plan': The Anglo-American Working Group Report on Covert Action in Syria, 1957." Intelligence and National Security 19, no. 3 (Autumn 2004): 401-15.

Joshi, Pooja. Jamaat-i-Islami: The Catalyst of Islamization in Pakistan. New Delhi: Kalinga, 2003.

Karabell, Zachary. Parting the Desert: The Creation of the Suez Canal. New York: Nnopf, 2003.

Karpat, Kemal H. The Politicazation of Islam: Reconstructing Identity, State, Faith and Community in the Late Ottoman State, Oxford: Oxford University Press, 2001.

Karsh, Efraim. Islamic Imperialism: A History. New Haven: Yale University Press, 2006.

Karsh, Efraim. Islamic Imperialism: A History. New Haven: Yale University Press, 2006.

Karsh, Efraim, and Inari Karsh. Empires of the Sand: The Struggle for Mastey in the Middle East, 1789-1923. Cambridge: Harvard University Press, 1999.

Katz, Samuel, Israel Elite Units Since 1948. Oxford Osprey, 1988.

Keay, John. Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East. New York: Norton: 2003.

Kedourie, Elie. Afghani and 'Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam. London: Frank Cass, 1966.

-. The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies. London: Weidenfeld&Nicolson, 1970.

-. In the Anglo-Arab Labyrinth: The McMahon-Husayn Correspondence and Its Interpretations. Cambridge: Cambridge University Press, 1976.

Keegan, John. The Price of Admiralty: The Evolution of Naval Warfare. New York: Viking Penguin, 1988.

Kelly, James, and William Stewart. “Syria: The Proud Lion and His Den.” Times, 5 September 1983.

Kennedy, Paul. The Realities Behind Diplomacy: Background Influences on British External Policy, 1865-1980. Glasgow: Collins, 1981.

Kepel, Gilles. Jihad: The Trail of Political Islam. Translated by Anthony F. Roberts. Cambridge: Harvard University Press, 2002.

-. Muslim Extremism in Egypt: The Prophet and the Pharaoh. Translated by Jon Rothschild. Los Angeles: University of California Press, 1984.

-. The War for Muslim Minds: Islam and the West. Cambridge: Harvard University Press, 2004.

Khalidi, Rashid. The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood. Boston: Beacon, 2006.

Kimche, Jon, and David Kimche. The Secret Roads: The “Illegal” Migration of a People, 1938-1948. London: Secker & Warburg, 1954.

Kinzer, Stephen. All the Shah’s Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror. Hoboken, NJ: John Wiley, 2003.

Kissinger, Henry. Years of Renewal. Vol. 3. New York: Simon & Schuster, 1999.

Knightley, Philip. The Master Spy: The Story of Kim Philby. New York: Knopf, 1989.

-. The Second Oldest Profession: The Spy as Bureaucrat, Patriot, Fantasist and Whore. London: Andre Deutsch, 1986.

Koestler, Arthur. Promise and Fulfilment: Palestine, 1917-1949. London: Macmillan, 1949.

Kramer, Gudrun. A History of Palestine: From the Ottoman Conquest to the Founding of the State of Israel. Princeton: Princeton University Press, 2002

Kumamoto, Robert. International Terrorism and American Foreign Relations 1945-1976. Boston: Northeastern University Press. 1999.

Kyle, Keith. Suez. London: Weidenfeld & Nicolson, 1991.

Lawrence, Arnold W., ed. Secret Despatches from Arabia London: Golden Cockerel, 1939.

Lawrence, T.E. Seven Pillars of Wisdom: A Triumph. New York: Penguin, 1962.

le Carré, John. "On Kim Philby." In Kim Philby, My Silent War: The Autobiography of a Spy. New York: Modern Library, 2002.

Lee, Martin. A. The Beast Reawakens. New York: Routledge, 2000.

Lewis, Bernard. The Assassins: A Radical Sect in Islam. London: Weidenfeld & Nicolson, 2001.

-. What Went Wrong?. Western Impact and Middle Eastern Response. Oxford Universiry Press, 2002.

Lia, Brynjar. The Society of the Muslim Brothers in Egypt: The Rise of an Islamic Mass Movement, 1928-1942. Reading: Ithaca, 1998.

Lindsay, Franklin. Beacons in the Night: With the Oss and Tito's Partisans in War time Yugoslavia. Stanford: Stanfor University Press, 1993.

Little, Douglas. "Cold War and Covert Action: The United States and Syria, 1945-1958." Middle East Journal 44, no. 1 (Winter 1990).

Lucas, Scott and Alistair Morey. "The Hidden `Alliance': The CIA and M16 Before and After Suez." In American-British-Canadian Intelligence Relations, 1939-2000. Edited by Maurizio Ferrara and Martin Rhodes. London: Frank Cass, 2000.

Lüdke, Tilman. Jihad Made in Germany: Ottoman and German Propaganda and Intelligence Operations in the First World War. Münster: LIT, 2005.

Maalouf, Amin. The Crusades Through Arab Eyes. Translated by Jon Rothschild. London: Al Saqi, 1984.

MacDonald, Callum. The Killing of SS Obergruppenführer Reinhard Heydrich. New York: Free Press, 1989.

MacMillan, Margaret. Paris 1919: Six Months That Changed the World. New York: Random House, 2003.

"Major Roy Farran (Obituary)." The Times, 6 June 2006.

"The Man Behind Bin Laden." The New Yorker, 16 September 2002.

Mango, Andrew . Ataturk: The Biography of the Founder of Modern Turkey. New York: Overlook, 2000.

Mansel, Philip, Constantinople: City of the World's Desire, 1453-1924. London: John Murray, 1995.

Masters, John. The Road Past Mondalay. New York: Bantam, 1979.

Mattar, Philip. The Mufti of Jerusalem: Al-Hajj Amin al-Husayni and the Palestinian National Movement. New York: Columbia University Press, 1988.

Mayer, Karl E., and Shareen B. Brysac. Tournament of Shadows: The Great Game and the Race for Empire in Central Asia. Washington, D.C.: Counterpoint, 1999.

Melman, Yossi, and Dan Raviv. Friends in Deed: Inside the U.S.-Israeli Alliance. New York: Hyperion, 1994.

Michaud, Joseph F. History of the Crusades. Translated by W. Robson. 3 vols. London: Routledge, 1852; repr., New York: AMS, 1973.

Minault, Gail. The Khilafat Movement: Religious Symbolism and Political Mobilization in India. New York: Columbia University Press, 1982.

Mitchell, Richard P. The Society of Muslim Brothers. Oxford: Oxford University Press, 1969.

Modin, Yuri. "On Kim Philby." In Kim Philby, My Silent War: the Autobiography of a Spy. New York: Modern Library, 2002.

Mohs, Polly A. Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War. New York: Routledge, 2008.

Monroe, Elizabeth. Philby of Arabia. Reading: Ithaca, 1973.

Morris, Benny. 1948: A History of the First Arab-Israeli War. New Haven: Yale University Press, 2008.

-. Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-2001. New York: Vintage, 1999.

Mortimer, Edward. Faith and Power: The Politics of Islam. New York: Vintage, 1982.

Moubayed, Sami. "Keeping an Eye on Syria: March 29, 1949." Mideastviews: Middle East Analysis by Sami Mobayed 29 May 209. http://www.mideastiviews.com/articleview.php?art-387.

"Mumbai Terror Attacks: Nightmare in the Lap of Luxury." The Observer, 30 November 2008.

Naftali, Timothy. "Reinhard Gehlen and the United States." In U.S. Intelligence and the Naziz. Edited by Richard Breitman et al. Cambridge. Cambridge University Press, 2005.

Naor, Mordecai. Lexicon of the Haganah Defense Force. Tel Aviv: Ministry of Defence, 1992.

Nasr, Vali. The Shia Revival: How Conflicts Within Islam Will Shape the Future. New York: Norton, 2006.

Nawaz, Shuja. Crossed Srwords: Palistan, Its Army, and the Wars Within. Oxford: Oxford University Press, 2008.

Nesbit, Roy C. Eyes of the RAF: A History of Photo-Reconnaissance. Kettering Sutton, 1996.

Nutting, Anthony. No End of a Lesson: The Story of Suez. London: Constable, 1967.

Oren, Michael B. Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the Present. New York: Norton, 2007.

Painter, Sidney. "The Third Crusade: Richard the Lionhearted and Philip Augustus." In A History of the Crusades. Edited by Robert Lee Wolf and Harry W. Hazard. Vol. 2, The Later Crusades 1189-1311. Madison. University of Wisconsin Press, 1969.

Pakenham, Thomas. The Boer War. New York: Avon, 1979.

-. The Scramble for Africa: The White Man's Conquest of the Dark Continent from 1876 to 1912. New York: Random House, 1991.

"Pakistan: Karachi's Madrasas and Violent Extremism." IGG Asia Report, no. 130 (29 March 2007).

"Pakistan: Madrasas, Extremism and the Military." IGG Asis Report, no. 36 (29 July 2002).

Palmer, Alan. The Decline and Fall of the Ottoman Empire. New York: Barnes & Noble, 1992.

Parritt, B.A.H. The Intelligencers: The Story of British Military Intelligence up to 1914. Ashford: Intelligence Corps Association, 1971.

Paul, Jim. "Insurrection a Mecca." MERIP Reports, no. 91, "Saudi Arabia on the Brink" (October 1980).

Peters, Edward, ed. The First Crusade: The Chronicle of Fulcher of Charters and Other Source Materials. 2nd ed. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998.

Peters, Rudolph. Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History. The Hague: Mouton, 1979.

Philbym, Kim. My Silent War: The Autobiography of a Spy. New York: Modern Library, 2002.

Pipes, Daniel. "The Alawi Capture of Power in Syria." Middle Eastern Studies 25, no.4 (October 1989): 429-50.

-. The Hidden Hand: Middle East Fears of Conspiracy. New York: St. Martin's Press, 1996.

Pollack, Kenneth M. The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America. New York: Random House, 2004.

Poewers, Thomas. The Man Who Kept the Secrets Wars of the CIA. Chicago: Ivan R. Dee, 2006.

Rahema, Ali. Pioneers of Islamic Revival. London: Zed, 2005.

Rais, Rasul Bakhsh. Recovering the Frontier State: War, Ehnicity, and State in Afghanistan. New York: Lexington, 2008.

Ranelagh, John. The Agency: The Rise and Decline of the CIA. New York: Simon & Schuster, 1978.

Ranfurly, Hermione. To War with Whitaker: Wartime Diaries of Countes Ranfurly, 1939-1945. London: Heinemann, 1994.

Rashid, Ahmed. Descent into Chaos. New York: Viking, 2008.

Rathmell, Andrew. Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria, 1949-1961. London: I.B. Tauris, 1995.

Raviv, Dan, and Yossi Melman. Every Spy a Prince. Boston: Houghton Mifflin, 1990.

Riedel, Bruce. “Pakistan and Terror: The Eye of the Storm.” The ANNALS of the American Academy of Political and Social Science 618, no. 1 (2008).

Roberts, Frederick Sleight. Forty-one Years in India: From Subaltern to Commander-in-Chief. Vol. 2. London: Bentley, 1897.

Roosevelt, Kermit. Countercoup: The Struggle for the Control of Iran. New York: McGraw-Hill, 1979.

Rosen, Stephen P. Societies and Military Power: India and Its Armies. Ithaca: Cornell University Press, 1996.

Rositzke, Harry. The CIA’s Secret Operations: Espionage, Counterespionage, and Covert Action. Boulder, Co: Westiview, 1988.

“Roy Farran (Obituary).” Daily Telegraph, 5 June 2006.

Royle, Charles. The Egyptian Campaings, 1882-1885: And the Events Which Led to Them. 2 vols. London: Hurst&Blackett, 1886.

Royle, Trevor. Orde Wingate: Irregular Soldier: London: Weidenfeld & Nicolson, 1995.

Runciman, Steven. The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem. Vol. 1 of A History of the Crusades. Cambridge: Cambridge University Press, 1989.

Russel, Tom. “A Lebanon Primer”. MERIP Reports, no. 133 (June 1985).

Sachar, Howard M.A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time. New York: Knopf, 2007.

“Sacrilege in Mecca.” Time, 3 December 1979.

Sansom, A. W. I Spied Spies. London: Harrap. 1965.

Saunders, Bonnie F. The United States and Arab Nationalism. Wesport, CT: Praeger, 1996.

Schofield, Victoria. Kashmir in Conflict: India, Pakistan and the Unfinished War. London: I.B. Tauris, 2000.

-. Wavell: Soldier and Statesman. London: John Murray, 2007.

Schwartz, Stephen. “Is Saudi Arabia Holy Soil?” Think Israel (September-Octo-

ber 2004), http://www.think-israel.org/schwartz.saudiarabia.html.

Seale, Patrick Patrick. The Struggle for Syria. London: I.B. Tauris, 1985.

Segev, Samuel. The Iranian Triangle. New York: Free Press, 1988.

Segev, Tom. One Palestine Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate. New York: Henry Holt, 1999.

Seymour, William. British Special Forces: The Story of Britain's Undercover Soldiers. Toronto: Grafton, 1985.

Shaul Shay. The A&B of Evil: Iran, Hizballah and the Palestinian terror New Bruns-wick NJ: Transaction, 2005.

Simpson, Christopher. Blowback: The First Full Account of America's Recruitment of Nazis and Its Disastrous Effect on the Cold War, Our Domestic and Foreign Policy. New York: Macmillan, 1988.

Slatin, Rudolf C. Fire and Sword in the Sudan: A Peronal Narrative of Fighting and Serving the Dervishes, 1879-1895. Translated by F.R. Wingate. London: Arnold, 1896.

Smith, R. Harris. OSS: The Secret History of America's First Central Intelligence Agency. Guilford, CT: Lyons, 2005.

St. John, Robert. The Boss: The Story of Gamel Abdel Nasser. New York: McGraw Hill, 1960.

Stern, Jessica. "Pakistan's Jihad Culture." Foreign Affairs 79, no. 6 (November-December 2000)

Storrs, Ronald. Orientations. London: Nicholson&Watson, 1943.

Strachan, Hew. To Arms. Vol. 1 of The First World War. Oxford: Oxford University Press, 2001.

Sykes, Christopher, Crossroads to Israel. Cleveland: World, 1965.

"Syria Army Takes Over Government: Leaders Ousted in Bloodless Coup d'etat." Evening Independent, 30 March 1949.

Szulc, Tad. The Secret Alliance: The Extraordinary Story of the Rescue of the Jews Since World War II. London: Macmillan, 1991.

Tanner, Stephen. Afghanistan: A Military History from Alexander the Great to the Fall of the Taliban. Cambridge: Da Capo, 2002.

Tauber, Eliezer. The Arab Movements in World War I. London: Frank Cass, 1993.

-. The Formation of Modern Syria and Iraq. London: Frank Cass, 1995.

Taylor, A.J.P. The Struggle for Mastery in Europe, 1848-1918. Oxford: Clarendon Press, 1965.

Taylor, Peter. Provos: The IRA and Sinn Fein. London: Bloomsbury, 1997.

Teitelbaum, Joshua. The Rise and Fall of the Hashimite Kingdom of Arabia. London: Hurst, 2001.

Tenet, George. At the Center of the Storm: My Years at the CIA. New York: Harper-Collins, 2007.

Thomas, Evan. The Very Best Men: The Darling Early Years of the CIA. New York: Simon & Schuster, 1995.

Thomas, Gordon. Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad. New York: St. Martin's Press, 2007.

Thomas, Lowell. With Lawrence in Arabia. New York: Century, 1924.

Thomas Martine. Empires of Intellignce: Security Services and Colinial Disorder After 1914. Berkeley: University of California Press, 2008.

Trento, Joseph J. The Secret History of the CIA. New York: Prima, 2001.

Tripp, Charles. "Sayyid Qutb: The Political Vision." In Pioneers of Islamic Revival. Edited by Ali Rahnema. London: Zed, 2005.

Trofimov, Yaroslav. The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising in Islam's Holiest Shrine and the Birth of Al-Qaeda. New York: Doubleday, 2007.

Trumpener, Ulrich. Germany and the Ottoman Empire, 1914-1918. Princeton Princeton Unversity Press, 1968.

Tsafrir, Eliezer. Big Satan, Small Satan: Revolution and Escape in Iran. Tel Aviv: Maariv 2002.

Turner, Barry. Suez 1956: The Inside Story of the First Oil War. London: Hodder & Stoughton, 2006.

Twain, Mark. The Innocents Abroad. Mineola, NY: Dover, 2003.

Tyerman, Christopher. God's War: A New History of the Crusades. Cambridge: Harvard University Press, 2006.

"U.S. Accused of Syrian Coup Attempt." The Age, 14 August 1957.

U.S. Congress. Congressional Record 25 April 1950. Washington, D.C.

Usher, Graham. "Taliban v. Taliban." London Review of Books 31, no. 7 (9 April 2009).

Vaglieri, Laura Veccia. "The Patriarchal and Umayyad Caliphates." In The Cambridge History of Islam. Edited by Ann K.S. Lambton, P.M. Holt, and Bernard Lewis. Vol. 1, The Central Islamic Lands. Cambridge: Cambridge University Press, 1970.

Vagts, Alfred. The Military Attaché. Princeton: Princeton University Press, 1967.

Vielain, Heinz. Waffenschmuggel im Staatsauftrag: Was lange in Bonn geheim beliben musste. Herford: Buss Seewald, 1986.

Weiner, Tim. Legacy of Ashes: The History of the CIA. New York: Doubleday, 2007.

West, Nigel. M15: British Security Service Operations, 1909-1945. London: Trial Granada, 1983.

-. M16: British Intelligence Service Operation, 1909-1945. London: Weiden-feld&Nicolson, 1983.

Westrate, Bruce. The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916-1920. University Park: Pennsylvania State University Press, 1992.

Whiting, Charles. Skorzeny: The Most Dangerous Man in Europe. Consho-hocken, PA: Combined, 1972.

Wilber, Donald. Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952-August 1953. Nottingham: Spokesman, 2006.

Wild, Michael. Generation des Unbedingten: Das Führungskorps des Reichssi-cher-heitshauptamtes. Hamburg: Hamburger Edition, 2003.

Wilson, Charles McMoran. Churchill: Taken from the Diaries of Lord Moran. Boston: Houghton Mifflin, 1966).

Wilson, Jeremy. Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T.E. Law-rence. New York: Atheneum, 1990.

Wilson, Peter W., and Douglas F. Graham. Saudi Arabia: The Coming Storm. New York: M.E. Sharpe, 1994.

Winstone, H.V.F. Gertrue Bell. London: Jonathan Cape, 1978.

-. The Illicit Adventure: The Story of Political and Military Intelligence in the Middle East from 1898 to 1926. London: Jonathan Cape, 1982.

Woodhouse, C.M. Something Ventured: The Autobiography of C.M. Woodhouse. London: Granada, 1982.

Wright, Lawrence. The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11. New York: Vintage, 2006.

Wright, Peter. Spy Catcher: The Candid Autobiography of a Senior Intelligence Officer. Toronto: Stoddart, 1987.

Yasamee, F.A.K. Ottoman Diplomacy: Abdulhamid II and the Great Powers. Istanbul: Isis, 1996.

Yergin, Daniel. The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power, New York: Free Press, 1991.

Ziring Lawrence. Pakistan at the Crosscurrent of History. Oxford: Onewold, 2003.

Zubok, Vladislav, and Constantine Pleshakov. Inside the Kremlin's Cold War: From Stalin to Khrushchev. Cambridge: Harvard University Press, 1996.

Zweig, Ronald W. Britain and Palestine During the Second World War. London: Royal Historical Society, 1986.

كرونولجيا

الشرق		الغرب
حسن الصبّاح ينشئ الحشّاشين	١٠٩٠	
بدء الحملة الصليبية الأولى	١٠٩٥	
مجزرة المعرّة	١٠٩٨	
سقوط القدس؛ نهاية الحملة الصليبية الأولى	١٠٩٩	
بدء الحملة الصليبية الثانية	١١٤٩	
انتهاء الحملة الصليبية الثانية	١١٤٩	
بدء الحملة الصليبية الثالثة	١١٨٧	
انتهاء الحملة الصليبية الثالثة؛ اغتيال كونراد دي مونتفيرات	١١٩٢	
بدء الحملة الصليبية الرابعة	١٢٠٢	
انتهاء الحملة الصليبية الرابعة؛ نهب القسطنطينية	١٢٠٤	
	١٢١٥	توقيع الماغنا كارتا (وثيقة الحقوق)
بدء الحملة الصليبية الخامسة	١٢١٧	
انتهاء الحملة الصليبية الخامسة	١٢٢١	
	١٢٢٥	ولادة القديس توما الأكويني
بدء الحملة الصليبية السادسة	١٢٢٨	
نهاية الحملة الصليبية السادسة	١٢٢٩	
	١٢٣٢	إنشاء محاكم التفتيش

حصار القدس	١٢٤٤	
سقوط القدس	١٢٤٥	
بدء الحملة الصليبية السابعة	١٢٤٨	
البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية	١٢٦١	
الحملة الصليبية الثامنة	١٢٧٠	
بدء الحملة الصليبية التاسعة	١٢٧١	
نهاية الحملة الصليبية التاسعة	١٢٧٢	
	١٣٠٩	البابوية تبدأ الإقامة في أفينيون
	١٣٣٧	بدء حرب المئة عام
	١٣٤٧	الطاعون الجارف يضرب أوروبا
	١٣٧٨	بدء الانشقاق الكبير في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية
	١٤١٧	مجلس كونستانس الكنسي ينهي الانشقاق الكبير
	١٤٣٨	بدء سلالة الهابسبورغ
سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين بقيادة محمد الثاني؛ نهاية الأمبراطورية البيزنطية	١٤٥٣	نهاية حرب المئة عام
	١٤٥٥	طبع إنجيل غوتنبرغ
	١٤٩٢	كولومبوس ينزل في العالم الجديد؛ الكاثوليك يغزون غرانادا وينشئون الأمة الإسبانية؛ المغاربة الإسبان يأخذون في التخلي عن الإسلام
	١٤٩٦	طرد المغاربة من البرتغال
	١٥٠٢	طرد المغاربة من إسبانيا
	١٥١٧	مارتن لوثر كينغ يطرح نظرياته الـ ٩٥ في ويتنبرغ
تنصيب شيخ الإسلام زعيماً روحياً لجميع المسلمين العثمانيين	١٥٤٠	

	١٥٨٨	هزيمة الأسطول الحربي الإسباني
	١٦١٦	طرد آخر المغاربة الباقين في إسبانيا
	١٦١٨	بدء حرب الثلاثين عاماً
	١٦٤٨	نهاية حرب الثلاثين عاماً
	١٧٧٦	إعلان الاستقلال الأميركي
	١٧٨٣	معاهدة باريس
	١٧٨٩	بدء الثورة الفرنسية
	١٧٩٩	نابليون بونابرت يستولي على السلطة
	١٨٠٦	نهاية سلالة الهابسبورغ
	١٨١٢	حرب ١٨١٢
المعاهدة الروسية ـ الفارسية؛ بدء اللعبة الكبرى	١٨١٣	
مؤتمر فيينا	١٨١٤	عقد مؤتمر فيينا؛ معاهدة غنت
	١٨١٥	معركة واترلو
سادر يعبر شبه الجزيرة العربية	١٨١٩	
	١٨٢١	وفاة نابليون بونابرت
	١٨٣٨	تتويج الملكة فيكتوريا
سريان مفعول معاهدة المضايق	١٨٤١	
نصرالله خان يعدم ستودّارت وكونوللي	١٨٤٢	
نصرالله خان يطلق ولف	١٨٤٣	
	١٨٤٨	سنة الثورة في أوروبا
		بدء حرب القرم
	١٨٥٦	نهاية حرب القرم
بدء التمرّد الهندي؛ إنشاء الجيش الهندي	١٨٥٧	

حل شركة شرق الهند؛ بدء تطبيق قانون حكومة الهند	١٨٥٨	
	١٨٦١	بدء الحرب الأهلية الأميركية
	١٨٦٥	نهاية الحرب الأهلية الأميركية
افتتاح قناة السويس	١٨٦٩	
	١٨٧١	فرنسا تخسر الحرب مع بروسيا
	١٨٧٨	مؤتمر برلين
اسماعيل باشا يتخلى عن العرش	١٨٧٩	
اضطرابات الإسكندرية	١٨٨٢	
معركة التل الكبير	١٨٨٣	
سقوط الخرطوم ومقتل غوردون؛ السير تشارلز ماكغريغور ينشئ مكتب الاستخبارات في الهند		
إنشاء لجنة الاتحاد والترقّي في تركيا	١٨٨٩	
مناليك الثاني يهزم الإيطاليين في عدوة	١٨٩٦	
كيتشنر يحتل الخرطوم	١٨٩٩	بدء حرب البوير
	١٩٠١	وفاة الملكة فيكتوريا
	١٩٠٢	نهاية حرب البوير
	١٩٠٤	إلغاء مديرية الاستخبارات العسكرية
الميثاق الأنكلو-روسي؛ نهاية اللعبة الكبرى	١٩٠٧	
	١٩٠٩	إنشاء مكتب الاستخبارات السرّية
السلطان-الخليفة يعلن الجهاد	١٩١٤	اغتيال فرانز فيردينان يؤدي إلى الحرب العالمية الأولى
بدء مراسلات ماكماهون-الحسين؛ المذبحة الأرمنية	١٩١٥	

بدء الثورة العربية؛ اتفاق سايكس-بيكو؛ استسلام البريطانيين في الكوت وهزيمتهم في غاليبولي؛ إنشاء المكتب العربي	١٩١٦	
سانت جون فيلبي يعبر الجزيرة العربية	١٩١٧	إعلان بلفور؛ بدء الثورة البولشفية
نهاية الثورة العربية	١٩١٨	نهاية الحرب العالمية الأولى
	١٩١٩	معاهدة فرساي؛ بدء حرب الاستقلال الإيرلندية
إنشاء الهاغاناه	١٩٢٠	
	١٩٢١	تقسيم إيرلندا
إقامة مملكة شرق الأردن الهاشمية؛ إلغاء السلطنة العثمانية	١٩٢٢	موسوليني يستولي على السلطة في إيطاليا؛ بدء الحرب الأهلية الإيرلندية؛ إنشاء الدولة الإيرلندية الحرة
تركيا تصبح جمهورية؛ نهاية الأمبراطورية العثمانية؛ بريطانيا تتسلم الانتداب على فلسطين	١٩٢٣	
أتاتورك يلغي الخلافة	١٩٢٤	
البنّا ينشئ الإخوان المسلمين	١٩٢٨	
	١٩٢٩	انهيار وول ستريت؛ بدء الكساد الكبير في الولايات المتحدة
إنشاء الإيرغون	١٩٣١	
العراق يكسب الاستقلال؛ ابن سعود يعلن المملكة العربية السعودية	١٩٣٢	
سوكال توقّع اتفاقاً نفطياً مع السعودية	١٩٣٣	أدولف هتلر يصبح مستشاراً لألمانيا
بدء الثورة العربية في فلسطين بتحريض من المفتي	١٩٣٦	بدء الحرب الأهلية الإسبانية
لجنة بيل تقترح تقسيم فلسطين	١٩٣٧	
استخراج النفط في السعودية	١٩٣٨	ألمانيا تضم النمسا

نهاية الثورة العربية	١٩٣٩	نهاية الحرب الأهلية الإسبانية؛ ألمانيا تجتاح بولندا؛ بدء الحرب العالمية الثانية
شتيرن تنشيء مقاتلي الحرية في إسرائيل (عصابة شتيرن)	١٩٤٠	معركة بريطانيا
فشل انقلاب رشيد عالي في العراق؛ الحلفاء يحتلون إيران؛ هرب عالي المفتي الأكبر إلى ألمانيا؛ الهاغاناه تنشئ البالماخ	١٩٤١	ألمانيا تجتاح الاتحاد السوفياتي؛ الولايات المتحدة تدخل الحرب بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور
هزيمة الألمان في العلمين	١٩٤٢	اغتيال هيدريتش
استسلام الفيلق الإفريقي والإيطاليين للحلفاء	١٩٤٣	استسلام الألمان في ستالينغراد؛ الجيش الأحمر ينتصر في معركة كورسك؛ الحلفاء يجتاحون صقلية والبرّ الإيطالي
اغتيال اللورد موين	١٩٤٤	الحلفاء يجتاحون النورماندي
إسقاط القنبلة النووية على اليابان	١٩٤٥	تحرير معسكرات الموت النازية؛ انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ حل جهاز تنفيذ العمليات الخاصة؛ وفاة فرانكلين د. روزفلت؛ ترومان يصبح رئيساً؛ تشيرشل يخسر الانتخابات
تفجير فندق الملك داود	١٩٤٦	بدء الحرب الأهلية اليونانية؛ "البرقية الطويلة" لكينان؛
اضطرابات القدس؛ محاكمة فران؛ نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين؛ باكستان تحصل على استقلالها	١٩٤٧	إعلان مبدأ ترومان؛ إنشاء السي. آي.إي.؛ غهلن تنشئ مقرّ قيادة بولاخ
إنشاء دولة إسرائيل؛ بدء الحرب العربية ـ الإسرائيلية؛ اغتيال برنادوت؛ حل عصابة شتيرن وغيرها من التنظيمات شبه العسكرية؛ وفاة جناح؛ إنشاء جهاز الاستخبارات المشتركة	١٩٤٨	الفصل العنصري يصبح قانوناً في جنوب إفريقيا

اغتيال لياقات علي خان؛ ماو يعلن الجمهورية الشعبية في الصين؛ منح العفو لعصابة شتيرن	١٩٤٩	انتهاء الحرب الأهلية اليونانية؛ إنشاء حلف شمال الأطلسي؛ الاتحاد السوفياتي يختبر القنبلة النووية
بدء الحرب الكورية	١٩٥٠	
	١٩٥١	أتشيسون يجمع اللجنة المخصصة لمصر
الضباط الأحرار يطيحون فاروق؛ مجلس قيادة الثورة يحكم مصر	١٩٥٢	بريطانيا تجري تجارب على القنبلة النووية؛ الولايات المتحدة تجري تجارب على القنبلة الهيدروجينية وتطلق أول غواصة نووية
نهاية الحرب الكورية؛ فرنسا تنسحب من الهند الصينية؛ إخراج مصدّق من السلطة في إيران (عملية أجاكس)؛ أم.آي٦ تجنّد خليل	١٩٥٣	أيزنهاور يصبح رئيساً؛ وفاة ستالين وخروتشوف يخلفه؛ إعدام بيريا
عبد الناصر يصبح رئيساً لمصر؛ أول محاولة لاغتيال عبد الناصر؛ بدء حرب الاستقلال في الجزائر؛ إقامة حلف "سينو"	١٩٥٤	
سانت جون فيلبي يغادر السعودية؛ حلف بغداد بين الدول المعادية للشيوعية؛ بدء المساعدة السوفياتية لسوريا	١٩٥٥	إنشاء حلف وارسو وحركة عدم الانحياز؛ البنتاغون يعلن خطة لتطوير الصواريخ العابرة للقارات؛ أيدن يصبح رئيساً للوزراء
الملك الأردني حسين ينهي خدمات غلوب باشا؛ غارة على وكالة الأنباء العربية؛ عبد الناصر يتعهد باستعادة فلسطين؛ بدء أزمة السويس؛ بريطانيا وفرنسا تغزوان مصر؛ إسرائيل تستولي على سيناء؛ باكستان تصبح جمهورية إسلامية	١٩٥٦	خروتشوف يهاجم ستالين أمام الحزب الشيوعي السوفياتي ويبدأ مرحلة التطهير من الستالينية؛ الجيش الأحمر يسحق ثورة المجر
انتهاء أزمة السويس بانسحاب إسرائيل من سيناء؛ إعادة فتح قناة السويس؛ بدء التمرد الفيتنامي	١٩٥٧	استقالة إيدن؛ ماكميلان يصبح رئيساً للوزراء؛ غروميكو يصبح وزيرا لخارجية الاتحاد السوفياتي؛ التوقيع على معاهدة روما؛ الاتحاد السوفياتي يطلق سبوتنيك

إنشاء الجمهورية العربية المتحدة وعبد الناصر رئيساً لها؛ الوحدة بين العراق والأردن؛ قاسم يتولى السلطة في العراق؛ بدء المساعدة السوفياتية للعراق؛ أيوب خان يستولي على باكستان	١٩٥٨	إنشاء السوق الأوروبية المشتركة
بدء حرب فيتنام	١٩٥٩	كاسترو يستولي على كوبا؛ إقامة حلف السينتو؛ خروتشوف يلتقي ماو
نهاية تمرد المالايا؛ إنشاء الأوبيك	١٩٦٠	انتهاء انتفاضة الماماو في كينيا؛ إسقاط طائرة "يو٢" للتجسس؛ إسرائيل تختطف إيخمان في الأرجنتين؛ خروتشوف يضرب بحذائه على منصة الأمم المتحدة؛ جون كنيدي يفوز على نيكسون في الانتخابات
انهيار الجمهورية العربية المتحدة	١٩٦١	كنيدي يصبح رئيساً؛ فشل اجتياح خليج الخنازير؛ تشييد جدار برلين؛ بدء حرب فيتنام؛ الحكم على إيخمان بالإعدام في إسرائيل
الجزائر تحصل على استقلالها؛ بدء الحرب الأهلية في اليمن	١٩٦٢	شنق إيخمان؛ أزمة الصواريخ في كوبا
وصول البعثيين إلى السلطة في سوريا والعراق	١٩٦٣	اغتيال كنيدي؛ جونسون يصبح رئيساً؛ موسكو تمنح اللجوء لكيم فيلبي؛ فضيحة "بروفومو" تغيظ بريطانيا
تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة	١٩٦٤	بريجنيف يخلف خروتشوف؛ الصين تختبر القنبلة النووية؛ ويلسون يهزم هيوم في الانتخابات البريطانية ويشكل حكومة عمالية
نشر قوات المظليين الأميركيين والمارينز في فيتنام؛ القوات الباكستانية تدخل كشمير الهندية	١٩٦٥	وفاة تشيرشل؛ هيث يصبح زعيماً للتوري
كوسيغين يدعو رئيسي الوزراء الهندي والباكستاني إلى موسكو وينجز السلام؛ إنديرا غاندي تصبح رئيسة لوزراء الهند؛ إعدام سيد قطب؛ حزب البعث يستولي على سوريا؛ بدء الثورة الثقافية في الصين	١٩٦٦	اغتيال رئيس وزراء جنوب إفريقيا فيرفويرد؛ الجاسوس البريطاني للسوفيات جورج بلايك يفر من السجن ويبلغ موسكو؛ انتخاب رونالد ريغان حاكماً لكاليفورنيا

موشي دايان يصبح وزيراً للدفاع في إسرائيل؛ حرب الأيام الستة؛ اسرائيل تحتل مرتفعات الجولان والضفة الغربية؛ بدء حرب الاستنزاف	١٩٦٧	إعدام تشي غيفارا في بوليفيا
صدام حسين يصبح نائباً للرئيس في العراق؛ مجزرة ماي لي في فيتنام	١٩٦٨	قوات حلف وارسو تسحق ربيع براغ؛ اغتيال روبرت كنيدي ومارتن لوثر كينغ؛ بيار ترودو يصبح رئيساً لوزراء كندا؛ بدء الاضطرابات في إيرلندا الشمالية
عرفات يصبح رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية؛ القذافي يستولي على ليبيا ويطلب المساعدة من السوفيات	١٩٦٩	نيكسون يصبح رئيساً؛ هبوط أبوللو ١١ على القمر
نهاية حرب الاستنزاف؛ وفاة عبد الناصر؛ السادات يتولى على مصر	١٩٧٠	التوقيع على اتفاقية الحد من انتشار الأسلحة النووية؛ هيث يحل محل ويلسون كرئيس لوزراء بريطانيا
الأسد يصبح رئيساً لسوريا؛ إنجاز سد أسوان بمساعدة سوفياتية؛ إنشاء دولة الإمارات العربية المتحدة في الخليج الفارسي؛ شرق باكستان تحصل على استقلالها من باكستان وتصبح بنغلادش	١٩٧١	إنجاز بناء مركز التجارة العالمية؛ استراليا ونيوزيلندا تسحبان قواتهما من فيتنام
مجزرة مطار اللد؛ نيكسون يزور الصين؛ علي بوتو يصبح رئيساً لباكستان؛ باكستان والهند توقعان اتفاق "سيملا"	١٩٧٢	اقتحام مقر ووترغيت وما تبعه من فضيحة يهزّ الولايات المتحدة؛ إرهابيو أيلول الأسود يقتلون ١١ رياضياً إسرائيلياً في الألعاب الأولمبية في ميونيخ
حرب يوم الغفران	١٩٧٣	بينوشي يطرد أياندي من السلطة في تشيلي
منظمة التحرير الفلسطينية تمثّل فلسطين في الأمم المتحدة	١٩٧٤	نيكسون يستقيل وقد ألحق به العار
سقوط سايغون؛ نهاية حرب فيتنام؛ بدء الإبادة الكمبودية؛ بدء الحرب الأهلية اللبنانية	١٩٧٥	التوقيع على القانون الأخير في هلسنكي

١٩٧٦	خطف طائرة في الرحلة رقم أف١٣٩؛ عملية إنقاذ يقوم بها مكافحو الإرهاب الإسرائيليون في عينتبي في أوغندا؛ وفاة ماو؛ بول بوت يصبح رئيساً لوزراء كمبوديا؛ اتحاد شمال وجنوب فيتنام	وأخيراً استقال هارولد ويلسون؛ جايمس كالاغان يتولى الرقم ١٠ في داونينغ ستريت؛ أعمال شغب في سويتو في جنوب إفريقيا؛ الاحتفال بذكرى المئتي سنة على استقلال أميركا
١٩٧٧	ضياء الحق يزيح بوتو ويتولى على باكستان؛ الليكود بقيادة مناحيم بيغن يفوز بالانتخابات الإسرائيلية؛ حل السنتو	جيمي كارتر يصبح رئيساً؛ اصطدام جوي فوق تنيريف يقتل ٥٨٣ شخصاً؛ فتح خط الأنابيب العابر لألاسكا؛ طائرة الكونكورد تبدأ رحلاتها المنتظمة الأسرع من الصوت فوق الأطلسي؛
١٩٧٨	عملية الليطاني، تدخل إسرائيلي ناجح في لبنان؛ بيغن والسادات يوقعان اتفاقات كامب ديفيد؛ مليونا شخص يتظاهرون في طهران ضد الشاه؛ الشيوعيون يستولون على أفغانستان	انتحار جماعي لأتباع إحدى الطوائف في حونستاون في غويانا
١٩٧٩	اتفاق سيناء؛ الاتحاد السوفياتي يغزو أفغانستان؛ الشاه يغادر إيران والخميني يتولى السلطة وبدء أزمة الرهائن في طهران؛ أصوليون إسلاميون يهاجمون المسجد الكبير في مكة ويحتلونه؛ صدام حسين يتولى على العراق؛ ضياء الحق يعدم بوتو؛ انهيار نظام بول بوت في كمبوديا؛ ٢٠٠ ألف جندي صيني يغزون شمال فيتنام لكنهم يجبرون على الانسحاب وقد ألحقت بهم خسائر فادحة	الولايات المتحدة والصين تفتتحان العلاقات الديبلوماسية؛ مارغريت ثاتشر تصبح رئيسة لوزراء بريطانيا؛ الجيش الجمهوري الإيرلندي يغتال ماونتباتن؛ روديسيا تحصل على حكم الأغلبية السوداء؛ البابا يوحنا بولس الثاني يزور موطنه بولندا؛ الساندينيون يتولون السلطة في نيكاراغوا
١٩٨٠	بدء الحرب الإيرانية-العراقية؛ إسرائيل ومصر تقيمان علاقات ديبلوماسية؛ فشل محاولة للإخوان المسلمين ضد الأسد؛ وفاة الشاه في القاهرة؛ ديبلوماسيون كنديون يسهّلون فرار ديبلوماسيين أميركيين من طهران؛ فشل مهمة كوماندوس لإنقاذ ٥٢ رهينة	وفاة المارشال تيتو؛ بيار ترودو يعود كزعيم كندي؛ انتخاب روبرت موغابي رئيساً لوزراء زيمبابوي المستقلة حديثاً (جنوب روديسيا)؛ فرقة من القوات الجوية الخاصة تقتحم بنجاح مبنى السفارة الإيرانية في لندن بعد احتلالها من قبل إرهابيين مولودين في إيران؛ إنشاء اتحاد التضامن في بولندا

اغتيال السادات؛ مبارك يصبح رئيساً لمصر؛ إطلاق الرهائن في طهران؛ إسرائيل تقصف بيروت	١٩٨١	ريغان يصبح رئيساً؛ الجنرال ياروزلسكي، آخر حاكم شيوعي لبولندا يتولى السلطة؛ مطلقا نار يجرحان كلا من ريغان والبابا في حادثين منفصلين؛ ميتران يصبح رئيساً لفرنسا
إسرائيل تغزو لبنان	١٩٨٢	حرب فوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين؛ أندروبوف يخلف بريجنيف
تفجير السفارة الأميركية وثكنة المارينز في بيروت	١٩٨٣	ريغان يقترح "حرب النجوم"؛ ثاتشر تحقق فوزاً انتخابياً كاسحاً عقب حرب الفوكلاند؛ مقاتلة سوفياتية تسقط طائرة ركاب كورية جنوبية في المجال الجوي السوفياتي؛ انتهاء الحكم العسكري في الأرجنتين
المارينز الأميركيون ينسحبون من لبنان؛ الجهاد الإسلامي تخطف رئيس محطة السي.آي.إي. في بيروت وليام باكلي وتقتله؛ إيران تتهم العراق باستخدام الأسلحة الكيماوية	١٩٨٤	تشيرننكو يخلف أندروبوف؛ ريغان يدعو إلى حظر الأسلحة الكيماوية؛ الهجمات الفلسطينية الإرهابية التي يشنها أبو نضال وغيره على أهداف غربية تبلغ ذروتها في خلال عامين
إسرائيل تسحب قواتها من لبنان وتقصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس	١٩٨٥	ريغان يؤدي اليمين لولاية ثانية؛ غورباتشيف يصبح الزعيم السوفياتي
الولايات المتحدة تقصف ليبيا	١٩٨٦	قضية إيران-كونتر تتسبب بفضيحة في أميركا؛ طائرة تابعة للخطوط الجوية الهندية الرحلة ١٨٢ تنفجر فوق الأطلسي؛ اغتيال رئيس الوزراء السويدي أولوف بالمه؛ إرهابيون ليبيون يفجّرون مرقصاً في برلين الغربية؛ الكارثة النووية في تشيرنوبيل
بدء الانتفاضة الأولى	١٩٨٧	
مقتل ضياء الحق في تحطم طائرة؛ بينازير بوتو تصبح رئيسة لوزراء باكستان	١٩٨٨	غورباتشيف يبدأ بالبيريسترويكا (إعادة الهيكلة) في الاتحاد السوفياتي؛ إرهابيون ليبيون يدمرون طائرة جمبو تابعة للخطوط الجوية الأميركية فوق لوكربي في اسكتلندا

انتهاء الحرب الإيرانية-العراقية؛ آية الله الخميني يصدر فتوى في حق سلمان رشدي بعد نشر كتابه "آيات شيطانية" في ١٩٨٩؛ وفاة الخميني؛ الاتحاد السوفياتي ينسحب من أفغانستان؛ تظاهرات في ساحة تيانانمين في بكين	١٩٨٩	بوش الأب يصبح رئيساً؛ فتح الحدود المجرية؛ التضامن تفوز بالانتخابات البولندية؛ سقوط جدار برلين؛ ثورة المخمل في تشيكوسلوفاكيا؛ الإطاحة بتشاوشيسكو وإعدامه في رومانيا؛ الولايات المتحدة تجتاح بنما
انتهاء الانتفاضة الأولى؛ انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية؛ العراق يغزو الكويت؛ الوحدة بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية؛ إقالة بنازير بوتو في باكستان؛ نواز شريف يتولى السلطة ويدخل الشريعة في القانون	١٩٩٠	إعادة توحيد ألمانيا؛ إطلاق مانديلا؛ ميجور يخلف ثاتشر في رئاسة الحكومة البريطانية
حرب الخليج؛ فرض العقوبات على العراق؛ الجمهوريات السوفياتية السابقة في آسيا الوسطى تحصل على استقلالها	١٩٩١	يلتسين يصبح رئيساً لروسيا؛ انهيار الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا؛ جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة والدول التابعة تحصل على استقلالها؛ حل حلف وارسو؛ تحويل ألكا.جي.بي. إلى أس.في.أر.
التوقيع على اتفاقات أوسلو؛ شريف يحل محل بنازير بوتو في باكستان	١٩٩٢	انتهاء نظام التمييز العنصري والولايات المتحدة ترفع العقوبات عن جنوب إفريقيا
	١٩٩٣	بيل كلينتون يصبح رئيساً
الأردن يعترف بإسرائيل	١٩٩٤	نيلسون مانديلا يصبح رئيساً لجنوب إفريقيا؛ ارتكاب عملية إبادة للجنس في رواندا؛ بدء حرب الشيشان الأولى
اغتيال إسحق رابين في تل أبيب	١٩٩٥	هجوم بغاز السارين على إحدى محطات قطار الأنفاق في طوكيو يجرح أكثر من خمسة آلاف؛ قنبلة كبيرة تدمّر المبنى الفديرالي في مدينة أوكلاهوما؛ الصرب يذبحون أكثر من ثمانية آلاف بوسني في سريبرينيكا
الطالبان يستولون على السلطة في أفغانستان؛ إقالة بنازير بوتو للمرة الثانية في باكستان؛ تفجير أبراج الخبر في السعودية	١٩٩٦	انتهاء حرب الشيشان الأولى؛ قنبلة كبيرة وضعها الجيش الجمهوري الإيرلندي تدمّر مركز مدينة مانشستر

نواز شريف يعود إلى السلطة في باكستان	١٩٩٧	توني بلير يصبح رئيساً لوزراء بريطانيا؛ الأميرة ديانا تموت في حادث سيارة في باريس
باكستان تصبح قوة نووية؛ أسامة بن لادن يصدر فتوى يعلن فيها الجهاد على جميع اليهود و"الصليبيين"	١٩٩٨	تفجير فضيحة كلينتون ـ لوينسكي في واشنطن؛ اتهم كلينتون لاحقاً بالإخلال في الوظيفة ثم برئت ساحته؛ تفجير السفارتين الأميركيتين في تانزانيا وكينيا
وفاة الحسين ملك الأردن؛ مشرّف يستولي على السلطة في باكستان	١٩٩٩	النزاع في كوسوفو يبلغ ذروته بقصف حلف شمال الأطلسي لصربيا؛ بدء حرب الشيشان الثانية؛ بوتين يخلف يلتسين
بدء الانتفاضة الثانية؛ وفاة الأسد الأب وابنه يخلفه؛ القاعدة تفجر السفينة الحربية الأميركية كول في عدن	٢٠٠٠	الغواصة السوفياتية كورسك تغرق في بحر بارنتس؛ الإطاحة بالرئيس الصربي ميلوسوفيتش؛ انتخاب هيلاري كلينتون إلى مجلس الشيوخ؛ فقاعة "دوت.كوم" تنفجر
شارون يصبح رئيساً لوزراء إسرائيل؛ حلف شمال الأطلسي يجتاح أفغانستان؛ إخراج الطالبان من السلطة؛ مسلحون باكستانيون يهاجمون البرلمان الهندي	٢٠٠١	بوش يخلف كلينتون رئيساً؛ ٩/١١ القاعدة تهاجم مبنى التجارة العالمية والبنتاغون؛ أحد أفراد القاعدة يفشل في تفجير قنبلة مزروعة في حذائه في خلال رحلة من باريس إلى ميامي
اختطاف دانيال بيرل وتعذيبه وقتله في كراتشي	٢٠٠٢	بريطانيا تحتفل باليوبيل الذهبي للملكة؛ بوش ينشئ وزارة للأمن الداخلي
الولايات المتحدة تجتاح العراق، وتسحب قواتها من السعودية؛ اعتقال صدام حسين؛ تفجير المجمّع في الرياض يثير ردّاً سعودياً قاسياً يتضمن توقيفات جماعية؛ ليبيا تعترف بأنها في طور بناء قنبلة نووية؛ مشرّف ينجو من محاولتي اغتيال في غضون أسبوعين	٢٠٠٣	مكوك الفضاء يتفكّك في خلال العودة؛ الرحلة الأخيرة للكونكورد؛ بوش يواجه احتجاجات جماهيرية في بريطانيا؛ مفجّر لوكربي الليبي يُحكم بالحد الأدنى من السجن وهو ٢٧ عاماً

سوء معاملة سجناء أبو غريب تصدم الغرب والشرق؛ سينغ يصبح رئيساً لوزراء الهند؛ كرزاي يفوز في انتخابات أفغانستان؛ مهاجمة القنصلية الأميركية في جدة؛ التسونامي يضرب جنوب شرق آسيا	٢٠٠٤	جهاديون يفجرون محطة قطار الركاب في مدريد؛ بلير يزور ليبيا إقراراً منه بقيام القذافي بتفكيك برنامجه لبناء أسلحة الدمار الشامل؛ جورج تينيت يستقيل من منصبه كمدير للسي.آي.إي. وكولين باول كوزير للخارجية؛ وفاة ريغان؛ إرهابيون شيشان يحاصرون مدرسة في شمال أوسيتيا في عملية انتهت في شكل دموي
وفاة الملك السعودي فهد؛ انتخاب أحمدي نجاد رئيساً لإيران؛ محاكمة صدام حسين؛ تفجيرات في عمّان؛ طائرة هيركوليس إيرانية تصطدم بمبنى سكني من عشر طبقات في طهران؛ تفجّر سد شاكيدور	٢٠٠٥	بوش يبدأ ولايته الثانية؛ وفاة يوحنا بولس الثاني؛ انتخاب الكاردينال راتزينغر بابا؛ جهاديون يفجرون إحدى محطات قطار الأنفاق وباصاً؛ الجيش الجمهوري الإيرلندي ينهي رسيما حملة الإرهاب؛ صحيفة دانماركية تنشر كاريكاتوراً مثيراً للجدل للنبي محمد
نزاع إسرائيلي-لبناني؛ شارون يعاني جلطة كبرى؛ أولمرت يصبح رئيساً لوزراء إسرائيل؛ إعدام صدام حسين؛ مقتل الزرقاوي زعيم القاعدة في العراق في غارة جوية؛ المتمردون يعلنون "الدولة الإسلامية في العراق"؛ تدافع في مكة يقتل ٣٦٢ حاجاً؛ أحمدي نجاد يؤكد إنتاج إيران لليورانيوم المخصّب ويستضيف مؤتمراً لإنكار المحرقة	٢٠٠٦	اكتشاف مؤامرة لتفجير إحدى الطائرات في المملكة المتحدة يؤدي إلى إجراءات أمنية في المطارات؛ البابا ينتقد الإسلام مثيراً احتجاجات كبرى؛ فقّاعة الإسكان العالمية تبلغ الذروة وتنفجر؛ القروض العقارية تطلق بداية الأزمة المالية العالمية
مشرّف يعلن حالة الطوارئ في باكستان؛ اغتيال بنازير بوتو	٢٠٠٧	حرائق تشتعل في غابات اليونان؛ بوتين يعلن استئناف دوريات القاذفات الاستراتيجية

الطالبان يحاولون اغتيال كرزاي؛ مشرّف يستقيل من رئاسة باكستان ويخلفه آصف علي زرداري أرمل بنازير بوتو؛ غارات جوية إسرائيلية على غزة	٢٠٠٨	استقالة فيدل كاسترو؛ انتخاب شقيقه راوول رئيساً لكوبا؛ مدفيديف يصبح رئيساً لروسيا؛ بوتين يصبح اسمياً رئيساً لوزرائه؛ توقيف كراديتش المتهم بارتكاب جرائم حرب في بلغراد؛ اندلاع حرب جنوب أوسيتيا؛ ازدياد عمليات القرصنة الصومالية؛ الأزمة المالية العالمية يدفع إيسلندا إلى شفير الهاوية
اسرائيل تجتاح غزة ثم تنسحب؛ أزمة اقتصادية تهدد دبي القادرة في العادة على السداد؛ احتجاجات واسعة في إيران بعد تلاعب أحمدي نجاد في النتائج التي أعادت انتخابه؛ اشتباكات بين الأويغور والهان في غرب الصين	٢٠٠٩	باراك أوباما يخلف جورج و. بوش في الرئاسة؛ خلاف حول الطاقة بين روسيا وأوكرانيا؛ انهيار الاقتصاد الإيسلندي؛ حرائق تجتاح أدغال استراليا؛ فيروس "إتش١ أن١" يبلغ أبعاد الوباء؛ بريطانيا تخلي مفجّر لوكربي إلى ليبيا على أساس الرحمة



شخصيّات وأدوار

عبد العزيز بن سعود – (١٨٧٦-١٩٥٣) حاكم السعودية وملكها الأول أسس في ١٩٣٢ المملكة العربية السعودية كأمة موحدة. ولما تم اكتشاف النفط في ١٩٣٨، أصبح هاري سانت جون فيلبي، والد كيم فيلبي، مستشاره الأقرب وكبير مفاوضيه.

عبد الحميد الثاني – (١٨٤٢-١٩١٨) السلطان الرابع والثلاثون للأمبراطورية العثمانية من ١٨٧٦ إلى حين خلعه عن العرش في ١٩٠٩؛ وهو آخر سلطان يحكم بسلطة مطلقة.

عبدالله الأول – (١٨٨٢-١٩٥١) أمير شرق الأدرن وملكه (١٩٢١-١٩٤٩) والأردن (١٩٤٩-١٩٥١)، وهو الابن الثاني للحسين بن علي. عمل عبدالله عن كثب مع ت. أ. لورنس في خلال الثورة العربية (١٩١٦-١٩١٨). أطلق عليه فلسطيني النار وقتله في القدس وهو يشارك في الصلاة مع حفيده الذي خلفه ملكاً.

عبد المجيد الثاني – (١٨٦٨-١٩٤٤) آخر خلفاء السلالة العثمانية (١٩٢٢-١٩٢٤). ولي اسمي للعهد مع إلغاء السلطنة في ١٩٢٢ وقد انتخبه المجلس الوطني التركي خليفة.

دين أتشيسون – (١٨٩٣-١٩٧١) وزير الخارجية في عهد الرئيس ترومان (١٩٤٩-١٩٥٣).

وسلي أدامز – السكرتير الثاني في السفارة الأميركية في القاهرة.

كونراد أديناور – (١٨٧٦-١٩٦٧) رجل دولة ألماني وسياسي محافظ وأو مستشار لجمهورية ألمانيا الفديرالية (ألمانيا الغربية) (١٩٤٩-١٩٦٣).

أغريبينا الصغرى – (١٥-٥٩) الزوجة الرابعة للأمبراطور كلاوديوس ووالدة نيرون؛ امرأة جميلة تمتلك طموحاً سياسياً ونزعة لا ترحم. أعدمها ابنها، غير ان روايات المؤرخين عن كيفية موتها وسببه تختلف كثيراً.

محمود أحمد – ضابط في الجيش الباكستاني ومدير عام لجهاز الاستخبارات الباكستانية المشتركة ساهم في إيصال برويز مشرّف إلى السلطة.

حافظ الأسد – (١٩٣٠-٢٠٠٠) ضابط طيار سوري سابق في سلاح الجو السوري أصبح رئيساً على سوريا طوال ثلاثة عقود منذ ١٩٧١.

رفعت الأسد – الشقيق الأصغر لحافظ الأسد والقائد السابق لسرايا الدفاع السورية وقد لعب دوراً حاسماً في استيلاء شقيقه على السلطة التنفيذية في ١٩٧٠.

حسن البنّا – (١٩٠٦-١٩٤٩) مصلح اجتماعي وسياسي مصري، أسس الإخوان المسلمين وهو واحد من أكبر تنظيمات القرن العشرين الإحيائية الإسلامية وأكثرها نفوذاً.

صلاح البزري – رئيس الأركان السورية العامة.

ألكسندر الأول – (١٧٧٧-١٨٢٥) حفيد كاثرين الكبرى المفضّل، حكم روسيا في خلال الحروب النابوليونية. شخصية مثيرة للاهتمام في حياته، ولا تزال وفاته المزعومة بحمى التفوئيد مغلفة بالأسرار، كما أن موضع جثمانه غير معروف. وهو عرّاب الملكة فيكتوريا التي أعطيت في العماد اسم «ألكسندرينا فيكتوريا» تكريماً له.

ألكسندر الثاني – (؟-١٠٧٣) وُلد تحت اسم أنسيلمو دا باجيو، وعُرف في شكل أساسي بموقفه المتسامح حيال اليهود غير التائبين وبدعمه غزو وليام الفاتح لإنكلترا في ١٠٦٦ الذي ساعد النورمان على تهدئة الأكليروس الإنكليزي.

هارولد ألكسندر – (١٨٩١-١٩٦٩) ضابط في الجيش البريطاني، قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط (١٩٤٢-١٩٤٣)؛ أصبح لاحقاً آخر حاكم عام بريطاني لكندا (١٩٤٦-١٩٥٢).

محمد شريف الفاروقي – (١٨٩١-١٩٢٠) ضابط صف عربي في الجيش العثماني لعب دوراً محورياً في الأحداث التي أدت إلى الثورة العربية من خلال تضليله البريطانيين، عن قصد أو غير قصد، في شأن مدى الاستعداد العربي للثورة على الأتراك.

رشيد عالي الكيلاني – (١٨٩٢-١٩٦٥) سياسي مؤيد للنازية ورئيس سابق للوزراء قام بانقلاب فاشل ضد الإنكليز في العراق في ١٩٤١ بدعم من المفتي الحاج أمين الحسيني. هرب إلى طهران ليصل في النهاية إلى برلين حيث أمضى باقي أيام الحرب في حماية من هتلر.

حسن الهضيبي – قاض، والمرشد الأعلى للإخوان المسلمين.

الحاج أمين الحسيني – (١٨٩٥-١٩٧٤) مفتي القدس والزعيم المناضل للقومية الفلسطينية

في خلال الانتداب البريطاني وواحد من أكثر الشخصيات العربية المعاصرة إثارة للجدل تعاون في بعض المرات مع البريطانيين مع أنه مؤيد للنازية وأمضى معظم الحرب العالمية الثانية في برلين.

علي بن الحسين – (١٨٧٩-١٩٣٥) ملك الحجاز وشريف مكة الأكبر (١٩٢٤-١٩٢٥)، وأصبح لاحقاً ملك العراق؛ وهو الابن البكر للحسين بن علي.

محمود عبد اللطيف – عنصر في الإخوان المسلمين حاول في ١٩٥٤ اغتيال عبد الناصر، وقد حكم عليه من جراء ذلك بالموت وأعدم شنقاً.

هاشم بن عبد مناف – الجد الأكبر للنبي محمد.

راغب النشاشيبي – (١٨٨١-١٩٥١) سياسي فلسطيني، رئيس بلدية القدس، والخصم الأكبر للمفتي.

عبدالله القحطاني – (؟-١٩٧٩) شارك في قيادة عملية الاستيلاء في ١٩٧٩ على الجامع الكبير في مكة، وقد أعلنه صهره، جهيمان العتيبي، على انه المهدي، وقُتل في المعركة التي أعقبت ذلك واستمرت أسبوعين.

شكري القوتلي – (١٨٩١-١٩٦٧) رئيس سوريا من ١٩٤٣-١٩٤٩ و١٩٥٥-١٩٥٨.

محمد أنور السادات – (١٩١٨-١٩٨١) الرئيس الثالث لمصر، المقرّب جداً من عبد الناصر وقد اعتنق سياسته لكنه تخلّى عنها لاحقاً لمصلحة نظام متعدد الأحزاب. حصل في ١٩٧٨، إلى جانب الإسرائيلي مناحم بيغن، على جائزة نوبل للسلام على تفاوضهما للوصول إلى معاهدة سلام بين بلديهما، وهي خطوة ثبت أنها غير شعبية إلى حد كبير في العالم الإسلامي.

جهيمان العتيبي – (١٩٣٦-١٩٨٠) جندي سابق في الحرس الوطني السعودي وإسلامي وهابي مناضل قاد ما يزيد على الألف رجل في عملية الاستيلاء على الجامع الكبير في مكة في ١٩٧٩، وقد أُعدم بعد ذلك، مع ٦٦ متمرداً آخر بقطع الرأس. وقد برر عمله بأن العامة السعودية فقدت شرعيتها بسبب الفساد وتقليد الغرب. تزوّج شقيقة رفيقه المتمرّد عبدالله القحطاني الذي ادعى العتيبي بأنه المهدي قبل الاستيلاء على الجامع.

محمد بن عبد الوهّاب – (١٧٠٣-١٧٩٢) عالم سنّي نافذ من نجد (وسط السعودية). وبالرغم من أنه لم يدع قط بالتحديد إلى مدرسة فقهية إسلامية مستقلة فقد اشتقت

تسمية الوهّابية من الوهّاب لتحديد شكل الإسلام المغالي في المحافظة المُطبّق في شكل رئيسي في السعودية.

هيلموت ألاردت – (١٩٠٧-١٩٨٧) ديبلوماسي ألماني غربي محترف وقانوني حقق في وضع المستشارين الألمان في مصر في ١٩٥٣ ورفع تقرير تبرئة.

إيغال ألون – (١٩١٨-١٩٨٠) سياسي إسرائيلي، قائد للبالماخ، وجنرال في الجيش الإسرائيلي.

جوليان أميري – (١٩١٩-١٩٩٦) ضابط في الجيش البريطاني وسياسي، مناضل معاد للشيوعية وقد ساند بقوة سياسة إيدن في شأن السويس. ابن ليو أميري، تزوج ابنة هارولد ماكميلان وكان صديقاً مقرباً من بيلي ماكلين.

ليو أميري – (١٨٧٣-١٩٥٥) سياسي، صحافي، ومتسلّق جبال، رفيق ونستون تشيرشل في المدرسة ارتبط معه طوال حياته المهنية بالرغم من خلافاتهما المتكررة. والد جوليان أميري.

روبرت أموري – أستاذ القانون في جامعة هارفرد أصبح في ١٩٥٣ نائباً لمدير «السي. آي.إي.» للاستخبارات.

فلاديسلاف أندرز – (١٨٩٢-١٩٧٠) ضابط في جيش بولندا الحرة قاد في ١٩٤١ جيشاً من الجنود البولنديين واليهود (أكثرهم من المدنيين) خارج الاتحاد السوفياتي وإلى الشرق الأوسط حيث أعيد تدريبهم وشكّلوا الفيلق الثاني في الحملة الإيطالية بقيادة أندرز. أصبح لاحقاً القائد الأعلى لجميع القوات البولندية الحرّة.

ل. ي. أندرو – مفوّض مقاطعة الجليل قتله متطرفون عرب في ١٩٣٧.

سيسيليا أنغلتون – زوجة جيمس جيزاس أنغلتون.

جايمس جيزاس أنغلتون – (١٩١٧-١٩٨٧) ضابط استخبارات محترف ورئيس قسم عمليات مكافحة التجسس في «السي.آي.إي.» على مدى أكثر من عقدين (١٩٥٤-١٩٧٥).

أحمد عرابي – (١٨٤١-١٩١١) ضابط في الجيش المصري قاد في ١٨٧٩ ثورة ضد الخديوي والنفوذ التركي في الجيش المصري. هُزم في النهاية على يد البريطانيين

في معركة التل الكبير في ١٨٨٢، أمضى بعدها سنوات كثيرة في المنفى في سيلان (سريلانكا).

طوبيا أرازي – ضابط استخبارات اليشوف في سوريا ولبنان.

شلومو أرغوف – (١٩٢٩-٢٠٠٣) السفير الإسرائيلي في المملكة المتحدة الذي اغتيل بأمر من صدّام حسين.

مصطفى كمال أتاتورك – (١٨٨١-١٩٣٨) ضابط في الجيش التركي، رجل دولة ثوري، ومؤسس الجمهورية التركية وأول رئيس لها منذ ١٩٢٣ وحتى وفاته. تبنى مثل عهد التنوّر وسعى إلى تحويل ما تبقى من تركيا العثمانية إلى ديمقراطية حديثة وعلمانية.

زئيف أفني – ديبلوماسي إسرائيلي عمل في الخمسينيات جاسوساً مزروعاً «للكا.جي.بي.» في الموساد. أمسك به في ١٩٥٦ وسُجن.

غاس أفراكوتوس – (١٩٣٨-٢٠٠٥) ضابط مشغّل في «السي.آي.إي.»، يوناني-أميركي، انخرط أساساً في تنظيم وتسليح المجاهدين الأفغان في كفاحهم ضد الاتحاد السوفياتي.

عبدالله يوسف عزّام – (١٩٤١-١٩٨٩) عالم إسلامي مؤثر جداً وفقيه؛ علّم أسامة بن لادن ونصحه؛ اغتيل في باكستان.

برنهارد باتز – ضابك في «الأس.أس.» دين بجرائم حرب في بولندا إلى جانب يواكيم دوملينغ وغيره في ما سُمّي محاككة «مقرّ الأس.أس.» في ١٩٦٧-١٩٦٨.

نصير الله بابار – (١٩٢٨-). ضابط في الجيش الباكستاني عمل وزيراً للداخلية في عهد بنازير بوتو (١٩٩٣-١٩٩٦)، ويعتقد الكثيرون أنه العقل المفكر وراء الطالبان.

روبرت (بوب) باير – (١٩٥٢-) مؤلف أميركي وضابط محرّك في «السي.آي.إي.» في سوريا.

خالد بكداش – (١٩١٢-١٩٩٥) زعيم الحزب الشيوعي السوري من ١٩٣٦ حتى وفاته.

تيمور بختيار – (١٩١٤-١٩٧٠) جنرال إيراني والمؤسس الذي لا يحمل شفقة للسافاك (١٩٥٨-١٩٦١)، وقد اغتاله عميل للسافاك وهو يصطاد في العراق.

أرثور بلفور – (١٨٤٨-١٩٣٠) رئيس وزراء المملكة المتحدة (١٩٠٢-١٩٠٥)؛ ووضع

لاحقاً بوصفه وزيراً للخارجية وعد بلفور الصادر في ١٩١٧ دعم فيه إقامة وطن يهودي في فلسطين.

افلين باركر– (١٨٩٤-١٩٨٣) ضابط في الجيش البريطاني وقائد قوات الانتداب البريطاني في فلسطين من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٧؛ نجا بأعجوبة من عدة محاولات لاغتياله على يد الإيرغون وعصابة شتيرن، حتى بعدما غادر فلسطين.

والتر بيدل سميث– (١٨٩٥-١٩٦١) ضابط في الجيش الأميركي، رئيس للأركان في عهد قيادة أيزنهاور للمقر الأعلى لقوات التدخل الحليفة، وسفير لدى الاتحاد السوفياتي (١٩٤٦-١٩٤٨) ومدير «للسي.آي.إي.» (١٩٥٠-١٩٥٣).

يسرائيل بير (بار)– (١٩١٢-١٩٦٦) ضابط في الجيش الإسرائيلي وبروفيسور في التاريخ العسكري في جامعة تل أبيب وكان صديقاً مقرباً من شمعون بيريز وأيضاً جاسوساً سوفياتياً. دين بالتجسس في ١٩٦١ ومات في السجن.

مناحم بيغن– (١٩١٣-١٩٩٥) سياسي إسرائيلي ورئيس الإيرغون (١٩٤٣-١٩٤٨)؛ أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء (١٩٧٧-١٩٨٣).

إلياهو بيت-زوري– (١٩٢٢-١٩٤٥) عضو في عصابة شتيرن شُنق في القاهرة لاغتياله اللورد موين.

جيرترود بل– (١٨٦٨-١٩٢٦) عالمة آثار، لغوية، كاتبة، مصوّرة، رحّالة، محلّلة سياسية، ومديرة استعمارية؛ أصبحت بوصفها ضابطة اتصال في مكتب الشؤون العربية صديقة لتي. أ. لورنس وشريكة لبرسي كوكس والمشرفة الميدانية على هاري سانت جون فيلبي. وبل مسؤولة جزئياً، إذا لم يكن في شكل كبير، عن ولادة الأمة العراقية.

ديفيد بن غوريون– (١٨٨٦-١٩٧٣)، صهيوني روسي متحمّس هاجر إلى فلسطين في ١٩٠٦، وأصبح أول رئيس وزراء لإسرائيل (١٩٤٨-١٩٥٣) و(١٩٥٥-١٩٦٣). اعتزل السياسة وعاش ما تبقى من حياته في أحد الكيبوتزات في صحراء النقب.

الياشيف بن هورين– ديبلوماسي إسرائيلي حاول في الولايات المتحدة تجنيد عرب ليصبحوا عملاء يتجسسون لإسرائيل.

فولك برنادوت– (١٨٩٥-١٩٤٨) ديبلوماسي سويدي اغتالته عصابة شتيرن وهو في مهمة من قبل الأمم المتحدة في القدس.

إميل برندورف – ضابط في «الأس.أس.» دين بجرائم حرب في بولندا إلى جانب يواكيم دوملينغ وغيره في ما سمي بمحاكمة «مقر الأس.أس.» في ١٩٦٧-١٩٦٨.

أرنست بيفين – (١٨٨١-١٩٥١) زعيم حزب العمال البريطاني، سياسي، ورجل دولة اشتهر أكثر ما يكون بوصفه وزير العمل في زمن الحرب ووزيراً للخارجية في ما بعدها. عارض بحدّة المنشقين الصهاينة، مثل الإيرغون وعصابة شتيرن، وطالب بدولة عربية فلسطينية مستقلة.

بنازير بوتو – (١٩٥٣-٢٠٠٧) رئيسة وزراء باكستان لولايتين (١٩٨٨-١٩٩٠ و١٩٩٣-١٩٩٦) وقد تلقت تعليمها في هارفرد وأوكسفورد وهي الابنة الكبرى لذو الفقار علي بوتو. تبنت القاعدة مسؤولية اغتيالها.

ذو الفقار علي بوتو – (١٩٢٨-١٩٧٩) تلقى علومه في بركلي وأوكسفورد، وزير خارجية، رئيس، ورئيس وزراء باكستان ما بين ١٩٦٣ و١٩٧٧ ووالد بنازير بوتو. حكم عليه بالإعدام ونفّذ الحكم في عهد نظام خليفته الديكتاتور العسكري محمد ضياء الحق.

السيّد حسين بن علي – (١٨٥٤-١٩٣١) شريف مكة وأميرها (١٩٠٨-١٩١٧)؛ ملك الحجاز (١٩١٧-١٩٢٤، تنازل عن العرش).

أسامة بن لادن – مولود في السعودية ومؤسس تنظيم القاعدة الجهادي، ويُعدّ في شكل عام مسؤولاً عن نشاطات إرهابية عالمية بما فيها تفجير مبنى التجارة العالمية في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك.

أوتو فون بيسمارك – (١٨١٥-١٨٩٨) رجل دولة بروسي وألماني عرف بـ«المستشار الحديدي» وقد نجح في توحيد ألمانيا التي تألفت من يومها من مئات الإمارات ذات الاستقلال الذاتي والمدن الحرّة؛ وأضحت ألمانيا بعد توحيدها واحدة من قوى أوروبا الكبرى وشرعت في البحث عن «مكانها تحت الشمس»، مما أدى إلى توحيد القوى الكبرى الأخرى (ما عدا النمسا ـ المجر) ضدها.

بوهيموند الأول – (١٠٥٨-١١١١) قاد الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩)، احتل أنطاكيا في ١٠٩٨ وأقام فيها مملكة الفرنج (النورمان) التي بقيت حتى ما بعد انتهاء حكم النورمان في أوروبا.

تشارلز «تشيب» بوهلن – (١٩٠٤-١٩٧٤) ديبلوماسي محترف وخبير في الشؤون السوفياتية، عمل سفيراً لدى الاتحاد السوفياتي (١٩٥٣-١٩٥٧). لم يتفق كثيراً مع جون فوستر دالاس.

جون بوكر – ضابط في جهاز مكافحة التجسس الذي استسلم له رينهارد غهلن في ١٩٤٥.

سوبها شاندرا بوز– (١٨٩٧–١٩٤٥) سياسي هندي وقائد الجيش الوطني الهندي الموالي للنازية.

ولفريد بوز – عضو في المجموعة الإرهابية الألمانية الشرقية اليسارية «ريفولوسوناري زالن"، قُتل في ١٩٧٦ في الغارة الإسرائيلية الشهيرة على مطار عينتبي في أوغاندا. وهو إلى جانب بريجيت كولمان واحد من ألمانيين وستة فلسطينيين خطفوا طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية في رحلة من تل أبيب إلى باريس عبر أثينا.

ريجينالد ج. باوكر– ديبلوماسي بريطاني.

نورمان ن. إ. براي – (١٨٨٥–١٩٦٢) ضابط في جيش الهند وفي سلاح الجو الملكي، ضابط استخبارات، مؤرخ/ وكاتب سيرة.

جون بوكان – (١٨٧٥–١٩٤٠) مدير استعماري، ضابط استخبارات، سياسي، وروائي؛ أصبح في ١٩٣٥ بوصفه اللورد تويدسميوير الحاكم العام الخامس عشر لكندا.

وليام فرانسيس باكلي – (١٩٢٨–١٩٨٥) ضابط في الجيش الأميركي ورئيس محطة «السي.آي.إي.» في بيروت، اختطفه حزب الله في ١٩٨٤ وأعدمته منظمة الجهاد الإسلامي في وقت لاحق.

وليام سي. بوليت – (١٨٩١–١٩٦١) ديبلوماسي أميركي لامع وثري، صحافي، كاتب، ومعاد صريح للشيوعية والفاشية. جعل منه الرئيس روزفلت في ١٩٣٣ أول سفير أميركي إلى الاتحاد السوفياتي.

فرانز بونش – دعائي نازي معاد للسامية وخبير في «المسائل اليهودية»، عمل في إطار جهاز الدعاية المعادي للصهيونية التابع لعبد الناصر.

جورج هـ. و. بوش – الرئيس الواحد والأربعون للولايات المتحدة (١٩٨٩–١٩٩٣).

جورج و. بوش – الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة (٢٠٠١–٢٠٠٩).

جفرسون كافيري – (١٨٨٦–١٩٧٤) ديبلوماسي أميركي محترف، سفير إلى مصر (١٩٤٩–١٩٥٥).

كارلوس ابن آوى – الاسم المستعار لإيليتش راميريز سانشيز (١٩٤٩-)، إرهابي فنزويلي ماركسي وقاتل مدان، وقد سجن في ١٩٩٧ في فرنسا. ويقال إنه منذئذ تحوّل إلى الاسلام.

أوفي كارمل – السكرتير وكاتم أسرار وليام سي. بوليت وشريكه. ترك وزارة الخارجية في ١٩٤٧ وقد لحق به العار وانضم إلى مكتب التنسيق السياسي حيث أصبح صديقاً مقرباً لفرانك ويسنر وأدار عمليتي «مشبك الورق» و«بلادستون.»

اللورد كارادون – أنظر هاغ ماكينتوش فوت.

جيمي كارتر – الرئيس التاسع والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٧٧-١٩٨١).

كاثرين الكبيرة – (١٧٢٩-١٧٩٦) أميرة بروسية صغيرة حكمت روسيا بوصفها كاثرين الثانية لمدة ٣٥ عاماً في فترة ازدياد كبير في النفوذ الروسي والثقافة والأرض. تبنت مُثُل عصر الأنوار واشتهرت بوصفها راعية الفنون والأدب والتربية. واشتهرت أيضاً بعشاقها الكثيرين.

والتر ج. كاوثورن – نائب رئيس أركان جيش باكستان إضافة إلى كونه سكرتير لجنة قادة الأجهزة الباكستانية المشتركة، وهو الذي أنشأ جهاز الاستخبارات المشتركة.

أوستن تشامبرلاين – (١٨٦٣-١٩٣٧) رجل دولة، سياسي، وحائز جائزة نوبل للسلام على دوره في مفاوضات ميثاق لوكارنو في ١٩٢٥.

وينستون تشيرشل – (١٨٧٤-١٩٦٥)، رئيس وزراء المملكة المتحدة في الحرب العالمية الثانية، تبوّأ الكثير من المراكز السياسية ما بين ١٩١٠ و١٩٥٥، وقد احتفظ دوماً بنفوذ هائل حتى وهو خارج السلطة.

كلاوديوس الأول – (١٠ ق.م.-٥٤م) زوج والدة نيرون، حكم الأمبراطورية الرومانية من ٤١م. حتى مماته الذي قد يكون طبيعياً أو اغتيالاً. إداري ناجح زوّد روما والأقاليم الكثير من الأشغال العامة الراقية؛ كاتب غزير التاليف في التأريخ وغير ذلك من الكتب التي ويا للأسف لم يبق أي منها.

إيلتيد نيكول كلايتون – (١٨٨٦-١٩٦٥) ضابط في الجيش البريطاني ورئيس الاستخبارات البريطانية في القاهرة في وقت مبكر من الحرب العالمية الثانية. وعمل بالتالي مستشاراً للشؤون العربية في الحكومة البريطانية.

جيلبرت كلايتون – (١٨٧٥-١٩٢٩) ضابط في الجيش البريطاني، ضابط في مكتب الشؤون العربية وإداري استعماري. وفيما حقق زملاؤه ومرؤوسوه، من أمثال ت.أ. لورنس، شهرة عالمية، فإن طبيعة أعمال كلايتون السرية المتعاقبة عتّمت بالضرورة على أهمية إنجازاته. وقطعت وفاته المبكرة في خلال مباراة بالبولو سيرة مميزة تعد بالكثير.

كليوباترا السابعة فيلوباتور – (٦٩-٣٠ ق.م.) فرعونة هيللينية حكمت مصر من ٥١ ق.م. حتى مماتها. اشتهرت بمهارتها السياسية وجمالها الأخاذ وعلاقاتها المميزة مع اثنين من الرومان المشهورين: يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس.

تشارلز كليفلاند – (١٨٦٦-١٩٢٩) الرئيس الأسطوري لجهاز الاستخبارات الهندي، صاحب ذهن لامع وبنية كبيرة وشخصية تتناسب معها. وهو الذي جنّد نورمان ن. إ. براي.

وليام جفرسون «بيل» كلينتون – (١٩٤٦-) الرئيس الثاني والأربعون للولايات المتحدة من ١٩٩٣ إلى ٢٠٠١.

وليام كولبي – (١٩٢٠-١٩٩٦) ضابط استخبارات محترف ومدير «السي.آي.إي.» (١٩٧٣-١٩٧٦).

مايكل كولينز – (١٨٩٠-١٩٢٢) زعيم إيرلندي ثوري، سياسي، ومدير استخبارات الجيش الجمهوري الإيرلندي، أطلقت عليه النار وقتل في خلال الحرب الأهلية الإيرلندية.

ارثور كونوللي – (١٨٠٧-١٨٤٢) ضابط في جيش الهند، ضابط استخبارات، مستشكف، وكاتب أنجز عدة مهمات استطلاع في آسيا الوسطى في خلال «اللعبة الكبرى» (وهو ربما من اخترع التعبير)، وقد اعتقله نصرالله خان وأعدمه مثله مثل تشارلز ستودرات.

كونراد دي مونتفيرات – (حوالى ١١٤٥-١١٩٢) أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢)؛ أصبح ملكاً على القدس وقد اغتاله الحشاشون في عملية شهيرة. تزوج إيزابيلا الأولى المقدسية بعدما أجبرتها والدتها المتآمرة على الانفصال عن زوجها المحب لكن غير الطموح همفري دي تورون.

قسطنطين الكبير – (٢٧٢-٣٣٧) أول أمبراطور روماني مسيحي؛ أعلن التسامح الديني في أنحاء الأمبراطورية كافة وجعل من القسطنطينية عاصمة لبيزنطية.

كارلتو س. كون – (١٩٠٤-١٩٨١) عالم الأنتروبولوجيا الأميركي والضابط في «الأو.

أس.أس.» ضالع في عمليات تجسس في شمال إفريقيا وفي تهريب الاسلحة إلى مجموعات المقاومة الفرنسية في المغرب التي يحتلها الألمان تحت ستار أعمال الانتروبولوجيا الميدانية.

مايلز كوبلاند – (١٩١٦-١٩٩١) موسيقي، رجل أعمال، وضابط استخبارات محترف؛ واحد من أوائل ضباط مكافحة التجسس في «الأو.أس.أس.» (مكتب الخدمات الاستراتيجية) في الحرب العالمية الثانية؛ شارك لاحقاً في عملية سياسية رئيسية قامت بها «السي.آي.إي.» من الخمسينيات حتى الثمانينيات.

بيرسي كوكس – (١٨٦٤-١٩٣٧) ضابط في جيش الهند وديبلوماسي؛ ارتبط عن كثب بجيرترود بل؛ حل محل السير أرنولد ويلسون مديراً للعراق.

ريتشارد كروسمان – (١٩٠٧-١٩٧٤) سياسي اشتراكي، مؤلف، ورئيس تحرير «نيو ستايتمان"، صهيوني طلائعي ومعاد للشيوعية.

افرايم دافني – أول متطوع يهودي من فلسطين للنزول بالمظلة في يوغوسلافيا في آذار/ مارس ١٩٤٣.

ألبيرت داكس – مؤرخ أحداث الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩) ارتكز وليام الصوري على كتابته في وضع الكثير من تاريخ الحملات الصليبية.

موشي دايان – (١٩١٥-١٩٨١) جنرال إسرائيلي وقائد البالماخ، أصبح وزيراً للدفاع ووزيراً لخارجية إسرائيل.

فاليري جيسكار ديستان – الرئيس العشرون لفرنسا (١٩٧٤-١٩٨١).

يواكيم دوملينغ – (١٩١٠-٢٠٠٧) مقدم في «الأس.أس.» (أس.دي.) والشرطة، ومجرم حرب مدان؛ الخبير الأول في الاستخبارات والأمن في مصر عبد الناصر.

ظافر ديفا – وزير الداخلية الألباني في خلال الاحتلال النازي.

بنجامين ديزرائيللي – (١٨٠٤-١٨٨١) رجل دولة في حزب التوري وشخصية أدبية، تولّى مرتين رئاسة الوزراء ما بين ١٨٦٨ و١٨٨٠، عُرف بتنافسه مع وليام غلادستون وصداقته الحارة مع الملكة فيكتوريا.

وليام دونوفان – (١٨٨٢-١٩٥٩) ضابط في الجيش الأميركي، محامي مؤسسات، وضابط استخبارات كنّي بـ«ويالد بيل» وقد ترأس مكتب الخدات الاستراتيجية («أو.

أس.أس.»)، الذي سبق «السي.آي.إي.»، في خلال الحرب العالمية الثانية.

حسن دوستي – وزير العدل الألباني في خلال الاحتلال الإيطالي.

لاريسا دوبانوفا – الاسم المستعار لعميلة «الكا.جي.بي.» التي أسرت ضابط الخيالة الكندي روي غيدون في الفخ المعسول.

ألن دالاس – (١٨٩٣-١٩٦٩) محام، ديبلوماسي، وضابط استخبارات محترف؛ ترقّى ليصبح أول مدير مدني «للسي.آي.إي.» (١٩٥٣-١٩٦١). الشقيق الاصغر لجون فوستر دالاس.

جون فوستر دالاس – (١٨٨٨-١٩٥٩) وزير الخارجية في عهد أيزنهاور (١٩٥٣-١٩٥٩). الشقيق الأكبر لألن فوستر دالاس.

أبا (أوبراي) إيبان – (١٩١٥-٢٠٠٢) ديبلوماسي وسياسي اسرائيلي، وضابط سابق في جيش جنوب افريقيا خدم في فلسطين كضابط ارتباط بين جهاز تنفيذ العمليات الخاصة والهاغاناه.

أنتوني إيدن – (١٨٩٧-١٩٧٧) رئيس وزراء بريطاني مثير للجدل (١٩٥٥-١٩٥٧) ترتكز شهرته في شكل كبير على أدائه الماهر جداً بوصفه وزيراً لخارجية تشيرشل قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها إلا انها تعرّضت لضرر كبير بسبب قيادته حملة السويس في ١٩٥٦.

هيرمان إيلتس – (١٩٢٢-٢٠٠٦) السفير الأميركي في السعودية ومصر؛ عمل مع السادات في سياق اتفاقات كامب ديفيد.

دوايت أيزنهاور – (١٨٩٠-١٩٦٩) ضابط في الجيش الأميركي (القائد الأعلى للتحالف [أوروبا] في الحرب العالمية الثانية) والرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٥٣-١٩٦١).

رولف أنغل – (١٩١٢-١٩٩٣) عالم صواريخ ألماني شهير عمل في سكودا في خلال الحرب مع وليام فوس على الوقود الصلب للصواريخ وطور لاحقاً الصواريخ لعبد الناصر.

أنور باشا – (١٨٨١-١٩٢٢) ويُعرف أيضاً باسم إسماعيل أنور، وهو الأكثر شهرة من بين «الباشوات الثلاثة» الذين حكموا تركيا في خلال حروب البلقان والحرب العالمية الأولى (الاثنان الآخران هما طلعت باشا وكمال باشا).

جون إيوارت – (١٨٦١-١٩٣٠) مدير العمليات العسكرية والاستخبارية في وزارة الحرب؛ أيد بشدة إنشاء مكتب للاستخبارات السرية قبل الحرب العالمية الأولى.

فيلهلم فارمباخر – (١٨٨٨-١٩٧٠) ضابط في الجيش الألماني وواحد من كبار جنرالات روميل؛ ترأس الفوج الأول من المستشارين العسكريين الألمان إلى مصر (١٩٥٠-١٩٥٩).

جون فارمر – ضابط في جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في زمن الحرب وضابط محترف في جهاز الاستخبارات السرية.

فاروق الأول – (١٩٢٠-١٩٦٥) الملك قبل الأخير على مصر والسودان، وقد خلف والده فؤاد الأول في ١٩٣٦؛ خلعته ثورة الضباط الأحرار ونفي في ١٩٥٢.

روي فرّان – (١٩٢١-٢٠٠٦) ضابط في الجيش البريطاني، سياسي، مزارع، ومؤلف خدم في الجهاز الجوي الخاص في خلال الحرب العالمية الثانية وفي فلسطين بعد الحرب حيث واجه صعوبات كبرى مع عصابة شتيرن، وهاجر في نهاية الأمر إلى ألبرتا في كندا حيث أصبح وزيراً بارزاً في الحكومة الإقليمية (١٩٧١-١٩٧٩).

فيصل بن عبد العزيز – (١٩٠٣-١٩٧٥) ملك السعودية من ١٩٦٤ حتى وفاته؛ الابن الثالث لعبد العزيز بن سعود وقد اغتاله ابن أخيه غير الشقيق الذي اعتبر مختلاً ولكنه وُجد مع ذلك مذنباً بقتل الملك وقطع راسه.

فيصل الأول – (١٨٨٣-١٩٣٣) ملك العراق من ١٩٢١ حتى وفاته؛ الابن الثالث للشريف بن علي. حاز في خلال الثورة العربية دعماً قوياً من ت. أز لورنس، وبالتالي من جيرترود بل.

برنارد فيرغوسون – (١٩١١-١٩٨٠) ضابط في الجيش البريطاني وأيضاً المفتش العام المساعد لقوة الشرطة الفلسطينية (١٩٤٦-١٩٤٧). أصبح لاحقاً الحاكم العام لنيوزيلندا (١٩٦٢-١٩٦٧) على غرار والده وجده من قبله.

ج. ب. فلوكس – السكرتير الأول للقضايا التجارية في السفارة البريطانية في القاهرة حيث بدأ خدمته في ١٩١٩. واحد من ديبلوماسيين بريطانيين (الآخر هو جي. جي.غروف) يطردان من مصر عبد الناصر لاتهامهما بالتورط في التجسس في أثناء الغارة على وكالة الأنباء العربية وما رافقها من توقيفات في ١٩٥٦.

هوغ ماكينتوش فوت – (١٩٠٧-١٩٩٠) اللورد كارادون آخر حاكم بريطاني على قبرص.

فريديريك الثاني – (١١٩٤-١٢٥٠) على عكس الأمبراطور الألماني العسكري فريديريك الأول برابا روسا، كان فريديريك الثاني صقلياً متنوراً حكم كأمبراطور على مدى ثلاثين عاماً حتى وفاته، وقد عاش معظم الوقت مع والدته في باليرمو كراع نهم للفنون. قاد الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩) إلى الأراضي المقدسة، بالرغم من المعارضة البابوية، وقد انتهت بانتصار من دون إراقة دماء، وبعشر سنوات من السلام، وبالكثير من الاستياء الإسلامي.

غراهام إ. فوللر – مسؤول في وزارة الخارجية وفي «السي.آي.إي.» على مدى ٢٧ عاماً بما في ذلك فترة تولى فيها رئاسة محطة «السي.بي.إي.» في كابول، أفغانستان، وهو منتسب الآن إلى جامعة ساميون فرايزر بوصفه أستاذاً مساعدا للتاريخ.

المهاتما غاندي – (١٨٦٩-١٩٤٨) الزعيم السياسي والروحي للهند، وهو رائد مفهوم العصيان المدني غير العنفي الذي أدى في النهاية إلى استقلال الهند.

روبرت غاسكوني-سيسيل – (١٨٣٠-١٩٠٣)، ماركيز ساليسبوري، وزير الخارجية في عهد بنجامين ديزرائللي ورئيس وزراء المملكة المتحدة على مدى أكثر من ١٣ عاماً في السنوات الممتدة بين ١٨٨٥ و١٩٠٢.

دارميندرا غور – ضابط جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في الهند في خلال الحرب العالمية الثانية.

نوّاف غزالة – درزي سوري اغتال أديب الشيشكلي في ١٩٦٤.

رينهارد غهلن – (١٩٠٢-١٩٧٩) ضابط في الجيش الألماني ورئيس الاستخبارات العسكرية على الجبهة الروسية في خلال الحرب العالمية الثانية، أصبح بعدها رئيساً للاستخبارات الألمانية الغربية حتى ١٩٦٨.

وليام غلادستون – (١٨٠٩-١٨٩٨) ليبرالي تولى أربع مرات رئاسة الوزراء في المملكة المتحدة في ما بين ١٨٦٨ و١٨٩٤، أطلق عليه لقب «العجوزر الكبير»؛ اشتهر بمنافسته السياسية والشخصية مع زعيم التوري بنجامين ديزرائللي وعلاقته المتوترة مع الملكة فيكتوريا.

ليبولد غليم – عقيد سابق في «الأس.أس.» عمل في مصر كمساعد ليواكيم دوملينغ وكخبير أمني.

السير جون غلوب – (١٨٩٧-١٩٨٦) ضابط في الجيش البريطاني قاد الفيلق العربي في شرق الأردن (١٩٣٩-١٩٥٦). وهو معروف أكثر باسم غلوب باشا.

تشارلز غوردون – (١٨٣٣-١٨٨٥) ضابط في الجيش البريطاني ومدير استعماري. تنوّعت ألقابه بين «غوردون الصيني» (وقد قاد جيش الصين في شكل باهر في سنوات ١٨٦٠)، و«غوردون باشا» (وكان حاكماً للسودان)، و«غوردون الخرطوم» حيث قُتل في معركة متقاربة مع محاربي المهدي.

جي. جي. غروف – رئيس قسم التأشيرات في السفارة المصرية في القاهرة. واحد من ديبلوماسيين بريطانيين (الآخر هو ج. ب. فلوكس) يطردان من مصر في أثناء الإغارة على وكالة انباء العرب وما رافقها من توقيفات في ١٩٥٦.

بيللي غراهام – مسيحي إنجيلي (معمداني) أميركي ذو جاذبية عالمية ساحرة.

فيكتور غرايفسكي – صحافي بولندي صهيوني زوّد إسرائيل سرّاً نسخة عن خطاب نيكيتا خروتشوف المناهض لستالين في ١٩٥٦.

غريغوري السابع – (١٠٢٠-١٠٨٥) المولود هيلدوبراند أو سوانا، طُوّب في ١٧٢٨ باسم القديس غريغوري، وهو واحد من كبار مصلحي البابوية.

إدوارد غراي – (١٨٦٢-١٩٣٣) رجل دولة، ديبوماسي، وعالم طيور؛ وزير للخارجية على مدى ١١ سنة متواصلة (١٩٠٥-١٩١٦)؛ سجل لا تشوبه شائبة.

أندريه غروميكو – (١٩٠٩-١٩٨٩) وزير الخارجية السوفياتي (١٩٥٧-١٩٨٥) ورئيس المجلس السوفياتي الأعلى حتى ١٩٨٨ حيث خلفه ميخائيل غورباتشيف.

كولين غوبينز – (١٨٩٦-١٩٧٦) ضابط في الجيش البريطاني ومدير العمليات والتدريب في جهاز تنفيذ العمليات الخاصة، وهو المحرك الأول للجهاز في خلال الحرب العالمية الثانية؛ يوصف بأنه واحد من أبطال الحرب غير المكرّمين.

روي غيدون – جاسوس سوفياتي مزروع في سلاح الخيالة الكندي كشفته الاستخبارات الإسرائيلية.

والتر غينيس – (١٨٨٠-١٩٤٤) سياسي ورجل أعمال أنكلو-إيرلندي اغتالته عصابة شتيرن

في القاهرة على غرار اللورد موين.

حميد غول – (١٩٣٦-) ضابط في الجيش الباكستاني والمدير العام للاستخبارات المشتركة في عهد بنازير بوتو، وغول مسلم متدين من البنجاب وله روابط وثيقة بالسعودية.

غبريال حداد – المستشار العربي المسيحي لرونالد ستورز.

جون هادن – رئيس محطة «السي.آي.إي.» في تل أبيب.

إلياهو حكيم – (١٩٢٥-١٩٤٥) عضو في عصابة شتيرن شُنق في القاهرة لاغتياله اللورد موين.

سيّد س. حميد – السكرتير السابق للجيش الهندي ومدير الحرس الوطني الباكستاني وقد أصبح المدير الأول لجهاز الاستخبارات المشتركة في باكستان.

نيك هاموند – ضابط ارتباط جهاز تنفيذ العمليات الخاصة مع المفرزة العربية في فلسطين.

موريس هانكي – (١٨٧٧-١٩٦٣) ضابط في البحرية الملكية وموظف حكومي، سكرتير الحكومة على مدى ٢٦ عاماً (١٩١٢-١٩٣٨)؛ وهانكي مسؤول يحظى بالاحترام الفائق، وقد قام كمرؤوس شاب بعمل استخباري غير رسمي وغير مدفوع الأجر وهو نشاط واظب عليه حتى نهاية حياته العامة وما بعدها.

إيسر هاريل – (١٩١٢-٢٠٠٣) ضابط في الموساد وقد أصبح لاحقاً مديراً لها (١٩٥٢-١٩٦٣).

باسيل ليدل هارت – (١٨٩٥-١٩٧٠) ضابط بريطاني، صحافي، ومؤرخ عسكري. مُنح هارت لقب فارس في ١٩٦٦.

حسن الصباح – (١٠٥٦-١١٢٤) داعية نصيري-إسماعيلي فارسي (شيعي) أسس طائفة الحشاشين شبه الدينية وقد تم تدريب عناصرها على اغتيال السنة.

أورغوبلو خيري بك – شيخ إسلام الأمبراطورية العثمانية ووزير الشؤون الدينية في عهد جمعية الاتحاد والترقي (أو تركيا الفتاة) في ١٩١٣-١٩١٨. والد علي سوات خيري أورغوبلو الذي تولى لفترة وجيزة في ١٩٦٥ رئاسة الحكومة التركية.

محمد هيكل – (١٩٢٣-) صحافي مصري طليعي، رئيس التحرير السابق لصحيفة الأهرام؛ صديق قديم لعبد الناصر والسادات.

ريتشارد هيلمز – (١٩١٣-٢٠٠٢) ضابط بحري ومدير «السي.آي.إي.» (١٩٦٦-١٩٧٣) خدم في «الأو.أس.أس.» (مكتب الخدمات الاستراتيجية) في خلال الحرب العالمية الأولى وأدار، بعد الحرب مباشرة، عمليات مكتب العمليات الخاصة في النمسا وألمانيا وسويسرا.

هنري الثاني ابن شامابني – (١١٦٦-١١٩٧) أحد قادة الحملة الصليبية الثّالثة (١١٨٩-١١٩٢)، خلف كونراد دي مونتفيرات ملكاً على القدس وتزوج أرملة كونرا، إيزابيلا الأولى المقدسية، بعد ثمانية أيام فقط على الاغتيال الذي نفذه الحشاشون.

أوتو فون هنتينغ – (١٨٨٦-١٩٨٤) ديبلوماسي ألماني أصاب الشهرة في الحرب العالمية الأولى بعد مهمته في ١٩١٥ في أفغانستان وقد عمل كخبير في شؤون الشرق الأوسط في وزارة خارجية ريبنتروب في خلال الحرب العالمية الثانية.

هرقل – (٥٧٥-٦٤١) أمبراطور بيزنطي في الأمبراطورية الرومانية، ويعتقد أنه أول من حاور المسلمين.

أوبري هربرت – (١٨٨٠-١٩٢٣) ديبوماسي، رحّالة، وضابط استخبارات عمل في مكتب الشؤون العربية وصادق ت. أ. لورنس، والسير مارك سايكس، وجون بوكان. وهو رجل مغامر جداً بالرغم من أنه وُلد شبه أعمى.

حاييم هيرتزوغ – الملحق العسكري الإسرائيلي في واشنطن تولّى مرتين رئاسة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) ١٩٤٨-١٩٥٠ و١٩٥٩-١٩٦٢. وتولى هيرتزوغ لاحقاً رئاسة إسرائيل على مدى عشرة أعوام (١٩٨٣-١٩٩٣).

رينهارد هيدريتش – (١٩٠٤-١٩٤٢) ضابط «أس.أس.» ألماني حكم منذ ١٩٤١ ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا (محمية الرايخ في بوهيميا ومورافيا) فيما بقي مسؤولاً عن مقر «الأس.أس.» في برلين (المكتب الرئيسي لأمن الرايخ). هاجمه حزبيون تشيكيون في ٢٧ أيار/مايو ١٩٤٢ وأصابوه إصابة قاتلة. وانتقم النازيون لمقتل هيدريتش بالقضاء تماماً على قريتي ليديشيا وليزاكي البوهيميتين.

هنريتش هيملر – (١٩٠٠-١٩٤٥) سياسي نازي ذو سلطة هائلة وعضو في «الريتشفوهرر-أس.أس.» والقائد الأعلى «للأس.أس.» أشرف على الشرطة النازية وقوى الأمن

(١٩٢٩-١٩٤٥) ونسق عمليات الإبادة النازية مترئساً معسكرات الاعتقال ومعسكرات الإبادة وفرق الموت وأمبراطورية تجارية كبرى.

سامي الحناوي – (١٨٩٨-١٩٥٠) عقيد في الجيش السوري استولى على السلطة في البلاد في ١٩٤٩ لكن سرعان ما حل محله أديب الشيشكلي، وقتل في منفاه اللبناني.

أدولف هتلر – (١٨٨٩-١٩٤٥) سياسي وُلد في النمسا وديكتاتور ألمانيا الفاشي الإبادي من ١٩٣٣ حتى انتحاره، وقد أغرق العالم في حريق الحرب العالمية الثانية.

ج. سي. هولاند – صابط في الجيش البريطاني وخبير في الحرب غير النظامي ويعود إليه الفضل في مفهوم الكوماندوس، وقد ساعد كولين غوبينز على تنظيم وتشغيل جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في خلال الحرب العالمية الثانية.

وليام هود (١٩٢٠-) صحافي، روائي، وضابط مكافحة تجسس سابق في «الأو.أس.أس.» إلى جانب ألن دالاس في سويسرا، وأصبح لاحقاً صديقاً وثيقاً ونائباً لجايمس جيزاس أنغلتون في «السي.آي.إي.».

أنور خوجا - (١٩٠٨-١٩٨٥) حاكم ألبانيا الماركسي-اللينيني-الماوي من ١٩٤٤ حتى وفاته وقد أحكم فعلاً، على مدى أربعين عاماً، إقفال بلاده في وجه باقي أوروبا.

همفري دي تورون – (١١٦٦-١١٩٧) زوج إيزابيلا الأولى المقدسية الأول وقد ترعرع معها منذ الطفولة وقد تزوجته وهي في الحادية عشرة.

صدام حسين – (١٩٣٧-٢٠٠٦) الحاكم البعثي العاتي السيىء الذكر للعراق الذي قاوم بدائية التدخل الأجنبي في الشرق الأوسط وطالب باستقلال فلسطين. حوكم وأدين وشنق لإعطائه الأمر بالقتل الجماعي للشيعة في ١٩٨٢.

حسين بن طلال – (١٩٣٥-١٩٩٩) أصبح في ١٩٥٢ ملكاً على الأردن ونجح في قيادة بلاده عبر أربعة عقود من الصراع العربي-الإسرائيلي معظمها في سياق الحرب الباردة.

حسين بن علي – (١٨٥٤-١٩٣١) شريف مكة الهاشمي الكبير، حكم الحجاز كجزء من الأمبراطورية العثمانية حتى ١٩٢٤ عندما هُزم على يد عبد العزيز بن سعود وتخلّى عن كل ألقابه لمصلحة ابنه البكر علي.

محمد أحمد بن عبدالله – (١٨٤٤-١٨٨٥) وعُرف أيضاً بالمهدي، إذ نصّب أحمد نفسه المنقذ النبوي للإسلام وقاد في ١٨٨١ جهاداً دموياً وناجحاً ضد المصريين

(والبريطانيين) في السودان. وبعد ١٣ عاماً على وفاته أباد البريطانيون ما تبقى من جيشه في معركة أم درمان.

خالد بن منصور بن لؤي – الشريف الوهابي الشديد الاستقلال لخرمة (الحجاز) وهي مركز تجاري سعودي مهم، وقد ساند في شكل عام، ولكن بشروطه الخاصة، عبد العزيز بن سعود في صراعه مع الهاشميين.

عبدالله بن محمد – (١٨٤٦-١٨٩٩) وعُرف أيضاً بالخليفة، وهو جنرال قادر خلف محمد أحمد بن عبدالله (المهدي) في ١٨٨٥. وطاردته قوات وينغايت، بعد هزيمته أمام البريطانيين في معركة أم درمان، وقتلته في أم دويكرات.

ابن رشيد – (١٩٠٠-١٩٢٠) كان سعود بن عبد العزيز أميراً على حائل منذ سن العاشرة وعلى صراع مستمر مع عبد العزيز بن سعود الذي لم ينجح قط في هزمه عسكرياً. وبعد اغتيال رشيد على يد أحد أنسبائه، تزوج عبد العزيز بن سعود اثنتين من نسائه أعطت إحداهما الحياة لملك السعودية المستقبلي عبدالله.

عصمت إينونو – (١٨٨٤-١٩٧٣) ضابط في الجيش التركي، رئيس للوزراء، والرئيس الثاني للجمهورية التركية، ويُعرف أيضاً باسم «مللي سيف» (الرئيس الوطني).

إيزابيلا الأولى المقدسية – (١١٧٢-١٢٠٥) وُصفت بأنها «جميلة فوق العادة ورائعة»، وقد تزوجت أربع مرات، وكان جميع أزواجها الثاني والثالث والرابع ملوكاً على القدس، وهم كونراد دي مونتنيرات، هنري الثاني دي شامباني، وأملريك الثاني.

اسماعيل باشا – (١٨٣٠-١٨٩٥)، ويُعرف أيضاً باسماعيل العظيم؛ خديوي مصر والسودان من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩ حين أقاله البريطانيون والفرنسيون.

إيفان الرهيب – (١٥٣٠-١٥٨٤) أول قيصر على روسيا وقد تميز بالذكاء والتدين لكنه غير مستقر عقلياً. وهو بالرغم من سوء ترجمة النعت الملحق باسمه («المخيف» أكثر دقة) لم يتميّز بنوع خاص بالقساوة لكنه يميل إلى إخافة أتباعه ويطلق لنفسه العنان في نوبات غضب أشبه بنهاية العالم. بقي موته غامضاً؛ ويّحتمل أن برويس غودونوف قد سمّه، وهو الذي أصبح قيصراً بعد ذلك بأربع عشرة سنة.

صلاح جديد – (١٩٢٦-١٩٩٣) لواء في الجيش السوري وسياسي بعثي أصبح على مدى أربعة أعوام رئيس الأمر الواقع للحكومة السورية قبل أن تتم إطاحته في ١٩٧٠.

كلود جارفيس – (١٨٧٩-١٩٥٣) ضابط في الجيش البريطاني، مدير استعماري، ومستشرق

خدم في مصر وفلسطين في إبان الحرب العالمية الأولى، ليصبح لاحقاً الحاكم الأسطوري لليبيا وسيناء صاحب المعرفة الوثيقة بعوائد البدو وقوانينهم. وهو أيضاً مؤلف غزير الإنتاج ورسام موهوب.

محمد علي جناح –(١٩٤٨-١٩٧٦)، سياسي ورجل دولة، زعيم الرابطة الإسلامية ومؤسس دولة باكستان.

أبو القاسم كاشاني – (١٨٨٢-١٩٦٢) آية الله شيعي إيراني وسياسي شعبوي.

جون كاي – (١٨١٤-١٨٧٦) ضابط في جيش الهند، مدير استعماري، روائي، ومؤرخ عسكري مسؤول جزئياً (وكذلك روديارد كيبلينغ) عن إشاعة تعبير أرثور كونوللي «اللعبة الكبرى».

جوزف ف. كينان – (١٩٠٤-٢٠٠٥) ديبلوماسي أميركي، عاملٍ سياسي، ومؤرخ بعث في ١٩٤٦ «بالتلغرام الطويل» من موسوكو إلى واشنطنٍ مبرزاً الطبيعة التوسعية للسياسة الخارجية السوفياتية والحاجة إلى احتوائها استراتيجياً.

خالد بن عبد العزيز – (١٩١٢-١٩٨٢) ملك السعودية منذ ١٩٧٥ حتى وفاته، كان سهل المعشر وغير سياسي وسمح عن طيبة خاطر لفهد الذي سيخلفه بحكم البلاد، وقد مات من جراء ذبحة قلبية.

محمود خليل – رئيس استخبارات سلاح الجو المصري وقد جنده جهاز الاستخبارات السرية عميلاً مزدوجاً في محاولة لإطاحة عبد الناصر وإعادة النظام الملكي إلى مصر.

أيوب خان – (١٩٠٧-١٩٧٤) قائد الجيش الباكستاني وأول حاكم عسكري على البلاد (١٩٥٨-١٩٦٩).

لياقات علي خان – (١٨٩٦-١٩٥١) محام، سياسي، واليد اليمنى لمحمد علي جناح، أصبح أول رئيس وزراء لباكستان من ١٩٤٧ حتى اغتياله.

حسين خيري – نائب رئيس الاستخبارات العسكرية المصرية عند الملك فاروق.

روح الله الموسوي الخميني – (١٩٠٢-١٩٨٩) سياسي إيراني، عالم، زعيم ديني، والزعيم السياسي لثورة ١٩٧٩ التي أطاحت الشاه.

ديفيد كيمحي – (١٩٢٨-) ديبلوماسي إسرائيلي مولود في بريطانيا وكاتب كان ضابطاً في الموساد وأصبح مديراً عاماً لوزارة الخارجية الإسرائيلية في عهد مناحم بيغن.

نيكيتا خروتشوف – (١٨٩٤-١٩٧١) السكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفياتي والرئيس السوفياتي (١٩٥٣-١٩٦٤) في عز الحرب الباردة. وهو إصلاحي، بالرغم من شخصيته الوقحة والمشاكسة وقعقعة السيوف، وقد أنهى بفاعلية الستالينية في الاتحاد السوفياتي وشرع في انتهاج سياسة خارجية أكثر ليبيرالية.

روديارد كيبلينغ – (١٨٦٥-١٩٣٦) مؤلف، شاعر، وحائز جائزة نوبل، وهو واحد من أكثر مؤلفي الأدب الإنكليزي شعبية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شكلت الأمبراطورية البريطانية بكل أوجهها موضوعه الرئيسي.

هوراسيو كيتشنر – (١٨٥٠-١٩١٦) جندي، ديبلوماسي، ورجل دولة، اشتهر بانتصاره الحاسم على المهدي في معركة أم درمان في ١٨٩٦، لكن صاحبته لاحقاً سمعته السيئة على وحشيته في حرب البوير.

أبراهام ماركوس كلينبرغ – (١٩١٨-) عالم أوبئة كان عميلاً سوفياتياً في إسرائيل وحكم عليه في ١٩٨٣ بعشرين سنة سجناً بتهمة التجسس.

أرثور كوسلر – (١٩٠٥-١٩٨٣) مؤلف مجري-بريطاني غزير الإنتاج كتب التعليقات والروايات الخيالية وكانت حياته مثيرة للجدل ومضطربة، وقد تضمنت قضاياه المختلفة الشيوعية ومعاداة الشيوعية والصهيونية.

ثيودور «تيدي» كوليك – (١٩١١-٢٠٠٧) مولود في النمسا، وعميل إسرائيلي موال للبريطانيين، عمل لجهاز الأمن البريطاني (أم.آي٥) وعرف بـ كيم فيلبي. أصبح سياسياً ناجحاً وتولى رئاسة بلدية القدس على مدى ٢٨ عاماً.

بريجيت كولمان – عضو المجموعة الإرهابية اليسارية الألمانية الغربية «ريفلوسيوناري زيلين"، وقد قُتلت في غارة ١٩٧٦ الإسرائيلية الشهيرة على مطار عينتبي في أوغاندا. وكانت إلى جاني ويلفريد بوز واحدة من ألمانيين وستة فلسطينيين اختطفوا طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية في الرحلة المتوجهة من تل أبيب إلى باريس عبر أثينا.

عباس كوبي – الشخص الذي اختارته بريطانيا ليكون رئيساً للحكومة الألبانية في المنفى؛ تعاون مع النازيين في خلال الحرب العالمية الثانية.

أشرف خوشوباشي – عضو قيادي في جهاز أنور باشا السرّي.

مايلز لامبسون – (١٨٨٠-١٩٦٤) ديبلوماسي بريطاني محترف عمل لسنوات كثيرة في مصر والسودان (١٩٣٤-١٩٤٦)، وأصبح في مآل الأمر مفوضاً سامياً وسفيراً.

هيرمان لاوترباخر – (١٩٠٩-١٩٨٨) مسؤول نازي إقليمي ونائب رئيس شبيبة هتلر أصبح لاحقاً ضابط ارتباط رينهارد غهلن مع الشتات النازي في مصر عبد الناصر.

هنري مونتغومري لورنس – (١٨٠٦-١٨٥٧) ضابط مدفعية بريطاني وعميل سياسي للحاكم العام للحدود الشمالية الغربية. قُتل في حصار لاكناو في خلال التمرد الهندي.

ت. أ. لورنس – (١٨٨٨-١٩٣٥) ضابط في الجيش البريطاني وضابط استخبارات في المكتب العربي، اشتهر باسم لورنس العرب على دوره الارتباطي في خلال الثورة العربية في ١٩١٦-١٩١٨.

أوستن لايارد – (١٨١٧-١٨٩٤) عالم آثار، ديبلوماسي، وسياسي. كان لايارد سفيراً لبريطانيا في الأمبراطورية العثمانية (١٨٧٧-١٨٨٠).

مارغريت «ميسي» ليهاند – (١٨٩٨-١٩٤٤) السكرتيرة الخاصة لفرنكلين د. روزفلت ورفيقته المقربة لسنوات كثيرة.

توم ليتل – (١٩١١-١٩٧٥) رئيس وكالة أنباء العرب، مراسل للإيكونوميست والتايمز وضابط كبير في جهاز الاستخبارات السرية في القاهرة.

جون بروس لوكهارت – (١٩١٤-١٩٩٥) ضابط استخبارات، مربّ، ولاعب ركبي، خلف كيم فيلبي كضابط ارتباط في واشنطن حيث أصلح بنجاح معظم الضرر الذي ألحقه فيلبي «بالعلاقة الخاصة:» وأصبح لاحقاً مسؤولاً عن عمليات جهاز الاستخبارات السرية في الشرق الأوسط في أثناء أزمة السويس.

فرانسيس ب. لوميس – (١٨٦١-١٩٤٨) صحافي أميركي، ديبلوماسي، وموظف حكومي عمل مستشاراً للتجارة الخارجية مع شركة ستاندرد أويل.

جوزف مكارثي – (١٩٠٩-١٩٥٧) سياسي أميركي اشتهر طوال الخمسينيات بكونه محققاً مهووساً بالمشتبه بأنهم شيوعيون. وقد دمرت سيرته المهنية تماماً في النهاية بعدما وجه إليه مجلس الشيوخ توبيخاً رسمياً، ومات من جراء إدمانه الكحول عن ٤٨ عاماً.

فيتزروي ماكلين – (١٩١١-١٩٩٦) ضابط في الجهاز الجوي الخاص (أس.آ.أس)، ديبلوماسي، سياسي، مغامر، وكاتب ينفي حتى اليوم كل من عرفه جيداً قيامه بعمل خفي محتمل بوصفه عميلاً بريطانياً. ويجب عدم الخلط بينه وبين بيللي ماكلين.

هارولد ماكميلان – (١٨٩٤-١٩٨٦) رئيس وزراء بريطانيا (١٩٥٧-١٩٦٣) ساعدته

صداقته الحارة مع أيزنهاور على ترميم العلاقات الأنكلو-أميركية بعد أزمة السويس. و«سوبرماك»، كما كان يُعرف، هو حمو جوليان آمري.

تيرانس ماكسويني – (١٩٧٨-١٩٢٠) سياسي إيرلندي، كاتب، وعمدة كورك، مات من جراء إضرابه عن الطعام وهو يمضي حكماً بالسجن مدته سنتان في سجن بريكستون بتهمة التحريض على الفتنة، وأصبح بالتالي شهيداً للجيش الجمهوري الإيرلندي.

مكاريوس الثالث – (١٩١٣-١٩٧٧) مطران ورئيس أساقفة قبرص الأرثوذكس وهو الرئيس الأول والرابع لجمهورية قبرص.

عدنان المالكي – (١٩١٨-١٩٥٥) نائب رئيس أركان الجيش السوري قاد انقلاباً في سوريا في ١٩٥٤ واغتيل في السنة التالية.

فضل الله أبو منصور – ضابط صغير تورط في انقلاب الحناوي في سوريا.

ماو تسي تونغ – (١٨٩٣-١٩٧٦) القائد العسكري والسياسي لجمهورية الشعب الصينية منذ تأسيسها في ١٩٤٩ حتى مماته.

فيكتور مارشيتي – (١٩٣٠-) جندي أميركي التحق «بالسي.آي.إي.» في ١٩٥٥ وأصبح خبيراً في الشؤون السوفياتية وترقّى إلى مرتبة كبير محللي الشؤون السوفياتية ومساعداً لريتشارد هيملس قبل أن يستقيل في ١٩٦٩ ليصبح بعد ذاك واحداً من أشد منتقدي الوكالة وأكثرهم صراحة.

شارل مارتل – (٦٨٨-٧٤١) حاكم فرنجي وجنرال لامع، عُرف بـ«المطرقة»، ويمكن القول إن انتصاره في معركة تور في ٧٣٢ منع انتشار الإسلام شمالاً انطلاقاً من إسبانيا.

مولانا المودودي – (١٩٠٣-١٩٧٩) صحافي سني باكستاني ذو نفوذ، عالم دين، وفيلسوف سياسي.

نيل «بيلي» ماكلين – (١٩١٨-١٩٨٦) ضابط في الجيش البريطاني، ضابط استخبارات، وسياسي أصبح صديقاً شخصياً وسياسياً وثيقاً لجوليان آمري، زميله الضابط في جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في ألبانيا في زمن الحرب. اهتم أساساً بالشؤون الدولية؛ جاب العالم بعد الحرب في رحلات كثيرة بوصفه صانع قرار سياسي شبه رسمي أو غير رسمي، ومفاوضاً، وممثلاً للمصالح البريطانية. يجب عدم الخلط بينه وبين فيتزروي ماكلين.

هنري ماكماهون – (١٨٦٢-١٩٤٩) ديبلوماسي تولى منصب المفوض السامي في مصر من ١٩١٥ إلى ١٩١٧ وقد اشتهر أكثر ما يكون في ما عُرف بمراسلات ماكماهون-الحسين التي تتعلق بالوضع السياسي المستقبلي للأراضي العربية داخل الأمبراطورية العثمانية.

ستيفن ميد – عميل «للسي.آي.إي.» في سوريا.

محمد الثاني – (١٤٣٢-١٤٨١) سلطان الأمبراطورية العثمانية لفترة قصيرة من ١٤٤٤ إلى ١٤٤٦، ولاحقاً من ١٤٥١ إلى ١٤٨١.

محمد الخامس رشاد – (١٨٤٤-١٩١٨) السلطان الخامس والثلاثون للأمبراطورية العثمانية من ١٩٠٩ حتى وفاته قبل فترة وجيزة على سقوط الأمبراطورية العثمانية. لم يمتلك سلطة حقيقية، لكنه أعلن الجهاد ضد الحلفاء في ١٩١٤.

محمد السادس وحيد الدين – (١٨٦١-١٩٢٦) السلطان السادس والثلاثون والأخير للأمبراطورية العثمانية، ملك من ١٩١٨ حتى ١٩٢٢.

مناليك الثاني – (١٨٤٤-١٩١٣) أمبراطور الحبشة من ١٨٨٩ حتى وفاته.

يعقوف ميريدور – (١٩١٣-١٩٩٥) سياسي إسرائيلي ورئيس الإيرغون (١٩٤١-١٩٤٣).

غيرهارد مرتينز – ضابط سابق في القوات الجوية الخاصة الألمانية وخبير تخريب درّب فرق حرب العصابات التابعة للإخوان المسلمين في مصر وأصبح لاحقاً واحداً من أكبر تجار السلاح في العالم.

كليمنس فون مترنيخ – (١٧٧٣-١٨٥٩) ديبلوماسي نمسوي، سياسي، ورجل دولة. أصبح الأمير مترنيخ شخصية كبرى في حقبته وارتبط أساساً بمؤتمر فيينا (١٨١٤-١٨١٥) الذي ترأسه والذي أعاد فعلاً رسم الخريطة الأوروبية بعد هزيمة نابليون بونابارت.

فاسيلي ميتروخين – (١٩٢٢-٢٠٠٤) ضابط سابق في «الكا.جي.بي.» ومسؤول عن الأرشيف جلب إلى الغرب، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، كمّا كبيراً من المادة الأرشيفية السرية التي تغطي النشاطات السوفياتية الخفية وتعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية.

يوري مودين – ضابط مشغّل في «الكا.جي.بي.» تحكّم من ١٩٤٤ إلى ١٩٥٥ في «متخرجي كامبريدج الخمسة"، ومن بينهم كيم فيلبي.

برنارد «مونتي» مونتيغومري – (١٨٨٧-١٩٧٦) ضابط في الجيش البريطاني، جنرال أنكلو-إيرلندي لامع ولكن وقح قضى بقوة على حظوظ الألمان في معركة العلمين في ١٩٤٢ وطرد قوات المحور من شمال افريقيا.

محمد مصدّق – (١٨٨٢-١٩٦٧) رجل دولة إيراني ورئيس للوزراء أطيح به بالقوة من موقعه في انقلاب دعمته «السي.آي.إي.» في ١٩٥٣.

اللورد موين – أنظر والتر غينيس.

أوسكار مونزل – جنرال سابق في فيلق الدبابات الإفريقي عمل نائباً لفيلهلم فارمباخر في مصر ما بعد الحرب.

برويز مشرّف – (١٩٤٣-) جنرال باكستاني تولى رئاسة الأركان في ١٩٩٨-٢٠٠٧ وأصبح عاشر رئيس للبلاد من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٨.

نابليون بونابرت – (١٧٦٩-١٨٢١) ضابط مدفعية كورسيكي في الثورة الفرنسية وترقى ليصبح واحداً من أعظم القادة العسكريين في التاريخ حاكماً معظم أوروبا وواضعاً القانون النابليوني الذي وضع أسس الدولة الفرنسية الحديثة. ومن سخرية الأمور ما يُقال أنه تحدّث الفرنسية بلهجة إيطالية ثقيلة ولم يتعلّم قط الإملاء الفرنسي.

نابليون الثالث – (١٨٠٨-١٨٧٣) نسيب نابض بالحياة لنابليون بونابارت، تعلّم في سويسرا وألمانيا. عاش لويس-نابليون، كما كان يُعرف، حتى أواسط عمره حياة الفاسق الطليق والمغامر السياسي العازب وقد أقام في عدة أماكن (بما في ذلك الولايات المتحدة وبريطانيا) إلى أن انتخب رئيساً لفرنسا في ١٩٤٨ ليصبح أمبراطوراً بعد ذلك بأربع سنوات. مني بهزيمة مذلة في الحرب الفرنسية-البروسية في ١٨٧٠ ونفي بعدها إلى بريطانيا حيث مات في ظروف قاسية جداً.

نصرالله خان – أمير بخارى من ١٨٢٦ إلى ١٨٦٠، اشتهر بإعدامه الوحشي في ١٨٤٢ للمبعوثين البريطانيين تشارلز ستودارت وأرثور كونوللي.

جمال عبد الناصر – (١٩١٨-١٩٧٠) الرئيس الثاني لمصر (١٩٥٦-١٩٧٠)، قاد انقلاب الضباط الأحرار في ١٩٥٢ الذي أطاح الملك فاروق وأدى إلى حقبة من التأميم والتصنيع والقومية العربية واعتماد سياسة حافة الهاوية في الحرب الباردة.

محمد نجيب – (١٩٠١-١٩٨٤) ضابط في الجيش المصري وقائد الضباط الأحرار، أصبح أول رئيس لمصر (١٩٥٣-١٩٥٤) لدى إنشاء الجمهورية بعد ثورة ١٩٥٢ التي خلعت

الملك فاروق الأول. وفي مآل الأمر أجبر عبد الناصر نجيب على الاستقالة ووضعه في الإقامة الجبرية طوال ١٨ سنة.

نيرون – (٣٧-٦٨) اسمه لوسيوس، حكم الأمبراطورية الرومانية من سنة ٥٤م. حتى انتحاره كي لا يواجه الإعدام على يد انقلاب عسكري. وبالرغم من وجود دليل واضح على اضطهاده المسيحيين وإعدامه والدته أغريبينا، فإن بعض المؤرخين المعاصرين يعتبرون أن هناك مبالغة في تصويره بالوحشي وبالمستبد المجنون.

وليام نيكولسون – (١٨٤٥-١٩١٨) ضابط في الجيش البريطاني، عمل لفترة ضابطاً في الاستخبارات وأصبح في ١٩٠١ المدير العام للتعبئة والاستخبارات العسكرية، قبل أن يُعين رئيساً للأركان الأمبريالية العامة (١٩٠٨) ويُرقى إلى رتبة مشير (١٩١١).

أرثور نيكولسون – (١٨٤٩-١٩٢٨) ديبلوماسي وسياسي شملت مناصبه في الخارج أماكن مثل طهران والقسطنطينية وطنجة. والد الديبلوماسي هارولد نيكولسون.

بول هـ. نيتزه – (١٩٠٧-٢٠٠٤) مسؤول كبير في واشنطن ساهم، في خلال ولاية عدة رؤساء، في صوغ سياسة الدفاع الأميركية في الحرب الباردة.

أنتوني ناتينغ – (١٩٢٠-١٩٩٩) ديبلوماسي، سياسي، وكاتب استقال في ١٨٥٦ من حكومة إيدن بسبب سياسة بريطانيا المتعلقة بالسويس واضعاً بالتالي حداً لحياته السياسية.

إدوارد أوشاب – (١٩٠٦-١٩٨٩) رئيس الحزب الشيوعي البولندي.

موريس أولدفيلد – (١٩١٥-١٩٨١) ضابط مكافحة تجسس بريطاني على علاقة وثيقة بجايمس جيزاس أنغلتون وفي ١٩٧٣، أصبح في النهاية «سي» (رئيس جهاز الاستخبارات السرية البريطاني [أم.آي٦]).

عمر الكبير – (٥٨١-٦٤٤) ثاني الخلفاء السنة، وأحد الخفاء الراشدين الأربعة.

أميهاي باغلين – رئيس عمليات الإيرغون ساهم في التخطيط لتفجير فندق الملك داود في ١٩٤٦.

أنتوني بالمر – ضابط في جهاز تنفيذ العمليات الخاصة البريطاني قاد القوات الخاصة التابعة للهاغاناه في فلسطين في خلال الحرب العالمية الثانية.

رضى بارفاريش – ضابط في السافاك الإيراني.

دانيال بيرل – (١٩٦٣-٢٠٠٢) صحافي أميركي يهودي اختطفه إرهابيو القاعدة في باكستان وعذّبوه وقطعوا رأسه.

روبيرت بيل – ترأس لجنة بيل في ١٩٣٦-١٩٣٧ التي عُرفت رسمياً باسم اللجنة الملكية لفلسطين وقد شُكّلت للتحقيق في أسباب الاضطرابات بين الفلسطينيين العرب واليهود ولاقتراح تغييرات في الانتداب على فلسطين عقب نشوب الثورة العربية في ١٩٣٦-١٩٣٩.

شيمون بيريز – (١٩٢٣-) سياسي يساري إسرائيلي وُلد في بولندا وضابط كبير سابق في الهاغاناه عمل وزيراً في الحكومة، ورئيساً للحكومة، ورئيساً (مع بعض الانقطاعات) لما ينيف على أربعين عاماً.

دورا فيلبي – زوجة هاري سانت جون فيلبي الذي سمّى نوعاً من البوم على اسمها.

هـ. أ. ر. «كيم» فيلبي – (١٩١٢-١٩٨٨) ضابط استخبارات بريطاني وجاسوس مزروع لـ «أن.كا.في.دي./كا.جي.بي.“، وهو الرجل الثالث بين متخرجي كامبريدج الخمسة (ماكلين، بورغيس، فيلبي، بلانت، وكيرنكروس). ابن هاري سانت جون فيلبي.

هاري سانت جون فيلبي – (١٨٨٥-١٩٦٠) مستعرب، مستكشف، وعميل لمكتب الاستخبارات الاستعماري البريطاني اشتهر بكونه كاتباً عالمياً ومستكشفاً عمل مستشاراً لعبد العزيز بن سعود ولعب دوراً مهيمناً في المفاوضات النفطية السعودية مع الأميركيين التي جلبت في النهاية الثروة على المملكة... وفيلبي. تحوّل في ١٩٣٠ إلى الإسلام وأصبح يُعرف باسم الشيخ عبدالله. والد جاسوس «الكا.جي.بي.» المزروع السيّىء الصيت كيم فيلبي.

فيليب درو – (١١٥٦-١٢١٧) أسقف بوفيه المحارب؛ ابن فيليب أوغستوس ونسيب كونراد دي مونتفيرات؛ عدو العمر لريكاردوس قلب الأسد، ومشارك فرنسي بارز في الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢).

فيليب أوغستوس – (١١٦٥-١٢٢٣)، ويعرف أيضاً بفيليب الثاني الفرنسي؛ شارك في قيادة الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢) مع ريكاردوس قلب الأسد والعجوز فريدريك (فريدريتش الأول) باربروسا.

فرانسوا جورج بيكو – (١٨٧٠-١٩٥١) شارك في ١٩١٦ في التوقيع على اتفاق سايكس-بيكو مع السير مايك سايكس الذي نص على ضم الأراضي العربية العثمانية وإلحاقها بالأمبراطوريتين البريطانية والفرنسية.

جون بولوك – رئيس جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في القاهرة.

عبد الكريم قاسم – (١٩١٤-١٩٦٣) ضابط وطني في الجيش العراقي استولى على السلطة في ١٩٥٨ وحكم بوصفه رئيساً للوزراء إلى حين اغتياله.

محمد قطب – مؤلف مسلم وباحث ومدرّس مقيم في مكة واشتهر أكثر بوصفه شقيق المفكر الإسلامي المصري سيّد قطب وكمؤيد ومسوّق لأفكار شقيقه بعدما أعدمته حكومة عبد الناصر.

سيّد قطب – (١٩٠٦-١٩٦٦) مؤلف مصري، إسلامي، ومفكّر بارز في الاخوان المسلمين في الخمسينيات والستينيات. الشقيق الأكبر لمحمد قطب.

برهان الدين رباني – عالم إسلامي أفغاني وقائد للمجاهدين (الرئيس السابق للتحالف الأفغاني الشمالي)، ويرأس الآن حزب الجماعة الإسلامية.

منير روفا – (١٩٣٤-١٩٩٨) طيار في سلاح الجو العراقي هرب في ١٩٦٦ بطائرته الميغ-٢١ إلى إسرائيل.

أختر عبد الرحمن – (١٩٢٨-١٩٨٨) المدير العام القوي لجهاز الاستخبارات المشتركة في باكستان الذي أنشأ المكتب الأفغاني في الجهاز. وعبد الرحمن بشتوني من بيشاور عند الحدود مع أفغانستان وهو أيضاً صديق مقرّب من مدير «السي.آي.إي.» وليام كايسي.

سعيد رمضان – صهر حسن البنا المؤثّر وقد غادر مصر ليقيم في السعودية وسويسرا حيث أسس مركزاً فكرياً في جنيف باسم المركز الإسلامي. توفي في ١٩٩٥.

راشد الدين سنان – (؟-١١٩٤) أحد قادة الجناح السوري لطائفة الحشاشين، ويُعرف باسم «شيخ الجبل»؛ خطط عملية اغتيال كونراد دي مونتفيرات ربما بتوصية من صلاح الدين أو من ريكاردوس قلب الأسد.

ديفيد رازئيل – (١٩١٠-١٩٤١) رئيس الإيرغون (١٩٣٨-١٩٤١) وواحد من أوائل أعضائها.

الكسندر رينولدز – بريطاني أقام سابقاً في مصر وحاكمه عبد الناصر في ١٩٥٧ غيابياً بتهمة التجسس إلى جانب جورج روز، جون ستانلي، وجورج سويت.

ريكاردوس قلب الأسد – (١١٥٧-١١٩٩) ويعرف أيضاً باسم ريتشارد الأول الإنكليزي؛

أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢) تولى عملياً القيادة لوحده بعد رحيل فيليب أوغستوس، وحقق عدة انتصارات على صلاح الدين. وهو فرنسي في الأساس، والابن الثالث لهنري الثاني ملك انكلترا والنورماندي وأنجو وإليونيور الأكيتانية، وقد سبق أن شن الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩) التي انتهت إلى كارثة، ولم يمض إلا ستة أشهر من كامل فترة حكمه في انكلترا ومع ذلك تمتع بشعبية هائلة فيها.

إرنست ت. ريتشموند – معاد متطرف للسامية، والعضو المؤيد للمفتي في سكريتارية المفوض السامي البريطاني في فلسطين، سرت شائعات بأنه أقام علاقة مثلية مع رونالد ستورز، كما وُصف أحياناً بأنه «عرّاب الإرهاب الفلسطيني.»

يعقوف ريفتين – (١٩٠٧-١٩٧٨) عضو ماركسي في الكنيست الإسرائيلي أمرّ معلومات إلى الاتحاد السوفياتي.

فريديريك سلاي روبرتس – (١٨٣٢-١٩١٤) جنرال أنكلو-إيرلندي متميز فاز بوسام صليب فيكتوريا وهو مأمور شاب في خلال التمرد الهندي في ١٨٥٧ وارتقى لاحقا ليقود جيش الهند.

جون د. روكفللر – (١٨٣٩-١٩٣٧) صناعي أميركي وفاعل خير؛ أسس «ستاندرد أويل» في ١٨٧٠.

إروين رومل – (١٨٩١-١٩٤٤) ضابط في الجيش الألماني ويعرف أيضاً بـ«ثعلب الصحراء.» قاد الفيلق الإفريقي الألماني في الصحراء الغربية وفيما بعده القوات الألمانية في فرنسا المحتلّة. أُجبر على الانتحار بعد محاولة التفجير التي استهدفت قتل هتلر في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٤٤.

أرتشي روزفلت – ابن عم كرميت روزفلت.

كورنيليوس روزفلت – ابن عم كرميت روزفلت.

فرانكلين د. روزفلت – (١٨٨٢-١٩٤٥) الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٣٣-١٩٤٥).

كرميت روزفلت – (١٩١٦-٢٠٠٠) ضابط استخبارات سياسية في «السي.آي.إي.» ومتخصص في شؤون الشرق الأوسط؛ اشتهر أكثر ما يكون بدوره الرائد في قلب مصدّق في إيران (١٩٥٣). حفيد ثيودور روزفلت.

سلوى روزفلت – زوجة أرتشي روزفلت اللبنانية الأصل.

ثيودور روزفلت – (١٨٥٨-١٩١٩) الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة (١٩٠١-١٩٠٩). جدّ كرميت روزفلت.

جورج روز – بريطاني أقام سابقاً في مصر وحاكمه عبد الناصر غيابياً في ١٩٥٧ بتهمة التجسس إلى جانب كل من ألكسندر رينولدز وجون ستانلي وجورج سويت.

هاري روستزكي – رئيس عمليات «السي.آي.إي.» السرية داخل الاتحاد السوفياتي.

فورستر سادلر – ضابط في الجيش البريطاني أصبح في القرن التاسع عشر أول مستكشف يعبر وسط شبه الجزيرة العربية.

نوري السعيد – (١٨٨٨-١٩٥٨) سياسي عراقي تولى سبع مرات رئاسة الحكومة. حاول الفرار من البلاد بعد الثورة الجمهورية متنكراً كامرأة لكنه اعتقل وقتل.

صلاح الدين – (١١٣٨-١١٩٣) سلطان مصر وسوريا الكردي المسلم الذي واجه الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢).

اللورد ساليسبوري – أنظر روبرت غاسكوني سيسيل.

هربرت صموئيل – (١٨٧٠-١٩٦٣) ديبلوماسي بريطاني، سياسي، صهيوني، المفوض السامي على فلسطين (١٩٢٠-١٩٢٥).

إيليتش راميريز سانشيز – أنظر كارلوس ابن آوى.

أز و. سانسوم – ضابط في الاستخبارات العسكرية البريطانية ورئيس الأمن الميداني في القاهرة في خلال الحرب العالمية الثانية.

عبد الحميد السرّاج – (١٩٢٥-) ضابط في الجيش السوري موال لعبد الناصر، سياسي، ورئيس الاستخبارات العسكرية.

سعود بن عبد العزيز – (١٩٠٢-١٩٦٩) أكبر أبناء عبد العزيز بن سعود الأحياء، حكم السعودية من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٤.

هيالمار شاخت – (١٨٧٧-١٩٧٠) مصرفي واقتصادي أرستقراطي ألماني؛ تولى لفترة وجيزة منصب وزير نازي ورئاسة بنك الرايخ بالرغم من أنه لم ينضم قط إلى الحزب النازي. ارتبط في خلال الحرب وبعدها ارتباطاً وثيقاً بصهره زوج ابنته أوتو سكورزيني.

باتريك سيل – صحافي بريطاني مثير أحياناً للجدل، مؤلف وخبير في شؤون الشرق الأوسط.

سليم الأول – (١٤٦٥-١٥٢٠) عُرف أيضاً بـ«القاطع» أو «الشجاع،» سلطان الأمبراطورية العثمانية من ١٥١٢ إلى ١٥٢٠.

ميمي دي شاليط – ضابط الارتباط الإسرائيلي «بالسي.آي.إي.» مقيم في واشنطن وصديق جايمس جيزاس أنغلتون.

روفن شيلواه – (١٩٠٩-١٩٥٩) صديق بن غوريون الوثيق والعقل المدبّر لمجتمع الاستخبارات الاسرائيلي، وأول مدير للموساد (١٩٤٩-١٩٥٢). وُلد زاسلانسكي واختصره لاحقاً إلى زاسلاني قبل أن يبدله إلى اسمه الحركي شيلواه.

زئيف شيند – قائد كبير في الموساد.

أديب الشيشكلي – (١٩٠٩-١٩٦٤) قائد عسكري سوري ورئيس للبلاد من ١٩٥٣ حتى ١٩٥٤، اغتيل في منفاه البرازيلي.

صلاح الشيشكلي – مشارك في التآمر وشقيق الديكتاتور أديب الشيشكلي.

بريتام سينغ – (-١٩٤٢) منفي هندي وطني بارز مناوئ للبريطانيين قاد الجالية الهندية في أندونيسيا وشارك في كل من الكفاح الهندي والأندونيسي من أجل الاستقلال. قتل في حادث جوي.

موهان سينغ – (١٩٠٩-١٩٨٩) مناوئ للبريطانيين. أسس وقاد، بمساعدة وتشجيع من المحور، الجيش الوطني الهندي الأول المشكل أساساً من متطوعين من السيخ اعتقلهم اليابانيون في مالايا. عمل لاحقاً مع محبّذ النازية ورفيقه الوطني سوباس شاندرا بوز لإنشاء الجيش الوطني الهندي الذي حارب بضراوة ضد قوات الحلفاء في بورما في ١٩٤٤-١٩٤٥.

والتر بيدل سميث – (١٨٩٥-١٩٦١) جنرال أميركي وديبلوماسي/ عمل «بيتل» سميث بالتعاقب رئيساً لفريق أيزنهاور وسفيراً في الاتحاد السوفياتي ومديراً «للسي. آي.إي.».

موشي سنيه – (١٩٠٩-١٩٧٢) طبيب اسرائيلي مولود في بولندا وسياسي ماركسي مرّ معلومات إلى الاتحاد السوفياتي.

أنتوني سيموندز – رئيس «أم.آي٩» في جنوب أوروبا عمل مع أورد وينغايت.

جيرجي كاستريوتي سكندربرغ – (١٤٩٥-١٤٦٦) «تنين ألبانيا»، وهو بطل قومي ألباني اطلق اسمه على إحدى شعب «الوافن-أس.أس.».

أوتو سكورزيني – (١٩٠٨-١٩٧٥) مهندس من فيينا وقائد للقوات الخاصة التابعة «للوافن-أس.أس.» في الحرب العالمية الثانية؛ أصبح لاحقاً تاجر أسلحة عالمياً ومسهّلاً لأمور مجرمي الحرب الفارين. تزوّج ابنة هيالمار شاخت.

سانت سوفورنيوس – (٥٦٠-٦٣٨) بطريرك القدس الأرثوذكسي.

جوزف ستالين – (١٨٧٨-١٩٥٣) زعيم الحزب الشيوعي وديكتاتور الاتحاد السوفياتي من ١٩٢٢ حتى وفاته. وهو اثني جورجي عُرف بقيادته الشجاعة والحازمة لروسيا في الحرب العالمية الثانية، كما عُرف أيضاً على نطاق واسع بعدم توقّع تصرفاته وبوحشيته الباردة.

جون ستانلي ـ ممثل شركة بوردنشال للتأمين في القاهرة، حاكمه عبد الناصر غيابياً في ١٩٥٧ بتهمة التجسس إلى جانب ألكسندر رينولدز، جورج روز، وجورج سويت.

أبراهام شتيرن – (١٩٠٧-١٩٤٢) مؤسس عصابة شتيرن وقائدها، وقد أسسها حين اتحد الإيرغون، وكان عضواً فيها، مع الهاغاناه لمحاربة النازيين، وهي خطوة لم يمكنه تحمّلها.

تشارلز ستودارت – (١٨٠٦-١٨٤٢) ضابط في الجيش البريطاني، ديبلوماسي، وعميل في آسيا الوسطى في خلال اللعبة الكبرى، وقد اعتقله نصرالله خان وأعدمه على غرار أرثور كونوللي.

روكي ستون – رئيس محطة «السي.آي.إي.» في دمشق، نُدد به في العلن بوصفه جاسوساً.

رونالد ستورز – (١٨٨١-١٩٥٥) ضابط في الجيش البريطاني ومسؤول في وزارة الخارجية والمستعمرات تولّى عدة مناصب مهمة بما فيها حاكم القدس. وصفه لورنس بأنه «ألمع إنكليزي في الشرق الأدنى.»

سليمان الأول – عُرف أيضاً باسم «سليمان العظيم»؛ السلطان العاشر والأطول حكماً للأمبراطورية العثمانية (١٥٢٠-١٥٦٦). وقد أوقفت جيوشه عند حصار فيينا الأمر الذي منع الأتراك من احتلال شمال أوروبا.

جورج سويت – بريطاني أقام سابقا في مصر حاكمه عبد الناصر غيابيا في ١٩٥٧ بتهمة التجسس إلى جانب ألكسندر رينولدز وجورج روز وجون ستانلي.

جايمس سوينبورن – المدير التجاري لوكالة الأنباء العربية التي كانت عملية خفية لجهاز الاستخبارات السرية، دانه عبد الناصر بالتجسس وسجنه في ١٩٥٧ إلى جانب جايمس زارب.

مارك سايكس – (١٨٧٩-١٩١٩) ضابط استخبارات عسكرية بريطاني، رحّالة، ومستشار سياسي، سيبقى اسمه مرتبطاً إلى الأبد باتفاق سايكس-بيكو في ١٩١٦ الذي تشارك في توقيعه مع الديبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو، وهو الاتفاق الذي تقاسمت فيه بريطانيا وفرنسا وروسيا دوائر المصالح في الأمبراطورية العثمانية.

بهارات تامور – الإرهابي الناجي الوحيد من المجموعة التي هاجمت مومباي في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨.

توفيق باشا – (١٨٥٢-١٨٩٢) ابن اسماعيل باشا؛ خديوي مصر والسودان منذ ١٨٧٩.

جورج تينيت (١٩٥٣-) مدير «السي.آي.إي.» على مدى سبع سنوات (١٩٩٧-٢٠٠٤) لا يزال دوره غير واضح في الجدال المتعلق بأسلحة الدمار الشامل وفي التحضير للاجتياح الأميركي للعراق في ٢٠٠٣.

اللورد تيرينغتون – أنظر سي. م. «مونتي» وودهاوس.

لويل توماس – (١٨٩٢-١٩٨١) كاتب أميركي، إذاعي، ورحّالة اشتهر أكثر ما يكون بأنه الرجل الذي شهر لورنس بوصفه «لورنس العرب.»

جوزف «سيب» تيفنباخر – ضابط في «الأس.أس.» كان رئيس أمن هملر الخاص وعمل مساعداً شخصياً لفيلهلم فوس في مصر.

جوزف بروز تيتو – (١٨٩٢-١٩٨٠) الحاكم الماركسي ليوغوسلافيا الفديرالية (١٩٤٣-١٩٨٠). قاد في الأساس مناصري الشيوعية في الحرب العالمية الثانية، وقاوم من بعدها ستالين، وحافظ على عدم انحياز يوغوسلافيا، وأحكم السيطرة على التوترات الإثنية.

تشارلز تاونشند – (١٨٦١-١٩٢٤) ضابط في الجيش البريطاني قاد وخسر الفوج الهندي السادس في الحملة البريطانية الكارثية الأولى على بغداد في الحرب العالمية الأولى

التي بلغت ذروتها بحصار الكوت. ومات بعد عودته إلى انكلترا بالفقر والعار.

هاري ترومان – (١٨٨٤-١٩٧٢) الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٤٥-١٩٥٣)

إليعازر تسفرير – رئيس محطة الموساد في إيران.

مارك تواين – الاسم المستعار لصموئيل لانغهورن كليمنس (١٨٣٥-١٩١٠) المؤلف الأميركي الشهير والساخر.

يعقوف تسور – سفير إيران في فرنسا تفاوض في ١٩٥٧ مع الجنرال الإيراني بختيار.

أوربانوس الثاني – (١٠٤٢-١٠٩٩) المولود أوتو دي لاجيري، محظي غريغوري السابع، وهو الذي باشر بالحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩) لانتزاع المدينة المقدسة من المحتلين السلاجقة الأتراك. مات بعد يومين على سقوط القدس ولكن قبل أن يبلغه الخبر.

منوشهر وجدي – ضابط في السافاك الإيراني.

فيكتوريا – (١٨١٩-١٩٠١) حكمت الأمبراطورية البريطانية على مدى ٦٣ عاماً بوصفها ملكة دستورية وأصبحت أهم شخصية ترمز إلى زمانها.

فيلهلم فوس – لواء في «الأس.أس.»، اقتصادي، ومقرّب جداً من هملر وهيدريتش؛ الزعيم الإداري للجالية النازية في مصر فاروق وعبد الناصر (١٩٥١-١٩٥٦).

أرشيبالد وافل – (١٨٨٣-١٩٥٠) ضابط في الجيش البريطاني، قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط (١٩٣٩-١٩٤١).

إروين فاينمان – ضابط في «الأس.أس.» وطبيب غير ممارس؛ الرئيس المباشر ليواكيم دوملينغ في مقر «الأس.أس.» في برلين. افتُرض أنه قُتل في الميدان في ١٩٤٥ على مقربة من براغ، لكنه فرّ في الواقع إلى مصر وأصبح مستشاراً للشرطة في الإسكندرية حيث أقام في شكل دائم.

حاييم وايزمان – (١٨٧٤-١٩٥٢) زعيم صهيوني وأول رئيس لإسرائيل من ١٩٤٩.

سامنر ولز – (١٨٩٢-١٩٦١) ديبلوماسي محترف ومسؤول أساسي في إدارة روزفلت. أجبر على الخروج من الحياة العامة بعد فضيحة جنسية. يقال إنه لعب دوراً أساسياً في التخطيط لإنشاء الأمم المتحدة.

القيصر فيلهلم الثاني – (١٨٥٩-١٩٤١) حفيد الملكة فيكتوريا وآخر أمبراطور ألماني وملك على بروسيا، حكم من ١٨٨٨ حتى تنازله عن العرش في ١٩١٨ حيث نُفي إلى دورن في هولندا. لم يتخل قط عن ألقابه وأمل دوماً في العودة إلى ألمانيا.

وليم الصوري – (١١٣٠-١١٨٥) أسقف صور ومؤرخ أحداث الحملات الصليبية وتاريخ العصور الوسطى.

أرنولد ويلسون – (١٨٨٤-١٩٤٠) ضابط في جيش الهند، خدم في بلاد فارس؛ وعُرف في العلن بوصفه حاكماً إدرايأ استعمارياً على بلاد ما بين النهرين في خلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها وانضم بعد ذلك إلى إدارة الشركة الأنكلو-فارسية للنفط. قتل في أثناء المهمة فوق دانكرك وكان يعمل على رشاش طائرة تابعة لسلاح الجو البريطاني.

وودرو ويلسون – (١٨٥٦-١٩٢٤) الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة (١٩١٣-١٩٢١).

ريجينالد وينغايت – (١٨٦١-١٩٥٣) جنرال بريطاني وحاكم إداري استعماري، يميني، مناهض للصهيونية، موال للعرب وشقيق أورد وينغايت.

أورد وينغايت – (١٩٠٣-١٩٤٤) بريطاني لامع ولكن غريب الأطوار مؤيد للصهيونية وقائد الفرقة الليلية الخاصة الإسرائيلية. ميّز نفسه أيضاً كقائد للقوات الخاصة في شرق إفريقيا وبورما. شقيق صغير جداً للسير ريجينالد وينغايت. قتل في حادث طائرة وعمره ٤١ عاماً فقط.

فرانك ويسنر – (١٩٠٩-١٩٦٥) ضابط في البحرية الأميركية، محام، وضابط استخبارات؛ خدم في «الأو.أس.أس.» في خلال الحرب العالمية الثانية، أصبح في الخمسينيات مدير «السي.آي.إي.» للتخطيط (رئيس مكتب التنسيق السياسي)، انتحر بعد ثلاث سنوات على إجباره على التقاعد من «السي.آي.إي.».

بوللي ويسنر – زوجة فرانك ويسنر.

جوزف ولف – (١٧٩٥-١٨٦٢) مبشّر ألماني يهودي-مسيحي ومستشرق؛ سافر في ١٨٤٣ إلى بخارى بحثاً عن الضابطين البريطانيين تشارلز ستودارت وأرثور كونوللي، ونجا هو الآخر بأعجوبة من الموت على يد نصرالله خان.

غارنيت وولسلي – (١٨٣٣-١٩١٣) ضابط في الجيش البريطاني سُلّم قرابة نهاية سيرته

العسكرية قيادة القوات البريطانية في مصر وقادها لهزم أحمد عرابي في معركة التل الكبير في ١٨٨٢.

سي. م. «مونتي» وودهاوس – (١٩١٧-٢٠٠١) ضابط مدفعية بريطاني أرستقراطي، باحث لامع، ديبلوماسي، وسياسي خدم في جهاز تنفيذ العمليات الخاصة في اليونان في خلال الحرب العالمية الثانية. ورث في ١٩٩٨ لقب العائلة وأصبح اللورد تيرينغتون للسنوات الثلاث الأخيرة من حياته.

بيتر موريس رايت – (١٩١٦-١٩٩٥) عالم بريطاني وضابط في جهاز مكافحة التجسس (أم.آي٥) صادق جايمس جيزاس أنغلتون، وحاجّ بقوة أن المدير العام «لأم.آي٥» السير روجر هولليس جاسوس سوفياتي مزروع.

جورج كنيدي «ج.ك.» يونغ – (١٩١١-١٩٩٠) صحافي بريطاني، ديبلوماسي، ومصرفي درس في جامعات خارجية مختلفة، خدم في الاستخبارات السرية البريطانية (أم.آي٦) في الحرب العالمية الثانية، وأصبح في النهاية نائباً لمديرها العام في ١٩٥٩. انخرط يونغ في السياسة اليمينية المتطرفة في بريطانيا.

حسني الزعيم – (١٨٩٧-١٩٤٩) القائد الأعلى للجيش السوري أصبح رئيساً عسكرياً للبلاد بعد انقلاب أبيض في ١٩٤٩. لم يستمر حكمه المعتدل سوى بضعة أشهر قلبه بعدها أديب الشيشكلي وسامي الحناوي، وأُعدم.

جايمس زارب – مالطي، يملك مصنعاً للخزف، دانه عبد الناصر بالتجسس وسجنه إلى جانب جايمس سوينبورن في ١٩٥٧.

محمد ضيا بك – رائد في الجيش العثماني قاد القوات التركية في مكة في خلال الهجوم الذي شنه رجال القبائل البدو في ١٩١٦.

محمد ضياء الحق – (١٩٢٤-١٩٨٨) ضابط في الجيش الباكستاني، رئيس وحاكم باكستان العسكري (١٩٧٧-١٩٨٨)؛ قتل في حادث تحطم طائرة غامض إلى جانب السفير الأميركي وعدة جنرالات.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مجموعـات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة
- قِطاف من التجارب

مجموعة د. وليد رضوان

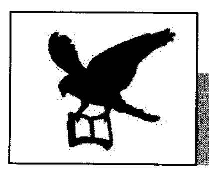
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

مجموعة جوزيف أبو خليل

- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر



مجموعة كريم بقرادوني

□ لعنة وطن

□ السلام المفقود

□ صدمة وصمود

مجموعة شكري نصرالله

□ مذكرات قبل أوانها

□ السنوات الطيبة

□ ستّ الستّات - علياء رياض الصلح



□ تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح - (جزآن) - عمر زين

□ مبادئ المعارضة اللبنانية - حسين الحسيني

□ رؤية للمستقبل - الرئيس أمين الجميل

□ الضوء الأصفر - عبدالله بو حبيب

□ الخلوي أشهر فضائح العصر - ألين حلاق

□ أصوات قلبت العالم - كيري كندي

□ الخيارات الصعبة - د. إيلي سالم

□ أسرار مكشوفة - اسرائيل شاحاك

□ الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية - تحرير برند هام

□ مزارع شبعا حقائق ووثائق - منيف الخطيب

□ الأشياء بأسمائها - العقيد عاكف حيدر

□ اللوبي - إدوار تيفنن

□ أرض لا تهدأ - د. معين حداد

□ الوجه الآخر لإسرائيل - سوزان نايثن

□ مساومات مع الشيطان - ستيفن غرين

□ بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط - ستيفن غرين

□ الأسد - باتريك سيل

□ الفرص الضائعة - أمين هويدي

□ طريق أوسلو - محمود عباس

□ الأمة العربية إلى أين؟ - د. محمد فاضل الجمالي

□ النفط - د. هاني حبيب

□ الصهيونية الشرق أوسطية - إنعام رعد

□ حربا بريطانيا والعراق - رغيد الصلح

□ نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار - الشيخ محمد علي الحاج العاملي

□ الحصاد - جون كوولي

□ عاصفة الصحراء - اريك لوران

□ حرب تحرير الكويت - د. حبيب الرحمن

□ حرب الخليج - بيار سالينجر وإريك لوران

□ المفكرة المخفية لحرب الخليج - بيار سالينجر وإريك لوران

□ الماسونية - دولة في الدولة - هنري كوستون

□ النفط والحرب والمدينة - د. فيصل حميد

□ رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم - د. عبد السلام المجالي

□ الدولة الديموقراطية - د. منذر الشاوي

□ التحدي الإسلامي في الجزائر - مايكل ويليس

□ السكرتير السابع والأخير - ميشيل هيلير

□ التشكيلات الناصرية في لبنان - شوكت اشتي

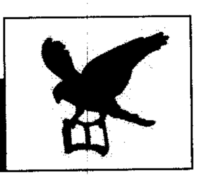
□ كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب - ستانلي ميسلر

□ عزيزي الرئيس بوش - سيندي شيهان

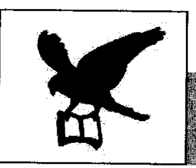
□ الولايات غير المتحدة اللبنانية - شادي خليل أبو عيسى

□ رؤساء الجمهورية اللبنانية - شادي خليل أبو عيسى

□ أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين - إسلام كريموف



- ◻ **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
- ◻ **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- ◻ **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- ◻ **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- ◻ **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- ◻ **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- ◻ **المال إن حكم** - هنري إده
- ◻ **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- ◻ **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- ◻ **على خط النار** - مذكرات الرئيس الباكستاني بروزي مشرف
- ◻ **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
- ◻ **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
- ◻ **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
- ◻ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- ◻ **إرث من الرماد** - تيم واينر
- ◻ **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
- ◻ **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- ◻ **حروب الأشباح** - ستيف كول
- ◻ **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- ◻ **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- ◻ **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- ◻ **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- ◻ **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- ◻ **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- ◻ **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- ◻ **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- ◻ **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- ◻ **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
- ◻ **. . .؟! أساس الملك** - غادة عيد
- ◻ **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
- ◻ **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- ◻ **السلام ممكن في الأراضي المقدسة** - جيمي كارتر
- ◻ **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- ◻ **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- ◻ **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
- ◻ **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- ◻ **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- ◻ **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- ◻ **هكذا. . وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
- ◻ **إرث من الرماد - تاريخ «السي. آي. أيه.»** - تيم واينر
- ◻ **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- ◻ **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
- ◻ **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
- ◻ **إنّه بن لادن** - بقلم جين ساسون
- ◻ **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
- ◻ **في سبيل أفريقيا** - دنيس ساسّو نِغويسّو
- ◻ **عبد الحميد كرامي - رجل لقضية** - نصري الصايغ
- ◻ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- ◻ **الطبقة الخارقة** - دايفيد ج. روثكوبف
- ◻ **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي



- **الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية** - علي وهب
- **الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
- **أوباما.. والسّلام المستحيل** - سمير التنّير
- **التحية الأخيرة للرئيس بوش** - منتظر الزيدي
- **حياة من أجل أفريقيا** - عبدالله واد
- **الأحزاب السياسية في العراق** - عبد الرزاق مطلك الفهد
- **عبر جدار النار** - موريال ميراك - فايسباخ
- **حقيقة ليكس** - إعداد مريم البسّام
- **وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - (الجزء الأول)** - إعداد مريم البسّام
- **وثائق ويكيليكس الكاملة - لبنان وإسرائيل - (الجزء الثاني)** - إعداد مريم البسّام
- **صيف من نار في لبنان** - الجنرال ألان بيلليغريني
- **غزّة في أزمة** - إيلان بابه ونعوم تشومسكي
- **صراع القوى الكبرى على سوريا** - جمال واكيم
- **قيود تتمزق** - شادي أبو عيسى
- **محو العراق** - مايكل أوترمان وريتشارد هيل
- **مهووسون في السلطة** - موريال ميراك - فايسباخ
- **مصر على شفير الهاوية** - طارق عثمان
- **وهم السلم الأهلي** - حسين يعقوب
- **حركات ثورية** - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- **آل أوباما** - بيتر فيرستبروك
- **مذكّرات البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- **امبراطورية الإرهاب** - اليهاندرو كاسترو اسبين
- **مذكرات طوني بلير** - طوني بلير
- **قصور من الرمل** - أندريه جيروليماتوس







الجية، طلعة زاروط،
مبنى **International Press**، لبنان
هاتف: ٣٠٠/ ٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: **Interpress@int-press.com**
الموقع الإلكتروني: **www.int-press.com**